

وزارة
الثقافة
والإرشاد
القومى

تاريخ بخارى

نص

تأليف

أرمينوس فامبرى

ترجمة

الدكتور أحمد محمود السادى

مراجعة وتقديم

الدكتور يحيى الحشاش

مطبعة مصر للناشر والتأليف والترجمة والطباعة والنشر



تقديم

مؤلف هذا الكتاب هو المستشرق المجري المعروف ارمينيوس فامبرى الذى عاش فى القرن التاسع عشر ، واشتهر بكتابته عن البلاد الشرقية عامة والتركية بوجه خاص ، والذى زار تركيا أكثر من مرة وزار بلاد التركستان وكتب عن هذه البلاد كتابة العالم الذى يرجع الى المصادر التى تتناول موضوعه ، وخاصة المخطوطات ، وفى الوقت نفسه يدرس دراسة عملية البلاد التى يتحدث عنها .

والكتاب الذى تقدمه اليوم الى المكتبة العربية يتناول تاريخ بخارى (تركستان) قبل الاسلام وحتى عام ١٨٧٠ . يجد فيه القارىء العصر السامانى بمدنيته العظيمة ثم العمود : السلجوقى ، والأويغورى ، والخوارزمشاهى . ويتحدث المؤلف بعد ذلك عن الغزو المغولى : الجنكيزيين ثم التيموريين . وينتقل الى الأوزبك ، والشيبانيين ، والاشترخانين والمنغيتيين . وبعد هذا يذكر خانات خيوة وخوقند وكاشغر وينهى حديثه بما كان من خضوع هذه المنطقة لأسرة رومانوف .

وأسلوب الكاتب علمى خالص ، فهو مؤرخ سياسى وحضارى يضع أمام القارىء صورة للحياة السياسية للعصر الذى يتحدث عنه كما تأخذ الأوضاع الاجتماعية والحضارية من جهده الكثير وهى أكثر مشقة فى البحث من السرد السياسى للتاريخ . وفامبرى فى كتابه يمتاز بسعة الاطلاع والصبر على التدقيق وتحصل مشاق الرحلة فى سبيل كشف ما يريد أن يصل اليه من اعطاء قارئه صورة كاملة لكل عصر تناوله . وحسبنا أن تتصور أن أكثر المراجع الشرقية التى رجع اليها كانت مخطوطة وقتذاك ولم يكن الاطلاع عليها والافادة منها ميسرتين هذا التيسير الذى نجده

في المطبوعات الحديثة من هذا التراث الشرقى ، عربيا كان أو تركيا أو فارسيا .

لقد ازدهرت الحضارة الاسلامية في التركستان ، وكانت بخارى مركزا من المراكز الرئيسية في هذه الحضارة واذا كنا نحن العرب نعرف مراكز الحضارة في بلادنا ، في بغداد والقاهرة والقيروان وفاس ، فان علينا أن نذكر بخارى التي كانت قبلة لعلماء هذه المراكز كلها والتي أُنعت فيها حضارة المسلمين فترة طويلة من الزمان امتدت حتى منتصف القرن التاسع عشر . والتذكير بالماضى الحضارى المجيد لهذه البلاد هو الذى خدا بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، لجنة الترجمة والتبادل الثقافى ، أن تشير باخراج هذا السفر النفيس الى اللغة العربية حفاظا على تاريخ حضارتنا العربية الاسلامية .

أما المترجم فهو الأستاذ الدكتور أحمد محمود الساداتى من أساتذة قسم الدراسات الشرقية بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وهو يمتاز بسعة الاطلاع والجلد على البحث والتدقيق العلمى الذى يكلف الكثير من المشقة والجهد . أكمل دراسته الثانوية بالقاهرة ثم سافر الى النمسا وألمانيا حيث أخذ يدرس بجامعة ميونيخ وفيينا وعاد الى القاهرة ليدرس من جديد فى كلية الآداب وليظفر آخر الأمر بأعلى الدرجات منها ثم يلتحق بهيئة التدريس فيها . وهو يجيد من اللغات الأوربية الألمانية والانجليزية والفرنسية ، ومن اللغات الشرقية الفارسية والتركية والأوردوية . وله ترجمات كثيرة سابقة على هذه الترجمة .

والحق انه لم يكن فى هذا الكتاب مترجما فحسب ، فهو عالم مدقق فاحص ملم بالموضوع الذى ينقله الى العربية الماما تاما يكان يكون قرينا لمؤلف الكتاب نفسه . وهو محب للتاريخ الاسلامى حبا أخذ عليه أكثر وقته فى محاضراته وكتبه ، ولعله أول من كتب تاريخ الهند بالعربية وأول من ألقى عندنا ضوء على تاريخ المغول والمسلمين فى هذه البلاد ،

ونحن فى كلية الآداب نعده الأستاذ المتخصص فى هذا القسم من تاريخ المسلمين ، لذلك لم يكن غريبا أن تزخر هذه الترجمة بالملاحظات والحواشى القيمة التى نجدها فيها . فهو قد أضاف الى الترجمة أكثر من مائة حاشية تناول فى بعضها شرح النقاط التاريخية التى تركها المؤلف دون توضيح ، وعرض فى بعضها الآخر آراء المؤرخين الثقات فيها ، وأثبت فى ذلك كله أسماء المراجع الأصلية التى رجع إليها . ثم انه حقق النصوص التاريخية التى أوردها المؤلف وذلك بالرجوع الى المصادر الأصلية التى أورد نصوصها العربية كما وردت فى الطبرى وابن الأثير وغيرهما . وحقق الأعلام وأسماء الأماكن راجعا الى المصادر الرئيسة فى ذلك عربية وفارسية وتركىة .

وأشهد أنى راجعت هذه الترجمة وأنا قرير العين بها فانى وجدتها مطابقة للنص خير التطابق ، جارية فى أسلوب عربى لا يشعر القارئ بنقل عن لغة أخرى ، انما كأنه هو صاحب الكتاب لا مترجم له ، وكان تزويده الترجمة بهذه الإضافات القيمة التى أضافها خير دليل على تعمقه الموضوع الذى ينقله الى العربية .

يحيى الخشاب

العميد السابق لكلية الآداب بجامعة القاهرة
ورئيس قسم اللغات الشرقية

مقدمة

ان معلوماتنا عن التاريخ الغابر لشعوب آسيا على اختلافها تزداد باطراد تقدم الأبحاث العلمية الخاصة بالأقاليم التى نغنيها فى نواحى الجغرافية والسلالات البشرية واللغة . فهذه هى الدولة العثمانية ، برغم اتصالها الوثيق الطويل بكل أجزاء أوربا ، فان المؤرخين لم يعنوا — لأول مرة — عناية جدية بالوقوف على أحوالها الا فى القرن الماضى ، وحتى فى ذلك الوقت كانت أخبارها عندهم سطحية طفيفة ، فلم يتأكد لديهم ما كتبه عنها پتى دولاكروا Petis de la Croix وكاتشير Cantemir حتى جاء من بعد ذلك هامر وتزنكايزن Hammer and Zinkeisen

فوثقوها بأبحاثهم . واستطاع ج. وایل G. Weil بدوره أن يخرج للناس عمله الضخم فى تاريخ بلاد العرب ومصر ، وهو لا يتعرض فيه الا للعصور الماضية . فى حين لبث خضم التاريخ الفارسى يفتقر الى مثل هذه الجهود ، حتى انبرى له آخر الأمر الأريب الجنرال مالكولم Malcolm وراح يتقصى الموضوعات التى تناولها من قبل تيفينوت Thevenot

وشردان Chardin ونيبور Nielluhr ويفسرها بعد أن جاب بنفسه بلاد فارس كلها مرات عديدة دارسا ومنقبا . ولا يزال الاقليم الواقع فيما وراء جيحون أرضا لا يعرف عنها التاريخ شيئا مذكورا بالقياس الى غيرها . ولقد بدا لنا أول هذا القرن بعض ومضات من ضوء من خلال تلك الظلمة التى تلف تلك المنطقة بأسرها . ومنذ أن هتك سيف الغزو ، حدا ما ، ذلك القناع الذى كان يحيط بتلك البقاع ، لنا أن نتصور بسهولة مدى تهافت المثقفين من الأوربيين على التعرف على الأحوال الحاضرة لهذه البلاد تعرفا صحيحا ، رغم أن مبلغ علمنا عنها وعن أهلها لا يزال غير أكيد . ولا بأس عندهم من أن يضاف الى ذلك بعض البيانات عن فجر

تاريخ تلك الأمة التى تقطن آسيا الوسطى ، تلك البلاد التى وثقت مجريات السياسة الحديثة من صلاتها بنا برغم موقعها الجغرافى القصى .
ولتحقيق هذه الرغبة ، أقدمت ، برغم قلة المصادر وضآلة الامكانيات ، على محاولة الاضطلاع بهذا العمل الذى لا يخلو من مشقة ، ألا وهو تدوين أول تاريخ لبخارى . وكنت أفكر فى الواقع منذ أول شبابى فى شئون هذه المنطقة البعيدة ، حتى لقد أمضيت كل شبابى فى التأهب والاعداد النشيط لهذا العمل ، فضلا عما قمت به من رحلات مضية فى سبيل ذلك . حتى اذا ما اكملت لى السنون بان لى أنه لم يكن يجدر بى أن أخاطر فأرج بنفسى فى عمل أدبى له مثل هذا الاعتبار البالغ . ويبدو أن القدر هو الذى هيا لى أن أقتحم مناطق لم يسبقنى إليها أحد من قبل ، تقريبا أو على الاطلاق . وها أنذا على الآن أن أستكشف بالقلم حقولا جديدة كل الجدة مكتفيا فى ذلك ، مع الاعتذار الشديد ، ببيان المراجع القليلة التى لا تجدى بدونها أية طريقة للدرس مهما عظمت .

ينقسم تاريخ بخارى الى قسمين : التاريخ القديم ، وهو تاريخ بلاد ما وراء النهر ، ثم التاريخ الحديث ، وهو تاريخ خانية بخارى . وبرغم أن الفترة التى تختم بنهاية حكم تيمور لم تكن فيها آسيا الوسطى موضع اهتمام المؤرخين المتخصصين أبدا ، فلا ينبغى مع هذا أن نهمل شأنها . ذلك أن تاريخ هذه الفترة يتصل اتصالا وثيقا بتاريخ داخل العالم الاسلامى عامة فضلا عن تاريخ المسلمين فى المغرب فى بعض الأحيان . ولئن كان مؤرخو تلك الحقبة لم يخصصوا مجريات الحوادث السياسية ببلاد ما وراء النهر بنفس العناية التى بذلوها لحوادث خراسان والعراق وبلاد العرب ، فاننا مع ذلك قد استطعنا أن نستخلص من عندهم أهم ملامح ذلك الماضى هناك . وعلى سبيل المثال ، تقع فى هذه الفترة العهود التى يصدر فيها السامانيون والأمير تيمور من بخارى وسمرقند المراسيم التى حكموا بها نصف آسيا الاسلامية (بل كلها فى بعض الأوقات) ، ولكننا لا نجد لتاريخ بلاد ما وراء النهر الخالص فى تلك الآونة قدرا كافيا من العناية . أما الفترة الثانية من تاريخ هذه البلاد ، وهى التى تبدأ بظهور الأوزبك ، فالمعلومات الخاصة بها قليلة جدا . ذلك أن خانية بخارى التى لم يكن لها

اذ ذاك خطورة سياسية تذكر ، كانت قد غدت فى عزلة عن جيرانها الذين لم يكونوا بدورهم يلتفتون فى الغالب الى ما كانت تمارسه بين ظهرانيهم من نشاط ضئيل حيناً بعد حين . وعلى أساس هاتين الفترتين تنقسم المصادر التاريخية الى قسمين منفصلين ، هما :

ا (مصادر قديمة مشهورة ، ومنها تلك التى قام بنشرها المستشرقون أو نقلوها الى لغاتهم ، أو التى اعتمدت عليها المخطوطات الأصلية فى تفصيل مسألة بعينها .

ب (مخطوطات جديدة أو غير معروفة جلبها الرحالة حديثاً من آسيا الوسطى ، فهى بذلك غير معروفة عند جمهرة المستشرقين .

أما الأولى ، فالمصادر الآتية هى مما أفدت منه ما استطعت فى تعرضها لتاريخ بلاد ما وراء النهر :

١ - تاريخ الطبرى ، الترجمة التركية التى نشرت حديثاً ، لاسيما فترة غزوات العرب عبر جيحون فيه . ذلك أنه برغم أهمية تاريخ النرشخى فى هذه الفترة الا أن حوليات هذا الكاتب المسلم فى تاريخه الجامع هذا لها بدورها أهميتها كذلك لاختلاف بعض رواياته من جهة ولانفراده بإيراد بعض التفصيلات من جهة أخرى .

٢ - تاريخ بيهقى (١) الذى نشره مورلى وناماو ضمن منشورات المكتبة الهندية بكلكتا عام ١٨٦٢ م .

Captain W. Nassau Iees, W.H. Morley "Bibliotheca Indica"

وأهمية هذا الكتاب بوصفه تاريخاً لبلاد ما وراء النهر ، هى فيما يفصله من سيرة محمود بن سبكتكين الأولى ، وما كان من أمر العلاقات السياسية بين السلطان مسعود الغزنوى ، وأمراء كاشغر وسمرقند المستقلين . وهذا الكتاب لا يحوى على كل حال الا أجزاء بعينها من تاريخ آل سبكتكين وهو من تأليف أبى الفضل البيهقى .

٣ - روضة الصفا لميرخوند ، وتكملة هذا الكتاب حتى العصور الحديثة نقلاً عن مؤلفات خوندامير وعلم آراى عباسى وتاريخ صفوى

(١) نقله الى العربية يحيى الخشاب وصادق نشأت - القاهرة ١٩٥٦

(المترجم)

وتاريخ نادرشاه وكتب أخرى نشرت جميعها مع الكتاب الأصلي في مجلدين في طبعة حجرية بطهران عام ١٢٧٤/١٨٥٧ . كذلك كان في متناول يدي أجزاء من كتاب ميرخوند نشرها فولرز وكاترمير Vullers and Quatremère . ولكنى لم أفد من ميرخوند بخاصة الا من الفصل الخاص بالسلاجقة عنده . ذلك أنه فيما عدا هذا الفصل ، فكل ما ورد عنده قد نقله عن مراجع أخرى معروفة (١) ، وآثرت في ذلك أن أرجع الى المصادر الأصلية نفسها .

٤ - تاريخ جهانكشا لعلاء الدين عطاملك الجوينى . والمعروف أن هذا الكتاب هو المرجع الأول الذى اعتمد عليه رشيد الدين ووصاف وحافظ آبرو وغيرهم من مؤرخى المغول . وبرغم ما أورده رشيد الدين ووصاف من التفصيلات التى لا نجدها عنده ، فإن هذا الكتاب لا يزال يعد مرجعا هاما فى تاريخ بلاد ما وراء النهر وتاريخ الترك عموما . وقد أفدت من نسخة هذا الكتاب الموجودة فى المكتبة الامبراطورية بمدينة خيڤا (٢) وهى التى أفاد منها كذلك هامر فى كتابه «تاريخ القبيلة الذهبية» Hammer "History of the Golden Horde"

٥ - ظفر نامه لشرف الدين على يزدى . وهو سيرة تيمور المشهورة . وقد نقله الى الفرنسية (تقلا غير دقيق) پتى دولا كروا وPetis de La Croix ونشره بباريس عام ١٧٢٢ . وقد اطلعت فى خيوه كذلك على نسخة بالجعثائية لهذا الكتاب .

٦ - مطلع السعدين (السعدان هما عند البعض جنكيز وتيمور وعند غيرهم تيمور وشاهرخ) للشيخ كمال الدين عبد الرازق الذى عاش

(١) أمعن ميرخوند فى النقل عن غيره حتى لتراه ينقل من عبارات بأكملها حرفا بحرف . فتاريخه عن جنكيز وحروبه هو على سبيل المثال ، صورة طبق الأصل لماورد عند الجوينى بعد أن حذف منها بكل بساطة قدرا من عبارات المديح والاطناب التى وردت فى الأصل .
(٢) نشر هذا الكتاب فى مجموعة جب التذكارية بليدن ١٩١١ - ١٩٣٧ فى ثلاثة مجلدات .

بهرأة وسمرقند ابان فترة ازدهار الحكم التيمورى . ويعد هذا الكتاب من أمتع الكتب العلمية التى كتبت عن فترة بعينها فى تاريخ الشعوب الاسلامية بآسيا . والمجلد الثانى منه ، وهو الذى يتناول الفترة ما بين وفاة تيمور و وفاة أبى سعيد ميرزا ، له أهميته البالغة . ففيه يعرض علينا المؤلف ، باضطلاع الأديب المتمكن وفى تفصيل كامل ، صورة مثيرة لحياة وأعمال خليفة تيمور هذا الذى عرف بشغفه بالعلوم والفنون . وقد ولد عبد الرازق ، مؤلف هذا الكتاب، بهرأة عام ١١٦٠/١٤٢٣ وتوفى بسمرقند عام ١١٨٧/١٤٨٢ .

٧ - ببرنامج - وذلك عن النص الأصيل المشهور الذى نشره المنسكى (١) . وقد أطلعت بعد ذلك على ترجمة فرنسية ممتازة لهذا الكتاب نشرها بآفيه دولاكورتى Pavet de la Courteille فى العام الماضى لأول مرة .

٨ - شيبانى نامه - وذلك عن النسخة التى نشرها بريزن Berezin مع ترجمة روسية لها . والأصل الجفتائى ، ويقع فى ورقات قليلة ، يفصل ، الى حد ما ، فى أصل الأوزبك وتاريخهم وسيرة بطلهم شيبانى خان المبكرة منذ بدء تجواله فى حوض سيجون الأدنى . وينتهى هذا الكتاب بسوت شيبانى . غير أن المؤلف يعرض حروب هذا البطل المهمة ونهايته المفجعة عرضا سطحيا عجلا .

٩ - شجر تركى (النسب التركى) لأبى الغازى بهادرخان . وقد نشر الأصل الكونت روماتزوف Count Romazoff فى كاشان عام ١٨٢٥ ، وهذا الكتاب هو فى مجموعه صورة متواضعة من كتاب رشيد الدين ، ولا سيما القسم الخاص منه بأصل الترك . وما يصح أن

(١) نشرت السيدة انيت بفريدج أكمل نص لهذه السيرة عام ١٩٠٥م وهى التى استندت عليها هنا فى بعض التعليقات كما نقلته كذلك الى الانجليزية وأضافت اليه تعليقات كثيرة وشروحا قيمة وظهرت هذه الترجمة بلندن عام ١٩٢٢ (المترجم)

يكون له قيمة تاريخية منه هو تلك الفصول التي تتناول عصر أبي الغازي ومغامراته الشخصية .

١٠ - تاريخ نادرشاه ، لميرزا محمد مهدي خان ، عن نسخة حجرية نشرت في طهران عام ١٢٦٠/١٨٤٤ .

١١ - ناسخ التواريخ ، تاريخ قاجاري ، وهو تاريخ الأسرة التي تحكم ايران الآن ^١ . وفيه نجد اشارات قليلة الى بخاري في نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي . ويتضح لنا من المصادر التي استخدمها مالكولم أن مؤرخي الفرس لا ترد عندهم الا روايات قليلة خاصة بتلك الحقبة في تاريخ ايران ، حتى لم أوفق في الحصول عندهم على ما يستحق الذكر .

والى جانب تلك المراجع المهمة أفدت بطبيعة الحال من كل ما يشير الى تاريخ بلاد ما وراء النهر في أسفار الشرق ، مما هو منشور منها وما هو مخطوط ، أو في كتب التاريخ الأوربية وكتب التراجم والرحلات . ذلك أنه لا معدى اليوم لأى كاتب ، يتصدى للكتابة في أى موضوع ، من الاطلاع الواسع على كل ما تصل اليه يده من المراجع التي تتناول الموضوع الذى يعالجه . ولقد كفت القارىء مؤونة الاطلاع على قائمة طويلة بأسماء المراجع كلها ، وهو على كل حال سيطلع على كل واحد منها فى موضعه المناسب بهذا الكتاب .

أما مراجع القسم الثانى فهي لا تزيد فى الواقع على خمسة لسوء الحظ . وهى أساسا مخطوطات جديدة غير معروفة وتختص بتاريخ بخارى القومى :

١ - كتاب النرشخى . ومؤلفه هو أبو بكر محمد بن جعفر النرشخى . وقد كتبه (فى رواية عام ٥٣٣٧ هـ وفى رواية أخرى عام ٥٣٣٢ هـ) بعنوان (كتاب أخبار بخارى) بأمر من نوح بن نصر السامانى الذى حكم ببخارى باسم الأمير حميد ٣٣١ - ٣٤٣ هـ . وقد ألف هذا الكتاب أصلا

١ - أى قبل الأسرة البهلوية الحالية (المترجم) .

بالعربية ، ثم نقل الى اللغة الفارسية بعد الفراغ من تأليفه بمائة وتسعين عاما . والترجمة الفارسية التى بين أيدينا وهى التى ابتاعها سير الكسندر بيرنز Sir Alexander Burnes فى مدينة بخارى عام ١٨٣٢ والتى هى الآن فى حوزة الجمعية الملكية الآسيوية لبريطانيا العظمى وايرلنده ، تتناول : أولا ، مبدأ تاريخ بخارى وما حولها . ويبدو فيها أن المؤلف يهتم اهتماما كبيرا بدراسة أسوار بخارى وأبوابها وقصورها وقنواتها ونظام الحكومة فيها وطريقة جمع الخراج بها . والمخطوط يتحدث بخاصة فى شئ من التفصيل عن هذا الجزء من بلاد ما وراء النهر أيام السامانيين فى عهد ازدهارهم ، وبوجه التحديد ، عن تلك المدينة وما يتاخمها مباشرة حتى لا نجده يذكر مناطق ميانكل والصغد .

وفى القسم الثانى من الكتاب يتحدث المؤلف عن الفتح العربى لتلك البلاد فى تفصيل لا نجده عند غيره . وتاريخ القرن الأول للحكم العربى عنده يسوده الغموض والاضطراب ، ولكنه يتحدث عن المقتنع ، النبى المزعوم ، حديثا شائقا يشمل كذلك بعض حوادث تلك الفترة ، ويلى هذا القسم تاريخ السامانيين الذى استطاع المؤلف أن يصل به الى بداية حكم الأمير الحميد ليطمه من بعد ذلك مترجم الكتاب (الى الفارسية) حتى سقوط تلك الأسرة . وبآخر الكتاب فصل مستقل عن مزارات بخارى وعن الصالحين والعلماء المدفونين هناك . وقد علمت كذلك بوجود نسخة من هذا الكتاب فى حوزة الأستاذ خانيكوف Khanikoff ومن الأسف أن كلتا النسختين اللتين نقلت منهما كتبنا كتابة رديئة بخط نسخ لا يقرأ .

٢ - شيبانى نامه ١) وهو شعر جغتاني حماسى كتبه الأمير محمد صالح الخوارزمى . وهو مخطوط يقع فى ٢١٨ صفحة يروى أعمال البطولة التى اضطلع بها شيبانى خان ويصفها ، منذ أول ظهوره أمام سمرقند حتى زحفه على حاضرة خراسان . وهى لا تحكى بذلك الا حوادث

١ - ذكر المؤلف فى الصفحات السابقة كتابا آخر يحمل هذا الاسم ، وهو أيضا سيرة شيبانى ولكنها كتبت نثرا (المترجم)

ثماني سنوات من عمره . ولما كان كل ماوصلنا من أخبار الشيباني مصدره
اما بابرنامه أو كتب التاريخ الفارسية ، وكلها لا تضر له أى ود ، فقد
لقى هذا المؤلف أكثر الترحيب بوصفه أول مصدر موثوق به حقيقة فى
هذا الشأن . ذلك أن الأمير محمد صالح كان يقوم على ديوان رسائل
البطل الأوزبكي . ولئن كان يتحدث عنه ، بطبيعة الحال ، بعبارات
التفخيم والمبالغة ، الا أنه يعطينا فى الوقت نفسه صورة لا مغالة فيها
عن الأحوال الخلقية والاجتماعية التى كانت تسود بلاد ما وراء النهر
اذ ذاك ، حتى لآمل بذلك أن أشر هذا المخطوط الأصيل مع ترجمته
والتعليق عليه فى أقرب وقت . والنسخة التى اطلعت عليها ملك المكتبة
الإمبراطورية فى فينا ، وهى النسخة الوحيدة بأوربا . ولم أعثر على أخت
لها بآسيا الوسطى كذلك . ويذكرها فليجل Fluegel فى فهرسه
بالمجلد الثانى ص ٣٢٣ . ويبدو أنه لا يلم بالجفتائية اذ أن تعليقاته عليها
قليلة ناقصة .

٣ - تاريخ سيد راقم . وهو مجموعة من التواريخ تبدأ من عام
١٠٥٥/٧٠٠ وصل بها سيد راقم الى عام ١٠١٣/١٦٠٤ ثم استكملت من
بعد ذلك حتى عام ١٠٥٥/١٦٤٥ . وبرغم أنها مجرد حوليات فارسية
تؤرخ بعض الحوادث ، الا أن التعليقات التاريخية على هذه الرباعيات أو
المقطوعات الشعرية لها اعتبارها ، ولاسيما ما يشير منها على الخصوص
الى العلماء والشيوخ المبرزين من أعيان هذه الحقبة ، والذين لم تكن
لندرى من أمرهم شيئا لولا هذه التضمينات .

ولئن كانت هذه التواريخ فى صورة حوليات ، الا أنها حين تتصدى
للحديث عن بعض الشخصيات من أمثال تيمور وشيباني وعبد الله خان
وعبد المنعم خان نراها تفصل من أمرهم فى أمانة تامة . وهذا المخطوط ،
وهو فى حوزتى ، يذكر عرضا بعض أعيان خراسان ، ولكنه يتناول أساسا
البلاد الواقعة فيما وراء جيحون فهو لهذا يعد من بين المراجع الخاصة
بتاريخ بخارى وبلاد ما وراء النهر .

٤ - تاريخ مقيم خانى ، لمحمد يوسف منشىء (رئيس ديوان
رسائل) مقيم خان ، أحد أولاد سبحاقلى خان . وكان المؤلف قد اتصل

بهذا الأمير حين كان نائبا لأبيه على بلخ . وهذا المخطوط الفارسي كان قد ابتاعه بيرنز في بخارى ، وهو اليوم في حوزة الجمعية الآسيوية لبريطانيا العظمى . ويبدأ بذكر چنكيز خان ، بوصفه جد الاشرخانين ، وينحدر منه حتى يصل الى أبى الخير جد الشيبانيين . وهذه الأسرة ، برغم أن تاريخها معروف بالتفصيل ، إلا أن هذا المخطوط ، المكتوب بخط التعليق ، يطلعنا على بيانات هامة بخصوص أصل الاشرخانين وأهم أمرائهم المشهورين مثل باقى محمد خان وامام قتلى خان وسبحاقتلى خان ، ثم محمد مقيم خان الذى لم يستطع أبدا أن يرقى عرش بخارى . وهذا المخطوط يتناول فترة طولها مائتا عام . وأسلوبه بليغ الى حد ما وإن لم يخل من الاطناب الشرقى المعهود .

د - دخمه شاهان (ضريح السلاطين) لمنشى محمد صادق ميرزا الذى كان ملتحقا بخدمة الأمير معصوم فى الغالب . ويبدأ هذا الكتاب بأنشودة فى مديح الاشرخانين المتأخرين ، ويصورهم فى شعره وكأنهم وهم فى قبورهم يتأملون فى أحوال هذه الدنيا الفانية وفى فضائل الأمراء . ويلى ذلك تاريخ منظوم لأهم وقائع الأمير معصوم مع الفرس والأفغان . وليس لهذا الشعر مع الأسف قيمة تاريخية . أما القسم الثانى منه فهو شعر مناسبات قيل فى بعض الأعياد وفى مولد بعض أبناء السلطان أو أحفاده وحفلات طهورهم . وهذا المخطوط الفارسي المنسق المكتوب بخط التعليق قد ابتعته فى سرقند ، وهو اليوم فى حوزتى .

وكما تتنوع المراجع التى استخدمتها تنوعا شديدا فى طبيعتها ، فكذلك تختلف فصول كتابى هذا فى أهميتها من موضع لآخر على تفاوت .. فالقسم الأول منه ، باستثناء بعض استدلالات منقولة عن مخطوط الترشيخى ، لا ترى فيه ما يعد جديدا على المستشرقين إلا القليل ، وإن كان أغلبه جديدا على الجمهور . ذلك أن المراجع المخطوطة الخاصة بآسيا الوسطى لم يسبق أن استخدمت على نطاق واسع من قبل كما استخدمت فى هذه المرة . أما القسم الثانى فهو يتناول على كل حال من المسائل مالم يصل اليه العلماء من قبل على الاطلاق ، أو كان علمهم بها ضئيلا . فهى تتعرض لذكر مجموعات من الأمراء بل ومن أسر حاكمة برمتها لم يدون

من تاريخهم الاقليل بآسيا، وناهيك بأوربا التى لم يكتب عنها بها كلمة واحدة . أما من ناحية اخراج هذا الكتاب فقد جعلت نصب عيني أن ألتزم صفاء الأسلوب وتناسق تناول الموضوعات (١) وعلى أساس التباين الكبير فى قيمة المراجع التى تحت يدي ، لعله كان بمقدورى أن أعمد الى الاسهاب فى بعض أجزاء الكتاب حيث تتوافر المراجع ، فكنيت أتبع على سبيل المثال ، فى تفصيل أكثر ، تاريخ السلاجقة لميرخوند أو سيرة تيمور لشرف الدين أو الحديث عن عصر التيموريين فى مخطوط عبد الرازق القيم . ولكنى لم أخاطر بهذا الصنيع . ذلك لأن قلة المصادر القوية التى تتناول العصور الأخرى كانت ستؤدى حتما الى الاخلال بتناسق الكتاب . كما سيتجلى واضحا للعيان جفاف بعض الفصول وضآلة شأنها بالنسبة لغيرها ، وكان هذا ما دعانى الى أن أمسك عن تفصيل أية واقعة من وقائع الخانيات المجاورة لبخارى أو تناول شئونها . ولما كان فى حوزتى قدر من البيانات عن تاريخ خوقند وخيوه ، فحين يزداد مقدار ما عندى منها ، فانى عازم على كتابة خلاصة تاريخية عن أجزاء آسيا الوسطى الشرقية والغربية هذه .

وفى الختام أود أن أعبر عن شكرى وامتنانى لكل أولئك الذين عاونونى بمختلف الطرق فى اخراج هذا السفر . كما أشكر خالص الشكر الكولونيل هـ. يول H. yule ، أقدر متخصص فى المسائل الخاصة بآسيا فى العصر الوسيط ، لما أفدته مما استخلصته من رسائله الخاصة أو مؤلفاته القيمة على السواء . كما أشكر كذلك كلا من البارون أوتاكر فون

(١) حرصت على الأخذ بأبسط طريقة ممكنة فى كتابة الكلمات الأجنبية بالحروف الانلاينية ، فاستعضت عن الأخذ بهذه الطريقة أو تلك من الطرائق المقررة فى كتابة الهجاء العربى باللاتينية بأن حاولت ببساطة أن أكتب هذه الكلمات بالحروف الانجليزية التى تجعل نطقها أقرب الى الصحة . من ذلك أبى جعلت dz مقابل الجيم و tch مقابل الجيم المثلثة S - للمسين و Z للزاي و th للشاء . وعلامة (r) للعين . ولعلى أختلف مع المستشرقين الآخرين عموما الى حد ما حين أكتب الألفاظ العربية على النطق الذى سمعته من أفواه الفرس والتركستانيين .

شلفتا Ottaker V. Schlechta سكرتير المفوضية والسيد ا. بارب
A. Barb والسيد م. ا. بيرك M.E. Birk والجمعية الملكية
الآسيوية لبريطانيا العظمى والسيد ج. ووسين J. Wussin لأريحتهم
البالغة حين وضعوا تحت تصرفي هنا في بست مواد لولاها لما تيسر لي
أن أصل الى المراجع الضرورية في عملي .

وها أنذا أقدم الآن ثمار عمل سنين طويلة الى جمهور كريم. ولكم
تمنيت أن يتم هذا العمل وفيه من الخطأ والزلل أقل قدر ممكن . ومهما
يكن من شيء فان كتابة تاريخ أى قطر من الأقطار لأول مرة هو دون شك
عمل صعب شاق . ويضاعف من تلك المشقة أن يكون هذا القطر المعنى لم
تنجل عنه ، الا فى الجيل الحاضر ، تلك الظلمة الكثيفة التى ظلت تكتنف
تاريخه لقرون .

المؤلف

پست فى ٢٨ ابريل سنة ١٨٧٢

محتويات الكتاب

- ١ - الفصل الأول : عصر ما قبل الاسلام ... ٣٧
- ٢ - الفصل الثاني : غزوات العرب وانتشار الاسلام ...
- ٣ - الفصل الثالث : الفتن السياسية والدينية ابان حكم العرب
٤٦ (٦٦٦) - ٩٦ (٧١٤) ... ٥٧
- ٤ - الفصل الرابع : السامانيون والأمير اسماعيل ...
٩٦ (٧١٤) - ٢٦١ (٨٧٤) ... ٧٣
- ٥ - الفصل الخامس : سقوط السامانيين وظهور الترك ...
٢٦١ (٨٧٤) - ٢٩٥ (٩٠٧) ... ٩٣
- ٦ - الفصل السادس : السلاجقة ٣٩٥ (١٠٠٤) - ٥٢٨ (١١٢٣) ... ١٢٧
- ٧ - الفصل السابع : الاويغور وامراء خوارزم ...
٥٢٨ (١١٢٣) - ٦١٥ (١٢١٨) ... ١٤٧
- ٨ - الفصل الثامن : الفزو المغولي ٦١٥ (١٢١٨) - ٦٢٤ (١٢٢٦) ... ١٦١
- ٩ - الفصل التاسع : الجنكيزيون ٦٢٤ (١٢٢٦) - ٧٦٥ (١٣٦٣) ... ١٨٣
- ١٠ - الفصل العاشر : الأمير تيمور ٧٦٥ (١٣٦٣) - ٨٠٧ (١٤٠٥) ... ٢٠٥
- ١١ - الفصل الحادى عشر : شخصية تيمور - بلاطه وحاضرتة ... ٢٣٩
- ١٢ - الفصل الثانى عشر : التيموريون ...
٨٠٧ (١٤٠٥) - ٩٠٦ (١٥٠٠) ... ٢٥٩
- ١٣ - الفصل الثالث عشر : الأوزبك وشيبانى محمد خان ...
٩٠٦ (١٥٠٠) - ٩١٦ (١٥١٦) ... ٢٩٥

٣٢٧	١٤ - الفصل الرابع عشر : الشيبانيون
٩١٦ (١٥١٠) - ١٠٠٦ (١٥٩٧)	١٥ - الفصل الخامس عشر : الاشرخانيون الاول
٣٦١	١٠٠٦ (١٥٩٧) - ١٠٩٩ (١٦٨٠)
٣٨٧	١٦ - الفصل السادس عشر : سبجانقلی خان ونهاية الاشرخانيين ١٠٩٩ (١٦٨٠) - ١١٥٠ (١٧٣٧)
٤٠٥	١٧ - الفصل السابع عشر : بيت المنفيين والامير معصوم
١١٩٩ (١٧٨٤) - ١٢٤٢ (١٨٢٦)	١٨ - الفصل الثامن عشر : الامير نصر الله
٤٢٥	١٢٤٢ (١٨٢٦) - ١٢٧٧ (١٨٦٠)
٤٥٥	١٩ - الفصل التاسع عشر : الامير مظفر الدين وبيت رومانوف ١٢٧٧ (١٨٦٠) - ١٢٨٧ (١٨٧٠)
٤٨٩	فهرس ابجدی عام

مدخل الى الكتاب

حين نقول اننا نستطيع أن تتمثل تقويم آسيا الوسطى عموما فانما ندعى بذلك أمرا لا يمكن أن يقوم أصلا على التأكيد أو التحديد . وكذلك الحال بازاء الدلالة السياسية لعبارة « ما وراء النهر » اذ يكتنفها الغموض بدورها . فهذا التعريف العربى يقصد به البلاد الواقعة عبر النهر أى فيما وراء نهر جيحون وعند شاطئه الأيمن . ولكنك ترى الأمر ، عند التحديد ، يغير هذا المدلول فهذا هو البلخى ، فى مخطوطه الجغرافى (١) يدخل عنده تحت هذا التعريف قسما من الشاطيء الأيسر بعوض النهر الأعلى . وهو وضع سليم لا شبهة فيه من ناحية الحدود السياسية للقليم . ذلك أنه منذ عهد السامانيين حتى العصر الحديث كانت مناطق الطالقان

(١) ما يلاحظ من تطابق التواريخ وتماثلها بتقاويم بعض الجغرافيين العرب القدامى لأقسام بعينها من بلاد آسيا الاسلامية ، قد أوقع علماء أوروبا فى الحيرة ، حتى لم يستطيعوا أن يقرروا من يكون من الجغرافيين القدماء الثلاثة ، البلخى والاصطخرى وابن حوقل ، هو الذى سبق زميله الى ذلك فنقل الآخرون عنه . وقد تصدى حديثا لدراسة هذا الموضوع العالم الهولندى دى جويه .

I. de Goeje. The Journal of the German oriental Society Vol. XXV
PP. 42-95

وانتهى من دراسته بأن ذهب الى أن ابازيد البلخى المتوفى عام ٣٢٢هـ (٩٣٣م) هو صاحب أقدم مخطوط جغرافى عربى . وتوجد نسخه من هذا المخطوط فى المكتبة الامبراطورية فى فينا ، وقد اطلعت عليها ، وبالنسبة لما تحويه من معلومات بالغة القيمة ، فان جميع المشتغلين بالثقافة الآسيوية سوف يسرهم أن يعلموا أنه يبدو من المقال المشار اليه آنفا أن الاستاذ دى جويه مهتم بنشر هذا المخطوط . هذا ومقال الاصطخرى عن آسيا أو بلاد ما وراء النهر (وأقصد هنا الترجمة التى قام بها مورتمان Mordtmann ليس الا نقلا هزيلا عن الأصل .

وطخارستان وزم تعتبر أجزاء مكملّة لبخارى برغم وقوع أقسام منها أو وقوعها كلها على الشاطىء الأيسر لجيحون . وتؤكد أبحاثنا التاريخية فى الغالب بدورها قيام هذا الوضع ابتداء من عهد السامانيين الذين كانوا هم أنفسهم أصلا من أبناء هذا الجزء من خراسان . وهم حين استولوا على بلاد ما وراء النهر جعلوا من أمارتهم ومن البلاد التى استولوا عليها ملكا موحدا . وبقي الحال كذلك حتى سقوط دولتهم . وفى عهد الغزنويين الأول : أيام محمود وابنه مسعود ، صار الشاطىء الأيسر لجيحون كله جزءا من خراسان . وبقي هذا الوضع على حاله فى عهد السلاجقة والجنكيزيين ثم التتواريين الذين استطاعوا ، بوصفهم حكاما لآيران ، أن يعيدوا لخراسان حدودها القديمة دون أن يعرضوا مصالحهم للخطر . وفى عهد الشيبانيين والاشترخانيين ، وهى فترة امتدت ثلاثة قرون ، ضم إلى بخارى كل شاطىء جيحون الأيسر من بدخشان إلى جهار جوى . وبقيت الحال كذلك حتى حكم بيت منغيت (باستثناء فترات قليلة) . إلى أن أخذ التفكك والضعف ، منذ وقت قريب ، يدب فى بلاد ما وراء النهر مما أتاح لأمير كابل أن يستحوذ على كل ملحقات بخارى موضع الخلاف هذه . ونخرج من هذا كله إلى أن الحدود السياسية لبلاد ما وراء النهر يرسمها خط يمتد فى اتجاه مناطق جيحون عند خط عرض ٧١° وخط طول ٣٥° ، أى من بدخشان حتى شاطىء مرغاب الأيسر . وهى أرض كانت تضم فى القديم الولايات الآتية :

١ - ختلان أو وخش (١) .

٢ - أوجان أو على الأصح وجان فى الغالب .

(١) يبدو أن لفظ "Okus" اليونانى مشتق من لفظ وخش أو يواخش . وهو اسم ولاية ورافد من روافد جيحون Oxus . على أن البعض يحتاج بأن هذا النهر الذى كان العرب يعرفونه باسم جيحون (Djihun) اسمه مشتق من اللفظ التركى القديم أو كيس Oekues أو أوجيس Oegues . أى النهر ، ولا يزال أهل هذه البلاد يعرفونه كذلك باسم دريا أو آمو بمعنى النهر .

٣ - طخارستان ، وقصبتها بلخ ، وأهم مراكزها اليوم قندز
وخولم .

٤ - زم ، وتضم كركى الحديثة واندخوى وميمنة .

٥ - آمل التى عرفت من بعد ذلك باسم آموى ، وهى چهارجوى
الحديثة ، ويحدها من الشرق والجنوب صحراء خوارزم (١) .

ولا يهون كذلك تحديد التخوم الشمالية لبلاد ما وراء النهر على
وجه دقيق .

ففى العصور القديمة كان اقليم أشروسنة الحالى يحد ، على ما ذكره
البلخى ، بفرغانة فى الشرق ، وبكش فى الجنوب ، وبجج فى الشمال ،
ثم بالصغد فى الغرب أو فى الجنوب الغربى تحقيقا . وكانت أشروسنة هى
القسم الجبلى من خانية بخارى الحالية ، الذى يمتد من شرق سمرقند حتى
تبيان شان على أسماء مختلفة (٢) . وكانت أهم مراكزه هى بومخت ، وهى

(١) يجب أن يكتب هذا اللفظ (فى اللغات الاوربية) باهمال الواو ،
لا باثباتها على ما يفعل مورتمان وغيره من المستشرقين ، وذلك للأسباب
الآتية :

١ (ينطق أهل ايران وأهل خوارزم هذا اللفظ على الحال الذى
ذكرته ، ولا مجال للقول بأنهم يخطئون فى نطق اسم بلد من
بلادهم اللهم الا اذا سلمنا فى ذلك بأن الفرنسيين أو الانجليز قد
ينطقون الأسماء الألمانية أصح مما ينطقها الألمان أنفسهم .

ب (توجد فى الفارسية كلمات تهمثل واوها فى النطق مثل هذا
الاسم ، ومنها : خواه (راغب) ، خواهر (أخت) ، خوار
(حقير) .

ج (نبه ياقوت فى معجم البلدان ج ٢ ص ٤٨٠ الى أن المقطع الاول
من هذه الكلمة مفتوح الاول ، أى باهمال الواو ، اما من ناحية
معنى هذا اللفظ فأنى أصر على الرأى الذى سبق أن قلت به وهو
أن خوارزم معناها المحارب .

(٢) أشهر هذه الأسماء هى : بتم (أسفرا القديمة) وآق تاو ، وفان ،
والتبا (فى الجنوب) ثم جنكر طاغ ، وسلطان حضرت طاغ ، وسوز نغيران .

العاصمة (ولا يعرف موضعها) ، ثم سبّد أوسوت (وهى سرود الحالية وتقع فى أقصى الشرق بالجبال) ، ثم ديزق (جزاق جذك الحالية) ، وزمين التى تقع على حدود فرغانة القديمة ، وتتأخم اليوم خانية خوقند . والى الشمال ، فيما وراء أشراسنة ، يقع اقليم جج (١) (بوادى سيحون) وفيه مدن كثيرة نجد منها اليوم جخند وبناكل وأترار وسغناق وسيرام وسربان وتراز . ولم أسمع شيئا أبدا عن ذلك السور الكبير الذى يذكر البلخى أن عبد الله بن حميد كان قد أقامه بين الجبال وسيحون ليتقى به غارات البدو فى الغالب . وبرغم أن أقدم المخطوطات الجغرافية هذا يضع هذين الاقليمين ضمن حدود بلاد ما وراء النهر فان تاريخ خضوعهما لتلك العاصمة التى تقوم على شاطئ زرغشان (أى بخارى) يحوطه نفس الغموض الذى يكتنف تاريخ الأقسام الأخرى التى تتبع هذا القطر فى الجنوب . والمعروف أن أشروسنة كانت تتبع بخارى على الدوام . أما جج فغالبا ما تداولتها أيد مختلفة . وفى الفترة السابقة على الفتح الاسلامى لتلك البلاد ، كان يضم شواطئ سيحون دولة مستقلة أصحابها من الترك . وقد ألحقت هذه الأراضى ببخارى أيام السامانيين فى ظل الحكم العربى هناك . واستردت هذه الامارة استقلالها أيام السلاجقة ، وبزغ بها نجم الأمير التركى قدرخان . وبقيت جج ابتداء من الغزو المغولى مثار نزاع بين الخوارزميين فى الغرب والأويغور فى الشرق . ودخل الأمير قدرخان وخلفاؤه من بعده بدورهم ، بعد وفاة جنكيز ، فى حرب شعواء مع بنى جلدتهم من الجغتائيين بسبب هذه المنطقة نفسها . ولم يستطع تيمور نفسه أن يضم هذا الجزء من بلاد ما وراء النهر الى ملكه الا بعد معارك دامية مع جيرانه فى ناحيتى الجنوب الشرقى أو الشمال الغربى . وتجددت تلك المعارك هناك من بعده فى وحشية زائدة . وبرغم أن الأمراء الأشداء من بين الشيبانيين والاشترخانيين كان يتم لهم الاستحواذ بعض الوقت على كل ذلك القسم من تركستان ، الذى يعرف باسم بلاد ما وراء النهر ، دون منازع ، فان ذلك لم يحل دون تعرض هذه البلاد مرتين لتخريب المغول من أمراء القلموق والقرغيز الذين كانوا يقيمون عند حدودها .

(١) وهو اقليم الشاش (المترجم) .

والواقع أن وادي سيحون ، وقصبته طشقند ، قد ظلّا منذ منتصف القرن
الماضى حتى وقتنا هذا يخضعان فى سلام لخانية فرغانة ، وهى خانية
خجند الحديثة ، فيما عدا بعض فترات غابرة .

يتضح على ضوء ما بيناه استحالة الاعتماد على تقويم البلدان فى
الغالب لرسم حدود هذا الاقليم على وجه الدقة . وعلى هذا يمكننا أن
نعبر عن مفهومنا لاقليم ما وراء النهر بلفظ واحد هو « بخارى » أو خانية
بخارى ، وهو ما سوف نسير عليه . ذلك أن هذا القطر ، برغم أنه يشتهر
باسم بخارى منذ عهد شيانى والأوزبك ، فإن شواطئ زرفشان وكافة
المنطقة الممتدة جنوبا حتى جيحون وشمالا حتى صحراء قزل قم ، انما تمثل
الأجزاء الوحيدة من المنطقة التى كانت على الدوام قسما من اقليم ما وراء
النهر الأصلي الموحد منذ فجر التاريخ . وتشتهر المناطق الآتية فيه منذ
بداية تاريخ هذه البلاد :

بخارى ، وهى حاضرة الاقليم منذ عهد السامانيين . وتشير أقدم
الكتب الجغرافية الخاصة ببلاد ما وراء النهر الى أن هذه المدينة كانت أيام
ازدهارها تعد أعظم مدن العالم الاسلامى كله . والبلدة الداخلية ، التى
كان يحيط بها سور له سبعة أبواب ، لم تكن هى مناط شهرتها ، فذلك
شأن ضواحيها وما كان يجرى فيها من القنوات العديدة وما كانت تزخر
به من المنشآت الفخمة ، الى جوار ما حبتها به الطبيعة من رونق وبهاء .
ولقد أشاد الرحالة العرب القدامى بذكر بساتين بخارى الفسيحة وما كان
يزينها من أشجار الفاكهة القليلة بعددها الممتازة بشارها . وناهيك بشمار
البرقوق الذى تذيع شهرته منذ ألف عام حتى اليوم ، فهو أفخر ثمر من
نوعه بآسيا . ولم تكن بخارى مدينة فخمة تمتاز بخصائصها الطبيعية
العظيمة فحسب ، بل كانت كذلك سوقا رئيسيا تلتقى فيها تجارة الصين
وآسيا الغربية ، فضلا عما كان بها من مصانع كبيرة للحزير والديباج
والمسوجات القطنية وأجود أنواع الأبسطة والمصنوعات الفضية والذهبية
من كل نوع . وكانت كذلك مركزا مهما للضيافة يستبدل فيها سكان آسيا
الشرقية والغربية سكنتهم بوساطة أهلها حتى لتسمع هناك الى اليوم
المثل القديم « أشد يقظة من سمسار بخارى » .

وكانت أهم البلدان الأخرى هي : توائس (طواويس) على مسافة سبعة فراسخ الى الشمال الشرقي من بخارى في طريق سمرقند . وكانت تعرف قبل الفتح العربى باسم كوت (وهو فى التركية ، السعيد أو الحظ الحسن) . وكانت موقعا حصينا . وتشتهر بسوقها السنوى الذى كان يقام لعشرة أيام كل عام ، ويزيد عدد زواره على عشرة آلاف نسمة .

وفى الجنوب تقع بيكند ، ثانى مدن بخارى التجارية ، وكان أهلها يتاجرون مع الصين فى الشرق ونواحى شاطئ البحر فى الغرب . وتقع هذه المدينة على طريق آمل ومرو وكانت تشتهر بثرائها العظيم . وفى زمن السلاجقة اهتم أرسلان خان اهتماما كبيرا بتعمير الطريق الذى يصلها بفاراب عبر الصحراء . وكان العرب قد انزلوا بيكند الخراب الشديد فلم تستطع أن تنهض من كبوتها الا لصحوة قصيرة . ولا تزال خرائبها تشاهد حتى اليوم .

وفى الشمال تقع زندين التى تعرف اليوم باسم زندانى . وبها كان يزرع القطن ، كما كانت منسوجاتها القطنية تصدر الى كل مناطق آسيا الغربية . وقد فقدت وردانزى ورامتن ونوركل ما كان لها من أهمية وأصبحت أماكن غير ذات شأن .

— وثانى هذه الولايات كانت تعرف باسم ميانكل — الاقليم الأوسط — وتقع بين بخارى وسمرقند . وتشتهر بهذا الاسم منذ أيام السامانيين ولا تزال تعرف به حتى اليوم . وأهم مدنها ، كانت ولا تزال ، كرمينية . وتقع فى بقعة خصبة . وقد ذاع صيتها فى جميع أدوار التاريخ الاسلامى . ويقال انه قد ولد بها كثير من الشعراء المبرزين وان لم يصلنا من أسمائهم شيء . والى الشمال منها تقع نور (نوراته الحالية) ، وهى مزار مقدس يحج اليه الكثيرون . والى الشرق من كرمينية تقع فرخشة التى ذكرها النرشخى لشهرة أسواقها . وفى ناحية الشمال الشرقى ، على حدود الصحراء ، قامت سرتاق ، تلك المدينة القوية ، مع حصنها الذى كان يقوم على مرتفع يطلع الناظر منه على بساتين فسيحة تحيط به ، وتتأثر بين أشجارها الدور والقصور . وعند الشمال الغربى ، فى نفس البقعة التى

تقوم فيها اليوم غجديوان على وجه التقريب ، قامت من قبل مدينة جند ،
حصن خوارزم الأمامى . وهى تسيطر على كل السهوب الغربية ، ويقطنها
شعب يشتغل بالصناعة والزراعة والرعى . والى الشرق منها قامت اشناس
وازقند^١ وسغناق .

وثالث هذه الولايات الصفد . وموضعها المنطقة الجبلية باقليم ما
وراء النهر (وتوصف بأنها امتداد لتيان شان فى ناحية الغرب) . وليست
لها حدود معينة فى الشرق . ويحدها فى الغرب ميان كل وفى الجنوب
كش وفى الشمال اشروسنة . وحاضرة الاقليم سمرقند ، وهى بلا شبهة
مركزها التى يذكرها الاغريق عاصمة للصفد . وهذه المدينة تنافس بخارى
على مدار تاريخ بلاد ما وراء النهر . وكانت أعظم المدن فيما وراء جيحون
قبل عهد السامانيين . ولكنها أخذت تفقد أهميتها منذ أن اتخذ اسماعيل
(السامانى) من بخارى قصبة له ، ويقال انها استردت مقامها من جديد فى
حكم الخوارزميين حتى فاقت بخارى بكثير ، لتبلغ من بعد ذلك أوجها
فى حكم تيمور .

وبسقوط التيموريين أخذ نجم سمرقند فى الأفول ، لتصبح بخارى
من بعد ذلك العاصمة الرسمية من جديد . ولم يكن أمراء الشيبانيين
والاشترخانين والمنغيتيون يقصدون سمرقند لغير الاصطياف ، لما كانت
تشتهر به من جمال مناظرها الطبيعية . وتشير أقدم الكتب الجغرافية الى
أن جمال هذه البلدة انما هو كذلك فى ضواحيها . ذلك أن حصنها الذى
كان يحوطه سور قوى ، كان يكتظ بالدور المبنية بالخشب والطين الى
درجة صرح معها الاصطخرى بأنه لولا وجود أشجار الصفصاف هناك
لفسد الهواء فسادا شديدا . ولما كانت سمرقند ترتفع فى موقعها عن
بخارى ، فقد امتازت لذلك بناخها الصحى المنشط . وان كان مرد شهرتها
هو أساسا لما يجرى من تحتها من ماء غزير — على ما توصف به الجنة
عند المسلمين — فى قنوات وجداول عديدة ، تنحدر اليها من الجبال ،

(١) وهى غير مدينة ازقند التى تقع فى شرقى فرغانة .

التي تجاورها ، صوب السهل . ويقول البلخي ان ذلك الماء كله يرد من
نهر الصفد (١) الذي ينبع من التلال التي تعلو الصاغانيان. وكان هناك
خزان يقوم غير بعيد من منبع النهر ، ومنه كان يجري الماء الى فرجاس
(تعرف أيضا بـبرجاس وبورجاس) حتى السد . كذلك كان يفيض الماء في
القنوات شرقا وغربا . وكان الخزان الرئيسي أشبه ببحيرة صغيرة تزين
حافتها القرى . وكانت القنوات الرئيسية كقناة بارمش ودكش ، تجلب
الغصن الى متسع من الأرض يقطعه الساري طولاً في ستة أيام . ولما
كانت سمرقند لا تقع رأساً على الطريق الرئيسي الموصل الى الهند ،
وانما على جانب غير بعيد منه ، ولما كانت القوافل تسلك على الدوام
طريق بلخ أو قارشي وبخاري أو نيشابور وآمل ويكند ، فعلى هذا لم
تكن هذه المدينة أبداً سوقاً للتجارة الداخلية . وانما اشتهرت بوصفها
مدينة المسرات . وقد عرف أهلها بالوسامة والنظافة والتواضع والكرم .
وهذا هو ابن بطوطة ، برغم كلفه بخاري ومزاراتها ، نراه يفضل سمرقند
عليها لما صادف عليه أهلها من جميل الخلال . ومن الغريب أنهم لا يزالون
حتى اليوم على ذلك . فقد لقيت بنفسى من الترحيب وحسن اللقاء في هذه
المدينة أكثر مما صادفت ببخاري . وكان المغول قد قضوا على ما كان
لسمرقند من بهاء عزفت به قبل الفتح الاسلامي وفي أيام السامانيين ، فلم
يشاهد ابن بطوطة منها الا أطلالها . وما عاد لها من رونق أيام التيموريين ،
لا سيما على أيدي ألغ ميرزا ، ذلك الرونق الذي أبدع بابر في وصفه
لنا بسيرته (٢) ، ما غدا أن قضى عليه جند الأوزبك الشيبانيين الأجلاف .
ومن الأماكن الأخرى التي كانت تشتهر بهذه المنطقة موضع دبوس
الذي صار فيما بعد حصن دبوسي ويقع الى الغرب من طريق بخاري .

(١) يخطئ مسالك الممالك ، في مخطوط فينا ، ص ١٤٣ فيذكر السند
بدل الصفد (وهو من تحريف النساخ : المترجم) .

(٢) انظر بابرنامه نشر بفريدج ٤٤ ب - ٤٧ ب . وفيها يقول عن
سمرقند : بأنه قل نظيرها في العالم المسكون ، ويصف بساتينها ومنشآت
التيموريين بها ومن ظهر بها من العلماء . كما يتحدث عن موقعها
ويذكر كذلك أن أحسن أصناف الورق هو ما يرد من سمرقند . هذا والمعروف
أن العرب عرفوا صناعة الورق أول ما عرفوه حين فتحوا هذه المدينة (المترجم)

كما كان يقوم فى ناحية الشرق فرجاس وسرواس وفمورى ثم ربود وهى المدينة الجميلة التى بنى بها الاخشيذ ، أحد أمراء سمرقند ، عدة قصور . ونذكر أخيرا سروان التى قامت وسط التلال . وبرغم قسوة مناخها فقد سكنها قوم أشداء أقوياء . وفيما وراء هذه المدينة ، وعلى مسيرة عشرة فراسخ منها ، تقع زردكرد محلة النصارى المشهورة أيام السامانيين .

ورابع هذه الولايات كش التى تعرف اليوم باسم شهرسبز (١) . وكان أغلب سكانها حتى عهد السامانيين من العرب ، من قبيلة بكر ابن وائل . وكانت مدينة حصينة لها أربعة أبواب هى :

١ - دروازه اهنين (البوابة الحديدية) .

٢ - دروازه عبد الله .

٣ - دروازه قصابان (بوابة القصابين) .

٤ - دروازه شهرستان (بوابة المدينة) .

ومحصول الفاكهة فى هذه المدينة كان يفوق فى كثرته محصول كل أجزاء بلاد ما وراء النهر الأخرى ، وذلك لطريقة الرى الفذة التى كانوا يستخدمونها فى الغالب . على أن هذا الحال لم يستد طويلا . ويخترقها نهران يجريان حتى وادى نخشب ، وهما نهر قصابان ونهر خوش . وكانت كش عامرة بالقرى ، ومنها ورد وبالا وبدرين ورسوم وسام ، وبها تلال كانت لها نفس الأسماء اشتهرت بأنها كانت آخر ملاذ المقتنع وأوزغان وجارودان وغيرهم .

والولاية الخامسة ، وهى نخشب ، كانت على الدوام مخطا رئيسيا على الطريق بين بلخ وبخارى . ولكنها كانت أقل خصبا بالقياس الى مناطق بلاد ما وراء النهر التى ذكرناها . ذلك أن الأنهار التى كانت تجرى اليها من كش ، كانت تفيض فى رمال هذه المنطقة صيفا ، فكان عماد السكان

(١) وبها ولد تيمور . وعنى بتعميرها حتى فكر فى اتخاذها قصبة له (المترجم) .

حتى في شربهم على مياه الآبار . وأطلق على نخشب اسم قارشى أى
القصر ، بواسطة الأمير المغولى قبق الذى بنى في هذا المكان قصرا عام
٧٠٨ هـ ١٣١٨ م فصار من بعد ذلك علما على المدينة كلها . ومن أشهر
أماكنها كذلك برك وكشى (١) . وإلى جانب المناطق التى ذكرناها نذكر
كذلك المناطق الواقعة عند منابع جيحون مثل وخش وختلان وجفانيان
(ويذكرها الاصطخرى باسم الصاغانيان) وكلاب ، وإلى الشمال الغربى
منها قامت فيما بعد حصار شادمان واشتهر أمرها . ولسوء الحظ أن تكون
معلوماتنا عن كل هذه المنطقة الجبلية ضئيلة مضطربة حتى لا نعرف في
عصرنا الحاضر عن جغرافيتها الا القليل . وما يمكن الجزم به في ذلك كله
هو أن ترمذ أو ترمذ كانت أقدم معبر على جيحون في طريق الهند .
والغالب أنها كانت أيام السامانيين مدينة عامرة بها مسجد جامع (مما
يدل على وفرة سكانها) وسوق كبيرة أرضها مرصوفة بالحجارة . وفقدت
هذه المدينة من بعد ذلك أهميتها في عهد المغول ، وتحولت حركة العبور
عندئذ الى كليف وخوجه سالدو .

والتقسيمات السياسية لبلاد ما وراء النهر الحالية ، التى كانت
تعرف في عهد التيموريين باسم خانية بخارى ، قد تعرضت للتغيير
والتبديل باستمرار منذ أيام الأوزبك . فلم يبق على حاله الا وجه الاقليم
عسوما . وتقوم به اليوم الولايات الآتية ، التى تنقسم كل واحدة منها
يدورها الى تومانات ، أى أفضية ، وهى :

(١) مما يلفت النظر أن المغول قد تركوا فيما وراء بلاد النهر
الأصلية - أى عند الشاطئ الشمالى لجيحون - آثارا لحكمهم هناك أكثر
مما تركوا ببلاد ما وراء النهر نفسها . فالأماكن المذكورة آنفا ، بالقياس الى
أسمائها ، لا بد أنها كانت أصلا مستعمرات مغولية : أندخوى التى كانت
تعرف باسم أندخود (هى فى المغولية أنددا - خود = الطوالع المتحدة) -
وكذلك ججكتو والمار (ميمنة الحالية) بل انهم تركوا كذلك أثرا حيا منهم
فى أشخاص السكان المغول الذين يقطنون التلال الواقعة الى الجنوب الشرقى
من هراة (المؤلف) .

H.C. von der Gabelentz. Ueber die Sprache der ذلك فى انظر

Hazaras Z.D.M.G. Bd XXS. 326-28

(المترجم)

- ١ — بخارى ونواحها كضواحي بهاء الدين وشهر اسلام وميتن وميرى قلل .
- ٢ — قضاء بخارى ، مع بلدان وردنزي ووقفند ورامتن وونغازى وخير آباد .
- ٣ — ميان كل وقصبتها ، كرمينه ، مع بلدان ضياء الدين ومير خاطرجه ونور آتا وينكى كورغان .
- ٤ — كته كورغان مع بلدان قراسو وينجشنه وجلك .
- ٥ — سمرقند مع بنجقند وقراتبه وسويود وامقند .
- ٦ — حصار مع شير آباد .
- ٧ — شهرسبز مع حصن كتاب وجراكجى ويكى باغ .
- ٨ — قارشى مع فيض آباد .
- ٩ — لباب مع قصبتها كرخى .
- ١٠ — چهارجوى .
- ١١ — قراقول مع بتيك والجيڪ .

وأضيف الى هذه كلها نواحي جزاق وزمين واوراتبه ، وظلت تتبعها حتى زمن متأخر الى أن ضاعت من بخارى منذ الفتوحات الروسية الأخيرة على كل حال .

والمطلع على معالم بخارى الحديثة وأحوالها قد يميل الى الظن بأن ما كتبه الجغرافيون القدماء عنها فيه الكثير من المبالغة والوهم ، وذلك لفرط ما بات يسود بلاد ما وراء النهر كله من الانحلال ، وما غدا يخيم على مواضع الفخار السابقة فيها من البؤس والشقاء . بل ان مدينة بخارى نفسها ، العاصمة ومقر الحكومة ومنتدى العلماء ومركز التجارة والصناعة المشهور ، قد غدت من أقذر الأماكن فى كل آسيا الوسطى وأشدّها عفونة . وعدد سكانها اليوم ينيف على الثلاثين ألفا ، وأغلبهم من العنصر الايرانى الذى يرد اليه الفضل فى شهرة المدينة الصناعية والتجارية . وآثار هذه المدينة ، التى تنبىء عما كان لها من فخامة وروعة فى الماضى ، لا تجدها الا

فى ابنية بعض المساجد القديمة وبقايا قصور ترجع الى ما قبل الفتح الاسلامى. وتعد قارشى ثانية مدن خانية بخارى من حيث أهميتها التجارية والصناعية وعدد سكانها . ويليهما فى الأهمية سمرقند التى تزخر بالخرائب التى تشير خصوصا الى أضرحة مئات من الأولياء . وتشتهر هذه المدينة بفواكهها ومصنوعاتها الجلدية ومنسوجاتها القطنية وما تصنعه من الحلوى ، ثم سرجها الخشبية المشغولة بالمينا . ويقدر فيجنكو Fedjenko عدد سكانها بثلاثين ألفا وعدد مساجدها بستة وثمانين وعدد مدارسها بثلاث وعشرين وحوالياتها بستة وأربعين وثمانمائة وألف ونزلها بسبعة وعشرين ولما كانت سمرقند وكنه كورغان ، حيث تصنع أحسن الأحذية فى الخانية ، قد صارت الى حوزة النفوذ الأجنبى ، فعلى هذا تعد كرمينة ثالثة مدن بخارى . وهناك ثمة أماكن أخرى قليلة لها ماتشتهر به . فمن ذلك حصار التى تشتهر بمداهما الماضية الممتازة وشفرات السيوف ، ثم جهارجوى التى تشتهر بأسواق الخيول فيها ، وقراقول وبها سوق واسع يعرض فيه الرقيق الفارسى . ونجد من بعد ذلك جملة قرى صغيرة فى الشمال تمتاز بحميرها القوية الممتازة النشطة حتى لا تستطيع الحمير المصرية بأذانها الطويلة أن تصبر على منافستها .

ووجه بلاد ما وراء النهر ، وهى النصف الشمالى من هذا المجال الذى يطلق عليه عموما اسم آسيا الوسطى ، هو فى الأصل على هيئة سهل يمتد من سلسلة التلال الشرقية التى تعتبر امتدادا لتيان شان والتى ما تكاد تصل قريبا من سمرقند حتى تأخذ فى الانخفاض الشديد لتبلغ من بعد ذلك شواطئ بحر الخرز . وباستثناء الهضاب القليلة التى تتخلله وبعض المناطق الطفلية التى يعرفها الأهليون باسم « تكير = جاف » أى الأرض الجذباء ، فإن تربته تتكون أساسا من الرمال السوداء أو الصفراء . فلا يصلح للزراعة ، فى الحقيقة ، الا منحدرات التلال وشطآن الأنهار والقنوات . والحال فى آسيا أن الأرض حين تترك وشأنها فانها لا تنتج شيئا مذكورا . لذلك كان استمرار قيام الحروب فى منطقة بعينها لسنوات عشر ، كفيلا بأن يحول أشد أراضيها خصوبة الى صحراء جرداء . بل ان أعظم الجهود تضيق فيها هباء ، اذا ما ظهرت بها شقوق الرمال . وهذه

تكون عادة ضيقة ، وانما بعيدة الغور ، وتتخلل هذه العوائق الرملية كل المناطق الزراعية ، وتوجد حول بخارى وسمرقند . وفى الطريق الموصل بين بخارى وسمرقند يمر السائر لعدة أميال فى رمال جرداء هى صحراء ملك التى تقع فى قلب الأراضى الزراعية .

وتقول الرواية ان هذه الصحراء كانت بحيرة مالحة لثلاثمائة عام خلت . ومع هذا كله فقد كانت خصوبة أراضى بخارى وأراضى الخانيتين الآخرين مضرب المثل ، لما كانت تنتج أرضها من ثمار متنوعة ممتازة . فبخارى تنتج الحبوب والفاكهة والقمح والحرير والخضاب ، وكلها لانظير لها فى الجودة ، ويصدق القول نفسه كذلك على أنعامها . فضلا عن خيولها التى كانت تشتهر بكل آسيا ، فان بعيرها كان يمتاز فى نوعه على كل سلالات ذلك الحيوان النافع بجنوب شرقى آسيا . وناهيك بضأنها الذى لم يكن له ضريب فى العالم كله . ومناطق التلال ، عند الشرق والجنوب من سمرقند ، غنية بالمعادن التى أهمل أمرها ولم يسع أحد من قبل الى اكتشافها . ويذكر البلخى منها الحديد والنوشادر والزئبق والصفيح والرخام والذهب والنفط والقار وزيت الزاج وضرب من الحجارة كان يستخدم فى الوقود ، ولعله هو الفحم الذى كشف عن وجوده الروس بتلك المنطقة .

وخصب اقليم بخارى ، القاحل فى أغلبه نوعا ما ، مصدره فى المحل الأول هو بلاشك ذلك النهر الذى كان يعرف أولا بنهر الصفد ثم بنهر كوهك من بعد ذلك ، وهو اليوم نهر زرفشان « نائر الذهب » . وقد آمدنا أخيرا العالم الألمانى الدكتور رادلوف Radloff والجواب الروسى فيجنكو ببعض المعلومات عن منابع هذا النهر . ويقول فيجنكو ان هذا النهر يعرف عند منبعه فى التلال باسم نهر فان . ومنها يخرج فيتفرع الى روافد أربعة تجرى على ارتفاع سبعة آلاف قدم فوق سطح البحر لتندفق من بعد ذلك الى السهل باسم زرفشان . ويتفرع هذا النهر عند الشمال الشرقى من سمرقند الى روافد متعددة تجرى غربا وصوب الجنوب الغربى متجهة الى اقليم السهوب . وأكبر هذه الروافد يجرى عند الشمال

الغربي من سمرقند مارا بينجشنبه وخاطرجه حتى يصب في بحيرة قراقول، في حين ينتهي رافد آخر أصغر منه الى بحيرة تقع عند حدود صحراء خلطه بين خواجه أبان وقرية خاكسير . ويجرى ثانى روافد هذا النهر الكبيرة الى الجنوب الغربي من سمرقند مارا بكته كورغان وبخارى صوب الصحراء .

وماء هذا الرافد غزير جدا ، فهو يغذى عددا كبيرا من القنوات الطبيعية والصناعية . ويأتى بعد زرفشان فى الأهمية نهر شهرسبز . وهو يمتلىء بالماء فقط حتى قارشى . ولو اهتم القوم بشأنه ، ولو قليلا ، لأفاد كل المنطقة المتاخمة له فائدة عظيمة . وقد دلت التجربة على أن مداومة سقى الأرض هناك لعدة سنين يكسوها بطبقة من الغرين هو سر خصوبتها . وترى الحال نفسه كذلك بالنسبة لمياه جيحون ، وان كانت بخارى نفسها لا تفيد منه فائدة تذكر ، ذلك أن شاطئه الأيمن من ترمذ الى جهارجوى غير مسكون ، اذ أنه يرتفع فى الغالب عن سطح الماء ارتفاعا ملحوظا حتى ليتعسر بذلك رى أراضيه ان لم يستحل ، والمناخ فى ذلك الاقليم يناسب الزرع ، وان كان لا يمكن أن يوصف بالاعتدال الا أنه ليس قاسيا ، وتفاوت درجات الحرارة به يمكن تصنيفه اجبالا على الوجه الآتى :

المناخ معتدل حتى النقطة التى يقف عندها امتداد التلال الشرقية . أما فى الأراضى المنخفضة ، ولا سيما فى مناطق السهوب ، مثل بخارى وكركى وقراقول فتتفاوت درجات الحرارة والبرودة الشديدة فيها مما يجعل الجو غير محتمل على وجه العموم . وباستثناء بخارى فالجو هناك ليس بغير صحى فى كل وقت . وانتشار الأمراض هناك تسببه العادات المردوأة وعوز الكساء أكثر مما يسببه تأثير الجو .

والحديث عن وفرة محاصيل خانية بخارى يصدق كذلك على الأقاليم المجاورة لها من ناحيتى الشرق أو الغرب على السواء . وهذا هو سر السرعة المذهلة التى تفيق فيها هذه البلاد من دمار الحروب . ويشير البلخى الى هذه الحقيقة حيث يلاحظ أن أى جيش مندمر لا يتاح له أن

يسترد قواه بسرعة كما هي الحال في بلاد ما وراء النهر . وهو يضيف الى تقريره هذا أن عدد المدن في بلاد ما وراء النهر يصل الى ثلاثمائة ألف . وهو عدد فيه مبالغة . ولا يسنع هذا القول بأن عدد سكان بلاد ما وراء النهر ، وبخارى على الخصوص ، كان في الزمن السالف أكثر منه الآن بكثير . فعند الفتح العربى كانت قبائل عربية عدة تنزل في كل مدينة ، وكانت الدور مع ذلك تتوفر للسكان حتى كان الرجل يركب لعدة أميال ، صوب الجنوب أو الشمال على السواء بين صفوف من الدور . والغالب أن الثلاثمائة والستين مسجدا ، التى لا يزال البخاريون يتحدثون عنها حتى اليوم ، كانت قائمة بالفعل هناك .

وآصاب الغزو المغولى بخارى بالخراب الشديد . ولكن لم تمض بضعة سنين على ذلك حتى عادت تستوعب ستة عشر ألفا من الرجال (١) فضلا عن ألف طالب علم كانوا يترددون على مدارسها ، ولما يمض ربع قرن بعد على تخريبها . واستعادت بخارى صيتها القديم فى عهد الاشرخانيين ، خصوصا أيام امام قلى خان ، ولكن لفترة قصيرة . وأخذ عدد سكانها يتناقص بالتدريج بعد سقوط هذه الأسرة فلم يزد فى العصور الحديثة على خمسة وثلاثين ألفا . وما يقال فى ذلك عن العاصمة يصدق كذلك على الاقليم كله ولا بد أن عدد سكان بلاد ما وراء النهر كان فيما سبق خمسة أو ستة أضعاف ما هو عليه اليوم ، ذلك أنه برغم تلك الجيوش العظيمة التى ظلت منذ قيام الخلافة تندفق ، دون انقطاع فى الغالب ، صوب غرب آسيا حتى وادى النيل ، ومنها ما كان من المرتزقة ، ومنها ما كان قوات غازية مستديمة ، وهذه جميعا كانت تجلب من مناطق السهوب هناك ، فان شوطى جيحون وسيحون كان لها بدورها قواتها . وهذه جميعا لا يمكن

(١) يتحدث وصفاف ، الذى نقلنا عنه ، عن السكان عموما . على أننا يجب أن ندخل فى اعتبارنا أن الاحصاءات الشرقية من هذا النوع إنما تشير الى عدد الرجال القادرين على حمل السلاح ، اذ لا يلتفت فيها أبدا الى عدد النساء والأطفال (الأهل والعيال) .

بطبيعة الحال أن تتوافر الا في اقليم مكتظ بالسكان . وأغلب سكان بلاد ما وراء النهر كانوا من الايرانيين . وكانت الفارسية هى اللغة السائدة فى بخارى وفرغانة وخوارزم ابان حكم العرب والسامانيين والسلاجقة والأمراء الخوارزميين حتى زمن الغزو المغولى ، وحلت محلها التركية هناك من بعد ذلك كما سنرى . وكما تغيرت اللغة فكذلك تبدل كثير من عادات السكان هناك الى درجة كبيرة . ولطالما أشاد الجغرافيون العرب الأوائل بما كان عليه الأهلون من رجحان العقل والصراحة والسخاء وحسن الضيافة . ولم يبق لهم اليوم من ذلك كله الا الصفة الأخيرة التى لا تزال فاشية فى الريف دون المدن ، فى حين لا تجد أثرا للصفات الأخرى فى أى مكان . ولقد ظلت موجات العناصر التورانية تتدفق على بلاد ما وراء النهر أجيالا مما عرض أحوالها الاجتماعية والسياسية لهزات عنيفة . ولم ينتج عن غف الغزو مجرد جذب وديانها المزدهرة — كما يحدث فى كل مكان — بل أدى ذلك أيضا الى القضاء على كثير من الصفات الانسانية النبيلة بها .

الفصل الأول عصر ما قبل الإسلام

بينما أزاحت أغلب أقاليم آسيا النقب عن بداية تاريخها وكشفت عنه وسط ضباب الأساطير والخرافات الداكن الذى كان يكتنفه ، ترى بخارى تربط مبدأ قيامها كدولة بقصة خرافية لا يستبعد احتمال وقوعها بالقياس الى ما لأرضها من مميزات طبيعية . وهذه القصة تجرى على الوجه الآتى :

« كانت بخارى فى القديم خواء تسودها البرك والمستنقعات (١) وفيها الغاب والأحراش . أما أنهارها وغدرانها فكانت تغطيها ثلوج سلسلة الجبال الشرقية التى تجاور سمرقند الحالية ، وتفيض كل عام على أراضى الاقليم الواطئة ، ولم تكن هذه الأراضى تصلح للزراعة وانما كانت أكثر نفعا للصيادين والساكنين .

« حتى قدم اليها من تركستان البعيدة الصيادون فاتخذوا من أرضها شيئا فشيئا مقاما لهم ، ومهدوا بذلك لقيام قرى تركمود وبروانه واسوانه

(١) هذه المستنقعات والبحيرات كانت تمتد صوب الجنوب الغربى فيما وراء بركنتى فرخ القديمة وقراقول الحالية . والظاهر أنها كانت تمتد لمسافة عشرين فرسخا طولا وتشتهر عن كافة اجزاء خراسان الأخرى بغزارة أسماكها وطيورها المائية . بل لقد كان القوم يقبلون عليها أيام جنكيز خان ليصيدوا البجع بها ، وقد بعث جفتاي واوكتاي ، الى ابيهما جنكيز خان ذات مرة بخمسين حمل بعير من هذه الطيور المائية هدية له ، وكان ذلك من محصول فصل واحد . ولا تزال بحيرة قراقول تزخر حتى اليوم بالأسماك .

ونور (١) . واختار هؤلاء من بينهم أميرا ونوه عليهم ، وكان يدعى أبرزى فسكن بيكند ، أى مدينة الأمير . ذلك أن بخارى حاضرة الملك الحالية لم تكن قد قامت بعد . وأمن أبرزى هذا فى الاستبداد شيئا فشيئا بازدياد سلطانه حتى اضطرت الطبقات الغنية ، بسبب عسفه ، الى الفرار الى الأقسام الشمالية من الاقليم التركى حيث بنوا مدينة جموكيت أوجمكنت ، ومعناها فى لسان تلك الأيام « المدينة الطيبة الجميلة » (٢) أما الطبقة الفقيرة فحين شعرت بعجزها عن الوقوف فى وجه هذا الأمير المستبد ، استعدت عليه الأمير التركى صاحب البلاد التى تجاوز أرضهم ، وكان يدعى قراجورين ، فسير اليهم جيشا وعليه ابنه شيركشور . فأوقع أبرزى فى أسرهِ ووضعه فى كيس ملىء بالأشواك انطلقوا يدرجونه حتى أسلم الروح .

« وبعد الخلاص من هذا الظالم استدعى شيركشور الأثرياء من منقاهم وسمح لهم بأن يجعلوا من أنفسهم طبقة من النبلاء عرفت باسم « خُذات » ، فى حين صار الفقراء الذين بقوا هناك هم الرعية . ويقال ان شيركشور حكم قرابة ثلاثين عاما . وخلفه من بعده أمير يدعى سكجكت (؟) ينسب اليه تعمير مدينتى رامتن وفراخشه بالمنشآت ، وحين أتى هذا الأمير بخطيبته ابنة امبراطور الصين ، أودعت هذه الأميرة فى مدينة رامتن الأوثان التى كانت قد أتت بها مما كان يخصها » .

والمرجع التاريخى (٣) الذى نقلنا عنه ذلك ، يمضى فى روايته فيقول

(١) يصعب تحقيق هذه الاسماء والأعلام عند الترشفى بسبب رداءة خط المخطوط .

(٢) جمكنت هو حتى اليوم اسم مكان غير مشهور بـسيحون الأدنى ، ويرد هذا الاسم علما على بخارى فى فصل آخر عند الترشفى . ويرجح العلامة شبيجل Fr. Spiegel ، وذلك فى رسالة تفضل بكتابتها الى ، أن هذه الكلمة هى بعينها هزوارشى جم كنت = (التى صنعها جم) . ويعلق على ذلك فى الوقت نفسه بأن جم كوت ، وفق رواية أبى الفدا ، وهى التى تكتب فى السنسكريتية « ياما كوتا » كانت تعتبر أقصى الحدود الشرقية للعالم المسكون .

(٣) الترشفى .

بأن حاكم بخارى ، الذى كان يعاصر ظهور الاسلام، كان يدعى «بندون» وقد خلد ذكره بتجديد القلعة التى أقامها افراسياب ، أوسياوش (١) فى رواية أخرى . وحفر اسمه على لوحة حديدية ثبتت بأعلى بوابة القلعة . وقد شاهد هذا الأثر صاحب مرجعنا هذا ، بعد مرور خمسمائة عام على إقامته . وكانت يد الخراب قد امتدت اليه والى القلعة على السواء .

وتقول الأسطورة : ان القلعة انهارت عدة مرات وبندون قائم على بنائها دون سبب ظاهر . وحين استشار الحكماء فى هذا الأمر أشاروا عليه بإقامة أساطين حجرية سبعة ترمز الى السيارات السبع . ومن ثم استقامت القلعة ورسى ، ولم يهاجمها ملك من بعد ذلك الا وهلك عند أسوارها .

وترك بندون من بعده ولدا يدعى طغشاد ، وكان حدثا ، فانفردت بشئون الملك وزوجته التى يدعوها مصدرنا «خاتون» (٢) . ويقال ان حكمها استمر خمسين عاما ظهر العرب أثناءها بهذه الديار . وذاع صيت هذه السيدة لحكمتها واجلال الناس لها . وكانت تغادر حصنها كل يوم بعد الشروق فتقصد بوابة ريفستان — التى صارت تعرف فيما بعد بسوق العلافين — فتجلس فوق عرش ومن حولها رجال البلاط والأعيان وتقيم العدل بين الناس . وكان يقوم على حراستها فى الحضرة كل يوم مائتا شاب يتمنطقون بالذهب ومعهم سيوفهم الذهبية كذلك . وكانوا يستبدلون بغيرهم فى كل يوم . وعلى هذا الوضع كانت تتيح لكل قبيلة أن تشترك فى أداء هذا الواجب أربع مرات كل عام (٣) . وبهذه السيدة انتهى الحكم

(١) تقول الأسطورة ان سياوش بن كيكائوس هرب من ايران عبر جيحون فجاى بخارى حيث أكرم افراسياب وفادته وزوجه من ابنته . وأراد سياوش ان يترك من ورائه اثرا فأقام مدينة بخارى . وقيل ان منشئ هذه المدينة هو افراسياب نفسه .

(٢) يقول أغلب أصحاب المعاجم ان خاتون كلمة فارسية . زفى رأى انها لفظة تركية مستمدة من الأصل « خت » بمعنى الخلط والادغام .

(٣) لا بد أن كان بإمارة بخارى على ذلك تسعون قبيلة ، وبعبارة أدق تسعون من الأسر المرموقة فى الغالب .

الفعلی لأول أسرة حاكمة فی بخارى . فقد حفظ الحكم الاسلامی على من
بقی من أعضائها ألقاب الامارة دون النفوذ والسلطان .

واحتفظ طغشاد باستقلاله الى حد ما مدى ثلاثین عاما نظیر اعتناقه
الاسلام . وقد اشتبك فی حروب مع الترك ، وعلى الخصوص مع من كان
يدعى وروان أو دردان . والغالب أنه شن هذه الحروب بتحريض من العرب
الذين ثبتوا ابنه على العرش من بعده تكريما له . وكان قد سمى ابنه هذا
قتيبة تيمنا باسم القائد العربی المعروف . وحكم قتيبة هذا فی الوقت الذي
كان يقوم فيه أبو مسلم فی خراسان . ولم يبد منه أى ولاء حقیقی لا
للعرب ولا لدينهم على السواء بخلاف ما كان عليه أبوه من قبل . وكان
يتظاهر بالاسلام ليمارس طقوس المجوس من بعد ذلك فی الخفاء حتى
قتل بالزندقة بأمر أبی مسلم عام ١٦٦ (٧٨٢) وأجلس مكانه ابنه نثات أو
بنیات وكان يتظاهر بدوره بالتمسك بالاسلام ، وما لبث أن جهر من بعد
ذلك بدينه القديم حتى أصبح من أعظم أنصار « المقتنع » النبی المزعوم
الذي سنتحدث عنه فيما بعد بالتفصيل . وحين بلغ الخليفة المهدي أمره أمر
أن تسير اليه كوكبة من الفرسان فتباغته بداره فی فرخشة وتقطعه اربا .
ولا يصل إلينا من بعد هذا الحادث شئ يذكر عن هذه الأسرة الحاكمة
القديمة فی بخارى . وآخر من ورد ذكرهم من أمراء هذا البيت هو أمير
يدعى أبو اسحق (١) وذلك بمناسبة بيعه ضیعة كانت له الى اسماعیل
السامانی على جعل سنوی يدفع له قدره عشرون ألف درهم . ومات هذا
الأمير عام ٣٠١ (٩٠٤) ، وعاش أبناؤه من بعده فی بؤس وشقاء (٢) .

(١) يقال انه كان حفيدا لنینات أو بینات .

(٢) كان أحمد بن اللیث یرى فی مجرد السلطة الاسمية التي كان
يمارسها وریث أسرة بخارى القديمة شوكة فی جنبه حتى سأل اسماعیل
عن سر الاحتفاظ به . وبینما كان الأمير السامانی الکبیر یجادل عامله فی
ذلك ، قدم اليهما أبو اسحاق بنفسه ، هنالك سأل اسماعیل عن مقدار
ما تغله أرضه کل عام . وحين أجابه بأنه یحصل منها على عشرين ألف
درهم بشق النفس تعهد له بأن يدفع له هذا المبلغ كمعاش سنوی فبان
عليه البشر وقبل العرض مسرورا .

والى هذا البيان التاريخى ، الذى لا يبدو بحال ما تافها برغم ضآلته ، نضيف ملاحظة تعيننا ، هى وما ينبثق من أضواء خافتة هنا وهناك ، على الامام بعض الشئ بحقبة ما قبل الاسلام ببلاد ما وراء النهر . فقد قام لدينا الدليل ، بالمحل الأول ، فى أقدم آثار الفرس ، وهو الوندidad ، بأن الأراضى التى تقع على الجانب المقابل من جيحون سكنها فى عصر ما قبل التاريخ أناس ينحدرون من أصول إيرانية خالصة .

والفصل الأول من الوندidad ، الخاص بالتكوين ، والذى تناوله كثير من العلماء فى العصور الحديثة بالشرح والتعليق يتناول ستة عشر مكانا ظهرت فى الوجود بقوة أهورامزدا . فنجد هناك تحت رقم ٢ : كاو مع صفدا ، وهو الصفد أو صفدية الحديثة . ونجد ٣ : مورو وهو مورو المعروفة من قديم . ٤ : نجدى وهو بكتريا . ٥ : نساو وهو نسا بكسر النون أو امالتها (١) . ٦ : هرويو وهو هرى أو هراة . ٩ : ورخانة وهى هيركانة (٢) ، ثم ١٦ : راغة الشرقية والمعتقد أنها جيحون (٣) .

وبرغم أن دراسة هذه القائمة المهمة وتحقيق ما بها من أسماء المواضع يفتح المجال لآراء كثيرة ، الا أنه من الثابت أن الباحث الذى يريد أن

(١) من رأى شبيجل فى مجلة اخبار ايران القديمة (Iranische Altertumkunde 194) أن هذا المكان لا وجود له الآن . ويذكر كذلك أنه كان يقع بين مورو وبخدى ، وقد يلتبس كذلك بالقرب من اندخوى وشبورغان وميمنة .

(٢) أخذت بما قررته مراجع وثيقة بأن ورخانة هى هيركانة . وكان فى خاطرى أن ورخانة لا بد وأن تكون هى فرغانة ، وذلك على أساس أنى أعد كلمة هيركانة بدورها من أصل تركى . وهيركانة هى تحريف يونانى للفظ كوركن أو كورغن وهو نهر يجرى فى جبال الكرد ويصب فى بحر الخزر . وكلمة كورغن هى جرجان (اسم مدينة وولاية) عند العرب . ولا يزال التركمان يعرفون أطلالها حتى اليوم باسم كورغن ، وهناك أيضا برية كورغن جولو ، وتعرف كذلك الأراضى التى تقع عند حدود هذه البرية باسم كورغنچ وهو الاسم الذى تعرف به خوارزم - خيوه الحديثة - فى أقدم المخطوطات الجغرافية .

(٣) يعين خانيكوف (Khanikoff, Mémoire sur l'ethnographie) هذا المكان عند درجة ١٦ درجة الى الشرق من راغة (de la Perse. P. 37) نقلا عن شبيجل (Spiegel. Iranische Altertuermer p. 195) فى حين يجعل شبيجل نفسه هذا الموضع تحت رقم ١٢ ولا يقول عنه بأنه سيحون بل يراه نهر رها فى ميديا .

يتقصى نشأة الثقافة الإيرانية لن يبلغ غايته فى جنوب ايران الحديثة وغربها حيث تجذب أنظاره الآثار والنقوش المسامرية ، بل عليه أن يلتبسها فى شرق تلك البلاد وشمالها الشرقى . وكان الاغريق قد سمعوا عن قيام الحياة المتحضرة بآسيا الوسطى ، وبقيام دولة قوية هناك كذلك ، وذلك قبل زحف الاسكندر بزمان طويل . ولعلمهم كانوا قد علموا بذلك كله فى بلاط الاكمينيين (١) . وفى بكتريا ظهر زرادشت بدينه الجديد بعد أن رفضت أن تستجيب له ولاية أتروباتنه ، آذربيجان الحديثة ، موطنه . ومن هذا الاقليم ذى الألف مدينة ، كما يسميه جستن Gust'n ، نفذت عبادة النار الى الصغد وخوارزم وانتشرت فيهما . ومن معبد نوبهار المشهور ، الذى يذكر المقدسى أن أسرة البرامكة كانت تقوم بالسدانة فيه قبل هجرتها الى بغداد ، حملت أنوار المذهب الجديد الى فارس القديمة وميديا . وهكذا نجد مهد الملحمة التى تؤرخ ايران القديمة — وهى التى شرع فيها حمزة الأصفهاني والدقيقى وأتمها من بعد ذلك الفردوسى الشاعر الفذ — لا فى الغرب والجنوب وانما فى المناطق الشرقية من ايران الحديثة .

وما ورد عن الحروب مع توران وأفراسياب أقوى أمرائها ، ليس له فى الواقع من الناحية التاريخية الا قيمة يسيرة . على أن علم السلالات البشرية انما يجد شواهد مهمة فيما ورد فى « كتاب الملوك » من تفاصيل عن اللغة والرسوم والعادات وعن هيئة أعداء ايران ومظهرهم . وهى صورة قد نظمنا الى ما تجمله لنا من مقومات الحياة القديمة فى ايران . وقدم الحضارة البعيد فى هذه الأمصار يؤكد لنا بطريقة حاسمة الكاتب العربى أبو الريحان البيرونى ، أحد أبناء آسيا الوسطى والباحث الناقد الوحيد فى تاريخ آسيا الوسطى القديم . وهو يتحدث إلينا ، فيما يتحدث ، عن التقويم الخوارزمى القديم الذى كان يراه أدق من تقويمى الاغريق والعرب على السواء . ويعطينا كذلك بيانا عن اللهجة القديمة للصغد

(١) انظر مقال بتوقيع مستعار لراولنسون Sir. Henry Rawlinson, Quarterly Review, 1868 p. 488.

ولخوارزم ، وذلك حين يربط بين أسماء الشهور الاثني عشر والأيام
الثلاثين لكل شهر وعلامات منطقة البروج — وهو جدول علمي في أغلبه
بلغه الزند وصورته في ذلك أدق بكثير مما يحتفظ به البارسيون . كذلك
نراه يتحدث عن النقوش الخوارزمية التي قيل ان غزاة هذا الاقليم
الأولين من العرب قد عنوا بالاطلاع عليها (١) .

وهذه جميعا كانت في الغالب مكتوبة بلغة الزند ، وهي لغة عاشت
بالأرجح على ضفاف جيحون أكثر مما عاشت بايران . ولم يأت القرن
الثاني الهجري حتى كانت هذه اللغة القديمة وأبجديتها بمنطقة جيحون قد
غفى عليها النسيان . ونحن نسمع عن نقشين غامضين لم يصل أحد الى حل
رموزهما ، وهما يرجعان الى عصر ما قبل الاسلام . ويرجح أنها كتبا بلغة
الزند أو بلغة بكتريا پالي . وأحد هذين النقيشين كان يقوم على بوابة
سمرقند المصنعة بالحديد . وحين دمرها الحريق ضاع معها هذا الأثر . أما
النقش الثاني فيقول النرشخي بأنه كان يعلو مدخل القصر الملكي القديم
في ريغستان ببخارى . ويحتمل أنه كان يحوى أكثر من مجرد ذكر اسم
مؤسس القصر كما يشير هذا الكاتب . وأيا ما كان شأن هذه الاستنتاجات،
فالثابت أن لهجة آسيا الوسطى الفارسية الحديثة تحوى من بقايا
الفارسية القديمة ، قبل أن تتسرب اليها العناصر السامية والتورانية ، أكثر
مما تحويه اللهجات الفارسية الأخرى مجتمعة ، وذلك رغم أن أصحاب
اللهجة الأولى لبثوا قرونا عديدة على اتصال وثيق بالغالبية التورانية
صاحبة السلطان هناك . فى حين لم يكن غيرهم من أصحاب اللهجات
الفارسية الأخرى فى أقصى الجنوب يتصلون بجيرانهم من الساميين الا
لما ٢ .

(١) المصدر السابق ص ٤٩١ .

(٢) ان لهجة آسيا الوسطى التى يتحدث بها التاجيك لم تلق اهتماما
بذكر من اللغويين الإيرانيين . ولهذه اللهجة خصائص كثيرة فى تراكيبها
اللفوية والفاظها على السواء تذكرنا بلغة الفردوسى . والضمير والفعل فيها
على الملاحظ ، نجد اثر التركيبة فيهما دون اثرها فى الفارسية الحديثة
بكثير .

حين تقارن بين ملامح الايرانيين الشرقيين الطبيعية ولامح
اليرانيين الغربيين نجد التقارب ووجه الشبه بينهما ظاهرا . فسحن
التاجيك الفلجا والوخانيين والجشيديين والبراسوانيين قوام سكان
ايران الشرقية ، تجد عندهم من ملامح الجنس الايراني أكثر مما تجد في
النقوش التي تصور سحن العصر الساساني (١) .

وما يقوله العلامة الجغرافي خانيكوف من أن مجال الشعب الايراني
الأول هو في الوديان الخصبة بين الهندكوش وسلسلة جبال بغمان وكوه
بابا ، مقبول حين نند مهد الشعب الايراني ، المفروض هذا ، حتى المناطق
الخصبة بشواطئ كوهك أو زرفشان . أما الطريقة التي انتشر بها الجنس
الايراني من المناطق سالفة الذكر هذه صوب الجنوب والغرب فهو موضوع
دراسة يخرج عن دائرة بحثنا . فما يعنيها هو أن نقف على مدى انتشار
عناصر بلاد ما وراء النهر الايرانية صوب الشمال وصوب الشرق . ولئن
كنا لا نجد لنا من معين في سعيها هذا الا مجرد جدول جغرافي ، فانما
نستمد من أسماء الأشخاص عونا قيما بدورها حين ندخل في اعتبارنا أن
السكان المتحضرين الذين سكنوا الجانب الأقصى من جيحون كانوا دائما
من اليرانيين .

وأقدم المستعمرات هناك كانت تلك الرقعة من الأرض التي تمتد
من اخسيكت القديمة عند حدود فرغانة الشرقية حتى بخارى . وهذه
الرقعة التي تضم أغلب أراضي بلاد ما وراء النهر الخصبة تتخللها أنهار
وقنوات طبيعية وصناعية عديدة . ونجد عند البلخي ، في مخطوطه
الجغرافي ، بيانا بأسماء جبالها وغدرانها وأنهارها فضلا عن مدنها ونواحيها
وقراها . وجميع هذه الأسماء فارسية قديمة في أصلها . وحال دون انتشار
الحضارة من هذا المركز الى ما بعد بخارى غربا تلك الكشبان الرملية عند
خوجه أبان التي تعد امتدادا لصحراء خلطه . وظهرت قراقول (البحيرة

(١) انظر في ذلك بحث خانيكوف القيم الذي سبقت الإشارة اليه .
وهو يرى في التاجيك انقى صفات الجنس ، في حين يرى راولنس أن هذه
لا تتوفر الا عند الوخانيين سكان بدخشان الذين لا يزالون على الفطرة .
أما في آسيا الوسطى فإن الفلجا هم أقدم العناصر الفارسية (الايرانية)
بالبلاد .

(السوداء) وكذلك بيكند (مدينة الأمير) من بعد كما ينبىء بذلك اسماهما التركيان . وانتشرت حضارتهما صوب الشمال فيما وراء خجند (خوش جند أو خوب جند = المدينة الجميلة ؟) حتى شاش (وهذا الاسم هو من أسماء سيحون كما يعرف به كذلك احدى المدن التى تقع على شاطئه) وبنكت (بكسر الباء أو امالتها ، وهذا الاسم هو ، على ما يحتمل مشتق من كلمتى بناء كت ، أى الملجأ والملاذ) ، فى حين انتشرت هذه الحضارة فى الشرق ببعض وديان الجبال الشامخة . ولا مرأ فى أن ختن وترفان وغيرها من أسماء الأماكن الأخرى انما تشير الى قيام المستعمرات الأولى هناك (١) .

كان الايرانيون ، وهم الكلفون بالمدينة بطبعهم ، يستقرون ماوسعتهم الأرض بامكانياتها وبعد عنهم خطر غارات التورانيين حدا ما . وأيا ما كان من ميل القوم الفريزى الى ممارسة الحرف والفنون الجميلة أو من تأثرهم بجيرانهم الصينيين أصحاب الابداع ، فالثابت المعروف أن تجارة الحرير ، التى كانت تقوم بين امبراطورية الصين ورومية أيام القيصر أغسطس ، قد وجدت بين أبناء آسيا الوسطى من يقبل على الاشتغال بها فى غيرة وجد ، ولم يكن هؤلاء من التورانيين على وجه اليقين . ويروى النرشخى أن تجار بيكند كانوا هم الوسطاء بين الصين والبحر الغربى (قزوين)^٢ وتقول المصادر البيزنطية ان أهل بخارى وصغديا كانوا فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين يسيرون بقوافل الحرير العظيمة عبر

(١) يرى آبل رموسات ، Abel Remusat, Hist de la Ville Khoten ان لفظ ختن هو تحريف للفظ السنسكريتى كو - ستانا ، أى صدر الأرض . ويرى أهل آسيا الوسطى أنه مشتق من اللفظ الفارسى « خوب تن » أى الجسد الجميل ، يشيرون بذلك الى عرق الرجال الوسماء ونتج عن اتصال هذا العرق الوثيق بكشمير أن صارت مدن ختن تتميز بطابعها الخاص على مدن تركستان الشرقية الأخرى .

(٢) لا أجزم بأنه هو بحر قزوين برغم ذكرى له ، ولا بعدد كذلك ان يكون المقصود هنا بحر آرال ، ذلك أن مخطوط البلخى فى القرن الثالث الهجرى يذكر ان بحر خوارزم ، أى بحر آرال ، كان متصلا ببحر الخزر ، أى قزوين .

الامبراطورية الساسانية الى شرق بلاد الامبراطورية الرومانية . وحين شق العرب من بعد ذلك طريقهم عبر جيحون ، وجدوا هناك نشاطا صناعيا وزراعيًا مهما . والثابت المعروف أننا لم نعثر على آثار مثل آثار بربوليس وسوس أو كتابات مسمارية تدل في جلاء على ما كان لآسيا الوسطى من حضارة قديمة .

وليس لنا أن ننسى أن المدينة الايرانية قد تعرضت منذ العصور الأولى لغارات التورانيين فيما وراء جيحون . ففي الوقت الذي أقام فيه الايرانيون مدنهم على ضفاف جيحون وسيحون واستقروا فيها ، كان بدو التورانيين في ذياك الوقت البعيد يتجولون ، على وجه اليقين ، في مناطق السهوب المجاورة لها .

وليس ثمة دليل نستدل به على الوقت الذي بدأت فيه غارات التورانيين الأولى على المناطق الزراعية ببلاد ما وراء النهر . وقد تأكد سلطانهم واستقرارهم هناك ابان الاحتلال المغولي لتلك البلاد . وما نعلمه عن عرق هؤلاء البدو الذين كانوا يتجولون على حدود السهوب قليل ، اذ كانوا يعرفون بالغز حينما عند الشمال من سيحون وحينما آخر عند الشمال من جيحون . ويذكر البلخي كذلك في تقويمه أن البدو عند الشمال من جاج ، آخر مناطق الحضارة والاسلام ، كانوا يعرفون بالغز ، في حين ظلت المصادر الفارسية لعدة قرون متأخرة تعرف بالغز بدو الترك الذين أسروا السلطان سنجر بالقرب من أندخوى الحديثة . ولا نلمس الا قدرا ضئيلا من الصواب في القول بأن الترك كانوا قد انطلقوا عام ٧٠٠ ق.م (١) عبر جيحون ، وهو الحد القديم الذي كان يفصل بين ايران وتوران ، فبلغوا حدود الهند .

(١) يقول راولنسن في مقاله الذي أشرنا اليه من قبل « في هذا الكفاية لبيان أنه على مدى ألف عام فيما بين عام ٧٠٠ ق.م ، وعام ٣٠٠ م تدفق من سيحون قبائل من السيث ، تنتمي الى نفس العرق الذي ينتمي اليه قبائل الروس والفينين واللاب والمجر والأوربيين ، فاجتاحت مناطق آسيا الغربية ، وبلغ فريق منها الهند في حين سار فريق آخر منها الى سوريا وآسيا الصغرى » . ولا أعارض هذا القول من حيث الناحية التاريخية =

وما وصلنا بعد ذلك من أخبار السيث المعاصرين للرومان والسكا
المعاصرين للاغريق ثم الهياطة أو الهون البيض الذين كانوا يعاصرون

= ولكنى أجد أدلته اللغوية ضعيفة متخاذلة . فما أورده هذا المؤلف على أنه
كشف للكتابات التورانية هو موضع شك بالغ . ولا مناص لي من أن أعلن
بكل صراحة أنني لم أجد الا قليلا جدا من التورانية فيما اكتشفه أوبرن
ونوريس ومورتمان Uppert, Noris and Mordtmann. وقالوا عنه
بأنه ألفاظ تورانية . وما تحت يدي في هذه اللحظة مما كتبه هؤلاء هو فقط
بحث عن نقوش مسمارية من الطبقة الثانية نشره مورتمان في المجلد الرابع
من مجلة المستشرقين الألمانية Zeitschrift der deutschen morgenlaendischen.
Gesellschaft وسأورد هنا الشواهد التي احتج بها على تماثل الألفاظ التورانية
وتشابهها لأقيم بذلك الدليل على مدى سطحية هذه النظرية كلها عنده ،
وأن هذا المشتغل باللغويات الإيرانية هو غير متمكن من فقه اللغة التورانية ،
فهو في ص ٩ يقارن كلمة انجو = فرس بالكلمة التركية تنكيز . فلماذا
لا يقارنها باللفظة التركية اتكين = البحر المفتوح . أو لعل السيد مورتمان
قد اكتشف أن الكلمة الأخيرة مشتقة من اللفظ التركي القديم « آنجا » بمعنى
الاتساع أو الامتداد . قارن أنيرا = أن يرغب بالكلمة التركية أويناسق ،
وهو لسوء الطالع ليس معناها « أن يرغب » بل « أن يقنع » . وفي ص ١٥
يقارن كلمة أرتك = قاطن بالكلمة التركية أوتورمق = أن يسكن والأصح
« أولتورمق » = أن يجلس . فهل أراد بذلك أن يقارن الأصل « آرت »
بالأصل « أولتور » . وفي ص ١٨ يقارن اتزاكا = واسع مع الكلمة التركية
أوروزن = طويل فلماذا لا يقارنها مع كلمة « اجسق » = مفتوح ، عريض ،
ويقارن كذلك كلمة اوراس = القلعة بالكلمة المجرية Var = الحصن ،
والكلمة التركية « واروش » = بلدة . ولا حاجة بنا الى القول بأن اللفظ الأول
مشتق من اللفظ الفارسي « بارو » ومعناها الخزان أو المتراس ، وأن الكلمة
الثانية هي لفظ مجرى أصيل نقله العثمانيون عن المجرين حين كانوا ينزلون
على ضفاف الدانوب . ويقارن كذلك في ص ٢١ اويدوا = أن يفور
بالكلمة التركية « طومتق » = أن يمسك . وفي ص ٢٤ يقارن جت باللفظة
التركية كوترمك . ولعل السيد مورتمان قد نسي أن هذه اللفظة
معناها أساسا « أن يحمل أو أن يرفع » وانها ترتبط أساسا بكلمة « كوج »
الحمل . أما كلمة « كتورمك » = أن يحضر فهي لا تقي بالغرض ذلك لأن
الصيغة الأصلية هي كوترمك = أن يؤدي للمجيء . وفي ص ٢٥ يقارن ا
نهر باللفظة التركية « ايرمق » . ومن اللطيف كذلك مقارنته باللفظة التركية
أياق = القدم مع ياجي ، ويج ، ياكى = عدو . والمعروف أن هذه الكلمات
مشتقة من أصلين مختلفين تمام الاختلاف . فالأصل « اى » يدل على
الفتح أو الشق في حين يدل « ياو » و « ياك » على معنى « الشق أو التمس »
ولبيان بقايا الألفاظ المتخلفة من عصور قبل التاريخ ، ينبغي على الباحث
الآ يرجع في ذلك الى اللغة التركية أو أى لهجة من لهجات الترك الحديثة ،
بل يطلع على قوتد قوبيليق (أقدم كتاب كتبه الترك بعد اسلامهم الجماعى :
المترجم) ، وحتى هذا الأخير لا يزيد عمره على تسعمائة عام في الغالب .

البيزنطيين ، ومن أخبار يوى — جى الصين كذلك ، نجد فيه جميعا كثيرا مما يؤيد صحته . ذلك أن الترك الذين تدفقوا فى القرن الثانى قبل الميلاد على بكتريا ، وكانوا يعرفون باسم أو آخر من تلك الأسماء التى كانت تطلق عليهم ، كانوا قد أقاموا لهم دولة ، على أنقاض دولة بكتريا الاغريقية ، ظلت قائمة حتى منتصف القرن السادس الميلادى على مايرويه رينو . Reinaud. (١) . ونجد ما يؤيد هذه الدعوى فى وجود كلمة بلخ ، بفتح الباء أو امالتها ، فضلا عن الشواهد التى نجدها فى أسماء الملوك على سكة بكتريا .

وبلخ هذه ليست الا بالقرى أو بالقرى التركية القديمة ، ومعناها المدينة أو العاصمة . وهو الاسم الذى كان يطلقه الترك على مقر أميرهم . وفعل المغول مثل ذلك من بعد ذلك بعدة قرون فكانوا يعرفون مقر خانهم الأعظم باسم خان بالق (وهى التى يعرفها الأوربيون باسم Cambalec, Kambalu. يقصدون بذلك مدينة الخان .

وثمة دليل آخر على وجود العناصر التورانية منذ عصر مبكر عند الجنوب من جيحون نجده عند الجغرافيين العرب الأوائل الذين يقولون بأن تركا من قبيلة خلع (٢) (والأصح خلجى أو خلج = سيف) سكنوا فى أزمان متقدمة على شواطئ هلمند . ولعلمهم كانوا من بقايا السكا الذين أطلق اسمهم على سكستان أو سجستان ، وهى سيستان الحالية .

وكذلك نجد على الشاطئ الآخر لسيحون دليلا آخر على وجود العناصر التركية فى زمن مبكر هناك وذلك فى تسمية العاصمة بخارى ، ذلك اللفظ الذى لا يقوم أدنى شك فى أصله التورانى . ونظيره كذلك

Relations politiques et commerciales de l'Empire romain (١)
avec l'Asie orientale. Paris 1863, P227.

(٢) ذكروا باسم خلج بتعميم الكسر والأصح تعميم الفتح وعلى هذا قد تقارن هذه الكلمة بالكلمة التركية « قلع » أى السيف (المؤلف) . وينسب اليهم بعض المؤرخين بيت الخلعيين الذى حكم بالهند فى القرنين السابع والثامن الهجريين وكان لأصحابه فتوحات عظيمة هناك (المترجم) .

كلمة ييكند (ييكند) التى ذكرناها من قبل . وآمو الذى يعرف به
الأهلون جيحون هو بدوره لفظ تركى كذلك ومعناه النهر . ولئن لم يكن
من اليسير أن نجزم بأن الترك ، أول ظهورهم ببلاد ما وراء النهر ، كان
لهم من السلطان نصيب أو كانوا مجرد جند مرتزق عند الأمراء الايرانيين ،
الا أننى مع ذلك أميل الى الأخذ بالرأى الأول وذلك للاعتبارات الآتية :

أولا : أن الترك ، بوصفهم طبقة ممتازة من المحاربين ، كانوا يصلون
الى السلطان جيشا ظهورا — وهى قاعدة نجد لها أمثلة كثيرة فى القرون
الوسطى وفى الأزمنة الحديثة على السواء .

ثانيا : هذا الرأى تظهره الصلات التى قامت بين الامبراطورية
البيزنطية والترك فى الشرق الأقصى . ذلك أنه حين أدرك سكان الصغد
أن تجارة الحرير ، وهى التى كانت تدر عليهم أرباحا طائلة ، تتعرض
للمتعاب بسبب سياسة الفرس ، استنجد أمير الصغد التركى ، أولا
وقبل كل شئ ، بالخان الأعظم ديزابول (١) .

وحين تبين لهذا الخان بدوره عجزه عن اقرار الأمور سلما مع ملك
الفرس ، اتصل بجستينيان الثانى امبراطور القسطنطينية . واضطر السفير
التركى ، لكى يتجنب المرور فى الأراضى الفارسية ، وهو فى رحلته من
بلاط ديزابول الى شواطئ السفور ، الى أن يسير بحذاء شاطئ قزوين
الشمالى مخترقا ممرات القوقاز السرية التى لا يعرفها الا القليلون . وتؤيد
هذه الواقعة ما يقال ان هذا الأمير التركى القوى كان يحكم فى جبال
التاى وعلى شواطئ سيحون . ويدل اسم أمير صغديا ، الذى ذكره
الاغريق باسم مانياك ، على أنه بدوره لم يكن ايرانيا بل هو تورانى .

(١) هذا الاسم الذى ورد عند المؤرخين البيزنطيين على هذا الرسم
هو فى الغالب الرسم اليونانى للفظ التركى ديزاؤول أو ديزاؤل المشتق من
الأصل ديز/مك أو تيز/مك أى أن ينظم أو يهيم . فهو المنظم أو المهيم
(فى المعركة مثلا) . فهو بذلك يدل على المنصب الرفيع ، نظيره فى ذلك
اللفظة الجديدة « يساول » تطلق على جندى الحرس الملكى فى الصين ،
فهى مشتقة من الأصل ياز/مق أن يصف أو يهيم .

فما نيك كلمة تركية معناها الأمير أو النبيل أو رفيع المقام . ولا يزال هذا اللفظ ، على تحويل بسيط فيه ، يروج عند القرغيز ، حيث يعرف أمراؤهم باسم ماناب (١) .

ثالثا : تردد الكتابات التاريخية الأولى عن بلاد ما وراء النهر ذكر وجود الترخانيين ، وهم أصحاب مرتبة تركية رفيعة معروفة . وكانوا يحكمون في سمرقند وبيكند ووفكند وقد تغلب العرب عليهم جميعا الواحد بعد الآخر .

ومع كل ما ذكرناه فإن مبلغ علمنا عن أحوال الترك في وسط آسيا قبل العهد الاسلامي هو ، بكل أسف ، جد قليل بوجه عام . ولو كان المسيحيون البيزنطيون قد أوتوا من العلم والميل الى المعرفة مثل ما أوتى العلماء المسلمون في القرون الأولى من الهجرة ، لأفاد العلم فائدة جلية من تلك الرحلة التي قام بها السفير البيزنطي زمارخوس حين زار بلاد ديزابول في القرن السادس الميلادي . ولقد حال دون تحقيق هذا القصد جهل المسيحيين وغطرسة الاغريق ، فلم يترك لنا سفير جستنيان هذا الا مجرد بيان مضطرب عن العادات والأعياد بدلا من أن يطلعنا على صور من رحلته مع ملاحظاته عليها وأمثلة من لغات هؤلاء البرابرة .

أما عن أحوال سكان آسيا الوسطى الدينية الأولى ، فقد لاحظنا من قبل أن عقائد زرادشت كانت هي ديانة السكان الايرانيين القومية . ويتضح ذلك جليا فيما حول بلخ . وحين نذكر المقاومة الشديدة التي قابل بها السكان الايرانيون الحملات الاسلامية من بعد ذلك سوف لا نعجب حين نجد أن تعاليم زرادشت كانت قد انتشرت من بيوت النار في بلاد ما وراء النهر صوب الشرق ، فبلغت من بعد ذلك منازل بدو الترك عند تيان شان ، كما انتشرت كذلك صوب الشمال الغربي حتى شواطئ بحر

(١) انظر في ذلك رادلوف M. Radloff Journal asiatique, extrait No. 9 (1863) حيث يقول « المانابيون عندهم يتوارثون كما يتوارث سلاطين القازاق » . وأن لم تخنى الذاكرة فقد سمعت بدوري لقب ماناب بين القراقلق .

آرال . وتعرضت الزرادشتية قبل فجر التاريخ الى ضربة شديدة حتى في بلاد ما وراء النهر نفسها وذلك بفعل البوذية التي قدمت من الشرق . وهو أمر ترى ذكره واضحا في قصص الشاهنامة . ويكتب في هذا الشأن العالم المتخصص (١) في تاريخ ايران القديم وهو يتناول «كتاب الملوك» بالدرس فيقول « منذ ذلك الحين » ، أى منذ وفاة كيخسرو ، « تأكد لدينا أن التورانيين كانوا يعبدون الأوثان . وكان ملك التورانيين يدعى بغو نجاد ، أى من ينتسب الى بغو ، وأنه كان يكتب بأبجدية بغوية بما يشير بما لا يدع الشك الى أصله البوذي » .

ويحتمل كل الاحتمال أن النضال بين البوذية والزرادشتية في بلاد ما وراء النهر اتخذ صورته بين عرقين لا بين عقيدتين فحسب . وكان أولياء العقيدة الأولى التورانيون الذين تلقوها في التبت . وبازائهم طفق الايرانيون يدافعون في حمية طبيعية عن ديانتهم القومية .

ولا نعلم التاريخ الذى أطلق فيه الاسم التوراني « بخارى » على المدينة الايرانية القديمة « جموكت » . ذلك أن « بخار » (٢) لا يزال حتى اليوم علما مغوليا على المعبد أو الدير البوذي . وعلى ضوء ما كان من أثر انتشار نفوذ الصين بين ترك الشمال ، فيما بين صحراء جوبي حتى بحر قزوين ، ذلك النفوذ كان يقوم قبل المسيح وابان حكم أسرة هان ١٦٣ ق.م — ١٩٦ م ، فان لنا أن نستنتج أن العقائد البوذية قد وجدت لها أتباعا على ضفاف زرفشان في القرون المسيحية الأولى (٣) .

(١) يؤكد شبيجل في مقال ظهر له في مجلة Ausland بعنوان (تركستان الشرقية) ، أن القبائل الى التركية من تيان شان كانت تعبد النار في القرن السابق الميلادي .

(٢) انظر مقال للاستاذ شبيجل في Iranische Altertumkunde, p. 663.

(٣) يذكر الكتاب المسلمون اشتقاقا مماثلا لهذه الكلمة مؤكدين أن بخار هو في لغة عبدة الأوثان معناه « مجمع العلم » أى مدرسة ، ولا يزال الترك حتى اليوم ينطقون كلمة بخارى نطقا صحيحا على خلاف الفرس الذين ينطقونها بامالة الباء نحو الكسر .

وقد يتصل بهذا ما سبق أن ذكرناه عن مقالة النرشخى وما ورد بها بشأن ابنة امبراطور الصين وما كان ضمن بائنتها من أوثان عرضتها فى رامتن .

ولا ننسى كذلك أن نشير الى تقرير الجوايين البوذيين فاهيان وهيون — سنغ ، وما ذكراه عن ازدهار البوذية فى تركستان الشرقية فى القرن الخامس الميلادى ، ذلك الازدهار الذى لا يستبعد امتداده كذلك حتى مناطق جيحون . وقد وجدت آثار البوذية آخر الأمر ببلاد ما وراء النهر عند الفتح الاسلامى . ذلك أن العرب ، حين فتحوا بيكند ، كان من بين ما استولوا عليه بها من الأوثان صنم عظيم الحجم من الذهب الخالص استرعى انتباههم ، اذ كان له عيان من جوهر ثمين . وقد بعثوا به الى الحجاج . بل لقد بقيت آثار البوذية بين سكان آسيا الوسطى حتى بعد انتشار الاسلام . ويحكى لنا النرشخى أنه كان يقوم ببخارى فى كل عام سوقان كبيران للدمى أو التصاوير . وكان ما يباع فى أحدهما تصل قيمته الى خمسين ألف درهم .

ويرى الكاتب العربى أن مرد ذلك هو الى العادات السائدة أيام كان أهل بخارى يعبدون الأوثان ، اذ كانوا يشترونها من هذه الأسواق .

ان الصورة التى نرسمها عن الأحوال الدينية فى آسيا الوسطى قبل العصر الاسلامى قد يزيد غموضها عما هو عليه حين نهمل الإشارة الى مسيحية النساطرة التى نفذت فى وقت مبكر الى داخل آسيا وبلغت الأراضى المتاخمة لسيحون وجيحون . ويلاحظ (١) العلامة الكولونيل هـ. يول H. Yule بحق فى مؤلفه القيم « الخطا والطريق اليها » أن قصة نشاط القديس توما "Cathay and the way thither" الذى امتد حتى الصين ، هى بيان انتشار عقيدة المسيح فى القرن الثالث بين الفرس والميدين والصينيين ، هذه كلها يجب أن لا تقبل على علاقتها .

(١) انظر ص ٨٨ من مقدمة ذلك الكتاب .

ويصدق ذلك الى حد ما على القرن التالي لذلك حين أخذ شابور يضطهد المسيحيين ، وحين قامت الأسقفيات البابوية فى طوس ومرو عام ٣٣٤ م ، وقد رفعت هذه الأخيرة عام ٤٢٠ م الى ابراشية . هذا كما أدت مطاردة الامبراطورية البيزنطية للنساطرة المنشقين على الكنيسة - تلك المطاردة التى قامت بسبب الخلافات المذهبية المريعة - الى أن انطلق هؤلاء يلتمسون مجالا لنشاطهم فى الشرق القصى . وقد مهدت كراهيتهم للبيزنطيين لكسب عطف الساسانيين عليهم . ولا بد أن جهودهم التبشيرية قد صادفت قبل ظهور الاسلام قدرا ملحوظا من التوفيق فى الجهات التى أدى فيها النضال بين البوذية والزرادشتية الى أن لم يعد لأيهما من سلطان على عقول الناس ، فهأوا بذلك الفرصة للتأمل والتبصر فى أمر دينهم .

هذا هو ما كانت عليه الحال بآسيا الوسطى على وجه التخصيص . وكانت المسيحية ببلاد ما وراء النهر قد اتخذت لها مركزا فى سمرقند حيث أنشئت بها أسقفية بابوية ، وذلك فيما بين عامى ٤١١ و ٤١٥ م على ما ذكره السريان وفيما بين عامى ٥٠٣ و ٥٢٠ م على ما يقول به يول . كذلك نرى كوسماس يتحدث إلينا بدوره عن المسيحيين عند شواطئ جيحون فى منتصف القرن السادس الميلادى . ووجد العرب بدورهم المسيحيين فى بخارى . ويذكر الترشىخى ذلك بجلاء فيما كتبه عن الكشكوشان . ولم يكن هؤلاء ، على ما تقول الرواية ، من العرب أو من أهل البلاد ، ولم يكونوا كذلك من المسلمين أو من عبدة النار ، فهم قوم قدموا من الغرب واشتغلوا فى الغالب بالتجارة وكانوا موضع تقدير كبير من البخاريين . وحين أمر قتيبة البخاريين أن يتنازلوا عن نصف ديارهم لمهاجرى العرب أخرج الكشكوشان كلهم من ديارهم وأقاموا لهم دورا جديدة بظاهر المدينة حيث كانوا يملكون بساتين جميلة فيها الجواسق ، وقد بيعت هذه كلها بأسعار عالية حين نفوا من بعد ذلك من الاقليم كله .

ويستبين فى سرف مما سلف ذكره أن الحكم الاسلامى حين ثبت أقدامه فى مدائن بلاد النهر بعد الفتح الاسلامى ، لم يستطع هؤلاء

الكشكوشان (أى المتجولون) أن يحتفظوا بكيانهم معه . فلم يكن
للمسيحيين فى القرن الثالث الهجرى الا جالية واحدة مهمة كانت تقطن
مناطق سمرقند الجبلية ، وكانت هذه تدعى زردكرد (١) . وعاش هؤلاء
آمنين زمنا طويلا فى شرق تركستان على كل حال . ولئن صار لهم
السلطان على شائئهم من المسلمين أيام حكم المغول البوذيين الا أننا نجد
أن المسيحيين صاروا قلة ضئيلة بأواسط آسيا أواخر القرن الثالث عشر
الميلادى (٢) .

بعد هذه المحاولة التى بذلتها ، لازاحة نقاب الغموض الكثيف الذى
كان يحجب عنا شواهد الحياة القومية والاجتماعية ببلاد ما وراء النهر ابان
العهد السابق للحكم الاسلامى بها ، ينبغى أن لا يعجب أحد حين يرانا من
بعد ذلك عاجزين عن أن نورد شيئا عن الحياة السياسية فى تلك البلاد اذ
ذاك . وبرغم أن الحروب والعلاقات السياسية التى قامت بين الساسانيين
والامبراطورية الرومانية الشرقية فى القرن السابق على الفتح العربى قد
وصلت ما بين آسيا والغرب حدا ما ، الا أنه فى هذه الفترة نفسها لا يصل
الينا من أخبار تلك الأراضى التى تقع وراء جيحون ما نستطيع أن نتخذ
منه بداية لمادة تاريخية . فنحن نعلم حقا أنه ابان حكم بهرام الخامس الذى
يدعوه البيزنطيون باسم « ورائس » اندفع خان الترك أو خاقانهم فى جيش

(١) انظر مخطوط البلخى الجغرافى بدار الكتب الاهليه بفينسا
ص ١٤٥ .

(٢) ينكر المؤرخون المسلمون هذه المسألة . ولكننا نجد عند الكولونيل
يول فى كتابه Travels of Marco Polo, London Vol. I p. 172 ما يأتى :
« يذكر الامير سنباذ صاحب العسس بأرمينيا فى رسالة له صدرت من
سمرقند عام ١٢٤٦ .. أو عام ١٢٤٧ .. » انتهى اليك اننا وجدنا كثيرا من
المسيحيين منتشرين فى الشرق كله ولهم كنائس جميلة شامخة قديمة حسنة
العمارة ، وقد خربها الترك جميعا . وحين مثل المسيحيون بين يدى جلد
الخان الحالى (أى جنكيز) استقبلهم بالاكرام ومنحهم حرية العبادة وأصدر
أوامره بمنع الحائى أى أذى بهم سواء بالقول أو بالفعل . وهكذا تلقى العرب
الذين الحقوا المهانة بهم الصاع صاعين » . (المؤلف) .
يشيد العالم المستشرق بارتولد فى كتابه عن تاريخ الحضارة الاسلامية
ص ٨٦ بتسامح المسلمين وأن المعتصم العباسى تشدد فى عقاب بعض من
تعرضوا لمعابد المجوس ببلاد الصغد (المترجم) .

قوامه مائة وخمسون ألف مقاتل الى بلاد ما وراء النهر وخرم خراسان، حتى تصدى له الملك الفارسي فهزمه وأنزل به خسائر شديدة وطرده الى ما وراء جيحون . ولا يقل هذا الحادث في غموض تفصيلاته عن الحرب التي وقعت بين فيروز ، الذي يعرفه الاغريق باسم بيروسس (كسرى أبرويز) وأمير الترك الذي يطلق مؤرخو الفرس عليه ذلك الاسم الايراني الجميل « خوشنواز » أى طيب السجايا ، وهو اسم يشير الى صفات التتار النبيلة أكثر مما يشير الى شخص بعينه . وتذهب الرواية الى أن فيروز هذا كان قد قابل ما أسداه هذا الأمير التركي له من جميل ، حين عاونه على ارتقاء العرش ، بأن هاجم بلاد ما وراء النهر . ونزلت الهزيمة بفيروز ، ولكن خوشنواز أكرمه وعفا عنه ، وطلب اليه اقرار السلام بينهما .

ولم يهدأ للملك الساساني بال حتى عاد الى حرب عدوه من جديد فخر حياته وأضاع جيشه في معركة حاسمة . ولم نخبرنا المراجع الفارسية عما اذا كان خوشنواز هذا كان خاقانا بالفعل على كل القبائل التركية في آسيا الوسطى أم كان مجرد أمير على بعض الأراضى فيما وراء جيحون . ولا نسمع عند النرشخي والطبرى الا عن بعض أفراد من الطرخانيين كانوا يحكمون فى بيكند ورامتن وواردنزي وسمرقند وفرغانة عند قدوم العرب . ولا تفصح هذه المصادر عما اذا كان هؤلاء مستقلين فى بلادهم أو كانوا تابعين للخاقان . والأصل فى لقب طرخان (١) بمعناه الصحيح أنه علم على أمثال هؤلاء الأمراء والرؤساء الكبار . ويبدو أن تاريخ الفتح العربى يشير الى قيام الاستقلال المتبادل هناك . ذلك أن طرخان سمرقند حين اشتبك فى الحرب مع قتيبة اضطر الى الاستنجاد بحلفاء من بنى جلده فى تركستان وفرغانة .

وغنى عن البيان أنه لو كان هؤلاء التورانيون الأشداء قد تكتلوا معا فى الدفاع عن بلادهم لاستطاعوا على الأقل أن يجعلوا نجاح حفنة من

(١) وهو من ألقاب الشرف التركية القديمة ، ويتميز صاحبه بالاعفاء من الضرائب . وقد ورد فى أقدم الوثائق التركية لفظ طركو بمعنى « براءة الحماية أو براءة العظمة » وفى المغولية (Kowalewsky p. 1768 a)؛ طرخالكو بمعنى « أن يمنح أى شخص امتيازاً » .

المحاربين العرب أمرا مشكوكا فيه برغم ما كان عليه هؤلاء من حمية دينية .

ومهما كان من أمر انقسامهم أو اتحادهم ، وأيا ما كان حالهم من الاستقلال أو التبعية ، فالثابت المؤكد أن الترك كانوا فى القرنين السادس والسابع الميلاديين يسودون مواطن كثيرة ببلاد ما وراء النهر . ولقد كان تيار الهجرة التركية الجديد الهابط من سهوب الشمال كفيلا من ناحيته بأن يطفى حتى يدفع السكان الايرانيين الأصليين هناك الى دائرة نفوذ الترك لولا أن ظهر الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) فى الوقت نفسه بدعوته فى بطاح جنوب غربى آسيا ، تلك الدعوة التى أحدثت انقلابا جديدا ساد أكثر من نصف هذه القارة المترامية الأطراف .

الفصل الثاني غزوات العرب وانتشار الاسلام

٤٦ (٦٦٦) - ٩٦ (٧١٤)

لم يكد الاسلام يقيم عمد الأساس لصرحه الأشم فى آسيا الغربية حتى اندفعت كتائب المغامرين العرب المظفرة الى بلاد ما وراء النهر عبر الطريق التى سلكها الاسكندر المقدونى من قبل . ففى عام ٦٦٦/٤٦ سير زياد بن أبى سفيان القائد المقدم ربيع بن الحارث من العراق الى خراسان . ولسبب ماشاع من الذعر على اثر سقوط آخر الملوك الساسانيين تم لهذا القائد التغلب على كل عدو لقيه فى ايران الشرقية . وما زال يمضى الى غايته حتى خفقت راياته المظفرة فوق بلخ . واذ كانت هذه المدينة على الدوام باب بلاد ما وراء النهر الجنوبى ، فلا عجب أن نرى هؤلاء العرب يستهويهم ما عرف عن بلاد الصغد من الثراء فيغزونها . والغالب أنهم اقتحموا هذه البلاد حتى شواطئ جيحون دون خطة مبيتة للغزو . وأدى ما حملوه من كنوز هذه البلاد الوفيرة وما صادفوه بها من نجاح الى أن رأينا معاوية ، على اثر موت زياد عام ٦٧٠/٥٠ بعد ذلك بأربع سنوات ، يبعث بعبيد الله بن زياد هذا على رأس حملة جديدة الى بخارى .

وكان للغزو هذه المرة خطة مرسومة . ذلك أن عبيد الله بن زياد هاجم أول ما هاجم مدينة بيكند الغنية قصبة الحكومة ومركز التجارة . وتم له اخضاعها بعد فضال طويل ، ليسير من بعد ذلك الى بخارى ومعه غنائم عظيمة وفى ركابه أكثر من أربعة آلاف أسير . وقد وقع هذا كله أواخر عام ٦٧٢/٥٣ . هناك استنجدت الملكة خاتون ، التى سبق أن تحدثنا عنها ، بجيرانها الترك فدهموا العرب وهم فى شغل بحصار المدينة واعداد

مجانيقهم . ولكن عبيد الله بن زياد انبرى لهم وأخذ يدفعهم عنه فى شجاعة حتى ليقال كذلك انه أوقع الهزيمة بهؤلاء الكفار . ولكنه اضطر هذه المرة الى العودة الى مرو دون أن تخضع له بخارى (١) . وحمل المسلمون معهم عند رجوعهم الكنوز والأسلحة والثياب وأدوات الذهب والفضة . وكان من بين ذلك نعال للملكة مرصعة بالحجارة الكريمة قومت بعشرين ألف درهم ، وقد خلب منظرها لب أبناء الصحراء العربية أصحاب الفطرة حين اطلعوا عليها . وأنزل هؤلاء الغزاة الخراب بكل المناطق التى مروا بها فى تهقرهم حتى اقتلعوا الأشجار التى صادفتهم فى طريقهم .

ويروى المؤرخون العرب أن الملكة خاتون رأت أن تنقذ بلادها من الدمار الذى كان يتهدها فصالحت عبيد الله على جزية سنوية مقدارها ألف ألف درهم تعهدت له بدفعها . ولم يكد يمر ثلاث سنوات على ذلك حتى انطلق العرب بقيادة سعيد بن عثمان يتعرضون للملكة خاتون من جديد . وعبثا حاولت هذه الملكة أن تدفع عنها بالهدايا قائد هؤلاء العرب محتجة بما بينها وبين عبيد الله من عهد . فقد رد القائد العربى هديتها اليها ولم يلق بالآلى ما كان بينها وبين سلفه من عهد ثم جد فى مهاجمة المدينة . وقت فى عضد الملكة طول النضال مع تمرد الرعية فطلبت الصلح من جديد . وحين سألها سعيد أن تبث اليه برهائن ضمانا لتنفيذ ماتصالحا عليه ، بعثت اليه بشائين من أعيان بلادها ممن كانوا على رأس الخارجين عليها فتخلصت بذلك من أشد أعدائها خطرا عليها . وحين تم الصلح طلب القائد العربى المتكبر من الأميرة أن تقدم اليه بنفسها ، فطلعت عليه فى زينتها الملكية ، وكانت نادرة الجمال على ما يقال (٢) ، فشغف بها حبا

(١) يقول الطبرى أن عبيد الله بلغ فى زحفه طشقند .

(٢) يتعرض أحد العرب أو المسلمين لهذه الملكة فيقول انها كانت أيام زوجها على علاقة غير شرعية بأحد أتباعها ، ومنه رزقت بابنها طغشاد ، وحين مات زوجها حاول البعض أن يجلسوا قائد الجيش على العرش ، لكنها نجحت برغم ما قام من الفتن فى أن تضمن العرش لابنها غير الشرعى هذا .

ملك عليه زمام قلبه وجرى ذكره في الأغاني التي لا يزال أهل بخارى يرددونها حتى اليوم (١) .

وأقر القائد العربي الأمور في بخارى الى حد ما ، ليتجه بجيوشه بعد ذلك الى بلاد الصغد قاصدا مدينتي الصغد وسمرقند . ولم يكن على سمرقند اذ ذاك ملك مستقل ، وانما كان يحكمها طرخان تركي هو طرخان الصغد وهو الذي هاجمه العرب وتغلبوا عليه آخر الأمر . وحين نزل سعيد بخارى ، وهو في طريقه الى خراسان ، طلب اليه أهلها أن يعيد اليهم الرهائن التي كان قد أخذها معه ، فوعدهم أن يفعل ذلك عند الشاطئ المقابل من جيحون . وحين ذكروه هناك بما وعدهم به ، استمهلهم حتى يبلغ مرو . وما زال يستمهلهم من مرو الى نيسابور الى الكوفة حتى انتهى المطاف بأعيان بلاد ماوراء النهر هؤلاء الى أن انتقلوا من شواطئ زرفشان البهيجة الى صحراء بلاد العرب المحرقة ليقوموا هناك من بعد ذلك على خدمة المنتصرين العائدين . وفي المدينة « المنورة » جردهم سعيد من سيوفهم ومناطقهم المرصعة بالحجارة الكريمة وثيابهم وجواهرهم لينزل أبناء الأمراء الشم هؤلاء من بعد ذلك الى مرتبة الرقيق . وأثار هذا الصنيع ثأرتهم حتى أجمعوا أمرهم على أن يموتوا كراما حتى لا يعيشوا عيشة ذل ومهانة . وأدت بهم شهوة الانتقام الى أن باغتوا سعيدا في داره فقتلوه ثم أهلكوا أنفسهم . وكان ذلك في خلافة يزيد بن مروان .

ما كاد العرب يعودون الى ديارهم وينطلقون يروون للناس ما ببلاد الصغد الواسعة الغنية من عجائب حتى كانت بخارى قد استطاعت أن تخلع

(١) يحكى النرشخي حكاية عجيبة عن أول لقاء بين خاتون وسعيد ، فيقول :

« أراد سعيد أن يشير فزع أميرة بخارى فأمر بمن يدعى عبد الله بن حزم أن يجلس وسط خيمة تحوطها النيران . وكان عبد الله هذا عريض المنكبين شديد حمرة العينين والشعر ، فزاد لهيب النار من هذا الاحمرار على صورة لم يالفها أهل بخارى حتى فزعت الملكة بدورها من هول هذا المنظر وانطلقت هاربة فلم تحمل على العودة من جديد الا بمشقة » .

عها نيرهم مرة أخرى ، واضطر مسلم (١) بن زياد خلف سعيد في خراسان أن يسير بالجند الى جيحون من جديد . هنالك استتجدت الملكة مرة أخرى بجيرانها في الصغد . ويقال انها تلقت كذلك عوناً من ترك الشمال بلغ مائة وعشرين ألف رجل . ولم يفت هذا العدد الضخم على كل حال في عضد العرب ، الذين كانوا يؤمنون بحسن طالعهم ، ف ضربوا الحصار على بخارى دون الهجوم عليها حتى يققوا أولاً على عدد أعدائهم وبيان مواقعهم فيها . وعهد مسلم بن زياد الى قائد من خاصته يدعى المهلب باستطلاع أحوال العدو . وحين اعتذر هذا القائد بأن هذه المهمة هي من شأن من هم دونه في المرتبة لم يقبل الأمير عذره هذا ، فاختر لمهمته رجلاً من كل فرقة (٢) وانطلق بهم جميعاً سرا في الليل .

و حين أخبر مسلم باقى الجند فى الصباح بما عهد به الى المهلب سرى التذمر بينهم وقالوا له لقد أتحت بصنيعك هذا للمهلب الفرصة ليختص نفسه دوننا بأثمن الغنائم ، وأنه لو كان قد أتيح لنا القتال لكنا السباقيين الى ذلك بلا جدال . واستبد الجشع بفريق منهم حتى خرجوا بالفعل فى طلب المهلب ولحقوا به . وقد نبههم الى أنهم بصنيعهم هذا قد أفسدوا عليه خطته اذ أنهم يسترعون بقدمهم هذا اتباع العدو مما يعرضهم جميعاً للفشل . وأحصى المهلب من صار معه من الجند فكانوا تسعمائة . وما ان هياهم للقتال حتى دوت طبول العدو الذى أفلح فى أول هجوم له أن يقتل أربعمائة من جند المسلمين ولاذ بالفرار من بقى منهم من بعد ذلك فى هلع زائد . وأحيط بالمهلب نفسه ومن بقى معه من أتباعه القليلين . وصاح المهلب بصوته القوى مستغيثاً وهو فى غمرة اليأس ، فسمع فى معسكر العرب ، على رواية النرشخى ، وكان على مبعدة نصف فرسخ منه . وحين

(١) يذكره الطبرى باسم أسلم ، والغالب أن ما ذكره النرشخى الأصح ، وهو الذى نقلناه عنه .

(٢) تذكر النسخة الفارسية لفظ « علم » .

أسرع الى نجدته (١) على التوفيق من بنى قومه وعليهم عبد الله بن جودان ورآهم ورفاقه مقبلين عليهم سرى الأمل فى نفوسهم واشتد ساعدهم من جديد . وما غدا أن أقبل بقية جند العرب فقاتلوا الترك حتى هزموهم . وبلغت الغنائم من الكثرة حتى خص كل جندى ما يقوم بعشرة آلاف درهم . واضطرت الملكة خاتون بطبيعة الحال أن تعلن خضوعها للمتصرين من جديد وتعقد الصلح معهم .

وآب العرب من بعد ذلك الى مرو لا لتركوا سكان بلاد ما وراء النهر المنكوبين وشأنهم ، وانسا ليعدوا حملة جديدة بقيادة قائد أدى حذره وشجاعته وقوة جلده الى اطفاء آخر بصيص لحضارة ايران القديمة كان يومض فى هذه المنطقة التى ظهرت فيها هذه الحضارة أول ما ظهرت ، ويفرس من بعد ذلك تعاليم النبی العربی فى وديان تيان شان المترامية الأطراف .

كان هذا القائد هو قتيبة بن مسلم الذى أمره الحجاج بفتح بلاد ما وراء النهر عام ٧٠٤/٨٦ . ولما كان قد عزم على أن يمضى فى فتح هذا الاقليم ونشر الاسلام فيه ، لا أن يغير عليه ويتهب ما فيه ، فقد كان عليه أولا أن يسيطر سيطرة تامة على بلخ الجنوبية . هنالك جمع جنده فى مرو فأخذ يذكرهم بآيات الله وأحاديث نبيه ثم نزل عن المنبر وامتنى فرسه ، فلم يكذب يصل حدود بكتريا القديمة حتى أقبل عليه أهل بلخ مرحبين وساروا فى ركابه الى مدينتهم . وفيها قرأ قتيبة الخطبة باسم أمير المؤمنين ثم قام بجولة عند جيحون ، وعاد الى مرو بطريق جهارجوى (٢) الحالية . ومن هذا الموضع بدأ قتيبة عام ٧٠٥/٨٧ وقائعه فى بلاد ما وراء النهر ، وكان أول مكان غزاه هو بيكند .

(١) يقول النرشخى ان عبد الله بن زياد طلب غذاءه فى الوقت الذى انطلقت فيه صيحة المهلب فارهبت القوم . هنالك قال عبد الله بن جودان للأمير « عافاك الله ، انك تبدو وكأنك لا تدري من أهوال الحرب شيئا » وهو توبيخ مناسب صدر من ضابط الى قائده .

(٢) على رواية الطبرى فان قتيبة ، وهو فى طريق عودته الى مرو ، فتح كومسك ووارمش ، ولكنه تعرض من بعد ذلك لهجمات ترك الصفد وفرغانة الذين اثتلقوا عليه .

بلغ قتيبة حدود الصحراء فإذا به يفاجأ بقوة عظيمة تحيط به وتحاصره حتى مضت أشهر دون أن يدرى أحد من أمره شيئاً . وها هو ذا الحجاج يقيم صلاة الجماعة يسأل الناس فيها ربهم أن يكتب السلامة لذلك المجاهد في سبيله والأخطار تهدده . على أن قتيبة لم يجر فى خاطره أى تفكير فى الهرب برغم ما كان فيه من حرج . ولم يفلح البخاريون بدورهم فى حمله على الرجوع عنهم مع ما كانوا عليه من تفوق ساحق فى العدد وما انطلقوا يذيعونه من الشائعات عن موت الحجاج فلم يجدهم ذلك كله فتبلاً تلقاء ما كان عليه قتيبة من شجاعة خارقة واقدام (١) . واشترك الفريقان فى قتال انتهى بهزيمة الترك ، ففر فريق منهم وقد ملئ رعباً وتشتت شمله ، فى حين لاذ فريق آخر بمدينة بيكند الحصينة القوية . وحوصرت هذه المدينة لتوها فسقطت بأيدي العرب بعد قتال عنيف . فقد ثابر العرب أول الأمر على حصارها خمسين يوماً دون أن يصلوا الى أية نتيجة ، حتى أفلحوا آخر الأمر فى فتح ثغرة أسوارها . وهناك بذل قتيبة الوعد بالمكافأة السخية لأول جندي يفتح الثغرة ، على أن تكون هذه لأولاده من بعده ان هو قتل . وكان لهذا أثره فى نفوس الجند حتى تم للعرب الاستيلاء على الحصن .

على أن قتيبة لم يكذب بعد عن المدينة حتى جاءت الأخبار بخروج أهل بيكند وقتلهم ورقة بن نصر وكان قد تركه عليها . والواقع أن العرب هم الذين جروا هذه الكارثة على أنفسهم ، اذ يقال ان ورقة كان قد حمل الى داره فتيات جميلات لم يصبر أبوهن على ما لحقه من تدنيس شرف أسرته فقتل المعتصب . وأيا ما كان الأمر فقد أثار ذلك الصنيع ثائرة قتيبة ، وهو ممن لا يعرف لغضبهم حدود حين يفضبون ، فأسرع بالعودة الى المدينة وأمر بنهبها واحراقها وبقتل كل من بها من البالغين وسبى النساء والأطفال فلم يسمح حتى لذلك الزعيم التركى الأعور بها أن يفقدى حياته .

(١) كان لقتيبة عين فارسي المولد يدعى تندر ، وكان يتجسس بدوره عليه لحساب البيكنديين . ولما وقف قتيبة على حقيقة أمره ، حين أتى اليه بأخبار كاذبة ، أهـ به فقتل لوقته .

وتخبرنا الرواية أن أهل بيكند كان أكثرهم ، وهو الواقع ، من التجار الذين كانوا يارسون التجارة مع الصين وبلاد أخرى من بلدان العالم . ولم يكن هؤلاء بالمدينة أبان الحرب ، فحين آبوا إليها افتدوا أولادهم وزوجاتهم . وأخذت هذه المدينة تتجدد من بعد ذلك شيئا فشيئا ، فكانت بيكند هي المكان الوحيد الذي عاد الى سيرته الأولى بعد الخراب الذي أنزله الغزو العربى بالاقليم كله . وكان سقوط هذه المدينة ذا أهمية بالغة بالنسبة للعرب ، اذ هي بمثابة الباب الجنوبي الغربى لبلاد ما وراء النهر ، فضلا عن أنها كانت أروج مواضع هذا الاقليم بعد الصغد ورامتن . وما وقع من غنائمها بأيدي الغزاة كان عظيما . وكان من بين هذه الغنائم معبد للأوثان به تماثيل عديدة من الذهب الخالص والفضة تزن أربعين ألف درهم . وكان لأحد هذه الأوثان عيان من الجواهر فى حجم بيضة الحمام (١) وقد بعث قتيبة الى الحجاج بهاتين الجوهريتين مع قدر كبير من الغنائم فكتب اليه مثنيا عليه .

ولنا أن تتصور مبلغ ما كان عليه بدو الصحراء البسطاء من لهفة للاستحواذ على كنوز المغلوبين المكدسة . وكانت الأسلحة أعظم ما استهواهم منها ، فأجودها ما كان يصنع فى تلك البقعة من آسيا . وبرغم استيلائهم على ما كان بمخزن أسلحة بيكند الكبير منها واقتسامهم لها فيما بينهم ، فقد اشتد طلبهم عليها حتى كان الرمح يباع بسبعين درهما والدرع بمائتين والترس بما يزيد على ذلك . ولئن كان العرب فى غير حاجة الى محاربين جدد ، اذ كانت قبائل بنى تميم وبكر وعبد القيس التى اضطلعت بأكبر قسط فى فتح بلاد ما وراء النهر تبلغ وحدها مجتمعة واحدا ألف رجل (٢) الا أن ذلك لايعنى أنهم كانوا أصحاب تفوق فى العدد .

(١) كان أهل بيكند يقولون ان هاتين الجوهريتين قد أتى بهما اليهم

طائران من بلاد نائية .

(٢) على رواية الطبرى ، كانت قوات العرب بخراسان على عهد قتيبة كالاتى : بنو على وقوامهم تسعة آلاف رجل ، وبكر وأميرها هاشم بن المنذر وقوامها سبعة آلاف ، وبنو تميم وقوامها عشرة آلاف ، وعبد القيس وأميرها عبد الله بن جودان ومعه أربعة آلاف ، ومعهم سبعة آلاف من الكوفيين وبطون آخر من عبد القيس ومعه أربعة آلاف ، فجميعهم بذلك واحد وأربعون ألفا .

ولعل هذه الحقيقة هي التي جعلت قتيبة يتقدم ببطء في فتوحه برغم ما صار له من السيطرة التامة على سهوب تركستان الجنوبية ، حتى لنراه لا يعبد الى مهاجمة بخارى رأسا ، اذ كان قد رسم سياسته على أن يعزل هذه المدينة عن حلفائها من الترك فتعجز بذلك عن الدفاع عن نفسها . وعلى هذا فقد بدأ باخضاع الامارات الصغيرة المستقلة ، وردان (وردانزى الحالية) ورامتن والصغد ، ليضمن من بعد ذلك نجاحه في حملته على بخارى حين يهاجمها . وكانت هذه الخطة مما رسم الحجاج له . وتم له عام ٦٩٨/٨٩ اخضاع كش (شهرسبز) ونخشب (قارشى) (١) . وتقدم من بعد ذلك بسنوات عشر يهاجم وردان ليواجه عند ذلك ، وهو ينفذ خطته هذه ، أحداثا لم تكن في حسبان بادره الأمراء الترك بها . فقد أجمعوا أمرهم فيما بينهم وخرجوا وحلفاؤهم ليعترضوا طريقه . وهكذا انطلق أمراء بلاد ما وراء النهر والصغد جميعا ليشدوا من أزر بخارى هذه المرة . وانضم اليهم كذلك صاحب فرغانة ومن يدعى قورمغان (٢) قادما من الشرق الأقصى ، وهو الذى تقول عنه المراجع انه كان ابن أخى امبراطور الصين . وبهذا يبدو أن زعماء الترك قد أدركوا مدى ما يتهددهم من أخطار فعقدوا العزم على أن يدفعوا الغزاة العرب عنهم مؤتلفين .

ويصف الطبرى مبلغ ما ركب قتيبة من الغم فى حصار وردان ، فيقول : ان العرب حين أحيط بهم من كل جانب وأيقنوا بهلاكهم أخذ نساؤهم يولولن فى فزع شديد ويشقن جيوبهن . وحال بين العرب وبين الهزيمة آخر الأمر أن ذهب قتيبة يشد من أزر الجند ويحرضهم على القتال ويستنهضهم هم رجال القبائل « للقضاء على هؤلاء الترك » . وكان يخص

(١) يذكره الطبرى باسم قوريجانوف ، وكلا الاسمين محرف فى القالب . وعلى ضوء العلاقات التى قامت مع امبراطور الصين على ما يظن ، فيبدو ان المقصود بذلك شخص من المفل أو الأويغور . ولا يكون له هذا الاسم الغريب فى القالب .

(٢) يذكر النرشخى هذا المكان باسم وردان ووردون ، أما الطبرى فيقول عنه وردانجراد . ويعرف اليوم باسم وردانزى .

بتشجيعه قبيلة تسم بصفة خاصة . وقد ندب شيخها وكيع بن أبى الأسود قائدا من قواده يدعى خزينة فكان أول من ألقى بنفسه على العدو (١) . ولئن كان لدينا أكثر من سبب للتشكك فيما زعمه الطبرى من نصر حاسم ، فالمؤكد على كل حال أنهم نجحوا فى تحطيم حلقة الحصار التى كان الترك قد ضربوها من حولهم . وأيا ما كان الحال فانهم لم يستطيعوا أن يخلصوا مسا كانوا قد وقعوا فيه الا بطرائق دبلوماسية . فحين وضح لقتيبة عجزه عن خوض غمار الحرب من جديد عسل على فصم عرى الائتلاف القائم بين أعدائه . وبلغ غايته بعد أمد قصير لما هو ثابت معروف عن الترك اذ تراهم لا يصبرون مؤتلفين أمدا طويلا .

وكان أمير الصفد (٢) قد خرج الى الحرب فى حشد كبير من الجند لم يبلغه غيره من خلفائه ، فكان حمله على التخلى عن أصحابه هو بطبيعة الحال من الأهمية بمكان . وعهد قتيبة بهذه المهمة الى نبطى من خاصته يدعى حيان استطاع فى احدى المناوشات أن يبعث سرا الى هذا الأمير التركى برسالة حذره فيها بأن حلفاءه انما ينتوون اغتصاب أملاكه عند رحيل العرب عن هذه البلاد . فكان مما قال له فيها ان العرب لا يحتفلون الاقامة فى هذه البلاد الا صيفا ، وانهم عند حلول الشتاء لابد متراجعون عنها ، ولا يغيب عن باله أن أصحابه وهم القادمون من الشمال سوف لا يتركون بلاد الصفد البديعة هذه عن طيب خاطر ، فأولى به والحالة هذه أن يصلح العرب ، ويعتذر لأصحابه من ذلك بخوفه من الامدادات التى سيرها الحجاج لنجدة العرب بطريق كش ونخشب ، وأن له أن يقول لهم ذلك لمجرد الاعتذار وهو آمن من ناحية العرب . وسواء أكان هذا الصفدى على بساطة أم كان الأمر أبعد غورا من ذلك ، فقد وقع فيما

(١) يظهر من مقال الطبرى أن العرب البدو كان لهم فى كل قبيلة رئيسان أحدهما هو شيخ القبيلة أو رئيسها ، والثانى هو أميرها فى الحرب . وكان وكيع هو شيخ تميم .

(٢) يذكر النرشخى والطبرى (طرخون) على انه اسم علم . وطرخون أو طرخان هو من القاب الشرف عند التورانيين - انظر فى ذلك هامش ١ ص ٥١ .

دبر له على كل حال وصالح العرب سرا على ألفى ألف درهم يدفعها لهم كل سنة . وما ان كف عن القتال حتى اضطر الباقون من بنى قومه الى الانسحاب بدورهم . وبهذا نجا قتيبة من ذلك الخطر الذى ظل يتهدهه أشهراً أربعة .

ولك أن تدرك هنا أن ترخان سمرقند قد خدع بدوره كذلك فى تفاوضه مع أعدائه . فهاهو ذا قتيبة ، برغم تصالحه معه ، يتذرع بضرورة الاسراع فى بناء المسجد الذى نص عليه فى العهد ، وبدلاً من أن يبعث اليه بالبنايين فى ذلك سير اليه أربعة آلاف من جند العرب بأسلحتهم فنزلوا المدينة . وحين أراد الترخان أن يرد على هذه الخيانة سقطوا عليه وعلى أتباعه وقتلوهم جميعاً . وفى رواية أخرى ، أن رجاله ثاروا عليه لقبوله دفع الجزية للعرب فقاموا عليه وخلعوه ، وحين تبدى له مدى ما جره على نفسه من العار بذلك قتل بنفسه بسيفه . وتعرضت سمرقند من بعد ذلك للنهب . وكان من السبايا ابنة ليزدجرد ، آخر ملوك الساسانيين ، سيرت الى الوليد . ويقال ان ما كان بهذه المدينة من أوثان وغيرها من الأشياء المصنوعة من الذهب قد بلغ وزنه أكثر من خمسين ألف مثقال .

وآن الأوان لجند العرب من بعد ذلك أن يأخذوا نصيبهم من الراحة التى كانوا جديرين بها ، فرجع بهم قتيبة الى مرو فقصوا الشتاء بها . وبهذه المدينة تزود قتيبة بسدد قوى تقدم به فى الربيع التالى لغزو بخارى ، وقد عقد العزم على أن يقوم بعمل حاسم يعلى به ذكره وذكر أسلافه . وكانت الملكة خاتون ، على رواية الترسخى ، ما تزال تمارس الحكم فى هذه المدينة الملكية على ضفاف زرفشان ، وهو أمر لا نستطيع أن نقطع به اذ تكون بذلك قد تقدمت فى السن الى درجة غير مقبولة ، وعلى أى فان القابض على زمام الحكم هناك ، كائناً من كان ، قد تبين له عدم جدوى المقاومة . ولقد غزا المسلمون بخارى ثلاث مرات من قبل ونشروا دينهم بها ، ولكن أهلها كانوا يرتدون الى عقيدتهم القديمة عقب رحيل الغزاة عنهم فى كل مرة . وها هى تفتح أبوابها للمرة الرابعة لتستقبل الفاتحين

ومعهم تعاليم نبيهم ، تلك التعاليم التي قوبلت أول الأمر بمعارضة شديدة ثم أقبل القوم من بعد ذلك عليها فى غيرة شديدة ، حتى لترى الإسلام الذى أخذ شأنه اليوم يضعف فى جهات آسيا الأخرى ، وقد غدا فى بخارى اليوم عام ١٨٧٣ على الصورة التى كان عليها أيام الخلفاء الراشدين .

ولقد اتخذ نضال قتيبة مع اتباع بوذا وزرادشت المتعصنين صورة متعددة واستغرق زمنا طويلا . ولم تكن التغييرات السياسية التى اضطلع بها العرب هناك مثار متاعب كثيرة لهم فى الغالب . فقد تركوا حكم المدينة بأيدي الخدات (الأمير) حاكمها الأول على أن يشترك معه فى الحكم عامل من قبل الخليفة يأتى فى المنزلة من بعده . ولم يلبث عامل الخليفة هذا أن رقى الى مرتبة الامارة فيما بعد وصار صاحب السلطان الفعلى وأهمل أمر الخدات التركى .

وكان على الخدات كذلك أن يدفع جزية سنوية قدرها مائتا ألف درهم الى الخليفة وعشرة آلاف للأمير خراسان ونصف صافى دخل الحمامات العامة الى العرب المقيمين بالمدينة . وكان هذا كله هو عموما أخف وطأة مما فرضه بعض الفاتحين المسلمين على بخارى الاسلامية فيما بعد . ولا شك أن البخاريين الأباة كانوا قد أدركوا فى الوقت نفسه أنهم لا طاقة لهم بالطرق التى كانت تستخدم لحملهم على اعتناق الاسلام .

وحين أدرك الفاتحون أن كثيرين ، ممن دفع به خوف الفتح الى اعتناق الاسلام ، يمارسون طقوسهم الدينية القديمة بحماس أكثر من ذى قبل فى سكون الليل أو فى تكتم بالغ (١) أمروا بأن يساكن كل واحد من أهل بخارى فى داره أحد العرب . وبهذا صار الشريك الجديد عينا على الأسرة التى يساكنها ، يراقب سلوك هؤلاء الذين دخلوا فى الاسلام ويفقههم فى أمور دينهم وينبئ ولى الأمر عن يتردد منهم عن الدين .

بيت نار تحت سطح الأرض يعرف ببيت نار مغان ، أى بيت نار المجوس .
بيت نار تحت سطح الأرض يعرف ببيت نار مغان ، أى بيت نار المجوس .

ورصدت كذلك جوائز مالية لمن يظهر تمسكه بدينه من الأهلين ، فكان كل من يصلى الجمعة منهم بمسجد قتيبة الذى بنى عام ٧٤٢/٩٤ يصيبه درهمان . وفى هذا المسجد الجامع وفى غيره من دور الصلاة ، التى كانت قد أقيمت فى ريغستان ، كان المصلون يقيمون صلاة الجساعة يؤمهم الأئمة . وكان القرآن يقرأ بالفارسية (١) لا بالعربية تيسيرا على الناس ، وهو أمر لو جرى اليوم لاستبد الفزع بالمسلمين الذين يعتقدون — على رأى شائع بينهم — أن ترجمة هذا السفر العظيم هى جرم عظيم . على أن نضال أتباع زرادشت بازاء تعاليم الاسلام التى دخلت عليهم كان فى الغالب عنيفا مستميتا .

ومن بين ما وصلنا من القليل من أخبار تلك الفترة أن المسلمين لبثوا سنين طويلة لا يجروون على الظهور بغير أسلحتهم سواء فى المسجد أو الأماكن العامة . ولم يمنع حظر حمل السلاح على الأهلين ، حتى يدخلوا فى الاسلام ، من تكرار وقوع الصدام العنيف بين الفريقين مدة طويلة . وقد عرف أعيان بخارى بمقاومتهم الشديدة للعقيدة الجديدة . وحين دعوا الى المسجد ردوا على هذه الدعوة بسيل منهر من الحجارة أثار من ثائرة العرب حتى سقطوا عليهم ونهبوا قصورهم وأعملوا فيها التخريب والدمار . واستخدمت انقاض هذه الأبنية فيما بعد فى بناء المساجد حتى كانت أبواب كثير منها تحمل — على رواية النرشخى — تصاوير ونقوش وثنية . والعجيب أن هذه الأبواب قد لبثت على حالها هذا قرابة قرون ثلاثة مما لا يليق بالمسلمين من أهل السنة (٢) . وحين رأى القوم أنهم لم

(١) لا تجد حتى اليوم (١٨٧٣) الا مصحفاً طبع على الحجر فى بومباى ويتخلل سطوره ترجمة فارسية له . ولا تجد من يقبل عليه الا بسطاء التركستانيين اذ لا يقبله المسلمون الغربيون .

(٢) يتكرر هذا الحديث نفسه عند بعض من أرخوا للمسلمين فى الهند وغيرها . والواقع أن المسلمين لم يعمدوا فى الغالب الى تخريب معابد غيرهم واستخدام موادها فى اقامة مساجدهم . وكل ما فى المسألة أنهم استخدموا ما وجدوه من بقايا المنشآت هناك فى اقامة منشآتهم . وعمدوا الى تغطيه ما قد يوجد بها من علامات الوثنية بطبقة من الجص سقطت بفعل الزمن (المترجم) .

يحققوا أهدافهم برغم ما عسّدوا إليه من هذا الاجراء الشديد ، انزعوا بخارى من أيدي أهلها وقسموها بين العرب . فصار للبصريين ذلك الجزء الذى كان يستند من بوابة العطارين حتى الحصن . وصار لليمنيين قسم آخر ، فى حين استحوذ آخرون على قسم من ضواحيها وفيه الكنيسة المسيحية التى اتخذوا منها مسجدا لهم . وعوملت سمرقند نفسها على هذا المنوال . وألزم كل واحد من أهلها أن يسلم ما بيده من سلاح . وكان كل غريب بها — كما يقول الطبرى — توسم يدها بخاتم لمدة مفروضة . ومن كان يخرج من بيته فى الليل يقتل .

لم يصبر قتيبة حتى تستقر الأمور فى بخارى فانطلق صوب الشرق يتم ما بدأه من الفتوح . فغزا فرغانة عام ٩٥ هـ (٧١١ م) وهى خانية خوقند الحالية ، لیتجه من بعد ذلك الى ممر تترك فى تركستان الشرقية التى نعرفها باسم التتار الصينية . هنالك هاجم أمراء الأويغور ، وقد سیر له تفرق كلتهم التغلب عليهم جميعا الواحد بعد الآخر برغم استنجاد كثير منهم بالقلموق الذين كانوا ينزلون فى جنغاريا الشمالية . ويقال ان العرب قد بلغوا فى غزوهم هذا ولاية قانسو . وبرغم أن تعاليم النبی العربى لم تستطع أن ترسخ أقدامها فى كاشغروختن وترقان الا بعد مضى زمن طويل ، اذ لبثت البوذية والمسيحية ولهما أتباع عديدون بهذه المناطق اعدة قرون من بعد ذلك ، فهناك حقيقة مشهورة ، هى موضع فخر عند أهالى تركستان ، مفادها أن ترقان قد سارع أهلها الى الدخول فى الاسلام أول ظهور العرب عندهم . على أن ذلك لا ينفى وجود أشد البوذيين تمسكا بعقيدتهم فى وديان تيان شان .

من هذا الموضع ، الذى غدا آخر حدود الاسلام الشرقية ، آب قتيبة الى مرو بطريق فرغانة . دعاه الى ذلك موت الخليفة الوليد . وخشى قتيبة مغبة غضب الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك عليه ، وكان يعلم

(١) در عطاران هى العبارة التى وردت فى الأصل . والظاهر أنها كانت عند الجنوب الغربى الى جوار بوابة قراقول حيث يقوم اليوم هناك حى العطارين .

مدى كراهيته له فبادر باعلان خروجه عليه. ويبدو أن قتيبة انما دفعه اباؤه الى سلوك هذا المسلك حين كشف عن محاولة الخليفة الجديد استمالة فريق من جنده اليه يعد أن فشل في التفرير بأمر خراسان القوى نفسه . وكان قتيبة حتى في ثورته هذه بصيرا يتدبر العواقب . وحمل رسوله كتابين آخرين الى جانب كتاب التهديد الذى بعث به الى الخليفة . أما الأول فكان يعرض فيه ولاءه وأما الثانى فكان يسخر فيه من يزيد بن المهلب ، وكان قتيبة يخاف منافسته له بوجه خاص . وفى الكتاب الثالث أعلن قتيبة أنه لن يتردد فى الجهر بالخروج على الخليفة اذ ما بعث بيزيد مكانه . ولما كان قتيبة قد توقع بحق ، تقرب الخليفة ليزيد وملازمته له ، فقد أوصى رسوله بأن يتقدم الى سليمان بالكتاب الأول حتى اذا ما رآه يدفعه الى يزيد فليقدم اليه الكتاب الثانى كذلك فاذا ما جعل يزيد يقرؤه فليدفع اليه الثالث (١) .

ووجد الرسول يزيد بالفعل عند الخليفة ، فصار على ما رسمه له أميره . ولم يبد سليمان للرسول شيئا وأذن له فى الرحيل بسلام . ولم يكذ الرسول يعود الى بلده حتى كان قتيبة قد فرض فى نفسه أن الأمور قد انتهت بالفعل على الوجه الذى ظنه ، أول الأمر ، أو لعله كان قد أخبر بذلك قبل عودة رسوله ، فرفع راية العصيان . على أن أمه خاب الى درجة كبيرة فى ذلك الجند الذى سار بهم فاحرز أعظم الانتصارات الباهرة الكثيرة واستحوذ على الأموال الطائلة . ولو كان قد استمع الى نصيحة أخيه عبد الرحمن حين نصحه بالمسير الى بلاد ما وراء النهر وإقامة ملك مستقل له بها لكان قد أفاد من روح التردد والثورة وحب المغامرة التى كانت تغلب على أهل تلك البقاع . ولكنه أصر على البقاء فى مرو

Weil, Geschichte der Chaliphen vol 1 P.5 565
Mannheim 1856

(١) انظر
(المؤلف) .

كتب قتيبة الى سليمان كتابا يهنئه بالخلافة ويذكره ببلائه وطاعته لعبد الملك والوليد وأنه على ذلك ان لم يعزله ، وكتب كتابا آخر يعلمه بفتوحه وهيبته عند ملوك العجم ويذم أهل المهلب ويهدده بالخلع ان هو استعمل يزيد ، وكتب كتابا ثالثا فيه خلعه - ابن الأثير ج ٥ طبع ليدن (المترجم) .

معتسدا على ولاء جنده له . وفى مرو وقف قتيبة يتحدث الى قومه ويصبرهم بحسن ادارته لحكومة خراسان وما ينتظرهم من بؤس وشتاء اذا ما صار الأمر الى خلفه العاجز الفاجر . وعبثا أخذ يذكرهم بأنه قد ضهم الى جيشه فقراء معوزين فأغناهم بكنوز أمراء الترك والفرس . بل لقد ألهمت كلماته هذه من حماس أولئك الذين تأمروا عليه وعلى رأسهم وكيع بن الأسود وحسن بن اياس . وحين بان له غدرهم فحاول أن يتمكن من ابن اياس ، سقط عليه المتآمرون وقتلوه بعد نضال مرير سقط فيه أغلب اخوته وكانوا على رأس عدد قليل من الموالين له الذين أسرعوا يدافعون عن داره (١) . وهكذا قضى فى شهر ذى الحجة من عام ٩٦ هـ (٧١٤ م) وهو فى الرابعة والسبعين من عمره الملىء بالحياة ، ذلك الرجل الذى أقام للإسلام دولة قوية عظيمة فى الشرق وأجهز على دين زرادشت ، ذلك الدين الذى أشختته الجراح فى القادسية والنهروان ، وغرس مكانه تعاليم الاسلام فى أرض كانت على الدوام أخصب البقاع حمية وتحصا لهذه العقيدة الجديدة .

(١) يروى الطبرى تفاصيل نهاية قتيبة المؤلة فى أسلوب مؤثر جذاب فيقول : ان جنده الذين شاركهم الصعاب وركب معهم الأخطار هجروه ، وكذلك بنو قومه الذين أغناهم ، بل وأقاربه الذين نفروا بطبيعة الحال من فكرة الخروج على الخليفة ، فلم يبق الى جانبه حتى آخر ساعات حياته الا نفر قليل ، فأحيط بداره من كل جانب واشتعلت النيران فى مرابط دوابه حتى لم يجد فرسا يركبه فقاتل أعداءه وهو على قدميه ، وفطن للهيشم بن المنخل وكان ممن يعين عليه فأنشده هذا البيت :

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى

وأصابه أول الأمر سهم من رجل يدعى جهم ثم أجهز عليه من بعد ذلك
آخر بسيفه . (المترجم)

الفصل الثالث الفتن السياسية والدينية إبان الحكم العربي

٩٦ (٧١٤) - ٢٦١ (٨٧٤)

كانت بخارى وتركستان كلها تعد طوال مدة الفتح العربى مجرد أقسام من ولاية خراسان . فكانت الحاضرة المتشامخة على زرفشان ويكند الغنية وفرغانة بلد الصناعة ، هذه جميعا كانت تخضع لما يصدر إليها من مرو شاهجهان « مرو ملكة الدنيا » . وكان على بخارى أمير وعلى سمرقند أمير . ولكن هذين الأميرين كانا على سلطان محدود يخضعان فى كل أمورها لحكومة خراسان . فتاريخ بلاد ما وراء النهر ، منذ ذلك الوقت ، هو تاريخ حكومة الأمراء العرب الذين كان يندبهم الخلفاء فى دمشق أو فى بغداد لحكم تلك الولاية الشرقية التى تقوم عند حدود دولتهم (١)

ولم تسترد هذه الولاية استقلالها السياسى حتى أقام السامانيون عرشهم على الجانب الآخر من جيحون فلم يكونوا يقرون بولائهم للخلفاء إلا لمجرد اعتبارات دينية . وكانت فترة الحكم العربى التى امتدت قرنا ونصف القرن سلسلة متصلة من الفتن ، والمنازعات الداخلية والاضطرابات بسبب سلوك أمير خراسان نفسه أو بما كان يشيره منها سكان تلك الولاية الذين لم يركنوا الى الهدوء أبدا . وقد تمكن حكام خراسان فى وقت ليس بالطويل من أن يجمعوا لأنفسهم ثروات طائلة . يدفعهم الى ذلك الجشع الشديد ميلهم الى الثراء الشخصى من ناحية ، وحرصهم على

(١) من الشواهد على ما أصابه الحكام العرب من الحظ الوافر بخراسان ، ما يذكره الطبرى بأنه فى فتنة رافع بن الليث نهب المتمردون دار أمير سمرقند فوجدوا فيها ما يقرب من ثلاثة آلاف ألف درهم .

تدعيم مراكزهم فى بلاط الخليفة بالبذل من ناحية أخرى . هذا كما أن بعد تلك الولاية بعدا شاسعا عن مركز الخلافة قد أغرى حكامها بالاستقلال بما بأيديهم من ملك . وقد وجد هؤلاء الحكام فى أهل هذه البلاد المحاربين بطبعهم استعدادا لمنصرة كل ثائر بدورهم . وفى هذا تعليل ظاهر للمتاعب التى تعرض لها الخلفاء فى خراسان من أول الأمر ، وسبب المصائب الشديدة التى واجهتهم فى اقرار الأمور فيها لفترات طويلة .

ولقد اختار الخليفة سليمان ، يزيد بن المهلب عام ٧١٥/٩٧ مكان قتيبة الذى جنى عليه فى الغالب ما أصاب من توفيق باهر ، كما رأينا من قبل ، فأورده مورد التلف . واتجه عامل الخليفة الجديد أول ما اتجه الى التخلص بطبيعة الحال من عمال قتيبة ، فأبعدهم عن مناصبهم أول الأمر ثم صادر أملاكهم من بعد ذلك وألقى بهم فى الحبس . ولم يجرؤ أحد طوال مدة حكم سليمان على التعرض لما كان يرتكبه يزيد من مظالم . حتى اذا ما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز راح يكيل لابن المهلب بما كال به سليمان لقتيبة من قبل ، اذ كان قد أثار شكوكه بما صار له من النفوذ والثراء البالغ فى مدى عامين . وحين تأكد له اعتزام عامله هذا على الخروج عليه ، رأى أن يسبقه فى خططه ويفسدها عليه ، فعهد بخلع يزيد الى قائده مسلمة وكان يقود الجند فى حرب الروم اذ ذاك . وكتب الخليفة فى الوقت نفسه الى يزيد يستدعيه (١) ، فلبى الدعوة ، حتى اذا ما بلغ

(١) كان كتاب الاستدعاء على هذا النص الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى يزيد بن المهلب » اعلم يا يزيد أن سليمان كان عبدا من عبيد الله أنعم الله عليه ثم قبضه واستخلفنى ويزيد بن عبد الملك من بعدى ان كان ، وان الذى ولانى الله من ذلك وقدر لى ليس على بهيىن ، ولو كانت رغبتى فى اتخاذ أزواج واعتقاد أموال كان فى الذى أعطانى من ذلك ما قد بلغ بى أفضل ما بلغ بأحد من خلقه ، وأنا أخاف فيما ابتليت به حسابا شديدا ومسئلة غليظة الا ما عافى الله ورحم ، وقد بايع من قبلنا فبايع من قبلك واستخلف على خراسان وأقبل . »

الطبرى حوادث سنة ١٠١ هـ . وأنبه هنا الى أنى أثبت فى مثل هذه المواضع النصوص على ما وردت فى أصولها العربية بمصادرها الاولى .
(المترجم)

البصرة ألقى القبض عليه وزج به فى السجن ، فلم يطلق سراحه حتى مات
عمر عام ١٠١/٧١٩ . وطال الصراع بين يزيد ومسلمة فى عهد الخليفة
يزيد بن عبد الملك حتى غلب ابن المهلب على أمره وقتل . وقد اتخذ مسلمة
مكانه فعهد بحكم بخارى وسمرقند الى سعيد بن عمر والجريشى .

واذ كانت فرغانة قد نفضت عنها حكم العرب ابان هذه الاضطرابات
الأخيرة ، فقد سير سعيد الجند لحرب أميرها ، وكان يدعى خلعج(١) وظلت
الحرب بينهما سجالا بعض الوقت حتى قضوا عليه آخر الأمر ، ثم عادوا
الى بخارى بغنائم وفيرة . كذلك ركن الترك الى الثورة من جديد بيلادما
وراء النهر ، وهم الذين لم يعرفوا الى الهدوء سيلا ، وظلوا على هذا
الحال بضع سنين فى عهد الخليفة هشام ١٠٦/٧٢٤ استولوا فيها على
سمرقند ، الأمر الذى أدى الى تسيير جيش عربى كبير اليهم ، وقد سير
اليهم خالد بن عبد الله أمير خراسان اذ ذاك أخاه أسدا وكان مسالما أكثر
منه رجل حرب ، فجهد ، دون جدوى ، فى اقرار الأمور هناك ثلاث سنين
اضطر من بعدها الى التراجع بخسائر كبيرة . واضطرب هشام للهزائم
التي نزلت بأخيه فعزله وندب مكانه أسرش (٢) بن عبد الله فلم يكن حظه
بأحسن من حظ سلفه .

وجمع ترك سمرقند يناصرهم خواقين فرغانة وتركستان الشرقية قوة
تزيد على مائة ألف رجل فاضطر جندب أمير خراسان الجديد أن يخرج
اليهم بنفسه . وندب على مقدمة جيشه مسور بن أبى بكر الدارمى فصار
فى عشرة آلاف رجل الى سمرقند عن طريق بيكند ، فى حين سلك جندب
نفسه طريق بلخ . ولم يجرؤ خاقان سمرقند على التعرض لقوات العرب

(١) هنا نرى الكتاب العرب يطلقون اسم القبيلة كذلك على ذلك الأمير
- انظر هامشنا على هذا فى الفصل الأول .

(٢) يروى الطبرى أن أسرش خسر أول الأمر ألفا من رجاله وكانوا
من بنى تميم التي كانت تنزل ببخارى . وقيل أنه هزم الترك من بعد ذلك
ثم رجع الى بخارى ، وهو تعارض لا يفسر الا بأنه فشل فى مهمته .

الرئيسية وكان يلتف حول رايته مائة وعشرون ألفا على رواية الطبرى ، ولكنه انقض فى عنف بالغ على مسور وكان قد اعترض طريقه ، فانزل به هزيمة قاصمة سقط فيها القائد العربى نفسه وكل من كان معه من الجند فلم يفلت منهم أحد . وبكى جندب بكاء مريرا حين بلغه نبأ هذه الكارثة وظل يردد قوله تعالى « انا لله وانا اليه راجعون » . ولم يفته أن يجمع جسوعا من المدن الكبيرة فى خراسان وطخارستان حتى اذا ما تم له جمع جيش بلغ أربعة وثلاثين ألف جندى ، انطلق يهاجم الترك من جديد فهزمهم هزيمة حاسمة (١) . وقد ترك عندئذ نصر بن سيار عاملا له على سمرقند ثم آب مظفرا الى مرو حيث مات بعد قليل . وخلفه أسد بن عبد الله على خراسان . وكان على أسد هذا أن يزيع من طريقه غريبه الحارث بن شريح ولكن الأجل وافاه ببلخ وهو فى طريقه اليه .

ولئن كانت قوة الترك قد تضعضعت الى حد ما عقب تلك المعركة التى هزمهم فيها العرب ، الا أن ذلك لم يمنع من وقوع بعض الاضطرابات ببلاد ما وراء النهر حتى عهد بحكومة خراسان الى نصر بن سيار وكان شديد المراس قوى الشكسية . وهذا الرجل الذى تميز بعلو الهمة والحذر ، كان كما رأينا من قبل عاملا على سمرقند حتى اختاره لحكومة خراسان هشام قبل وفاته عام ١٢٥/٧٤٣ بزم من قصير (٢) . ولا أدل على كفايته من أنه

(١) كان الخاقان اذ ذاك منهمكا فى مهاجمة سمرقند ، وكانت زوجات المسلمين وأطفالهم قد احتموا فيها . وبهذا يكون جندب قد جاء فى الوقت المناسب . وقد غنم من وراء هزيمته للترك غنائم وفيرة .

(٢) يروى النرشخى أن نصر بن سيار نزل ببخارى وهو فى طريقه لغزو خوقند وبنى هناك بابنة طفشاد . وحدث وهو جالس أمام خيمته فى شهر رمضان ومعه طفشاد أن وفد عليه رجلان من أعيان بخارى يشكوان اليه من ظلم طفشاد لهما هو وأمير بخارى الفضل بن عمر . ولما كان هذان الرجلان قد اعتنقا الإسلام على يد نصر فكان يهتم بأمرهما اهتماما كبيرا ، تحدث من فوره الى طفشاد بهذا الشأن . هنالك جرى فى خاطرهما أن طفشاد انما يطعن فيهما حتى ينتهى بهما الحال الى التلف ، فعزما على الشار منه وسقطا عليه وعلى الفضل أمام خيمة نصر . وأصيب طفشاد بجروح مميتة ، فقدم اليه نصر وسادته ليتكىء عليها ، وعهد الى طبيبيه الخاص قراجه بتطبيبه ، ولكنم أسلم الروح . وينقل النرشخى هنا ما لاحظته « البيزار » من أن خدم طفشاد استخرجوا عظامه من جسده بعد موته .

استطاع أن يحتفظ بمنصبه هذا في ظل خمسة من الخلفاء على التوالي ، وهم : هشام والوليد ويزيد وابراهيم ثم مروان بن محمد آخر بني أمية الذي توفي عام ١٣٣/٧٤٩ ، فلم يخلع من منصبه في الواقع الا على يد أبي مسلم عام ١٢٩/٧٤٦ حين سقطت الدولة الأموية ، وكان من اتباعها المخلصين . وأول ما ركن اليه نصر في حكومته الجديدة هو العمل على اخضاع بدو الترك في بلاد ما وراء النهر وفرغانة اخضاعا تاما . وكان هؤلاء هم أغلب المحاربين من بين السكان ، كما كانوا مثار متاعب كثيرة للعرب . وأصابه التوفيق في حملته هذه التي بلغ بها حدود فرغانة الشرقية وتخطاها الى كاشغر . ولم يكتب له الفوز في ذلك لقوة جيشه فحسب ، وانما لما كان عليه كذلك من لين العريكة وميل الى العدالة ، ولعل ما كان يتحلى به من هذه الصفات الحميدة هي التي عوقت أبا مسلم الخراساني (١) من أن يكسب كل بلاد ما وراء النهر لرصفه . وكان أبو مسلم هذا صبي سراج فصار مؤسس دولة .

(١) كان أبو مسلم يدعى أصلا عبد الرحمن بن مسلم ، وقد نسب نفسه الى خراسان - وهو من قبيلة بني عجل ، وكان في شبابه سراجا . وكان قد صاحب فريقا من متعصبى الشيعة في خراسان خرج معهم الى الحج . وفي مكة وكل اليه محمد على بن عبد الله ، زعيم العباسيين أمر الدعوة لبني العباس لما أدركه عنده من الذكاء والشجاعة . وأوصى الزعيم العباسي أصحاب أبي مسلم بمعاونته ومساندته عند الحاجة . ورجع أبو مسلم الى خراسان ، وانتظر حتى انبرى الكرمانى يعادى نصر بن سيار فى العلن ، وكان الكرمانى هذا أميرا قويا فى جنوب فارس . حتى اذا ما بدأ لأبى مسلم رجحان كفة الكرمانى بادر بالانضمام اليه ، فلم يعلن الحرب على نصر بن سيار فحسب ، بل جهر كذلك بحرب الأمويين ودعا أهل خراسان الى أن يبايعوا العباسيين . ولبى دعوته أول الأمر ألف رجل ساروا معه . ثم غدت شيعته تزداد قوة حتى بدا لنصر بن سيار أن لا سبيل الى مقاومته . وحين تراخت الخلافة فى انجاده اضطر الى الانسحاب من الميدان حيث مات فى موضع بظاهر طهران الحالية . ووجد أبو مسلم فى قحطبه ، أمير أصفهان ، ظهيرا قويا ، فقد فتح باسمه جرجان وقم وقاشان وأصفهان أغلب بلاد فارس - فضلا عن أنه كان يعمل القتل فى كل من كان يصادفه من اتباع الأمويين فى كل مكان ، ويعلن أن أبا مسلم هو عامل العباسيين الشرعى . واستمر قحطبة فى زحفه من بعد ذلك حتى بلغ الكوفة حيث وقعت المعركة الفاصلة بينه وبين الأمويين على ضفاف الفرات . ولئن كان قد قتل هو فى هذه المعركة الا أن ما أحرزه جنده من نصر باهر قد أتى بالعباسيين الى عرش الخلافة .

ان انضواء أتراك ما وراء النهر هم وأتراك خوارزم فى يسر تحت راية العباسيين السوداء ، بل وتحسبهم كذلك لدعوتهم انما يستبين فى اجلالهم البالغ لذكرى أبى مسلم (١) اجلالا تلمسه حتى اليوم عند الأوزبك والتركمان بدورهم . على أن المراجع التاريخية تقول بلا لبس بأن سكان هذه البلاد من الايرانيين ، اى التاجيك ، قد حاربوا تحت راية نصر بن سيار وبقوا على ولائهم للأمويين أمدا طويلا . وما أبداه نصر بن سيار من المقاومة ، لا بازاء القوات التى واجهها فحسب ، وهى التى كانت تتفوق عليه فى عددها ، بل وكذلك فى وجه الدعايات التى كان يبثها أبو مسلم ، هذه كلها موضع تقديرنا واحترامنا . ذلك أن الموت ، الذى فاجأه وهو فى انسحابه ، هو وحده الذى أنهى حكم الأمويين فى خراسان . ولا يمنعنا ذلك من أن نشهد لأبى مسلم اذ نجح نجاحا مذهلا فى أن يكسب لصفه ، فى وقت قصير ، أتراك بلاد ما وراء النهر ، حتى ذهبت القصص التى تجدها الى يومنا هذا تجرى على لسان الأوزبك والتركمان ، تقرنه بالخليفة على (بن أبى طالب) لجرأته وما أتى به من عجيب الفعال . وعلى أى فان شخصية أبى مسلم القوية هى التى جعلت الناس لأول مرة يشعرون بتفوق الترك فى آسيا الغربية (٢) ومن عجب أن الأقدار التى هيات لراية العباسيين السوداء أن ترفرف عالية بعون من التورانيين ، قدرت لها فيما بعد أن تمرغ فى التراب ببطش أحد الأمراء التورانيين كذلك .

ولئن سيطر على بلاد ما وراء النهر سيطرة تامة رجال من أمثال نصر

(١) اطلعت فى آسيا الوسطى على مخطوط يفصل حياة أبى مسلم وفعاله (انظر كتابى : travels in Chagatische Sprachstudien . p. 37 ، Central Asia p. 358

وأضيف الى ذلك فقط أن التركمان كانوا يعتبرونه واحدا من بنى جلدتهم حياه الله بصفات الرسل فانقذ بذلك العقيدة الاسلامية من التلف . وفى الأغاني الشعبية الحماسية التى غناها شعراء الترك فى مدحه ، جعلوه بطلا ، كرستم ، أفنى عمره فى حرب المشركين من الفرس .

(٢) يذكر مخطوط أبى مسلم الذى أشرت اليه فى الهامش السابق أن الجيش الذى هزم به قحطبة الأمويين كان فى أكثره من الأتراك ، وهى واقعة يفسرها ما كان لأبى مسلم من نفوذ بالغ فى خراسان وبلاد ما وراء النهر .

ابن سيار وأبى مسلم ، الا أن الاسلام كله كان قد تعرض لهزات عنيفة بسبب الصراع المذهبي الذي أثاره الشيعة والخوارج من جهة ، وبسبب تغيير أسرة الخلافة من جهة أخرى ، ذلك التغير الذي استند على دعوة دينية وقام عليها . ولم يكن من الطبيعي مع هذا كله أن تبقى نفوس أهل تركستان المضطربة بمنأى عن التأثير بتلك الفتنة . وكما اتخذ الشعور القومي المكبوت في إيران من حماس الشيعة المذهبي سترا يتستر به لمحاربة نفوذ العرب ، فقد توسل كذلك أهل بلاد ما وراء النهر بالدين للتخلص من استبداد العرب . وتجلى أول مظهر من مظاهر هذا الشعور في بخارى ، اذ انطلق أهلها ينادون بالثورة انصارا لمذهب الشيعة ، على ما فعل بنو جلدهم بايران . وحدث ابان حكم أبى مسلم في خراسان أن رفع علم الثورة شيعى متعصب يدعى شريك بن الشيخ المهدي داعيا الى مبايعة خليفة من العلويين ، وكان يقول في دعوته : « لقد أنزل بنا بنو مروان المذلة والهوان والحمد لله الذي كفانا أمرهم . وما على هذا اتبعنا بنى العباس ، على أن نسفك الدماء ونعمل بغير الحق ، ولا يكفيننا ذلك كله الا خليفة من أهل البيت » ومما يسترعى النظر أنه لم ينضم اليه أغلب سكان العاصمة الواقعة على زرفشان فحسب بل انضم اليه كذلك من الزعماء عبد الجبار بن شعيب وأمير خوارزم .

ويحتمل أن الحركة التي تزعمها شريك كان يسندها جيش قوى . وحين وقف أبو مسلم على أمرها بعث من فوره الى بخارى بالقائد زياد بن صالح على رأس عشرة آلاف من الجند لقي بهم العصاة بظاهر المدينة في معركة استمرت سبعة وثلاثين يوما نزل فيها بالمهاجمين خسارة جسيمة بسبب ما كان عليه اتباع شريك من تفوق في العدد . على أن انصار الشيعة هؤلاء ما لبثوا أن اضطروا بسبب الجوع الى التخلي عن مركزهم القوى ، فأخرجوا منه ليتوجهوا من بعد ذلك الى نوقند ، وهى مكان يشتهر بوفرة فاكهته . وهناك نزلت بهم الهزيمة كذلك وأعمل فيهم القتل وترك زياد نوقند والنار تستعر فيها ، فلم يعرج على بخارى ، وانما استمر فى سيره الى سمرقند . ولعله انما فعل ذلك ليستأصل شأفة الشيعة بها وكان عددهم قد تزايد هناك الى درجة كبيرة .

ولئن كان الشيعة قد أخذت أنفاسهم فى تركستان وأمن كيان الاسلام من خطر التشيع فى الشرق القصى ، فقد هبت ثمة زوبعة عاتية أخرى استمرت قرابة ربع القرن وكادت تقتلع جذور الاسلام الغضة ، ولما يمش قرن من الزمان ، على غرسها هناك ، وهى التى ارتوت فى سبيلها تربة سهوب تركستان الصحراوية الرخوة بالدماء الغزيرة . وتشلت تلك الزوبعة فى ظهور المقنع ، النبى المزعوم ، الذى يشتهر باسم « النبى المقنع » الخراسانى . وكان قد جهر أول الأمر بدعوته فى بلاد النهر عام ١٥٠/٧٦٧ فكانت دعواه هذه بداية نضال استمر أكثر من خمسة عشر عاما وأثار فتنة ظلت آثارها تلتبس لقرون كثيرة فيما بعد .

كان المقنع ، أو هاشم بن حكيم (١) ، كما كان يدعى فى الأصل ، من أهل حزه باقليم مرو . وقد عرف فى شبابه بذكائه الخارق وذاع عنه اطلاعه على معارف الأسرار (السحر) . وكان أبوه قائدا فى خدمة أبى جعفر الرواتقى البلخى ، وقد شغل المقنع المنصب نفسه أول الأمر عند أبى مسلم (٢) . ولا ندرى أكان ما صادفه من تجارب فى آسيا الغربية ابان التحاقه بخدمة حليف الخلافة العتيد هذا ، هو ما ذكى خياله وأوهامه ، اذ كانت هذه هى الفترة التى راجت فيها البدع من كل نوع فى العالم الاسلامى (٣) أم أن الأوقات المثيرة التى كان يعيش فيها قد انفعل بها حتى بات يخيّل اليه أنه قد غدا وله قدرات علوية . وانما الثابت أنه قال

(١) كان حكيم ابنا لزيات فى مرو يدعى عطاء Weil, History of the Khalifs Vol. II p. 101.

(٢) يقول وايل انه كان حاجبا لأبى مسلم .

(٣) كان عهد الخليفة المهدي ، كما يلاحظ الطبرى بحق ، هو الفترة التى راجت فيها الأراجيف الدينية . وهو يحكى فزعا عن أناس أنكروا الرسول والقرآن ، ورأوا الزنادقة معصومين فلا تكليف عليهم بالصلاة أو الصيام وهو يقول ان هؤلاء الزنادقة كانوا أشد كفرا من اليهود وعبداء الأوثان وعبداء النار ، اذ ان هؤلاء لهم ما يعتقدون فيه على الأقل ، فى حين يؤكد هؤلاء الزنادقة ان العالم لا بداية له أو نهاية ، وان الناس والدواب يظهرون فى الدنيا كما يظهر النبات فلا يعلم أحد شيئا عن كيفية مجيئهم أو ذهابهم ، وأنه لا حياة بعد الموت ولا عالم غير هذه الدنيا .

بصفات النبوة عنده فى عهد أبى مسلم . ولما كان يعلم تمام العلم أن أبا مسلم لا يطبق أى سلطان بجانب سلطانه فقد ركن فى البداية الى الهدوء حدا ما . حتى اذا ما مات أبو مسلم وافلت زمام النظام والطاعة فى خراسان ، رأى أن الفرصة بذلك قد واثته ، فانطلق يجهر بنبوته . ولكن ما غدا أن قبض عليه وسير فى القيد الى بغداد . ولا نعرف الوقت الذى قضاه هناك على وجه التحديد ، وكل ما نعلمه أنه رجع من هناك ، كما رجع الباب (١) فى العصور الحديثة ، وقد قويت أوهامه فى بعثته النبوية فجمع حوله بقايا اتباعه السريين من جديد وراح يروج لدعوته فى حواس بالغ .

حين ظهر المقنع بين اتباعه لأول مرة ، وكان ذلك حوالى عام ٦٧٠/١٥٠ وسألهم عن نفسه فأجابوه بأنه هو هشام بن حكيم ، رماهم عند ذلك بالجهل وقال لهم انه انما هو الههم ورب العالمين . وأنه يدعو نفسه بما يشاء من الأسماء . وأنه ظهر من قبل فى صورة آدم ثم فى صورة ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وأبى مسلم ، وهو اليوم على الصورة التى يرونها . وحين سألوه كيف بلغ هؤلاء درجة النبوة فقط فى حين بلغ هو درجة الربوبية ، أجابهم بأن هؤلاء جميعا مجرد متجسدين فى حين أنه هو روحانى كامل قدير على أن يتخذ الصورة التى تترأى له . وبقي أول الأمر فى نواحي مرو وبعث رسله من هناك الى تركستان يدعون الناس الى الدخول فى ملته بهذه الدعوة « بسم الله الرحمن الرحيم ، من هشام بن حكيم ملك الملوك ، الحمد لله الأحد الذى تحول فيما مضى فى صورة آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى وأبى مسلم . هو أنا المقنع رب

(١) كان الباب الذى أثار بمذهبه الجديد الاضطراب فى فارس كلها ، قد بدأ دعوته بدوره كذلك بعد ايايه من بغداد . وكما كان المقنع يبعث بضلالاته الى اتباعه وهو فى ملاذه الصخرى دون أن يتصل بهم ، فكذلك دفع الباب باتباعه الى ارتكاب فعال غاية فى الجراة فى حين كان هو لعدة سنين سجيناً بقلعة جريج . المؤلف .

والبابيه ظهرت فى منتصف القرن التاسع عشر أيام السلطان القاجارى ناصر الدين شاه الذى قضى بشنق « الباب » ، ومن بعده تطورت الدعوة الى البهائية . الخشاب .

القدرة والعظمة والحق ، فبادروا الى وآمنوا بى والتفوا من حولى .
واعلموا أن لى ملك الدنيا والعظمة والقدرة ، ولا اله غيرى ، فمن تبغنى
دخل الجنة ومن عصانى دخل النار » .

وكان من أثر فورة التشيع العدائية التى عمت العالم الاسلامى فى
ذياك الوقت ، وما صاحبها بخاصة من اضطرابات بسبب تغيير الخلافة
القائمة ، أن شجع ذلك كله الى حد كبير الطبقات الدنيا بتركستان على
الارتداد عن الاسلام ، لتقبل جموعهم من بعد ذلك على اعتناق دعوة
المقنع ، وكانت نفوسهم ما تزال بها رواسب قوية من عقيدة المجوس
القديمة . وحين حاول حميد ، أمير خراسان اذ ذاك ، أن يقبض عليه
انطلقت قرى كثيرة تدعوه لياوى اليها . ولم يقتصر الأمر عند هذا فحسب
بل لقد صار له كذلك كثير من الأنصار من الميضة (سفيد جامكان) عند
الجانب الآخر من جيحون فى بخارى وسمرقند وكش ونخشب (١) ، حتى
عزم على الزوج الى هناك حين شعر بأن لا سلامة له فى المقام عند مرو .
وبرغم ما كان من تشديد الحراسة بمواضع عدة من النهر حين عرف ما
اعتزم عليه ، فقد تمكن آخر الأمر من عبور الماء بسلام فى ستة وثلاثين
من اتباعه آوى بهم الى حصن مكين من حصون كش يقع على جبل
سام (٢) . وفى هذا المخبأ الحصين أقام ذلك النبى المزعوم وقد بقى يخفى

(١) طلب اليه أحد أتباعه أن يأتهم بمعجزة فأخرج لهم من أحد الآبار
جسما مضيئا على هيئة القمر . ولا يزال « ماه نخشب = قمر نخشب » مجازا
رائجا عند الشعراء الفرس . والعجيب أن النرشخى ، وهو الذى أفاض فى
الحديث عن المقنع ، نراه لا يشير الى هذا الحادث .

(٢) يذكر الطبرى هذا الحصن باسم نواكت ، ولما كان الحصن المقصود
يقع عند الشمال من كش (ذلك أننا نعلم أن القائد العربى داود الذى كان
عليه أن يسير من هذا الحصن الى بلخ كان عليه أن يمر بكش فى طريقه)
فلا بد أنه كان اما حصن يمنى أو حصن كتاب . وكلاهما حصنان قويان
مهمان عند الشمال من شهرسبز الحالية .

هذا ويذكر الأستاذ وایل هذا الحصن باسم سنم فى كتابه
History of the Khalifs vol. II p. 103.

وجهه بقناع أخضر ، أو ذهبى على بعض الروايات حتى سمي بالمقنع (١) . وعاش فى مخبئه هذا طوال الحرب الدينية التى استغرقت أربعة عشر عاما فلم يغادره أبدا . وحين انسحب من حياة العلان كان يدير شؤونه فى الغالب بواسطة نوابه الأقوياء . وكانوا هم قواده فى الوقت نفسه . وكان على رأس فتنته ، التى انطلقت شرارتها الأولى أول ما انطلقت من قرية غير بعيدة من بخارى ، عربى من بخارى يدعى حكيم ومعه ثلاثة من قادة الجيش هم : حشرى وبغى وكيردك (٢) . وهاجم المبيضة من أتباعه أحد المساجد فقتلوا مؤذنه وخمسة عشر ممن كانوا به من المصلين ، فأشاعوا بصنيعهم هذا ، فى مهاجمة المسلمين ، الرعب والفرع فى كل تركستان . هنالك انطلق أمير بخارى حسين بن معاذ فى أول محاولة لدفع هذا الخطر المتزايد ، فسار بكل القوات التى كانت تحت امرته ومعه أهل بخارى وعلى رأسهم القاضى عامر بن عمران ، فقصدوا جميعا قرية نرشيخ ، وكان اتباع المقنع قد ركزوا أهم قواتهم بها . وأراد القاضى أول الأمر أن يقرع الحجة بالحجة معهم ، فحين خاب فى مسعاه قام القتال . و انتهت أول هجمة فى صالح العرب ، على رواية النرشخى ، حتى قيل ان سبعمائة من المبيضة سقطوا فى الميدان . على أن ذلك لم يؤثر فى الموقف الا القليل على كل حال . وسرعان ما بان عجز القوات المحلية ببلاد ما وراء النهر عن مواجهة الشوار ، وبات على أمير خراسان أن يقوم باجراء حاسم فى هذه المسألة .

لم يقف نشاط المقنع السرى ، — وهو الذى كان يحيط نفسه بهالة من القداسة اعتقد الناس معها بأنها من نور الله — عند الدرجة التى صار

(١) يحكى النرشخى والطبرى أنه كان يسدل هذا النقاب على وجهه ليخفى به عينا مفعوة . وحين نرد هذا القول السابق الى كراهية المسلمين له (وهو أمر محتمل) فاننا نستطيع أن نقول : لعله أراد بذلك أن ينهج نهج الخليفة (على بن أبى طالب) الذى كان يسير فى الغالب وعلى وجهه حجاب يبدو فى تصاوير الشيعة له .

(٢) يذكر الطبرى أمين سر المقنع باسم طخارجى ، كما يذكر قواده الثلاثة باسم سرخومى وحبوب وغيك أو كيك ، وقد أوردت هنا الأسماء التى ذكرها النرشخى فهى أوثق فى كل ما يحكى عن المقنع .

معها اتباعه لا يجنبون عن ركوب أشد الأخطار والتعرض للسوت عن طيب خاطر انتصارا لدعوتهم ، حتى استطاع ذلك المتنبئ أن يقوى من مركزه فى ناحية أخرى وذلك بتحالفه مع الترك . وشارك فى نصرة هذه الدعوة شيخ من شيوخ القبائل التركية يدعى خلخ أو قلق (١) ومعه ألوف من بنى قومه . ولا يعزب عن البال أن اسلام الترك فى تلك الآونة لم يكن فوق الشبهات ، فضلا عما كان يتيح لهم انضمامهم الى المقنع من فرص موالية للسلب والنهب . وكانت جموعهم هى التى وقفت فى الحقيقة فى وجه القوات العربية طويلا . وبأمر مشدد من الخليفة المهدي سير عبد الملك أمير خراسان اذ ذاك القائد جبرئيل بن يحيى الى بخارى ، فما زال فى شد وجذب مع قوات المبيضة أمام سمرقند (٢) حتى أسقط فى يده . وبات فى عجز تام ، لتهد لنجده من بعد ذلك قوة من بلغ قوامها سبعة آلاف من الرجال يقودهم عقبة بن مسلم . على أن هذا القائد لم يلبث أن نكص على عقبيه بعد أن توسط الطريق وذلك بتدبير ناجح (٣) عمد العدو اليه ، على رواية الطبرى . بل ان القوات العربية ، ومعها الامدادات التى بعث بها أمير خراسان وقوامها أربعة عشر ألف رجل تجمعت كلها فى ترمذ ولم يكن لها قبل باتباع المقنع المتعصين ، حتى أيد كثير منها ، وأصيب العرب بهزيمة شديدة قبل أن يعبروا جيحون نفسه . وما غدا مركز جبرئيل

(١) هذه الأسماء هى وفق ما بأيدينا من وثائق . ولعل لفظ خلخ (بالضم) هو تحريف للفظ خلخ (بالكسر) التركى القديم أو الأيفورى ، وهو ينطق فى التركية الحديثة قلعج . وكان خاقان خوقند الذى هزم سعيد ابن عمرو الحرشى عام ١٠١ هـ / ٧١٩ م يحمل اسما تركيا مشابها لهذا الاسم .

(٢) لا يتضح فيما بين أيدينا من مصادر ان كانت سمرقند بأيدي المبيضة أو بأيدي المسلمين اذ ذاك . ويقول النرشخى بالقول الأول حين يذكر ان جبرئيل بن يحيى كان يقيم مضاربه أمام سمرقند ، فى حين يشير الطبرى الى عكس ذلك اذ يؤكد أن حرب العرب أمام سمرقند انما كانت لدفع جيش المبيضة المهاجمين لهم .

(٣) تفصيل الامر ان رسولا كان قد سير الى المقنع على ان يسقط بأيدي عقبة . وحين أسر الرسول وجدوا معه رسالة تحوى التهئة بانتصار قائد المقنع على جبرئيل وأن الجيش الظافر ينوى بعد انتهاب سمرقند الزحف جنوبا للقاء عقبة . واعتقد عقبة فى صحة الرسالة فخاف من ازدياد قوة عدوه وفقل راجعا من فوره .

ابن يحيى أن دق غاية الدقة أمام سمرقند وقد منعت عنه كل الامدادات والمساعدات وقطع اتصاله ببلخ وبسرو على السواء .

ونجح هذا القائد فى الاستيلاء على حصن نرشيخ القوى بعد جهود كبيرة . فقد استطاع العرب أن يحدثوا قنبا كبيرا فى سور الحصن بعد حصار دام أربعة أشهر استخدموا فيه العرادات والألغام والنار وكل ما بأيديهم من وسائل وأدوات (١) . ومنه نفذ العرب الى المكان فوعدوا المبيضة فيه بأن يرفقوا بهم ان هم عادوا الى حظيرة الاسلام وسلبوا زعماءهم وأسلحتهم الى الخليفة ، هناك سار هؤلاء المبيضة ، وحكيم على رأسهم ، فى ركب طويل الى معسكر العرب ، وهم يخفون أسلحتهم تحت ثيابهم ، على ما يقال . واقتيد حكيم تحت بصر أصحابه الى خيمة جبرئيل ، فما ان طال مكثه بها حتى تسرب الشك الى نفوس أصحابه . وحين انبرى حشرى (٢) يسأل ابن جبرئيل عن طول غياب صاحبه فرد عليه بأن أطاح برأسه ، انطلق هؤلاء الثائرون المتعصبون (٣) فتنادوا بالثار وقد شهروا أسلحتهم من تحت ثيابهم . وتجدد القتال بين الفريقين فى عنف بانغ تمكن فيه أصحاب المقنع من أن يخلصوا أنفسهم من الأسر الذى وقعوا فيه . وبهذا ضاعت على جبرئيل ثمرة انتصاره الأول . وبرغم صدق مقال النرشخى فى أن بغى ، قائد المقنع ، قد لقي مصرعه فى هذا القتال وأن صاحبه كيردك قد فر بمفرده الى المقنع ، الا أن ما اظهره المبيضة من مقاومة

(١) يذكر النرشخى العرادات ، ولعلها هى العجلات الحربية التى ورد ذكرها فى الانجيل ولها على جوانبها صف المناجل الحادة .

(٢) يحكى النرشخى أن حشرى كان قد ركب الى ابن جبرئيل فى خفاف ذهبية كانت للملكة خاتون . وهو بذخ لا يصادفنا أبداً فى الدور الاسلامى بتاريخ آسيا .

(٣) يحكى النرشخى فى حديثه عن هذه المسألة بما يدل على مدى تعصب أصحاب المقنع ، وما كان عليه العرب بدورهم من القسوة والعنف . فقد أتى بعد المعركة الى ابن جبرئيل بامرأة وقعت فى الأسر ، وكانت أرملة لجندى يدعى سيرو . وحين سألها جبرئيل عما اذا كانت تقر بأن أبا مسلم هو أبو المسلمين جميعا ، فأكرت عليه ذلك محتجة بأنه قد قتل زوجها ، أمر بها فقطت اربا بالسيف وقتل ابنها كذلك وكان معها .

عنيفة وما مارسوه من النفوذ والسلطان ببلاد ما وراء النهر من بعد ذلك يضعف ما ذكره المؤرخون المسلمون حين بالغوا فى وصف انتصارات العرب . فالثابت أن قوة المقتنع قد أخذت فى الازدياد من بعد ، وأن الاسلام قد تعرض بدوره الى محنة شديدة تبعا لذلك .

لم يكن مستغربا والحالة هذه أن يستبد القلق بالخليفة المهدي حتى قدم الى نيسابور بنفسه . فعزل عبد الملك عام ١٦١/٧٧٧ ونصب مكانه معاذ بن مسلم الذى بادر من فوره فجمع جيشا كبيرا أنزله الصحراء فيما بين مرو وبخارى على ضفاف جيحون ، ورصد ثلاثة آلاف عامل لتجهيزه بما يحتاج من السلاح ، لينضم اليه من بعد ذلك سعيد الحرشي أمير هراة الشجاع ويسرعا معا لنجدة العرب عند سمرقند . على أن الميضة باغتواء فى سهل بيكند وهو فى طريقه . ولا تؤيد الحوادث ما ذكره الطبرى فى الغالب من انتصار المسلمين ، ذلك أن معاذ ارتد على اثر ذلك الى بخارى عجلا بدلا من أن يعاود سيره فى طريقه . وقد احتج هذا القائد على مالحق به من الفشل ، بسوء تصرف أمير بخارى حين أصر على اصطحاب ألوف كثيرة من رؤوس الماشية معه برغم الحاحه الشديد عليه بالعدول عن ذلك . فقد أسالت كثرتهم لعاب الترك وشجعتهم على ما أقدموا عليه من العدوان . ولم يكن لهذا القائد العربى من بعد ذلك الا أن يقبع فى بخارى فى انتظار فرصة مواتية . وقد ذكرنا من قبل أن الفلاحين ، وأبناء الطبقة الدنيا ، كانوا قد انضوا فى أغلبهم تحت لواء المقتنع ، كما انضم اليهم كذلك بدو الترك الذين كانوا يعيشون على السلب والنهب . وكان من أثر الاضطراب والفوضى التى اشاعتها الحرب هناك أن ساد الذعر بين أهل هذه المنطقة من الايرانيين المسلمين حتى باتت دعوة المقتنع ولا مقام لها على شواطئ زرفشان حيث السكان اشد ميلا الى الحضارة الاسلامية وأكثر اتصالا بها .

وسرعان ما أخذ الناس يتصيدون هؤلاء الميضة حيث يلقونهم ، وحين دبت الفرقة فى معسكر هؤلاء عند سمرقند سارع معاذ الى هناك فى محاولة ثانية استطاع فيها أن يسيطر على المدينة . وتفرق هؤلاء على

أثر مقتل قائدهم . فترك من بعد ذلك معاذ قائد جبرئيل بن يحيى على سمرقند وانطلق هو بقواته الرئيسية ليهاجم الحصن الذى امتنع فيه المقنع على ما ذكرنا من قبل . وكان المقنع قد استقر فى قلعة الحصن الداخلية فى حين أنزل خيرة من جنوده المتاريس المحيطة بها . ويسوق إلينا الترشيح حديثا شائقا عن المقنع وهو فى عزلة هذه ، فيقول انه كان هناك خمسون ألفا من الأتباع يرابطون بظاهر باب الحصن وكلهم فى شوق ملح الى اجتلاء طلعة زعيمهم ولو لمرة واحدة . على أن المقنع أبى عليهم ذلك وبعث اليهم بعلامه ومعه رسالة قال فيها . نبيء عبادى أن موسى أراد بدوره أن يرانى جهرة أنا الله فغشى بصره من شدة أنوارى فلم يرانى فمن يرانى يحترق بنورى » ورد عليه أتباعه بأنهم يبدلون حياتهم عن طيب خاطر فى سبيل تحقيق ما تصبو اليه نفوسهم من التطلع اليه .

ولم يجد المقنع بدا بازاء اصرارهم ، من أن يحقق لهم رغبتهم بالخروج اليهم فى يوم معلوم عند بوابة الحصن . وفى هذا اليوم اصطف نساؤه داخل الحصن ويبد كل واحدة منهن مرآة تنعكس على صفحتها أشعة الشمس الغاربة ، بتدبير منه . وحين أحكم هذا الانعكاس الى غايته أمر المقنع ففتحت أبواب الحصن . هنالك غشى الضوء القوى ، الناشئ عن هذا الانعكاس ، أعين أتباعه المتحمسين حتى خروا سجدا وهم يتصايحون ويسألونه أن يمنع عنهم هذا النور اذ أن طول نظرهم اليه سوف يوردهم مورد التلف والهلاك . ولبشوا على سجودهم هذا حتى بعث اليهم بعلامه ليقول لهم على لسانه بأن الله قد رضى عنهم ووهبهم نعيم الدنيا .

أحاط معاذ مكنم المقنع بجيش قوى أكثره من العرب ليحاول من بعد ذلك أن يحمله على الاستسلام دون قتال . وحين قدم رسول معاذ الى المقنع فسأله عن شخصه وما يبغيه منه ، أجابه الرسول بأنه وقد ادعى لنفسه صفة الربوبية فلا بد والحالة هذه أن يحيط بكل شئ علما فلا يسأله . وقد حكى الطبرى هذا السلوك الجريء الذى صدر عن مسلم فى معقل المقنع ، وهى رواية تقابل بكثير من الشك . وأجاب المقنع على

دعوة معاذ بأنه قد عقد النية على المضى فى دعوته الى النهاية برغم ما نزل باتباعه من المصائب . هنالك حزم معاذ أمره على اقتحام الحصن بكافة السبل وضرب القائد العربى الحصار حول الحصن ، لكن حلول الشتاء (١) ، وله قسوته الشديدة فى منطقة مدينة سبز ، اضطره الى تسيير الجند الى بلخ بأقصى الجنوب ليحتسوا فيها من برده وصقيعه . وأدى طول الحصار الى أن زاد قلق المهدي ونقد صبره بازاء هذه المسألة شديدة الخطورة ، حتى عزل معاذ بن مسلم ، من منصبه بعد أن أمضى عامين فيه ، واختار مكانه أمير خراسان سعيد الحرشى وكان على ادراك تام بمجريات الحوادث هناك . وظهر الأمير الجديد همة ونشاطا فاق بهما سلفه ، فبدأ بإقامة الدور لجند العرب هناك حتى تستطيع بذلك أن تواصل حصار المكان . ومع هذا كله فقد كان عليه أن يمضى عامين آخرين عند أسوار هذا الحصن القوى قبل أن يستسلم له خصمه وكان كيزم ، احد اخوة المقنع (٢) هو أول من استسلم له ومعه ثلاثون ألفا من الرجال . وأدى تضييق الحصار على أتباع المقنع مع ما باتوا يعانونه من الجوع الشديد الى أن استسلموا جميعا ، دون قيد أو شرط ، ومعهم ثلاثة آلاف وثمانمائة من المتعصيين من أهل كش الذين كانوا يرون فى المسلمين ألد أعداء لهم . ولبت المقنع وحده معتصما بالقلعة الداخلية وكانت تقوم منيعة على قنّة صخرة .

وتقول الرواية ان المقنع ، ابان أيامه الأخيرة هذه ، جمع زوجاته حول الطعام بعد أن كان قد انصرف عنه أخلص خلصائه وسدت طرق الفرار فى وجهه . هنالك دعاهن الى شرب أعده من نبيذ خلطه بالسّم ، فشربن منه جميعا الا واحدة منهن تدعى بانوكه (٣) كانت قد عرفت بسر المسألة

(١) تشبه شهر سبز وما حولها سمرقند فى مناخها . وكلا المكانين يقع على منحدرات جبال كره تو حيث الشتاء قارس طويل .

(٢) يذكره الطبرى باسم كردش . ونسبه هنا الى ان هذه الكلمة فى الكتابات التركية القديمة وفى وسط آسيا تشير الى معنى القرابة .

(٣) هذا الاسم هو الذى ذكره الطبرى ، وهو ليس علما على كل حال فهو مشتق من الكلمة الفارسية « بانو » بمعنى سيدة .

فسكبت الشراب في عبها وتظاهرت بالموت ، فكانت من بعد ذلك هي الشاهد الوحيد الذي استطاع أن يروى تفاصيل اللحظات الأخيرة للنبي المزعوم وعلى ما رواه من يدعى أبو علي محمد من أهالي كش ، تقلا عنها ، أن المقنع بعد أن ماتت كل زوجاته قطع رأس غلامه ، وكان هو الوحيد من الذكور بين خدمه المباشرين ، ثم اندفع الى فرن مستعر كان قد أوقد ناره لثلاثة أيام خلت ، فلم يخرج منه أبدا . ويقال انه كان قد أطلع نساءه على ما كان قد اعتزم عليه من قبل ، فقال لهن انه سوف يقبل على ارتكاب ذلك آخر لحظة ، فيجعل بذلك وزرهن أمام الله على الذين تخلوا عنه ، وانه سوف تكون له الغلبة آخر الأمر ، على كل حال ، وذلك بعون من الملائكة الذين سيأتى بهم معه . وأضافت بانوكه الى ذلك انها قد راقبت الفرن مدة طويلة ولكنه لم يخرج منه . وكانت بانوكه هذه هي التي فتحت أبواب القلعة للقائد سعيد الحرشي بعد أن وعدا بعشرة آلاف اكه من أموال المقنع . وقد استولى العرب على كل ما كان بالقلعة من أموال النبي المزعوم . وبهذه الخاتمة السعيدة لتلك الحرب التي طالت عدة سنين تخلصت حدود الاسلام الشرقية من محنة شديدة .

ليس لنا الا أن نسلم بما يلف تعاليم المقنع من ظلام يكتنف كذلك حقيقة ما كان ينتويه بشأن الدعوة الى مذهب جديد . والظاهر أنه فكر أول الأمر في أن يضمن عقيدته مذهب التناسخ ، كما أنه لم يكن عموما متأثرا بالآراء الدينية الهندية القديمة فحسب بل وبالفارسية منها كذلك ، وإن كان من الصعب أن نجزم بأى شيء في هذا الموضوع على كل حال . وها هو ذا الترشيخي الذي فصل لنا أمر هذا المذهب الغريب الذي أذاع الفتنة في بلده ، بعد مرور ثلاثمائة عام من ظهوره ، نراه يتهم أتباع المقنع بنفس التهم التي يلصقها المسلمون المحدثون بالدروز في لبنان والبايين في إيران . من ذلك ما أخبرنا به عن امتناعهم عن أداء الفروض ، ومناداتهم بشيوعية النساء بينهم ، واعتبارهم أن قتل المسلم هو تقرب الى الله . وهذه كلها هي وكل ما كتبه المؤرخون المسلمون عن المقنع تقوم على الأوهام في الغالب . ومما يؤسف له أن يكتنف الغموض تعاليم المقنع برغم أن مذهبه ظل قائما من بعده لعدة قرون ، اذ يروى مترجم كتاب الترشيخي أنه كان

هناك عام ٥١٢/١١٢٨ اتباع للمقنع اعتنقوا الاسلام من باب التقية ، وكان هؤلاء فى نواحى كش ونخشب وفى بعض القرى بظاهر بخارى مثل قرية كوشكى بونار .

وبالقضاء على المقنع انتهى أمر الشكوك الدينية فى تركستان ، وانحسرت موجات الفتن الدينية بالتدريج . ومع ذلك لم تستطع الدولة أن تقضى على الاضطرابات السياسية التى كان يشيها سكان بلاد ما وراء النهر المحاربون بطبعهم ، الا فى فترات قصيرة ، برغم ما كان عليه الخلفاء العباسيون الأوائل من شدة وحزم وما كانت عليه حكومة البرامكة من كفاية كانت موضع التقدير والثناء الكثير . ففى آخر حكم الرشيد نرى رافع بن الليث ، حفيد نصر بن سيار ، يخرج على الخليفة . ولئن لم يفصح هذا التأثير فى ثورته هذه عن عزمه على الانتقام لمقتل جده بسبب وقوفه الى جانب الأمويين ، الا أن فعلته هذه قد عجلت بنهاية أعظم الخلفاء العباسيين (١) . ويقال ان رافع ، وكان جنديا شابا جميل الطلعة ، انما عمد الى العصيان لما أنزله به الخليفة من العقاب الشديد لعلاقة غير شرعية كانت بينه وبين إحدى النساء (٢) . فقد أصدر هارون الرشيد أمره الى أمير خراسان ، الذى أفقذه بدوره الى سليمان عامل سمرقند ، بأن يطوف برافع المدينة وهو على حمار فى وضع عكسى (٣) ، وأن تطلق زوجته منه ويرمى به فى السجن . واستطاع رافع أن يفلت من هذا العقاب المشين

(١) يقال ان هارون الرشيد اصابه مرض الموت اثناء سيره من بغداد الى خراسان ، وكان فى طريقه لاختاد ثورة رافع .

(٢) كانت هذه السيدة زوجة لمن يدعى يحيى بن الاشعث ، وكانت قد ارتدت عن الاسلام ، وبهذا طلقت من زوجها . وقد حملها من بعد ذلك رافع على العودة الى حظيرة الدين من جديد ثم بنى بها ، فعد صنيعه هذا عملا مشينا .

(٣) كان عقاب القواد على هذا النمط شائعا بين المسلمين زمنا طويلا ، فهذا هو مراد الثالث يدين أحد قواده بتهمة الجبن بعد موقعة واردة فيأمر بقتل نصف لحيته وأن يطوف به فى المعسكر بثياب النساء على حمار ووجهه الى ذنب الدابة .

بالهرب ، ليعود من بعد ذلك مستخفيا ، ويستغل ما كان من كراهية الناس لعلى بن عيسى لجوره وظلمه ، فلا يجد صعوبة في حمل أهل سمرقند على الثورة على على ثم على هارون الرشيد نفسه من بعد ذلك (١) . وكان التركستانيون قد شكوا الى الخليفة مرات عدة من ظلم على هذا الذى كان يفلح فى كل مرة فى تهدة سخط الخليفة عليه بما كان يبذله من المال وقد كان على ثراء واسع . وحين عقد الخليفة العزم على عزله ، وكان يعرف مدى ما بلغه عامله هذا من نفوذ وسلطان ، عهد بأمره الى القائد الافريقى هرثة بن أعين بعد أن رتب الأمر معه وحذره منه . وتقدم هرثة بقواته وظاهر هدفه المساهمة فى القضاء على ثورة رافع . وحين ظن على بن عيسى أن لا خطر عليه فى ذلك ، فقصده الى هرثة ، ناوله هذا كتاب الخليفة (٢) بعزله ثم قيده وسيره الى بغداد . هذا فى حين كان رافع ابن الليث قد قوى شأنه فى سمرقند ، وكسب كل بلاد ما وراء النهر الى صفه ، ونزل بجنده فى بخارى . وحين سار اليه هرثة فعبير جيحون وجد نفسه يقف وحيدا وقد تخلى الناس جميعا عنه ، اذ كانوا قد هابهم ما بلغه رافع من القوة .

وأدت هذه الأحوال الى أن خطب المأمون ود أسرة السامانيين فى سبيل القضاء على رافع . فقد فشل القائد خزيمه بن حازم فى رد الثوار الى طاعة الخليفة ، وتنتج عن فشله هذا أن استقر بتركستان تلك الأسرة التى يدين لها أقاليم جيحون ، وتاريخ بخارى المستقل بخاصة ، بأزهى عصوره .

(١) انظر هامش ص ٦٩ .

(٢) كان نص كتاب هارون الرشيد كالاتى : « بسم الله الرحمن الرحيم ، يا على بن عيسى ، با ابن الزانية ، رفعت من قدرك ونوهت باسمك وأوطأت سادة العرب عقبك وجعلت أبناء ملوك العجم خولك وأتباعك ، فكان جزائى أن خالفت عهدى ونبذت وراء ظهرك أمرى حتى عثت فى الأرض وظلمت الرعية وأسخطت الله وخليفته بسوء سيرتك وظهر خيانتك ، وقد وليت هرثة بن أعين مولاى نغر خراسان وأمرته أن يشد وطأته عليك وعلى ولدك وكتابك وعمالك ، ولا يترك وراء ظهوركم درهما وحقا لمسلم ولا معاهد الا اخذكم به حتى ترده الى أهله ، فلا تعرض نفسك للتى لا تسوى واخرج مما يلزمك طائعا أو مكرها » . (الطبرى حوادث عام ١٩١) المترجم .

الفصل الرابع السامانيون والأمير إسماعيل

٢٦١ (٨٧٤) - ٢٩٥ (٩٠٧)

حين كان أسد بن عبد الله (ناصر المظلومين) أميراً على خراسان استنجد به أحد أعيان (١) بلخ من بقايا الزرداشتين، ويدعى سامان، ليعينه على عدو له كان قد أخرجه من المدينة. واهتم أسد بأمر صاحبه حتى رده إلى بلده ليقابل سامان هذا الصنيع من بعد ذلك بالدخول في الإسلام (٢)، ويسمى أول من رزق به من الأبناء باسم أسد الذي ناصره. ورزق أسد بن سامان هذا بأربعة أبناء هم نوح وأحمد ويحيى والياس كانوا جميعاً من حزب العرب على ما نهج عليه أبوهم من قبل حتى أوصى المأمون بهم أمير خراسان (٣)، بحق، بأنهم أصحاب نسب عريق وأنهم جديرون بأعلى المناصب. واستعان بهم الخليفة في فتنة رافع كما أشرنا من قبل، وسرعان ما أدت معوتهم إلى إخضاع رافع ليكافئ المأمون من بعد ذلك أولاد أسد

(١) ينسب سامان نفسه إلى بهرام جويين الساساني، ومن هنا يشتهر بين العرب بعراقة النسب.

(٢) إن قيام سامان الوثني بالأمر في بلخ لمدة طويلة بعد الفتح العربي إنما يدل على مدى التقدم البطيء الذي أحرزه الإسلام بين الزرادشتيين (المؤلف). بل الأجدر أن يحمل ذلك على تسامح المسلمين الذي يتضح في معونة أمير خراسان لسامان، ذلك التسامح الذي نبه إليه بارتولد في كتاب عن «تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٦» (ترجمة حمزه طاهر) حيث يقول إن المستعصم عاقب بعض المسلمين عقاباً شديداً لتعرضهم لمعبد من معابد المجوس بالصغد. (المترجم)

(٣) غسان بن عباد وهو ابن عم الفضل بن سهل وزير المأمون ذي الرياستين، الرئاسة المدنية والرئاسة العسكرية.

على صنيعهم هذا كل بدوره ، فأقطع نوح سمرقند ، وأقطع أحمد فرغانة ، وأقطع يحيى جاج (طشقند) وأقطع الياس هراة ، وقد أقرهم الخلفاء من بعد المأمون على ما بأيديهم من أرضين . وحين مات نوح صارت سمرقند لأخيه ليخلفه من بعد ذلك عليها ابنه نصر ويقره الخليفة الواثق على ذلك ببراءة منه . وأدى ما أسبغه العرب على السامانيين من التكريم الى تقوية جانب هذه الأسرة الناهضة ، كما أدى تمكين الصلات بهم الى ازدهار أحوال بلاد النهر بدورها . فقد أخذ النظام يسود كافة الأقاليم حول سيحون وجيحون ، تلك البلاد التي كانت تعاني معاناة شديدة من الاضطرابات ، وبات من الواضح أنه سوف يشرق عليها عهد جديد فى ظل السامانيين . . .

كان نصر بن أحمد على صفات عالية ، ولكنه كان فى طبيعته ضعيفا متشككا حتى كاد يقنط من تثبيت عرشه تلقاء ما أثاره الطاهريون من الاضطرابات (برغم أن سلطانهم كان فى طريقه الى الزوال) من ناحية ، وخروج يعقوب بن الليث بخراسان من ناحية أخرى ، لولا ما كان من شد أخيه الأصغر اسماعيل لأزره ومداومة معوته له . وكان اسماعيل هذا قد ولد بفرغانة فى شوال من عام ٢٣٤/٨٤٨ ، ومات أبوه وهو فى الخامسة عشرة من عمره فتعلق بأخيه الأكبر فى حب خالص واجلال لم يتطرق اليهما أدنى تغيير حتى حين انقلب عليه نصر يحاربه . وأول ما ذاع صيت اسماعيل كان ببخارى ، وكان اذ ذاك فى الخامسة والعشرين من عمره . ذلك أن أهل هذه المدينة كانت قد شاعت فيه فرقة الفرق التي كانت تسود اذ ذاك شرقى الدولة الاسلامية ، ولاح الخطر على أشده فى تناحرهم وانقسامهم . وحين غزا حسين بن طاهر أمير خوارزم هذا الاقليم عام ٢٥٩/٨٧٢ فأعمل السلب والنهب فى بخارى كلها (١) ، استنجد فريق من أعيان هذه البلاد

(١) من ذلك أنه أمر الناس ، محتجا بجمع الخراج ، بأن يقدموا اليه ما عندهم من العملة الأشرفية ليستبدلها لهم بعملة فضية . وحين اضطر الى الهرب ليلا فجأة فترك أمواله من ورائه ، اقتسمها جميع الفقراء فيما بينهم فتبدل حالهم بذلك . وصار كل من يصيب من الثراء من بعد ذلك يكنى « بشريك حسين بن طاهر فى ماله » وذاعت هذه الكناية هناك زمنا طويلا .

بنصر الساماني في سمرقند على ما نصح لهم به عبيد الله الفقيه وكان من العلماء المرموقين . وعرض عليهم نصر أن يبعث اليهم بأخيه اسماعيل ، وسيره الى بخارى من فوره . وحين علم العدو بقدومه عرض عليه الصلح ، لتدخل بخارى من بعد ذلك في حوزة السامانيين وتجري الخطبة فيها باسم نصر بدلا من يعقوب بن الليث . ودخل اسماعيل المدينة دخول الظافرين ، عاملا لنصر عليها ، في غرة رمضان من عام ٢٦٠ هـ ، وقد زينها أهلها تكريما له .

وبرغم ما كان بين فرقها من الخلاف فقد استقبلوه جميعا بترحاب بالغ واثروا الذهب والعطايا الثمينة بين يدي ذلك الضيف الذي سبقه اليهم ما ذاع عنه من الصفات العالية . وحق لبخارى ما فعلت حين عدت هذا اليوم من أعيادها ، فقد تم لبلاد ما وراء النهر بل ولتركستان كلها وحدتها في تلك البراءة التي رسم بها الخليفة المعتمد نصرا أميرا على بلاد ما وراء النهر وجعل له كل البلاد المستدة من شواطئ جيحون حتى أقصى بلاد المشرق .

وبرغم الظروف الدقيقة التي ظهر فيها اسماعيل أول الأمر ببخارى ، فانه ما غدا بعد قليل أن صار محبوبا من الجميع . على أنه عانى مشقة بالغة في استرضاء أخيه نصر وكان الخلاف قد بلغ بينهما أشده . ذلك أن اسماعيل كان قد أقام له نائبا عنه ببخارى ، حين غاب عنها بعض الوقت ، فاستقبح (١) نصر ذلك منه حتى رغب في عزله لولا توسط بعض المخلصين بينهم في ذلك ، فسمح له بالقدوم الى بخارى على ريب كثيرة في نفسه . وفيها استقبل اسماعيل من جديد بمظاهر الاجلال والتكريم من الجميع ، اذ كانوا يأملون فيه ، وهو المعروف بحزمه وعدله المطلق ، أن يضع حدا لنشاط قطاع الطرق ، وكان خطرهم قد استفحل في غيابته حتى كان منهم

(١) يقول ميرخوند في تاريخه للسامانيين أن مبدا الخلاف مع نصر كان بسبب الصداقة الخالصة التي كانت بين اسماعيل ورافع بن هرثمة . وكان هناك من الدسائسين من ادخل في روع نصر أن اسماعيل كان يتآمر مع رافع لخلعه عن عرشه .

ما يقرب من أربعة آلاف يعيشون فى الأرض فسادا فيسا بين رامتى وباركت
فحسب . هنالك بعث اسماعيل بجنده لتوه فأبادوا أغلبهم . وما بقى منهم
على قيد الحياة ساقوهم أسارى الى سمرقند . ولم يكذب ينتهى من هذا
الأمر حتى جاءت الأخبار بعبور طاهر بن الحسين جيحون فى ألفين من
الخوارزميين وجهته بخارى ، فأسرع اليه وهزمه هزيمة حاسمة ، فكانت
حربه هذه هى أول فرصة بانت فيها شجاعته الشخصية . وزاد من تعلق
جنده به من بعد ذلك سخاؤه عليهم وبره بهم (١) .

عزم اسماعيل بعد أن آب الى بخارى على أن يسك بزمام الحكومة
ويحزم سير الأمور فيها ، ولكنه واجه عندئذ كثيرا من العقبات . فقد رأى
أعيان هذه المدينة التى تقع على ضفاف زرفشان فى قيام النظام ما يقتضى
على المصالح التى كانوا يفيدون منها فى ظل ما كان من القوضى فى
السابق ، فقاموا بذلك يناهضونه ويعارضونه . هنالك حزم اسماعيل أمره
على التخلص منهم ، فسيرهم الى سمرقند بدعوى إيفادهم الى أخيه نصر
فى مهمة ، فألقى بهم فى الحبس على تدبير مرسوم . على أن هذا الاجراء
لم يوفر لاسماعيل ما كان ينشده من الاستقرار فى حكومته . ذلك أن أخاه
نصرا نفس عليه ما أصابه من التوفيق حتى أدت به شكوكه ، وكانت على
غير أساس ، الى أن يختلق سببا للنزاع معه ، فاتهمه بالتقصير فى دفع
الخراج اليه . وكان دخل بخارى اذ ذاك يصل الى خمسمائة ألف درهم
نصيب اسماعيل منها كان أقله . وحين تقاعس اسماعيل عن ارسال مالاخيه
من خراج المدينة برغم الحاجة عليه انتهى النزاع بين الأخوين الى الحرب
فى التو .

هكذا نجد عام ٢٧٢/٨٨٥ أن نصرا ، وكان سهل الاستفزاز ، يتقدم
الى بخارى فى جيشه ، فاذا باسماعيل ، وقد أخذ على غرة ، يفر الى بيكنند
عبر تاراب حيث أوفد رسولا له يدعى حيويه الى صديقه وحليفه رافع بن
النيث (وكان ثائرا اقطاعيا فصار عاملا للخليفة على خراسان) . وسارع

(١) كان من بين هداياه لجنده كساوى من الكتان وكانت تعد اذ ذاك
بأواسط آسيا أثمن من الحرير .

رافع بدوره فعبر جيحون وانضم الى اسماعيل . وفيما كان هذان الحليفان يهيئان قواتهما المؤتلفة لمهاجمة خصمهما ، عمد نصر الى خدعة استطاع بها أن يقطع اتصال خصومه بالجزء المسكون من بخارى عند توائس (طواويس) ، فاذا بهم يجدون أنفسهم وقد باتوا معزولين في الصحراء . وأدى شح المحاصيل في ذلك العام وقلة المؤن بالتالى الى أن قل عدد الجند بدوره فلم يعد يبق منهم معهم الا ما تدعو الضرورة اليه . ونظر رافع فيما قد يؤول عليه الحال اذا ما عمد الأخوان الى التفاهم من جديد ثم قاما عليه معا ، فعدل عن موقفه فجأة وتقدم يتوسط في الصلح بين نصر واسماعيل (١) ، حتى نجح في ذلك ، على أن يكون اسماعيل مستقبلا مجرد محصل لجمع الخراج ببخارى ويعهد بادارة حكومتها الى غيره . حدث ذلك عام ٢٧٣/٨٨٥ م ، ليتجدد الخلاف القديم بينهما مرة أخرى من بعد ذلك على أداء ذلك الخراج ، ولما يمض خمسة عشر شهرا بعد على الصلح ، وبادر نصر بالعدوان على عادته ، وكان له جيش قوى يقوده أبو الأشعث وتعرزه امدادات قوية من خوقند . وكان اسماعيل قد احتاط لذلك فجلب نجدات من خوارزم استطاع بها في النصف الثانى من عام ٢٧٥/٨٨٨ أن يهزم أبا الأشعث في واقعة حاسمة . وكاد نصر نفسه يلقي حتفه على يد جماعة من الخوارزميين في هجوم لهم ، لولا أن ردوا عنه في صعوبة آخر لحظة ، فرمى نفسه من على سرجه واستسلم ، ليقدم اليه

(١) يرد مبرخوند قيام الصلح بين الأخوين الى سبب آخر ، فنجد في ترجمة Depremery ص ١١٥ أنه « حين قدم حمويه بسفارته شخص رافع بنفسه الى ما وراء النهر وعبر نهر جيحون قامت في نفس حمويه المخاوف من أن يتمكن رافع بجيشه هذا من اخضاع ما وراء النهر لسلطانه ، وقرر في نفسه أنه بعد أن يهزم نصرا سوف يلقى القبض من بعد ذلك على اسماعيل ثم يهبه من بعد ذلك الامارات التى كان يطمع فيها ، فيخضعه بعد ذلك لسلطانه ، وفي ذلك عار كبير . هنالك أعمل ذهنه لافساد ما رجح وقوعه ، فتقدم الى رافع ونصحه أن يعمل على قيام الوثام بين الأخوين ، حتى لا يتعرض هو نفسه للمتاعب في أرض غريبة عنه لو تم هذا الأمر من وراء ظهره . ووقعت نصيحة حمويه موقعا حسنا في نفس رافع حتى بعث برسله الى نصر والى اسماعيل يبينون لهما أنه من الخير أن يقوم الوثام بينهما . وما زال بهما حتى نزلا على رأيه ، ومن ثم قفل راجعا بدوره الى خراسان .

عند ذلك أخوه اسماعيل عجلاً ، فور ساعه بالحادث ، ويتلقاه بأعق آيات الاحترام . فقد تقدم اليه وقبل أطراف الوسادة التي كان يجلس عليها وقال له « أيها الأمير انها ارادة الله التي شئت أن أراك اليوم وأنت في الأسر » ليجيبه عند ذلك نصر فيقول له « بل هي ارادتك أنت اذ خرجت على سيدك وأذنبت بذلك في حق الله عز وجل » . هنالك أقر اسماعيل له بجرمه وسأله أن يصفح عنه . وفيما كان هذا الحديث يجري بين الأخوين (وصورته لا تستبعد لما عرف به السامانيون من النبل وكرم الخصال) . أقبل اسحاق أصغر الاخوة ولبث على فرسه يشاهد ما كان يجري ، لينهره اسماعيل عند ذلك اذ ظل على صهوة جواده ولم ينزل عنه في حضرة أخيه الأكبر رأس الأسرة . فاذا باسحاق يعتذر عن خطئه بحرون جواده ويسارع بالترجل ، ثم يقدم على نصر فيقبل قدميه ويقف بين يديه في خضوع تام . وتابع اسماعيل حديثه الى أسيره فعرض عليه أن يسيره من فوره الى قصبته قبل أن يصلها أنباء الحادث ، فلا تتعرض بذلك هيئته فيما وراء النهر الى شئ من المهانة . وبدت الدهشة على نصر تلقاء ذلك اذ لم يكن ليصدق أن خصمه قد يسح له بالسير الى مقره ، ليعلنه عند ذلك اسماعيل بأنه ليس له الا أن يضع نفسه طوع أمره فيحقق له كل ما يرغب فيه .

هنالك جرت دموع نصر من فرط التأثر ، وقد أبدى أسفه لما تسبب فيه من اراقة الدماء ، ثم امتطى جواده واتجه به الى سمرقند ، وقد صحب أخوه أول مراحل الطريق . وقضى نصر من بعد ذلك أربع سنوات بسمرقند في هدوء حتى وافاه أجله في الثاني والعشرين من جمادى الأولى من عام ٢٧٩ هـ ٨٩٢/٨٩٣ م .

بسط اسماعيل سلطانه على كل خوارزم وبلاد ما وراء النهر عام ٢٨٠ هـ ٨٩٣/٨٩٤ م وذلك عقب وفاة أخيه ، فعهد بحكومة سمرقند الى أحد أبناء نصر ، واتخذ من بخارى قصبة له . وبها تقبل من الخليفة المعتضد بالله براءة التقليد والبنود والخلع المعتادة . وكان اسماعيل يرى في خضوعه لأمر المؤمنين استجلاباً لرضاء الله عليه ، وان كان يعرف تماماً

مدى ما لبلاط بغداد من سلطان عليه فى الواقع . كما كان الخليفة يدرك بدوره تمام الادراك أن البراءة التى أذن فيها لاسماعيل باجراء الخطبة وضرب السكة باسمه لم تكن الا مجرد تقليد محض . فقد كانت الخلافة اذ ذاك تنوء تحت أعباء من كل نوع ، فلا تكاد تتماسك نفسها الا اعتمادا على شبكة من المؤامرات والدسائس الصغيرة التى كانت تحببها . وقد عاش خلفاء الرسول الضعاف هؤلاء فى رعب وفزع من تلك الدول الجديدة التى كانت تقوم فى القسم الشرقى من دولتهم ، حتى لنجد الخليفة المعتضد يفوض الى الأمير اسماعيل شئون بلاد ما وراء النهر ويلقبه بلقب حامى الملة والمدافع عن الخليفة من أعدائه ، ليكتب فى الوقت نفسه فى السر الى عمرو بن الليث الثائر السابق وأمير خراسان اذ ذاك ، يأمره بحرب اسماعيل وخلعه (١) .

ولم يكن اسماعيل ليأبه لشيء من هذا كله ، بطبيعة الحال ، حتى رأيانه ينطلق عقب ارتقاءه العرش يتقرب الى الله بغزو النصارى عند طراز التى تقع عند الشمال من أراضيه وعلى مقربة من حضرة تركستان (مدينة تركستان) الحالية ، فأنزله بهم الهزيمة واتخذ كنيستهم مسجدا (٢) ثم عاد من بعد ذلك الى بلاده ومعه من الأسلاب الطائلة ما بلغ بها نصيب كل رجل من رجال جيشه ألف درهم . ورغب اسماعيل ، حين عاد الى بخارى أن ينصرف الى تنظيم حكومته لولا الحرب التى سرعان ما نشبت بينه وبين عمرو بن الليث فاستنفدت كل جهوده طوال سنوات سبع . وكان الخليفة

(١) أجابه الخليفة الى طلبه وحرضه على حرب اسماعيل . ولعله كان فى الوقت نفسه قد أقر اسماعيل على بلاد ما وراء النهر وحرضه على عمرو . Hist. of the Khalifs Vol II. p. 485.

(٢) يذكر النرشخي هنا « الكنيسة الكبيرة » كما يذكر معابد البارسيين باسم « بيوت النار » وبهذا يغلب على وجه الجزم أن الأمير التركي الذى غزاه اسماعيل كان نصرانيا ، وأن الكنيسة التى حولها اسماعيل الى مسجد كانت للنساطرة المسيحيين . وفى كتاب : Cathay : Colonel Yule and the Way thithr ما يبين بوضوح قيام أسقفية نسطورية فى نواحي مدينة تركستان الحالية حتى القرن الرابع عشر الميلادى . وهذه الفرقة قد ظهرت فى هذه النواحي منذ القرن الرابع الميلادى على ما هو معروف .

قد حرض عمرو على هذه الحرب كما ذكرنا من قبل . وكان عمرو بعد أن هزم رافع بن هرثمة قد بات يرى فى السامانيين ، وقوتهم الصاعدة ، مع محبة الناس لهم ، منافسا له لا بد من القضاء عليه بأى ثمن . وأدرك عمرو فى قيام صلات المودة بين رافع واسماعيل مايدل على فتور اسماعيل نحوه ، فأخذ يتحين الفرصة للاشتباك معه . حتى اذا ما بلغه ترحيب اسماعيل بأحد أتباعه حين فر من عنده الى بخارى ، عمد أول الأمر الى حرب الرسائل معه ، ولعله لم يكن مستعدا لغيرها . وحين رد اسماعيل عليه ردا عنيفا اصطنع المسالمة وناشده أن يعدل عن قيام النزاع بينهما ، وبين له أن الخليفة قد عهد اليهما بما بأيديهما من بلدان فهم بذلك قرناء أخرى بهما أن تقوم الصداقة والاخلاص بينهما ، واعتذر اليه بأنه لن يجعل للوشاة سبيلا الى افساد ما بينهما من ألفة أبدا ، وأنه لم يقصد الى ما فهمه مما كان قد صرح به اليه ، كما سألته كذلك أن يتناسى ذلك كله وتعهده له بعدم التعرض له مستقبلا فله أن يمارس سلطانه هادئ البال (١) .

وتلقى اسماعيل هذه الرسالة ، وكان قد سار بجنده فنزل على شاطئ جيجون ، وقد حملها اليه رسل عمرو وعلى رأسهم شيخ نيسابور المشهور ، فكشف ما بها من مكر وخداع ورد عليها ردا فاترا قصيرا ، ليأمر عند ذلك الصفارى الداهية قائده على بن شروان بالزحف الى بخارى على أن لا يتعرض لأهلها بسوء ما وسعه ذلك وأن يجهد فى كسبهم الى صفه بالمودة دون قتال . وما ان سمع اسماعيل بذلك حتى عبر جيجون لساعته . وبدأ على بن شيروان الهجوم بمجانيقه القوية ، واستمات الفريقان فى قتال عنيف انتهى بفوز اسماعيل . وهكذا استطاع أبناء الصحراء هؤلاء

(١) تقول بعض المصادر الأخرى ان اسماعيل هو الذى سعى أول الأمر للصلح ، وكتب الى عمرو : « انك قد وليت دنيا عريضة ، وأنا فى يدى ما وراء النهر ، وأنا فى ثغر ، فاقنع بما فى يدك واتركنى مقيما بهذا الثغر ، فأبى اجابته الى ذلك .

ويذكر الترشىخى قائدا آخر يدعى محمد بن الليث كان قد وجه وجهة أخرى ومعه خمسة آلاف من الجند . ويذكر « زينة التواريخ » أن عمرا كان عنده سبعون الفا واسماعيل عشرون الفا .

بركائبهم الخشبية الغليظة أن ينتصروا انتصارا حاسما على جيش عمرو ويوقعوا في أسرهم قائديه بشرا وعلى بن شيروان . وهناك تلبت شهامة اسماعيل بازاء أعدائه على ما هو مألوف عنده ، فلم يسير في أسره جيش عدوه كله ، على الرسم المعتاد ، وانما حمل هؤلاء الرجال بالهدايا وأطلق سراحهم ليعودوا من بعد ذلك الى ديارهم . وحين أعرب رجاله عن دهشتهم بازاء صنيعه هذا كان جوابه : « ما نصنع بهؤلاء المساكين ، فلندعهم يعودون الى بلادهم وهم من بعد ذلك لن يخرجوا لحربنا أبدا » .

وحين وصلت عمرو بن الليث أخبار هذه الهزيمة وكان بنيسابور ، بلغ به الحق والغيظ مداه وملا عليه الانتقام من عدوه كل تفكير . وحين طلب الى اسماعيل أن يفك اسار قائديه فرفض ، سار في جيش جديد الى بخارى . وكان اسماعيل بدوره على أهبة تامة لهذا الأمر ، وكان قد استمال اليه الولايات المتاخمة له . فعبر عند ذلك جيحون من فوره وهاجم حصن بلخ وكان عمرو يتحصن فيه . وحين لم يفلح في حمل سكان بلخ على تسليم عمرو اليه فعزم على قتالهم ، بادره عمرو بالخروج اليه واشتبك معه في معركة شديدة انتهت بهزيمة عمرو هزيمة حاسمة ، حتى لم يستطع الفرار من الميدان ومعه رجلا من رجاله الا بمشقة بالغة . على أنه سرعان ما وقع في الأسر ، فأتوا به الى اسماعيل يوم الأربعاء التاسع من جمادى الآخرة عام ٢٨٨/٩٠٠ (١) . وبلغ باسماعيل التأثير غاية حين طلع عليه خصمه الأسير . حتى اذا ما هم عمرو بالنزول عن دابته ليحييه منعه اسماعيل من ذلك وقال له انه من واجبه اليوم أن يكرمه . وما غدا أن أنزله قسرا له

(١) يروي كتاب زينة التواريخ قصة طريفة عما اصاب عمرا من غير مفاجأة ، فيقول ان عمرا جلس أول مساء له في الأسر على الأرض فأخذ يراقب أحد حراسه وهو يعد له وجبة بسيطة في صفحة مما يستخدم لسقى الخيل ، ولم يكن عنده غيرها ، وما ان وضعها على النار حتى قدم كلب فأدخل رأسه فيها فانحشر فلم يستطع فككا فانطلق بها هاربا . ولم يملك عمرو مع هذا المنظر الا أن يمعن في الضحك . وحين أنكر عليه حارسه ذلك أوضح له ان تابعه كان قد شكاه في الصباح بأن ثلاثمائة بعير لا تكفى لحمل أدوات مطبخه ، وها هو كلب واحد ينطلق بصفحته وبطعامه ..

فى سواد قريب وزاره مرة أخرى بعد مرور أيام أربعة ، وبذل ما فى وسعه ليخفف عن غريمه السابق هذا من وقع ما نزل به . وحين جرى الحديث بينهما عن كيفية وقوعه فى الأسر ، روى عمرو قصته فقال ان جواده كبا به وهو فى طريقه الى الفرار ، فما ان خلاص منه حتى افترش الأرض من فرط التعب والجهد ، فلم ينتبه الا على قدوم فارسين شرعا رمحيهما فى وجهه ، فاستعظفهما وهو رجل شيخ كبير حتى عدلا عن قتله ، وأخذتهما الشفقة به فأركبه أحدهما خلفه . وحين اجتمع الناس من حوله فسألوه عما يحمل مما غلا ثمنه أطلعهم على جواهر كانت معه تقدر بثمانين ألف درهم فأخذوها منه كما انتزعوا منه كذلك خفه الثمين . وأوضح عمرو : انه حين وقفوا على حقيقة أمره ، عامله القوم بكل اجلال ، وفق أوامر اسماعيل ، حتى ردوا اليه أكثر ما أخذ منه . وكان لشهامة اسماعيل وقع كبير فى نفس عمرو حتى أفضى اليه بأنه كان قد أخفى فى بلخ حمولة تسعة أثن من الذهب . وقد أمر اسماعيل باحضار هذا المال ورده عليه (١) .

ما من شك فى أن ذلك الأمير السامانى الكريم لم يكن ليكف عن مداومة عطفه البالغ على غريمه الذى وقع فى قبضته ، لولا أن كتب اليه الخليفة المعتضد بالله ، عند سماعه بانتصاره ، يأمره بأن يسير اليه عمرو محتجا بأنه بوصفه أميراً للمؤمنين هو وحده الذى له أن يعاقب المذنب . مع أنه هو نفسه الذى حرضه على تلك الحرب . ولنا أن تتصور مدى وقع هذا الأمر فى نفس اسماعيل . وان كان لم يملك ، بدافع من ورعه ، أن يتجاهل مطالب أمير المؤمنين مع علمه التام بدسائسه ومؤامراته . ونفذ

(١) تقول بعض الروايات أن اسماعيل منعه أبأؤه من قبول هذا المال وقال له « من أين لك ولاخيك هذا المال والدنيا كلها تعرف أن اباكم كان صفارا ، وان هى الا أيام قليلة تلك التى بسم لك الحظ فيها ، بتأمرك فى الواقع ، فبلغت الى السلطان . وقد صار لك هذا المال بجورك وظلمك . واليوم تريد أن تخلعه عنك وتلقى به على ، ولست أنا ممن يخدعون بزخرف القول » . والمعروف أن اسماعيل لم يكن أبدا ليتحدث الى أعدائه بمثل هذه اللهجة العنيفة . والغالب أن هذه القصة من وضع بعض المؤرخين الشرقيين هى وتلك الخرافة التى تعزو اكتشاف أموال عمرو عند بلخ الى أحد الجوارح ، وقد ذكرها دفرمارى فى كتابه المشار اليه فى السابق Defrémery p. 121

اسماعيل أوامر الخليفة فأتى بعمره الى بخارى في هودج . ولم يجد اسماعيل في نفسه القدرة الكافية ليصارح خصمه شخصيا بأمر الخليفة المؤام . وأشار عليه من بعد ذلك بالاستسلام الذي لا مناص منه على مرارته ، وطلب اليه الصفح ، وسأله عما يرغب فيه . هنالك أوصى عمرو اسماعيل بأولاده وأتباعه المخلصين ثم سار الى بغداد تحوطه أبهة الأمراء . وسلمه الخليفة عند وصوله بغداد الى طواشيه صافى (الخرمى) فرمى به في السجن ، ف قضى به عامين حتى أمر المكتفى من بعد ذلك بقتله في جمادى الأولى من عام ٢٩٠/٩٠٣ (١) .

بادر الخليفة عقب وصول عمرو الى بغداد بإرسال البراءة الى اسماعيل بولاية خراسان ، وكانت تمتد اذ ذاك شرقا من بسطام . شاهرود (الحالية) حتى بلخ ، وشمالا من كين الى سيستان والعراق ومازندران حتى جيحون . وقدم رسول الخليفة ومعه الخلع الفاخرة فاستقبله اسماعيل بالحفاوة والترحاب وأهداه بدوره الهدايا السنية . وما ان شرع اسماعيل في الاحتفال بتقليده أمور هذه البلاد حتى جاءته الأخبار بزحف محمد بن زيد العلوى أمير طبرستان على بلاده . وحاول اسماعيل أول الأمر أن يرد هذا الأمير عنه سلما ، حتى اذا ما فشل فى ذلك سير اليه محمد بن هارون بالجند . وبدأ القتال أول الأمر فى صالح العلوى ، حتى اذا ما اندفع فيه من بعد ذلك دون تبصر أو تثبت انقلب الحال فخرع عرشه وأضاع حياته . هنالك عهد اسماعيل بطبرستان الى قائده المظفر الذى قابل صنيع سيده هذا من بعد ذلك بالتكبر له والخروج عليه . على أن اسماعيل سرعان ما استرجع هذه الامارة منه ، بعد أن دفع ذلك التأثير حياته جزاء ما قدمت يداه ، وبعث بأبى صالح منصور ابن أخيه عاملا عليها .

عاد اسماعيل من العراق ليسرع عام ٢٩١/٩٠٣ م بالخروج من جديد الى حدوده الشمالية عند مدينة تركستان وكان الترك قد أخذوا يتهددونها

(١) أهدى اسماعيل ، رسول الخليفة مائة ألف درهم . وادى به توقيع للخليفة مع فرط تقواه الى أنه كان يصلى ركعتين لله شكرا قبل ان يتسلم كل خلعة من الخلع المهداة اليه .

بالغزو . والواقع أن الترك كانوا على الدوام مصدرا للمتاعب لبلاد ماوراء
النهر . وقد ظهروا فى هذه الواقعة فى جموع كثيفة على ما تقول الرواية
العربية (١) . على أن حشودهم هذه لم تمنع اسماعيل من أن يوقع الهزيمة
بهم ويشتت من شملهم ، ثم يعود من بعد ذلك الى بخارى محملا بالأسلاب .
وبهذه المعركة ختمت سلسلة الحروب التى اضطلع بها هذا السامانى
الكبير ، منذ أن ولى العرش ، واستطاع بها أن يضم ولايات غنية كثيرة الى
ما ورثه من ملك عند جيحون ، ويجعل بذلك من بلاد ما وراء النهر دولة
قوية حين لم تكن أيام العرب الا مجرد أيلة تتبع امارة خراسان .

غدت بخارى فى الواقع هى حاضرة كل ولايات آسيا الوسطى .
ذلك أن سلطان الحاكم المقيم عند زرفشان قد بات يمتد شمالا حتى مشارف
الصحراء الكبرى ، وشرقا حتى وديان جبال تيان شان ، وجنوبا حتى
الخليج الفارسى وحدود الهند الشمالية (٢) ، وغربا الى ما وراء العراق
(العجمى) حتى مسيرة يومين الى دار الخلافة . وهكذا كان عمال اسماعيل
هم أصحاب الأمر فى مرو ونيسابور والرى وآمل وقزوین وأصفهان
وشيراز وهراة وبلخ . ونجح اسماعيل أولا فى توحيد ايرانيى الشرق مع
بنى جلدتهم فى الغرب . وبدا اتحاد هذه الولايات ، بفضل ملكته الادارية
واتتصاراته الحربية ، أشد رسوخا مما كانت عليه الدولة العربية التى لم
تظهر موثقة العرى الا لفترة قصيرة ، وذلك بعد معارك الفتوح
الأولى .

ولكى ندرك كنه ذلك النصر السياسى يجب أن لا يغيب عن بالنا أنه
ابان المائتين والخمسين عاما التى انقضت منذ الفتح العربى ، أخذت الأفكار
الفارسية الاسلامية تحل محل الثقافة الفارسية القديمة فى كل من ايران
(١) ينقل دفرمارى عن ابن الاثير أن معسكر الترك كان يضم سبعمائة
سرادق كبير مما لا يستخدمه الا الرؤساء ، وعلى هذا قرر المؤلف عظم جيش
الترك .

(٢) يذكر النرشخى « السند والهند » وهو تخطب منه ، اذ المعروف
أن محمود الغزنوى هو أول من مد سلطانه الى ما وراء جبال سليمان (المؤلف)
فتح العرب اقليم السند فقط فى أواخر القرن الأول الهجرى ، أى قبل
قدوم محمود بثلاثة قرون - وبقيت دولتهم هناك حتى فتوح الغزنويين
(المترجم)

وبلاد ما وراء النهر . ومرد ذلك كان الى أن العقيدة الاسلامية لم تقض القضاء كله على الشعور بالقومية بين الفرس ، ذلك أن عمال الخليفة من العرب كانوا مكروهين من الأهلىن على خلاف العمال من أهل البلاد أنفسهم . وهذا هو السبب الحقيقى الذى مكن لحفنة من العسكريين ، حين تمردوا على الخليفة ، من أن ينجحوا فى تأسيس دولة جديدة لهم . وفى هذا كله تفسير للسهولة التى استطاع بها اسماعيل أن يؤسس له دولة مستقلة كان قيامها هدفه الحقيقى منذ أول الأمر برغم ما كان يظهره من الخضوع للخليفة .

ولم تعد بخارى مجرد حاضرة له فحسب ، وهى التى قد آثرها على غيرها من المدن ، وانما صارت كذلك مركزا لكل النشاط والحركات الفكرية التى ظهرت من بعد ذلك فى القسم الشرقى من بلاد الدولة الاسلامية .

وحين قضى العرب على كيان ايران القومى ، بعد واقعة القادسية ، واجتاح أبناء الصحراء العربية هؤلاء بلاد فارس ، بقى بصيص غير خاب من ذرات الحضارة الفارسية تحت المعابد فى ايران الشرقية وبخاصة عند بلخ وفى بلاد ما وراء النهر ، لىذكرى من نارها السامانيون من بعد ذلك حتى أشرقت اسلامية خالصة فى اتجاهها ، ولا يصعب مع هذا تتبع منشئها فى بيوت النار الزرادشتية .

ان بخارى التى اشتهرت أيام الزرادشتيين بأنها «مثابة العلوم كلها» اشتاقت كذلك لاسترداد صيتها القديم فى ظل الاسلام . وسرعان ما أصبحت تعرف باسم «بخارى الشريفة التقية» ، وهو لقب ليس لها اليوم منه نصيب . وكان النشاط العقلى السائد فى ذىالك الوقت وقفا على علوم الدين . وبهذا كان أوائل المشاهير الذين ازدادت بهم تلك المدينة التى تقع على نهر زرفشان هم من الأولياء الذين لا تزال قبورهم هناك أعظم المزارات حتى اليوم (١) . ومن هؤلاء أبو حفص البخارى المولود عام ١٥٠/

(١) انظر الجزء الخاص بمزارات بخارى فى القسم الأخير من تاريخ النرشخى . ويقع قبر أبى حفص البخارى فى الجبانة التى تعرف باسم تل خواجه . وتحوى تلك الجبانة كذلك مقام الشيخ بيدار ، وبروى عنه أنه لم تغمض له عين مدى أربعين عاما كان يقضى لياليها كلها متهجدا .

٧٦٧ ، وكان من العلماء الذين تزعموا الحركة الفكرية فى مدينة بخارى
 زمنا طويلا . وهو من تلاميذ الامام محمد شيبانى ، وقد شهد له بأنه كان
 أقدر تلاميذه . ومات أبو حفص عام ٢٢٧/٨٤١ ، وترك من بعده ذكرى
 خالدة لنشاطه العقلى تمثلت فى تلميذه عبد الله الفقيه الملقب بالبخارى (١)
 شيخ المحدثين المسلمين الذى ولد عام ١٩٤/٨٠٩ فى بخارى . وبعد كتابه
 الكبير « جامع الصحيح » أعظم مرجع للحديث فى الثقافة الاسلامية كلها .
 ويذكر ابن خلكان أن أكثر من سبعين ألفا من طلبة العلم درسوا هذا
 الكتاب على هذا الشيخ ، وأن هذا الكتاب يحوى ستائة ألف حديث
 أنفق البخارى ستة عشر عاما فى جمعها وتصنيفها . ومات فى نواحي
 سمرقند عام ٢٥٦/٨٦٩ . ويأتى من بعده محمد السبدمونى العلامة قاضى
 القضاة فى عصر اسماعيل ، ومات عام ٣٠٤/٩١٦ م ، ثم محمد بن الفضل
 أعظم فقيه فى عصره ، وغير هؤلاء ممن صارت بهم بخارى ، ومدن العالم
 الاسلامى الأخرى تحسدها على وجودهم بها (٢) . ويقول مقرظو اسماعيل
 ان صيت بخارى بهؤلاء العلماء هو الذى حدا بالأمر السامانى الكبير الى
 أن يتخذها حاضرة له بدل سمرقند . ومهما يكن فقد عرف اسماعيل نفسه
 بالتقوى (٣) والاستمسك بالشرق وبرعايته للعلماء (٤) حتى قدم اليه
 كثير منهم من أماكن بعيدة ليستكملوا دراستهم فى مدرسته أو ليقضوا
 حياتهم فى التأمل والبحث بدار كنهه التى حبس عليها الجبوس .

(١) هو أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى (المترجم)

(٢) يورد كتاب « ذكر علماء بخارى » وهو الذى نقل عنه النرشخى ،
 أسماء بضع مئات من الأولياء المدفونين ببخارى وما حولها . وأكثر من
 نصف هؤلاء عاش فى عهد السامانيين .

(٣) مما يروى عن تقوى اسماعيل أنه كان حين يسمع اذان الصلاة
 وهو يركب فى شوارع المدينة ، كان ينزل عن دابته حتى يفرغ المؤذن
 من أذانه .

(٤) مما يدل على بذل اسماعيل للشيوخ أن محمد بن الفضل البخارى
 مات عن اربعمائة ألف دينار .

ويحدثنا التاريخ عن يدعى حاشد الصوفى وكان أميراً على المقام بدمشق ، قدم بخارى ليقضى بقية أيامه فى عزلة وتأمل دينى . وبقي هناك حتى مات عام ٢٤٦/٨٠٩ (١) . وما غدا هذا الشعور القومى الذى بعث من جديد بايران فى ظل السامانيين ، بالإضافة الى انعطافاته الدينية ، أن خطأ أول خطوة لاحياء اللغة الفارسية وآدابها من جديد ، فانتعش اللسان الفارسى المتناسق مرة أخرى فى عهد نصر واسماعيل بعد أن كان حكام العرب قد حرموه على الناس لأكثر من مائتى عام . وعلى خلاف ما حدث عند شعوب آسيا التى دخلت فى الاسلام فى وقت متأخر فدخل فى لغاتهم ، مع الثقافة الاسلامية ، قدر كبير من الكلمات والمصطلحات العربية ، فإن الشعر الفارسى قد احتفظ أول الأمر بنقائه تاماً ، ذلك النقاء الذى هو سر الجمال فى أشعار أبى الحسن الرودكى وأغلب أشعار الفردوسى الخالد الغنائية . ومن أسف أن هذه الظاهرة القومية ما تلبث أن تختفى ، ففى الآداب الفارسية فى ظل السلاجقة وقد زحرت بالاصطلاحات الكثيرة الدخيلة التى استعادت من غيرها من اللغات . ولا مراء فى أن السامانيين الأوائل ، بما بذلوه من جهود موفقة بازاء لغة ايران الأصلية ، جديرون بكل ثناء أكثر من غيرهم من الأمراء أصحاب اللسان الفارسى ممن حكموا آسيا حتى اليوم (٢) .

كان اسماعيل (أو الأمير اسماعيل على ما كان يلقبه المؤرخون الشرقيون باعتبار استقلاله الظاهر عن بغداد) هو الرجل الوحيد الجدير

(١) يروى عن حاشد هذا أنه عندما بلغ جيحون ألقى بكل متاعه فيه فلم يحتفظ منه الا بمشط (على رسم الدراويش اذ ذاك) كتب على وجه منه آية من آيات الذكر الحكيم فى حين خط على الوجه الآخر هذه العبارة « الكفارة عن الذنب أصعب من ارتكابه » .

(٢) يتجاهل المؤلف هنا التطور الطبيعى للغة ولعله لو فكر فى دخول الفرس فى الاسلام وذبوع القرآن بينهم وجريان آياته على السنتهم لقال بما يقول به علماء اللغة ، والفرس أنفسهم ، بأن من الطبيعى أن تدخل الالفاظ العربية اللغة الفارسية وتصبح اللغة الفارسية الاسلامية متميزة عن سابقتها البهلوية ولغة قومية للفرس فى الوقت نفسه . (الخشاب)

بهذه الحقبة المشهورة فى تاريخ آسيا الوسطى . فلم يكن فى شجاعته دون مؤسسى دول الصفاريين أو الديلمية أو البويهيين ، كما كان يشتهر فوق ذلك بتقواه وعدله ورحمته وميله الى العلم . ولقد ترمى الى سمعه ذات يوم أن جباة الخراج فى الرى يطففون بموازن ثقيلة زائفة ، فبعث برسوله من فوره ليأتيه بتلك الأثقال فى حرز الى بخارى ويوقف الجابى عن عمله ويفلق ادارته حتى تصب الأثقال على حقيقتها وتعاد الى هناك . وثمة قصة أخرى مثيرة تروى عنه ، اذ دخل على ابنه أحمد وهو فى الدرس فسمع مؤدبه وهو يسبه ويقول له : لا بارك الله فيك ولا فيمن ولدك ، هنالك لم يملك اسماعيل الا أن يسرع بالخروج من الغرفة كما دخلها ثم يستدعى ذلك المربى ويهدىء من روعه ويصله . وظلت ذكرى اسماعيل حية فى خراسان وفى ايران بطبيعة الحال كذلك لعدة قرون من بعده ، وذلك بمثل هذه الفعال وغيرها مما كان يروى عنه ، ويفرم الشريون جميعا بأن يزيدوا فيها . فلا عجب أن نرى اسمه يذكره تاجيك بخارى حتى اليوم مقرونا بالتبجيل الذى يصفونه على الأولياء عندهم .

أشرنا من قبل الى كلف اسماعيل بتلك المدينة الواقعة على زرفشان وتفضيله لها على غيرها . وهو وان لم يستطع أن يبلغ بها ما بلغه تيمور ، مثلا ، بسمرقند ، الا أن ذكره استبقى ماثلة على الدوام فى أذهان سكان بخارى الأصليين بوصفه الأمير العظيم الحقيقى الوحيد من أصلاب الايرانيين . ونذكر من بين المنشآت التى أقامها اسماعيل ، أولا ، ذلك القصر الذى يقع على ريفستان . وكان قد شرع فى بنائه أصلا قبل الاسلام ، حتى جاء اسماعيل فقام بتوسيعه وزخرفته ليصير بذلك مقرا للأمير الحاكم وكبار رجال الدولة . ويأتى من بعده قصر موليان الذى أقامه على ضفاف القناة التى تعرف بهذا الاسم فى بذخ يليق بعظمة الأمراء . ويشتهر هذا القصر بروعة بنائه . وكانت تحيط به الحدائق والمروج وأحواض الزهر وفيها النافورات والغدران الجارية . وعانى اسماعيل

مشقة شديدة لمدة بالماء (١) الذي جلب اليه فى قنوات أجروها ، بدقة ،
اليه من النهر الذى يجرى بأعلى المدينة . كذلك مد اسماعيل أسوار المدينة
وحصنها ، وكانت هذه قد بناها الحاكم أبو العباس الطوسى فى عهد
ال خليفة المهدى (٢) .

ويقال ان عدد المدارس الجامعة ببخارى كان فى عهد اسماعيل يزيد
على نظائره فى كل مدن آسيا ، حتى لنرى بلخ وهى التى تعرف بقبة
الاسلام ، لم تستطع أن تبرز لتنافسها الا بعد ذلك بكثير . وأخذت هذه
المدينة التى تقوم على شاطئ زرفشان (٣) ، والتى غدت قلب نصف آسيا

(١) يجلب الماء اليوم غير نقى الى بخارى من زرفشان (الذى يجرى
الى الشمال منها) بواسطة قنوات رديئة لا تفضل بالوعات الأقدار . فى
حين كان يحمل الماء لتلك العاصمة القديمة لبلاد ما وراء النهر أيام
السامانيين ما لا يقل عن احدى عشرة قناة عريضة هى : ١ - جوى موليان ،
وكانت تجرى فى أجمل أجزاء بخارى وتقوم على ضفتيها القصور الجميلة
وسط الرياض . وهذا الجزء من المدينة كان يعرف باسم موليان ، اذ كان
اسماعيل قد وقفه على الملات (أى رجال الدين) ٢٠ - رود شابور ،
وتشتهر عموما باسم شفير غيام أو كيا فيرجام (على ما ورد فى كتاب
المسالك والممالك) وهى تنسب الى أمير من السامانيين كان مجبا للصيد
عاش عند بخارى وأجرى تلك القناة بها . ٣ - فرقان العليا . ٤ - فرقان
الدود . ٥ - جارجتفرد ، وهى طويلة جدا . ٦ - سمتجين وهى كبيرة
كذلك . ٧ - بيقانرود . ٨ - فرايوز العليا (ويذكر كتاب المسالك
والممالك فراوان السفلى وفراوان العليا بوصفهما قريتين بظاهر بخارى)
وتفيد من مائها الضواحي . ٩ - فرايوز السفلى ، وتعرف أحيانا باسم
زيمون . ١٠ - كيف أو كفا . ١١ - زودزر . وجميع القنوات هى من
صنع الانسان ، على رواية الترشيخى صاحب هذا الثبت ، الا الخامسة فقد
كانت مجرى طبيعيا فى الأصل .

(٢) أقيم سور المدينة بسبب توالى غزوات الترك عليها ، وكانت
اقامته عام (٨٧٣/٢١٥) ، ثم عمر عمارة كبيرة عام (٨٤٩/٢٣٥) أى قبل
زمن اسماعيل . وجدده من بعده قليج التامغانى عام ٥٦٠ (١١٦٤) حتى
خربه جنكيز خان تخريبيا تاما عام (١٢١٣/٦١٠) .

(٣) حكم بخارى من قبل أخيه مدة عشرين عاما ، ثم حكم من بعد ذلك
سبع سنين ببلاد ما وراء النهر ثم سبعا أخرى فى خراسان ، فجميعها أربعة
وثلاثون عاما .

الاسلامية ، تزدهر ويعلو قدرها يوما عن يوم بوصفها قصبة المال والعلم
ومركز انتاج الحرير الذائع الصيت كذلك . ولقد جنى اسماعيل خير
الثمار من وراء حروبه الطويلة وان لم يمتد به الأجل طويلا لينعم بالملك ،
فقد نزل به الداء فى قصره الواقع على قناة موليان فنصح طيبه أن يغادر
المكان لرطوبته الى مصطاده فى زرمان ، حيث وافاه الأجل به بعد قليل
مساء الثلاثاء من صفر عام ٢٩٥/٩٠٧ وهو فى الحادية والستين من عمره ،
بعد أن حكم أربعة وثلاثين عاما قضى بضع سنين منها عاملا لأخيه على
بخارى ، وكان فى باقيها حاكما مستقلا على القسم الشرقى من آسبا
الاسلامية .

الفصل الخامس سقوط السامانيين وظهور الترك

٢٩٥ (٩٠٧) - ٢٩٥ (١٠٠٤)

ان الدول والأسر الحاكمة ، فى الشرق والغرب على السواء ، كانت على الدوام تستطيع أن تحتفظ بما تكون قد بلغت من مجد وعظمة ماقويت فيها روح التآلف والاتحاد بين أبنائها فهدتهم الى العمل المشترك لخير الصالح العام . وحين كانت هذه الظاهرة تغيب فان مواهب الأفراد ، مهما بلغت من السمو ، كانت لا تجدى ، مع هذه الأوضاع ، الا قليلا . لهذا نرى بيت السامانيين يأخذ فى الانهيار السريع منذ أن راح بعض رجاله ، ومعهم بعض أعيان دولتهم ، يتجاهلون ما يجب عليهم من اطاعة أوليائهم واحترامهم لهم ، حتى انطلقوا يدبرون من المكائد ما كانوا يرومون من ورائها الى اغتصاب الحكم لأنفسهم .

وما من شك فى أن قيام حاكم قوى ببلاد ما وراء النهر ، يحزم أمر جموع الترك هناك ، له نفعه العظيم ، ولا سيما فى تلك الفترة التى ساد فيها الاضطراب بهذا الجزء من آسيا بسبب ضعف الخلفاء . ولكننا نرى خلفاء اسماعيل من السامانيين قد صاروا ، الا نفرا قليلا منهم ، مجرد دمي لا حيلة لها بأيدي رجال دولتهم ، حتى صار الحال بالترك الى الصدر بعد أن كانوا مجرد خدم وأتباع . وسرعان ما تزايدت قوتهم ، فلم يتمكنوا من القضاء على السامانيين ببلاد ما وراء النهر فحسب ، بل لقد انطلقوا كذلك ينشرون نفوذهم فى كل ناحية حتى استولوا على عروش آسيوية أخرى كثيرة ، وهم يؤكدون دعواهم ، التى لا يزالون عليها حتى اليوم ، بأنهم أبناء جنس يتفوق على غيره من سائر الأجناس .

ولقد خلف اسماعيل ابنه أحمد وكان خلوا من الحزم فى الإدارة والتمرس بالحروب وان لم يخل من بعض فضائل أبيه . وأول ما فعل هذا الأمير حين أمسك بزمام الحكم هو أن قبض على عمه أمير سمرقند وجبسه ببخارى اذ كان يتوقع تأمره عليه فى الخفاء ، ومن ثم انطلق الى طبرستان ليعاقب بارس الكبير عامله هناك اذ كان قد بلغ الى ثراء فاحش (١) باغتصاب أموال الناس وظلمهم . هنالك لجأ هذا العامل الى بغداد بعد أن أذن له المكتفى بذلك ، فلم يغضب الأمير أحمد السامانى لهرب عامله بقدر ما غضب لخروج أمواله من يده . وندب أبا العباس بن عبد الله مكانه على حكومة خراسان ، وكان رجلا قديرا ما غدا أن التف الناس حوله حتى لم يستطع الناصر الأطروش (٢) العلوى أن يناوئ الحكومة السامانية هناك . وعاد أحمد الى عاصمته من بعد ذلك ، ولكن حبه للفتوح لم يدعه يركن هناك الى الراحة طويلا ، فقد تطلع الى فتح سيستان فزحف عليها عام ٢٩٨ - ٩١٠/٩١١ بجيش كبير عليه أقدر قواده لحرب المعدل الصفارى أميرها ، فهزمه وحمله معه أسيرا الى بخارى بعد أن عهد بحكومته الى ابن أخيه أبى صالح منصور . وكان أبوه فى الحبس فأخرج منه وأعيد بدوره الى منصبه السابق .

وفى ما كان أحمد يصطاد على شواطئ سيحون عام ٩١٣/٣٠١ جاءته الأخبار باستيلاء الأطروش العلوى على طبرستان وطرده لأميرها صالح منها . وبلغ بالأمير السامانى التأثير عند سماع هذا الخبر حتى ليقال انه دعا الله أن يوافيه أجله ان كان قد كتب عليه ضياع ملكه . وكان الله قد استجاب لدعائه ، فقد عاش بعض الوقت فى خوف من أقرب أتباعه اليه

(١) يروى مير خوند أنه هرب الى بغداد فى أربعة آلاف من الجنود ومعه أمواله الكثيرة . ومات الخليفة المكتفى وهو فى طريقه الى هذه المدينة ، فطمع خلفه المقتدر فى هذا المال وقتله بالسهم .

(٢) اسمه الاصلى الحسن بن على وأبوه الحسين بن على ، وكان ينشر دعوته بين الدياليم منذ عام ٢٨٧ (٩٠٠) حتى هدى كثيرا منهم الى الاسلام وكانت استمالاته للناس وسيلة لفائتته الحقيقية فى زيادة نفوذه الديوى ككل العلويين انظر (Weil vol II. p. 613) Defrémery, Histoire des Samanides p. 136

حتى كان ينام وعلى بابه أسدان يقومان على حراسته . وأغفلوا احضار الأسدين ذات ليلة وهو في مضاربه ، فالتهمز غلمانة هذه الفرصة وهجموا عليه وقتلوه في ليل ٢٣/٢٤ يناير من عام ٩١٤ (١) . وقد حكم ست سنوات وأربعة أشهر وسبعة أيام ولقب بالشهيد بسبب مقتله على هذا الوجه .

وخلفه على العرش ابنه أبو الحسن نصر (ولقب فيما بعد بالسعيد) وكان اذ ذاك حدثا في العاشرة من عمره . وحين دخل عليه أعيان بخارى لتنهته تملكه الرعب وصرخ في وجههم اذ كان قد تبادر الى ذهنه أنهم انما قدموا اليه ليقتلوه كما قتلوا أباه من قبل ، وما زالوا به حتى هداؤا من روعه . وسار الحكم في السنوات الأولى من عهده بالوصاية . وسرعان ما علا نجمه من بعد ذلك حتى أشاد بذكره المؤرخون الشرقيون أكثر مما أشادوا بغيره . ولم يكن هذا الأمير السعيد ، وكان يشتهر بهذا اللقب ، خلوا من المواهب ، كما صادفه كذلك توفيق ملحوظ في كل أعماله . على أن تألق عهده كان في الواقع أقرب الى ومضات لهب يخبو أكثر منه الى ضوء ثابت مستقر . فهو برغم امتلاكه التام لكل بلاد جده ، بل واضافته لأراض جديدة اليها (٢) ، فانه لم يبلغ بحكمه الطويل الى تقوية الدولة السامانية واستقرارها . فقد كان عليه أول حكمه أن يدفع عن نفسه خطر عمه اسحاق الذي كان يطالب بالعرش ومن ورائه حزب قوى يسانده بدعوى أنه كان أكبر أعضاء الأسرة الحاكمة سنا . ولم يستطع حمويه قائد الأمير السعيد أن يوقع باسحاق الا بعد أن واجهه في حربين أسره من بعدهما وساقه الى الحبس في بخارى حيث قضى بعد قليل . هذا كما شجع الثائر حسين (٣) الأمير منصور بن اسحاق على العصيان فنادى بالثورة في

(١) Weil, p. 614. - ٧ جمادى الآخر عام ٣٠١ هـ : المترجم

(٢) يذكر مالكولم في كتابه History of Persia ضمن ذلك اصفهان وقم (من مدن الري)

(٣) هو حسين بن علي مروردي وكان يطمع ايام الأمير أحمد في ولاية سيستان فلما خرجت من يده عمد فيما بعد الى العصيان - حبيب السير ثان ص ٣٥٧ تهران ١٣٣٣ ش (المترجم) .

نيسابور . على أنه لقي أجله وحمويه في طريقه اليه ، لينصرف القائد الساماني من بعد ذلك الى الثائر حسين نفسه . وتطوع بالقضاء على هذا الثائر أمير هراة اذ ذاك أحمد بن سهل وكان من أشياع السامانيين المخلصين . وحين حمل حسين أسيرا الى بخارى عفى عنه الأمير الساماني بعد قليل وقلده منصبا في بلاطه (١) . وكان الأمير نصر غالبا ما يخلف وعوده . وما ان عدل عما كان قد وعد به أحمد بن سهل حتى ثار هذا عليه عام ٩٢٠/٩١٩/٣٧٠ وما لبث حمويه أن خرج اليه على كل حال فحاصر هراة وأوقعه في أسره ثم بعث به الى بخارى حيث مات في الحبس .

وأهم هذه الحملات جميعا على كل حال هي التي كان على نصر أن يسيرها الى العلويين في طبرستان . ولم يكن هؤلاء قد أفاقوا فحسب مما نزل بهم من الهزائم منذ أن مات الأمير أحمد ، بل لقد استطاعوا كذلك أن يمدوا نفوذهم فعلا الى جزء من خراسان وذلك بفضل جهود قائدهم الشجاع ليلي بن النعمان على الخصوص . وتقدم هذا القائد من بعد ذلك بطريق دامغان حتى بلغ نيسابور ، ليسير اليه عند ذلك حمويه ويرغمه على الارتداد . وقد قتل أثناء انسحابه عام ٩٢١/٣٠٩ . وبمقتل هذا القائد العلوي لم يعد الهدوء الى طبرستان ، فقد ظل اشياع العلويين يظهرون هنا وهناك بها من حين الى آخر . وها هو ذا الخليفة يستتجد كذلك بالأمير الساماني للضرب على أيدي عماله الخارجين عليه ومنهم غلامه السابق فاتك الذي كان قد استولى بالفعل على مدينة الري . وكان الأمير السعيد يرى نفسه كفوًا لمواجهة كل هذه المشاكل بفضل يقظته التامة حتى راقب بانتباه تام أبعد حدود دولته ، فضلا عما كان يكنه له الأمراء

(١) طلب الأمير السعيد ماء ذات يوم فجاء له به في آنية عادية ، فتعجب من ذلك حسين وقال لابن حمويه « ان أباك هو أمير نيسابور ، وبها تصنع الآنية الجميلة فكيف لا يبعث ابوك بشيء منها الى الأمير » هنالك اشتد غضب ابن القائد المشهور ورد عليه بأن أباه حين يبعث بالهدايا من خراسان إنما تكون عادة من أمثاله ، هذا وفخار نيسابور يذاع صيته حتى اليوم .

السامانيون من الاحترام البالغ مع طاعتهم التامة له (١) . وقد استمر حكمه ثمانية وعشرين عاما ، وكان على فضائل ملكية عالية . وما بذله لأعظم شعراء عصره أبو الحسن الرودكى جدير بأن تسير بذكره الركبان ومات بالدرن فى سن مبكرة وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره فى شعبان من عام ٣٣١/٩٤٣ (٢) .

كان نصر قد جعل ولاية العهد من بعده لابنه الأصغر ، لكن الملك صار بالفعل الى أخيه الأكبر نوح الذى أدت به صفاته العالية الى أن لقبه الناس بالأمير الحميد . وقد بدأ حكمه بما يدل على شهرته حين عفا عن أبى الفضل محمد أكبر أشياخ خصمه الأمير السابق وندبه لحكومة سمرقند . وحروبه الكثيرة والفتن التى صادفها ، وجميعها هى مدار تاريخ حكمه ، على ما كان الحال عليه عند اسلافه كذلك ، هذه كلها بدأت أواخر عام ٣٣٢/٩٤٣ بحربه مع ركن الدولة الديلمى وكان قد استولى على الرى . وكان قائد الأمير السامانى اذ ذاك هو أبو على حفيد الأمير محتاج وكان شجاعا طموحا . ولئن فشل فى أول حرب له مع ركن الدولة بظاهر

(١) يدلل ميرخوند على مدى احترام السامانيين لأميرهم وطاعتهم له بهذه الحكاية : « حين حاول ما كان بن كاكويه أن يضع يده على خراسان بالقوة ، سير القائد الكبير الأمير على محتاج لحربه . وفيما كان هذا القائد فى حضرة الأمير ليتلقى منه أوامره قبل رحيله ، لاحظ عليه بعض أتباعه شدة انزعاجه . وحين انتهت المقاتلة ودخل الأمير ، أخرج على محتاج من بين ثيابه عقربا كانت قد لدغته فى أكثر من موضع بجسده . ولما بلغ الأمير ذلك فسأله عن سبب عدم خروجه من حضرته حين شعر بذلك ، أجابه بأنه اذا لم يكن التابع ليحتمل بضع لدغات مثل هذه فى حضرة أمير فكيف له أن يحتمل طعنات السيوف فى غيابه . »

(٢) أبو الحسن الرودكى هو أقدم شعراء الفرس ولا يزال موضع التعظيم فى آسيا الوسطى . وهو يتميز بقريحته الخصبة ولفته الفارسية الخالصة ويقول هامر ، نقلا عن شراح اليمينى ، فى تاريخه للشعر الفارسى ، أن الرودكى نظم أكثر من ألف بيت من الشعر جمعت فى مائة سنة وأنه كان يعيش فى أبهة وعظمة حتى كان يسيرا وبين يديه مئتان من الفلمان ، ويحمل متاعه الفخم اربعمائة بعير .

نشر ديوانه مع دراسة واقية الأستاذ سعيد نفيسى فى طهران .
(الخشاب)

الرى بسبب خيانة الجند الكرد له (١) ، فقد عاد الى هناك فى العام التالى من جديد وأرغم عدوه على الفرار وأقر الأمور فى تلك الولاية . وأطمع أبا على صنيعه هذا هو وصنيعه الآخر فى الغالب — حين حقق له رغبته فى مساعدة وشكير الزيارى على الاستيلاء على حكومة طبرستان — فى أن يطالب فى كثير من الصلف والغرور بحقوق لا وجه له فيها جزاء له على فعالة هذه . وحين وجد حكومة خراسان تصير لغبره ، وكان يحسب أنها ستؤول اليه ، أعلن الخروج على أميره وانضم الى ابراهيم السامانى ، عم نوح وخصمه ، فوضعا أيديهما معا على العراق ثم على خراسان من بعد ذلك . وأمر ابراهيم بقراءة الخطبة باسمه فى كل مكان ، فى حين ترك نوح بخارى ولجأ الى سمرقند . وكاد يفقد عرشه على وجه اليقين لولا أن حالقه الحظ فذب الخلاف بين خصميه . وتنتج عن هذا الخصام أن عاد الوثام بين الأمير وعمه ابراهيم من جديد ، ليعود نوح من بعد ذلك الى بخارى مرة أخرى وكان أهلها على ولاء تام له . وسعى أبو على بدوره فى العودة الى رحاب أميره حتى اشترك معه فى حربه لركن الدولة . وما لبثت العلاقات أن عادت الى التوتر بينهما من جديد حتى انتهى الأمر بأبى على الى انضمامه الى ركن الدولة فى ثورة جديدة على نوح . وحصل أبو على ، بتأييد من ركن الدولة ، على براءة من الخليفة باستقلاله بحكومة خراسان . وفى مساجدها أمر عام ٣٤٣ هـ بقراءة الخطبة باسم الخليفة المطيع . كما استطاع بمساندة الديلمة ، وكانوا قد بسطوا نفوذهم حتى شيراز ، أن يدفع السامانيين الى ما وراء حدودهم القديمة ببلاد ما وراء النهر .

ومات نوح ، أو الأمير الحميد ، عام ٣٤٣/٩٥٤ بعد أن حكم ثلاثين عاما فخلفه ابنه عبد الملك الملقب بالرشيد ، وكان اذ ذاك فى العاشرة من

(١) يبدو من هذا أن الكرد الذين يسكنون اليوم منطقة فى خراسان تمتد من نيسابور تجاه استراباد بامتداد حدود ايران الشمالية ، لم يكن السامانيون هم الذين جلبوهم من بلاد الكرد الأصلية كما يدعى بذلك الفرس المحدثون ، وانما كانوا يقيمون هناك من قبل ذلك وكانوا يكونون على الدوام قسما رئيسيا من قوات خراسان .

عمره . وجهد هذا الأمير بدوره عبثا في أن يحتفظ بنفوذ السامانيين في
غربي الدولة ، فلم ينجح أشعث بن محمد ، وكان من خيرة قواده ، الا في
مصالحة الديلم وركن الدولة على شروط معقولة دون أن يستطيع حملهم
على الولاء للأمير . وكان عبد الملك على شغف شديد بالتريز والفروسية
حتى كانوا كثيرا ما يلقبونه بأبي الفوارس . ووافاه أجله على أثر سقوطه
من فوق جواده (١) ، بعد أن حكم سبع سنوات ، في الثامن من شوال عام
٩٦١/٣٥٠ . وخلفه أخوه منصور بن نوح الملقب بالأمير الشديد ، أي
العادل . وما دفع بالدولة الى طريق التدهور بعد ما ذاع من صيتها انما كان
في الواقع بسبب سلوك البتكين . وكان البتكين هذا في الأصل مملوكا (٢)
ما زال يرتقى بجدده حتى بلغ منصب الوزارة بعد أن ولي نيسابور . فهو
بدلا من أن يساند الدولة ويحفظ عليها كيائها — وكان قادرا على ذلك —
انطلق يهاجم أميره في جيش كبير . ولئن كان نهر جيحون قد امتنع عليه
عبوره بفضل فريق قوى من أتباع الأمير منصور حتى آب الى غزنه (٣) ،
الا أن التوفيق حاله في محاولته الثانية حتى اضطر الأمير أن يصالحه على
أن تصير له نيسابور على خراج سنوي قدره خمسون ألف دينار يؤديه .
وانتهت حروب منصور مع ركن الدولة الى ما يشبه ما انتهت اليه مع
البتكين . فدولة الديلم ، هذه التي كانت تسيطر على ما يقرب من نصف

(١) كانت سقطته هذه وهو يمارس لعبة جوكان أي « البولو » وكان
اللاعبون فيها يضربون الكرة وهم يركضون بخيولهم وعليهم أن يقذفوها في
ضربتين خلال حلقتين مثبتتين بأوتاد ، الواحدة خلف الأخرى . وتستلزم
هذه اللعبة مرونة في الجسم أكثر مما تستلزمه لعبة جريد التركية ، وكلتا
اللعبتين قد بطلت ممارستها .

(٢) البتكين كلمة مركبة من « الب » بمعنى البطل وتكين بمعنى
المسمى . والكلمة الأخيرة وصحتها تكن أو تكن أو تين لاتزال تروج كاسم
علم بين التركمان . فحين تسأل الواحد منهم عن اسمه مثلا ، يجيبك
« أورازتكن من » يعني « أنا أدعى اوراز » وتجد لفظ تكن يلحق بكثير
من الأسماء التركية ، مثل قره تكن ، نوشتكين ، اينالكتين ، سبكتكين
بمعنى مثل أو شبيهه .

(٣) يقول النرشحي أن البتكين كان قد قضى قضاء مبرما على قوات
منصور عند بلخ ، ولكنه مع ذلك ارتد بعد قليل الى غزنه .

ايران ، كانت من القوة بحيث لا يقوى بيت السامانيين المتدهور على الدخول فى نزاع معها . واتهى منصور آخر الأمر الى مصالحة ركن الدولة وبنى بحفيدة ابنة عضد الدولة . وقد وقع ذلك كله عام ٣٦١/٩٧١ .

وعاش منصور فى سلام ابتداء من ذلك الوقت حتى مات ببخارى فى الرابع من شوال عام ٣٦٥/٩٧٦ (١) بعد أن حكم خمسة عشر عاما . ولم يتمكن ابنه نوح بن منصور ، الملقب بالسعيد أبى القاسم ، من أن يصل الى حقه فى ارتقاء العرش الا بعد أن اجتاز آياما عصيبة ودخل فى عراك شديد كان كله مدخرا له . وفى ذياك الوقت صار نفوذ السامانيين الكبار الى الحضيض على وجه التحقيق .

كل ما فعله خلفاء وشمكير فى جرجان وطبرستان هو أن نادوا باستقلالهم بما بأيديهم من أرضين ، كما بسط عضد الدولة يده على العراقيين وفيما كان زعماء هذه الطائفة القوية يجدون فى تحقيق مآربهم الخاصة ، اما بخروجهم على أميرهم أو بتطاحنهم فيما بينهم ، كان وزراء أبى القاسم بتشاحنهم وتحاسدهم يبدلون ما فى وسعهم لتحطيم ما بقى للدولة من سلطة عهد بها اليهم . وأخطر هذه المنازعات هو ما قام بين أبى العباس تاش الملقب بحسام الدولة وأبى الحسين سيمجور . فقد نصب أبو القاسم أبا العباس نائبا له على خراسان عام ٣٧١/٩٨٠/٩٨١ . وكان هذا على خلق قويم ونبل ، على خلاف غريمه الذى عرف بالجشع والفساد ونجح سيمجور بالفش والخديعة فى أن يحمل أميره الضعيف آخر الأمر على عزل عامله المخلص ، ليلبغ بتاش الغضب عند ذلك حتى عمد الى السلاح ليدفع به غريمه عنه . وتم له بالفعل طرد أبى الحسين من خراسان بفضل معونة فخر الدولة الديلمى (٢) . ولكن سيمجور ما لبث أن عاد اليه من جديد ومعه مدد قوى من كرمان لم يستطع تاش معه أن يثبت أمامه ، ففر الى خير اصدقائه فخر الدولة بجرجان حيث مات مأسوبا عليه

(١) هذا التاريخ هو ما ورد عند النرشخى وهو عند ميرخوند ١١ رجب

(٢) وجد فخر الدولة أنه لزاما عليه أن يعين تاش فى حربه ، فقد

سبق له أن عاونه بدوره فى حربه مع مؤيد الدولة .

من الجميع عام ٣٧٩/٩٨٩/٩٩٠ . وكانت الصداقة القائمة بين تاش وفخر الدولة متينة مكينة . ومما يثير الاعجاب أن تاش كان قد استقبل فخر الدولة حين لجأ اليه ابان محنته فى السابق فبذل له الكثير من الحماية ، ولم يتردد فخر الدولة بدوره من بعد ذلك فى المبادرة الى انقاذ صديقه حين صادفه سوء الطالع وتعرض للخطر ، ليحيطه من بعد ذلك كذلك بكل مظاهر الأبهة بقية حياته . ولم يتح لأبى الحسين أن يستمتع طويلا بما بلغه من التشريف من وراء غدره وخيائته ، فقد أصيب بالفالج وهو بين يدى احدى جواريه ومات قبل خصمه بعام واحد ، وترك حكومة خراسان لابنه أبى على . وكان أبو على هذا يزيد فى سوء الخلق على آبيه . فلم يكده يتولى أمر حكومته الا بعد أن سلك أخط سلوك بازاء نوح . وبدا واضحا منذ أول الأمر أنه انما يهدف الى القضاء التام على السامانيين ، لا يضيره فى ذلك أن يسلك كل سبيل لتحقيق غرضه . وكان الأويغور (١)

(١) ان كل ما بأيدنا من معلومات يوثق بها عن الأويغور لا توجد الا فى المخطوط الموجود بالمكتبة الامبراطورية فى فينا بعنوان « قوداتقوييلق اى العلم السعيد » وهو يتعرض لآداب السلوك والأحوال السياسية والاجتماعية فى المجتمع التركى فى عصر تأليفه . وتنحصر أهمية هذا الكتاب فى ناحيتين ، اهمهما انه مؤرخ عام ٤٦٢ (١٠٦٩) فهو بهذا يعد اقدم الوثائق التركية التى بين ايدنا . وقد كتب المؤلف القسم الأول من كتابه هذا عند اقصى حدود الاراضى التركية فى نواحى كمول . أما القسم الثانى فقد كتب فى الشعر . وقد ثبت أن هذا الكتاب هو أول ما كتب فى التركية ، فهو بهذا وثيقة معتمدة تمدنا بمعلومات عن الأحوال الأولى لتلك القبائل التركية التى انتشرت الآن فى أماكن متراصة الأطراف ، وتعاوننا معاونة جليلة فى تتبع تطور الترك التاريخى العام . والناحية الثانية هو اننا نعلم من هذا الكتاب أن الأويغور كانوا منذ وقت باكر على قدر غير ضئيل من الحضارة التى غلب عليها فيما بعد المؤثرات المسيحية والاسلامية . فهى لم تكن أبدا نتيجة لهذه المؤثرات الاسلامية تلك التى يلاحظ اثرها واضحا فى احياء اللغة الفارسية التى اخذت بها الثقافة الايرانية الحديثة فى الانتشار . ومن اراد الاطلاع على معلومات أكثر عن الأويغور فليرجع الى كتابي: *Figürliche sprachmonumente und Kudatku Bilik Innsbruck 1870* (المؤلف) . كتب الاستاذ فامبرى هذا قبل اكتشاف نقوش أورخون وأواخر القرن الماضى ، وهى تتحدث عن الترك فى القرن السابع الميلادى وعن حضارتهم فهى بهذا أقدم وثيقة عنهم أنظر فى ذلك « و . بارتولد . تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ٤ وما بعدها الترجمة العربية لأحمد السعيد القاهرة ١٩٥٨ » (المترجم)

اذ ذاك يسكنون بأقصى الشرق فى الاقليم الذى يعرف الآن بتركستان الشرقية ، وهم قبيلة تركية كانت أول من انفصل عن جموع البدو الرئيسية التى تمثل الجنس التركى ، فاتخذت لها موطنها عند سفوح جبال تيان شان

ونجد عند هؤلاء الاويغور أول آثار لرسوم اجتماعية وسياسية نشأت تركية خالصة . وبرغم ظهور ولايات صغيرة لهم متفرقة ، أو العهد المسيحى الباكر ، كانت تنتشر حول المنطقة الواقعة بين مقاطعة كانسو الحالية والحدود الشرقية لخوقند ، الا أن قيام أول دولة أويغورية قوية بالمعنى المفهوم انما يرجع تاريخه الى وقت اضمحلال السامانيين . والظاهر أن ايليك (١) خان كان هو أول من وحدهم ولم شتاتهم . ويأتى من بعده بغرا أو قره بغراخان (٢) ، ويشتهر بجهاده حتى استطاع أن يحمل ألوفاً من البوذيين والمسيحيين على الدخول فى الاسلام . فقد جمع كل القبائل التركية المختلفة تحت تاجه لينطلق بهم من بعد ذلك فى فتوحات صوب الغرب أمل من ورائها أن يضيف الى أملاكه بعض الأراضى مما بقى فى حوزة السامانيين حتى دخل فى نزاع مع تلك الدمية الذى كان يحكم ببخارى فتحالف عليه مع أبى على خصيم أبى القاسم الخارج عليه .

وفى ما كان أبو على يعمل فى هدوء ضد نوح بخراسان ، زحف بغراخان فى جيش كبير من كاشغر الى ضفاف زرفشان وقد انضم اليه ترك خوقند . وخرج اليه أول الأمر ايننج (٣) الحاجب ولكنه هزم وسير أسيراً الى تركستان . هنالك عهد نوح بقيادة جيشه الى فائق ليقابل هذا القائد

(١) ايليك ، أو ايلك كما رسمه بعض من سبقونى خطأ وهو لفظ اويغورى معناه الامير أو الحاكم أو الوصى ، فهو بهذا ليس باسم علم ، نظيره فى ذلك كلمات تركمان أو ترخان أو خاتون أو غيرها من الألقاب التى سُمى بها العرب والفرس الحكام الترك اذ ذاك . ونحن نستخدمه هنا بدورنا حين لا نتأكد من الاسم الأصيل .

(٢) بغرا ، وعلى الأصح بقرا أو بخرا ، هو اسم الناقة فى اللغة التركية الشرقية ولم يكن من المستغرب قبل انتشار الاسلام بين الترك أن يطلقوا اسم حيوان على ضريح أو شخص .

(٣) اخطأ ديفرمارى حين ذكره « اينانج » وهو لفظ تركى يدل على الصدق والاخلاص .

عند ذلك صنع سيده معه بأحط أنواع الخيانة والغدر ، حتى اذا ما استولى بغراخان على سمرقند ، لم يكن على الأمير الساماني الا أن يهرب متنكرا فى صحبة عدد قليل من خلسائه . والتمس أبو القاسم المعونة من كل وجه ، وحين اتجه أول الأمر الى أبى على تظاهر له هذا المخلوق الدنىء بالسذاجة واعتذر اليه بأن امارته هى بدورها مهددة . على أن الحظ ما غدا أن حالف أبا القاسم من جديد وهو فى محنته هذه ، اذ لم يحتل بغراخان سوء مناخ بخارى ففضى . وبهذا استطاع أن يعود من جديد الى حاضرتة ، وكانت قد بقيت على ولائها له . على أنه كان عليه أن يسعى الى محالفة حلفاء أقوىاء ليواجه بهم غريميه ، أبا على وفائق ، اللذين حلا محل الأمير الأويغورى الراحل فى عدائه له . ووجد أبو القاسم ضالته المشوذة فى مؤسس الدولة الغزنوية . وكان سبكتكين يحكم اذ ذاك كل المنطقة الواقعة بين غزنة وضاف السند ، وقد ذاع صيته فوق ذلك بما جمعه من الثروة فى غزواته الهندية المتعددة (١) . وكان سبكتكين على اتصال وثيق ببیت السامانيين ، فاستجاب لذلك لأبى القاسم فى رضا وغبطة حتى سار الى جيحون فى جيش كبير ومعه مائتان من الفيلة ليقضى على هذين العاصيين ، وحين التقى بأبى القاسم عند كش بادر بالنزول عن دابته برغم انه كان يكبره بسنوات كثيرة وقبل ركابه فى احترام بالغ .

جاء تحالف أبى القاسم مع سبكتكين بأعظم النفع له ، حتى ثم استطع أبو على أن يصمد أمامهما برغم مساندة أمراء جرجان والعراق له مساندة قوية . وقد شارك محمود اباه سبكتكين فى حرب أبى على هذه التى وقعت فى سهل هراة . وفيها هزم هؤلاء الخارجون على الأمير هزيمة حاسمة واضطروا الى الفرار الى نيسابور ، ليدخل أبو القاسم مدينة بخارى من بعد ذلك دخول الظافر وينعم على سبكتكين الشيخ بلقب ناصر الدولة وعلى ابنه محمود بلقب سيف الدولة ، وما ان آب

(١) النرشخى . ويجعل آخرون غزوات الهند وقفا على محمود وحده « المؤلف » وهو قول ليس له سند من التاريخ ، والثابت أن محمودا كان قد شارك أباه أول الأمر غزواته الهندية (المترجم)

سبكتكين الى غزنة حتى برز أبو على من جديد ، وكان قد لجأ الى بلاط الديلم ، فاتتهز فرصة خلو الميدان من صاحب غزنة وهاجم نيسابور . على أنه أخطأ في حسابه خطأ كبيرا . ذلك أن شئون هذه الولاية كانت قد صارت بعد استرجاعها الى محمود ، وهو الذى أخذت فعالة تفصح عما ينتظره من مجد مقبل بلا مرأ . وكان أن أخذ محمود على غرة ، حتى لم يستطع أن يخبر أباه بتلك الغزوة ، فاضطر الى الفرار تاركا كل متاعه لخصمه . وما غدا سبكتكين أن ظهر فى الميدان آخر الأمر فلقى أبا على عند طوس وهزمه هزيمة حاسمة وذهب من بعد ذلك يطارده حتى خوارزم وهنالك تبدت شهامة أبى القاسم الفائقة اذ أخذته الشفقة على أبى على فكتب الى عبد الله شاه خوارزم يوصيه به خيرا . على أن شاه خوارزم لم يلتفت الى ذلك ووضع ضيفه فى الأغلال . وأثار هذا الاخلال بواجب الضيافة ثائرة الأمير مأمون بن محمد (لغاية فى نفسه) فهاجم الشاه وهزمه ووضعه فى نفس الأغلال التى كان فيها أبو على . وصحب مأمون أبا على معه الى جرجان ، وجيء بالشاه الأسير من بعد ذلك فقتل فى أحد الاحتفالات العامة (١) . ولم ينته حال أبى على بدوره الى نهاية حسنة . فقد عفا أبو القاسم عنه أول الأمر بتوسط مأمون ، ولكنه عاد فرمى به فى السجن من بعد ذلك بتحريض من بعض رجاله . وما غدا سبكتكين أن أبدى رغبته فى أن يحتفظ به عنده ، ومات فى سجنه هناك عام ٣٨٧/٩٩٧ وظلت حكومة أبى القاسم تهدها غزوات الأمير التركى ايليك (٢) بعض الوقت ، وذلك بتحريض من فايق ، وكان قد استدعاه من كاشغر ، ولكن سبكتكين كفاهها هذا الخطر . ومات نوح بن منصور أو أبو القاسم ، كما كانوا يلقبونه ، فى هدوء عام ٣٨٧ بعد أن حكم اثنين وعشرين عاما .

وخلفه ابنه أبو الحارث منصور ، وكان غرا خلوا من التجارب فارتكب الغلطة الكبرى بمنازعته محمود بن سبكتكين القوى وخليفته

(١) يذكر ميرخوند أن أبا على قد أقلع اقلعا تاما عن تناول الشراب ، ولكنه بهذه المناسبة سمح لأول مرة « ان يززع قاروة النبذ الهشة كيان امتناعه الشاهق »

(٢) انظر هامش رقم (١) ص ١١٦ .

على أن محموداً ، لما كان يمكنه من شعور حسن لبيت السامانيين ، ما لبث أن تفاضى عن فعلة هذا الأمير وتجنبه . وسرعان ما وقع أبو الحارث فريسة لحقد أحد رجال بلاطه عليه ، ويدعى بكتوزن ، وكان قد برم به ، فدعاه هذا الى داره وسمل عينيه (١) . وأجلس مكانه أخوه عبد الملك وكان طفلاً صغيراً . وقد ساند به بكتوزن وفايق ، أقوى رجلين فى دولته حتى نجح فى تهدة نائرة محمود بعد ما لحقه من الاهانة على يد الأمير الساماني السابق من قبل ، وكان هذا الأمير الغزنوى قد أخذ نجبه يعلو . وسرعان ما سقط عبد الملك فريسة لغدر ايليك (٢) خان بدعوى حمايته له . فقد قدم هذا من كاشغر الى بخارى ، دون أن يدعوه أحد الى ذلك ، ليدفع عن جاره المحبوب أعداءه ، على حد قوله ، وما غدا أن كشف عن غرضه الحقيقى حين قبض على أهل بخارى الذين كانوا قد خرجوا لاستقباله وألقى بهم فى الأغلال ، ثم دخل المدينة نفسها عام ٣٨٩/٩٩٩ وألقى بعد الملك نفسه فى الحبس حيث مات (٣) . وحاول المنتصر (٤) ، ثالث أبناء أبى القاسم ، أن يستنقذ للسامانيين ما بقى لهم من دولتهم بعد أن تمكن من الهرب من السجن الذى كان ايليك خان قد رمى فيه مع الأسرة كلها . فقد انطلق الى خوارزم بصحبة جارية صغيرة له وفى خاطره أن يمتشق الحسام مع نفر من أتباعه المخلصين فى وجه من اغتصبوا عرشه . وتلقاه كثير من أتباع أسرته السابقين بعطف بالغ ، ومنهم شمس المعالى قابوس بن وشمكير ، ولكن ذلك وحده لم يفده بنفع يذكر . ومع ذلك فقد نجح مرتين فى أن ينزل الهزيمة بقوات ايليك خان . ولكن انتصاراته هذه لم تكن فى الواقع الا بمثابة ومضات متقطعة صدرت عن شمس السامانيين

(١) بكتوزن هو لفظ اويغورى معناه (الأمين العادل) .

(٢) كان عبد الملك قد ارتد الى بخارى مع فايق بعد أن هزم محمود جيش السامانيين هزيمة عامة عند مرو . وكان هذا الجيش قد جمع من كافة انحاء بلاد النهر .

(٣) سجن فى أزكند على رواية ميرخوند (وقد اخطأ ديفرمارى فى رسمها) وهى اليوم قرية عند مرغولان فى خجند .

(٤) هو أبو ابراهيم

الغاربة ، فلم يكن له فى حقيقة الأمر قبل بالوقوف فى وجه ايليك خان وهو الذى امتد ملكه ، بعد فتحه لبخارى ، من داخل الصين حتى بحر الخزر . وظل هذا الأمير السامانى يتنقل فى طبرستان وسيستان وخراسان وحوله قلة من قدامى خلائه حتى نجح عام ٣٩١/١٠٠١ فى الاستيلاء على نيسابور . وسرعان ما أخرجه منها من جديد نصر بن محمود ، حفيد سبكتكين ، فأخذ من بعد ذلك يضرب فى الأرض حتى غدر به رجائه فأوقعوه فى شرك ايليك خان حتى أحيط به . وسبق افراد أسرته واتباعه اسارى ، وتمكن هو من الهرب ليلقى من بعد ذلك حتفه فى مضارب قبيلة بنى بهيج حيث قتله من يدعى مهروى . وقد قتل القاتل بفعلته هذه بعد قليل .

هكذا قضى آخر الأمراء السامانيين فى ربيع الأول من عام ٣٩٥/١٠٠٤ . وبموته انقرضت أسرة كانت منذ وقت باكر صاحبة السلطان فى أجزاء بعينها من بلاد ما وراء النهر وفرغانة ، ثم ظلت ابتداء من الأمير نصر - أى قرابة مائة وخمسة وأربعين عاما - تحكم كل آسيا الوسطى . وبعد أمراؤها بحق أصحاب حكومة قامت على التقاليد الدينية والاجتماعية التى كان يعدها المسلمون فى القارات الثلاث فى قرون سابقة أقرب ما يكون الى ما كان عليه السلف الصالح فى عصر الاسلام الذهبى ، حتى لا تزال حكومتهم هذه موضع تقدير وتوقير عظيم الى اليوم . فحين صارت حاضرة الخلافة ومدن آسيا الغربية الأخرى مسرحا لنشاط المذاهب والفلاسفة على اختلاف مللهم ونحلهم ، كانت بخارى وبلخ وسمرقند ، تحت حكم السامانيين ، هى الملاذ الأثير عند العلماء المسلمين الحريصين على الاستمسك بأدق دقائق الشرع والسنة . وبهذا ازدهرت علوم الدين فى كل آسيا الغربية على الصورة الرائعة التى عرفتها مكة والمدينة نفسها . وشييه بهذا ما صار لبخارى من السيادة السياسية كذاك على مختلف قبائل آسيا الوسطى تلك السيادة التى حافظ عليها حكام زرقشان حتى العصور الحديثة . وتعظيم سبكتكين العظيم لبخارى ، ذلك التعظيم الذى سار عليه فى العصور المتأخرة الأفغان والهنود والأوزبك ، انما قد بدأ أيام مجد السامانيين الذين ظهروا كخلفاء لآخر أسرة ايرانية

حكمت فى أرض الحضارة الايرانية القديمة . وناهيك بما تركه هؤلاء السامانيون لخلفائهم على عرش بلاد ما وراء النهر ، من تثار الترك ، من تراث لا ينكر شأنه . ولا نعجب بعد ذلك كله حين نرى بلاد ما وراء النهر ، بعد سقوط السامانيين ، تحتاجها أعظم فوضى واضطراب . ذلك أن هذا الاقليم كان منذ وقت باكر مسرحا لنشاط قوميتين مختلفتين فالإيرانيون ، وهم أصحاب حضارة قديمة ، لم يفقدوا باعنائهم الاسلام الا قليلا من شعورهم القوي بقوميتهم على ما ذكرنا من قبل . وهم كانوا ما يزالون على ميلهم الى الاشتغال بالتجارة والعلم وكل ما يمارس فى السلم عامة . وكانت القاعدة الحرية والقوة الفعالة بالتالى تتمثل فى القسم الأكبر من السكان فى الغالب ، وهم الترك . وكان لهؤلاء القيادة منذ وقت باكر حتى كانت لهم أكبر مناصبها فى الغالب . وأخذت قوتهم تتزايد بالتدريج أواخر عهد السامانيين ، حتى اذا انقضت هذه الدولة لم يعد الأمر بالنسبة لهم الا أن صاروا يحكمون باسمهم لا باسم غيرهم ، وقد تم بذلك الاستقلال لهم .

وكانت بخارى العاصمة تخضع من الناحية النظرية لايلىكخان وهو فى كاشغر . على أن سلطانه لم يكن له فى الحقيقة وجود يذكر فى مناطق كس وسمرقند وخوقند حيث صار الناس يتصرفون على هواهم . فمنهم من ائتلف مع غيره ليطردوا ايليىكخان من بلادهم ، ومنهم من راح يستعين بالسلطان العظيم محمود . وكان الوقت موافقا كل موافاة لجندى شجاع حازم يهتبل هذه الفرصة . وظهر هذا الجندى على مسرح الحوادث قبل وقوع الطامة الكبرى . وسرعان ما بان أثر نفوذه فى مجريات الأحوال السياسية ببلاد ما وراء النهر .

الفصل السادس السلاجقة

٣٩٥ (١٠٠٤) — ٥٢٨ (١١٣٣)

ان مجرى التاريخ فى آسيا الوسطى كان منذ أول عصوره يتأثر الى حد كبير بالدور الذى تلعبه فيه قبائل بدو الترك الذين يعرفهم العرب والفرس باسمهم العرقى « الغز » وكانت منازلهم فى الصحراء الواسعة والسهوب التى تبدأ عند حدود الصين وتمتد حتى شواطئ بحر الخزر . وظلت هجرات هؤلاء الترك الى شاطئ جيجون لا ينقطع سبيلها صوب الجنوب الشرقى ، خصوصا عند خجند وتركستان الشرقية ، وذلك قبل الغزو العربى بوقت طويل ومن بعده ، وفى أيام السامانيين بوجه خاص . وحين انهارت قوة السامانيين انطلق ترك الشمال فى حرية مع قطعانهم ينشدون المراعى فى الأجزاء المسكونة من خانية بخارى .

ان أصل السلاجقة يحيط تاريخه بالغموض خرافات كثيرة . ويظهر منه أن سلجوق ، وسيلجيق (١) على الأصح ، ابن تقماق وسوباش ، الذى

(١) ان قواعد اللغة التركية قد امتهنت كلها فى رسم كلمة «سلجوق» على هذا الوجه ، فهى اما سيلجيق أو سالجوق ، ذلك أن مقطعى جيق وجوق يفيدان التصغير ، ويستعمل الأول مع الكلمات التى تقع الياء فى مقطعها الأخير ، ويستعمل الثانى مع التى تقع الألف أو الواو فى مقطعها الأخير . ورسم الكلمات التركية التى وصلتنا عن طريق العرب والفرس شديد الغلط لجهل هؤلاء التام بالتركية عموما . وهم لا يستطيعون حتى اليوم نطقها نطقا صحيحا (المؤلف) . يذكر بازتولد فى كتاب « تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ص ١٠٠ ان النطق الصحيح هو «سالجوك» كما وجده فى كتاب محمود الكشغرى (المترجم)

كان قائدا لجيش أمير يدعى بغو أو بوغو (١) كاتا قد أخرجا من ديارهما بالسهوب لجرائم ارتكباها ، فكان عليهما بذلك أن يجربا حظهما فى بلاد غربية عليهما . هنالك هاجر سلجوق ومعه ألف فارس وألف بعير وخمسون ألف رأس من الماشية فنزل عند المشارف الجنوبية للصحراء الى جوار جند (٢) ، فاستقر بها ودخل واتباعه جميعا فى الاسلام (٣) . وبدأت غيرته الدينية فيما بذله من جهود لحماية سكان المناطق المجاورة له الآمنين من غارات بنى جلدته من الكفار . وأخذت قوته تتزايد من يوم الى آخر ، وذاع صيته ، وغدا بلاطه ملاذا للمضطهدين جميعا حتى قصده المنتصر آخر الأمراء السامانيين يسأله أن يعينه فى حربه مع ايليك خان . ورق سلجوق لما كان يكابده الأمير السامانى من العناء فخرج معه لحرب صاحبه ، لينتهى به الحال على أثر ذلك الى الاستيلاء على منطقة بأسرها

(١) بغو ، معناه الغزال ، وقد أشرنا من قبل الى عادة اطلاق أسماء الحيوانات القوية أو الجميلة على الاشخاص . . ونشير هنا كذلك الى ان هذا اللفظ كان يطلقه الفرس والآتراك الشرقيون على البوذيين (المؤلف) يذكر الاستاذ حمزة طاهر فى مقال بمجلة الثقافة عدد ٤٦٩-٢٣-١٢-٤٧ ان السلاجقة يعرفون رئيسهم باسم بغو وقائد الجيش باسم سوباشى ونبلائهم باسم اينال وأن الأسماء التى اشتهروا بها أبناء سلجوق مثل طغرل وجفرى وجاولى هى فى الواقع القبا وليست اعلاما (المترجم)

(٢) يذكر ابن خلكان أن جند كانت على مسيرة عشرين فرسخا من بخارى . ولم أعثر على ذكر لها فى أقدم المراجع الجغرافية : المؤلف .

انظر تفصيلات عنها فى « بلدان الخلافة الاسلامية ، ترجمة بشير فرنسيس وتوركسيس عواد ، ص ٥٢٩ - الخشاب

(٣) أسماء السلاجقة الأول ، موسى وميكائيل واسرافيل تشبه شبيها كبيرا الأسماء المذكورة فى الانجيل حتى يبدو من ذلك أن المسيحية كانت قد احرزت من النجاح فى آسيا الوسطى أكثر مما يشير اليه المؤرخون المسلمون . وعلى هذا الاعتبار فهناك احتمالات كثيرة بأن بدو الترك حين انفصل عنهم سلجوق كان فيهم من أتباع النساطرة أكثر من أتباع الشامانية أو البوذية ، ويؤيد هذه الدعوى ما يذكره الجوينى بكتابه جهانكشا مؤكدا ان بعض القبائل التركية مثل النايماق وقنجلى كانوا على المسيحية ويؤكد هذه الحقيقة من بعد ذلك قائمة أسماء القادة العلانيين الذين بعثوا من بلاط الخان الأكبر الى البابا افينيون يعلنون ولاءهم له بوصفهم مسيحيين مؤمنين وذلك عام ٧٢٩ (١٣٣٨) . ويفصل يول Yule. امر هذه السفارة فى الجزء الثانى من كتابه .

من أخصب بقاع الخانية صار بها أحد أمراء بلاد ما وراء النهر المستقلين مما أثار عليه ثائرة الأمراء الآخرين وحسدهم له وبغضاءهم .

وليس لدينا من التفاصيل الوثيقة فى الغالب ما تقف منه على مدى ما بلغه سلجوق من نفوذ ببخارى وهو الذى عاش حتى تقدمت به السن . وكل ما نعلمه على وجه اليقين أنه جهد غاية الجهد فى تنشئة حفيديه طغرل وجفرى (١) تنشئة عسكرية حتى لئراهما بعد موته يشتبكان فى حروب متلاحقة مع أقدر الأمراء بآسيا الوسطى اذ ذاك من أمثال ايليك خان فى بخارى وبغراخان فى كاشغر . بل لقد بدا من أمر هذين الفرعين الصغيرين فى شجرة قبيلة سلجوق ما ينبىء بأنهما سوف يبلغان فى الوقت المناسب بجنسهما الى ذروة القوة فتنتشر بطونه فيما بين قلب الصين شرقا وشواطئ البحر الأبيض المتوسط غربا ، وفيما بين بحر آرال شمالا والخليج الفارسى جنوبا ، ويستظل بحمايته أمم مرم أعرق الأمم صاحبة الماضى القديم بل وشيوخ الاسلام أنفسهم . ولقد مضى الأخوان مؤتلفين تربطهما أوثق أواصر الاخلاص المتبادل على أهداف واحدة ، فصرفا حياتهما أول الأمر فى الهرب من وجه خصومهما اتقاء لعداوتهم ولما كان لهم من قوة وتفوق لينقلبا من بعد ذلك الى تدعيم مركزيهما بقوة السلاح . وبرغم اقامتهما فى منازل الحضر فقد بقيا على استمسك قوى برسوم البدو وعاداتهم ، وبذلك كان من اليسير عليهما أن يرتحلا من موضع الى آخر ، بل وأن يبعثا ، حين يدهمهما خطر شديد ، بزوجاتهما وأولادهما ومتاعهما جميعا الى مخابىء آمنة فى الصحراء ، ثم ينطلقا من بعد ذلك وحدهما معتمدين على خيولهما الصغيرة يغامران فى الحرب (٢) . وبهذا استطاع الأخوان أن

(١) طغرل وجفرى هما لفظان تركيان ، والأول مصغر دوغراول ، أى القصاب ، وهو مشتق من فعل « دوغرامق » أى أن يذبح ، أما الثانى فمعناه اللامع أو المتألق من مصدر جقمق : أن يلمع . واخطأ المستشرقون الأوربيون خطأ شنيعا حين يربطون كلمة طغرل مع كلمة دوغرو : المستقيم ، وحين ظنوا خطأ أن (جفر) هو لفظ (جعفر) محرف .

(٢) لا يزال الترك يخضعون حروبهم حتى اليوم على هذا التقليد . ولعل هذا هو الذى جعل البعض يخلط فيجعل السلاجقة منهم .

يقيما أساس قوة السلاجقة المستقبلية تحت بصرف فائق قوى مثل محمود الغزنوى الذى أقلقه أشد القلق ظهور جموع أبناء الصحراء المخوفين هؤلاء وتزايد قوتهم ، حتى وجد نفسه آخر الأمر ولا قدرة له على كبح جماحهم أو إبعادهم عن مسرح الحوادث (١) . وحدث أن دخل عليتكين أمير سمرقند وحليف إيليك خان فى نزاع مع قدرخان بن بغراخان كاشغر وخليفته ، لكلفه بالفتوح ، فما كان من محمود ، لصداقته مع قدرخان إلا أن عبر جيحون مع جيشه فطرد إيليك ، وعقد النية فى الوقت نفسه ، لكن بحسب حليفه من خطر السلاجقة ، أن يقطع الأخوين السلجوقيين منازل فى خراسان لعله ييسر له بذلك ، بعد أن يبعد بهما عن بنى جلدتهما ، أن يغلبهما على أمرهما . وارتأى الأخوان أول الأمر أن يستجيبا لرجاء السلطان الغزنوى الكبير ويتقبلا ما يبذله لهما من مودة حتى سيرا إلى بلاطه عندهما إسرائيل وكان يلقب ببغو . وحين علما بما لقي عندهما من سوء المعاملة ، حتى ليذهب البعض إلى القول بأنه مات فى سجن محمود ، عقدا العزم على البقاء حيث هما فى موضعهما السابق ببلاد ما وراء النهر ، برغم ما كان بينهما وبين جيرانهما من العداء ومع عليتكين بوجه خاص وكان قد عاد فى الوقت نفسه إلى سمرقند .

هنالك حاول إيليك خان أن يغدر بهما من جديد فانطلق يندب بدور الشقاق بين السلاجقة ولكنه خاب فى مسعاه هذا كما فشل حين هاجمهم علنا بقواته وكان عليها البقرا . ولئن كان هذان الأخوان قد أرغما على

(١) ما يقال فى هذا من أن إسرائيل حين قدم إلى محمود فى سفارة ، سأله هذا وهو يعرض عليه خطته لغزو الهند ، عن عدد السلاجقة من رجال الحرب ، هنالك انتزع إسرائيل سهمين من جعبة وقال لمحمود « اطلق هذا السهم يأتيك مائة ألف فارس منهم » فقال له محمود « فإذا أردت أكثر من ذلك » فقال إسرائيل اذن فاطلق هذا السهم الثانى يأتيك خمسون ومائة ألف » فقال محمود فإذا أردت أكثر فقال إسرائيل « فارسل قوسى هذا إلى توران يأتيك مائتا ألف منهم » ، هذه القصة تعد من الخرافات ، وقد ذاعت عند كل المؤرخين الشرقيين والغربيين تقريبا . ذلك أن الحديث عن الأقواس والسهم لم يكن عادة مما يدور فى السفارات السلمية على رسوم ذلك الوقت .

الارتداد أول الأمر إلا أنهما سرعان ما جمعا أمرهما فأبادا قوات البقرا وقتلاه هو نفسه ، ليجلبا على نفسيهما بفوزهما الساحق هذا عداوة عشو جديد من بعد ذلك هو أمير خوارزم الذي هاجمهما في قوة ساحقة عند الشاطئ الأيمن لجيكون في الصحراء الواقعة بين بخارى وخيوه ، وأنزل بهما هزيمة شديدة أرغما من بعدها على الارتداد في عجلة زائدة (١) .

هنالك لم يملك حفيدا سلجوق الشجاعان بازاء هذه الأحوال إلا أن يودعا ذلك الاقليم الذي يقع بين جيحون وسيحون مع أراضيه التي ورثاها عن آبائهما وينطلقا بطريق أقصى حدود صحراء الهباطلة الى خراسان ، حيث قدر لهما بأرض ايران القديمة ذات الصيت الذائع ، أن يجنيا ثمار نشاط شبابهما بعد معارك دامية ومثابرة تبعث على الإعجاب . وقد حصدا هذه الثمار عن آخرها .

ففي عام ٤٢٢/١٠٣٠ وكان قد مضى عام على وفاة السلطان محمود ، تجد السلاجقة عند الغرب من مرو ، على تلك الأرض التي يعيش فيها التركمان اليوم ، والى جوار مدينتي نسا وأبيورد (٢) ، وهي المنطقة التي انطلقوا منها ، يحرشون بامارة خراسان الغنية في غارات متلاحقة هي في عنفها على غرار ما يضطلع به التركمان اليوم (٣) . ويقال انهم بعد أن وضعوا

(١) لم تكن هزيمة السلاجقة بسبب ضعف أسلحتهم بقدر ما كانت بما دربه الخوارزميون من مكر وخداع . ذلك أن أمير خوارزم تظاهر أول الأمر بصداقته للسلاجقة فأنزل الأخوان وأتباعهما منازل ببلاده ليعزلهم بذلك عن بني جلدتهم على الضفة اليسرى لسيحون . ولم يتوقع السلاجقة السوء من وراء ذلك إذ كانوا يعلمون بعداء أمير خوارزم لمسعود خليفة محمود الغزنوي ، فظنوا بذلك أنه يحتاج لمساندتهم له بازاء مسعود .

(٢) لا تزال مدينتا أبيورد ونسا تقومان الآن عند حدود ايران الشمالية وان هان شأنهما كثيرا . وهما تتعرضان على الدوام لغارات التركمان . ويمر بهما طريق القوافل بين ديرغوز وخيوه .

(٣) كان السلاجقة هم أول قوم من الترك استقروا عند حدود ايران الشمالية الشرقية كما هو معروف مشهور . وقد كان هناك بدو ينزلون الى جوار مرو ابان الحكم العربي وفي عهد السامانيين ولكنهم لم يكونوا من الترك . وكذلك كان الحال عند شمال غرب ايران كما أن غز الترك عند الشمال من بحر الخزر لم ينحدروا الى بلخان (في صحراء الهباطلة) حتى بداية القرن العاشر الميلادي .

أيديهم على خراسان بعثوا بوفادة الى السلطان مسعود بن محمود وخليفته يعلنون ولاءهم واخلاصهم له ، ويسألونه أن يسمح لهم بالاقامة بخراسان ويقول أغلب المؤرخين ان مسعودا رد عليهم ردا غليظا ورفض طلبهم في فتور آثار كبرياء طغرل وجفري حتى بعثا بأسرهما وقطعاهما الى داخل صحراء قراقورم الرملية العظيمة واستعدا مع رجالهما من المحاربين لينتزعا بالقوة ما رفض الغزنويون الذين امتنهم أن يمنحوهم اياه سلما . ومن المشكوك فيه غالبا على كل حال ، أنه ، حتى ولو كانت الحوادث قد جرت على غير ذلك الوجه ، فان أبناء الصحراء هؤلاء المفطورين على النهب كانوا سيركنون الى الهدوء وأمام أنظارهم تقع خراسان بمدنها الغنية . فلم تتعرض لغاراتهم هذه منطقة ايران الشمالية الغربية وحدها فحسب بل وعنى الدوام كذلك كل بقعة فى الاقليم الذى يتاخم السهول التى ينزل بها البدو . وكانت خراسان تتعرض لأول مرة لمثل ذلك على كل حال . ويستبين مدى التلف الذى أصابها على أيدي هؤلاء الجيران المشاغبين فى الشكاوى المرة التى كان يبعث بها الخراسانيون الى بلاط مسعود ، حتى ثارت ثائرة السلطان الغزنوى المتكبر فبعث بقائده بكتغدى (١) مع جيش ضم ألف بعير تحمل السلاح ومائة تحمل الذهب وعديدا من الفيول ليلقى بها أبناء الصحراء المخوفين هؤلاء . على أن أبناء الجنوب المرهقين من الغزنويين الذين قدموا من المناطق الواقعة فيما بين هيلمند والسند عجزوا كل العجز عن نزال هؤلاء البدو الأشداء ، فنزلت الهزيمة بكتغدى فى أول معركة ، حتى رأى مسعود أن يقود الجيش بنفسه . وحين انعقد مجلس الحرب فى نيسابور فاتتهى الى الدخول فى الصلح مع السلاجقة (٢) رفض هؤلاء ما عرضه مسعود عليهم لما كان من سلوكه المهين فى حقهم حين تقدموا اليه يخطبون وده .

(١) بكتغدى ، هى كلمة تركية تشير الى الاصل الملكى .

(٢) تنازل هذا الغزنوى عن كثير من كبريائه حتى اقترح أن يرتبط برباط المصاهرة مع جنود الصحراء الخشنين هؤلاء ، فعرض أن يزوج الامراء السلاجقة الثلاثة من أميرات غزنويات ثلاث ، ولكنهم رفضوا طلبه بطبيعة الحال .

وركن السلاجقة الى الهدوء شتاء عام ٤٢٣/١٠٢٣ ليعاودوا من بعد ذلك غاراتهم فى الخريف على نطاق أوسع من ذى قبل . وتردد مسعود فى الاضطلاع بقيادة الجيش فعهد بها الى سوباشيه (١) (قائده العام) ، فلم يكن بأكفاً منه ، اذ عجز بدوره عن وقف الغارات المفاجئة التى كانت تفد عليه من الصحراء ، كما عجز كذلك عن منع انسحاب التركمان المفاجيء من صفوفه . وظلت خراسان تتعرض بلا انقطاع للسلب والنهب مدى سنوات ثلاث حتى طرد السوباشى من المناطق الشمالية منها واستولى جفرى بك على مدينة مرو الزاهرة الغنية وأصبح بذلك السيد الفعلى على كل شمال خراسان . ويقول ميرخوند ان سكان مرو حين أدركوا ما أصاب الغزنويين من الضعف التام استجابوا للزعماء الأتراك وفتحوا لهم أبواب مدينتهم وانضوا تحت لوأئهم . ودخل الأخوان عاصمة خراسان القديمة فى موكب فخم واقتسما الحكومة فيما بينهما ، فاضطلع طغرل بك بشئون الادارة وأخذ جفرى على عاتقه مهمة الدفاع عن الاقليم . على أن ما أحرزه هذان الأخوان من النجاح ما غدا بعد قليل من الوقت أن تبدد بازاء الجهود القوية التى بذلها مسعود ليسترد ما فقد من سلطان . فقد تقدم الى مرو بطريق بلخ عام ٤٢٩/١٠٣٧ على رأس جيش ضم سبعين ألف فارس وثلاثين ألفاً من المشاة ، ليتدبر السلاجقة عند ذلك أمرهم ويروا الحكمة فى الانسحاب من أمام عدوهم لما كان لقواته من التفوق عليهم . واستطاع مسعود بذلك أن يسترد مدينتى بلخ ونيسابور ولكن الى حين . ذلك أن هذين الأخوين ، وكان كل منهما يعمل فى ناحيته ، ما ان واتتهما الفرصة فجمعاً شتات قواتهما معا ، حتى انبرى جفرى من الصحراء عند دامغان فأخذ يستأنف أعماله العدوانية فى عنف . وقريب من هذا الموضع وقعت معركة حاسمة بين السلاجقة والغزنويين فى رمضان من عام ٤٣١/١٠٣٩ هزم فيها

(١) سوباشى لفظ اويغورى معناه قائد الجيش ، ويرسم Vullers هذا اللفظ فى كتاب السلاجقة لميرخوند الذى نشره (ص ٢٨) سياشى ويقول فى الهامش ان سباشى أصلا هى سياشى أى قائد الجيش . واشتقاق هذه الكلمة تجده فى معجمى عن الاويغورية Uigurisch Sprach monumente

مسعود هزيمة تامة لاذ من بعدها بالفرار الى غزنه . وقد وافاه اجله بعد ذلك بقليل (١) .

بهذا صار الأخوان لا ينازعهما أحد اقليم خراسان ، ذلك الاقليم الذى يعد قاعدة كل العمليات الحربية فى آسيا الاسلاميه ، وغدوا قادرين على أن يضعوا الأساس لمجدهما المقبل دون أن يتعرض لهما أحد . وأقوى مراكز السلاجقة كانت بلخ فى الشرق ونيسابور فى الغرب . ومن هذين المركزين أخذ نفوذهما ينتشر فى تزايد . وحين دعيا الى خوارزم ليطفئا نار الفتنة التى قامت هناك بين الأمير وقائد جيشه (٢) ، استوليا على الاقليم كله دون صعوبة تذكر وضماه الى ملكهما ليتقدما من بعد ذلك عبر بقايا ملك البويهيين حتى يبلغا آذربيجان ، وتنفذ من بعد ذلك مقدمة الجيش التركى عام ٤٤٦/١٠٥٤ يقودها طغرل بك الى داخل الامبراطورية الرومانية (٣) .

وبرغم أن أبناء الصحراء الجسورين هؤلاء كانوا فى غاراتهم على أرض القياصرة يهدفون الى السلب والنهب أكثر مما يهدفون الى الفتح ، فإن ما أحرزوه من فوز على روما العظيمة اذ ذاك — وهى التى كان اسمها موضع هبة واجلال فى آسيا القديمة — قد أعلى من هبة السلاجقة وزاد فى شهرتهم زيادة بالغة . ويقال ان طغرل كان قد اعتزم أداء فريضة الحج

(١) وقعت هذه المعركة عند دندانقان . وعلى اثرها اصّر مسعود على الهجرة الى الهند فوثب عليه غلمانه فى الطريق وخاعوه ونادوا مكانه بأخيه محمد . وظل مسعود فى محبسه بقلعة كبرى حتى قتلته ابن أخيه ، الأمير أحمد عام ٤٣٣ هـ (انظر فى ذلك تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم اول ص ١٠٤ ، ١٠٥) .

وارجع أيضا الى تاريخ البيهقى ترجمة الخشاب ونشأت ص ٦٨٨ وما بعدها . (المترجم)

(٢) ثار قائد جيش خوارزم على أميره حتى اضطره للاستنجاد بالسلاجقة وقد أعاد جفرى الأمير الى عرشه على أن يكون تابعا للسلاجقة .

(٣) يقول جيبون Gibson, Murray 1862, vol. VIII, p. 541 نقلا عن مصادر يونانية ، أن طغرل كان قد بعث رسولا الى القسطنطينية يطلب الى قيصر الروم الجزية والخضوع .

وحتى يعمل في الوقت ذاته على تأمين طريق الحجاز ، وكانت تحف به
الأخطار منذ زمن طويل بسبب الفوضى التي كانت تسود بغداد . وما غدا
أن ظهر هذا الأمير الساجوقى لتوه بحاضرة الخلفاء كفاتح وكنابح متواضع
من خدام الخلافة (١) . وما أن أوقع بالملك الرحيم الديلمى وساعد في
اجلاس القائم بأمر الله على عرش الخلافة حتى انطلق عام ١٠٥٨/٤٥٠ وراء
عمه الثائر اينال (٢) . وصحبه في حملته هذه ألب أرسلان بن جفرى بك
وكان أبوه قد مات بموطنه قبل ذلك بقليل . وسرعان ما انتهى طغرل من
أمر عمه ابراهيم ليعود من بعد ذلك الى بغداد ويطلق سراح القائم من
سجنه (وكان قد عزل ابان ذلك) ويعيده الى العرش .

واستقبل أمير المؤمنين « ظل الله في أرضه » ، قائد جموع الترك
الجسور هذا استقبالا حافلا لأول مرة عام ١٠٥٩/٤٥١ . وقد حرص
الخليفة في أول لقاء له معه على أن يسدل البرقع على وجهه ، وقد قنع
طغرل بتقبيل يده في خشوع . على أن ما أصطنعه القائم بالله من مظاهر
الملوكية انما كان يقوم في الواقع على خواء ، فقد اضطره طغرل الى أن
يزوجه ابنته . وفيما كان طغرل يعد العدة لزواجه هذا فاجأه الردى بالرى
عام ١٠٦٣/٤٥٥ وهو في السبعين من عمره ، الملىء بالأحداث ، والعام
السادس والعشرين من حكمه . وكان خلفه ألب أرسلان جنديا مهابا
كفوا ، استأنف فتوحات عمه في همة وتوفيق متزايد . ويخبرنا بعض
مقرظيه الشرقيين أن رأسه من أعلى قلنسوته حتى أدنى لحيته كانت تبلغ
الياردتين طولاً (٣) ، في حين يذكر آخرون أنه كان شديد الإعجاب ببطولة
الاسكندر وعلى (بن أبى طالب) فثابر على دراسة سيرتهما . وكان ألب

(١) في أول لقاء بين الزعيم التركى والخليفة ، ظهر هذا والبرقع على
وجهه وقد القى قباء العباسيين الأسود على كتفيه وفى يده راية الرسول ،
وأخذ طغرل بهيبة أمير المؤمنين فتقدم اليه على قدميه فى خشوع ، ولم يجرو
من بعد ذلك على الركوب حتى دعاه الخليفة الى ذلك .

(٢) لعله الأصوب بكسر أوله وهو اسم لا يزال يشيع فى آسيا الوسطى

(٣) انظر تاريخ السلاجقة لميرخوند ، نشر فولرز ص ٤٦ .

أرسلان هو أول زعيم تركي قاد فرسان الترك عبر الفرات وأخضع أراضى غرب آسيا القديمة المقدسة لذلك الجنس الذى لا يزال يحكمها حتى اليوم (١) .

يخبرنا بعض المؤرخين الشرقيين أن قيصر روما ، رومانوس ديوجينيس كان قد أخذ منه الحماس والاعتداد بالنفس مأخذها حتى عزم على أن يفرس الصليب بنفسه فى مقر الخلافة بمدينة الاسلام المقدسة ويحرق المصاحف فلا يرجع حتى يبلغ سرقند (٢) ولا يصعب تقصى حقيقة هذه الأخبار . على أن أبناء الصحراء الغلاظ هؤلاء ، وقد جربوا قوتهم مع تلك الدول المنهارة فى ايران والعراق ، لم يستطيعوا أن يكبحوا جماح أنفسهم من الاشتباك مع الامبراطورية البيزنطية التى كانت لا تزال تشتهر اذ ذاك بقوتها وثرائها . ولم يستطع الجيش البيزنطى ، ومعه الفرنجة والنورمانيون أن يصد هجمات الترك العنيفة ، فنزلت به هزيمة مروعة ، ووقع رومانوس نفسه فى الأسر (٣) . وعامل ألب أرسلان أسيره فى شهامة

(١) ابن خلكان (الترجمة التركية - استانبول ١٢٨٠ هـ) م ٢ ص ٢٢٢ . ويقول جيبون « عبر الفرات على رأس فرسان الترك فدخل قيصرية قسبة كبدوكية ، وقد جذبه اليها معبد سان بازيل بها وما اشتهر من أمره وما عرف به من ثراء »

(٢) أراد ألب أرسلان تسوية المسائل سلميا ولكنه لم يوفق فى ذلك وللرسائل المتبادلة بين الطرفين أهميتها ، وان كانت لاتدل على أن المسيحيين البيزنطيين كانوا يفوقون فى الحضارة جموع التتار بكثير . ويقول ألب أرسلان فى رسالته الى رومانوس ، على رواية ميرخوند « وبرغم كثافة جنديك فانك تواجه أميرا انتصاراته شائعة ذائعة ، فاذا كنت ندمت على تعجلك فقر بالجزية وأقلع عن العدوان ، وسيقرك عند ذلك السلطان على كل مايدرك من أرضين ولا يلحق بك أذى ، والا فستجلب الخراب على رأسك » وأجاب رومانوس ، برواية جيبون ، « اذا كان البربرى يرغب فى السلم فليترك الأراضى التى يحتلها لجند الرومان ويسلم مدينته السرى وقصره بها ضمانا على اخلاصه » .

(٣) كان جندي من حرس السلطان الخاص قد حمل عليه ، وحين وجه اليه ضربة ثانية صاح به « قف فأنا امبراطور الرومان » فأخذ على ذلك أسيرا .

زائدة (١)، وكانت هزيمة الرومان هذه فاتحة لسلسلة طويلة من الانتصارات التركية على الدولة البيزنطية بلغت غايتها بعد ذلك بخمسمائة عام باستيلائهم على القسطنطينية . وبعد أن أرغم التركي المظفر بيزنطة على دفع الجزية له أخذ ينشر الخراب والدمار في طريق عودته الى قصبته نيسابور مارا بكرمان وطبا عبر الصحراء (٢) . وفيها استقبل حال وصوله ابنة خاقان (٣) سمرقند الأكبر فزفها الى ابنه ملكشاه باحتفاء باهر (٤) وجعل ولاية العهد من بعده لابنه هذا ، كما أقام من أبنائه الآخرين وذوى قرباه حكاما على مختلف امارات الدولة الواسعة ليخرج من بعد ذلك الى خوارزم عام ٤٥٨/١٠٦٥ فيقضى هناك على بعض الثائرين عليه (٥) وفعل مثل ذلك بعد هذا بسنين اذ سار لحرب شمس الملك أمير بخارى القدير . وفيما هو في مسيره هذا راح ضحية لفرط ثقته في نفسه ولا تقام جندي كان قد امتننه (٥) ، وذلك ثاني المحرم من عام ٤٦٥/١٠٧٢ . وقد مات في

(١) اجلس ألب أرسلان أسيره على عرش الى جواره وعامله باحترام بالغ . وزوج ابنه ملكشاه من ابنة رومانوس ، وقد أقيمت احتفالات فخمة بزواج الأمير التركي بالأميرة المسيحية .

(٢) اخطأ فولرز ومالكولم في كتابة هذه الاسماء فذكروا كما فرت ، وكادرت ، اعتمادا على مراجع فارسية خاطئة . وقد سلك ألب ، أرسلان هذا الطريق ليخضع أخاه كرد أمير كرمان وكان قد خرج عليه على ما يقال . (٣) لما كان لقب خان لم يحمله أبدا الا الأمراء المستقلون فيمكننا بذلك أن نجزم مطمئنين بان سمرقند وما بقي من القسم الشرقي من آسيا الوسطى لم يكن بعد قد صار الى حوزة السلاجقة بالفعل .

(٤) حين دخلت العروس نيسابور كان يتقدم موكب هذه الأميرة الجميلة الف غلام والف جارية يحمل كل واحد منهم الهدايا الثمينة وينثرون المسك والعنبر والصبر في طريقها .

(٥) كان ألب أرسلان قد توقف بعض الوقت باقليم زم (أو ولاية زم على الاصح) عند حصن صغير على مقربة من الموضع الذي قرر عبور جيحون عنده . واستغرق الاستيلاء على هذا الحصن وقتا طويلا مما حدا بالسلطان الى أن يستدعى اليه القائد يوسف خوارزمي ويعنفه على ذلك تعنيفا شديدا ثم يأمر بصلبه ، هنالك قرر هذا القائد أن ينتقم لنفسه قبل موته فسقط على ألب أرسلان بخنجر في يده . وحين هم خدم السلطان بقتله منهمم ألب أرسلان من ذلك ثقة منه في نفسه ثم اطلق سهمها على خصمه ولكنه لم يصبه . وقبل أن يتمكن السلطان من اطلاق سهمه الثاني انقض عليه الخوارزمي من جديد وأصابه بجرح قاتل .

الرابعة والأربعين من عمره والعام الثاني عشر من حكمه ، وكان ألب أرسلان ثاني عاهل في بيت سلجوق برز كجندی ممتاز وحاكم حازم . وانه لمثال فذ في التاريخ الاسلامي أن نرى ملكشاه ثالث هؤلاء الحكام على صفات سلفيه حتى استطاع أن يزيد في نفوذ أسرته وقوتها بنفس المقدرة التي كانت لأسلافه وب بنفس النجاح الذي صادفوه .

(١) كان عصر ملكشاه هو الذي بلغ فيه السلاجقة أوج عظمتهم على التحقيق . ولقد أتيج لهذا السلطان أن يثبت عرشه الذي ورثه ، ولكن بعد أن ظل سنوات خسا يكافح تأمر عه كرد عليه ، حتى اذا ما تمت له الغلبة عليه سار الى سمرقند عام ٤٧٠/١٠٧٧ ليهاجم في شخص صهره أقوى خصوم أسرته . وكان هدف ملكشاه الذي وضعه نصب عينيه أبدا هو تدعيم سلطانه في دولته الواسعة ، وقد استطاع أن يحقق هدفه هذا الى درجة كبيرة بفضل نصائح وزيره التقدير نظام الملك (١) حتى كانت الأعوام العشر التي حكم فيها من أزهى عصور التاريخ الاسلامي بانتعاش الحضارة فيها وتعميم السلام والرخاء . ويدين العلم والشعر والصناعة والعمارة بازدهارها جميعا ، في ايران ، الى هذا الأمير العظيم أكثر مما تدين به الى أي واحد من خلفائه . ويقال انه قد جاب اثنتي عشرة مرة أملاكه الواسعة من اليمن حتى جيحون . وكان الأمراء يتنافسون على شرف الالتحاق بخدمته ، بل ان الخليفة المقتدى ، وكان من صنع يديه ، رأى الشرف الأكبر في أن يأذن له هذا الأمير بطلب يد ابنته (٢) . ولما كان

في سنة ٤٧٠ هـ ملكشاه في سمرقند في سنة ٤٧٠ هـ (١)
(١) وقد ضمن نصائحه هذه في كتابه المعروف « سياست نامه » .

المترجم
(٢) نستطيع أن نقف على مدى ما كان عليه السلطان السلجوقي من الثراء والابهة بما كان عليه جهاز ابنته من البذخ . وكان يسير وراء هذه الأميرة وهي تدخل بغداد مائة وثلاثون فصيلة من الابل « الفصل ما بين عشرة جمال وخمسة عشر) محملة بأرقى أنواع الحرير الرومي وسبعة وأربعون من البغال أطواقها وأجراسها من الذهب تحمل اثني عشر طبقا كبيرا من الفضة مليئة بالحجارة الكريمة من كل صنف ، ويأتي من بعدها آخر الأمر ثلاث وثلاثون من ابل الركوب سروجها من القماش المذهب وتحمل مزيدا من الجواهر المتنوعة كذلك .

« لكل شيء اذا ما تم نقصان » على الحكمة الشرقية المأثورة ، فان ملكشاه عزم غاية جهده على أن يتلافى في حياته قيام الشقاق بين خلفائه من بعده ، فقسم دولته بين مختلف أقاربه ، فجعل الأناضول لسليمان شاه ، وهو الذى حكمت أسرته غازان كذلك ، وسوريا لأخيه توتوش عدو الصليبيين ، وخوارزم لنوشتكين غرجه ، وكان غلاما رقى بجده الى قيادة الجيش العليا وأسس بعد ذلك بيت الخوارزميين ، وحلب لآق سنقر (١) ، والموصل لجفرمش ، ودمشق لقبولش ، وفارس لخمارتكين ، كما جعل لابنه سنجر حكومة خراسان وبلاد ماوراء النهر .

ولم يغن ملكشاه حذر هذا الدولة السلجوقية من أن تنتهى الى نفس المصير الذى تلاقيه الأجناس الحاكمة الشرقية عموما ، فلم يسكد يوسف الثرى عام ٤٨٥/١٠٩٢ ويرقى ابنه بركيارق (شديد اللمعان) العرش ، حتى قام الخلاف على أشده بين أبناء الأسرة العديدين ، وسرعان ما سقطوا فريسة للقواد وغيرهم من أقرباء الأمير الراحل . وبرغم طول الفترة بين ذلك الوقت وموت السلطان سنجر عام ٥٥٢/١٠٦٠ وهى التى تبلغ أكثر من نصف القرن ، فان حوادثها لاتتصل اتصالا مباشرا بتاريخ بخارى الا فى القليل . ذلك أن آخر سلاطين السلاجقة هذا كان هو الوحيد من بينهم الذى أبدى بعض الاهتمام بصعريات الأحوال ببلاد ماوراء النهر طوال مدة حكمه غير المألوف فى طوله حتى امتد قرابة أربعين عاما ، كما اهتم بدوره اهتماما كبيرا كذلك ، دون بنى قومه كلهم فى الغالب ، بتقلص سلطانهم فى تلك البلاد التى كانوا قد ورثوها وبذل كذلك الجهد لتلافى ذلك .

وما يثير العجب حقا أن نرى أسرة شيوخ القبائل التركية هؤلاء يعجزون كل العجز فى أن يحتفظوا بكيانهم بنجاح فى موطنهم القديم فيما وراء جيحون ، وهم الذين بلغوا الى تمكين نفوذهم فى كل أنحاء الشرق

(١) آقسنقر ، أو آقسنقر على الأصح ، (وليست آقسنجر كما ترد كثيرا) ، وكما ذكرتها بدورى خطأ فى معجمى عن اللغة الجغتائية) هى لفظ تركى يستعمل كذلك كاسم علم ومعناه « الصقر الأبيض » .

الاسلامى امدأ طويلا ، بل وفى أفريقية نفسها ، وأسقطوا كثيرا من العروش القديمة وأقاموا أسرا حاكمة كثيرة . فمنذ اللحظة التى طرد فيها حفيدا سلجوق الشجاعان على أيدى خصومهما فنزحاً مع قطعانها وأتباعهما الى حدود ايران الشمالية ، بدأ نفوذ السلاجقة ببلاد ما وراء النهر يتقلص بنفس النسبة تماما التى أخذت بها فتوحاتهم تعم ايران وعربستان ، وتندفع اندفاعا مطردا نحو الغرب . ولقد أراد مؤرخو السلاجقة ، وكانوا فى الغالب من الفرس والعرب ، أن يزدوا فى تفخيم عهد ألب أرسلان وملكشاه فمدوا حدودهما الشرقية الى ما وراء خوقند وادعوا أن سكة كاشغر كانت تحمل اسم ملكشاه ، وهى وقائع ليس لها ما يؤيدها فى الغالب على كل حال .

ويصف النرشخى دوما ، فى تاريخه الخاص ببخارى ، شمس الملك ، الذى أشرنا اليه من قبل ، بأنه كان أعظم السلاطين وأقواهم ، وأن بلاده كانت تمتد الى ما وراء خجندة ، وأن منشأته العامة ، من دور للضيافة وحمامات ومدارس وغيرها ، قد ظلت جميعها قائمة من بعده لعدة قرون ، وأنه قد مات حوالى حوام ٤٨٠/١٠٨٧ ولا يزال مزاره يقصده أهل الورع من سكان بخارى . ولم يكن خليفته أرسلان خان ، ختن السلطان سنجر ، دونه فى المقام ، وقد حمل نفس ألقابه من بعده ، وظل أهل بخارى يذكرونه بالتعظيم كذلك . ومات هذا الأمير عام ٥٢٥/١١٣٠ ودفن فى مرو . وعلى هذا فلم يكن للسلاجقة الا مجرد السلطان الاسمى فى بخارى وسمرقند وفرغانة ، وأن السلطة الفعلية بتلك البلاد كانت فى الواقع بأيدي الأمراء الوطنيين أو الأمراء الأويغوريين الذين كانوا يحكمون فى تركستان الشرقية (١) .

(١) يصف المؤرخون الشرقيون الامراء الذين كانوا يحكمون اذ ذاك فى تركستان الشرقية بأنهم أصلا من قره ختاي ، وهو الاقليم الذى يضم اليوم ولايتى شانسى وكانسو الصينيتين ويسلكون معهم كذلك كل الترك الذين كانوا يعيشون فى الشرق الأقصى . ولانوافق على هذا الرأى ، ذلك ان شواهد اللغة الاويغورية المذكورة فيما سبق تدل قطعا على أن الترك الذين كانوا يعيشون بفرغانة وتمتد منازلهم حتى الصين ، كانوا على وجه اليقين ، قبيلة ممتازة يختلفون كل الاختلاف عن اخوانهم فى الغرب والجنوب . =

ان جفرى بك وطفعل بك السلجوقيين الأولين اللذين بلغت راياتهما
المظفرة بلخ شرقا وأواسط أرمينية غربا لم يدر بخلدهما أبدا الالتفات الى
الأقاليم الواقعة فيما وراء جيحون . حتى جاء الب ارسلان فأخضع
الامبراطورية البيزنطية ثم حاول من بعد ذلك أن يثبت سلطانه فى بلاد
ما وراء النهر سلما أول الأمر ، فارتبط فى سبيل ذلك برباط المصاهرة
مع سليمان خان سمرقند .

ولم تبد هذه الوسيلة ذات نفع على كل حال ، اذ وجد ألب ارسلان
نفسه مضطرا بعد ذلك بسنوات قليلة الى أن يعبر جيحون بجيش كبير فى
حملة كلفته حياته . وتابع ملكشاه الحملة ضد ختته حتى غلبه آخر الأمر ،
وان كان من المشكوك فيه أن نفوذه امتد عند ذلك حتى فرغانة ، ذلك أن
التاريخ يذكر لنا اسم خضرخان بأنه كان معاصرا لملكشاه يحكم فى تركستان
ويباريه فى القوة والأبهة (١) .

= وكانت لهم لهجة تركية واحدة هى لجنة قوتا دغويليق ، وكانت هذه
لا تستعصى على الأفهام كذلك فى شرق بلاد الأويغور وغربها . ولم تنحط
هذه اللهجة الا حين أخذ الأويغور يختلطون بغيرهم من الترك حوالى القرن
السابع الهجرى . وما كتبه المؤرخون الشرقيون لا يتفق وراينا هذا بطبيعة
الحال . فالجوينى ، وهو الذى تبعه كل المؤرخين المتأخرين ، يساك تحت
اسم الأويغور أو الأتراك الأويغور كل القبائل التركية التى كانت تنزل عند
المالط وبیشبالق على الخصوص وهى التى يعرف رئيسها باسم « ايدى
قوت » اى رب السعد ، وكاهاها باسم « كام » وهذان اللفظان وكل ما عرف
به الجوينى ، ومن تبعوه ، الأويغور ، تجده فى كتابى عن شواهد اللغة
الأويغورية . "Monuments of Uigur Language" وذلك نقلا عن
مخطوط كتب قبل ذلك العهد بخمسين ومائة عام لأويغور كاشغر ، مما
يؤيد رأى بقوة فى أن لغة بيشبالق كانت هى بذاتها لغة كاشغر . وما
يتميز به الأويغور عند الجوينى عن بنى جلدتهم فى الغرب هو أنهم فى نظر
المسلمين كفار ، على المسيحية أو الشامانية ، فى حين كان بنو جلدتهم
فى الغرب على التوحيد يدينون بدين الاسلام ويخرجون من الاختلاط
باخوانهم الوثنيين . وعلى هذا فاننا حين نطلق كلمة «الأويغور» على قسم
من أقسام الترك فى الشرق فانما نعنى بذلك كل القبائل التى تكون
سلسلة السلالات البشرية فيما بين الصينيين والفرس فى فرغانة .

(١) استرعى انتباه جيبون قيام وجه الشبه بين خضرخان وملكشاه
فى أحوالهما ، فكان من الطبيعى أن يقول بأن ملكشاه قد نظر الى ما بلغه
من قوة هائلة فى الغرب فلم يقبل أن يقوم له فى الشرق منافس قوى مثل
هذا .

وبقدر ما أظلمته بنود السلاجقة من أرضين حتى غدت ترفرف في زهو على آسيا الغربية ، فان حملاتهم على عنفها ، كتلك التي شنّها السلطان سنجر لم تثمر في الشرق الا قليلا أو لا شيء على الاطلاق . ولئن كانت بخارى والقسم الغربي من خانيها قد اعترفت حقا بسيادة السلاجقة على الدوام ، الا أن القسم الشرقي من بلاد ما وراء النهر لم يعترف بسيادة هؤلاء الأمراء الذين كان مركز سلطانهم يقع في الحقيقة بایران . ولم يكن هناك من أدرك هذه الحقيقة كما أدركها السلطان سنجر الذي كان يرى في خراسان والجزء الشرقي من العالم الاسلامي أحب البلاد الى نفسه . وسار هذا الأمير سيىء الطالع عام ١١٢٩/٥٢٤ لحرب محمد أمير سمرقند وابن سليمان خان سالف الذكر ليرغمه على الدخول في طاعته ، فحاصر سمرقند ، وكانت اذ ذاك حصنا خامل الذكر ، حتى اضطرها الجوع وانتشار الوباء الى الاستسلام . على أن سنجر ما غدا أن عفا عن محمد ، بعد أن سيره أسيرا الى خراسان ، ثم أعاده الى عرشه . وكانت هذه الواقعة أول حرب لسنجر ببلاد ما وراء النهر (١) .

وأما الثانية فقد جابه الحظ بسيلها . ذلك أن سمرقند عادت الى العصيان من جديد عام ١١٤٠/٥٣٥ . وبرغم أن أحمد زعيم الثوار بها كان يلزم فراشه بداء النقرس ، فان غلمانه وكانوا اثني عشر ألفا ، اضطلعوا بالدفاع عن المكان ، ولئن كان النصر قد كتب لسنجر فعهد بحكومة المدينة الى نصر ابن ذلك الثائر أحمد الا أن هذه المعركة قد أدت به الى الاشتباك في حرب جرت عليه الكوارث من بعد ذلك وانتهت بالتالي الى القضاء التام على نفوذ السلاجقة ببلاد ما وراء النهر في الغالب .

كان الاويغور الذين أشرنا اليهم في الفصل السابق يحكمهم أمير (١) يذكر كتاب جهانكشا أن بخارى كانت كذلك قد خرجت على سنجر برعامة من يدعى تامكيچ خان فلم يذهب السلطان السلجوقي الى سمرقند الا بعد أن أطفأ تلك الفتنة .

يدعى كرخان (١) . وعلى رواية جهانكشا ، وعنه نقل المؤرخون المتأخرون فى الغالب ، فان كرخان هذا كان قد قدم من داخل خطاي (الصين الشمالية) فاستقر أول الأمر مع جموع أتباعه عند الحافة الشرقية لسهوب القرغيز . حتى اذا ما شعر بكراهية البدو له تابع رحلته جنوبا فنزل بمدينة ايميل . ولم يجد السلامة التى ينشدها فى منزله الجديد هذا كذلك حتى استقر به المطاف آخر الأمر فى بلاساغون (٢) فحارب قبائل قنغلى والقبجاق والقرلق القوية وانتصر عليهم ، ليمد من بعد ذلك سلطانه على قسم من الاقليم الذى يعرف باسم ختاي وعلى مدينتى بشبالق والمالق ثم يهاجم امارتى كاشغر وختن ، وكاتتا تتحاربان معا ، فيخضعهما لسلطانه ثم يسير فى فتوحاته من بعد ذلك بالتدريج صوب الغرب فى اتجاه فرغانة وبلاد ما وراء النهر . هنالك خاف سنجر من تزايد قوة جاره الشرقى فى هذا فتاق الى كبح جماحه . ولم يكن كرخان بدوره أقل ميلا الى القتال ، ولم تكن الفرصة كذلك غير بعيدة المنال .

كان الاقليم الواقع عند الشمال الشرقى من خوقند ، موطن القبجاق والقره قرغيز ، يسكنه بطون بعينها من بدو القره ختاي . وكان سنجر قد أثقل كاهلهم بما فرضه عليهم من الخراج . وكان شيوخ قره ختاي حريصين على أن يقدموا للسلطان ما يبلغ خمسة آلاف من الابل وعشرة آلاف من الغنم ليرضى . وحين رأوه لا يقنع بذلك استنجدوا بكرخان الذى استجاب لهم وسارع بغزو بلاد ما وراء النهر عام ١١٤١/٥٣٦ حيث أنزل بالسلطان سنجر هزيمة ساحقة ركن من بعدها الى الفرار تاركا من

الملك المنهزم .

(١) وليس كورخان كما ذكره المؤرخون الشرقيون الذين تابعوا الجوينى فى ذلك ، وهو يقول ان هذا اللفظ فى لغة قره ختاي معناه خان الخانات ويستدل على ذلك بكلمة كوركان الأوفورية بمعنى الخامى أو المدافع وهو قول لا يوثق به وما يذهب اليه كذلك كلاپروت Klaproth, Journal Asiatique 1828 p. 292 فى هذه المسألة لا يقوم على سند .

(٢) بلا ساغون يذكرها المغول باسم جوبالق ، أى المدينة الجميلة ، كما ذكرها ميرخوند على وجه الصحة . وفى خريطة آسيا فى القرن الرابع عشر التى حققها بول فى كتابه القيم Jule, Cathay تقع بلاساغون عند الشمال من أورمجي الحديثة .

ورائه نساء وكل متاعه ، فلم يصحبه الا ثلثمائة من رجاله (أخذ عددهم يتناقص بالتدريج حتى انتهى الى خمسة عشر) عبر بهم سيحون في مشقة بالغة . وقدرت خسائر السلاجقة في هذه المعركة بثلاثين ألف رجل . وبهذه الهزيمة انتهت الى غير رجعة شهرة سنجر العسكرية وهو الذى كانوا يعدونه يوما الاسكندر (المقدونى) الثانى ، وضاع معها كذلك كل نفوذ للسلاجقة ببلاد ما وراء النهر .

وتوالت المصائب على سنجر بعد هذه الهزيمة ، وكتب عليه أن يركبه العار اذ سقط أسيرا بأيدي بدو التركمان عند أندخوى فأمضى عندهم ثلاث سنوات فى شقاء وبؤس بالغين . ولئن أفلح آخر الأمر فى الهرب من مجبسه هذا الا أن ما عاناه من الارزاء الجسام كان قد ذهب بعقله ، ووافاه أجله فى السادس والعشرين من ربيع الأول من عام ١١٢٨/٥٢٢ . وخلفه محمود خان ابن أخيه فحكم ست سنوات من بعده . وكان هذا الأمير على قرابة مع بغرا خان كاشغر من ناحية أمه . ومع هذا فقد احتال هذا الخان حتى سمل عينيه بواسطة أحد الخارجين عليه .

وفىما كانت خراسان نفسها قد سقط جزء منها بأيدي الخوارزميين ، واستولى أمراء الغور (وبلادهم فى القسم الشمالى من بلاد الأفغان الحالية) على جزء آخر منها (١) ، وانطلق لصووع جموع الغز يجتاحون جزءا ثالثا منها ، كان كرخان قد ثبت سلطاته على الجزء الأكبر من فرغانة وبلاد ما وراء النهر .

هكذا انتهى حكم أول أسرة تركية فى بلاد ما وراء النهر . ومن عجب أن نرى أصحابها لم يساهموا فى عهدهم بأى نصيب على الإطلاق لرفع شأن موطنهم القديم من الناحية السياسية أو فى تقديم مواطنيهم الحضارى . فهؤلاء السلاجقة ، وهم أنفسهم من الترك ، كانوا يتفخرون بما استولوا عليه من أرضين فى آسيا الغربية ، ويرون ذلك الاقليم

(١) كتب الشاعر انورى مرثيته المشهورة « دموع خراسان » بسبب ما أصاب هذا الاقليم من الدمار اذ ذاك . ونقلها الى الانجليزية فى ترجمة E. H. Palmer and J. Cowell : The tears of Khorasan. جيدة بالمرুকوييل

الصغير على جيحون غير جدير باهتمامهم فى الغالب . وقد حكم أعظم
أمرائهم فى تلك الحقبة من الحضارة التى بدأت اللغة الفارسية تزاحم
العربية ، كلغة الأدب ، وذلك فى ايران وتوران . واذ كان السلاجقة من
أعظم رعاة الشعر والعلم ، فقد رأينا لذلك طغرل بك وملكشاه وسنجر
جميعا يعملون على احياء لسان ايران اللطيف الجميل ، ولم تكن هذه
الأسرة الحاكمة تستخدم اللغة التركية الا بوصفها لسان الحياة العامة .
وكانت هذه اللغة تعزز بدورها بنهضتها الأدبية فى قسم آخر من آسيا (١) .
ونظير ذلك نجده كذلك عند أمراء خوارزم الترك والأمراء الاقطاعيين
الأقوياء من مدن بلاد ما وراء النهر . ذلك أنه برغم أن الحكومة كانت
كلها فى الغالب بأيدي الترك الا أن السكان الترك المستقرين هناك كانوا
على قلة عددية نسبية .

(١) وذلك فى تركستان الشرقية حيث نظم ذلك الشعر الأخلاقى
والسياسى « قوداتقويلىق » عام ٤٦٠-١٠٩٦ أى قبل موت سنجر بما
يقرب من مائة عام .

[illegible][illegible]

و... (١) ...
... (٢) ...
... (٣) ...
... (٤) ...
... (٥) ...
... (٦) ...
... (٧) ...
... (٨) ...
... (٩) ...
... (١٠) ...

الأويغور وأمراء خوارزم

٥٢٨ (١١٣٣) - ٦١٥ (١٢١٨)

ظلت بخارى ، مركز الثقافة القديمة وفنون السلم ، هي وسمرقند ،
التي ذاع صيتها في الآفاق بما حبتها الطبيعة من جمال وقتنة ، تتعرضان
على طول الزمن للخطر بسبب أطماع جيرانهما في الشرق والغرب ، وكانوا
جميعا رجال حرب وشغب ، وظلت هاتان المدينتان ، طوال الفترة التي
انقضت بين سقوط السلاجقة والغزو المغولي موضع النزاع الأول بين
جارين طموحين هما كرخان الأويغوري في الشرق والخوارزميون في
الغرب . ولقد تحدثنا من قبل عن مبدأ ظهور كرخان وتحدث الآن عن
الخوارزميين بقدر ما يسمح به المقام معنيين بوجه خاص بذلك القدر من
تاريخهم الذي يتصل اتصالا مباشرا بسياستهم بازاء بلاد ما وراء النهر .
كانت خوارزم ، وهي اليوم خانية خيوة الحديثة ، في زمن السلاجقة مجرد
إقطاع يخضع في إدارته لحامل الطشت (١) (طشتدار) ، وعلى هذا الاعتبار
أقطعها ملكشاه لقائده نوشتكين غرجة . وخلفه ابنه محمد قطب الدين
عام ١٠٩٧/٤٩١ فحكم خوارزم ثلاثين عاما . وحين بدأ نجم السلاجقة
في الأفول لم يعد هو وغيره من الأمراء الإقطاعيين في هذه الدولة
العظمية ولهم ما يربطهم بالبيت الحاكم عموما إلا الولاء الاسمي . واتخذ
هذا الأمير لنفسه لقب خوارزمشاه (أمير خوارزم) ، ولم يعد بعد حامل

(١) أي الخادم الذي يقدم لسيدته « الطشت » ويقوم على وضوئه .
وقد أخطأ مالكولم في كتابه عن تاريخ فارس حين ذكره بأنه الساقى وهو
في الفارسية « جشنة كير » . ما شككنا في ذلك فإلتصقا بلفظ له

الطشت عند أمير خراسان السلجوقي الا بقدر ما هو عليه اليوم خان خيوه بالنسبة للسلطان برغم أنه يتلقى نفس اللقب منه (١) . وخلف قطب الدين ابنه أئمز وكان كفؤا ممتازا واسع الأطماع ، أذاع من صيت أسرته برعايته الفذة للآداب (٢) وعمل في الوقت نفسه على الافادة من ازدياد قوته ليتحرر من سلطان سنجر أميره وظهيره . وبقدر ما كان يظهره من الاخلاص والولاء لسنجر فترة موأاة الحظ له (٣) ، بقدر ما أبدى له من البغضاء والعداء الشديد حين قلب له الدهر ظهر المجن . ولقد خرج أئمز على أميره ثلاث مرات وغزا خراسان ، وكان سنجر يعفو عنه كل مرة في سماحة تامة . وكان سلوك الخوارزميين هذا من الخطورة بمكان . ذلك أنهم بغاراتهم تلك التي قاموا بها انما مهدوا السبيل في الواقع لعدو ثالث مشترك ليحقق أهدافه . وكان هذا هو كرخان الذي استولى على كل بلاد ما وراء النهر بعد أن هزم سنجر أول مرة ثم سير من بعد ذلك فرقا من جيشه عليها أوتوز أحد قواده الكبار فغزا بها خوارزم وأثرل بها ضربات شديدة ثم عاد الى سمرقند محملا بالأسلاب .

(١) يخلع سلطان استانبول على خان خيوه لقب « حامل الكأس السلطانية » وما يستلفت النظر في غير قليل أن أبناء تابع السلاجقة السابق هؤلاء قد استطاعوا ان يحافظوا على امتيازات أسرهم برغم انقطاع سلسلتهم لعدة قرون .

(٢) الشاعر رشيد الدين الطواط الذي ذكره هامر في كتابه عن تاريخ جنون القول الفارسية Hammer-Purgstall : Geschichte der persischen Redekuenste كما له مكانة مرموقة في بلاط أئمز وغالبا ما هجأ السلطان سنجر (ص ١٢١ - هامر) حتى أقسم ان هو سقط في يده حيا بعد معركة هزاراسب ان يقطعه الى سبع قطع . وحين سقطت هذه المدينة اختفى الطواط . حتى فكر منتخب الدين حاجب سنجر في ان يخفف من سخط سيده على الشاعر فعرض عليه مازحا ، بأن يعتبر أن ذلك الشاعر هو ذلك الطواط الطائر الصغير الهزيل البائس ويكتفى بقطعه الى نصفين بدلا من سبع هناك ضحك السلطان وعفا عن الشاعر

(٣) حين كان سنجر ببخارى وهو يقضى على ثورة تمنج ، عزم بعض المتآمرين على أن يباغته وهو في الصيد ويقتلوه وتمثلت هذه المؤامرة لاتئمز في الرؤيا فاستيقظ فجأة ، وركب حصانه فوصل الى مكان الامير في الوقت المناسب وأفسد على المتآمرين خططهم ودهش سنجر لهذه الرؤيا يقدر ما اظهر امتنانه لاتئمز على اخلاصه له .

وجهد أتسز ما وسعه ليفسل ذلك العار الذى لحق به ، فسار عام ١١٥١/٥٤٦ الى جند وانضم الى كمال الدين (١) نائب السلطان هناك وكان قد تحالف معه سرا فى حرب الأويغور الكفار (٢) . لكن بجهوده ذهبت أدراج الرياح واضطر الى أن يتعهد لعدوه بدفع جزية سنوية مقدارها ثلاثون ألف دينار . وبرغم أطماعه الواسعة فانه لم يستطع أن يتخلص منها فتركها عبئا ثقيلا على كواهل خلفائه من بعده .

ومات أتسز بخبوشان عام ١١٥٦/٥٥١ فخلفه ابنه ايل أرسلان . والظاهر أنه قام بمحاولة جديدة لتحرير بيت خوارزم من عبء الجزية التى فرضت عليهم تلقاء كرخان ولكنه فشل فى ذلك كما فشل أبوه من قبل .

ويقال ان بلاد ما وراء النهر بعثت بوفد من أهلها عام ١١٥٨/٥٥٣ الى ايل أرسلان تستنجد به من مظالم أمير سمرقند واعتداءاته ، وكان من اتباع كرخان . وأسرع ايل أرسلان الى هناك فى قوة كبيرة . وقتحت له بخارى أبوابها سلما ، الا أنه لم يستطع بعد ذلك أن يواجه ذلك الجيش الذى حشده له عدوه بظاهر سمرقند ، وكان يضم كل التركمان النازلين فيما بين قراقول وجند ، فعاد الى بلاده دون أن يحقق شيئا مما خرج له . وهكذا بقى الأويغور وفى حوزتهم الجزء الأكبر من بلاد ما وراء النهر وفرغانة ، على ما كانوا عليه من قبل ، فى حين كان على الخوارزميين أن يقنعوا بذلك الاقليم الواقع عند حدود بخارى الغربية (٣) . وساد الهدوء

(١) كان كمال الدين صديقا حميما للشاعر الوطواط . وحين خان أتسز انهم الشاعر باشتراكه فى هذه الخيانة حتى ركبته المهانة بعض الوقت .

(٢) بينا من قبل كيف أن لفظ « الكفار » بأدق مدلوله الاسلامى لا يمكن ان يعمم على كل الأيغور ، فأغلبهم ، وفيهم جرخان نفسه ، كانوا على المسيحية بخاصة ، ومن هؤلاء قبيلة النايمان التركية وكان أفرادها جميعا من النصارى على ما يقال

(٣) يؤكد الجوينى ، وهو يميل فى الغالب الى الخوارزميين ، ان ايليك تركمان حين علم بقدوم ايل أرسلان استسلم له من فوره ، كما التمس السمرقنديون بدورهم صف الأمير كذلك وهو قول غير صحيح . ذلك أن بخارى وسمرقند كانتا تقران بسيادة الخوارزميين طالما كانت قواتهم تحتل المدينة ، ولم يكن للخوارزميين أيام ايل أرسلان وتكش الا مناطق بخارى الغربية ، أى بلدان آموى وقواقول وجند فى ناحية الشمال الغربى .

بين هذين الاقليتين المتجاورين است سنوات دعم فيها ايل ارسلان حكومته
في خراسان وذلك بعد أن طرد محمودا (آخر سلاجقة خراسان) عن
عرشه وسمل عينييه .

وتجدد العدوان بين الفريقين مرة ثانية عام ٥٦٠/١١٦٤ حين اتهم
الأويغور بغزو أراضي أمير خوارزم . هنالك سير ايل ارسلان قائده أيار
بك إلى آموه على أن يلحق به هو بنفسه بعد قليل . ولكنه لم يكد سير
إليه حتى كان الأويغور قد هزموا جيش أيار وسقط ذلك القائد نفسه في
الأسر ، واضطر ايل ارسلان بدوره إلى الفرار . وداهمه المرض وهو في
تراجعه هذا وقضى به في العام نفسه . وكان ايل ارسلان قد عهد الملك
من بعده إلى أصغر أبنائه العالم التقدير سلطان شاه ، ولكن ابنه الأكبر
تكش (١) رفض أن يتخلى عن حقه الطبيعي في وراثة العرش . وما أن
ضمن تكش عون الأويغور له بعد أن وعدهم بأن يدفع لهم الجزية
المفروضة في مواعيدها ، حتى انطلق يجارب أخاه حربا دامت عشر سنوات
تم له من بعدها إبعاده عن العرش والجلوس عليه مكانه ليصبح من بعد
ذلك أعظم أمير بين بني جلده ، ويضيف إلى إمارته الصغيرة ضئيلة
الشأن ، عند مجرى جيحون الأدنى ، أراضي جديدة امتدت حدودها جنوبا
حتى الهند والخليج الفارسي وغربا حتى الفرات وشمال الفولجا . وقد
بدأ تكش حكمه باتهاج سياسة الصداقة مع الأويغور . ولم يكن حرصه
على المحافظة على وعوده لهم الا لما كان يشعر به من الضعف بازائهم اذذاك .

والغالب أنه وضع نصب عينييه أن يعمل على تثبيت عرشه أولا ، وأن
يتمد نفوذه من بعد ذلك صوب الغرب ليصبح من بعد ذلك قادرا على

السيطرة على بلاد ما وراء النهر .

(١) وتكتب بالكسر لا بالفتح الذي رسمها به كاتر مير العلامة خطأ في
هامش ترجمته المشهورة لكتاب رشيد الدين عن المغول في إيران ، وهي
لفظ تركي قديم معناه ، قتال أو حصار أو موقعة . ومصدر دو كشمك ،
معناه أن يجارب أو يدخل في معركة .

متابعة خططه الشرقية في حرية أكبر . وتم له تحقيق غرضه الأول بعد حرب اتصت ثمانى سنوات مع أخيه سلطان . وعاونهُ على بلوغ غرضه الثانى معاونة ملموسة اضطراب الأمور فى بلاط طغرل بن أرسلان آخر السلاجقة فى فارس . فقد استنجد به ثائر من أتباع الأمير السلجوقى يدعى قتلغ اينانج (١) ، فلم ينجح فى الاستيلاء بضربة جريئة على عرش ايران فحسب ، بل هاجم كذلك الحشاشين ، أولئك القدائسين المتعصبين ، فى حصنهم القوى المعروف باسم أرسلان كشا (مروض الأسد) ، واضطر الخليفة العباسى ناصر الدين الى محالفته بعد أن هزمه ، وإن كان هذا الأمير العباسى المتكبر ما لبث بعد قليل أن نبذ هذا الحلف فى غضب شديد .

هكذا نجح تكش فى أن يقيم له دولة لا تقل فى اتساع رقعتها عن دولة السلاجقة الأول أو دولة السامانيين ، برغم ما كان من ميل أتباعه الى إثارة الفتن ، بل وميل أبنائه بدورهم اليها كذلك . ومع هذا كله فإنه لم يتوقف عن دفع الجزية الى جيرانه الشرقيين حتى لثراه عند موته الذى وقع فى العاشر من رمضان عام ٥٩٦/١١٩٩ بعد أن حكم ثمانية وعشرين سنة .

(١) قتلغ اينانج « المؤمن السيد » هو ابن عطابك ايلد ركوز (المشرف على الناس) كان قد تنكر اشد التنكر للسلطان طغرل ذى العقل الراجح برغم سوء حظه ، وكان هذا الثائر قد سجن من قبل لمحاولته الاعتداء على شخص السلطان وحين عفا عنه من بعد ذلك وكزمه قائل ذلك بالذهاب من فوره الى خراسان وكتب الى تكش ليمده بقوة يحارب بها سيده . ويقال ان طغرل ركب حصانه فى هذه المعركة وهو ثمل وتقدم قواته متدرعا بدرع كان بتلألاً وهو يلوح بدبوسه الثقيل فى الهواء وينشد من شعير الشاهنامة ما يستنزل به الخراب على رأس أعدائه . وسقط منه دبوسه وهو فى انفعاله هذا فأصاب فرسه فى ساقها فكبث به ورمته من فوقها هنالك أسرع قتلغ اليه وقتله . وأمر تكش بارسال رأسه الى الخليفة بفقدان وكان يضر له عداً شديداً وقد رثاه أحد الشعراء حين رأى رأسه المقطوعة فقال :

ما أغرب أطوار الزمان ايها الملك
وما أسرع ما تحجب السحب هالات المجد فى السماء
لا فرأسك التى كانت بالأمس تطاول الجوزاء
ها هي قد سقطت اليوم على الحصان

عاما ، يوصى أولاده بأن « يتجنبوا كل نزاع مع كرخان وأن ينظروا اليه كمتراس قوى يقف في وجه عدو جبار بعيد حتى قيام الساعة » ولئن يكن من الصعب أن تقرر بأن هذا التنبؤ الذى يشير الى الغزو المغولى قد جرى حقيقة على لسان هذا الأمير الخوارزمى القوى أو هو من وضع المؤرخين المتأخرين ، الا أن الثابت المعروف أن ابنه وخليفته محمد قطب الدين لم يكن هو ذلك الرجل الذى يحقق وصية أبيه . فقد كان هذا الأمير شجاعا من أولى العزم ، حتى أدى به طموحه الذى لا حد له وما كان يشعر به من الخزي بسبب التزاماته نحو جار هو فى نظره همجى جلف (١) ، الى أن بات يرتقب الفرصة ليشتبك مع كرخان ويفض ما بينهما .

وما ان اضطلع هذا الأمير الخوارزمى بشئون حكومته حتى عوقته الحوادث عن أن يزيج عن كاهله ما يثقل نفسه من أمر الجزية . فقد غزا خصمه شهاب الدين ، أمير الغور ، طوس وما حولها وأنزل بها الخراب والدمار الشامل . وخرج اليه محمد فوجد نفسه يدخل فى حرب طويلة المدى قدم فيها الأويغور لمساعدته ، فى حين انضم أمير سمرقند الثائر الى شهاب الدين بدوره وعبر معه جيحون عام ١٢٠٧/٦٠٠ فى جيش يزيد على سبعين ألف رجل . وكان أمير خوارزم قد جمع ، فى عجلة ، ما يقرب من عشرة آلاف فارس فقط . ولكنه مع ذلك انتصر على خصمه انتصارا حاسما ، بفضل شجاعة الأويغور مناصريه ، حتى اضطر شهاب الدين الى الفرار تاركا كل متاعه من ورائه (٢) ، ولم يستطع من بعد ذلك أن يفيق

(١) اكرر هنا الراى الذى ذكرته فى المقدمة بأن سكان خوارزم كانوا اذ ذاك غالبيتهم من الفرس أو ان الأمراء الخوارزميين برغم أنهم أنفسهم من الترك أصلا ، الا أن نفوسهم كانت قد أخذت تتشرب ثقافة الفرس وحضارتهم بالتدريج حتى باتوا ينظرون الى غيرهم من الترك نظرتهم الى الهمج .

(٢) رأى شهاب الدين أن المعركة لاتسير فى صالحه فاعتصم بأحد الحصون . ولكن الأويغور أحاطوا بذلك الحصن وسرعان ما فتحوا ثغرة فى أسواره . وأدت بأمر سمرقند غيرته الدينية ، وكان من أحلاف كرخان (بضم الكاف) ، الى أن بعث فى السر الى شهاب الدين يطلب اليه الا يتوانى فى انتقاذ نفسه على الأقل ، ولو أدى ذلك الى ترك كل متاعه للكفار . وكان الأويغور الذين شرعوا فى دخول الحصن من النصارى فى الغالب .

من أثر هذه الضربة (١) . ومات عام ٦٠٣/١٢٠٥ . واستولى محمد بذلك على هراة وكل اقليم الغور . وتم له من بعد ذلك القضاء على فتن شتى بخراسان وكذلك حتى بسط نفوذه على ايران كلها . وهناك بدا له أن الأوان قد آن ليفرغ من أمر توران .

قابل شاه خوارزم صنيع كرخان معه حين أعانه في حربه مع شهاب الدين الغورى بكبرياء متعمد بدلا من الاعتراف له بجميله . وحين ظهر رسل الاويغور ببلاطه عام ٦٠٦/١٢٠٥ ليطالبوا بدفع الجزية السنوية ، شعر هذا الخوارزمى المخلص أنه لم يعد له طاقة بتحمل هذه المذلة بعد ، وعزم على رفض أدائها . وحرص هذا الأمير على ألا يظهر بمظهر المخالف لوصية أبيه علنا ، فغادر قسبة ملكه فور وصول رسل الاويغور وترك على حكومته أمه فى الظاهر . وأصدر كل تعليماته سرا فى ذلك الى وكيله محمد ماى . واستقبلت ترخان خاتون ، أم السلطان ، رسل الاويغور بترحاب عظيم وردتهم مكرمين الى بلادهم ، وكانت تسير فى ذلك وفق سياسة زوجها الراحل فى دقة تامة . على أن رسول خوارزم لم يكد يصل بلاط الاويغور ويعلن حقيقة رأى أميره فى هذه المسألة حتى رأى كرخان ، وقد أخذت منه الدهشة لذلك ، أن يستعد من فوره لمهاجمة الأمير محمد . ولم يتأخر هذا الهجوم فى الواقع كثيرا . فقد خرج أمير خوارزم الى بلاد ما وراء النهر بدعوى استنجاد أهلها به من مظالم الاويغور وعسفهم فغزا بخارى فى العام نفسه . وقد انحاز الأهليون الى صفه وفتحت له تلك العاصمة أبوابها . وسارت الأمور بسمرقند على هذا الوجه كذلك . ذلك أن أميرها اذ ذاك السلطان عثمان ، وكان أميرا عالى النفس اشاد بذكره كل المؤرخين الشرقيين ، كان على عداوة مع كرخان اذ رفض أن يزوجه ابنته ، فلم يتردد فى الترحيب بمقدم السلطان محمد الذى رضى بمصاهرته

(١) ضاعت بسبب ذلك كثير من الاراضى من يد شهاب الدين حتى اقلعت غزنه قصبته نفسها ابوابها فى وجهه الى أن استطاع بهمة قواده بالهند أن يسترد اكثر أملاكه من بعد ذلك وقد اغتاله أحد الهنادكة فى شهر شعبان من عام ٦٠٢ وهو فى طريقه من لاهور الى غزنه وكان فى نيته أن يثار لما أصابه فى الغرب (المترجم) .

تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية اول ص ١٢٠ .

فأصبح بذلك حليفا له وصحبه في حربه في الشمال ، تلك الحرب التي سار إليها بعد أن عهد بحكومة سمرقند إلى تزتيه وكان قائدا لخوارزميا قديرا . وحين بلغت كرخان هذه الانباء بعث بأوامره إلى قائده الأكبر تانكو وكان بطراز عاصمة الشاش ليستعد للمقاومة الشديدة . ولكن الحظ تخلى هذه المرة عن الأويغور وهزم جيشهم هزيمة حاسمة ، وسقط تانكو (١) نفسه في الأسر بعد أن أصيب بجراح بالغة . ولنا أن نتصور مدى ما زاده هذا النصر في كبرياء السلطان وما أكد به ثقته في نفسه حتى اتخذ لنفسه عقب ذلك لقب « اسكندر الثاني » و « ظل الله على الأرض » واستبدت به حتى النصر وهو في طريق عودته إلى خوارزم بعد أن استولى على أترار حتى قسى قلبه فأمر بأسيره الجريح تانكو فألقى به في اليم .

ظل هدف السلطان محمد بالاستيلاء على تركستان بعيد المنال برغم كل هذا الذي فاز به . ذلك أنه لم يكد يئارج شواطئ سيحون حتى كان كرخان ، برغم تقدمه في السن ، إذ كان إذ ذاك في التسعين من عمره ، قد ظهر بشخصه مع جيشه عند أترار فاستردها ثم سارع من بعد ذلك بتسيير بعض فرق من جيشه فحاصرت سمرقند من جديد . هنالك أسرع السلطان محمد إلى بلاد ما وراء النهر ، وكان عليه في الوقت نفسه أن يقضى على فتنة قامت في جند . وحين علم الأويغور بقدومه رفعوا الحصار عن سمرقند وتراجعوا صوب الشمال (٢) . وانطلق الخوارزميون في أثرهم

(١) فيما كان تانكو (وليس تانكو كما ذكر D'Herbelot) جريحا على الأرض وتقوم على العناية به إحدى جواريه . هم أحد الجنود بقلع رأسه ، لولا أن ولولت الجارية وأفصحت عن اسم الجريح ، فأخذ أسيرا وسير إلى السلطان (المؤلف) .
ويرد اسم هذا القائد (تانكو) عند حبيب السير ثان ٦٤٤ (المترجم) .

(٢) يرد الجويئي سبب اسراع الأويغور بالتراجع إلى أن كرخان كان قد انزعج لخروج كوجلوك عليه عند المالح فاضطر إلى جمع شتات قواته وقد تصح هذه الدعوى نوعا ما ، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نقول أن الجويئي كان على بينة من أمر قيام التفاهم بين محمد وكوجلوك ، فهو يقول في أحد المواضع بأن هذا الاتفاق قد تم بينهما أثناء حرب محمد الأولى ، في حين يذكر في موضع آخر أنه وقع قبل الحرب الثانية .

يطاردونهم حتى اشتبكوا معهم عام ٦١٠/٢١٣ غير بعيد من بناكت ، في حرب قاد فيها الغريزان جيشيهما بنفسيهما ، واستمر القتال لعدة ساعات وكانت نتيجته آخر الأمر سجلا ، على ما يؤكد على الأقل المرجع التاريخي جهانكشا ، وإن كانت مجريات الحوادث تشير في الغالب إلى هزيمة الخوارزميين ، فقد انضم القائدان الخوارزميان ترتبه واسيهيد إلى صفوف العدو ، كما أن السلطان محمد نفسه ظل مفقودا في معسكره لعدة أيام بعد الواقعة (فقد وجد نفسه وسط قوات عدوه فجأة ، ولم يتيسر له الهرب إلا لأنه كان قد اعتاد عند خروجه للحرب أن يرتدي زى خصومه في المعركة) . على أن اسراع كرخان بالانسحاب ينتهي بنا إلى نتيجة تخالف ما سبق ، وهو ما يحتمل في الغالب ، ولا سيما إذا ما ادخلنا في اعتبارنا واقعة ظهور خصم ثالث (جديد على مسرح الحوادث يهدد ظهوره الأمير الأويغوري الشيخ بأشد الأخطار ، إذ كان من المتحمسين لأهداف السلطان محمد . وكان هذا هو كوجلوك خان بن تارينغ خان أمير قبيلة النايسان التركية (١)) وكان قد تراجع من البيشبالق غربي بسلامت ترابند اقوة جنكيز خان فالتمس المأوى عند كرخان حتى أصهر إليه ، ولكنه ما لبث أن انضم إلى تابعه الخارج عليه هناك وثار عليه بدورم . ورتب كوجلوك خان خطته على قتح جهة في الشرق ليضعف بذلك من قوة خصمه ، فتحالف مع السلطان محمد على أن يهاجم الأمير الخوارزمي عدوهما المشترك من ناحية الشرق في حين يهاجمه هو من الغرب . فإذا نجح محمد في دحر غريمه ضارت له من بعد ذلك كاشغر وخن فيضمهما إلى أملاكه ، فإذا كان كوجلوك هو السابق يكون له عندئذ مطلق الحرية ليمد حدوده حتى شواطئ سيحون . واستقبل السلطان محمد رسول كوجلوك بسمرة قد ثم دخل في حربه الثانية وكله ثقة بنجاحه . ولقد كان في مقدور السلطان محمد ، حين تغير الحال بعد معركة بناكت ، أن يواصل زحفه إلى تركستان الشرقية على ما اتفق عليه من قبل ، ولكنه اكتفى بحدوده السابقة عند أترار وآب من بعد ذلك إلى خوارزم راضيا فخورا . وكان

(١) كوجلوك لفظ أويغوري معناه « الرجل القوي » .

كرخان فى شغل شاغل عن ذلك كله ، اذ أرغمته سعة المساحات التى اغتصبها كوجلوك على أن يرتد عجلا ، ليضاعف القدر عند ذلك من ضرباته له ، فقد قامت الفتنة بين جنوده أثناء تراجعهم حتى تحرشوا تحرشا شديدا برعاياه أنفسهم . وما ان بلغ كرخان بلاساغون (١) حتى أقفلت أبوابها فى وجهه ، وظل أهلها يدفعونه عنها ستة عشر يوما أملوا خلالها أن يقدم اليهم السلطان محمد ، وكانوا يرون فيه حاميا لهم ، فيطرد كرخان عنهم . وما لبثوا آخر الأمر أن استسلموا له لتتزل بهم عند ذلك مذبة بشعة سقط فيها خمسة وسبعون ألفا منهم . ولا عجب أن تؤدي هذه الحوادث الى انقضاى كثير من أصدقاء كرخان عنه ، لينتهز كوجلوك عندئذ هذه الفرصة ويهزمه هزيمة حاسمة انتهت باستسلامه له . وحين صار كرخان فى كنف من عاش بكفنه (٢) فى السابق ، التمس منه منصبا صغيرا له ولكن كوجلوك أكرم مثواه . ومات كرخان ، آخر أمير تركى قوى فى الشرق ، وهو فى الثانية والتسعين من عمره بعد أن حكم واحدا وثمانين عاما الشعوب التركية التى كانت تقطن المنطقة الممتدة فيما بين الصين وجيخون .

وجد السلطان محمد نفسه بعد موت كرخان وليس له من خصم يتهدهه سواء فى توران أو فى ايران . ولكنه مع ذلك لم يركن الى الهدوء ، اذ راحت أطماعه تدفعه دفعا ليمضى فى سبيل الفتح قدما . وفيما كان عائدا الى حاضرتة قاده سوء طالعه وهو مخمور الى أن أمر بقتل مجد الدين البغدادى ونفذ فيه الحكم لساعته . وكان مجد الدين هذا متصوفا يوقره الناس أشد توقير قدس أعداؤه له عند السلطان (٣) وحين أفاق من خماره

(١) ان ما تدل عليه مجريات الحوادث من أن كرخان تمكن فى تراجعهم من شواطئ سيخون ، أن يتجنب المرور فى المناطق الخاضعة لكوجلوك ، حتى وصل الى بلاساغون قبل وصول خصمه الى كاشغر ، يستبين منه جليا أن هذه المدينة لاتقع عند الشمال من كومل على ما يدعيه بول Jule وانما تقع على مبعدة فى الغرب الى ما وراء المالك .

(٢) يقول الجوينى أنه بنى بابنة كرخان الجميلة وكانت تقوم فى الحكم مقامه عند غيابه .

(٣) يقول ميرخوند انه اتهم بعلاقته الوثيقة بأمر السلطان .

أنبه ضميره أشد تأنيب فبعث الى الخاقاه التي كان ينزل بها الشيخ عادة بحفنة مليئة بالذهب والجواهر لتفرق في الاخوان تكفيرا عن ذنبه . لكن نجم الدين (١) شيخ الخاقاه رد الهدية وقال له . « لا الذهب يجدى ولا الجواهر ، فلا كفارة عن دماء ولينا المقتول الا أن تهرق دماء السلطان ودمائى ودماء ألوف كثيرة من المسلمين » ويرى ميرخوند فى هذه الكلمات تنبؤا بالخراب الذى أنزله المغول من بعد . ويؤكد أن هذا الجرم كان السبب الأول فى سقوط سلطان خوارزم ، ويضيف الى ذلك ذنبا آخر لا يقتصر حين خلع الخليفة ناصر الدين ، وهى فعلة لامة عليها المؤرخون المسلمون لوما غنيفا .

كان المعروف تمام المعرفة أن العلاقات بين خلفاء بغداد والأمراء الخوارزميين كانت على الدوام على غير ما يرام . ذلك أن الحكام الخوارزميين كانوا يتوقون الى الاضطلاع بالدور الذى كان للسلاجقة بازاء خليفة المسلمين من قبل . وحين أعرض الخليفة عما كانوا يعرضونه عليه من الحماية دخلوا معه فى عداء سافر فى الغالب كما حدث فى عهد تكش ، فى حين ثابر القوم من بعد ذلك فى بغداد على التآمر عليهم مستترين تحت ستار الصداقة الكاذبة . فمن ذلك مثلا أنه حين مات شهاب الدين أمير الغور عام ١٢١٤/٦١١ وعزم السلطان محمد على فتح غزته فشحخص اليها وجد فى متاع السلطان هناك رسائل يحرض فيها الخليفة الأمير الراحل على حرب الخوارزميين وقد بعث اليه فيما بعد براءة لقبه فيها بالسلطان . هنالك ثارت ثائرة السلطان محمد وأعلن فى اجتماع هام خلع الخليفة وتنصيب العالم علاء الملك الترمذى مكانه ، ثم سار لساعته الى بغداد ليقبضه مكان الخليفة العباسى الضعيف . على أنه ما ان تقدم وراء همدان حتى عوقه زمهرير الشتاء وكثافة الثلوج فى وديان الجبال عن المضى . ويبدو أن القدر أبى أن يضطلع مسلم بما جعله من نصيب هولاء

(١) قتل نجم الدين كبرى اثناء الفزو المغولى ، ولا يزال أهل خيوه يعظمونه حتى اليوم كما يحج الى مزاره فى اورغنج القديمة الوف من المسلمين فى كل عام .

فقد اضطرت الخوارزمي المتطرش أن يعود من حيث أتى ضجرا لعدم تمكنه من تحقيق هدفه (١) ، ليقابله من بعد ذلك رسول من لدن خيرخان نائبه على أترار ومعه رسالة يفضى اليه فيها بأنه قد نجح في القبض على أربعمائة من عيون جنكيزخان كانوا قد قدموا أترار في لباس تجار من المسلمين (٢) ، وأنه في انتظار أوامر السلطان بهذا الصدد . وانساق السلطان وراء عواطفه ، وكانت قد وصلتته رسالة من چنكيز (٣) أثارت تأثيرته فأمر بقتل هؤلاء الأسرى . وحين آب الرسول الى أترار نفذ خيرخان أوامر سيده لساعته ، برغم أن هؤلاء الأسرى كانوا حقيقة من المسلمين ، وكانوا موضع رعاية من چنكيز لنشاطهم التجاري الواسع في أراضيه . وانا لنرى الجويني على حق حين يقول : « ان دمهم أهرق ، ولكن كل قطرة منه قد كفر عنها بسيل جارف من الدماء ، وان رءوسهم

(١) لا يزال الطريق عبر همدان وكرمنشاه يعد من أخطر المسالك شتاء وغالبا ماكنت اسمع ايان اقامتى هناك عن أناس اصابهم التلف هناك أو تجمدوا حتى ماتوا .

(٢) ليس من السهل القول بأنهم كانوا تجارا مسلمين في الواقع . وبلاحظ الجويني أن المفلول لم يكن عندهم مدن كما لم يكونوا يمارسون الزراعة ، لذلك كانوا يعتمدون في كل شيء على التجارة ، حتى رعوأ التجار احسن رعاية . وكان للتجار من قبل مركز في خجندة تسير منه قوافلهم الى منغوليا . تحمل الى الخان الهدايا من نسيج الديباج والكتان وغير ذلك من الأشياء اللطيفة . وحين تقدموا بهداياهم الى چنكيز أمر بحصرها ودفع لهم فيها اثمانا مجزية برغم احتجاجهم . وكان يشجعهم ليرددوا على بلاده حتى وعدهم بكل حماية في مقدوره .

(٣) يخبرنا مير خوند عن سفارة كان قوامها محمود يلواج (والاسم الأخير يستعمل خطأ كعلم ، وهو أصلا يولواج وهو في الأيفورية بمعنى الرسول أى السفير) وعلى خواجه البخارى ويوسف خواجه الانرارى ، بعث بها چنكيز الى السلطان محمد مع هدايا نفيسة منها اوان فضية تحوى مسك التبت وبلاد التتار والعقيق والديباج ونسيجا نادرا لحمته من الصوف الأبيض والأخضر ، فأكدوا له في اخلاص أن چنكيز امير المشرق يود أن يعيش في سلام ووثام مؤتلفا مع السلاطان محمد امير المغرب ، وأنه يحبه كولده ويرى سلامته عزيزة عليه . وبرغم أن الخوارزمي المتطرش اشماز أول الأمر عند ذكر هذا العطف الابوى ، فقد توثقت الصداقة آخر الأمر بين الاثنين وظل چنكيز على اخلاصه على الدوام . وقصة ميرخوند هذه كلها تبدو لى من قبيل الخرافة على كل حال .

قد سقطت ولكن كل شعرة فيها قد كلفت مئات الألوف من الناس حياتهم .

وأتيح لواحد من هؤلاء الأسرى أن يهرب ليروى عند ذلك قصة ذلك الهول للأمير المغولى الذى لم يطلق العنان أول الأمر لسخطه ، بل أوفد رسولا يطلب باسمه ايضاحا لهذا الأمر . وحين ألقى بهذا الرسول بدوره فى الحبس ثم أعدم ، لم يستطع جنكيز أن يمسك نفسه من بعد ذلك عن أن يشهر سيفه نحو الغرب وهو الذى عقد له لواء الظفر والنصر ذياك الوقت فى الشرق . وهكذا كان السلطان محمد بسلوكه هذا هو المسئول الأول عن تلك المصائب وذلك الدمار الذى يستحيل اصلاحه والذى أنزله الغزو المغولى ببلاد ما وراء النهر والعالم الاسلامى الشرقى كله وتعدى ذلك الى جزء من أوروبا . ذلك أنه — كما سنرى وشيكاً — منذ اللحظة التى أحرز فيها المغول ما أحرزوا من فوز ونجاح عند شواطئ سيحون انتعشت آمالهم ، فشد ذلك من أزرهم ودفعهم قدما فى مسالك الفتوح الممتدة أمامهم .

الفصل الثامن الغزو المغولي

٦١٥ (١٢١٨) - ٦٢٤ (١٢٢٦)

تتكون المناطق التي تسكنها الأجناس التركية فى العصر الحاضر من صقعين متميزين من الأرض . أحدهما يمتد جنوبا من شواطئ المحيط المتجمد الشمالى الثلجية ، والآخر يتجه شرقا من الأدرىاتى ، وهما يتداخلان معا فى القسم الشرقى من آسيا المعروف بصحراء جوبى (١) .

وفى هذه الصحراء كان المغول ، وهم شعب (٢) يشبه الترك حدا ما فى اللغة والسحنة ، يقيمون منذ زمن موغل فى القدم ، ويعيشون عيشة يؤس بدوية وسط اقليم جذب موحش لا يلقى أحد من جيرانهم اليهم بالا . بل لقد ظل اسمهم غير معروف قرونا طويلة فى حين كان ذوو قرباهم من الأتراك يتحكمون بنفوذهم القوى فى مصائر آسيا الغربية .

(١) جوبى لفظ مغولى معناه « الصحراء الجذباء الخاوية » ولا يستعمل علما الا فى القليل ، نظير لفظ « الصحراء » التى هى فى العربية المكان المفتوح وهى ليست علما كذلك .

(٢) أوجه الشبه فى الجنس بين المغول والترك تزداد وضوحا كلما اتجهنا شرقا من مناطق الترك الغربيين أى العثمانيين وقد اختلطت دماء أهلى الروملى والأناضول وآذربيجان اختلاطا قويا بدماء عناصر سامية حتى لم نعد نرى فى قسماتهم أى اثر لقسمات الترك القومية البدائية . والتركمان والأوزبك والنوغاى والقرغيز هم أقرب الناس فى سحنهم الى المغول . ولا يختلف البروت والقبجاق عنهم الا اختلافا يسيرا فى لون الجلد . وبرغم ضعف ما بين التركية والمغولية من الصلة فى ناحية النحو ، الا ان ثلاثة أرباع الألفاظ فى اللقتين واحدة عموما .

وقد أنجب هذا الجنس عام ٥٤٩/١١٥٤ (١) بطلا يدعى تيمورجى (٢) ، برهن على أنه صاحب أطباع و ارادة حديدية وعزم مكنته كلها تمام التمكين من أن يطوع طبيعة بنى جلده البدائية الخشنة الى أداة صالحة أمدته بتلك القوة التى اجتاحت بها العالم الى ما وراء حدود مراعيه بكثير ، حتى ليكن أن يقال كذلك بأنها أشاعت الانقلابات فى آسيا كلها . وما بين أيدينا عن شباب جنكيز المبكر لا يعدو قصصا قليلا . فهو لم يظهر على مسرح التاريخ الا بعد أن تجاوز الأربعين من عمره ، حيث نجد اسمه يذكر مقرونا باعتدائه على بنى جلده وعلى الأمراء الأتراك القريبين منه على السواء ، فالتصير عليهم جميعا ليتخذ لنفسه من بعد ذلك لقب جنكيز ، أى القوى الجبار (٣) .

كان أونغ (٤) خان أمير قبيلة كريت (٥) هو أول خصم ذو شأن غلبه

(١) هذه هى السنة التى تنبأ فيها النجمون المسلمون بهبوب عاصفة مدمرة تقدم اليهم من ناحية الشرق . وحين لم يقع ذلك أخذ الناس يسخرون منهم . والمفروض أن هذه النبوة قد تحققت من بعد بمولد جنكيز الذى اقترن بتلك العاصفة المدمرة التى كان عليها أن تجتاح الأرض .

(٢) تابعت فى ذلك الجوينى ، وهو يذكره باسم تيمورجى لاتيوجين .

(٣) برغم أنى تابعت المستشرقين فى رسم لفظ جنكيز ، الا انه لابد من أن أسجل ملاحظة لى ، فأقول ان هذا اللفظ على ما يرسمه الترك والفرس يكسر أول او امالته مع الجيم المثلثة والجاف الفارسية هو من ناحية الاشتقاق هو الأصح بلا شبهة .

ذلك أن هذا اللفظ : اويغورى صرف يتكون من مقطعين : جنك بمعنى مستقيم او ثابت أو قوى ، وكيز بمعنى جبار ، فيحمل كله على معنى الشديد القوى أو الجبار .

(٤) أونغ لفظ اويغورى معناه الشخص المستقيم .

(٥) تربت معناه العاصفة عند أبى الغازى وان كان اشتقاقه غير معروف ومع هذا فأننا أميل بدورى الى أنه تحريف فارسى لكلمة كيريت بمعنى كلب الصيد ، واسماء أغلب القبائل التركية وأسرها مأخوذة من أسماء الحيوان . فنجد مثلا لفظ منفيت (وهو عند أبى الغازى يعنى الغابة الكثيفة) يتكون من مقطعين : منع = مريض ، وايت = الكلب . ثم اويرات (ويرسمها البعض ايرات) = الحصان الرمادى ، وقنقرات وصحتها قنقرات = الحصان الكستنائى الخ .

چنكيز . فقد هزمه عام ١٢٠٢/٥٩٩ ثم أردف هزيمته له بغلبته الخاطفه على قبائل أويرات وقنقرات والنايسان التركية التى كانت تنتشر عند الغرب من منازل المغول . وفيها كانت تروج البوذية والمسيحية والاسلام مما يسر لها قدرا من الثقافة العامة كان يزيد على ما كان عند المغول فى الغالب ، وان كانت قدراتهم الحربية دون قدرات قوات چنكيز بكثير ، تلك القوات التى كانت تدرب بصرامة دراكونية (١) .

ورسم المغولى المظفر سياسته على ألا يشرع فى غزو جديد بعد فوزه هذا حتى يتم له ادماج القبائل التى أخضعها فى قواته اخضاعا تاما وتنظيمها وفق قواعد الياسا (٢) لتصبح أداة صالحة لتحقيق خططه المستقبلية . وكان تقدمه فى ذلك بطيئا ولكنه كان ثابتا مكينا . فلم يأت عام ١٢٠٦/٦٠٢ حتى كان قد نجح فى اخضاع كل بدو صحراء جوبى على وجه التقريب واتخذ من حصن قراقورم مقرا له . واتصل حوالى ذلك الوقت بالأويغور . ومن شيعتهم الشرقية استعار لقومه البدو عقيدة وأبجدية طوعت لغتهم للكتابة .

وكان هؤلاء الأويغور فى الغالب يقومون على بيت المال عند چنكيز وخلفائه ، ومنهم حجابهم وعمال دواوينهم كذلك . وخضع أمير هؤلاء الأويغور الشرقيين ، وكان يدعى ايدى قوت « رب الحظ » للمغول من تلقاء نفسه هو وقومه جسيما ، وكان أغلبهم من المسلمين . هنالك غمره چنكيز بعطفه فوجد فيه بذلك كسبا عظيما له ، كحليف أمين ، فى حروبه مع الصين وحروبه مع بلاد ما وراء النهر على السواء . أما الأويغور الغربيون ، ولا سيما مسلمو الترك فى كاشغر وختن فقد ذهبوا مذهباً يغاير ما ذهب اليه اخوانهم الشرقيون على كل حال . ولبث چنكيز لا يجرؤ

(١) دراكون مشرع اغريقى عرف بصرامة قوانينه حتى ليقال انه كان يدونها بالدم (المترجم) .

(١) أضلها دزاصاق فذكرها الفرس والعرب « ياساى » ترخيما . وهى دستور چنكيز الذى دونه له الأويغور ، وهى مزيج من القوانين الموضوعية على ارادة الخان المغولى وانفع العادات القبلية . وقد ذكرها تفصيلا الجوينى فى كتابه جهانكشا ص ١٧ وما بعدها أول - مجموعة جب ١٩١١ لندن (المترجم) .

على مهاجمتهم حين كانوا مؤتلفين تحت تاج كرخان القوى . حتى اذا ما رقى العرش كوجلوك وجر على نفسه عدااء العالم الاسلامى كله بسبب مشاعره المعادية للاسلام (١) ، بدا لجنكيز أن الفرصة قد أصبحت مواتية له ليضرب ضربته فى الغرب ، وكان قد عاد لتوه مظفرا من حرب له فى الصين . فسير لذلك جيشا مغوليا عليه قائد له يدعى جبه هاجم كوجلوك . وحين رأى هذا أن أحلافه قد تخلوا عنه فى ساعة العسرة ارتد أمام خصمه ولاذ بجبال بدخشان حيث وقع فى الأسر هناك وسلم الى المغول . ومالبت أرسلان خان امير المالك فى الشمال أن يستسلم بدوره الى المغول طواعية وكان على عدااء قديم مع كوجلوك . وبهذا صار جنكيز وله السلطان المطلق على كافة الأراضى الممتدة من حدود صحراء جوبى الشرقية الى منحدرات جبال تيان شان الغربية والسيد بلا منازع على مدن كثيرة يسكنها سكان مسالمون يشتغلون بالزراعة وعلى تبائل بدائية عديدة أبناءها من رجال الحرب . ومن العسير أن نقول : لعله كان يقنع بما بلغه فلا يستمر فى سيره المظفر لو لم يكن هناك مجال لدعواه التى تذرع بها لمهاجمة الأمير الخوارزمى السلطان محمد على ما أشرنا اليه فى الفصل السابق . فالواقع أنه قد وجد نفسه يقف على أبواب دولة سمع العجيب الكثير عن سعة رقعتها وثرائها وحضارتها . وهذا هو أميرها وقد طار صيته ، فهو يرى فيه بذلك خصما جديرا به وعدوا يليق بسيفه من كل وجه .

كان عام ١٢١٨/٦١٥ هو الذى خرج فيه الفاتح المغولى لحرب الأمير الخوارزمى . وصحبه فى هذا الغزو أبناءه جغتاي واوكتاي وجوجى (٢) ورؤساء القادة وقوة قوامها ستمائة ألف من خيرة جنده ، وقد انضم اليه ايدى قوت الأويغورى وسجينا كتيكين أمير المالك . وسلكت القوات

(١) كانت زوجة كوجلوك مسيحية ، وكانت تجهد فى حمل مسلمى كاشغروختن على الدخول فى ملتها ، فى حين كان زوجها يحاول أن يحملهم قهرا على اعتناق مذهبه البوذى وقاومهما المسلمون فى ذلك مقاومة شديدة استشهد فيها جلال الدين امام ختن وعصبة من المؤمنين .

(٢) ويدعى أيضا سوداى او سونتاي او سوبوتاي .

الزاحفة طريقها عبر وادى ايلى وشمال فرغانه صوب اترار . وتجمعت أمام هذا الحصن لتنتقل فرق منها من بعد ذلك فى الاتجاهات الآتية :

بقى قسم منها ، عليه ابنا جنكيز ، جفتاى واوكتاى ، لاختضاع أترار ، فى حين انطلق قسم آخر ، يقوده جوجى ، يمينا عبر صحراء قزل قم على طريق جند . وتقدم القسم الثالث وقوامه خمسة آلاف رجل وعليه الك نويان وستوبغا ، بجذاء شاطىء سيحون الأيمن متجها الى بناكت . فى حين اصطلع جنكيز نفسه بالعملية الرئيسية فسار بخيرة جنده الى بخارى قلب آسيا . وعلينا أن نتعرض بقدر من العناية لتلك العمليات المنفصلة انتهى اضطلمت بها هذه الفرق الأربع من الجيش المغولى فاجتاحوا آسيا الوسطى فى أربعة تيارات مدمرة متميزة ، ونبدأ بأول هذه العمليات عند أترار .

كان يحتل هذا الحصن حامية قوامها خمسون ألف رجل عليهم خير خان ، الذى أشرنا اليه من قبل ، يعاونهم عشرة آلاف رجل يقودهم قراجة وزير السلطان محمد . بهذا كانت القوة المدافعة على جانب كبير من الكفاية ، ومع ذلك يقول المؤرخ ان الذعر استولى على المسلمين حين ظهر المغول واكتنفوا المكان . وعلى ضوء هذه البداية يحمد لهذه الحامية أنها ظلت تقاوم الغزاة مقاومة مجيدة طوال أشهر خمسة . ولعله كان بمقدورها أن تستمر فى مقاومتها لمدة أطول لولا وقوع الخلاف بين قائديها . فخير خان ، وهو الذى يقع عليه الوزر الأكبر فى شأن مقتل رعايا جنكيز ، كان قد اختار أن يستمر فى المقاومة أو يموت دون ذلك ، أما قراجة فقد باز له عدم جدوى المقاومة حتى أفصح منذ البداية عن رغبته فى الدخول مع عدوه فى مفاوضات . وقد انتهى أمره بأن انفصل عن زميله وذهب ورجاله الى المغول ذات ليلة ظلماء . وحين عرض على أبناء جنكيز صبيحة اليوم التالى ، غفوه على تركه لمراكزه وأفصحوا له عن شكهم فى أمره وهو الذى لم يتورع عن خيانة سيده وراعيه فى نذالة ، ثم أمروا به وبرجاله فقتلوا جميعا . وواصل خيرخان مقاومته فى شجاعة الأسد . وهلك رجال الحامية جميعا ، وكانوا يبرزون للقتال على دفعات موفقة قوام كل واحدة منها خمسون رجلا ، وباعوا حياتهم بثمان غال . وحين سقط آخر اثنين

منهم على وجه التحقيق الى جانب خير خان ، هبط هذا القائد ، على ما يقال ، من أسوار الحصن الى أسطح الدور ، فأخذ يدافع عن نفسه بسفده بالحجارة ، وكانت تناوله اياها جارية له ، فكان يقذف بها أعداءه الحائقين عليه والذين صمموا على أسره حيا بأى ثمن . حتى اذا ما فرغت الحجارة من يده وأحيط به ووقع فى الأسر حمله أوكتائى ، كرمز لانتصاره عليه ، الى القصر الأخضر (كوكسراى) فى سرقند حيث قتل على أثر ذلك بأن صبت الفضة المذابة فى أذنيه تذكيرا له بجشعه الذى أودى بحياة التجار المنكوبين . وهكذا سقطت أترار ، مفتاح التركستان الشمالى الغربى ، بأيدي المغول فأزوالوا الحصن كله وقتلوا السكان جميعا هناك ، ثم تابعوا سيرهم بعد ذلك جنوبا الى سرقند .

كذلك كتب لجوجى بدوره الفوز فى حربه عند جند . فقد هاجم أول الأمر سغناق ، وتقع عند مشارف الصحراء وتربطها بجند قناة . وكان المغول قد بعثوا برسول يدعى حسن حاجى يطلب تسليم المدينة ولكن أهلها سقطوا عليه وقتلوه . وأثار هذا العمل ثائرة جوجى فاجتاح المكان ولم يعف أحدا من أهله من القتل أخذا بالثأر ، ثم عهد بخرائب المدينة الى ابن حسن حاجى الرسول المقتول وعاود سيره الى جند بطريق أوزكند واشناس . وخضع أول المكانين سلما فى حين أخذ الثانى قسرا . ونزل جوجى بمسكره عند جند فى الرابع من صفر عام ٦١٦/١٢١٩ فأثار نزوله هناك الاضطراب والفرع بين الناس على أشده ، حتى انسحب قتلخ خان حاكم المكان فى هلع الى خوارزم تاركا المدينة فى فوضى شاملة . وحين ظهر جنتيمور ، رسول جوجى ، أمام بوابة المدينة لينذر أهلها بما سوف يقبل عليهم من الخطر ، ويدعوهم الى أن يوفروا على أنفسهم مقاومة لن تنفعهم شيئا ، لم يكتب له أن يتجنب المصير الذى لقيه حسن حاجى عند سغناق الا بمشقة ، فنجح ، بفرط حذره ، فى النجاة بحياته . ولم يكد هذا الرسول ينسحب من هناك حتى ظهر الجيش المغولى عند الأسوار بمجانيقه وسلاله فاستعد لاقتحام المكان . ويقال ان حامية المدينة كانت على جهل تام بفنون القتال حتى أخذ أفرادها يتطلعون ، فى دهشة ، الى المغول وهم يحتالون على تسلق أسوارها الملساء ، وكان الأمر لا يعينهم فى شيء . وقضت القوات

الغازية على ما توهّموه من توفر الأمن عندهم اذا أعملوا السلب والنهب بالمدينة ثم خربوها . وقتلوا كذلك كل من كان يحمل السلاح من الأهليين ، ثم ساقوا الفلاحين المسالمين الى ظاهر المدينة فبقوا فى الأسر أياما تسعة ردوا من بعدها الى بيوتهم بعد أن جردوا من كل شىء فلم تبق لهم الا حياتهم .

باحتلال جوجى للقسم الغربى من بلاد ما وراء النهر قطع كل اتصال بين المحاريين الخوارزميين وتلك المناطق الغنية على شواطىء الأنهار والتي يسكنها فى الغالب أقوام مسالمون . وعمد القائدان الك نويان وستوبغا فى الوقت نفسه الى الهجوم على بناكت وخجندة فى قوة صغيرة قوامها خمسة آلاف رجل . وسارع ايلركو (من قبيلة تغلى) قائد المكان الأول الى الاستسلام مع حاميته كلها دون قيد أو شرط .

ولقيت بناكت نفس المصير الذى لقيته جند من قبل ، فقتل كل من كان يحمل السلاح من أهلها ضربا بالسيف أو رميا بالسهم ، واسترق من بقى منهم من بعد ذلك أو ضم قسرا الى الجيش المغولى ، لتلقى من بعد ذلك خجند الضربة التالية . وكان حصن هذه المدينة قد أقيم فى مكان يتفرع عنده سيحون الى فرعين . وأبدى هذا الحصن مقاومة غير متوقعة ، لموقفه الطبيعى من جهة ، ومن جهة أخرى لشجاعة قائده تيمور ملك الذى يقول عنه المؤرخون الشرقيون بأن رستم لو كان حيا لاتخذ منه أستاذا له (١) .

ووجد الآنكو نفسه ، وهو يدير عمليات الحصار ، أنه قد أسقط فى يده برغم أن خمسين ألفا من الرقيق وعشرين ألفا من المغول كانوا يهاجمون المكان تحت امرته . وكان الرقيق يسرون فى عشرات ، وعلى كل فرقة منهم رقيب من المغول ، فيجلبون الحجارة من جبال تقع على مسيرة ثلاثة فراسخ .

ولم يفت فى عضد تيمور قلة الحامية التى بين يديه فاحتال على بناء اثنتى عشرة سفينة غطاها باللباد المبلل بنوع من الفراء (!) مصنوع من

(١) (يحمل له سيفه) على ما ورد عند الجوينى فى جهانكشا .

الخل والجير فاتخذها وقاء من نيران العدو ، حتى استطاعت قواته بذلك أن تقترب من الشاطئ لدرجة مكنتهم من اطلاق المزيد من سهامهم على خصومهم من خلال الثغرات بين هذه السفن . وبذلك استطاع تيمور أن يضطلع بالدفاع مدة طويلة ، حتى اذا ما تبين له عدم جدوى الاستمرار في المقاومة أمر بسبعين سفينة شحنها بكل ما أمكنه حملة من متاعه وانحدر بها مع النهر هاربا بطريق جند الى الصحراء ومنها الى خوارزم . وطارده المغول على طول الشاطئ طول رحلته الجريئة هذه . وحين صادف سلسلة من الحديد تعترض طريقه في النهر عند بناكت حطمها الى شظايا بضربة واحدة منه على ما يقال . حتى اذا ما نزل عند بركليكت كان عليه أن يشتبك في قتال جديد يفوق وصف شجاعته فيه كل حد . ونجح آخر الأمر في أن يبلغ خوارزم آمنا (١) . واستولى قادة المغول على خجندة ثم ساروا بجيشهم الى سمرقند حيث كان عليهم أن يذهبوا للاجتماع بقائدهم وتلقى أوامره .

وكان جنكيز خان نفسه ، ومعه ابنه تولى ، قد أحرزا انتصارات أخرى باهرة لا تقل عن هذه . ولا يتضح لنا خط سيره في الطريق الذى زحف فيه من أترار جنوبا الى بخارى . وكل ما نعلمه أن أول مكان ظهر فيه كان سرتاق (٢) عند الشمال من بخارى . وبوغت سكان هذه البلدة الصغيرة اللطيفة بظهور المغول عندها قادمين من الصحراء وكأنهم قد

(١) حين بان لتيمور ملك استحالة الإقامة فى خوارزم أسرع فى اللحاق بالسلطان محمد وكان يهيم على وجهه فأسدى له خدمات جليلة ، ثم مالبت أن تتركه الى دمشق متنكرا فى زى الدراويش . واشتاق الى موطنه وهو هناك فاستطاع العودة الى فرغانة برغم مصادفه من عراقيل فى الطريق . وهناك عرف بأن ابنه ، وكان قد تركه طفلا ، قد شب ، وأن باتو حباه بعطفه ورد اليه أملاك أبيه . هنالك سارتيمور ملك الى خجندة فلقى ابنه وحين سألته ان كان يستطيع أن يتعرف على أبيه اذا مالقيه ، أجاب الابن بالسلب معتذرا بأن أباه قد تركه وهو طفل لا يدرك . وحين استدعى الابن عبده تعرف على سيده من فوره . وما غدا خبر رجوعه أن شاع فسقط ضحية لانتقام المغول .

(٢) وهى ليست زرنوق كما وردت عند ميرخوند . ويذكرها الجوينى أيضا باسم زرتوق وهى قريبة من سرتاق المذكورة فى معجم البلخى الجغرافى .

سقطوا عليها من السماء ، فلم يدركوا مدى الخطر الذى أقبل عليهم وأخذوا يستعدون للمقاومة فعلا . حتى اذا ما أقبل عليهم رسول المغول ، على الرسم المعتاد ، وبين لهم ما سوف يتعرضون له من سيوف العدو ونيرانه رأوا آخر الأمر أن السلامة فى الاستسلام . أما من كان يحمل السلاح منهم فقد ضم الى الجيش الفاتح قسرا ، كما سوى حصن المدينة بدوره بالأرض ، وأما السكان المسلمون الذين كانوا قد خرجوا الى ظاهر المدينة بخيولهم ونبالهم فقد أذن لهم بالعودة الى ديارهم سالمين . وما غدا المغول من بعد ذلك أن أطلقوا على المدينة اسم قتلقي بالق « المدينة السعيدة » بدلا من سرتاق .

وكان نور هو ثانى موضع استولى عليه جنكيز فى منطقة بخارى . وكان الطريق الذى سلكه اليها غير معروف من قبل ، وكان أدلاؤه فيه هم التركمان . وظل هذا الطريق يشتهر بعد ذلك لمدة طويلة باسم طريق الخان . وقضى حرس الطليعة الليل فى غابة جميلة بظاهر نور حيث أخذ رجاله يصنعون سلالهم الحصار . وكان يقوده طاهر بهادر ، وهو مسلم وتركى فى الغالب . وحين فرغوا منها حملوها ، مستعرضين ، فوق سروجهم الى أسوار نور .

وكان الأهليون قد أغلقوا أبواب مدينتهم عليهم ، وقد أبى فريق منهم أن يصدق قدوم جنكيز اليهم ، فى حين ظل فريق آخر يعتقد أن السلطان محمدا لابد قادم لنجدتهم ، ومهما يكن ، فحين بعث جنكيز بقائده طاهر يخبرهم بأن المغولى الجبار فى طريقه اليهم وأنه سوف لا يتعرض لهم بسوء ، الا أن ينزل ببلدهم ، ما لم يعمدوا الى مقاومته بالقوة ، فتحوا له أبواب المدينة من فورهم . هنالك أمر الأهليين أن يحملوا الى ظاهر المدينة كل ما عندهم من المؤن الزراعية وأدوات الزراعة وكل ما عندهم من الحبوب والماشية ودواب الحمل . حتى اذا ما فعلوا ذلك كله انطلق الجند فدخلوا المدينة وأخذوا ينتهبون الدور دون أن يتعرضوا بالسوء لأحد من النوريين على الاطلاق . وحين سار وفد منهم الى معسكر جنكيز قابلهم بترحاب بالغ وسألهم عن مقدار ما كان يفرض عليهم من مال الخراج . فلما أخبروه بأنه خمسمائة ألف من الدنانير طلب اليهم أن يؤدوا ذلك المال الى رجاله

المقدمة من جيشه وصرفهم وهم راضون . وأسرع جنكيز من بعد ذلك من نور الى بخارى فنزل بظاهاها أوائل المحرم من عام ٦١٧/١٢٢٠ وبدأ من فوره يعالج متاريس حصنها الخارجية . ولم تكن بخارى ، وقد بلغها في الغالب أخبار المجازر التي جرت من قبل تنهيدا لمركتها الكبرى ، غير مستعدة بالكاد لهذا الهجوم العنيف الذي كان عليها أن تواجهه . وكان يداخل أسوارها عشرون ألف رجل عليهم كوكخان (وكان من مهاجري المغول أو من الاويفور في الغالب) وسونج خان وكشلى . ومن الصعب أن تتصور مدى ما كان هؤلاء يظنون أنهم قادرون عليه بازاء المغول الذين كانوا يتفوقون عليهم بسئات ومئات . على أية حال فقد بادروا بالهجوم على أعدائهم ولكنهم سحقوا عن آخرهم الا قليلا منهم استطاعوا أن يفروا الى المدينة ، ليسارع الأهليون عند ذلك ، وقد أخذ منهم الرعب مأخذه ، بارسال وفد من أعيانهم يسألونه الصفح . وصحب هذا الوفد الفاتح المغولى فى دخوله المدينة .

ولفت نظر جنكيز لدى ولوجه فيها المسجد الجامع الفخم ، وكان السامانيون قد بذلوا فيه كثيرا من الأموال ليبدو فى أروع صورة ، فدخله بفرسه ووقف بازاء المنبر . وظنه أول الأمر قصر السلطان . حتى اذا ما قيل له بأنه دار عبادة نزل عن دابته ورقى بضع درجات بالمنبر ثم دعا المغول الذين كانوا يقفون من خلفه الى أن يطعموا خيولهم وكان العلف قد أعد . ولنا أن تتصور كيف تلقفوا الاذن لهم باعمال النهب فى المدينة بمسرة بالغة ، وكيف سقط من بعد ذلك هؤلاء الهمج على مدينة بخارى البائسة . وسحر البابهم ما كانت عليه عاصمة آسيا الوسطى هذه من الترف ، فلم يكتفوا بنهب كل دار وكل قطر بل حملوا معهم كل ما صادفهم من أنواع المتاع فلم تفلت من أيديهم الآثار المقدسة مع قلة قيمتها المادية . كما مزقوا المصاحف واتخذوا من أوراقها فرشاً لدوابهم ، وجعلوا من قطراتها وصناديقها مذاود لخيولهم . وسبق كبار الشيوخ والعلماء البارزون ليقوموا بخدمة الجند فى مجالس الشراب أو ليؤدوا لهم الرقصات ، وفق رسم المغول ، على توقييع الآلات الموسيقية ، وكان من هؤلاء الفقهاء الأجلاء من دفع به كذلك ليسوس البغال .

هذا هو ما وصل اليه من تدوين المؤرخين المسلمين في هذا الشأن .
وقد يكون هناك بعض المبالغة في وصف ما عُد اليه المغول من امتهان
شعور القوم الديني ، الا أنه ما من شك في أن بخارى قد تعرضت لمعاملة
بالغة القسوة ومرة في تجارب مريرة حتى خلال هذا الغزو الأول .

لم يمكث جنكيز خان بالمدينة الا ساعات قليلة ثم خرج الى المصلى
بظاهر السور حيث كان الناس جميعا قد جمعوا له ، فسأل عن أعيانهم
فبرز له من بينهم ثمانون ومائتان فيهم تسعون ومائة من أهل المدينة
وتسعون من الغرباء هم تجار في الغالب . هنالك التفت اليهم وأخذ يندد
في شدة بما يرتكبه السلطان محمد من مظالم ليقول لهم من بعد ذلك :
« اعلموا أنكم قد اقترفتُم كثيرا من الآثام وأن وزرها انما يقع على
أمرائكم ، واذا سألتُموني عن آكون أنا الذي أخاطبكم فاعلموا أني أنا
سوط الله الذي بعثنى اليكم لأنزل بكم عقابه ، وأريد منكم النقرة التي
بأعكم خوارزمشاه اياها فانها لي ومن أصحابي أخذت وهي عندكم (١) »

ولم يفته من بعد ذلك أن يعهد الى حرس نصفه من الأتراك والنصف
الآخر من المغول ليقوم على حراسة أعيان المدينة حتى لا يلحق بهم ضرر
أو أذى . وظلت الأمور تجري على هذا الحال حتى ظهر بالمدينة نفر من
جند السلطان محمد كانوا مختبئين بها ، فأزعج ظهورهم جنكيز وأمر
بالقبض عليهم وتسليمهم له . على أن أهل بخارى كانوا أبعد ما يكون عن
أن يلبوا رغبة ذلك الفاتح ، فلم يستروا عليهم فحسب بل وساندوهم كذلك
في غاراتهم الليلية هي وما كانوا يدبرون من التآمر بالعدو في السر ، حتى
نفد صبر جنكيز آخر الأمر فأمر بإشعال النار في المدينة . ولما كانت أبنية
بخارى أغلبها من الخشب ، لم تمض أيام قليلة حتى تحولت كلها الى رماد .
اللهم الا بعض مساجد وقصور مبنية بالحجارة ظلت قائمة بين خرائبها .
واقبلت هذه المدينة العامرة الى كومة من الأطلال على زرفشان ، ومع هذا
فقد ظلت الحامية بالقلعة يقودها كوكخان تدافع عنها في بسالة جديرة

(١) ابن الأثير ٢٣٠/١٢ (الترجم) .

بالاعجاب . وعند المغول الى استخدام كافة الوسائل الممكنة لاختضاع ملاذ أعدائهم الأخير هذا ، حتى دفعوا بالبخاريين أنفسهم الى تسليق سلالهم الأسوار ، ولكن لم يجدهم ذلك كله فتيلة . ولم تسقط القلعة الا بعد أن امتلأ الخندق المحيط بها بجيف الرجال والدواب . هنالك سيق المدافعون إلى الأبطال الى الموت . وتعرض السكان المسلمون بدورهم الى البلاء بسبب هذه المقاومة الفذة ، فقتل منهم ثلاثون ألفا واسترق من بقى منهم ، خاصتهم وعامتهم على السواء ، الا الطاعنين في السن منهم . وهكذا انتهى حال أهل بخارى الى أحط درجات البؤس والشقاء وفرقوا في الأرض وهم الذين ذاع صيتهم زما طويلا بما كانوا عليه من كلف بالثقافة وشغف بالفنون ، وما شاع عنهم من مكارم الأخلاق . وأفلتت قلة قليلة من السكان من هذا الخراب الشامل . وبلغ واحد من هؤلاء في فراره خراسان ، وحين سأله الناس هناك عما صار اليه أمر مدينته أجابهم عن ذلك بأن أنشد ذلك البيت البليغ من الشعر الفارسي الذي اشتهر من ذلك الوقت :

آمدند وكندند (١) وسوختند

وكشتند وبردند ورفتند

قدموا فدمروا وحرقوا

وقتلوا ونهبوا ثم رحلوا

ويصف ابن الأثير هذا الحال فيقول :

« كان يوما عظيما من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان ، وتفرقوا كل أيدي سبا وتمزقوا كل ممزق ، واقتسموا النساء أيضا ، وأصبحت بخارى خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس ، وارتكبوا

(١) ذكر هامر بورجشال في كتابه عن تاريخ القبيلة الذهبية ص ٨٠ «كندن» بمعنى أن يحفر أو يقطع وبمعنى خندق كذلك .

وهذا صحيح . ولكنه يأتي كذلك بمعنى أن يخرب وأن يهدم وهو المعنى المقصود هنا

من النساء العظيم والناس ينظرون ويكفون ولا يستطيعون أن يدفعوا شيئا مما نزل بهم . فمنهم من لم يرض بذلك فقاتل حتى قتل ، ومن فعل ذلك واختار أن يقتل ولا يرى ما نزل بالمسلمين الامام ركن الدين امام زاده وولده والقاضى صدر الدين خان ، ومن استسلم أخذ أسيرا » (١)

وجاء الدور بعد بخارى على سمرقند أكبر مدن بلاد ما وراء النهر وأعظمها فى عهد الخوارزميين . وكان أمير خوارزم قد ترك عليها ، قبل أن يفر منها حامية قوامها عشرة ومائة ألف مقاتل منهم ستون ألفا من الترك وخمسون ألفا من التاجيك مع عشرين من الفيلة . وكان جنكيز يعلم هذه التفاصيل بالدقة . بل لقد كان فى حسابه حتى قبل أن يغادر أترار أنه قد يخوض حربا شديدة فى سبيل الاستيلاء على حاضرة عدوه السابقة . وعلى هذا فقد رتب خطته على أن تلتقى كل قواته المتفرقة فتتجمع عند سمرقند ، فبدأ على ذلك باخضاع كل المناطق المحيطة بها اخضاعا تاما لي عزل بذلك خصومه الأقوياء فيها ويضعفهم . ولاقت خطته هذه كل نجاح . فقد جد فى السير ومعه أسرى البخاريين ، وكان قد اعتزم أن يستخدمهم فى اجتياح سمرقند . ومن لم يستطع من هؤلاء الأسرى أن يداوم على سيره السريع فسقط على قارعة الطريق من فرط الانهاك كان يقتل لساعته دون رحمة أو شفقة . وحين بلغ ظاهر حاضرة الخوارزميين الفخمة ، وجد جنده من حوله فى كثرة بالغة حتى سير منهم ثلاثين ألفا بقيادة تهبة وسوتناى ليطاردوا السلطان محمدا .

ولم يستطع حصن المدينة أن يصبر على المقاومة أكثر من أيام ثلاثة سقط من بعدها . وكان فى حساب جنكيز أنه لن يخضع له قبل بضع سنين . فقد برزت الحامية المجيدة أول الأمر يقودها القائدان الشجاعان الب خان وشيخ خان برلاس خان فأنزلت بالمغول خسائر كبيرة ، حتى اضطلع جنكيز بنفسه بالقيادة فى اليوم الثالث وهاجم المدينة على رأس جنوده . وسرعان ما نجح المغول فى الاستيلاء على أبوابها . ولقد اندفع

(١) ابن الاثير ٢٣٩/١٢ ، ٢٤٠ (المترجم)

الخورازميون يحاربون فى اليوم الثانى فى بطولة وتحس زائدين حتى شاعت الفرقة بين قادتهم قرب المساء ، اذ قال فريق منهم بالتسليم وأوفدوا فى ذلك فعلا الى جنكيز شيخ الاسلام وبصحبته عدد كبير من الشيوخ يسألونه أن يعفو عنهم ، فى حين ارتد الفريق الآخر الى القلعة وواصلوا القتال فى اليوم التالى .

وعلى أى فقد استطاع المغول أن ينفذوا الى المدينة بطريق بوابة نمازكياه فأخرجوا منها أهلها حتى ينصرفوا الى نهبا دون أن يتعرض لهم أحد . ولم يعف من هذه الغارة الأولى الا شيخ الاسلام وخمسون ألفا من المدنيين ممن شملتهم حماية الغازى المغولى . واستمرت القلعة على دفاعها تستنفذ جهود المحاصرين ، حتى اذا ما لاح لألب خان اقتراب المعركة من نهايتها برز فى جراحة مع ما يقرب من ألف من أبطاله فشقوا طريقهم وسط صفوف المغول . ولم يستسلم من الحامية الا القنغليون وفريق من الترك كان المغول قد وعدوهم بالعفو عنهم ان هم فعلوا ذلك بوصفهم من بنى جلدتهم .

وأراد المغول أن يؤكدوا لهم ما وعدوهم به فحلقوا لهم رؤوسهم على رسمهم . حتى اذا ما أقبل المساء قتلوا منهم ثلاثين ألفا وفيهم أمراؤهم أولوق باريشمس وبغان وسرسك خان مع عشرين قائدا آخرين . ووقع ذلك كله فى ليلة واحدة . وسويت مدينة سمرقند العامرة وحصنها كذلك بالأرض ، كما جرد الأهليون بدورهم من كل ما يملكون ليلاقوا من بعد ذلك نفس المصير الذى لاقاه اخوانهم البخاريون من قبل . ومن استطاع منهم أن يهرب أعيد الى المدينة من جديد على وعود كاذبة . وأرغم القادرون منهم على حمل السلاح على الانضمام الى الجيش المغولى قسرا . وسير مهرة البستانيين من أهلها الى الشرق الأقصى ليزينوا عاصمة المغول الصينيين المستقبلية بمتنزهاة على نمط مغانى سمرقند .

أما مهرة الصناع ، لا سيما نساجو الحرير والقطن منهم ، فقد ألحقوا بخدمة زوجات جنكيز وأقربائه ، بوصفهم أرقاء نافعين ، أو سيروا مع الخان المغولى نفسه الى خراسان . ومنهم من أرسل كذلك الى جفتاي

وأوكتاي ، ولدى جنكيز ، وكانا اذ ذاك فى طريقهما الى خوارزم . هذا هو ما صار اليه أمر سمرقند عام ٦١٨/١٢٢١ وهى التى وصفها الجغرافيون العرب بأنها كانت أعظم بقاع الأرض تألقا وازدهارا .

هكذا خضعت بلاد ما وراء النهر كلها لجنكيز الا مواضع قليلة عند الجنوب من سمرقند خرج بنفسه لاختلالها بعد أن أراح جنده بعض الوقت وأطلق خيله لترعى فى مراعى وادى زرفشان الغنية بعد سيرها الطويل المضنى . فقصدا أولا نخشب (قارشى) ففتحت له أبوابها فاتخذها مركزا لقيادته فى الصيف ، ثم تقدم منها الى ترمذ حيث أقيم على جيحون المعبر للمسافرين صوب الجنوب الى بلخ والى الهند . وفى هذا المكان كانت تقوم تحصينات قوية تركز على نهر جيحون اعتمد عليها أهله فى مقاومة عدوهم وان لم يستطيعوا بطبيعة الحال أن يصمدوا أمام أولئك المغول الذين أخذ منهم الزهو والحناس مأخذه بما أحرزوه من نصر وما أخضعوه من أكثر من حصن واحد حصين (١) .

وحين اجتاحت المدينة وأحصى أهلها جميعا ، فرقوا من بعد ذلك بين الجند ليتولوا قتلهم جميعا . ويروى الجوينى أن سيدة توسلت الى الجندى الموكل بقتلها أن يطلق سراحها نظير جوهرة كبيرة كانت قد ابتلعتها . هنالك عمد المغولى الى شق جوفها بدلا من اطلاق سراحها . وحين بان له صدق قولها صدرت الأوامر على الفور بشق أجواف الموتى بحثا عما عساه يكون بها من الجواهر .

ولم يبق بعد سقوط ترمذ الا مناطق قنغرات وسامان (٢) فاجتاحها المغول بالحديد والنار ، لينطلقوا من بعد ذلك الى البلاد التى تقع عند مشارف جيحون وسيحون ، وكانت تعتبر اذ ذاك الثغور الأمامية التى

(١) حفظ التاريخ لنا هذه الاسماء فى بيان الضحايا الذى حواه تقرير جنكيز عن انتصاراته . وهو الذى بعث به الى ركن الدين ابن السلطان محمد ونائبه على العراق ليخيفه بتفصيل ما أحرزه الجيش المغولى من الانتصارات

(٢) تضم هذه منطقة شهرسبز او كوش وكان بها حصن سام أحد مراكز ثورة المقتنع .

كانت تدفع عن حضارة الاسلام فى آسيا غارات البرابرة . وقد تعرضت هذه بدورها للدمار الكامل على أيدي هؤلاء الغزاة . وبهذا أصبح هذا العدو البربرى المتعصب المتعطش للدماء قادرا على أن يمضى فى طريق التخریب الذى كان يضطلع به وما من أحد يجسر على اعتراض طريقه . وليس من موضوعنا أن نتحدث عما ارتكبه المغول من الجرائم البشعة فى بلخ ، كعبة الزرداشتين القديمة، (وكان بها مائتان وألف مسجد ، وكانت تدعى قبة الاسلام) وما ركنوا اليه من العنف فى اخضاع طالقان وهرات ، مدينة مرور الرود التجارية الكبرى ، ومرو وما كان بها من مدارس جميلة البناء ، وما فعلوه بنيسابور ، وما ارتكبوه من جرائم عديدة بمدينة الرى الضخمة وفى شيراز وأصفهان ، فهذا كله لا يتصل بتاريخ بخارى الخاص . ولهذا فنحن لا نتعرض له ونصرف عنه لنرى كيف انتهى أمر الأمراء الخوارزميين ، ونستعرض من بعد ذلك ما نجم عن ظهور جنكيز وأهم أسباب نجاحه .

كان السلطان قطب الدين محمد قد انطلق عائدا الى خراسان ، وذلك عقب أن أصدر أوامره بمقتل التجار الذين كانوا يستمتعون بحماية المغول لهم . وأسكره ما حققه فى حكمه الطويل من النجاح فانصرف الى الملاذ نشطا فى غير تبصر بالعواقب ، وأخذ يمضى أوقاته فى اللهو واقامة المآذب ، الى أن بلغ بخارى فى الثامن من شعبان عام ١٢١٨/٦١٢ فقام مضاربه بين المروج الخضراء ليستمتع الاستمتاع كله بهذا الفصل من السنة .

لا تدع للآلام الى قلبك سيلا .
فأنت لابد مغادر الدنيا كرها عن قريب .
فاستمتع بالربيع وبهائه حتى ينقضى
فمن ترابك سوف تنمو الحشائش آخر المطاف (١) .
ورحل من بخارى الى سمرقند حيث بلغته أولى الأنباء عن تحركات

(١) انظر هامر - بورجشتال : صور اعظماء حكام المسلمين
Portraits of Great Moslem Rulers vol VI P, 180.

عدوه ، أى بتقدم الفرق المغولية التى كان يقودها جوجى فى زحفها من أترار الى جند .

وفيما كان فى طريقه الى جند ليقف على جلية الأمر بنفسه علم أن هذا الجيش يسير فى أثره جنكيز نفسه فى قوة كبيرة . ولم يشنه ذلك عن عزمه على مهاجمة الجيش الأول من فوره . وسرعان ما تكشف له ما كان يشاع عن شجاعة عدوه التى لا تقاوم . وبرغم تفوقه على أعدائه فى العدد فانه لم يفلت من الهزيمة الساحقة الا بفضل بطولته ابنه جلال الدين (١) ، فانسحب من بعد ذلك الى سمرقند (٢) هنالك انقلبت ثقته الجارفة السابقة بنفسه الى خور وهلع لما أشاعه هذا الخطر الداهم فى نفسه من الرعب والاضطراب ، فانطلق هاربا عبر جيحون الى خراسان . وأراد أن يستجم أياما قليلة فى مضاربه بوادى نيسابور الحبيب الى قلبه ويستمتع مودعا بالمرات والمتع التى ظل يكلف بها لسوء حظه حتى وقت المحنة . ولكنه ما كاد يسمع باقتراب القائدين المغوليين جبه وسوتتاى من مكانه حتى غادره من فوره . وبرغم مطاردتهما له فى عنف فقد استطاع أن يفر الى آبسكون التى تقع قريبا من استراباد الحالية وذلك بطريق الرى وجبال مازندران الوعرة . ومن هناك سار الى جزيرة فى بحر الخزر (٣) (يحتمل أن تكون هى جزيرة أوغرتشالى) . ولئن كان قد أفلت من انتقام عدوه

(١) وياقب بمنكوبردى أى مبعوث السماء . وقد أخطأ المستشرقون فى تسميته منكبرى ، وعلى هذا قال هامر برجشتال بأن معناه « أفطس الأنف » وذلك نقلا عن معجم جفتائى لفصل الله خان طبع بالهند فالقطع الأول منه يفسره الكتاب نفسه على أنه مرض يصيب الأنف ومنخار الخيل بعبارة أدق . وعلى هذا ينتهى لقب هذا الأمير الخوارزمى المشهور الى معنى غير شاعرى هو « من يسيل المخاط من أنفه » وذلك على ماذهب اليه أسلافى . (٢) يقال انه ركب ذات يوم الى خندق سمرقند فانتقد طريقة العمل فيه وقال للعمال « لو أن التتار قذفوا فيه بسياطهم فحسب لردموه بها » هامر : عظماء حكام المسلمين ص ١٨٠

(٣) يذكر الكثيرون أن الجزيرة التى لجأ السلطان محمد اليها تقع قرب الشاطئ الأيسر لبحر الخزر ولكنى أرجح فى هذا مخطوط مسالك الممالك الجغرافى القديم . ووفق الخريطة الملحقه به فان آبسكون تقع على مقربه من استراباد الحالية وبهذا تكون الجزيرة المعنية هى أغوردجالى أو جيركن الحالية

البربرى الا أن الحزن كان قد ركب له لما أصاب أسرته اذ كان أفرادها جميعا قد وقعوا فى أيدي المغول .

ومات فى الثانى والعشرين من ذى القعدة عام ٦١٧/١٢٢٧ فقيرا شريدا حتى لم يجدوا ما يكفونوه به الا ثوبه الذى كان يرتديه . وكان قد اختار افلاق شاه وريثا له وكان يقوم اذ ذاك على حكومة خوارزم ، ثم ما لبث أن عدل عن ذلك وجعل ولاية العهد من بعده لابنه جلال الدين . ووجد جلال الدين أنه ليس له ما يرثه ، فيما عدا الصولجان ، الا السيف . فحمله يدافع به عن نفسه فى مقاومة باسلة . فارتد عن خوارزم وهراة وغزنة ، وجبى له قوات جديدة من بعد ذلك استطاع بها أن يوقع بالمغول خسائر جسيمة فى موقعتين موفقتين ، فأثار بذلك من قلق جنكيز وسخطه وكان اذ ذاك مشغولا بحصار طالقان . هنالك اندفع الزعيم المغولى الى غزنة بطريق باميان وكابل فى عجلة زائدة حتى لم يتح لجنوده فسحة من الوقت ليطبخوا طعامهم .

وبرغم جده فى السير على هذه الصورة فقد بلغ المكان لينبا عند ذلك بأن جلال الدين قد غادره الى ضفاف السند لأربعة عشر يوما خلت . ومن ثم تابع المغول سيرهم عجلين حتى أدركوا الأمير الشريد فحملوا عليه فى عنف بالغ . هنالك دافع جلال الدين عن نفسه بشجاعته المعهودة فانطلق فى ضراوة الأسد ينقض تارة على جناح عدوه الأيمن وطورا على جناحه الأيسر أو على قلب جيشه حتى تمكنوا منه آخر الأمر فحاصروه فى ركن من أركان الميدان . وقتل من تحته فرسان فوثب على ثالث قفز به فى ماء السند من علو يزيد على ثلاثين قدما وبلغ الشاطئ الآخر من النهر فى سلام . وأراد المغول أن ينطلقوا وراءه بعد ما رأوا فعلته الجريئة هذه ، ولكن جنكيز منعهم من ذلك . وبلغ به العجب والاعجاب بشجاعة عدوه مبلغه حتى التفت الى أولاده وقال لهم « ان أبا مثل أبيه (أى السلطان محمد ، وكان جنكيز يكن له قدرا كبيرا من الاعجاب) لجدير بمثل هذا الابن » . وغلب أتباع جلال الدين على أمرهم . وجىء بالغطاسين فاستخرجوا متاع السلطان من الماء وكان قد قذف به فى السند ، كما

جبيء بكل أفراد أسرته أمام الغازي القاسى الذى أمر بكل الذكور من بينهم فقتلوا حتى الأطفال الذكور قتلوا فى حجور أمهاتهم . وهكذا انتهى فى عام ١٢٢١/٦١٨ حكم آخر الخوارزميين (١) . وبه ختم عهد أسرة حكمت ما يقرب من مائة وأربعين عاما فى عظمة وقوة تضارع ما كان عليه السلاجقة . وعاد جنكيز من بعد ذلك الى بلاد ما وراء النهر ، ثم اتجه من هناك الى موطنه بعد اقامة قصيرة بسمرقند ، فعقد القورلتاي (٢) عام ١٢٢٤/٦٢١ وفيه قسم مملكته الجبارة بين أبنائه على الوجه الآتى :

صارت الصين ومنغوليا من نصيب أوكتاي ، وهو الذى رسمه أبوه خليفة له . فى حين كان من نصيب جغتاي قسم من منازل الأويغور حتى خوارزم ، بسا فى ذلك تركستان وبلاد ما وراء النهر . أما جوجى فكان قد مات فى ذلك الوقت ، وبذلك صار باتو سيذا على خوارزم وصحراء القبچاق عند ممر دربند ، فى حين نصب تولى على خراسان وبلاد فارس والهند . وبرغم بلوغ جنكيز السبعين من عمره فقد خرج مرة أخرى لحرب قبيلة تنغوت ، وكانت قد ثارت عليه ، ولكنه مات أثناء هذه الحملة عام ١٢٢٦/٦٢٤ بعد أن ترك من ورائه بكل آسيا آثار النار والحديد التى أشاع بها ، بشغفه بالحرب ، الدمار الشامل فى كل القارة كلها . وتمثلت أبشع صورها فى بلاد ما وراء النهر حيث قضى على حضارة أجيال ، وصار أهلها الى همجية موغلة أنسوا معها ماضيهم السابق وضاع بها كل أمل لهم فى المستقبل . ولم يتعرض أى جزء من أجزاء آسيا كلها لما تعرضت له الأقاليم الواقعة على جيحون وسيحون من القسوة والعنف بسبب غارات جموع المغول عليها . فحروب أبناء الصحراء المتوحشين هؤلاء الأولى كانت حروبا مدمرة ، ولا سيما ما كان منها عند خجندة وبخارى

(١) أعنى بذلك نهاية حكم الخوارزميين ببلاد ما وراء النهر . ذلك ان جلال الدين كانت له أيام زاهرة بايران ، فقد فتح كل الجزء الجنوبي من فارس مع آذربيجان وانتزع اغلب سوريا من السلاجقة . ولكن شجاعته تضاءلت آخر ايامه على غرار ما حدث لآبيه من قبل ، وانصرف الى الملذات حتى سقط تحت رماح المغول الذين كان قد سيرهم منكوخان لفزو ايران بقيادة جرماغوم .

(٢) هو مجلس شورى المغول (المترجم)

وسمرقند . اذ كانت هذه هى أول مواقع يتصلون فيها بطرق التجارة والرخاء الزراعى التى أثارت جشعهم فتسابقوا يشبعون غريزة السلب والنهب التى كانوا عليها . وكانت بلاد ما وراء النهر ، الى جانب ذلك كله ، هى المنفذ الذى تدفقت منه سيول المغول ، فيما بعد صوب الفولجا والفرات والسند والخليج الفارسى . فلا عجب اذن أن نرى ، فى مدى خمس سنوات من هذه الحروب ، طرق آسيا العظيمة ، التى كانت بواسطتها تنقل حاصلات الصين والهند الى آسيا الغربية وأوربا ، وقد هجرت ، وأن الواحات التى اشتهرت بخصبها قد باتت جرداء مهملة أو نرى آخر الأمر أن تجارة الأسلحة والجواهر والحرير ونقوش الميناء ، التى كان صيتها يذيع فى العالم الاسلامى ، قد انهارت الى الأبد . فالبلدان خيم الخراب عليهما ، والفلاحون كانوا قد قتلوا جميعا أو أرغموا على الانضمام الى الجيش المغولى قسرا ، والصناع قد سيقوا بالألوف ليقوموا على تزيين موطن الغازى وتجميله بالشرق الأقصى . ولم يكن ما أصاب العلم فى هذا الدمار الذى نزل بآسيا الوسطى دون ذلك كله . وهناك مثل عربى من أمثال القرون الوسطى يقول ان العلم شجرة جذورها بمكة ولكن ثمرها يؤتى بخراسان . وقياس ذلك على حاضر هذه البلاد اليوم قد يثير منا العجب ، ولكن علينا ألا ننسى أن الفترة التى بلغت فيها الحضارة الاسلامية الآسيوية أوجها من الازدهار ، وكان ذلك بالضبط فى نفس القرن الذى وقع فيه الغزو المغولى ، كان لبلاد ما وراء النهر فيها دور ملحوظ . فسمرقند وبخارى وجرجان طالما نافست نيسابور (أهم مراكز الثقافة الايرانية) ومرو (التي طارت شهرة مدارسها فى الآفاق) ، منافسة مجيدة فى هذا المضمار ، وفى أوقات كثيرة كان لها القدح المعلى فى علوم البلاغة وفى النحو والشعر والطب .

لقد قضى الغزو المغولى بكل أسف على الحياة الثقافية فى آسيا الوسطى . وبرغم أن بلاد ايران والغرب استطاعت بالتدريج أن تفيق مما نزل بها من المصائب ، بل وأن تعاود كذلك نهضتها الثقافية من جديد فى ظل الجنكيزيين ، الا أن سمرقند وبخارى لم يتيسر لهما أبدا أن تستعيد سابق نشاطهما العقلى ، وصارت الحياة الفكرية فيهما وقفا على الاشتغال

بالفقه والتصوف والبدع . ومرد ذلك بالدرجة الأولى الى أن المغول كانوا قد قضوا على السكان الايرانيين الأصليين في هذه البلدان ، فكان في صنيعهم هذا القضاء على رواد الحضارة والتجارة والصناعة ، في حين أطلق العنان للترك بلا رقيب أو حسيب . هذا وقد لبثت اللغة القومية لعهد السلاجقة فارسية خالصة في بعض البلاد التركية الخالصة مثل خيوة الحالية وخوقند . وقد يكون برايرة الترك الذين قدموا من الصحراء الى هذه المدن ، قد أفلحوا بعض الوقت أن يزلزلوا بالتدريج من استمساك السكان بقوميتهم . على أنه من المؤكد دون شبهة أن الغزو المغولي قد عجل في القضاء على هذه القومية الى أبعد حد ، وكان هو كذلك العامل الأكبر في اندثار النفوذ الايراني ببلاد ما وراء النهر ، وهو أمر ينظر اليه على أنه أخطر ما أنزل جنكيز بأقاليم جيحون من الأضرار .

وما بلغه ذلك الفاتح المغولي من النجاح انما يرد بلا مرأى الى ما كان له هو نفسه من القدرات ، وما كان عليه رهطه من نظام اجتماعي ، أكثر مما يرد الى ما كانت عليه الأحوال السياسية واختلاف الأجناس اذ ذاك بآسيا الاسلامية بعامة وبلاد ما وراء النهر بخاصة وقتئذ . أما الأمراء الأول ، فبرغم ما اتهم به المؤرخون المسلمون المعاصرون ، اذ ذاك ، جنكيز من مبالغته في استعمال القسوة وكلفه بالتخريب والتدمير ، فما لا ينكر أن هذا الغازي المغولي لم تكن له صفات الجندي الكبير فحسب ، بل وكانت له كذلك مواهب الفاتح والمشرع بأدق معاني هذه الكلمة . فبتشريعه الياسا (مجموعة القوانين) استطاع أن يقيم له نظاما حربيا مكيئا لم يكن له نظير بآسيا الاسلامية حينذاك ، وأن يقضى به على الاضطراب الذي كان يسود حكومة الأمراء الخوارزميين ، وينادي بقيام المساواة بين الناس جميعا ، بصرف النظر عن اختلاف عقائدهم وطبقاتهم ، الأمر الذي أكسبه محبة الناس أكثر مما رأى المؤرخون أن يشيروا اليه . ويقول الجويني ان جنكيز قد جعل فدية المسلم أربعين مثقال من الذهب وفدية الصيني ثمن حمار واحد فقط ، في حين تقول مصادر أخرى بعكس ذلك تماما ، فتؤكد أنه وخلفاءه قد جروا على عدم التفرقة اطلاقا بين المسيحيين والمسلمين والبوذيين . وقد اختار جنكيز

كثيرا من المسلمين حكاما له ببلاد ما وراء النهر وخراسان ، وعهد الى كثير من البوذيين بأعمال ديوانه ، ونعلم كذلك أن حفيده قوبلاى قد بعث بالنصرانى الأجنبى ، ماركوبولو ، فى سفارة خاصة له من داخل الصين الى كرمان .

أما عن أحوال المغول الاجتماعية فإن قارىء التواريخ الشرقية سوف يصدم بتكرار وصف المغول بأنهم هجج أجلاف ورجال حرب «هم قوم يغلب عليهم البكاء فى أعيادهم ويغمرهم السرور فى حروبهم . يطعمون قادتهم طاعة عمياء ، ولا يضجرهم البرد أو الجوع ، ولا يعرفون الراحة أو اللهو ، بلو ليس لهم من لسانهم من الكلمات ما يكفى ليعبروا به عما يريدون . وهم يعدون سلاحهم بأيديهم ويحملونه ، تجمعهم نفس واحدة وروح واحدة ، لا يهتنون بالطعام أو الثياب ، ولا تعرف الرحمة طريقها الى قلوبهم فلا يتورعون عن انتزاع الطفل ، الذى لم يولد بعد ، من بطن أمه . ويعبرون المياه العميقة بمساعدة مئان يملأونها بالهواء أو يسكون بعارف خيولهم وذبولها وهى تسبح .. الخ .. » . ولئن كان لنا أن نفترض بأن مجريات الأحوال ببلاد ما وراء النهر نفسها لم تكن تبعد كثيرا عن تلك التفاصيل التى سبق ذكرها ، الا أنه يبدو من المحقق أن سكان المدن الايرانيين ومعهم رجال الحرب من أهل هذه البلاد ، لم يكونوا على ضعف شديد ورخاوة بالقياس الى المغول فحسب بل ولا قبل لهم كذلك بمقاومتهم على الاطلاق . يضاف الى ذلك أن الترك ، وهم الذين لم يكونوا أبدا على استعداد للائتلاف مع الايرانيين فى اخلاص ، وكانوا أهم جند السلطان محمد كذلك ، كانوا يضيّقون باستبداد آخر الخوارزميين بهم من ناحية ، فضلا عما كانوا عليه من ميل فطرى الى السلب والنهب ، من ناحية ثانية ، مع تأصل مشاعر العشيرة فى نفوسهم من ناحية ثالثة . وهذه العوامل كلها مجتمعة قد استحثتهم فى مواضع مختلفة للانضمام الى چنكيز ، فانضموا الى صفوف العدو الغازى حلفاء مخلصين بدلا من أن يحاربوه . فلا عجب اذن ، والحالة هذه ، أن كانت اقتصارات الفاتح العظيم باهرة حاسمة فى اقليم بلاد ما وراء النهر الذى كان يسوده الانقسامات والنقتن .

الفصل التاسع الجنكيزيون

٦٢٤ (١٢٢٦) - ٧٦٥ (١٣٦٣)

ان الصورة التى يضعها التاريخ تحت نظر القارىء للقرنين اللذين حكم فيهما الجنكيزيون بلاد ما وراء النهر لتصور منظرا ملطخا بالدماء يشير الرعب فى النفوس . فهى تاريخ فوضى شاملة عاصفة وافرط فى الظلم والبغى بلا حدود ، وقتل وتدمير على التوالى ، برغم أن ما بقى لدينا من تاريخ هذه الفظائع قليل (١) ، وذلك لعدم وجود مدونات بين أيدينا لتاريخ بلاد ما وراء النهر (٢) . اذ ذاك . فلا معدى لنا والحالة هذه من أن نقنع بشأن المعلومات الخاصة بهذه الفترة بما يمكن أن نستخلصه من مدونات المغول فى الصين وفارس .

فى عهد جنكيز فصلت بخارى وسمرقند ، هاتين « الدرتين الغاليتين » فى العالم الاسلامى الغربى ، عن جيرانهما فى الجنوب العربى ، وهما اللذان يرتبطان معهم برابطة الدم والثقافة والعقيدة ، وألحقا قسرا

(١) يقول آبل ريزومات بحق فى كتابه « ملاحظات على تاريخ المغول الشرقيين لرتزن .
Abel Resumat "Observations sur l'Histoire de Mongoles. Orientaux de Sannangsetzen" Paris Imprim. roy. 1852 p. 12

لم تصل أيدينا بعد الى ما قد نأمل معه معرفة شيء عن تاريخ أسرة جفتاي وابناء جوجى ، ذلك ان مايروى عنهم ، هو ليس مما كتبه مؤرخون يوثق بهم وما وصلنا من الأحاديث عنهم مضطرب مشوش .

(٢) يذكر هامر - يورجستال من بين مراجع كتابه عن تاريخ القبيلة الذهبية ، كتابا فارسيا باسم تاريخ تركستان ، ولكنى لم أستطع أن أعثر عليه أبدا .

بذلك القسم من الدولة المغولية الذى اشتهر باسم « خانية چغتای »
والذى قال عنه البعض انه كان يضم كل مناطق الأويغور ، فى حين قال
فريق آخر عنه انه كان يضم الاقليم الواقع بين جبال التاي وآموى على
جيحون ويحوى خليطا من السكان تجمعهم الهمجية فى صعيد واحد .
وكان چغتای ، ثانى أبناء چنكيز وهو الذى حكمت أسرته بلاد ما وراء
النهر حتى ظهور تيمورلنك ، فيما عدا فترة قصيرة ، يعد أقدر فقيه فى
التشريعات التى وضعها أبوه . وأبدى هذا الأمير المغولى ميله الى أن
يضمّد جراح هذا الاقليم التى كانت تقطر دما ، فنظم البريد بين هذه
الولاية التى ألحقت بملكه ومصطاده فى المالتى حتى يقف بنفسه على كل
شأن من شئون حكومتها . وبرغم كلفه بالشراب، وهى العادة التى تفشت
فى الغالب بين خلفاء جنكيز ، يقال انه كان يطلع بنفسه على كل أمر صغير
أو كبير من أمور دولته . وكان عادلا مستقيما فى حكمه (١) ، التزم أساسا
قيام المساواة التامة بين أصحاب العقائد المختلفة والعروق المتباينة فى
دولته ، ونظر اليهم جميعا نظرة واحدة ، فعهد بحكومة بلاد ما وراء النهر
الى مسلم هو مسعود بك وهو ابن محمود يلوّاج الذى اضطلع بدوره
بمنصب شبيه بذلك فى الصين . وربط چغتای كذلك ضريبة الرعوس على
سبع فئات (٢) وفق ثراء كل شخص ، وأعفى منها رجال الدين على اختلاف

(١) ما يقوله اغلب العلماء الأوربيين ، وقد تبعتهم بدورى فى ذلك فى
بحثى فى الدراسات الجغتائية Tchaghataian Studies بان سكان
آسيا الوسطى أطلقوا على لهجتهم القومية اسم «چغتای» لقرط جهم واجلالهم
لابن جنكيز، يبدو انه خطأ. ففى المحل الاول ان أهل آسيا الوسطى انفسهم
لم يطلقوا اسم چغتای لاعلى بلادهم ولا على لغتهم ، وانما كان ذلك من صنع
الفرس الذين كانوا يسكنون على شاطئ سيحون اى بايران . اما سكان بلاد
چغتای انفسهم فكانوا يطلقون على بلادهم اسم تركستان ، وعلى لغتهم
« التركية » ثم ان چغتای كان مكروها من المسلمين ٠٠ باستمساكه الشديد
بالبياصا وتعصبه للبوذية ، ففى عصره حرم قتل الحيوانات المستأنسة
والاستحمام فى الماء الجارى نهارا وجعل القتل عقوبة من يقدم على ذلك ،
وقد شق ذلك على المسلمين اذ كان يعوقهم عن اقامة شعائهم .

(٢) تبعت فى ذلك قول هامر . أما الجوينى فيقول ان محمود يلوّاج
ربطها ببلاد ماوراء النهر على عشر فئات فى حين يقول دوهسون D'ohsson
بانها كانت على خمس عشرة فئة .

عقائدهم (١) . وأخذ الفلاحون والصناع يعودون بالتدريج الى مزاوله
حرفهم وكانوا من قبل قد عمدوا الى الاختفاء هربا من أهوال الحرب .
ولئن كان من الصعب أن نجزم بأن جهاز المغول ، من عمال الدولة ، في
سيطرته على مختلف البلدان قد روعى في اختياره ما يكفل استعادة الثقة
الى نفوس الناس ، الا أننا نستطيع أن نقول ان الأحوال ما لبثت ببخارى
أن عادت الى سيرها الطبيعي على كل حال .

وأول حكام المغول فى بخارى كان بغابوشا ، وأولهم بسمرقند ، كان
جنج - سان تايغو . ويقال ان خرائب بخارى سرعان ما حل محلها منشآت
جديدة ، بل لم يأت عام ١٢٣٤/٦٣٢ ، ولما يمض خمسة عشر عاما على
تخريب المكان ، حتى كانت المدرستان اللتان أقامهما مسعود بك وسرقوني
بك تزدهمان بألوف الطلبة يدرسون فيهما مختلف صنوف المعرفة . وكان
مسعود بك هذا موضع ثقة چغتاي ، وكان ، على اسلامه ، مخلصا للمغول
بدوره كل الاخلاص . وكان له وزير يدعى هجير . ولا شك أن حكومته
كانت تضمر الخير كله لبلاد ما وراء النهر ، وان لم تفد من ذلك شيئا
بالفعل . وكانت أيام خلفائه كلها حروب متواصلة . أما عهده هو فكان عهد
سلام متصل لولا ما اعترضه من فتنة اضطلع بها دعى دينى تعرض لسيرته
فى شىء من التفصيل .

فى عام ١٢٣٢/٦٣٠ ظهر فجأة بقرية تاراب ، على مسيرة ثلاثة فراسخ
من بخارى صانع غرايل يدعى محمود (٢) عرف بضعف الادراك والبلاهة
فادعى أن الجان والأرواح توحى اليه ، وأنه ذو قوة علوية خارقة .
ويقول الجوينى فى هذا ان النساء كن يشتغلن بالسحر بتركستان وبلاد ما

(١) قيل ان اليهود قد استثنوا من هذا الاعفاء . ويبدو أن هذا القول
هو من وضع المؤرخين المسلمين الذين كانوا يكون لليهود كراهية شديدة .
اذ يبدو بجلاء على الدوام أن حكام المغول بفارس والصين التزموا قيام المساواة
التامة فى المسائل الدينية .

(٢) يشتهر فى كتب التاريخ كذلك باسم محمود التارابى - حبيب
السير لخواندمير ثالث - تهران ١٣٣٣ شمسى صفحات ٧٩، ٧٨ (المترجم)

وراء النهر منذ زمن موغل في القدم ، فكانت الساحرات يدعين علاج المرضى ويمارسن الرقية والتعاويذ بدعوى أنها تطرد الأمراض . وظهر محمود كواحد من السحرة ، فأفضى بسره بادىء الأمر الى أخته التي انطلقت بدورها تذيع على الملأ أمر قوته حتى كان الناس يحصلون اليه زرافات من أماكن بعيدة كثيرة . ويقول مصدرنا انه رد البصر الى الأعلى بأن نفخ التراب في عينيه . وما لبثت شهرته أن طارت من تاراب حتى بلغت العاصمة ، وزاد من ذبوع شهرته أن قام أحد الشيوخ ويدعى شمس الدين ، وكان له قدر من الاعتبار ، فقال ان أباه (وكان من العلماء المشهورين) قد ترك ورقة فيها أن المهدي المنتظر سوف يظهر في تاراب وقد زاد ذلك في وهم هذا الدعي زيادة كبيرة . وسرعان ما وجد صانع الغرايل المتعصب هذا نفسه وقد أصبح على رأس حزب كبير ليس عليه الا أن يأمره فيثور في وجه المغول . وأقلقت هذه الحركة الروحية بال حاكم بخارى وغيره من عمال الدولة ، فبعثوا يستشيرون في ذلك مسعود بك اذ ذاك بخجندة ، وعمدوا في الوقت نفسه الى دعوة هذا المتنبي للقدوم الى بخارى ، وحرصوا في دعوتهم هذه على أن يتلقوه حتى قالوا له ان السكان مشوقون لرؤيته والتبرك به . وكانت خطتهم أن يسقطوا عليه في بعض الطريق حيث يكون بمعزل عن رهطه ويقتلوه . ولكنهم لم يكادوا يبلغون المكان المرسوم حتى كان محمود قد وقف على نواياهم في الغالب ، فاستدار الى من كانوا قد ندبوا لمرافقته منهم وواجههم في ثبات بما دبروه له وهددهم بأن يصيبهم بالعصى ان هم حاولوا التعرض له بسوء .

ولا يصعب ادراك مدى تأثير سلوك المتنبي هذا على المغول ، وهم ممن يعتقدون في الخرافات الدينية ، فكان أن استقبلوه ببخارى فعلا استقبالا حافلا وأنزلوه بقصر السلطان سنجر حيث هرع الناس أفواجا ليتطلعوا اليه . وبلغ من فرط ولاء الناس وخضوعهم له أن أخرجوا له ألسنتهم وعرضوا عليه أن يجتثها من منبتها اذا يشاء . وتفاقم خطر هذا الدعي حتى هب الشيوخ يستحثون المغول على الخلاص منه . ولم ييسر الزحام حول مقامه للقوات أن تصل اليه ، فتمكن من الهرب الى تل قريب ، وقد أشيع

عنه أنه طار فى الهواء الى هناك . ولا تعجب لصذور مثل هذا القول ، فان الانسان حين يتمكن منه مثل هذا الوهم ويتعصب له تراه على استعداد كامل لتصديق كل شىء من هذا الضرب . هنالك أصدر هذا الدعى فى المساء أوامره الى أتباعه بأن يحملوا أسلحتهم ، فقد حان الحين لقتل الكفار . وهكذا وجد نفسه يدخل المدينة من جديد على رأس حشد من أشياعه المتعصبين له كنبى وحاكم معا . فجعل من شمس الدين محمود الذى أشرنا اليه من قبل ، صدرجهان ، أى شيخا للإسلام ، وأباح للناس نهب الأغنياء وحرصهم على ذلك . وأخذ يؤكد لأتباعه فى مبالغة عظيمة ما هو عليه من قوة وعظمة ، وكان هؤلاء يطيعونه طاعة عمياء ، حتى قال لهم « ان جيشى جند خفى لا يرى ، وهو يربط فى الهواء على الدوام.. انظروا الى أولئك الرجال فى الخضار وهؤلاء فى البياض ، انهم ليفدون الى بمجرد اشارة منى » وحين أخبر أحد الحاضرين بأنه قد شاهدتهم فعلا انطلق الجميع عند ذلك يؤمنون على قوله . وادعى هذا المتنبي كذلك أن الأسلحة تصله عن طريق الهواء ، وان كان قد عمد فى الوقت نفسه الى الاستيلاء بالقوة على بضائع لبعض تجار من شيراز كانوا قد دخلوا المدينة ومعهم أربعة حمير محملة بشفرات السيوف . كما أمر يوم الجمعة أن تقام الصلاة وتقرأ الخطبة فيها باسمه ، وصادر فى عنف بالغ أملاك الأثرياء واختص نفسه بأكبر نصيب منها . وكان يقضى وقته فى المجون مع أجمل النساء ، وكانت داره تغص بهن . وما غدا أعيان بخارى ، الذين كانوا قد فروا منها ، أن قدموا الى كرمينية فانضم اليهم بها فرقة من جند المغول وزحفوا جميعا الى بخارى . وخرج اليهم محمود بدوره ومعه غلامه السابق فى صناعة الغرايل ، وكان كلاهما لا يحمل سلاحا ، فسارا على رأس جموع المتعصبين من أشياعهما ليظهرا للناس ما هما عليه من القداسة والعصمة . وحين أوشتك الهجوم عليهم أن يبدأ هبت عاصفة لفت هذا المتنبي وشيعته بسحابة من التراب حجبتهم جميعا عن أنظار أعدائهم . وكان فى وقوع هذا الحادث الكفاية ليرتد المغول على أعقابهم ، وهم الذين كان لهم بالخرافات الدينية اعتقاد قوى ، لينطلق البخاريون عند ذلك فى أثرهم ويتمكنوا من قتل عدد عظيم منهم . وحين عاد هؤلاء على أثر انتصارهم

هذا وجدوا الميدان قد خلا من نبيهم اذ كان قد هلك فى القتال . واتخذ اخوته مكانه من بعده ، ولكن زعامتهم لم تدم الا اسبوعا واحدا . فقد ظهر القائدان المغوليان ايلدر نويان وچنكين قورجى من جديد ومعهما قوة كبيرة أرغما بها هؤلاء المتعصين على الفرار فى أول لقاء . وأراد هؤلاء المغول الحاقون أن يصبوا جام نقتهم على بخارى ، للمرة الثانية ، لولا أن نجح مسعود فى أن يمسكهم عن ذلك . فقد ألح عليهم أن يرجئوا هذا الأمر حتى يستأذن فى ذلك الخان الأعظم . وبتوسطه هذا قدر لبخارى ان تنجو من الدمار هذه المرة .

كان هذا هو الحادث الوحيد الذى قطع على بلاد ما وراء النهر حبل هدوئها الحزين بعد الغزو المغولى . ومات أوكناى خان الدولة المغولية الأعظم عام ٦٣٠/١٢٤١ ، ولحق به بعد فترة قصيرة أخوه الأكبر چغتای ، ليدب النزاع من بعد ذلك بين المغول حول ارتقاء العرش . وبهذا النزاع جر الجفتائيون على البلاد التى كانوا يتولون أمرها قدرا عظيما من الشقاء وذلك بتحزيبهم الشديد من جهة ، وبما كانوا عليه من وحشية وميل شديد الى القتال من جهة أخرى . وترك جغتای من بعده أسرة كبيرة . وماوصلنا من أسماء أبنائه هو ييسو وبورى ويبدو وبسبغا ، وكانوا جميعا من بين الحضور بالقرلتای عند تتويج قيوق . ويبدو أنه لم يكن يميل الى أى واحد منهم ، حتى اختار خلفا له حفيده الصغير قره هولاكو (١) وجعل الوصاية عليه لأرملته ابوسكون . وأول ما فعلته هذه السيدة هو أن أمرت بقتل مجد الدين الطيب وهجير وزير زوجها وكان أثيرا عنده . ولم تلق عليهما فى الحقيقة تبعة موت زوجها الا لتخلص منهما اذ كانت تخشى أن يقفا فى سبيل اطماعها . واتخذت لها من بعد ذلك وزيرا ومشيرا هو

(١) يذكره هاس بورجشتال ، باسم قره أو غلان ، فى حين يرد فى مخطوط الجوينى الذى اعتمدت عليه باسم قره اولاك . ومن الصعب أن نقرر أى الرسمين هو الأصح . ذلك أنه لما كان ليس بأيدينا اية وثيقة تاريخية مكتوبة بالمغولية تشير اليه ، فلا مندوحة لنا بذلك من أن نرجع الى الكتاب الفرس الذين يكتبون بالعربية ، وهم الذين عانوا كثيرا من المشقة فى كتابة الاسماء المغولية . ويأتى من بعد ذلك صعوبة أخرى ، ذلك أنه حتى حين يبدو أن النقل عن المغولية قد وقع بصورة مرضية ، فان اهمال النساخ من بعد ذلك كثيرا ما ادى الى تحريف هذه الاسماء تحريفا شديدا .

حبش عميد (١) وكان قاسيا طموحا ، ومع هذا فلم تستطع هذه السيدة أن تحتفظ بالعرش الا في فترة الاضطراب التي تلت موت أوكتاي . اذ اغتصب قيوق لنفسه كل ما كان لاوكتاي من نفوذ وأبعد كل خصومه وأولهم جميعا هذه السيدة ابوسكون نفسها ، ونصب ييسو (٢) عام ١٢٤٧/٦٤٥ رئيسا لأسرة چغتاي ، فأشاع الفوضى والاضطراب لا في المالك فحسب بل وفي الخانية كلها كذلك ، حتى اضطر مسعود بك نفسه الى الهرب من وجهه فلاذ بياتوخان القبيچاق . وكان ييسو سكيما عريدا ولكنه لحسن حظ رعاياه المسلمين اتخذ له وزيرا وناصحا منهم هو العالم الورع خواجه بهاء الدين المرغلاني الذي يشيد بذكره الجويني ويشي عليه كل الثناء . ومن أسف أن هذا الوزير سرعان ما لقي مصيره على غير انتظار بأيدي غريمه حبش عميد برغم ما كان يبذله له من صنوف المودة . ذلك أنه حين انقضت السنوات الثلاث التي حكم فيها قيوق وأصبح منككو (٣) هو الخان الأعظم رد قره هو لاکو وابوسكون الى منصبيهما السابقين . وعاد حبش عميد الى الوزارة بدوره ، فكان أول ما فعله هو أن ألقى ببهاء الدين ، ذلك الرجل العظيم ، في السجن . وبرغم الالتماس الحار الذي رفعه هذا الوزير الى الأميرة فان حبش عميد أمر به أن يطوى في اللباد ويوطأ بالأقدام ويركل حتى تنهشم عظامه كلها (٤) . ورفض ييسو أن يعترف بسلطان منككو فنتج عن ذلك أن فقد عرشه . وهنالك اجلس منككو حليفه قره هولاکو على العرش الذي كان جده قد أوصى به له ، وأمره في الوقت نفسه أن يقتل غريمه ييسو من فوره . ولم يكن هولاکو

(١) وكان أصلا من التجار المسلمين ويدعى قطب الدين - بارتولد تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١٩٧ ، ١٩٨ (المترجم)

(٢) هكذا ورد عند الجويني في مخطوطه ، وهو ما نقلته عنه ، ويذكره ديسون ييسو ، ويسوى انظر كذلك Defrémery (Histoire des Khans, Mongols du Turkestan.) Journal Asiatique T. XX 402

(٣) يخطيء هامر ودهسون وغيره من المستشرقين في رسم هذا الاسم ومعناه في الأويغورية ، الخالد . ويتركب من منك = السماء ثم الصفة كو . وهو في العربية مقابل «باق»

(٤) حين رأى ابواب النجاة من نقمة خصمه تسد في وجهه وجه اليه بضعة سطور صب عليه فيها اللعنات .

ليتردد فى تنفيذ ذلك لو لم يفاجئه هو نفسه الموت قبل ذلك . وبسوته
قبض على زمام الأمور فى خانية جغتاي أرملته أورغنه التى تسكنت من
قتل غريم زوجها السابق ، وحكمت هناك حكما سعيذا دام عشر سنوات .

كانت أورغنه واحدة من بين زينات المغول الثلاث اللائى يقول عنهن
وصاف : انهن ثلاث آيات فى الجمال واللفظ والكياسة والعظمة ،
وليس لهن نظير بين المغول فى ابداع الخلقة على أحسن الصور (١) .
وكن اخوات لبعض أمراء المغول فى بلاد القبيجاق وفارس وبلاد ماوراء
النهر وزوجات لآخرين منهم .

كان ما عاتته بلاد ما وراء النهر من محن وما نعمت به من أمن أيام
الچغتائين ، على ما بينا من قبل يتصل أساسا بالظروف التى يتعرض لها
العرش الملكى فى الصين بسبب الوراثة . فقد لبثت أورغنه الحكيمة تحكم
فى سلام طالما كان منككى على قيد الحياة . حتى اذا ما مات عام
١٢٥٩/٦٥٨ قامت الحرب بين أريق بغا وقويلاى وعانت بلاد ما وراء
النهر منها معاناة شديدة تبعا لذلك كما جرت العادة . ذلك أن أريق بغا
كان قد اختار الكو زعميا لأسرة جغتاي فى حين وقع اختيار قويلاى على
ايشكا بن بورى . وبز الكو منافسه آخر الأمر فطرد أورغنه وأرسخ
أقدامه فى المالتق ، فى حين وقع ايشكا فى أسر اريك بغا أثناء تحواله باقليم
شن سى . وقابل الكو عون نصيره له بأسوأ نكران . ذلك أن اريق بغا
حين وجد قويلاى يضيق عليه الخناق استنجد بحليفه فى محنته هذه ،
لكن الكو رفض طلبه رفضا صريحا فى فتور برغم ما كان تحت امرته من
قوات تربو على مائة وخمسين ألف رجل . ولم يكتف بهذا حتى ألقى
القبض على عمال اريق بغا الثلاثة الذين كان قد عهد اليهم بجمع المكوس ،
فصادر ما معهم من الأموال وقتلهم ، ثم انطلق من بعد ذلك يعلن انضمامه
الى قويلاى . هنالك ثار اريق بغا لخيانة ذلك الذى احتضنه من قبل
فانطلق الى حربه غير مكترث بالأخطار التى كانت تتهدده فى ناحية
المشرق . وفيما كان فى شغله هذا فى الغرب ، انقض قويلاى على قراقورم

(١) انظر : هامر - تاريخ القبيلة الذهبية ص ١٦٢ نقلا عن وصاف .

واتترعها منه . ولكنه عزى نفسه ، عما فقدته من أرضين ، باتتصاره على الكو الذى فر من المالك الى كاشغر ومنها الى ختن حتى سار آخر الأمر الى سمرقند . وقضى اريق بغا شتاء عام ٦٦٢/١٢٦٣ فى المالك ، وفيها اشتط فى معاملة أتباع الكو ، كما أشاع الخراب والدمار فيما حوله من بلاد حتى نزلت بالناس مجاعة مخيفة هلك فيها ألوف من الخلق . وأدى ما كان يجنح اليه اريق بغا من القسوة الى أن انصرف عنه خيرة رجاله بعد أن ضاقوا ذرعا بعسفه . وحين أحس بما صار اليه من الضعف الشديد نتيجة لذلك ، وأدرك أنه فى موقفه هذا لا يقدر على أن يدفع عنه خطر أى هجوم قد يوجهه اليه الكو ، أثر آخر الأمر أن يصلحه على أن يحتفظ لنفسه بالاقليم الذى يتبع الجغتائيين . وكان يقوم بالوساطة بين هذين الطرفين الأميرة أورغنة ومسعود بك .

واستجاب الكو بدوره الى هذا الاقتراح ، وعمد فى سبيل تدعيم هذا الصلح الى الزواج من الأميرة أورغنة المعزولة . وبهذا خيم السلام فترة من الزمن على بلاد ما وراء النهر . وهنالك استعين بجهود مسعود بك مرة أخرى ليعمر الخزانة الخربة من جديد ، وكان على سكان بخارى وسمرقند العاملين الشيطيين أن يتحملوا نصيب الأسد فى ذلك كما هى العادة . وبفضل استقرار الأمور اذ ذاك سرعان ما استطاع الكو أن يتخلص من غريمه الثانى الأمير قايدو ، وهو حفيد من أحفاد أوكناى كان يسعى لتوكيد حقه فى الجزء الشمالى من بلاد ما وراء النهر ، أى باقليم تركستان . ومات الكو عام ٦٦٢/١٢٦٣ بعد وفاة زوجته (١) المحبوبة بزمان قصير ، فندب قوبيلاي عند ذلك مبارك بن قراهولاكو أميراً على قبيلة الأولوس الجغتائية . ويظهر من اسم هذا الأمير أنه كان على الاسلام . وكان كذلك لطيف المعشر على أتم ما ينبغى لأمير . ومع هذا فإن الخان الأعظم ، برغم ما كان عليه من التحرير الفعلى فى المسائل الدينية ، لم يكن

(١) يقول وصاف أن الكو كان يرى أن أورغنة قد ارتكبت اثماً عظيماً فى عطفها على مسلمى بلاد ما وراء النهر ، وأنها لقيت حتفها بسبب ذلك ومن ثم أراد أن ينتقم لموتها بانتهاب بخارى وسمرقند . ولكن مسعود نجح فى أن يحمله على العدول عن هذا الأمر .

يرتاح فى الغالب كل الارتياح الى هذا الأمير الذى نبذ عقيدة آبائه فندب فى السر وكيلا له هو الأمير بوراق أحد أحفاد چغتای . ولم يكد هذا الأمير يستقر ببلاط مبارك شاه حتى نشط يتآمر عليه ، فأحل جنده من طاعتهم له وأنزله عن عرشه ، ثم سار لتأديب قايدو وكان قد ظهر من جديد عند حوض سيحون الأدنى . ولم يكن قايدو — وكان له من الأبناء أربعون — وهو يشعر بالثقة فى قوته ، ليهدف الى الاستيلاء على تركستان وبلاد ما وراء النهر فحسب ، بل ويطمح كذلك فى تاج قويلای الملكى نفسه . وكان قويلای بدوره يهدف من وراء تثبيت بوراق على عرش المالك الى أن يكون له حليف أمين هناك يقف فى وجه قايدو . وما غدا أن تكشف له أنه قد أخطأ فى حسابه هذا ، اذ انطلق بوراق منذ أول الأمر يظهر المودة لخصم قويلای هذا حتى اقتسما فيما بينهما صناع الأسلحة فى بخارى وسمرقند (١) وما غدت الحرب أن وقعت بعد وقت قصير بين قايدو ومنككو تيمور أمير القبيلة الذهبية ، ليحاول بوراق عند ذلك أن يفيد من هذه الفرصة ، فحمل السلاح فى وجه قايدو . غير أن هذا الأخير ما لبث أن أنهى نزاعه مع منككو تيمور وأنزل من بعد ذلك بحليفه الذى خاله ضربة مميتة فى وقعة عنيفة على شاطئ سيحون اضطر من بعدها بوراق الى أن ينسحب عجلا من تركستان الى بلاد ما وراء النهر . وحين رأى جند بوراق أن أملهم قد خاب فيما وعدهم به أميرهم من النهب ، عزموا على الحصول على الأسلاب بأى ثمن ، فسقطوا على مواطنيهم انفسهم . فقد أمر بوراق ، فى قسوة بالغة ، سكان بخارى وسمرقند أن يتركوا متاعهم وينجوا بحياتهم من المدينة ، لينطلق اليها الجند من بعد ذلك وينتهبوها . وأفلحت دموع الأهلين وضراعتهم آخر الأمر من

(١) كانت بخارى تضم اذ ذاك ، على رواية وصاف ، ستة عشر الفا من السكان كان يقتسمهم زعماء المغول فيما بينهم كما تقتسم الماشية ، فكان يخص قبيلة باتو منهم خمسة آلاف ، ويتبع الأميرة سيوك كيكي ، أم هولوكو ، ثلاثة آلاف . اما الباقون فكانوا رقيق الخان الأكبر . وكان الأهليون هم على الدوام او ضحايا أعمال العدوان المستمرة التى كانت تقع بين امراء بيت جنكيز ، فنحن نعلم أن هولوكو حين أراد أن ينتقم من الهزيمة التى أصابته على ايدى بركة ، أمر بقتل عدد كبير من رعايا هذا الأمير ببخارى .

أن تحد من قسوة ما فرض عليهم ، فتركوا وشأنهم على آتاة باهظة يدفعونها ، وتعهد صناع الأسلحة بها أن يعملوا ليل نهار في صنع أسلحة جديدة للأمير . وما غدا بوراق أن استرد قدرته على القتال بعد وقت قصير غير أن قايدو ، وكان يؤثر السلم ، ما لبث أن بعث إليه بالأمير قبيجاق أوغول ، وكان صديقا حميما لبوراق ، ليتفاوض معه ببلاد ما وراء النهر . واستقبل بوراق الأمير قبيجاق بحفاوة بالغة وشربا معا كأس السلم المعتاد ، وفيه يخلط الدم بالذهب الممهور وبهذا صارا حليفين (١) (أندا) . وعلى هذا حل الوفاق من جديد بين بوراق وقايدو في خريف عام ١٢٦٧/١٢٦٩ . ودام الاحتفال بالسلم سبعة أيام في السهل الواقع الى الشمال من سيحون (٢) ونص الاتفاق على أن يكون لبوراق ثلثا بلاد ما وراء النهر ، ويكون الثلث الباقي من نصيب أولوس اوكتاي وهو الذي يضم خجندة وما حولها حتى سمرقند . ولم يرض بوراق بهذا الوضع واشتكى بأنه بذلك يصبح أسوأ حالا من أي أمير جنكيزي آخر . ولما كان قد استند في شكواه خاصة الى عدم وجود مراعى لقطعانه بأراضيه ، فقد رتب الأمر على أن يعبر جيحون الى خراسان فيعوض ببعض الأراضي هناك ويتاح بذلك الفرصة في الوقت نفسه للريف المنهك المخرب ببلاد ما وراء النهر ليستعيد قوته ويتمكن أهله على الأقل من جمع محاصيلهم في سلام . وعهد الأميران الى مسعود بك لينطلق الى الريف وراء الفلاحين المشردين ويحضهم على الرجوع الى أراضيهم . ولم يطق بوراق صبرا ، على الانتظار ، اذ كان يأمل في الحصول على أموال كثيرة اذا ما هاجم أباقا حاكم فارس اذ ذاك . وحين رغب في الماضي في هذا الأمر لساعته برغم سوء

(١) أندا في اللغة المغولية بمعنى حليف وهو من يرتبط برباط الصداقة مع آخر على قسم (انداغه) وما يلفت النظر أنه في حين كان المغول القدماء يخلطون الدم بالذهب المسال في كأس السلام ، فان المجريين القدامى بدورهم حين يتحالف الواحد منهم مع أخيه ، كان يقطع ويريدا في ذراعه ويشرب كل واحد منهم في رأسه من دم أخيه ، وقد راعى الاتراك هذا التقليد في تحالفهم مع المجر كما نرى في تاريخ بتشوى Petchevi's Hist. (٢) يخطيء دهبسون في تسمية هذا السهل باسم سهل تالا ، فهذا اللفظ ليس باسم علم وانما هو في التركية بمعنى السهل ولا يزال يستعمل بهذا المعنى في شرق آسيا الوسطى .

الأحوال في البلاد المجاورة لجيخون ، فاحتج عليه مسعود بك ، أمر بجلده سبع جلدات جزاء جرأته هذه . ولئن كان بوراق سرعان ما ندم على فعلته وهو في سورة غضبه ، إلا أن ذلك لم يمنعه على كل حال من تنفيذ ما عزم عليه فمضى في أعماله العدوانية لتوه (١) .

بدأ بوراق بإيفاد مسعود الى أباقا وكان اذ ذاك يقضى الشتاء في مضاربه بمازندران ، وكان ظاهر هذه السفارة هو الاتفاق على بعض المسائل المالية ، أما هدفها الأصلي فكان الوقوف على حقيقة استعدادات أمير فارس المغولى الحرية . وما لبث أباقا أن تبين بعد مضي بعض الوقت حقيقة هذه السفارة فأمر بالقبض على وزير الجغتائيين . ولم ينج مسعود من هذا الأمر إلا بسحض الصدفة . وسرعان ما أوفد بوراق بعثة أخرى لتعمل على استمالة نيكودار الجغتائي الى صفه . وكان هذا الأمير يقيم ببلاد المغول بفارس . ولكن هذه البعثة فشلت بدورها ، اذ أن أباقا منع بيقظته هذا الأمير من تنفيذ خطته في النفاذ من القوقاز والأقاليم الواقعة شمال بحر الخزر الى شواطئ جيخون . وكان بوراق في الوقت نفسه قد استطاع أن يهيئ جيشه للقتال ثم عبر جيخون عند آمويه وأقام معسكره عند مرو . وصحبه في هذا الغزو كثير من أمراء بيت أوكتاي ممن كان قايدو قد أمرهم بالانضمام اليه . وبدأ هذا الجيش بمهاجمة أخى أباقا وقائده ، وكان يدعى يوجين (ويعرف كذلك باسم تبشين وتوشين وتيشين) وكان يربط في شرق خراسان عند هراة وبادغيس . وقد ارتد هذا القائد عن مواقعه حين تأكد لديه تفوق قوات خصمه عليه . وظل بوراق يطارده حتى وقعت في يده خراسان كلها . ولكن الفرقة ما غدت أن شاعت في قواته حتى انصرف عنه نصف الجيش (٢) ، وهنالك استطاع

(١) لم يكن مسعود في الواقع وزيرا بالمعنى المفهوم وإنما كان أصلا من ولاية المغول ببلاد ما وراء النهر كما كان أبوه حاكما على بكين - تاريخ الترك لبارتولد ص ١٨٥ ، ١٨٨٦ (المترجم)

(٢) كان أول من انسحب هو قبيجاق صديق بوراق القديم ، فقد أثارت وقاحة جلايرتى . ولم يشنه عن عزمه وعد بوراق له بانزال أشد العقاب بذلك القائد . وتبعه في ذلك تجابات ، وكان من أحفاد قيوق خان .

أباقا بالحيلة أن يجعل هذه الحرب التى حالف خصمه النجاح فى أولها تنتهى به الى مصير سيئ. فقد استدرج بوراق الى كمين (١) لم يجد معه استبسال قائديه مرغاول وجلايرتى الفائقة ، فنزلت به ضربة شديدة وفر عبر جيحون بمشقة بالغة ، وأصيب هو نفسه كذلك اصابة شديدة على اثر سقوطه من على فرسه . وهكذا دخل بخارى وهو فى محنة ، محطم الفؤاد والجسد ، فأمضى الشتاء بها فى محاولات فاشلة ليثأر لنفسه من حليف غادر كان هو السبب فيما نزل به من المصائب . ومات فى ربيع عام ١٢٧٠/٦٦٩ ، وقد قضى بالسّم على رأى غالب .

تخلّصت بلاد ما وراء النهر بموت بوراق من مشاغب جائر نكد ، ولكن متاعبها لم تبلغ مع ذلك ذروتها بعد . فقد استمرت الحرب الأهلية بين بيتى أوكتاى وجغتاي حتى عمت أهوالها كل المدن الواقعة على زرفشان ، وانتكس مرة أخرى كل ما كان قد استرده السكان من مظاهر التقدم الحضارى (٢) . وبموت بوراق صار قايدو مرة أخرى السيد المطلق فى كل من تركستان وبلاد ما وراء النهر . وندب نيكباى بن سرابان أميراً لقبيلة جغتاي ، فأثار بصنيعه هذا أبناء بوراق حتى انضموا

(١) جرى التدبير على الوجه الآتى : - حين بعث بوراق بثلاثة من جواسيسه ليقف على مدى قوة خصمه ، فسقط هؤلاء بأيدي العدو ، عذبوا حتى أقرّوا بمهمتهم ثم القى بهم فى القيد فى انتظار الموت . هنالك قدم فارس وقد غطاه القبار فأعلن الأمير أن جموع الأعداء قد غزت البلاد من ناحية دربند واجتاحت الولايات الغربية بالحديد والنار . وأثار هذا المشهد أعظم اضطراب فى المعسكر - وكان ذلك كله فى الواقع من تدبير أباقا نفسه - حتى أخذ القوم يتحدثون عن وجوب الارتداد غرباً فى الليل ، وذاع هذا الخبر بينهم . وصدر الأمر باعدام الجواسيس الثلاثة ، لكن أباقا أسر الى الضابط المكلف بذلك بأن يفسح المجال للهرب واحد منهم . وحين بلغ الجاسوس الهارب معسكر بوراق وأعلن هناك عن عزم العدو على الانسحاب ، انطلق بوراق من فوره يطارد عدوه وهو يعتقد أنه يرتد ، ليبرز عند ذلك رجال أباقا من مكانهم ويحيطوا بجند عدوهم ويقطعونهم شذراً مذر .

(٢) يقول دهبسون بحق فى كتابه عن تاريخ المغول م ، ص ٥٢١ ان البلاد التى كانت تتعرض لغارات الترك والمغول لم تعرف الرخاء أبداً ، ذلك أن هؤلاء كانوا يرون ما تغله هذه البلاد من ثمرات هو من حقهم فلا يدعونها لأصحابها أبداً .

الى أبناء الكو في اشعال نار الفتنة ببلدان ما وراء النهر العتيدة . وما غدا نيكباى نفسه أن ثار على سيده ، ولكنه هزم وقتل عام ١٢٧٢/٦٦٧ .
وخلفه تقاتيمور ، وجاء من بعده دوا بن بوراق (١) فالتحم مع قايدو ،
كان هذان قد ائتلفا مخلصين معا فلعله كان قد أتيح بذلك لهذه الخانية
أن تعيش بعض الوقت في سلام .

ولكن الحرب ما غدت لسوء الحظ أن اشتعلت بينهما لثالث مرة .
ذلك أن أباقا لم يكن لينسى أبدا غزو الجغتائيين لخراسان . ولم يكن على
وزير شمس الدين الجوينى (٢) ، أخى المؤرخ الجوينى الذى نقلنا عنه
كثيرا ، الا لينتھز فرصة مواتية للانتقام ، حتى حرصه على دخول بخارى
مع جيشه عام ١٢٧٣/٦٧١ ، فعمل فيها السلب والنهب ذات اليمين وذات
الشمال وأسر من أهلها خمسين ألفا ، وقد اندفع فى موجة التخريب حتى
أحال المدرسة المسعودية المشهورة الى كومة من الرماد ثم رحل آخر الأمر
عنها . وخرج اليه يطارده القائدان جبه وقابان حتى استخلصا منه بعض
الأسرى . على أن هذين القائدين نفسيهما ما لبثا بعد أعوام ثلاثة من هذا
التاريخ أن خربا كل الأماكن حول هذه المدينة حتى صار هذا الاقليم
المكود صحراء جرداء ، الى أن استطاع مسعود بك بإدارته الفائقة أن
يعت في الحياة من جديد .

ولم يكن دوا لسوء الحظ هو الرجل الذى يمكن لبلاد ما وراء النهر
أن تنشأ على يديه السلم وكانت فى حاجة قصوى اليه . فقد كان حكمه
الطويل بالنسبة لغيره ممن سبقوه — من عام ١٢٧٢/٦٧١ — ١٣٠٦/٧٠٦
حقبة من حروب دموية مستمرة استطاع بها هذا الأمير ، الذى يعد أشد

(١) ويدعى كذلك توا اوتفا

(٢) كان شمس الدين مدفوعا فى ذلك بحقده الشخصى . وحين بعث
بوراق بمسعود الى بلاط اباقا ، ذهب شمس الدين الى مسعود فاجتمع به
قبل سفره . وبرغم ما أظهره شمس الدين لمسعود من التوقير حتى قبل ركابه
وأدى له رسوم الخدمة المعتادة ، فان مسعودا قال له « أنت الوزير الاول ،
الحق أن اللقب لهو أكبر من مظهرك » — دهبسون — نقلنا عن تاريخ المغول
لرشيد الدين م ٣ ص ٤٢٣

الأمراء الجغتائيين طسوحا ، أن يقضى على منافسة بيت أوكتاي له ويوحد مرة أخرى المناطق الشمالية لسيحون مع أملاك بيت جغتاي . وكان ثمن هذه المكاسب مصائب جديدة نزلت على بلاد ما وراء النهر . وكانت الأعمال العدوانية بين قايدو وقويلاى قد دلت لمدة عشرين عاما تجرى على شواطئ جيحون وسيحون حتى اعتزم قايدو ودوا أن يمدا — مؤتلفين معا — ميدان المعركة حتى بلاد الخان الأكبر تيمور (١) ، وهو الذى خلف قويلاى . حتى اذا ما عاد دوا من غارة له على لاهور بالهند سار بجيشه مع جند قايدو وقد انضم اليهما أربعون أميرا من أسرتهما ، فاتجهوا جميعا لغزو الصين . والتقوا بالجيش الامبراطورى فيما بين قراقورم ونهر تامير . وكان قايدو قد خاض غمار احدى وأربعين حربا انتصر فيها جميعا ، ولكنه هزم فى هذه الواقعة الثانية والأربعين ، ونزل به الداء ومات وهو فى طريقه عائدا الى بلاده (٢) . هنالك أقيم ابنه جبه أميرا على بيت أوكتاي وذلك بفضل نفوذ دوا . وعمد دوا وجبه اذذاك الى مصالحة الخان الأكبر تيمور . وما غدا الخصام أن وقع بينهما فتحاربا عام ١٣٠٣/٧٠٣ فى موقعة دارت بين سمرقند وخجندة فاز فيها دوا . وأصاب جبه قدرا من التوفيق من بعد ذلك ، ولكنه عاد الى معاداة الخان الأكبر حتى وجد نفسه آخر الأمر ولم يبق له الا أن يعلن خضوعه لدوا . واستقبله هذا بترحاب حتى تعود تركستان من جديد الى خانية جغتاي وكانت قد انتزعت بالقوة من أبناء أوكتاي .

ومات دوا عام ١٣٠٦/٧٠٦ فخلفه ابنه قونجوق فلم يعمر طويلا ، لتنتقل الحكومة عند ذلك الى أيدي من يدعى تاليقاوه ، وهو أمير جغتائي من أبناء مواتغان الذى كان قد قتل عند باميان . كان هذا الأمير ثانى أمير مغولى على عرش بلاد ما وراء النهر قد اعتنق الاسلام . ويبدو أنه تغالى فى تحمسه لعقيدته الجديدة ، اذ ثار عليه القواد المغول فى بلاطه فقتلوه

(١) وهو غير تيمورلنك (المترجم) .

(٢) يقول وصاف ان قايدو قد انتصر كذلك فى هذه المعركة وأنه مات ميتة طبيعية وهو فى طريقه الى بلاده محملا بالغنائم

فى احدى المآذب وأجلسوا مكانه « كييك بن دوا » وكان أميراً شجاعاً مستقيماً . وواصل جبهه بازاء الابن نفس العدوان الذى كان يواجه به أباه ، فجر بذلك الوبال على نفسه . فقد انتهى أمره الى أن نزلت به الهزيمة من جديد ، وضاعت بذلك آخر فرصة لحفظ تركستان بأيدي أحفاد أوكناى . ولأسباب غير مفهومة ، وبرضاء كييك ، أجلس الجغتائيون عند ذلك أخاه الأكبر ، ويدعى اسن (١) بغا على العرش . ودرج اسن بغا فى مدارج التقدم عام ٧٠٩/١٣٠٩ . ولا نراه من بعد ذلك حتى عام ٧١٦/١٣١٦ الا زعيماً للأولوس الجغتائيين . ويبدو أنه قد اشتبك فى حروب مع الجايو أمير فارس المغولى كانت لنتائجها أهمية كبرى بالنسبة لبلاد ماوراء النهر . وناصب اسن بغا العداء تقاجى أحد قواد جيش الخان الأكبر باياتو فباء بالخسران فى ذلك . وأراد أن يعوض ما أصابه من الخسائر فى الشرق فعزم على غزو خراسان . وعبر لذلك بجيشه جيحون عام ٧١٥/١٣١٥ وبصحبه عدد كبير من الأمراء ، فهزم الأمير ياساول حاكم خراسان عند مرغاب ، ومازال يطارده حتى نهر هراة .

وبهذا استولى على كل هذا القسم من خراسان ، وظل جنده يذيقون الأهلى المنكودين كل أهوال الاحتلال المغولى لأربعة أشهر . وأغلب الظن أن لبثهم هناك كان يطول لولا أن زحف الخان الأكبر على اسيككول فاضطر اسن بغا بذلك الى الارتداد عن خراسان . وسرعان ما كان على بلاد ما وراء النهر أن تكفر — لسوء الحظ — عن غارة حكامها هذه .

ونهج أمير فارس المغولى (الذى اتخذ لنفسه فيما بعد اسم خدا بنده (٢) ، أى عبد الله) نهج أباقا من قبل بازاء الغزو الذى قام به بوراق ،

(١) يذكره دهبسون « ايسن » وهو خطأ فهو لفظ تركى معناه القوى ، السليم .

(٢) خدا بنده هو الأمير المغولى الوحيد من حكام فارس الذى لا يزال يذكره بالتبجيل سكان اذربيجان من الترك لما كان عليه من العدل . وقد جمعت كثيراً من الحكايات عنه من أفواه العامة حين كنت أقوم بالكشف عن بقايا تمثال فى سلطانية . وكان هذا الأثر فى وقته له أهمية كبيرة .

فلم يهدأ له بال حتى أنزل العقاب بذلك الذى اجتراً على غزو أراضيه .
وكان لاسن بغا أخ يدعى « يساور » على علاقة سيئة به ، وكان هذا الأخ
قد اعتنق الاسلام ولاذ ببلاط أمير فارس المغولى فرحب به . وخرج يساور
هذا الى حرب أخيه وقد أمده الجايغو بفرقتين قويتين من الجند عبر بهما
جيحون عام ٧١٦/١٣١٦ وكسب بهما الحرب . ولاذ اسن بغا بالفرار
لتعرض عند ذلك بلاد ما وراء النهر من جديد لأفطع ضروب الدمار . فقد
أخرج سكان بخارى وسمرقند وترمد من ديارهم ونفوا منها والشتاء
القارص فى عنفوانه حتى هلك ألوف منهم فى الطريق . وما يلبث اسن بغا
أن يختفى عن مسرح الحوادث ليأخذ مكانه السابق كيك وينزل العقاب
بهذا الأخ العاصى الذى جلب البؤس البالغ والشقاء الكثير على الناس ،
وقد وافاه أجله عام ٧٢١ هـ .

أخذ نجم المغول بآسيا الغربية فى الأفول بسرعة ابتداء من ذلك
الوقت . وذهبت أدراج الرياح كل الجهود التى بذلها أبو سعيد ليقم من
جديد أسرة حاكمة فى ايران والعراق . فهؤلاء المغول باعترافهم الاسلام
ورسوم حضارة آسيا الغربية ، انما قد تخلوا بذلك عن القوة الوحشية
التي كانوا قد قدموا عليها من مواطنيهم القديمة فى الصحراء ، فأمدتهم
بقدر لا تبارى . فأصبحوا من بعد ذلك كالليوث التى سقطت معارفها
ولم يعد يهابها أحد . وعلى مثال ما حدث فى عهد السلاجقة حين كان
حكام الولايات من الأمراء يستغلون ضعف ملوكهم لتحقيق مآربهم
الخاصة ، رأينا كذلك أمراء أرباخان - خليفة أبى سعيد - يعلنون
خروجهم عليه ويشرعون فى تقطيع أوصال الدولة التى قامت بسواعد
تولى وهولاكو .

وجد الاستبداد العسكرى تربة ملائمة له على الدوام فى بلاد ما وراء
النهر وتركستان . واستطاع الجنكيزيون أن يثبتوا أقدامهم هناك طويلا
لما كانوا عليه من الشراسة أصلا ، وما بعثه ظهورهم لأول مرة من الرعب
فى نفوس الناس . وسرعان ما أخذت الأسرة الحاكمة هناك بمضى الوقت

تفقد بدورها ما كان لها من سلطان أول العهد بها . ولم يطل عهد الأمراء من ذوى النفوذ من بين أعضائها الذين جلسوا على العرش منذ كيك حتى كابلشاه (١) آخر الجغتائيين . ولم يكن من عداهم من ضعاف الأمراء الا مجرد دمي بأيدي وزرائهم من ذوى الطموح . ويشير تاريخ هذه البلاد فى هذه الفترة الى غارة قام بها على خراسان علاء الدين ترماشيرين فلقى الهزيمة عند غزنه عام ٧٢٦/١٣٢٥ وارتد على أثرها عجلا عبر جيحون . وتحدث الرحالة العربى ابن بطوطه عن ترماشيرين هذا ، وكان قد قضى عامين فى ضيافته ببخارى ، فوصفه بأنه كان مسلما غيورا ورعا بلغ من تدينه أن سمح لأحد الشيوخ أن يعنفه بشدة فى احدى الحفلات العامة ويتلقى حديثه هذا بدمع الندم والتوبة .

وقد ضحى هذا الأمير بعرشه وحياته بسبب اسلامه ، اذ قتل بتدبير

١ - أورد دهبسون جدولا كاملا بأسماء الجغتائيين الذين جلسوا على عرش بلاد ماوراء النهر ، مع تاريخ ولايتهم ، على الوجه الآتى : ١ - جفتاي (لم يذكر تاريخ ولايته) ، ومن المعروف أنه ولى الحكم عام ١٢٢٢ م) ٢ قراهولاكو ١٢٢٤ - ٣ ييسو مانىكو (ذكرته باسم ييسو) ١٢٤٧ ٤ أرغونا أو أورغانا ، بالوصاية ، وهى أرملة قراهولاكو ١٢٥٢ - ٥ الكو ١٢٦٠ - ٦ مباركشاه ١٢٢٦ - ٧ بوراق - ٨ نيقباى ١٢٧٠ - ٩ توقيتيمور ١٢٧٢ - ١٠ دوا - ١١ قونجوق ١٣٠٦ - ١٢ تاليقاوه ١٣٠٩ - ١٣ اسن بفا ١٣٠٩ - ١٤ غيبك - ١٥ الجيكداى ١٣٢١ - ١٦ دواتيمور - ١٧ ترماشيرين - ١٨ بوسان ١٣٣٠ - ١٩ جنكشى - ٢٠ ييسون تيمور - ٢١ على سلطان ، من بيت أوكتاى - ٢٢ فولاد - ٢٣ محمد - ٢٤ قاسان ١٣٣٣ - ٢٥ دانشمنجه ١٣٤٦ - ٢٦ بايان قلى - ٢٧ تيمورشاه - ٢٨ قتلى تيمور ٣٩ الياش خوجه ١٣٦٢ - ٣٠ قابيلشاد . ولا يذكر من أتى بعد هؤلاء من الأمراء اذ كان حكمهم الصورى يختلط فى التاريخ بحوادث تيمور التى سنفسلها فى الفصل التالى . ويذكر ملاحوندى فى كتابه عن تاريخ الجغتائيين أمراء من هذا البيت ظهروا من بعد ذلك بين الجته وغيرهم من المغول الذين وحدوا انفسهم شمال فرغانه بزعامة بونس خان . ويبدو أن قوله هذا خطأ ذلك أن هؤلاء الجته والمغول المعنيين كانوا من أبناء بيت قايدو . (المؤلف) .

(انظر معجم الانساب والاسر الحاكمة ، ترجمة الدكتور زكى محمد حسن وآخرين ص ٣٧٠ ، فى بنى جفتاي ، خانات ما وراء النهر) الخشاب

خليفة بوزان^١ بجوار سمرقند^٢ . وكان بوزان مسلما في الظاهر فقط . وأنزل هذا الظالم بسكان ما وراء النهر من ضروب الخسف ما جعلهم يستجدون بالأمراء المسلمين في الأقاليم المجاورة لقطرهم . هنالك بدأت هذه الحروب التي برز فيها التاجيكي (٣) المشهور حسين كرت بدور مهم إذ كان يثوق إلى استخلاص خراسان من ارباخان . وشجع حسين ما أحرزه من انتصارات متوالية فغزا أندخوى وشبورغان وهي مناطق كان يسكنها ترك من قبائل ارلات وايردى ويتبعون بخارى . ووقف هؤلاء الترك في وجه حسين لكنه هزمهم ، حتى استجدوا بأمرهم قازان خان — أو بوزيرهم الأمير قرغان على الأصح — الذي نجح في قهر حسين كرت .

والأمير قرغان ، هذا التابع القوى صانع الملوك ببلاد ما وراء النهر ، يستحق أن نتحدث عنه، إذ كانت أفعاله دليلا على ضعف آخر الجغتائيين. فقد ولي قازان بن يساور العرش عام ٧٣٣/١٣٣٢ ، وكان ظالما يميل لسفك الدماء حتى قال عنه ميرخوند « لقد تمكن ذلك منه حتى كان رجاله جميعا يوصون قبل أن يحضروا قتلته (أي مجلسه) » . ونشر هذا الأمير الفزع في الاقليم دون أن يجرؤ أحد على الوقوف في وجهه حتى اتخذ من قرغان وزيرا له . وعمل هذا الوزير على التخلص منه ، فكسب الجيش لصفه ثم ثار في وجهه . وكسب قازان أول وقعة وذلك عام ٧٤٤/١٣٤٣ ، أو بعد ذلك بعامين على رواية ميرخوند . وفي هذه الواقعة أصاب قرغان سهم في إحدى عينيه فأتلفها . على أن هذا الجغتائي لم يستطع أن يدعم ما أصاب من فوز ، واضطر إلى التراجع إلى قارشى فأمضى الشتاء بها . وأشاعت قسوة الطقس هناك الموت بين خيوله ودوابه حتى نفق أغلبها . وحين

(١) يقول ابن بطوطة ان بوزان هذا (ونحن نسميه بوزون) هزمه خليل بن يساور وقتله . بل يقال ان خليل تقدم كذلك حتى المالقي وهزم الجيش المغولي عند طراز هزيمة حاسمة . وبعد أن ولي العرش ببخارى ثار على السلطان حسين كرت الذي كان قد عاونه في كل مشروعاته ، ولكنه هزم وحمل أسيرا إلى هراة حيث لقيه الرحالة العربي آخر عام ٧٤٧ (١٤٧٢) أنظر Voyage d'Ibn Batoutah Paris 1885 vol. III p. 48-51.

(٢) على رواية صاحب مطلع السعدين ، فان ترماشيرين نزل به المرض في نخشب عام ٧٢٧ (١٣٢٦) — وبهذا يكون قد مات حتف أنفه .

انطلق فى الربيع من بعد ذلك يهاجم خصمه أصيب بالهزيمة ، ومات بعد أن حكم أربعة عشر عاما . ولم يكن يدور بخلد قزغان أن يمسك بسقايلد الحكم اذ كان يفضل أن يستمر فى الاستمتاع بالطراد فلا يزعبه شئ . لهذا فقد اجلس على العرش الأمير دانشمنجه أوغلان ثم خلعه من بعد ذلك بعامين وأجلس مكانه بياقلى . ولعله كان يضى قدما فى تنصيب هذا الأمير وخلع ذاك على هذه الصورة لولا أن قتله صهره تغلق تيمور ذات يوم وهما فى الصيد . وخلفه ابنه عبد الله فى منصبه ولكنه لم يبلغ الى نفوذه ، فلم يقدر على حماية نفسه أو حياية سادته بازاء أتباعهم من الأمراء الذين كانت قوتهم تتزايد يوما عن يوم ، حتى غلبه على أمره آخر المطاف الأمير حاجى سيف الدين برلاس . واضطر هذا الأمير بدوره الى الهرب من وجه تغلق تيمور وكان قد قدم من المالك الى خراسان عجلا ليضع حدا لحالة الفوضى القائمة هناك . ولكنه لم يتعرض للجانب الآخر من جيحون حيث كان ابن أخته تيمور الذى لم يقدر له أن يطرد خلفاء جغتای (١) من على عرش بلاد ما وراء النهر فحسب بل ويدك كذلك كل بناء الحكومة المغولية المتعفن فى آسيا . ولم يفعل ذلك كله دون أن يعرض هذا الاقليم ، لسوء الحظ ، لطوفان من دماء آلاف الضحايا .

وقبل أن نهى الحديث عن هذه الحقبة المحزنة من تاريخ بلاد ماوراء النهر ، لا بد لنا من أن نلقى بعض الضوء على الأحوال الاجتماعية والحضارية التى سادت فى هذه الحقبة . وفى وسط هذا الدمار الذى قام به المغول لم يزدهر من العلوم الا العلوم الشرعية وفروعها . وفى أيام الجغتائيين الأول كان الشيوخ فى تركستان يستمتعون بقدر معلوم من الحماية وذلك بفضل مبدأ التسامح الدينى (٢) من جهة ، والاعتقاد فى هية

(١) قلت هنا عن قصد ، خلفاء جغتای . ذلك انه برغم تقلص سلطان الجنكيزيين بآسيا تقلصا تاما ، فلا يزال حتى اليوم اسرة تحكم ببلاد ما وراء النهر ينتهى نسبها من بعيد الى احفاد الفاتح جوجى .

(٢) ابلغ شاهد على هذا التسامح نجده فيما كان من احترام هؤلاء المغول المخربين النهابين لاماكن معلومة مقدسة فى تركستان . ويرد مثل هذا الدليل عند ابن بطوطة فى التفصيلات القيمة الدقيقة التى ذكرها عن ضريح قثم بن عباس بالقرب من سمرقند .

رجال الدين من كل طبقة من جهة أخرى . وكان بكل مدينة فى الغالب واحد أو أكثر من الأولياء ممن كان المسلمون يلوذون بهم وقت الخطر . وبهذا صار رجال الدين بدورهم حماة لمن يعيشون فى دائرتهم ، حتى لنرى ، ابتداء من ذلك الوقت ، صدر الشريعة ورؤساء القضاة بل وكل من يشتهرون بالورع والتقوى يستمتعون فى بلاد ما وراء النهر بنفوذ لم تعرف له البلاد الإسلامية الأخرى نظيرا . ولا يزال هذا النفوذ يقوم هناك حتى اليوم برغم أن هذه البلاد قد ظلت قرونا كثيرة يحكمها أمراء مسلمون وكانت المناصب الدينية وقفا على طبقات من العلماء من أسر معينة وكأنها العروش فى توارثها . وأشهر هذه الأسر كانت أسرة ستاجى وأسرة خاوند . ومؤسس الأسرة الأولى هو جمال الدين ستاجى ، وكان فقيها ابان غزو چنكيز خان . وثانى تلك الأسر كانت تقطن بخارى . وأشهر أبنائها مولانا كمال الدين ابن العالم والمفتى المشهور الأمير شمس الدين خاوند . ويشتهر بكتابة « منهاج المذكرين » وهو كتاب قيم فى التراجم . وله كذلك عدة دواوين من الشعر . مات عام ١٢٧٢/٦٧١ فى أول يوم انطلقت فيه قوات أباقا سالف الذكر تنهب بخارى . ونذكر من بعد ذلك خاوند شاه فخر الدين وأللا تاج الدين العالم مؤلف « بستان المذكرين » وقد مات عام ١٣٣٥/٧٣٠ . وبعد أن دخل الجغتائيون المتأخرون فى الاسلام نجد كتب الحديث تروج أيام ترما شيرين ، كما نجد هؤلاء الأمراء ، باعنائهم الاسلام عن قرب ، تدفعهم غيرتهم الدينية الى رعاية هذه الحركة الروحية لا يألون جهدا فى ذلك . ولقد رأينا كيف يتقبل أحفاد الفاتح المغولى بكل خضوع زجر الشيوخ المحافظين لهم وتعنيفهم إياهم بمسجد عام فى مواجهة رعاياهم ، وهم من بعد ذلك يتولاهم الخجل لما كان قد وقع منهم ويستغفرون لذنوبهم على مشهد من الملأ جميعا ، لنذكر عند ذلك مكنون النداء الذى وجهه أعظم شاعر صوفى فى الشرق ، بمثنويه الرائع ، الى ذلك الصوفى المتحمس الذى كان فى طريقه الى بخارى ليلتمس ، مخدوعا ، الراحة هناك لقلبه وعقله

المنهك المرهق . وكانت نفس هذا الشاعر الكبير قد ضاقت ذرعا بمثل
هذا الخضوع المصطنع السطحي الذي يتعارض مع لب العقيدة :

بخارى مبروى ديوانه
لايق زنجين زندانخانه :
أذهب أنت الى بخارى ، أفهل بك مس
أترك أهلا للقيد والحبس ؟

الفصل العاشر الأمير تيمور

٧٦٥ (١٣٦٣) - ٨٠٧ (١٤٠٥)

أدى غزو الترك لآسيا الوسطى الى حدوث انقلابات عرقية مختلفة كان أهمها رجحان كفة العناصر التركية على غيرها فى جميع أجزاء بلاد ما وراء النهر . فلقد قدم الترك الى هذا الاقليم أصلا بوصفهم أصدقاء وحلفاء لمغول الوديان الشرقية عند تيان شان وجبال التاي . وسرعان ما استقروا على ضفاف جيحون حيث وجدوا اخوانا وبنى جلدة لهم كانوا قد سبقوهم الى هناك (ما وسع تركى أن يفعل ذلك) ، وكان لهؤلاء نصيب مما كانت تسبغه الأسرات الحاكمة هناك من التشریف والتقدير على المحاربين الممتازين . ولم يكن الترك دون المغول بكثير فى ميلهم الى السلب والنهب والقتل اشاعة الدمار ، وبهذا لم يجدوا صعوبة فى أن يوائموا أنفسهم مع الجغتائيين . وقد نزل هؤلاء عند أطراف الأراضى التى ورثها چغتاي بأقصى الشرق والشمال منها ، وكانوا لا يطيقون ما يمت الى بقايا ثقافة ايران القديمة بأدنى سبب ، وماغدا أن صار زعماء الترك ببلاد ما وراء النهر نوابهم وعمالهم ، بل وامتزجوا بهم فى الغالب ، كما سنرى فى التو، بل ان الجغتائيين المتأخرين بلغ تأثيرهم بالترك الى أن باتوا لا يكادون يعون اللغة المغولية ، وصارت التركية هى لسان البلاط والمجتمع عندهم . ولم يعد لخلفاء چنكيزخان أيام قوتهم ونفوذهم من خدام أهلا لثقتهم الا الترك . وحين أخذ سلطان هؤلاء الأمراء فى الاضمحلال جهد هؤلاء الترك أنفسهم فى كل مكان ليغتصبوا مكان سادتهم السابقين ، فتفسخت بذلك دولة چغتاي ، واستأثرت قبائل جلاير

وسولدوز بالسلطة لنفسها عند شمال سمرقند ، فى حين عمد بيت برلاس فى الجنوب ، عند كش ونخشب ، الى رفع راية الاستقلال بدورهم فوق أنقاض دولة المغول .

ينتمى تيمور بك (الذى يعرف فى أوروبا باسم تامرلان أو تاملنك) الى فرع كركن (١) من بيت برلاس سالف الذكر . وأول ما رأى النور تيمور كان فى مساء الثلاثاء الخامس من شعبان عام ٧٣٦ / ١٣٣٥ فى قرية من قرى كش تعرف لفرط اخضرار نبتها (٢) باسم شهيرسبز

١ - كانت العلاقة بين الأسرة الأصلية وفروعها البعيدة بين بدو آسيا الوسطى ، على ما ذكرته فى كتاب رحلاتى أكثر توثيقا فى الأزمنة المتقدمة بطبيعة الحال . وكانت قبيلة تيمور هى قبيلة برلاس ، أما فرع أسرته فكان كركين أى المليخ . وكان الأجدر بكلابروث Klaproth . وكثير ممن سبقونى أن يوفروا على أنفسهم مشقة تفسير هذا اللفظ بأنه كوركان أو كورخان فقالوا انه هو الخان الأعظم .

٢ - ان ما قال به وايل وغيرهما من المستشرقين ، اعتمادا على ميرخوند وشرف الدين ، بأن تيمور من أصل مغولى ، هو خطأ مزدوج . فقصّة انحدر تيمور من نسل قراجة نويان محض خرافة ، ذلك أن جهانكشا الذى اعتمد عليه رشيد الدين ووصاف وميرخوند وغيرهم اعتمادا كبيرا فى أخبارهم ، لا يتضمن أى إشارة الى ذلك الوزير المزعوم لجفتاي . وما قيل عن تيمور انه مغولى سببه أن الفرس ظلوا طويلا يعدون خانية جفتاي عند الجانب البعيد من جيحون جزءا مكملًا للدولة المغولية ، وهو استنتاج طبيعى بنى على غلبة رسوم المغول هناك ، فضلا عن استعمال القوم للأبجدية الأويغورية - المغولية على الدوام فى كتابة التركية اذ ذاك . ويقرر كلافيجو Clavijo سفير هنرى الثالث ملك قشتالة الى بلاط تيمور (ان أراضى الدولة المغولية عند سمرقند تعرف باسم منغوليا ، ولغتها هى المغولية ، وهى تستعصى على الافهام على كل حال عند ذلك الشاطيء (شاطيء جيحون) والأبجدية المستعملة عند الجانب السمرقندى من النهر (يعنى الأبجدية الأويغورية) لا يفهما هذا الجانب (يعنى الضفة الفارسية) . وعند الامبراطورية (تيمور) كثير من الكتاب ممن يقرءون هذه الابجدية المغولية

(Narrative of the Embassy of Ruy Gonzalez de Clavijo to the court of Timour at Samarkand. A. D. 1403 — 6 Translated by Clements R. Markham. F. R. G. S. London Hackluyt Society 1859.

(أى المدينة الخضراء) ، (١) وقد أطلق اسمها من بعد ذلك على المدينة كلها . وكان أبوه تورغاي (٢) (طير الدج) شيخا لقبيلة برلاس . وعلى هذا ندبه الأمير فزعان على اقليم كش ونخشب . وبقي تورغاي تابعاوفا لأميره حتى وفاته . وكان الشاب تيمور ، وهو الذى ظهرت شجاعته وفروسيته منذ حدثه ، قد نشأه أبوه لا على التمسك بسنن الاسلام القويمة فحسب، بل وأشرب فيه كذلك مشاعره السياسية التى كانت تهدف الى تقويض أركان الدولة المغولية . وحتى حين نضن بثقتنا فى قول مداهن ظاهر التملق وهو المؤرخ شرف الدين فلا نزال مع ذلك نجد ما يؤكد أن تيمور كان منذ شبابه الباكر وأطماعه تلهبه ومشاعره تتوق به نحو عظمة مستقبله . فهو يقول فى سيرته « أخذت منذ الثانية عشرة من عمرى أستوعب كتب الحكمة العالية والقوة الخارقة ، كما حملت نفسى على الالباء والرزائة بازاء من حولى . وحين بلغت الثامنة عشرة كنت شديد الاعتزاز بما بلغته من المهارة فى الصيد وألعاب الفروسية . كما كنت أمضى وقتى فى قراءة القرآن ولعب الشطرنج وهوايات أخرى مختلفة (٣) » . ولا عجب اذن أن نجد أباه يقدر فيه الرجولة حين بلغ العشرين من عمره فيخصه بحصن (أول) ، ليتقرب هو من بعد ذلك بدوره الى زعيم يرى أنه بمستطيع تحت لوائه أن يتخذ طريقه الى المعارك والمخاطر التى كان يتوق

(١) يذكر بابر فى سيرته (بابرنامه) أن جدران الدور وشرفاتها فى هذا البلد كان يغطيها فى الربيع النباتات المتعرشة ليانعة وغيرها من صنوف النبات الأخرى . (المترجم)

(٢) وليس تاريخارى كما ذكره وايل Weil. Geschichte der Khalifen vol. II p. 21

(٣) عنوان هذا الكتاب هو (توزوكات تيمور) أى مراسيم تيمور (توزوك فى التركية تعنى مرسوم أو قانون ، والألف والتاء هى علامة الجمع فى العربية) وبهذا فهو يبدو لاول وهلة مجموعة من القوانين أشبه بياصا جنكيز . ولما كان تيمور يروى فيه كذلك تفاصيل حياته العجيبة ويوضح بواعث أهمفعاله ، فيمكن كذلك وصف هذا الكتاب ، باطمئنان ، بأنه سيرته . وأول نسخة منه أحضرها الماجور دافى Davy من الهند الى أوروبا وتقع فى ٤٤٠ صفحة بحجم الثمن ، وهى بالفارسية نقلا عن الاصل بطبيعة الحال . أما الاصل الجفتاتى فقد وجد فى مكتبة جعفر حاكم اليمن . وقد ترجم الاصل الى الفارسية أولا ، ثم نقله من بعد ذلك الى الانجليزية س . ستيوارت C. Stewart عام ١٨٣٠ (أنظر كتاب مرخام Markham الذى أشرت اليه من قبل ص ١٥ من المقدمة)

الى خوضها بكل جوارحه . وكان هذا الزعيم هو الأمير قزغان سالف الذكر . وكان تيمور قد أوفد اليه في مهمة عام ١٣٥٦ . وأعجب هذا بالشاب اعجابا شديدا حتى زوجه بحفيده أولجاي تركمان خاتون ابنة ولده صلاحان (١) ، وصحبه معه قائد الألف (منكباشي) في حربه الثانية مع حسين كرت بخراسان . وفاز هذا الأمير في حربه هذه ، ولكنه سرعان ما اغتيل من بعد ذلك . ما لبث تيمور أن فقد أباه فركبه بذلك غم مزدوج . ولم يكن أمامه عندئذ الا أن يتحالف مع الأمير حسين حفيد قزغان المقتول فيحاولا معا الانتقام من قتلة ولي نعمته . على أن الممارك التي وقعت بسبب ذلك لم تنته الا الى زيادة الفوضى ببلاد ما وراء النهر الى درجة عظيمة . حتى رأينا (٢) تقلق تيمور أمير أولوس اذ ذاك ، وقد ظهر له أنه لابد من اتخاذ اجراء حاسم لحماية مصالح أسرته من الدمار التام ، يسير جيشا كبيرا أكثره من الجته (٣) ، من المالح الى سمرقند وقد عزم على تقوية عرش آبائه بطرد الحكام الثائرين من الأمراء .

وأدى ظهور هذا الأمير بينهم الى أن عاد فريق من الثوار الى طاعته في حين هرب فريق آخر الى خراسان ، ومن بينهم جاجي سيف الدين برلاس (وهو الذي صار شيخا على قبيلته بعد وفاة تورغاي) . أما الشاب تيمور فقد قصد الى بلاط الجغتائين فرحبوا به وأقروه على ولاية كش . وظل الهدوء يخيم في الظاهر على بلاد ما وراء النهر ما بقي تقلق تيمور بها . حتى اذا ما غادرها الى المشرق عاد الزعماء المشاغبون الى العصيان من جديد حتى اضطر الى اخضاعهم مرة أخرى بقوة السلاح . وبقي فاتح آسيا ، فيما بعد ، على ولائه له . وحين ظهر تقلق ، على رأس جيشه ، في سمرقند وأقام ابنه الياس خوجه نائبا له عليها ، اختار تيمور ، بوصفه

(١) وليس مصلح خان كما ذكره خطأ Petit de la Croix D'Herbelot عن مخطوط غير صحيح . وهذه الكلمة معناها في التركية البيت أو الوطن .
(٢) وليس تجلق كما رسمه وايل وهامر وغيرهما . فكلما تق معناها في التركية العلم أو الراية فهو حامل الراية .

(٣) الجته . وليس غته كما رسمها وايل خطأ) . هو علم كان يعرف به كل عرق كان يقطن حدود منغوليا . ولم يبق منهم اليوم الا البروت . ولا يزال هؤلاء المغول يعرفون حتى اليوم في آسيا الوسطى باسم جته مغول أو مغول الحدود ، نسبة الى كلمة جت التركية بمعنى الحد .

أخلص أتباعه ، ليقم الى جوار ابنه ناصحا له . ولنا أن ندرك هنا فى سر أن تيمور ، وهو الذى جعل سلوكه هنا على الدوام رهنا بسياسة تنظيم كل الوسائل لتحقيق هدف بعيد له ، لم يكن ليرضى على الخصوص بمنصبه كمؤدب للأمير مغولى ، فبدأ من فوره بمنازعة وزير ذلك الأمير ، ليغادر من بعد ذلك بلاط سمرقند فى السر وينطلق فى نفر من أتباعه الى الصحراء التى تمتد فيما بين خانية بخارى وخيوة الحالية وبحر الخزر . وكانت هذه هى الفترة التى كان عليه أن يواجه فيها أقصى المحن ، فى مجال مغامراته ، مواجهة شريد عليه أن يصبر على كل ما يلاقيه من أخطار ومتاعب فى قفار موحشة .

ويحكى تيمور ببساطة محببة فى سيرته كيف أن زوجته الوفية أولجاي ومعهما الأمير حسن ، وكانا قد التقيا به فى الصحراء ، ظلوا جميعا يضربون فى القلاة شهرا بأكمله لا يجدون طعاما أو شرابا أكثر أوقاتهم حتى وقعوا آخر الأمر أسارى أحد التركمان ، وكيف حبس هذا التركمانى زوجته المحبوبة فى حظيرة مليئة بالحشرات . ولا مرأى فى أن هذه كانت تجربة قاسية لذلك الرجل الذى كان على نصف آسيا أن تخضع يوما لسلطانه . وفى نار تلك المحنة صهر تيمور (ومعناه الحديد) فخرج منها أساسا بتلك العزيمة الصلبة التى هيات له ذلك المستقبل اللامع . وما أن تمكن هو وأصحابه من الهرب من الأسر حتى ذهب الى كش فى السر ، فجمع من حوله بعض رفاقه القدامى فى السلاح وأصحابه السابقين ، فتجول بهم قليلا حول شاطىء جيحون ثم أغاروا جميعا على سيستان ، ليصادفه من بعد ذلك التوفيق هناك حينما ما ويتخلى عنه حينما آخر ، فتراه يستولى يوما على حصن من حصون البلوجيين ليردوه عنه من بعد فى يوم آخر . وأصيب تيمور فى إحدى وقائعه هذه بجرح فى ساقه تخلف عنه عرجه طول حياته ، ومن ثم أطلق عليه الفرس اسم تيمورلنك أى تيمور الأعرج (١) . وفيما كان يقعد باصابته هذه استطاع رفيقه حسين أن

١ - ان دعوى العالم العربى أحمد بن عربشاه ، وهى المبنية على الحقد ، بأن تيمور كان أصلا من رعاة الغنم ، فضبط وهو يسرق بعضا منها وأصيب بضربة سببت له العرج طول حياته ، قد وجدت من يصدقها بين أعداء الغازى التترى الذين تمكنت عداوتهم له فى أنفسهم .

يستولى على بلخ ، فتبعه تيمور إلى هناك . وزاد عدد رجاله إلى خمسمائة وألف فرأى أنه قادر بهم على الوقوف فى وجه القوات التى بعث بها الياش خوجه لتطارده . ووقع أول لقاء بين الطرفين عام ١٣٦٣/٧٦٥ عند الشاطيء الأيسر لجيخون بالقرب من كندز ، وانجلى عن انتصار تيمور انتصارا كاملا على قوات يزيد خمسة أضعاف على قواته ، وانسحاب رجال الياش خوجه الى الجانب الآخر من النهر . ومالبت تيمور على اثر ذلك أن انطلق يطادر الجته بلا هوادة ، كما أخرج الجغتائيين جميعا من بلاد ما وراء النهر . وساعده على تحقيق هدفه هذا بسهولة موت تغلق تيمور اذ ذاك ، وكان ابنه بدوره قد عبر سيخون وذهب الى المالك ليستولى على عرش أبيه . وما ان ترك آخر أمراء المغول أراضي بلاد ما وراء النهر حتى دخل تيمور مدينة سمرقند فاستقبله أهلها استقبالا حافلا ، وفيها لحقت به زوجته ابان الاحتفالات التى تلت ذلك ، وكانت حتى ذلك الوقت تعيش مستورة . هكذا بات تيمور ويده مقاليد الأمور كلها وقد صار سيد بلاده . وكان فى مقدوره أن يستولى على عرش سمرقند من فوره لولا ان رأى أن هناك من المصاعب ، مالا بد له من أن يتغلب عليه أولا ، ومن الأعداء من لا مناص له من استمالتهم الى صفه كذلك ، قبل أن يتمكن من تحقيق هدفه هذا . وبدا له أن حقق شائييه عليه لا بد يزداد اذا ما اتخذ لنفسه لقب السلطنة ، فحسم هذا الأمر بأن عزم على أن يقيم عضوا من أعضاء الأسرة الحاكمة نفسها على عرش الجغتائيين الذى تركه الياش خواجه بلا وريث ، فدعى القرلتاي ونصب قابيلشاد سلطانا لينصرف من بعد ذلك يزيد من فوره فى قوته ونفوذه ويسير قدما فى خطته لتحقيق أطماعه .

كان من المتوقع أن الجته سوف لا يرضون باخراجهم من بلاد ما وراء النهر . والواقع أن تيمور لم يكد يقضى عطلة الشتاء فى سمرقند حتى سمع بغارات هؤلاء البدو يقودهم الياش خواجه ، فطير الخبر من فوره الى صديقه الأمير حسين الذى سار اليه بقوة كبيرة . وأقام تيمور مضاربه بين چيناس وطشقند ، فى حين عبر حسين سيخون والتقى بالعدو وجها لوجه . وأفلح الجناح الأيمن ، وعليه تيمور ، أن يرد العدو ، فى حين

كاد الجناح الأيسر وعليه الأمير حسين أن يغلب على أمره ، لولا أن تمكن تيمور بعبقريته الحربية وهمة من أن يحول دون الهزيمة القاضية . وأدى هذا الحادث إلى وقوع جدال عنيف بين القائدين كان بداية نزاع انتهى بعد بضع سنوات من القتال إلى سقوط الأمير حسين وانفراد تيمور بالسلطان كله . وقد اضطر الجيشان المؤتلفان إلى الانسحاب من قتال الجته بعد أن خسر ألفى قتيل في حربهما معهم . هنالك تراجع حسين إلى قصبته ، سالى سراى على الجانب المقابل من جيحون ، فى حين عاد تيمور إلى قارشى . أما الجته فقد تقدموا دون عائق صوب الجنوب فحاصروا سمرقند ، ولولا أن تفشى الوباء فى دوابهم حتى اضطروا إلى النكوص على أعقابهم ، وهم يحملون متاعهم بأنفسهم ، لأعملوا السلب والنهب فى المدينة ، على رسم المغول بلا مراة .

ولو كان قد أتيح القيام بهجوم مشترك عند ذاك على هؤلاء الجته لكسرت شوكة المغول لأمد طويل ان لم يكن إلى الأبد . ولكن وقوع الانقسام بين الزميلين السابقين قد نتج عنه هوة سحيقة وجد تيمور نفسه مضطرا معها إلى محاربة حسين ومراقبة تحركات الجته فى الشمال بعين يقظة فى الوقت نفسه . وبرغم ما كان حسين يستطيع أن يجنده من قوات تفوق قوات خصمه ، اذ كانت أملاكه أعظم من أملاك تيمور وأتباعه أكثر عددا ، إلا أن الشواهد تدل على أنه كان يقدر خطورة خصمه . فقد انطلق أول الأمر يخادعه بالدس والوقعة فى السر ، حتى اذا ما تبين له أن تيمور ليس بالرجل الذى يسهل إيقاعه فى شركه ، سهر إليه آخر الأمر فرقا من جيشه وعليها قائده الأمير موسى لتعبر جيحون وتهاجمه . ورد الأمير موسى على كل حال ، ليزحف عند ذلك حسين من سالى سراى ويعبر جيحون بجيشه كله ويقيم مضاربه عند الشاطيء الآخر من النهر بموضع يدعى بتيك جكجك . وهال تيمور تفوق عدوه البالغ عليه فى العدد ، فارتد أولا إلى قارشى ثم إلى بخارى من بعد ذلك حتى يستوثق من مدى ما سوف يمد به حلفاؤه هناك من العون . على أنه ما لبث آخر الأمر أن أيقن بأن عونهم له لن يكفيه فى دفع العدو ، فاستقر رأيه عندئذ على أن يتحاشى قتاله ببلاد ما وراء النهر فى ذلك

الوقت وأن يتجنب طلبه له وذلك بالخروج الى غزو خراسان . هنالك زحف حسين من فوره الى بخارى ، وكان أهلها جميعا من التاجيك الذين يعرفون على الدوام بجبنهم . وتقدم هؤلاء للقاء عدوهم . وبرغم ما كانوا عليه من حسن التسلح فسرعان ما أحاط بهم فرسان حسين ودحروهم فى أول لقاء ، فلم يكن هناك من بعد ذلك قوة على وجه الأرض تستطيع أن تدفعهم الى الاشتباك مع عدوهم من جديد . وبهذا صار لخصم تيمور بلاد ما وراء النهر كلها تقريبا ، فى حين أمضى تيمور نفسه الشتاء يعد العدة ، نشيطا ، للمعركة التالية ، لنجده من بعد ذلك يظهر فى الربيع عند جيحون فى طريقه الى طشقند فى قوة متناهية فى الصغر ولكن أفرادها من خيرة الجند الذين استطاعوا فى مجموعة من العمليات الجريئة (وفيها برز ابنه الشجاع جهانكير فى صورة رائعة) أن يشقوا طريقهم وسط جيش الأعداء عند قارشى وسمرقند . وكان تيمور يهدف من وراء ذهابه الى طشقند أن يستحث حليفه هناك ، كيخسرو ، وكان من بيت جلاير ، على مساعدته مساعدة جدية . وكتب له التوفيق فى مسعاه هذا حتى زف كيخسرو ابنته الى ابن تيمور ، وأمدته بقوات استطاع بها أن يهزم خصمه ويرد قواته عبر جيحون ، ثم يطارده من بعد ذلك حتى سيحون^١ .

كان فى انتصار تيمور هذا الكفاية ليلقن خصمه درسا قاسيا فى حكمة التمسك بأهداب السلم . فضلا عن أن تحالفة مع بيت جلاير ، وهو من اتباع الجته ، قد ملأ قلب حسين برعب لا يقوم على غير أساس . هنالك بادر حسين بعرض الصلح على تيمور فقبل عرضه بقبول حسن ورحب به . ذلك أنه هو نفسه لم يكن ليرتاح لرؤية الجته يزجون بأنفسهم فى شئون بلاد ما وراء النهر بعد أن دخلوها بقوة السلاح ، أو لأن نفسه ،

(١) كان جيش حسين يبلغ اثنى عشر ألف مقاتل وكان يحتمى بحصن قارشى . وقد هاجمه تيمور فى ثلاثة وأربعين ومائتين من الرجال فحسب . وقد عبر هؤلاء الأبطال خندق الحصن فى جنح الليل على قطعة من الخشب لا تتسع الا لفرد واحد ، ثم تقدموا وتيمور على رأسهم فتسلقوا الأسوار وقتلوا الحراس ثم نجحوا من بعد ذلك فى طرد الحامية منه .

كما يقول مؤرخوه ، قد طارت شعاعا عند رؤيته المؤمنين يقتل بعضهم بعضا أو يسرق بعضهم البعض الآخر . وأيا ما كان واقع الأمر فإن الصلح لم يعقد بين الطرفين فحسب ، بل أن تيمور قد بادر كذلك بعبور جيحون وأعان حسين على اخضاع أحد عماله الخارجين عليه فى بدخشان . ولم تزل الرابطة تقوى بين الأميرين حتى رأيناها يسييران معا لغزو كابل ، وكان حسين يبنى ضمها الى ملكه . ومع هذا فإن السلام لم يدم بينهما طويلا . ذلك أن تيمور لم يكد يغادر بدخشان ليدفع غزوا للجنه هددوا به مجرى سيحون الأعلى (وقد نجح فى ذلك) حتى انطلق حسين ينفخ فى الناس فتحرش بتيمور من جديد واضطره الى حربه . وفى هذه المرة لم يزحف تيمور على بلخ بمفرده ، فقد انضم اليه أهم اتباع حسين السابقين دفعهم الى ذلك — على حد قول شرف الدين — أنهم كانوا قد ضاقوا ذرعا بدسائس أميرهم التى لا تنتهى ، أو لأنهم ، وهو الغالب : قد أغراهم صعود نجم تيمور المتزايد . وبرغم ذلك كله فقد قاوم حسين عدوه فى اصرار بالغ فلم يستسلم له الا حين سقطت بلخ آخر معاقله . هنالك انحدر من اسوارها الى معسكر عدوه وتضرع اليه أن يبقى على حياته ، وقد أعلن اليه ، على حد قول ميرخوند ، عزمه على السير الى البيت الحرام ليذرف هناك دموع الندم ويستغفر ربه عما اقترفه من ذنوب كثيرة . وأبى على تيمور كرمه الا أن يعفو عن أخى زوجه المحبوبة . غير أن من حوله لم يقروه على ذلك لفرط ما كان قد لحقهم من الاهانات على يديه حتى صمموا على قتله . ولم يجد الحاج تيمور الكثير عليهم شيئا ، فاضطر آخر الأمر الى أن يسلم اليهم من كان رفيقا له فى شبابه وصديقا ، ثم غريما فاشلا من بعد ذلك فأنزل من برج كان قد لجأ اليه آخر لحظة وسبق الى الموت عام ٧٧١/١٣٦٩ .

بهذا أصبح تيمور ولا منافس له . فقد تم له بعد السيف ابعاد كل أعدائه الخارجين عليه عند حدوده الشرقية بما فيهم الجته . وعلى هذا فقد جرى فى خاطره ، بحق ، أن الوقت قد حان لينهى ذلك الحكم الاسمى الذى كانت تمارسه تلك الدمية التى كانت مجرد سلطان صورى ، وأن يضع على مفرقه تاج بلاد ما وراء النهر الذى كسبه بشق النفس .

وكما تظاهر نادر (١) ، من بعد ذلك ببضعة قرون، بقدر من القصد والحياء الشرقي المصطنع قبل أن يتقلد التاج ، — وهو الذى كانت سيرته أشبه بسيرة تيمور — فكذا لم يرض تيمور لنفسه أن يرقى الى أرفع منصب دون تثبيت القرلتاي له فى ذلك . وضم هذا المجلس ، حين عقده ببلخ لهذا الغرض ، أعيان الدولة الجغتائية السابقة مع أقران تيمور فى السلاح ورفاقه فى شبابه ، ومعهم شائئوه السابقون . ويذكر المؤرخ ، من بين هذه الأسماء البارزة ، الأمير شيخ محمد بايان ، من بيت سولدز والأمير الجايتو (٢) ، والأمير كيخسرو من بيت ختلان ، والأمير داود من قبيلة دوغلات ، والأمير سربغاى من بيت جلاير والأمير جاكو من قبيلة برلاس، والأمير زنده هشم وغيرهم من المشهورين (٣) . وعلى الرسم التركى القديم أجلس تيمور على لباد أبيض بمكان مرتفع . وبعد أن حمد الله وأثنى على نبيه واعظه السيد برکه ، نودى به أميراً على بلاد ما وراء النهر فى العاشر من رمضان عام ٧٧١/ ٨ أبريل ١٣٦٩ . هنالك فرق تيمور العطايا الفاخرة فى أتباعه الذين كان قد كسبهم لصفه برفقه وتسامحه ، وفى كثيرين كذلك ممن كانوا يعادونه . حتى اذا ما تم له تثبيت سلطانه على هذا الجانب من جيحون ، عبر النهر الى سمرقند فاتخذها حاضرة له . وظلت هذه المدينة ، منذ ذلك الوقت حتى وفاته ، منتجة ومستراحة بعد متاعب الحروب العديدة التى خاض عمارها . واليها كانت تحمل الأسلاب العظيمة والأموال الطائلة التى سقطت بأيديه فى بلاد آسيا المختلفة العديدة . وأول ما اتجه اليه تيمور بعد أن أمسك بأعنة الحكم هو محاولة اقرار الأمور من جديد فى ذلك الاقليم الذى كان يعمه الفوضى . وكان تيمور برغم غيرته الاسلامية البالغة ، يعجب أشد الاعجاب بمجموعة قوانين چنكيز . وهذه ، وهى نتاج تورانى سياسى بارع ، كانت بلا مراء

(١) هو نادر الافشارى شاه ايران الذى خلف الصفويين (المترجم)

(٢) لا أستطيع ان أعلل قراءة دولاكرو Petit de la Croix لهذا الاسم على أنه أولاجى ايتو .

(٣) كان من بين هؤلاء زنده هشم أمير شيورغان ، وكان قد ثار مرات عديدة فى وجه تيمور ولكنه أخضعه ، وبلغ بما لقيه من المعاملة الكريمة الى ان صار من أخلص أتباعه .

أصلح لأحوال الشعوب التركية التتيرية من تلك القوانين السامية الخالصة المستمدة من القرآن والسنة . ومن هنا نستطيع أن ندرك بسهولة كيف حرص تيمور حرصا بالغا على التمسك بالياصا تمسكا شديدا وأصر عليها برغم معارضة شيوخ المسلمين في ذلك (١) . كما نقل بأمانة كل قوانين الفاتح المغولية الخاصة بالنظم العسكرية في البلاد واحتفظ بالرتب العسكرية المغولية كرتبة تومان أغاسى (قائد عشرة الآلاف) ويوزباشى (قائد المائة) وأونباشى (قائد العشرة) .

أما نظام الحكومة فقد بقى على حاله اللهم الا قوانين المكوس فقد عدلت على وجه يوائم الى حد ما ما نص عليه الشرع الاسلامى . وأما القواعد التى كان يجرى على أساسها منح الرتب فقد اقتبست هى ومراسم البلاط الى درجة كبيرة مما كان الحال يجرى عليه عند الأسر الحاكمة الأولى وعلى رأسها السلاجقة والخوارزمشاهية . فعن الخوارزمشاهية أخذت رتبة بكهربكى ، أى أمير الأمراء ، وهى تعادل فى العصر الحديث رتبة المشير ، وشارتها علم أحمر طويل . أما رتبة تومان أغاسى ، فشارتها « اتوك » وهو رمح طويل بطرفه ذيل حصان ، ورتبة يوزباشى وشارتها طبلتان من طبول الموسيقى يحملها تابعه (٢) على جانبى سرجه . وكان الموظفون المدينون يلزمون ، أثناء اضطلاعهم بواجباتهم ، بمعاملة الأهلىن بالعدل والانصاف مع رعاية مصالح التجارة كذلك .

(١) يتهم ابن عربشاه بوجه خاص تيمور بدون حق بأنه جعل الياصا فوق القرآن . فال معروف أن التشريعات الاسلامية تصلح لحكومة دينية أكثر مما تصلح لحكومة عسكرية، فلا مجال لها بذلك مع الياصا فى الغالب (المؤلف) هذا القول يجانب الصواب ، وكان الأخرى بالمؤلف أن يرجع أولا الى تاريخ الفتوحات الاسلامية التى دوخ بها العرب بنظمهم الفرس والروم . ومع هذا فقواعد الياصا الأساسية لا ينكرها الاسلام فى أغلبها . والمعروف كذلك ان الاسلام ، وهو دين وحكم ومدنية ، قد أبقى على كثير من النظم التى وجدها بالبلاد التى فتحها وأخذ بها . (المترجم) .

٢ - لاتزال هذه الرسوم تقوم حتى اليوم . ولا يظهر أى فرد من بين كبار أصحاب الرتب من الأوزبك بالميدان أو يسرح الا ويتقدمه تابعه بدق طبله .

وكان على القواد أن يحرصوا بدقة على سلامة رجالهم . وكان على كل فارس أن يجهز بفرسين قويين وقوس وجعبة مليئة بالسهم وسيف ومنشار وفأس من قووس الحرب وخيوط مع عشر من المسال . وكانت الخيام تعد في الميدان بحيث تتسع الواحدة منها لثمانية عشر رجلا . ويفرض كذلك في كل ضابط أن يكون ملما بقواعد أساسية بعينها للتكتيكات الحربية . ولا يزال هذا النظام يلزم به اليوم كل فارس أوزبكي أو قائد تركماني في تعليمه (١) .

أما الجندي العادي فكان يلزم بالطاعة التامة لرؤسائه . وكان عليه أن يندفع بحماس في القتال ، على أن يعامل عدوه بلطف اذا ما استسلم اليه واسترحمه . وفي الجملة كان الجندي التيموري أبعد ما يكون عما وصفه به أعداء تيمور بأنه كان مجرد غول شرس . وعلى ما ورد في توزوكات تيمور لم تكن الادارة المدنية لهذه البلاد أقل احكاما ونظاما عن الادارة العسكرية . فكان على رأس هذه الادارة ديوان ييكي (كبير الحجاب) يعاونه ارزييكي (الحجاب) وأربعة من الحجاب . وكان أحد هؤلاء الوزراء يوكل به شئون الخراج والكوس والشرطة . أما الثاني فكان يناط به أمر مدفوعات الجند وتموينهم ، في حين كان يختص الثالث بسجلات واحصائيات الجيش والمواريث ، والرابع بنفقات البلاط السلطاني . وكان كبار الموظفين يوكل بهم تنفيذ القوانين وجمع الخراج في رفق بالناس ما سمعهم ذلك . والمفروض أن استخدام السوط كان ممنوعا منعا باتا ، حتى لنرى تيمور يقول ان الحاكم الذي يهاب الناس سوطه أكثر من شخصه غير جدير بمنصبه .

ولم تكن اعادة تنظيم حكومة بلاد ماوراء النهر بالأمر اليسير ، وهي التي مضى عليها أكثر من قرن في فوضى شاملة . وكان من الطبيعي أن يجرى هذا الاصلاح بالتدريج . على أن تيمور كان قد اتجه منذ البداية

١ - جرى الرسم على أنه حين كان يعطى البدوى الشاب خيمة خاصة به أي حين يبلغ رشده ، كان يمثل أولا امام جمعية من أعيان القوم فيختبرونه في المسائل التي تتعلق بالمقيدة والآداب وتربية الماشية أو الفروسية أو يلقي هو بحديث في ذلك كله

الى اشباع نفسه فى الفتوح ، وهدف الى مد حدوده كما هدف فى الوقت نفسه الى اقرار الأمور الداخلية فى دولته . وقد اضطر أول الأمر بطبيعة الحال الى أن يكفى نفسه خطر أشد أعدائه وهم الجتة ، وكانوا لا يزالون ولهم نفوذهم فى موطنهم القديم حتى لم يكن ليستبعد منهم أبدا أن يقدموا على غزو بلاد ما وراء النهر من جديد . وبأدركهم تيسور نفسه بالهجوم ، فما أن ظهر بينهم عام ٧٧٢/١٣٧٠ حتى استسلموا له طواعية ، ليعود من بعد ذلك الى سمرقند . وما غدا كبك تيمور أميرهم الجديد أن شق عصا الطاعة من جديد على كل حال . وبرغم أن الجيش الذى بعث به سمرقند كان قد أفلح فى قمع هذه الفتنة ، الا أن تيمور لم يقنع بنصر قائده حتى خاض بنفسه غمار حرب جديدة مع أعدائه القدماء ، فاجتاح منازلهم وأعمل السلب والحريق فيها يمينا وشمالا ، ثم عاد آخر الأمر الى موطنه محملا بالغنائم وفى ركابه عدد عظيم من الأسرى .

وما أن انقضى على ذلك أربع سنوات حتى جمع قمر الدين أمير الجتة جيشا كبيرا من جديد عند كوك تيه ، فخرج اليه تيمور فى جيش كثيف بدوره . ودارت الدائرة على الجتة ، وفر قمر الدين من الميدان تاركا متاعه وحريره وفيهم ابنته الحسناء دلشاد أغا ، فوقع ذاك كله بأيدى الفاتح المنتصر . وبنى تيمور بهذه الابنة على أمل أن تؤدى تلك المصاهرة الى انضمام عدوه له . ولكنه لم يبلغ بذلك الى ما كان يرمى اليه وهو ضم القسم الشرقى من دولة چغتاي السابقة اليه ، حتى وقعت حرب خامسة هزم فيها قمر الدين هزيمة حاسمة اضطر على اثرها الى الفرار من هذه البلاد الى غير رجعة . وقد وقع ذلك آخر عام ٧٧٨/١٣٧٦ .

وفىما كانت الحوادث تجرى بما سبق ذكره كان بطلنا يتجه بتفكيره كذلك الى ناحية أخرى هى خوارزم . فسلك بازائها سياسة عدائية أدت الى وقوع الحرب معها . فقد ادعى بغير حق (١) أن كت وخبووك (٢)، بل

(١) اخطأ كتاب سير تيمور ومعهم وابل فى كتابه عن تاريخ الخلافة ثان ص ٢٣ ، فى اعتبار خوارزم من بين أملاك الجغتائين . ذلك أن خانية خبويه كانت فى زمن المغول تعد جزءا قائما بذاته فى ملك جوجى (٢) كانت خبويه تعرف فى القديم باسم خيووك ، وهو لفظ من أصل تركى كان غير معروف زمن السلاجقة .

وبالحقيقة كل خوارزم كانت فيها مضي جزءا قائسا بذاته في أملاك
 الچغتائيين الموروثة ، وعلى هذا فان أميرها حسين صوفى ، - وكان من
 قبيلة قنغرات - يلزم بدفع الخراج له . وأوفد تيمور الى هذا الأمير أول
 الأمر تواجى (١) علقمة ليؤكد له باسمه صحة دعواه هذه. ولكن حسين رد
 عليه بأنه انما استولى على هذا الاقليم بسيفه ، فهو بهذا لن يتخلى عنه
 الا بقوة السلاح . ولم يعوق تيمور عند ذاك عن غزو خوارزم لفوره الا
 توسط الشيخ جلال الدين ، وكان من أعيان كش ، فى محاولة جديدة
 لحل هذه المسألة سلميا . وفشل الشيخ فى وساطته هذه على كل حال
 كما فشلت وساطة له من قبل ، ليزحف عند ذلك تيمور الى خوارزم فى
 ربيع عام ٧٧٣/١٣٧١ بجيش كبير . ووفد اليه وهو على أهبة الرحيل
 رسل أمير هراة الجديد لتعلن ولاءها باسم هذا الأمير وتقدم اليه ، فىما
 قدمت من الهدايا ، فرس الحرب ذائع الصيت كنگ أوغلان (الرفيق
 الأسمر) الذى تغنى بذكره الكتاب الشرقيون . وسلك تيمور فى زحفه
 طريق بخارى ثم عبر الصحراء عند كت (قريبا من هزاراسب) . وقد
 استولى على هذا المكان بعد حصار شديد ، ثم انطلق من بعد ذلك الى
 خوارزم ، حصن حسين صوفى . وبرغم دفاع كيخسرو أمير ختلان فقد
 سقط ذلك الموضع بعد معركة فى السهل هزم فيها الخوارزميون . ومات
 حسين ابان الحصار فسارع أخوه يوسف صوفى الى طلب الصلح وقد
 راقه فى الغالب أن طلب تيمور يد ابنة أخيه الأميرة الجميلة سيوين (٢) لابنه
 جهانكير ، وذلك تدعيما لما قام بينهما من تحالف . وأجاب يوسف خصمه
 الى ما طلب عن رضا وسرور ، وبهذا صار فى مقدور تيمور أن يستدير
 عائدا الى وطنه وهو قرير العين بما حقق من نتائج ومكاسب . على أنه
 لم يكذب يشرع فى العودة حتى رأينا يوسف ، بتشجيع من الغادر كيخسرو ،

(١) هو فى الأصل تباجى (وليس توبجى كما قرأه هامر وغيره خطأ)
 وهو لقب العامل المنوط به شئون التعبئة ، وهو مشتق من المصدر التركى
 تيمك = أن يجد .
 (٢) وتنطق فى التركية الحديثة ، سويون ، بالامالة ، معناها الجميل
 او اللطيف .

لا يرفض الوفاء بوعده بخصوص المصاهرة فحسب ، بل ويثور كذلك في وجه تيمور . هنالك اضطر تيمور الى حربه مرة ثانية عام ١٣٧٢/٧٧٤ ، وانتهت هذه الحرب بانتصار تيمور كذلك .

وتبع ذلك أن زفت الأميرة آخر الأمر الى ابنه ، وقد آتت معها بأثاث فاخر . واحتفل بالزفاف في سمرقند احتفالا فخما . ولكن الأجل لم يطل بالأمر جهانكيز من بعد ذلك الا عامين ، كما لم تستمر الهدنة بدورها بين الفريقين الا قليلا . هنالك اضطر تيمور الى أن يخوض غمار حرب ثالثة ثم رابعة مع خوارزم . وفي المعركة الرابعة نادى يوسف بفكرة غريبة مفادها أن يتبارز هو وتيمور على انفراد فيوفر بذلك وقوع الصدام بين الجيشين ، فكتب في ذلك الى خصمه يتساءل الى متى تظل الدنيا كلها تغرق في الآلام والبؤس بسبب رجلين ، وأن من صالح الانسانية ومصلحة بلديهما بالتالي أن يتلاقيا وجها لوجه منفردين ويجربا حظهما معا ، على حد قول القائل :

حين تخضب سيوفنا بالدماء

فالسعيد من سوف يكتب له البقاء .

وقد سر تيمور بهذا الاقتراح أيما سرور . وبرغم معارضة سيف الدين برلاس (١) له في تعريض حياته الغالية للخطر، فقد كان هو أول من برز للقاء خصمه وأخذ يناديه بصوت عال ليخرج اليه . لكن يوسف لم يظهر له أثر اذ ركبه الذعر والوجل وندم على اقتراحه . وآثر يوسف القتال بجنده في المعركة فهزم ، ومات بحصن خوارزم عام ١٣٧٩/٧٨١ في نفس الوقت الذي كان فيه تيمور يحاصره . ووقع بأيدي الفاتح هناك كنوز طائلة نقلها الى كش . وحمل معه كذلك كثيرا من مهرة الصنائع

(١) نسي تيمور نفسه عند ذلك لفرط تحمسه حتى شتم في ذلك الشيخ سيف الدين برلاس وعنفه على اعتراضه اذ عد ذلك تطاولا منه عليه وشكا في شجاعته .

وأرباب الحرف ، وعددا كبيرا من العلماء ، كما شيد هناك قصرا تذكارا لاتتصاراته هذه . ثم أمضى الشتاء من بعد ذلك فى حاضرتة طلبا للراحة من عناء العمل وأخذ فى الاستجمام والاستمتاع بها .

وبرغم أن خصوم تيمور وصهره الأمير حسين والجتة المبعدين عند حدوده الشمالية الشرقية قد تتطلب منه اخضاعهم همة بالغة واستنفد جهودا طائلة، فقد كان عليه مع ذلك أن يتحمل مزيدا من المشاق حتى تم له اخضاع أعدائه فى خوارزم الغريبة . ذلك أن الأخوين الصوفيين كانا ، الى جانب مواردهما الكثيرة ، يستطيعان الاعتماد على عون خانات القبيچاق لهما ، وبالاخص على عون حكام « القبيلة الذهبية » وهو الاسم الذى كانت تعرف به دولة جوجى عادة . وكان حكام خوارزم قد تحالفوا مع حكام سراى على تيمور منذ زمن طويل ، فكان فى سقوط الخوارزميين النذير الأكبر لحلفائهم . ولم يكن تيمور ، بعد أن عاد مظفرا من خوارزم وقد باتت آسيا الوسطى كلها تخضع لسلطانه ، ليعسر عليه أن يدرك آخر الأمر أن هذه البلاد التى تقع على شواطىء سيحون وجيحون غدت لا تكفى أطماعه ، وأنه قد بات وفى مكنته أن يترسم فى سر خطا چنكيز الذى كان يرى فيه مثلا أعلى فى الحرب . وما يمنع هذا المحارب ، وهامو ذا الحظ يحالفه فى كل خطاه ، أن يطمح الى دور « فاتح العالم » وهو الذى أخضع كل توران له . ولو كان ذبوع عبقريته الحرية لم يؤلب عليه أعداءه وحساده ، فانه لم يكن على كل حال ليعدم سببا يبرر به اعتداءاته ، حتى لتراه فى ترجمة حياته لا يفتأ يردد قول الشاعر :

« اذا كان هناك رب واحد فحسب فكذلك يجب أن لا يكون هناك الا سلطان واحد . وما تكون الدنيا بأسرها بالقياس الى طموح أمير عظيم ! »

بل اننا لنجده كذلك يقول فى سيرته « فى كل اقليم يسود العسف والظلم ، يصبح من واجب كل أمير كائنا من كان أن يقتلع أرباب الفتن ويغزو هذا الاقليم وذلك لصالح السلام العام والأمن . وعلى كل أمير مظفر أن يخلص الناس من الذين يستبدون بهم ، وهذا هو الذى دفعنى الى فتح خراسان والى تخلص ممالك فارس والعراق والشام (دمشق) من الفوضى التى كانت تسودها » . وما كان تيمور ليبلغ درجة غزاة العالم لولا ما كان له

من عبقرية عسكرية لا تنكر الى جانب مواهبه الشخصية العالية . هذا بالإضافة الى ما تهيأ له من جيش ثابت حسن التدريب ، أفراد على الطاعة العمياء وقواده على أعلى درجات الكفاية. وكان أكثر الجند الذين ساروا تحت راياته هم أنفسهم الذين كانوا معه أول حياته فخاضوا معه مغامراته الخطرة يوم كانت الأيام تتقلب عليه .

وكان قوادهم من أمثال جهانكير برلاس وسيف الدين برلاس وآقبا وعثمان عباس ومحمد سلطان شاه وقمارى وتبان بهادر وأوروس بغا وبير حسين برلاس وحمزة ابن الأمير موسى ومحمد فزغان وسريك أتكه ومظفر اوچقرا ، ممن برهنوا على مالهم من كفاية حربية سواء حين كانوا يحاربون فى صفه أو حين كانوا يناصبونه العداء . على أن أهم ظرفين مهذا له بلوغ غايته هما :

أولا : حالة الفوضى التى كانت تسود آسيا .

ثانيا : الروح الحربية القوية التى كانت تسود تركستان .

هذا وكانت آخر آثار الوحدة القومية قد اختفت هناك بانهار قوة المغول وتفكك ذلك الاقليم كله الى امارات عدة أصحابها أبعد ما يكون عن أن تقوم الألفة بينهم ، متحاربون فيما بينهم بأشد قسوة وعداء . وفى مثل هذه الأحوال كان ليد قوية مثل يد تيمور ، يظاهرها روح جسور وطالع سعيد ، أن تأمل فى بناء تلك الدولة التى امتدت من نهر ارتش (بسييريا) الى الكنج ومن صحراء جوبى الى بحر مرمره .

لقد أحطنا تامة بفعال تيمور فى موطنه اذ كانت هذه على اتصال مباشر بموضوعنا فى الأكثر : أما حروبه الخارجية فسوف تتعرض لها بغير تطويل ، وان كانت هى فى حد ذاتها جديرة بالتفصيل بوصفها قوام أزهر حقبة فى تاريخ بلاد ما وراء النهر . ذلك أن المنهج الذى التزمناه فى كتابنا هذا يجعلنا نكتفى بأن نحصى نتائج هذه الحروب دون أن نتعرض لتفصيل وقائعها وحوادثها . وهذه ، على كل حال ، تضمها

مؤلفات هي اليوم في متناول أيدي الشعوب الأوربية منذ زمن طويل (١) .

كانت أولى فتوحات تيمور ، فيما وراء حدود آسيا الوسطى ، هي عند الشمال ، في بلاد خلفاء جوجي . ويمكن أن يقال ان أصحاب هذه البلاد قد جلبوا على أنفسهم سيف الغازي بتلك الفتنة العمياء التي أدت الى قيام الحرب الأهلية فيما بينهم .

فقد حدث أن لاذ بتيمور عام ٧٧٧/١٢٧٥ ، وهو في حربه مع الجتة ، الأمير تختمش (٢) بعد أن طرده عن عرش آبائه هناك الأمير المخوف أوريوس خان . وصادف اضطراب الأمور في هذا الاقليم هوى في نفس تيمور ولأهم أغراضه أتم ملاءمة ، فاستقبل تختمش بحفاوة بالغة وصحبه معه الى سمرقند بعد أن غره بهداياه ، ثم عهد اليه من بعد ذلك بحكومة أترار وسربان ، وهما ولايتان في تركستان الحالية ، فصار بذلك في وضع

(١) من بين سير تيمور التي غدت في متناول القراء الأوربيين ما يأتي:
أولا : الترجمة الفرنسية للكتاب الفارسي الذي ألفه شرف الدين يزدي .
وبرغم تحيز المؤلف الظاهر لهذا الغازي التتري فان كتابه يحوي أوسع التفاصيل عن حياة تيمور وفعاله ، وقد نقله الى الفرنسية نقلا غير دقيق لسوء الحظ Petis de la Croix ونشره عام ١٧٧٢ . ثانيا : الترجمة الانجليزية لرواية ميرخوند عن حياة تيمور وقد قام بها دافيد برايس D. Price ونشرها عام ١٨٢١ في كتابه Mohammedan History وليس كتاب ميرخوند في ذلك الا صورة لما ورد عند شرف الدين على كل حال . ثالثا : هامر في كتابه عن تاريخ الدولة العثمانية Hammer, History of the Ottoman Empire رابعا : مالكولم في كتابه عن تاريخ الفرس Malcolm, History of Persia خامسا : وايل في كتابه عن الخلافة العباسية في مصر Khalifate of the Abbasides in Egypt سادسا وأخيرا : دهر بيلوت في المكتبة الشرقية D Herbelot, Bibliothèque Orientale.

(٢) وليس توقتمش كما ذكره كثيرون ممن سبقوني نقلا عن الرسم العربي والفارسي الخاطيء . وتختمش لفظ جغتائي حديث يقابل لفظ منفكو القديم ومعناه ، الخالد أو الباقي . هذا وكان ممن صحبوني في رحلتي بأواسط آسيا حاج من خوقند دفعت به تقواه الى أن يبدل اسم ابنه ، وهو تختا ، باللفظ العربي المقابل له وهو (باق)

يستطيع به أن يدفع عن نفسه خصمه القديم ، وكان قد سير فى أثره ابنه الأكبر توخته كايا بجيش ليطارده . ولم يحالف الحظ تختمش على كل حال ، فقد أصيب بالهزيمة بعد محاولتين فاشلتين له ، واضطر على أثر ذلك الى أن يلوذ بتيemor للمرة الثالثة فقدم اليه جريحا ممزق الثياب . هنالك رأى تيمور أن واجب الضيافة يقضى عليه أن يسير الى حرب أوروس خان بنفسه . على أن البرد والرطوبة فى الصحراء الموحشة منعا لقاء الجيشين حتى اضطرأ أن يقيما هناك أشهراً متواجهين دون أن يستطيعا القيام بأى حركة .

وخرج تيمور الى خصمه فى الربيع التالى عام ١٣٧٦/٧٧٨ ، اكراما لضيافته ، فواتته الظروف هذه المرة وتم له القضاء على أوروس خان وابنه توخته كايا . وبهذا لم يعد ينافس تختمش الا تيمور ملك ابن أوروس الأصغر . ومن الواضح أن هذا الأمير لم يكن يستطيع أن يقف أمام جيوش أعدائه المتحدة ، وقد هزمه تيمور بالفعل عند قراتال وأسرته ثم قتله . هنالك ثبت تختمش أقدامه من جديد فى بلاده ثم انطلق من بعد ذلك بقواته فاستولى على كل خانية القبجاق وأخضع الماماي ثم اندفع من بعد ذلك فى داخل روسيا حتى بلغ موسكو فأحرقها عام ١٣٨٤/٧٨٦ وتركها رمادا . وأسكره ما أحرز من نجاح فتتأسى أيادى تيمور السابقة عليه وأراد أن يجعل من نفسه فاتحا للعالم ، فغزا عام ١٣٨٧/٧٨٩ شواطئ قزوين الغربية وأسرع من هناك فهاجم تيمور نفسه (١) وكان منهمكا اذ ذاك فى فتح اقليم آذربيجان . هنالك أسرع ميرانشاه بن تيمور فعبر نهر كور اليه ورد مقدمة جيشه . وحين رأى تيمور خصمه يرتد فى ذعر بالغ أثر أن يعالج المسألة ببساطة ورضى بالصلح معه على القول المأثور «الفتنة

(١) يشير هامر - بورجستال فى كتابه عن تاريخ القبيلة الذهبية ص ٣٤٠ الى أن السبب الأول لقيام العداء بين تختمش وتيمور هو مقتل الأمير حسين حفيد قزغان (وليس اسفان) وهو أمير من بيت جفتاي وينسب هامر وجنايى الذى نقل عنه أن الأمير قزغان لم يكن جفتايا على الإطلاق بل هو تركى عدو للمغول .

نائمة لعن الله من أيقظها» (١) . ولم يعد تيمور الى ذلك الا ليرتقب فرصة تواتيه من بعد ذلك ينفس فيها عن استيائه ، وقد واثته هذه من بعد ذلك بعامين . ففي شتاء عام ١٣٨٩/٧٩١ ، والثلج يغطي الأرض بطبقة كثيفة تغوص فيها أطراف الخيل ، بارح تيمور سمرقند ليلتقى بتختمش ، وكان قد هاجم حدوده الشمالية ، فهزمه شر هزيمة عند شواطئ سيحون ، ثم أنزل به من بعد ذلك ضربة أخرى في الربيع التالي عند الشاطئ الأقصى لذلك النهر . ولم تطفئ هاتان الواقعتان من ظمأ تيمور للانتقام ، فخرج من جديد شتاء عام ١٣٩١/٧٩٣ على رأس جيش كبير تام الاعداد ليهاجم تختمش في بلاده نفسها .

ولاقت الخيول النصب بسيرها ومناوراتها طوال شهور ستة عبر سهوب جنوب سيبيريا الجرداء . ولم يكن سير الجيش فوق هذه الأراضي شديدة الانبساط تامة الاستواء ، في مشقته ونصبه دون الحملات المشهورة عبر الجبال العالية (٢) . وظل هؤلاء الجند وقد نال منهم الجوع والتعب يذرعون الأرض كلها طلبا لعدوهم حتى التقوا به آخر الأمر في شهر مايو عند شواطئ يايك (اورال) الخضراء . هنالك قامت عدة مناوشات مثيرة بين الفرسان من الفريقين ، وتحارب الجيشان آخر الأمر معا بشجاعة لثلاثة أيام ركب فيها الفريقان الهول حتى غدر بتختمش رجاله في النهاية فهزم ولجأ الى الفرار . وقد جد تيمور في أثره بداخل روسيا حتى قيل انه بلغ في مطاردته له مدينة موسكو .

وأدرك أهل هذه المدينة ، كما يلاحظ جيون بحق ، أن حماية أيقونه العذراء المعجزة لهم لن تفيدهم في كثير ، فذهبوا ، في حذر وفطنة ،

(١) أخطأ المؤلف حين حسب هذا الأثر من آي الذكر الحكيم (المترجم)

(٢) لم يكن على جيش تيمور أن يواجه جوا بالغ القسوة فحسب ، بل كان عليه كذلك أن يقاسى الجوع والحرمان من كل وسائل الراحة . فقد انقضت جراية الجندى في اليوم الواحد الى فنجان واحد من الحساء الحمصى ، وقد اضطر تيمور آخر الأمر الى وقف زحفه وأخذ ينظم حملات للصيد على نطاق واسع أفادت الى حد ما في تلطيف حدة الجوع وعساونت بذلك على معاودة الزحف من جديد .

يتوددون الى بطل بلاد ما وراء النهر . وعاد تيمور الى وطنه بعد هذه الحملة التي استغرقت احد عشر شهرا ، ومعه عدد كبير من الأسرى (وفيهم أسرة خصه ونساؤه) وكل كنوز الشمال وجواهره ، فخورا بأنه قد أصبح ينطوى تحت لوائه قسمان من أهم أقسام مملكة چنكيزخان السابقة ، فلم يبق منها ما هو خارج عن سلطانه الا القسم الثالث وهو الذي يحوى ابران والعراق وجزءا من الهند . وها هو ذا قد اطمأن كل الاطمئنان الى استقرار الأحوال عند حدوده الشمالية ، وبهذا رأى أن قد آن الأوان ليوجه كل اهتمامه صوب الغرب .

كان تيمور قد بدأ فعلا فى فتح الأقاليم التي تتكلم الفارسية (أى خراسان و ایران) قبل أن يتم اخضاع تختمش بوقت طويل . فقد سير ابنه ميرانشاه ميرزا عام ٧٨٢/١٣٨٠ وبصحبه نفر من القواد الأكفاء لفتح خراسان ثم لحق به هو بنفسه بعد قليل سالكا الطريق الذى مهد له ابنه المقدام . وهناك كان على الغازى الكبير أن يواجه أسرتين حاكمتين منفصلتين . ففى الشمال كانت تحكم أسرة سربدار (١) ، وكان قد قام بينها وبين تيمور نوع من الصداقة أيام كانت تحيط به المتاعب والضيق . وقد استسلم أفرادها له دون مقاومة . أما الجنوب فقد كان يحكمه أسرة كرت (الذى ذكرناه من قبل) وكان قد سبق لتيمور حربها فى شبابه . ولم تر هذه أن تحسم الأمر مع تيمور سلما ، فقد آثر عميدها غياث الدين پير على أن يعتمد على سيفه دون شهامة تيمور ورحابة صدره ، فانطلق بهمة

(١) هذه الأسرة ، التي استولت على خراسان الشمالية الشرقية بعد سقوط المغول ، كان أفرادها قد قدموا من العراق . وهم نسل من يدعى شهاب الدين الذى ينتسب من ناحية ابيه الى الامام الحسين ومن ناحية أمه الى خالد اليرمكى . وكان لشهاب الدين هذا خمسة أبناء هم أمير الدين وعبد الرازق ووسيط الدين وناصر الدين وشمس الدين . ولم يبق حكم هذه الأسرة بخراسان الا لمدة خمسة وثلاثين عاما واشتهر من بين أعضائها :
١ - عبد الرازق وحكم عاما واحدا وشهرين ، ٢ - مسعود وحكم سبعة أعوام ، ٣ - شمس الدين ٤ - توغان تيمور - ٥ - كساب حيدر ، ٦ - يحيى كرتى ، ٧ - حسن دامغانى ، وأخيرا مؤيد عبد الرازق الذى استسلم لتيمور طواعية .

يدافع عن أراضيه التي كانت تمتد اذ ذاك من جبال الهندكوش في الشرق ومرغاب في الشمال حتى الاقليم الصحراوي عند شاهرود .
على أن جهوده كلها باءت بالفشل . فقد سقطت حاضرتة هراة بعد مقاومة عنيفة ، أما المدن الأخرى مثل كبوشان وطوس ونيسابور وسبزاور ، وهي جميعا من مراكز العلوم والفنون المشهورة ، فقد فتحت أبوابها للغزاة اذ أثر أهلها أن يجعل تيمور منها مراكز لحامياته على أن يحيلها الدمار الى خرائب . وهكذا استسلم للغزاي بلاد الأفغان وبلوخستان وسيستان فضلا عن خراسان ، وبهذا وجد نفسه عام ٧٨٨ / ١٣٨٦ وقد أصبح مطلق اليدين ، ليتجه من بعد ذلك الى العراق وبلاد فارس الأصلية .

كان يحكم اذ ذاك بمناطق ايران سالفة الذكر أسرتان منفصلتان ، فالأجزاء الجنوبية ، وهي فارس وأصفهان كان يحكمها آل المظفر ، في حين كان الايلخانيون يسيطرون على العراق وآذربيجان . وأدت بشاه شجاع ، عميد الأسرة الأولى ، حكمته الى أن يجنب أبناء الأراضى الجنوبية المرفهين لقاء جنود بلاد ما وراء النهر الأشداء فاستسلم لتيمور من تلقاء نفسه . وقوى من رباط السلم بين الفريقين زفاف ابنة شاه شجاع الى الأمير پير محمد ، ابن جهانكير الراحل . أما السلطان أحمد ، ابن الشيخ عويس جلایر ، فلم يرض بما ذهب اليه شاه شجاع ، اذ وقر في ذهنه أن فرسان الأكراد ومحاربى آذربيجان كفيلون بالوقوف فى وجه هجوم قوات تيمور فأقبل على الحرب . وانهالت عليه الضربات منذ البداية حتى اضطر الى ترك عاصمته القوية الحصينة سلطانية الى بغداد ، في حين عبر عدوه المنتصر نهر أراكس فجثا تحت قدميه كل القوقاز الشرقى بضربة واحدة ودخل مدن نخجوان واريوان وتفليس وشروان فاتحا .

واضطرت جيلان بدورها الى الخضوع برغم مناعة موقعها وبرغم ما كان يحيط بها من مستنقعات عميقة وأحراش فطرية كثيفة ، كما حمد تهمرس أمير ارمنية ، بعد سقوط حصنه وان المشهور ، لسلطان الشرق الأقصى المهاب أن تركه على بلاده تابعا له .

كانت أسرة القره قيونلو (الخروف الأسود) وأصفهان البلد الثائر
هنا وحدهما اللذان تعرضا لسخط الفاتح التتري في هذه الحملة . فقد
فقدت هذه الأسرة أقوى حصنين لها وهما: حصن أخلاط وحصن عادل
جواز .

أما اصفهان فقد أهلك تيمور من أهلها سبعين ألفا لقتلهم ثلاثة آلاف
من جنده غدرا (١) . وماتت هذه المذبحة الشنيعة بالرعب نفس زين الدين
ابن الشاه شجاع حتى عدل عما كان ينتويه من خلع نير الخضوع لتيمور
الذي كان قد ارتضاه من قبل . كذلك قدم آل المظفر بدورهم الى شيراز
فأعلنوا خضوعهم لتيمور الذي عاد من بعد ذلك الى سمرقند مظفرا عام
١٣٨٩/٧٩١ فركن هناك الى الاستجمام والراحة بعد النصب ، ففطق يقيم
الحفلات ويعتقد مجالس السمر ويخرج للصيد تجديدا لقواه واستعدادا
لفعال جديدة يضطلع بها . وقطع عليه استجمامه هذا حربه مع تختمش
التي فصلنا أمرها من قبل . وعاد من هذه الحملة ليضطلع بما يعرف بحرب
« السنوات الخمس » في الغرب وهي التي رام بها القضاء على
الاضطرابات السائدة هناك ، اذ ذاك ، وليجنى ، في الحقيقة ، ثمار كل
حروبه السابقة باخضاع ايران والعراق اخضاعا تاما .

فما ان أبل من مرض قصير كان قد ألم به عام ١٣٩٢/٧٩٤ حتى
عبر جيحون عند آمويه على رأس جيش عرمرم حسن التدريب فزحف على
طول حدود ايران الشمالية حتى بلغ استراباد لتأديب الثوار في مازندران.
ولم تستسلم له أمل الا بعد قتال عنيف . وهذه المدينة ، وهي أهم موضع
في مناطق ايران الجبلية ، كانت مركز الحشاشين الغلاظ المتعصين (٢). وقد

(١) لقد نهض اذ ذاك حداد ، كما فعل كاوه في القديم ، (كان كاوه
حدادا حمل لواء الثورة في فارس القديمة ، وتشتهر في تاريخ ايران رايته
التي تعرف باسم درفش كاويان (المترجم) يستحث أهل أصفهان على الثورة
ومباغطة الحامية التيمورية . ونتج عن ذلك أن أقام تيمور أهرا ما من رعوس
سبعين ألفا من السكان رمزا لانتقامه منهم .

(٢) لا يزال الذين يتآمرون في السر يعرفون حتى اليوم باسم
الفدائيين ، والفدائي هو من يضحي بنفسه فهو شهيد .

نزل بأبطالها جزاء دفاعهم الجسور عنها مذبحة بشعة يعجز عن وصفها حتى
قلم المؤرخ الشرقى .

ومن اليسير كل اليسر أن ندرك كيف خيم سكون الموت على ذلك
المكان بعد نزول هذه الكارثة به . وهاجم تيمور من بعد ذلك بأسلحته
المخضبة بالدماء لورستان وخوزستان عبر همدان وبروجرد ودزفول . وما
ان استولى على قلعه سفيد (القلعة البيضاء) ، ذلك الحصن الجبلى
القوى ، حتى انطلق يهاجم شاه منصور المظفرى بعنفه المعتاد . وكان هذا
الأمير قد استطاع فى غيبة تيمور أن يوحد امارات آل المظفر الخمس تحت
لوائه ويعد له جيشا قويا . ومع هذا فان ذلك كله لم يكن ليقف فى وجه
ذلك التترى ، والنصر يغمره ، ف وقعت بين الفريقين معركة عنيفة عند بتيلة
انقض فيها شاه منصور على رأس فرسانه ، فى ضراوة الأسود ، على
صفوف التركستانيين الحاشدة فحطم كل ما صادفه من عوائق حتى وصل
الى مكان تيمور نفسه .

ودق مركز تيمور (١) ، اذ لم يكن يحيط به أكثر من أربعة عشر من
الجند أو خمسة عشر ، لولا أن أسرع حفيده شاهرخ ميرزا فجمع من
حواله زمرة من الجند المرتد وألقى بنفسه فى طريق العدو ، وقطع رأس
شاه منصور فى مبارزة واحدة ثم ألقى بها من بعد ذلك تحت أقدام جده
محيا كالعادة بقوله « فلتطأ حوافر فرسك رءوس أعدائك على الدوام » .
وما لبث العدو أن نزلت به الهزيمة الحاسمة ، وفيها هلك آل المظفر
جميعا الا اثنين منهم ، كانت أعينهم قد سملت من قبل ، فحملا الى
سمرقند . وقد وقع بأيدي تيمور متاع شاه منصور كله . وما ان فرق
البلاد المفتوحة بين قواده حتى عاود زحفه عام ٧٩٥/١٣٩٣ ليخضع
العراق العربى من جديد .

(١) يقول شرف الدين أن شاه منصور كان قد اقترب من تيمور حتى
وجه اليه ثلاث ضربات من سيفه وقعت على خوذته ، وقد حاول تيمور أن
يدفع عن نفسه هذا الهجوم المفاجئ لولا أن حامل حربته كان بعيدا عنه . .
ولم يتمكن من النجاة دون اصابات تذكر الا بفضل حامل ترسه عادل آق طاش
وحارسه الخاص قمارى .

ولم يستطع الايلخانى أحمد جلاير أن يجنب بلاده فى هذه المرة شر
الدمار . ذلك أن «تيمور» بعد أن استعاد آذربيجان وتم له إخضاع بلاد
الكرد ، عبر دجلة فى قارب السلطان نفسه واستسلمت له بغداد دون
اطلاق سهم واحد . ولم يستطع سلطانها الطريد أن ينجو من سهل كربلاء ،
ذى الذكريات الأليمة (١) ، الا بفضل فرسه العربى التى مرقت به كالبرق
الخاطف تاركا من ورائه نساءه وأولاده ليستقوا جميعا أسرى بأيدي
الغازى .

وهكذا سقطت مدينة الخلافة للمرة الثالثة بيد فاتح تترى بعد قتال
خفيف الى حد ما . وبرغم ما أبدته المواقع القوية الأخرى فى الجزيرة ومردين
وديار بكر وتكرت من مقاومة زائدة فإن رايات هذا الغازى المنتصر
ما غدت أن اجتاحت مظفرة كل ارمينية وبلاد الكرج . على أن أصداء
الفرح بالنصر ما غدا أن قطع رجليها بوادى منك كول (الألف بحيرة)
اللطيف وصول الأنباء بأن تختمش ، وهو الذى نزلت به الهزيمة من قبل
ذلك بسنين ، قد ظهر من جديد ، وكأنه المارد ، فأخذ يتهدد التوقاز بالغزو
من ناحية دربند ، فكان على الأيدي عند ذلك أن تطرح الكؤوس المترعة
جانبا مرة أخرى لتمسك بالسيوف المخضبة بالدماء من جديد . ولقد أثر
تيسور على كل حال أن ينتظر فى هدوء حتى يبدأ عدوه بالهجوم ، وفى
رأيه « انه من الأجدى أن تنتظر حتى يسقط الطير بنفسه فى الشباك بدلا
من أن تجرى وراءه .. ان الديك العجوز لا يخاف جوارح الطير . واذا
كانت الجرادة تكبر حتى تصير أجنتها مصبوغة باللون الأحمر فانها عند
ذاك تستطيع أن ترد هجمات العصفور عليها ضربة بضربة » . وارتفعت راية
تيمور منتصرة آخر الأمر عند شواطئ بحر الخرز الغربية ، كما انتصرت
عند شواطئه الشرقية من قبل . وأصيب تختمش بالهزيمة وفر هاربا الى
الصحراء عند الجنوب من سبيريا . وانطلق خصمه من بعد ذلك يطارد
فى روسيا حتى بلغ موسكو فاتتهبها ، ثم ترك عليها كوورجوك بن أوروس

(١) يشير المؤلف بذلك الى وقعة مقتل الحسين بن على بن أبى طالب
(المترجم) •

خان ليحكمها بوصفه تابعا له ، ثم عاد من بعد ذلك الى بلاد الكرج ليضيف انتصارا جديدا في قائمة انتصاراته التي كان يحتفل بها هناك .

هكذا تم لذلك المغامر السابق بهضاب تركستان الاستيلاء على آسيا الشمالية والغربية بالتدريج ، وازدان تاجه بأكثر من مملكة واحدة غنية لها تاريخ قديم . أما جنده ، وهم الذين قدموا من شواطئ ايسيكول وجيخون وسيخون ومعهم فرسان الصحراوات الواسعة الشجعان ، فقد حصلوا معهم الى سمرقند كل ما أمكنهم حمله من متاع آسيا الغربية وكنوزها وجواهرها .

هذا كما قدم السفراء الى تيمور من كل حذب وصوب ليعلنوا له خضوع عواهلهم له ويلقون بهداياهم عند أقدام فاتح العالم . ومع هذا كله فان طموح تيمور لم يكن ليعترف بحدود ، وظمأه للحرب لم يتلطف ، أو يسكن . وعاد تيمور آخر الأمر الى وطنه عام ١٣٩٦/٧٩٩ بعد غيبة دامت خمس سنوات فاستقبل هناك استقبالا حافلا . فقد خرج لاستقباله عند ضفاف جيخون زوجاته وبناته وحفيداته في حاشية ملكية فخمة، فنثرن الذهب والجواهر بين يديه على الرسم القومي (١) وأهدين اليه ألفا من الخيول المسومة والبغال . وقصد الغازي الكبير لدى وصوله ضريح أبيه في كش فقرأ الفاتحة ، وتعهد المنشآت التي كان يجري العمل فيها أثناء غيابه ، ثم دخل آخر الأمر سمرقند في أبهة لم يسبق لها مثيل . وفضلا عن العروس الجميلة التي كسبها في ميدان المعركة ، فان هذا المحارب الشيخ ، الذي كان قد بلغ الثالثة والستين من عمره ، اتخذ لنفسه زوجة جديدة شابة هي الأميرة توكل خانيم (٢) ، وأهداها ذلك القصر الصيفي

(١) لا تزال بقايا هذا الرسم عند العثمانيين اليوم ، اذ تنشر العملة الفضية أمام السلطان في موكب الاحتفال بالعيدين . وكذلك تنشر العملة الذهبية والفضية عندما يدخل العريس غرفة عروسه لأول مرة فتتقدم لاستقباله .

(٢) خانيم ، أي زوجة الخان ، وقد حرف هذا اللفظ الى كلمة « هانم » الشائعة ، وبيكيم ، أي زوجة البك ، وقد حرف بدوره كذلك الى (بيجوم) (المترجم) .

انجيل، المعروف باسم قصر دلخشا (أى فاتح القلوب) . ومضى على
 تيمور بمرقند حين من الدهر كان وقفا على الحفلات والمسرات . ولم
 تكن فتنة البهجة والسرور الا لتثير فى نفس تيمور ، فى الغالب ، شوقا
 للاضطلاع بالحرب من جديد . فما ان فرغ ، ابان لبثه بعاصمته ، من
 تقسيم ما فتح من ارضين بين ابناءه حتى امتطى فرسه مرة أخرى ليقود
 جنده الى مناطق جديدة أمعن فى البعد . فلا يزال أمامه أن يفتح الهند
 فى الجنوب وبلاد الروم فى أقصى الغرب ليستطيع من بعد ذلك أن يرى
 نفسه جديرا بلقب فاتح العالم (جهانكير) . وكانت الهند على الدوام فى
 نظر المسلم الآسيوى رمزا للشراء البالغ فى حين كانت بلاد الروم رمزا
 للقوة . فانى تيمور أن يهدأ باله اذن قبل أن يضيف هذين القطرين الى
 قائمة فتوحاته . ولما كان أول هدفه هو أن يمتلك شبه الجزيرة التى تقع
 بين السند والكنج ، فقد تقدمه حفيده بير محمد ، ببعض الوقت ، بطريق
 هراة ف ضرب الحصار حول الملتان . وكان تيمور قد عقد العزم على أن
 يكون الزحف الذى يقوده مهيبا ذا أهبة . فتقدم بطريق بلخ عبر مرتفعات
 الهندكوش الثلجية ، وكافح رياح هذه المناطق الثلجية ليصطلى من بعد
 ذلك بنار الحرب مع سكان هذه الجبال الجسورين . ولم ينل ذلك كله
 من عزيمة هذا الغازى شيئا ، فتدلى وجنده بالجبال وعبروا بها المنحدرات
 شديدة الميل والجرف الهاوية حتى روع خصومهم بفعلتهم هذه . واخترق
 تيمور من بعد ذلك كابل الى الهند عبر المر المشهور الذى هزم عنده من
 بعد ذلك بأربعمائة وأربعين عاما جيش دولة أوربية عظمى بأيدي أحفاد
 رجال الجبال الأشداء هؤلاء (١) .

حيدر

(١) يقصد المؤلف بذلك دولة بريطانيا حين حاولت بعد استيلائها على
 الهند أن تبسط سلطانها بالقوة على بلاد الأفغان بدعوى حماية حدودها
 الهندية من خطر نفوذ روسيا المتزايدة بآسيا الوسطى اذ ذاك . وقد أنزل
 رجال القبائل الأفغانية بالبريطانيين ضربات قاصمة فى معارك متكررة وعلموهم
 ببسالتهم وضراوتهم فى القتال كيف يحترمون مشيئة الأحرار (المترجم) .
 انظر فى ذلك أيضا : حاضر العالم الاسلامى ثان ص ٢٩٩ - ٢٠٠ (تعليقات
 الأمير شكيب أرسلان ١٣٥٢ هـ) .

وعبر تيمور السند في الأيام الأولى من القرن التاسع الهجري ،
ثم واصل سيره الى دهلي قضبة السلطان محمود (١) بعد أن انضم اليه
حفيدته عند ستلج « رافد السند » . ورأى ذلك الغازي أن يتخفف من
حشود الأسرى الذين كانوا يسرون في ركابه فيعوقون من حركته فأمر
بقتل مائة ألف من هؤلاء التعساء (٢) . ودعى كل فرد في الجيش الى
المشاركة في تنفيذ هذا الأمر القاسى .

ويصف المؤرخ مبلغ الفزع الذى استولى على العالم الوادع نصير
الدين اذ كان عليه أن يقتل بيده خمسة عشر من رقيقه الهندي . وعند
تيمور الى التظاهر بالترأخي في الهجوم حتى يحصل بذلك عدوه على
مبادئه بالحرب . ونجح في خطته هذه حتى وقع الهنود فى الشرك الذى
أعدده لهم فنزلت بهم الهزيمة شاملة ، ووقع بأيدي الفاتح التتري مدينة
دهلي ، تلك المدينة التجارية الغنية على نهر الكنج (٣) بكل كنوزها
وسكانها الذين اشتهروا ببراعتهم فى كثير من الفنون الدقيقة . ولقيت
مدينة ميترا المقدسة (٤) نفس المصير ، ونزل بها أشد الذعر بعباد وشنو
التعساء ، فلم يغنهم ذلك فتيلاً فحطت أقدس معابدهم وكسرت
أصنامهم . وتقدم تيمور من بعد ذلك حتى منابع الكنج وهو يعمل
القتل والدمار بكل ما يصادفه فى طريقه ، لينطلق من بعد هذه المذابح
العنيفة يستمتع بصيد النور ووحيد القرن ، ثم رجع آخر الأمر الى
سمرقند فى ابريل من عام ٨٠١ / ١٣٩٩ ومعه عدد كبير من الفيلة ومهرة
الصناع والأسرى من كل صنف .

(١) هو السلطان محمود تغلق (المترجم)

(٢) عمد تيمور الى ذلك حين علم بشيوع الفرح بين الأسرى على اثر
مباغطة بعض قوات دهلي لبعض حملاته الاستكشافية ، فخاف أن يركن
هؤلاء الى تهديد مؤخرته وتخريب خطوطه والمركة دائرة مع عدوه ؛
ملفوظات تيمور ص ٦٣٦ (المترجم) .

(٣) أخطأ المؤلف فذكر السند بدل الكنج (المترجم) .

(٤) هى مدينة بنارس (المترجم) .

لم تكن حملة تيمور الهندية الا مجرد عمل عسكري باهر ، لا أهداف له ، وغارة للحصول على الأسلاب ، على ما فعله سلفه المغولي من قبل وما انتهجه نادر من بعد . ولقد ادخر القدر العبقري بابرميرزا ليغرس آخر الأمر راية التيسوريين على شواطئ السند والكنج من بعد ذلك بقرن من الزمان . وعلى أية حال فقد أدى هذا النصر المؤقت الى ازدياد شهرة تيمور وذيوع صيته ، ودفعه طموحه ، الذي لا يعرف حدودا ، من بعد ذلك ليحرب حظه مع أمير الغرب (الروم) القوى .

لم يتغيب تيمور طويلا عن مسرح فعالة الباهرة السابقة في الغرب . ومع هذا فإن بناء حكومته الذي كان قد أقامه هناك ، في غمرة النصر ، قد تعرض ابان ذلك لبعض هزات عنيفة . وحدث أن أدت حكومة ابنه ميرانشاه (١) بتقاعسها الى قيام الاضطرابات والثورة في آذربيجان ، كما مات في الوقت نفسه حليف قوى لتيمور وجار له في هذه الجهات ، فأطعمه ذلك كله في اضافة أراض جديدة عند حدود هذه الدولة القوية . لهذا خرج من عاصمته بعد أن استراح بها فترة قصيرة ليزحف من جديد على آسيا الغربية . ولئن لم يتعرض لابنه بشيء جزاء اهماله فقد ساق الى الموت جميع خلصائه ومستشاريه ، ثم أسرع من بعد ذلك ، بطريق هراة وقزوین ، الى أراكس ليكسر شوكة ملك جورجین أمير الكرج الثائر . ولجأ هذا الأمير الى الاحتساء بالصخور الوعرة والحصون فلم يجده ذلك فتیلا ، اذهزم جيشه في كل مكان وسقطت حصونه وعاصمته .

واستطاع تيمور آخر الأمر بعد معركة قصيرة حامية أن يقيم مضاربه بوادی قره باغ اللطيف ، وكان على جنوده أبناء سهوب تركستان الأشداء أن يتالوا قسطهم من الراحة ، بعد هذه الأسفار المضنية ، قبل أن يخرجوا

(١) يروي كلافيجو أن ميرانشاه أمر يوما بهدم دور كثيرة ومساجد وغيرها من المنشآت ، ذلك أنه - على حد قوله - « بوصفه ابن أعظم رجل في الدنيا لا بد وأن يشتهر بشيء ، ففعل ذلك لكي يذكره الناس على الأقل بأنه دمر هذا أو ذاك من المنشآت » ولعل هذا التتري مدعى البطولة كان يعاني من الهذيان . ويحاول مؤرخوه على كل حال أن يبرروا سلوكه هذا بأنه أصيب بخلل في قواه العقلية على أثر سقوطه من فوق فرسه .

الى ما عزم عليه قائدهم العظيم من مهاجمة قرينه التركي بايزيد سلطان العثمانيين . ذلك أن قوة وريث بلاد الروم هذا كانت بمثابة شوكة في جانب تيمور ، فضلا عن أن بايزيد كان قد تحالف مع أسرة قراقونلو التركمانية ، وكان تيمور يحقد على هؤلاء أشد الحقد ، اذ كان يرى نفسه بوصفه صاحب السلطان المطلق على قبائل الترك ، أحق بأن يدين الناس له بالولاء من اتباع السلاجقة السابقين (١) هؤلاء .

وقعت بين العاهلين التركيين اللذين كانا يحكمان بآسيا الشرقية وآسيا الغربية حرب ضروس ترك لنا عنها المؤرخون المسلمون والمسيحيون على السواء تفصيلات تثير الرعب والاشمئزاز في النفوس (٢) . وقد انتهت هذه في صالح الفاتح التتري . فلقد بدأ تيمور بدعوة فرج سلطان مصر ليقدّم له تفسيراً عما ارتكبه أباه حين قتل العلامة الشيخ ساوه رسول تيمور اليه . ودفع الابن ثمن جرم أبيه غاليا اذ اجتاحت هؤلاء التتار اقليم سوريا ونهبوا مدنها العامرة ودمروها . وباستيلاء تيمور على سوريا قضى على كل تحالف ممكن بين العثمانيين والعرب . هنالك استدار تيمور لحرب بايزيد ، وهو الذي يكاد يدانيه في القوة والشهرة ، وأصم أذنيه عن كل ما نصحه به مستشاروه ايثارا للمودة ، اعتمادا منه على ما كان يشعر به من أنه ند لخصمه وتحقيرا لشأنه . ولم يكن تيمور بحاجة الى من يحرضه على قتال خصمه هذا ، فتقدم في ربيع عام ١٤٠٢/٨٠٥ من سيواس بطريق قره شهر الى أنقرة حيث شهدت وديانها معركة دموية

(١) لم يكن ذلك وقفا على أيام تيمور فحسب، اذ لا يزال التركي بالشرق الأدنى يقول في وقتنا هذا بقربائه لاخوانه في الشرق الأقصى . كما أن التركماني البسيط يعرف تماما أن بنى جلدته يقيمون كذلك حول ديار بكر . ولا تزال التقاليد والخرافات الشرقية أكثر قوة وأشد رواجاً من حكايات كليو (اله التاريخ) .

(٢) من بين الجرائم البشعة التي وقعت عند احتلال سيواس مايرويه دو كاس وشالكوندبلاس Ducas, Chalcondylas بأن (تيمور) قد أمر بفرسان النصاري ، الذين كانوا في خدمة بايزيد ووقعوا في الأسر ، بأن يسيروا في عشرات فيلقى بهم في حفرة ويدفنون أحياء . أما أهل المدينة من المسلمين فقد قطعت رؤوسهم جميعا بعد أن كان تيمور قد وعدهم بالابقاء عليهم .

عنيفة جرت بين الجيشين . و انتهت هذه المعركة بدحر العثمانيين دحرا تاما و وقوع بايزيد نفسه و نسائه في الأسر . و بهذا النصر الحاسم الرائع سقطت آسيا الصغرى كلها بأيدي تيمور ليزحف من بعد ذلك الى أزمير . و لولا البحر لواصل زحفه و سقط على أوروبا نفسها .

و لم تكن خطته في الشرق الأقصى لتسمح له على كل حال باطالة اقامته في الغرب . فما ان تم لجموعه اعمال السلب والنهب و انزال الدمار التام بهذه البلاد المفتوحة حتى استدار بهم فدخل سمرقند عام ١٤٠٤/٨٠٧ دخول الظافر للمرة التاسعة . و على الرسم المعهود أقيمت الاحتفالات و أفراح الزواج و حلقات اللهو و السمر هناك . و لم يشهد هذا كله وفود البلاد الآسيوية فحسب بل شاركهم في ذلك كذلك سفير أعظم ملوك أوروبا استمساكا بالمسيحية ، هو الفارس دون روى جونزالردو كلافيجو مبعوث هنرى الثامن ملك الاسبان ، و كان قد وفد على رأس بعثة صدقة الى تيمور .

و سنرى في الفصل التالي أن التار كانوا يمارسون لهوهم بنفس النشاط الذين كان لهم في حروبهم . فمن أتيح له أن يشاهد تيمور وهو يتصدر هذه الحفلات تحيط به حاشيته المشهورة ، لم يكن ليصدق في سر أن ذلك العاهل هو نفسه ذلك المحارب الجبار المعروف . و لم يكن تيمور في سنه المتقدمة هذه يقضى عطلته الخاصة الا في اختيار الأماكن التي سيتجه اليها في غزواته المقبلة ، و اعداد العدة ليتوج بأكاليل جديدة من الغار . و فيما كان تيمور يستقبل سفراء الدول المختلفة لقي سفير الصين بفتور ظاهر .

و الغالب أن «تيمور» ، وهو العظيم فاتح نصف آسيا ، لم يستطع أن يخفى سخطه حين دعاه رسول حاكم كمبالو هذا ليدفع اليه ماعليه من أتاوة سنوية معلومة . فلم تهدأ كبرياؤه الجريئة حتى عزم على حربه . و سار ذلك الجندي الشيخ في قوة صغيرة ، ولكنها كاملة الاعداد ، و الشتاء على أشده ليهاجم « امبراطورية الصين و افراتة الزهور » ، فغادر سمرقند في الرابع من يناير عام ١٤٠٥/٨٠٧ وهو يعاني من برد أصابه

بسبب قسوة الجو ، فلم يأبه به ، وعبر سيحون المتجبد ونزل عند أترار
فى شهر فبراير . هنالك اشتدت العلة عليه حتى أعلن طبيبه مولانا فضل
الله أن حالته قد باتت ميئوسا منها . وقد ظل تيمور ، وهو الذى واجه
الموت مئات المرات ، محتفظا بشجاعته ورباطة جأشه حتى اللحظات الأخيرة
فى حياته .

والتف حول فراشه أبناؤه وأحفاده ورفاقه القدامى ليكون بمرارة
ساعة فراق زعيمهم ، وهو يطلب اليهم أن يستمسكوا بالشجاعة ويوصيهم
بالاتحاد والتآلف ، والطاعة لير محمد الذى رسمه خليفة له . وحين
سألوه عما اذا كان يريد استدعاء ميرزا خليل سلطان وغيره من كبار
الأمراء اعتذر لهم بأنه لن يعيش الا لحظات قليلة وأبدى أسفه اذ لن
يسكنه الموت أبدا من رؤية ولده المحبوب شاهرخ ميرزا . وسرعان ما أخذت
قواه على اثر ذلك تنهار . وأشار ، وهو فى النزاع الأخير ، برغبته فى أن
يقوم على غسله الملا هبة الله وأن يقرأ القرآن على فراشه . وقضى أول
مساء السابع من شعبان عام ١٤٠٧/١٤٠٥ ، ونقل جثمانه الى سمرقند
فوورى فى نفس الضريح الفخم الذى كان قد أقامه لشيخه المحبوب السيد
بركة . وكان هذا الشيخ هو أول من تنبأ له فى شبابه بعظمته المقبلة .
وهكذا رقدا معا جنبا الى جنب فى قبر واحد (١) . وكان تيمور عند
موته فى الحادية والسبعين من عمره . وقد قضى أكثر من نصف هذه
المدة حاكما مطلقا على بلاد ما وراء النهر ، كما صار صاحب النفوذ
الأكبر فى العالم الاسلامى الشرقى كله . وهو يقارن ، بحق ، بطموحه
وعبقريته الحرية وقوة ارادته ، بقيصر والاسكندر وچنكيز . وما اتسمت
به حروبه من اغراق فى سفك الدماء قد بعث الرعب فى نفوس معاصريه
من الآسيويين حتى لا نملك هنا الا أن نصف مؤرخه العربى أحمد بن
عريشاه بعض الشيء ، برغم اشتهاره بعدائه الشديد للغازى التترى ،

(١) فى وصف هذا البناء الذى يعرف اليوم باسم «تربتى تيمور» ، انظر
كتابى travels in Central Asia p. 358

وذلك فى حديثه الذى أجراه على لسان الشتاء ، وفيه يصف توقف هذا المحارب المحنك أبان تقدمه عبر الوديان الثلجية بآسيا الوسطى حيث يقول « مهلا يا شوم ورويدك أيها المظلوم الغشوم ، فالى متى تحرق القلوب بنارك ، وتلهب الأكباد بأوامك وأوارك ، فان كنت أجد نفسى جهنم فانى أنا ثانى النفسين ، ونحن شيخان اقتربنا فى استيصال البلاد والعباد ، فانحس بقران النحسين ، وان كنت بردت النفوس وبردت الأنفاس فنفحات زمهريرى منك أبرد ، أو كان فى جرائدك من جرد المسلمين بالعذاب فأصماهم وأصمهم ففى أيامى بعون الله ما هو أصم وأجرد ، فوالله لا حاييتك فخذ ما آتيتك ، ووالله لا يحملك يا شيخ من برد ريب المنون لواجع حرة مجمرة ولا واهج لهيب فى كانون » (١) .

وها نحن قد فرغنا من تاريخ حياة تيمور وفعاله على ما فصلناه ، فى حدود منهجنا فى هذا الكتاب ، لنحاول فى الفصل التالى من بعد ذلك أن نرسم صورة عامة لبلاط تيمور وحاضرتة . ذلك أن حكومة تيمور كانت فى الواقع قد بلغت غاية المجد بذلك الاقليم الصغير فيما وراء جيحون وغمرت بالنور تاريخ الشعوب التركية . ولا تزال تقاليد قبائل كثيرة منهم تتألا فى بقية من هذه الأنوار . ولم يعد فى الواقع لهذه الأقاليم فيما وراء جيحون وسيحون بموت تيمور أى دور فى التاريخ العام . فقد كان هو آخر قائد قاد مئات الألوف من محاربى الترك والتتار ، من أبناء شعوب آسيا الوسطى ، الى آسيا الغربية .

(١) عجائب المقدور فى أخبار تيمور لأحمد بن محمد بن عبد الله المعروف بابن عربشاه ، المطبعة العثمانية ، القاهرة ١٣٠٥ هـ ، ص ١٦٦ (المترجم) .



الفصل الحادى عشر شخصية تيمور - بلاطه وحاضرت^(١)

يصف أصدقاء الفاتح العظيم ابن « المدينة الخضراء » بأنه كان مثال الجمال فى الرجال ، فى حين يقول عنه أعداؤه انه كان صاحب عاهة قبيح المنظر حقيره . وعلى ما هو متواتر بين بنى قومه حتى اليوم ، كان تيمور فى الأرجح متوسط القامة ، متين البناء ، قوى البنية . وقد ظل محتفظا بقوته ونشاطه كاملين حتى تقدمت به السن برغم ما عاشه من حياة غير مستقرة قضى أكثرها مضطلعا بالحروب وشئونها .

وكان منتصب القامة حتى لا يكاد الناظر اليه يدرك ما كان به من عرج ، أما صوته فكان جهوريا حتى ليطفئ على ضجيج القتال فى المعارك ويتجاوز أسماع من حوله الى كثيرين ممن وراءهم . وما كان يعاني منه وحده هو ضعف بالبصر حتى ، لم يستطع ، وهو فى السبعين من عمره ، أن يتعرف على الرسل الأسبان بسمرقند حتى قربوهم من مجلسه . وكانت ملامح تيمور مغولية خالصة ، ولم يكن امتزاج الجنس التركى بالعناصر الايرانية (٢) واختلاطه بها يجرى ، حتى زمن تيمور ، على نطاق واسع .

(١) ما فصله هنا عن بلاط تيمور وعاصمته هو نقل فى الغالب عن كتاب كلافيجو الذى سبقت الإشارة اليه . وقد قام السيد مركهام Markham سكرتير الجمعية الجغرافية الانجليزية العالم ، بخدمة طيبة حين ترجم هذه المذكرات عن الاسبانية . وكان كلافيجو لماحا ، فكانت مذكراته بذلك مما يعتمد عليها باطمئنان .

(٢) لم تكن تجارة الرقيق مع ايران قد تطورت فى المحل الاول كما هي عليه الآن . ذلك أن شراء الرقيق من الفرس الشيعة لم يرخص به إلا بفتوى الملا شمس الدين التى صدرت بعد وفاة تيمور بخمسين عاما . وكان امتزاج الشعبين بذلك نادرا . ثم أن الترك ببلاد ما وراء النهر كانوا يؤثرون فى الغالب أن يصهروا الى بنى جلدتهم من المغول والايغور دون التاجيك الذين كانوا يوصمون اذ ذاك بالجبن ويشتهرون به .

وعلى هذا فقد أخطأ كاتب سيرة تيمور اذ يضيف عليه من سمات الجمال الايرانى حين يصوره كبطل ، فهو يصف الفاتح التترى بأنه ذو لحية طويلة نضر البشرة ، رقيق الجلد . والواقع أن « تيمور » لم يكن له من مظهر الايرانيين أو أهل آسيا الغربية الاثابه .

كانت الأزياء الشائعة اذ ذاك ببلاد جيحون ، كعموم أحوالهم الاجتماعية ، خليطا عجيبا تمثل فيه الرسوم والعادات البوذية والاسلامية ، فنجد أن « تيمور » كان يظهر فى المناسبات الرسمية بنفس الثياب الحريرية الناعمة الهفافة ، التى لا تزال تروج بين سكان آسيا الوسطى حتى اليوم ، والتى كانت اذ ذاك الزى الذائع فى آسيا الاسلامية . أما غطاء رأسه فكان على كل حال مأخوذا عن الزى الصينى أو المغولى ، فلم يتخذ تيمور فى الواقع العمامة الاسلامية ، كما أشاع ذلك عنه شرف الدين فى فخر ، فكانت قلنسوته (١) من الفراء مخروطة الشكل يعلوها ياقوتة على هيئة الكمثرى يحيط بها الجواهر والماس . كذلك كان تيمور يقلد المغول فى التزين بالأقراط الطويلة ، ولم يكن بحال ما يكره الزينة والبهرج أبدا ، وكان كلفا بذلك الى درجة تلفت النظر . على أنه كان فى حروبه الطويلة يلزم نفسه بالتقشف الشديد حتى كان يبدو بين جنده مثالا للبساطة الاسبرطية . وثمة تناقض آخر ملحوظ كنت تراه فى أظهر نواحي خلقه ، فتعاليم الاسلام والصوفية الدقيقة التى غرسها فيه أبوه وشيوخه فى شبابه كان يلتزمها فى الحرب على الدوام الى جانب طبيعته الثائرة وأطماعه التى لا حد لها .

وكانت هذه الناحية الأخيرة هى التى تسيطر عليه كما توحى به القواهر حتى روى عنه أنه كان ينادى بأن الحكومة لا تقوم الا بحد

(١) لا تستخدم هنا كلمة قبعة ، فهى كما يعرفها الاوربيون لها حافة فهى بذلك محرمة عند المسلمين تحريما تاما بوصفها من رسوم المسيحية . وغطاء الرأس الحديث عند القرغيز له حافة بارزة كذلك وانما له شق من الأمام (فلا يعوق المصلى) فيبيحه الشيوخ على ذلك .

السيف (١) . ومع هذا كله فليس من اليسير أن تغلب صفات الوحشية والقسوة عند ذلك الرجل الذى أمر جنده وهم ينهبون اصفهان ألا يتعرضوا بسوء للحى الذى كان يسكنه العلماء ، والذى كان يشارك فلاسفة هراة وحلب محاوراتهم الشرعية ، ويبدل العطاء الوفير حتى لمن كان منهم على خلاف معه فى رأى . ولقد رأينا يسعى جهده لكسب ود العالمين المشهورين : شمس الدين الفنارى ومحمد الجزرى الى صفه فبذل لهما العطايا فى ذلك وبالغ فى استرضائهما برغم ما كان يعلمه من شدة عدايتهما له ، وكانا قد وقعا فى أسرهم ببلاط عدو له . كذلك كان يعتبر أن أعظم كسب خرج به من البلاد التى فتحها هو حصوله على هؤلاء الصناع وأهل الفنون من أبناء تلك الأصقاع الذين ألحقهم بخدمته . ويروى عنه كذلك أنه أمر ذات مرة بنقل مكتبة بأكملها على متون البغال من بروصه الى سمرقند (٢) .

ان أولئك الذين يقرنون «تيمور» بجنكير فى صفاته فيقولون عنه انه كان مثله مجرد متوحش وظالم مستبد ، انما يخطئون فى ذلك خطأ مزدوجا . ذلك أن تيمور كان جنديا آسيويا قديرا استغل انتصاراته على الرسم الذى كان شائعا فى عصره وفى بلده ، بل ان ضروب القسوة والدمار التى شنع بها عليه أعداؤه انما كان قد ارتكبها وأمر بها ليشأر لبعض ضرر لحق به ، وان كان قد تغالى فى ذلك بلا جدال . فقد أنزل بأصفهان وشيراز ما أنزل انتقاما لمقتل أحد جنوده غدرا . هذا كما كان على سكان دمشق ، ورثة الأمويين القدماء ، أن يكفروا عن استشهاد أسرة الحسين ، وكانت قصة هذه المأساة قد ملأت تيمور بالخط والحق . وهناك كثير من المذابح التى قيل بوقوعها ، منها ما انطلق أعداؤه يهولون

(١) هذا المعنى قد أجراه على لسانه مؤرخه الفارسى بالعبرة الفارسية الآتية : « ملكرا اكر قرار خواهى كرد ، تيغرا ، بيقرار بايد كرد » .
 (٢) المشهور المعروف أن «تيمور» بعد أن دخل فى جدل عنيف مع العلامة شرف الدين قاضى حلب شمله وأتباعه (وكانوا عشرين ألف نفس) بعطفه ، وغمرهم جميعا بالهدايا .

فى تصويرها ، ومنها ما نجهل جهلا تاما حقيقة الباعث عليها . ومهما يكن من شىء فنحن لا نستطيع أن نتجاهل ما اقترفه تيمور فى آسيا الغربية من أعمال التدمير والتخريب على نطاق واسع حتى أتت هذه الجوع التركية المغولية الجديدة فى اجتياحها لهذا الاقليم على كثير من بقايا الحضارة الاسلامية التى كان المغول ، قد كفوا أيديهم عنها مع شغفهم بالتخريب . ولئن كنا نسلم لابن عربشاه ببعض الحق فى حملته على تيمور ، الا أننا حين نبعد عن الهوى فى حكمنا عليه نقول ان تيمور انما يقع اللوم عليه لا بوصفه مخربا قد عاث فى الأرض فسادا ، وانما لمجرد استغلاله حقوق الفتح استغلالا جائرا عنيفا . وكان تيمور على محبة بالغة لبلاده ، شأنه فى ذلك شأن كل الغزاة من أبناء القبائل التركية أو العربية على السواء ، فلا عجب اذن حين نراه يصر اصرارا شديدا على أن ينتقل بقوة الاسلام الغربية السياسية وما بقى من فروع الحضارة الاسلامية الى ثرى سهوب تركستان المتعفنة .

ولا حاجة بنا الى القول بأن نشاط تيمور الرائع ، مع مثل هذه المقاصد التى كانت تثير من حماسه ، كان له كله أبلغ تأثير ثابت على كل أحوال آسيا الوسطى . ولم يبلغ بلاط كمبالو أو غزنة أو بخارى بل ولا بلاط أية دولة فى القديم ما بلغه بلاط تيمور من الأبهة والثراء . وما وصف به شرف الدين حفلات تيمور وأعياده ، وما كانت عليه من البذخ والاسراف ، لا يعد شيئا مذكورا بالقياس الى الصورة الزاهية التى رسمها لبلاد الامبراطور التترى ذلك الفارس المسيحى (دون روى جونز الزرو) كلايچو . فلقد رأى ذلك النبيل من ذلك كثيرا بل لقد شاهد هناك كل شىء . ولا أدل عما جباه به تيمور من العطف من مقالته لرجال دولته وهم يحيطون به فى الحفل الرسمى لاستقباله : « ها هو ذا السفير الذى أوفده الى ابنى ملك أسبانيا الذى يعيش فى أدنى الأرض والذى يعد أعظم ملوك الفرنجة . حقا ان هؤلاء الفرنجة أمة عظيمة . وانى لأود أن أبعث بتمنياتى الى ابنى ملك أسبانيا » .

وعلى هذا فاننا نستطيع أن نركن الى حديث هذا النبيل الأسباني

عن بلاط سمرقند وتتبع وصفه للخصائص والرسوم والاحتفالات التي كانت تشيع هناك اذ ذاك .

فى بلاط تيمور كانت تتمثل نماذج من مختلف رسوم وعادات شتى البلاد والقبائل التى قام على أنقاضها عرشه . فثياب الحرير وكساوى الديباج والمخل قد اقتبست من الأزياء العربية أو الاسلامية . أما لباس السيدات بالبلاط ، ويتميز بطيلسان مرتفع يعرف باسم « شيوكله » فيذكر بما كان نظيره رائجا فى خوارزم وايران القديمة . وهو كساء طويل من الحرير الأحمر تزينه شرائط من الذهب وله حبكة عند الرقبة ، وليس له أكمام . وينسدل على الجسد فضفاضاً فى ثنايا تنتهى بذيل طويل يحتاج فى الغالب الى خمسة عشر شخصا يحملونه وبه يسرون . وكانت السيدات يسدن على وجوههن نقاباً ، وكن عند السفر يستخدمن ضرباً من مسحوق الزنك يصون الوجه من التراب ويحفظه من التعرض للأنظار . أما غطاء الرأس فكان على هيئة خوذة من قماش أحمر تزينها اللآلىء واليواقيت والزمرد ، وتنتهى بزر كشة حول طرفها الأعلى حيث تبرز منه ريشات بيضاء على ميل . وبعض هذا الريش كان يتدلى الى ما فوق العينين (١) ، فتضفى خفقاته عند السير مزيداً من الفتنة على طلعة صاحبه . وسيدات بلاط تيمور العديداً كن يرزحن تحت جواهر نصف آسيا وأثنى ما عند جوهريى الملتان وأصفهان وغنجة ودمشق وبروصة والبندقية . ولم يكن الرجال دونهم فى البهرج ، بسيوفهم المرصعة بالحجارة الكريمة ومناطقهم وجماناتهم الفاخرة . وكانت صحاف الذهب والفضة فى مقادير عظيمة هناك بما لا يكاد يصدق العقل . ويصف كلايچو علبة ضخمة ذهبية للجواهر شاهدها فى احدى الخيام لها غطاء مستو تحوطه بروج مصغرة مطلية بالميناء الزرقاء والخضراء ترصعها مختلف الحجارة الكريمة واللالىء . وفتحة

(١) لا يزال بقايا هذا الزى يشاهد فى غطاء الرأس الحديث أو بالاحرى زينة الرأس الحديثة التى تستخدمها سيدات الطبقة الراقية من التركمان .

هذه العلبة على هيئة الباب ، وبداخلها رف عليه صف من الكؤوس تعلوها ست كرات من الذهب مرصعة باللآلىء والحجارة الكريمة .

وكان الى جانب هذه العلبة مائدة ، علوها قبضتان ، مصنوعة من الذهب المسبوك وحافتها من الجواهر ، وعليها زمردة نقية طولها أربع قبضات (!!) وتغطي سطحها كله . وكان أمام هذه المائدة شجرة ذهبية على صورة شجرة السنديان جزعها كساق الرجل فى استدارته ، وفروعها تحمل أوراق السنديان ذهبية تمتد فى كل صوب . وتتدلى منها ، بدل الثمار ، اليواقيت والزمرد والعقيق والزفير والجواهر النادرة العديدة ، وتقف على أفنانها الطيور المنقوشة بالمينا فى مختلف الألوان . وكان أمراء البيت المالك يتناولون طعامهم على الدوام فى آنية ضخمة (كنجات) ، وكان أعضاء الأسرة المالكة يتعاطون الشراب فيما بينهم فى كؤوس كبيرة من الذهب . واذا عرفنا أن الحفلات الكبرى ، تلك التى كان يشهدها ألوف عديدة من المدعوين كان يقدم فيها الشراب فى طاسات ذهبية فوق صحاف من ذهب ، لأمكننا بذلك أن نتصور بعض الشئ مدى ما كان عليه قصر تيمور وديوانه من الثراء والأبهة البالغة .

ومرجعنا هذا الذى زار بلاط تيمور ، وهو فى أوج عظمته ، لا يجد من الألفاظ ما يعينه فى وصف كل ما رآه من أعاجيب فى تلك الحفلات التى كانت تقام فى مضارب وادى كان كل المحبوب بظاهر سمرقند . وقد كان الترك منذ زمن موغل فى القدم يفضلون سكنى الخيام فى الهواء . ويرون أن أنسب فرصة لظهار ما هم عليه من الثراء والأبهة ، هى فى اعداد هذه المنازل المتنقلة اعدادا فحما . ومن السهل أن ندرك أن تيمور بوصفه أعظم من عرفه الترك وأكثرهم جاها على الاطلاق ، كان

(١) ذكرها بنى دى لأكروا خطأ ، شابه كاول ، وهى كلمة فارسية معناها منجم الزهر (الألف) صحتها بكسر الجاف كما حققها الأستاذ بفريدج وزوجته انيته بفريدج فى تعليقاتها على بابرنامه - ويذكرها بابر فى سيرته بأن فيها كان يصنع أفخر أصناف الورق فى وقته . والمعروف أن صناعة الورق عرفها المسلمون أولا فى سمرقند ، وعنهم أخذها الاوروبيون (المترجم) .

بطبيعة الحال ييز قومه جميعا بزينة مضاربه . ومن يطلع على موقع عاصمة
 تيمور اللطيف يمكنه أن يتصور فى سر مدى المتعة التى يستمتع بها المرء
 حين يتاح له قضاء عطلة فى معسكر ، يبعد ميلين الى الشمال الشرقى من
 المدينة ، فى سهل ترويه قنوات متعددة ويقع على مقربة من زرفشان .
 وهذا النوع من المعسكرات كان يضم فى الغالب ما يقرب من عشرة آلاف
 من الخيام أو خمسة عشر ألفا . ولا ينزل به رجال البلاط فحسب بل
 وكذلك كل الشعب على اختلاف طبقاته . وبه كانت تقام محال تجارية
 أنيقة ومصانع يمارس فيها الصناعات حرفهم . بل انك لتجد فيه كذلك
 الحمامات المؤقتة وبها المياه الساخنة . وأول خيام تضرب هناك هى خيام
 الأسرة المالكة ، وتتوسط فى الغالب المعسكر الذى كان ينتشر على هيئة
 المروحة . وتتفرع الخيام الأخرى عن تلك المجموعة الوسطى . وكان لكل
 أسرة ولكل وزير ولكل تومان أغاسى (متصرف) مكانه المخصص له ،
 فمنهم من كان ينزل ناحية اليمين أو ناحية الشمال أو فى الصف الأول أو
 الثانى أو الثالث ، كل حسب مكاتته فى نظام محكم لا تعرف الفوضى
 طريقها اليه ، حتى كان يبدو وادى كان كل الجليل هذا ، فى وقت قصير
 مذهل والأعلام الملونة العديدة ترفرف فوق خيامه ، وكأنه حوض من
 الأزهار الفاتنة يداعبها النسيم .

أما الخيام فكان الغالب فيها ما هو على هيئة الناقوس وهو الذى
 لا يزال يشيع فى تلك الأقاليم حتى اليوم . وكنت تجد هناك كذلك خيام
 ابراهيم العربية المستطيلة وخيام فارس الفاخرة التى تعرف باسم « سرا
 پرده » (قصور الستائر) (١) وهى فى الغالب التى أثارت إعجاب فارس
 قشتالة بخاصة . وهذه الخيام مربعة الشكل طول ضلعها مائة قدم
 وارتفاعها بطول ثلاثة رماح .

وكان للسرادق الرئيسى سقف على هيئة القبة يستند الى سبعة قوائم
 زرقاء مذهبة فى استدارة رسغ الرجل ويلفها جميعا نسيج من الحرير

(١) يذكر كلافيجو هذه الخيام باسم Zalaparda.

نصب على هيئة الرواق . والى جانب هذه كانت أروقة ذات عمود على جوانب السرادق كله . وكان بكل واحد منها ستة أعمدة . وقد استخدم فى عقد هذا البناء كله ما يزيد على الخمسمائة من الجداول قرمزية اللون . أما الأسجاف الخارجية له فكانت من حرير مخطط بالأسود والأصفر والأبيض . كما فرشت أرض السرادق ببساط أحمر مشغول بالذهب وبه زخارف أخرى من الحرير . وأثنى توشية فيه تجدها تتوسط الجناح الجانبى منه . وكان بأركانها الأربعة أربعة نسور كبيرة قد نشرت أجنحتها . وكانت القوائم عند هذه الأركان تحليها كرة وصولجان تراها بالقائم الأوسط أكبر حجما . وكان هذا السرادق يبدو للرأى من بعيد وكأنه القلعة . وكان يحجبه بعد ذلك كله سور عال ملون فى بعض أجزائه وتزينه الشرفات أو الأبراج الصغيرة . والى جانب هذا السرادق كانت هناك خيام أخرى لا تقل فى روعتها وفخامتها عنه ، وبها كانت تنزل السلطانة وكبار الأميرات . وكان بعضها يغطيه سجف من الحرير الأصفر أو قرنفلى اللون موشى بالذهب وقد عقدت بأثنى أنواع الديباج . وكانت مداخل الخيام فى الغالب رجة حتى ليستطيع الفارس أن ينفذ منها وهو على فرسه . وكان لها كذلك نوافذ يسدل عليها نسيج من سندس سميك حين تفتح . وعلى جانبيها ستائر أخرى من الحرير تستخدم لمنع عنها أشعة الشمس . وأثنى ما كان حول الخيام ، وهو ما لا يزال يشاهد حتى اليوم ، هو الأبسطة ، التى تسدل على الأبواب ، وحبال هذه الخيام . وكانت البسط توشى بوشى الذهب والفضة العجيب (جلب تيمور واحدا منها معه من بروصه وكان عليه صور للقديس بطرس والقديس بولس) أما الجبال فكانت تحبك بعري من الذهب السميك والفضة تحليها نقوش عربية من الحجارة الكريمة .

وهذه الخيام ، التى يذكرنا وصفها بما ورد فى قصص ألف ليلة وليلة ، كانت مسرح الحفلات الكبرى والسمر . ولئن لم يصل إلينا أى تفصيل ترى لما كان يتناوله القوم من أصناف الطعام الا أننا نستطيع أن نقول ، اعتمادا على ما وصلنا من أخبار قليلة فى هذا الشأن ، أن أحب ألوان الطعام عند القوم كانت فى الغالب شواء الضأن ولحم الخيل والأرز

(وكان يطهى على الطريقة المعروفة اليوم تماما) والشطائر وفطائر الفاكهة والحلوى المصنوعة من السكر . وأعظم هذه الأطعمة كان فى الغالب فخذ فرس يقطع ويفطى بالدهن . وكان يقدم فى العادة فى صحفة من الذهب أو الفضة . أما أصناف الشواء الأخرى العادية فكانت تقدم على خوان من الجلد (١) ، ويتولى تقطيعها الى شرائح ندل مدربون . ولا تمتد اليها الأيدي عادة حتى يفرغ السلطان من تناول الشريحة الأولى منها . ويختم الطعام فى الصيف بالفاكهة وخاصة القاوون والعنب . ويأتى من بعد ذلك دور الشراب على المعتاد فى آسيا الشرقية . ويتصدر مجلسه الأمير بنفسه ، اذ لا تعقد مجالس السر ، خاصة أو عامة ، دون ترخيص منه . وأحب المشروبات عند القوم كان نبيذ العنب وخمير الشعير (البوطة) وخمير لبن الخيل (٢) . وكان نبيذ العنب أفضلها جميعا . وكان يدور به على الحاضرين فى المجلس سقاة يجثون على ركبة واحدة فى كل مرة عندما يقدمون الكأس لشاربها على صحفة بيد ، ويسكون بمنشفة فى اليد الأخرى أو منديل ليحولوا به دون سقوط بعض الشراب على ثياب متعاطيه وهو يتناوله . وما ان تدور كؤوس النبيذ على الحاضرين دورات قليلة على هذا الرسم حتى ترى القوم يتخلون عن وقارهم بالتدرج لينطلقوا عند ذلك يتخاطفون دنان الشراب . ومن كان منهم يتصدى ليشرب نخب تيمور كان عليه أن يشرب ابريقه دفعة واحدة .

وكان القوم يستهدفون بشرابهم هذا الى أن يثملوا ، وهو ما يزال يفعلونه حتى اليوم . وقد بلغ معاصرو تيمور وخلفائه بفسى الافراط فى

(١) استبدل القوم فى العصور الحديثة هذا الخوان الجلدى بنسيج من الجوت الروسى المنوز اللامع ، وهو عند الأثرياء من الحرير وله سجع « شرارب » طويلة ، ويسمى دستور خوان ، وكلمة دستور معناها احتفال ، وخان ألمائدة .

(٢) ازداد اقبال المسلمين على المشروبات الروحية فى عهد الحكم المغولى . وكان تعاطيها شائعا بين الطبقات العليا من الخوارزميين . كما كان الادمان عليها شائعا بين الجنكيزيين والتيموريين . وقد أشار بابر فى سيرته الى انتشار هذه الرذيلة . وكان اكتشاف الطباق نعمة جزيلة لهؤلاء السكارى الآسيويين .

الشراب والأكل درجة لم يبلغها غيرهم . ومن كان منهم يسقط على الأرض
بتأثير الشراب أو يرتكب حماقة كبرى وهو فى سكره ، كانت فعلته هذه
تحمل على انسجامه فى مجال اللهو والسرور . ومن كان له جلد على
الشراب كان يوصف بالبطولة كالمحارب سواء بسواء . ومقياس الكمال
عند التار كان يقتضى المبالغة فى كل شئ . فلم يكن يكتسل الطعام الا
أن يحوى شواء فرس كامل ومعه أباريق النيذ وفيرة فى عددها ضخمة
فى حجومها .

وهذه الدنان أو الجفان (وكان الواحد منها يسع ما يقرب من ثلاثة
جالونات على رواية كلافيجو) كانت تصف فى صنفين على هيئة طريق
يمتد حتى سرادق تيمور ، فضلا عن آنية أخرى مثلها كانت تفرق فى
أماكن متعددة بمدينة الخيام وعليها مظلة تظللها . وكانت هذه تملأ على
فترات بالنيذ أو القشدة مع السكر ليستمتع بها أكبر عدد من الناس .
ويمكننا أن نتصور بسهولة أن مثل هذه المناسبات لم يكن ينقصها وجود
المشعوزين والمهرجين والراقصين على الجبال . وكان أكثرهم يقدم من
كشمير والهند . على أن الواقفين عموما على عادات المسلمين والآسيويين
لا بد أن تتسلكهم الدهشة والعجب حين يعلمون أنه كان هناك من
السيدات من كن يقمن مآدب عامة يحضرها الرجال بل والسفراء المسيحيون
كذلك . وقد وصف لنا السفير الأسباني حفلا أقامته الأميرة هانزادة زوج
ميرانشاه ، وكانت سيدة بدينة فى الأربعين من عمرها (١) . وقد دعت الى
هذا الحفل عددا كبيرا من الضيوف . وفيه طغت فتنة الجمال الترى على
مفعول الشراب ، وانبرى الفرسان القدمات ومعهم غلمان عين فقاموا بدور
السقاة . وثمة مأدبة أخرى كبيرة أقامتها سيدة البلاط ، أى زوجة تيمور
الأولى ، فى مجموعة من الخيام كان يحجبها عن العيان بسط منشورة
زخرفها من النقوش العربية وشعاراتها من الذهب والفضة . وفى هذه

(١) عاشت هذه السيدة بمعزل عن زوجها بدعوى أنه حاول فى احدى
المرات قتلها وهو ثمل ، وذلك على رواية كلافيجو . ويبدو أن «تيمور» كان
كثير العطف على زوجة ابنه هذه ، وكان لها مكانة مرموقة بالبلاط .

المأدبة روعيت التقاليد فى خدمة السيدات بأدق صورة . فكان أحد السفاة يحمل الدن فى حين كان زميل آخر له يحمل الكأس والصفحة من تحته . وكان على الساقى أن يجثو ثلاث مرات على ركبته قبل أن يتقدم الى الواحدة منهم . وكان عليه كذلك أن يلف يده بششفة فلا تلس يده الأميرات على الاطلاق . على أن هذه الدقة لم تمنع الجنس اللطيف فى بلاط تيمور من أن يغادر سيداته الموائد وهن فى حالة سكر ملحوظ ، على ما يفعل سيدات الطبقة الراقية فى فارس اليوم (١) .

وتحكى الرواية الكثير عما كان يجرى من استعراض أصحاب القوى والألعاب الرياضية الأخرى التى كانت تدخل فى برامج الحفلات بوادى كان كل . ولقد جمع تيمور كنوزا وثروات طائلة من مختلف أجزاء آسيا . ولدينا من الأدلة ما لا يقبل الشك بأنه لم يكن يتردد فى الاتفاق منها فى وجهين :

الأول : وهو خاص بالحفلات الباذخة التى كان يقيسها والتى وصفناها فيما سبق .

والثانى : فى اقامة المنشآت الفخمة التى رام بها تزيين حاضرتة هى ومسقط رأسه .

واقم حرص تيمور على أن يخلد ذكر كل نصر باهر أحرزه وكل حادث فذ وقع له بتذكارات من المنشآت . وجلب لذلك مئات من البنائين من الهند وأمهر رجال المعمار من شيراز وأصفهان ودمشق ، فعبروا جميعا جيحون ليتيسوا من المنشآت ما يشهد بأن آسيا الاسلامية لا يزال بها من الفنانين ما هم محل اعجابنا اليوم برغم ما تعرضت له تلك الأصقاع من غارات جموع التتار على مدى قرنين من الزمان ، وأن ذلك الغازى الذى

(١) انار انكاتب الماهر غير المتعمق كونت جوبيلو غضب شاه فارس المحدث عليه حين تعرض لسيرة سيدات فارس بأوروبا تعرضا غير لائق وذلك فى كتابه عن ديانات آسيا الوسطى
Count Gobineau, Religions of Central Asia.

ما فتىء يوصف بالوحشية والعنف ، لم يكن خلوا من تذوقه للجمال مع سلامة فى الذوق .

ولقد أمر تيمور باقامة منشآت كثيرة فى أجزاء مختلفة من دولته ، من بينها مسجد فى تبريز وقصر فى شيراز ومدرسة فى بغداد وضريح على قبر الولى المشهور أحمد اليسوى بمدينة تركستان . وأجمل هذه المنشآت التى يتجلى فيها ذوق تيمور الرفيع ما أقيم بكش وسمرقند .

والأولى ، أى كش ، وهى موطنه الأصلى ، بها مدافن أسرته وفيها أقام ضريحا ضم قبر أبيه وقبر ابنه الأكبر جهانكير ومسجدا له ساحة خارجية يرتل فيها الشيوخ القرآن ليل نهار ويهبون ثوابه لأرواح الراحلين . ولقد بدأ تيمور يعنى بمدينة كش عناية خاصة منذ أول حياته السياسية حتى جعل منها بالفعل قصبة آسيا الوسطى الثقافية ، وصارت تشتهر باسم قبة العلم والأدب . وكان يجلب اليها العلماء من مدارس خوارزم المشهورة والأساتذة من بخارى وفرغانة . وان فى اقامته لقصر آق سراى الجليل لدليل كاف على ما اتجه اليه تفكيره يوما ما لاتخاذ هذه المدينة حاضرة له . وقد استغرقت اقامة هذا القصر سنوات عشر ، وقام على بنائه معماريون خلص من الفرس التزموا فى عمارته الطراز القومى (أو بعبارة أدق الطراز الاسلامى فى غرب آسيا) حتى رسموا على واجهته الرئيسية شعار الشمس والأسد ، فزينوا بذلك مقام الفاتح التورانى بشارات الملوك الايرانيين (١) .

وكانت شرفة المدخل فيه ، (وهى التى تعرف فى الفارسية باسم پيش طاق ، أى طاق المدخل) هى أهم ما يتميز به هذا القصر على الرسم الشائع فى منشآت ذلك العصر . وهى ترتفع فوق البناء على هيئة طاق

(١) كانت شارة تيمور ثلاث حلقات ٥ ٥ ٥ مع شعار « رستى راستى » أى « العدل قوة » وكان الظن أن هذه الحلقات الثلاث انما تشير الى أن سلطانه يشمل مناطق ثلاثا هى الجنوب والغرب والشمال . لكن الواقع أن هذه الحلقات مأخوذة عن شارات ايران القديمة حتى لتشاهد على قبور الساسانيين بوصفها رمزا للقوة والوحدة .

أو نصف قبة ، بها تجاويف كثيرة غريبة الشكل يكسوها الآجر المصقول وزخارفها من الفسيفساء على هيئة الأزهار والنقوش العربية . وكل هذا الآجر المصقول من صنع قاشان ، ولا يزال يعرف حتى اليوم باسم قاشي (١) . وقد استخدم كذلك فى تزيين الجدران الداخلية . ولا بد أن الغرفات العليا كانت كذلك على زينة مفرطة ، اذ كانت زخارفها من النقوش العربية زرقاء ومذهبة ، وأرضيتها من بلاط مختلف ألوانه يتلاءم معها . وكانت غرف القصر جميعا على نسق واحد ، وكان جناح الحرم آية فى الروعة والبهاء . وكانت قاعته الكبرى تفتح على بستان كبير ظلل تجرى فيه جداول لطيفة ينساب ماؤها بين أحواض الزهور .

واستطاعت سمرقند بجمال موقعها أن تتغلب بمضى الزمن على اغراء كاش حتى صارت قصبة تيمور . وسرعان ما أخذت من بعد ذلك تزداد رقعة وأبهة وأهمية . ولم تكن مساحتها ، على رواية السفير الأسباني ، لتزيد على مساحة اشبيلية . وهو ، على كل حال ، انما يقصد بذلك القلعة والحصن ، أى ما كان منها يقع بداخل السور (٢) .

على أن جمال سمرقند وروعته انما يتجليان ، خارج السور ، فى بساطتها الرائعة التى تمتد الى مسافة أميال خمسة أو ستة أو ما يزيد على ذلك وتتناثر فيها الدور الخاصة الأنيقة والقصور السلطانية . وكان بها كذلك طريق يمتد شرقا من بوابة الفيروز (دروازه فيروزى) حتى قصر دلکشا (شارح القلب) الصيفى .

(١) لا تزال قاشان أشهر مكان بإيران كلها لصناعة هذا الآجر وان كانت تجارتها قد ركدت الى حد كبير ، ذلك أن أحوال الشرق الحالية لاتشجع على إقامة الابنية الفخمة .

(٢) ومع ذلك فأنى أرى تقدير كلافيجو دون الواقع بكثير . وحتى حين أقصد بالقلعة الجزء المسكون من سمرقند وليس القصر ، فإن المدينة مع أسوارها ، التى لا تزال قائمة حتى اليوم ، كانت على وجه اليقين أكبر من اشبيلية . ومبلغ ما أذكره هو أنى قطعت مسافة طويلة من بوابة بخارى فمررت بحدائق ومدفن الضواحي قبل أن أصل الى داخل المدينة .

ومدخل هذا القصر الضخم كان يغطيه الآجر الأزرق والمذهب حتى يراه الناظر من بعيد وهو يتلألأ فى الأفق . وكان رجال الحرس السلطاني يملأون الساحة الأولى فيه وهم فى أكمل زينة وأنهم سلاح . وقد قدم الزائر الأسباني الى الساحة الثانية فى قافلة قوامها ستة من الفيلة عليها هوداج جبيلة . وكان تيمور يجلس أخيرا فى الساحة الثالثة على بساط من الحرير مطرز . وفى هذه الساحة كان يستقبل زائريه . وكان يتوسط كل ساحة فسقية (على ما يشاهد بفارس حتى اليوم) تظللها أشجار الدردار والخور ، وبها نافورة تتقاذف فواراتها الكرات الحمراء والذهبية .

ويقع عند الجنوب قصر باغ بهشت (روضة الجنة) ويشتهر بعمارته الجميلة ومغانيه اللطيفة . ويقرر شرف الدين أنه قد بنى كله من رخام تبريز الأبيض ، وأنه كان يقوم على ربوة صناعية يحيط بها خندق عميق ملىء بالماء وعليه قناطر تصل الى المنتزه ، كما كانت تقوم عند جوانبه دار للوحوش أو السباع . وقد أهدى تيمور هذا القصر الى حفيده ابنة ميرانشاه وكان لها عنده مكانة مرموقة . وكان يقضى أغلب أوقات فراغه معها هناك حتى عرف هذا القصر باسم الخلوة . كذلك كان يقع فى هذا القسم من المدينة قصر باغ چناران (روضة الخور) . وقد عرف بهذا الاسم اذ كانت تحوطه طرق جميلة يقوم شجر الخور على جوانبها . وهذا القصر كان يقوم بدوره على ربوة صناعية تتوسط البستان . وكانت أبنيته متقاطعة متعامدة ، وقد اضطلع فنانون الشام بنقشه ، كما زينت جدرانها الداخلية بالتصاوير وملئت غرفه بأثاث ضخم من الفضة وفرش وموائد وغير ذلك ، ومعها أدوات للزينة غريبة الشكل والحلى الثمينة من كل نوع . وثمة قصران آخران وصل إلينا وصفهما ، وهما قصر باغ شمال (روضة الشمال) وقصر باغ نو (الروضة الجديدة) . وكلاهما بناء مربع الشكل طول ضلعه خمسمائة وألف من الياردات ، وبه تماثيل جميلة من الرخام وأرضيته مرصعة بالآبنوس والعاج .

وعلى هدى القليل مما بقى من آثار سمرقند الفخمة فى ذلك العهد ، نستطيع أن نقول ان ما وصف به المؤرخون هذه الأماكن لا يحمل على

المبالغة فى الغالب . فالمسجد الذى بناه السلطان خدا بنده بمدينة سمرقانية قبل ذلك بقرن لا يمكن أن يرقى الى جامع تيمور الذى يعرف بمسجد الشاه والذى لا يزال يسمو شامخا فوق الآثار القديمة بمدينة سمرقند الحديثة .

ويذكر بابر فى سيرته أن باب هذا المسجد كانت تعلوه آية قرآنية ضخمة الكتابة حتى كانت تطالع النظارة وهم على مبعدة ميلين منها (١) . ومن منشآت هذا الطراز الأخرى ، التى يرجع الفضل فى اقامتها الى بذخ تيمور ، ذلك المسجد الكبير الذى يقوم بميدان الشاه فى أصفهان والأضرحة التى توجد فى قم ومشهد . ولئن كان فن العمارة قد ظل يواصل ازدهاره ، الى حد ما ، بأواسط آسيا فى عهد شاهرخ وميرزا حسين بيقرا من خلفاء تيمور ، وهو ما ترى دليلا عليه فى خرائب المصلى بهراة ومسجد الأميرة جوهر الأنيق فى مشهد ، الا أنه ما من شك فى أن هذا الفن كان قد بلغ ذروة كماله فى عهد تيمور «البربرى المتوحش» .

وما يقال عن ازدهار العمارة عند تيمور يصدق كذلك على الصناعة فى هذا الاقليم . فقد أرغم تيمور على الهجرة الى سمرقند أمهر النساجين من دمشق ، وغزالى القطن الممتازين من حلب ، وصانعى الأقمشة فى أقرة ، والصياغ فى تركيا وبلاد الكرج ، وبالجملة كل العمال المهرة فى كل فن ، حتى كنت ترى كل القوميات والعقائد الآسيوية ممثلة فى تلك المدينة . وقد قرر كلافيجو عدد سكان سمرقند (وكان كثير منهم يقطنون الكهوف أو يعيشون تحت الأشجار بسبب أزمة المساكن الشديدة) بما لا يقل عن مائة وخمسين ألف شخص ، وهو تقدير صحيح فى الغالب . فلا عجب اذن أن صارت سمرقند بذلك أعظم سوق لتجارة آسيا كلها . وقد ازدهرت حركة التجارة بها ازدهارا عظيما ، فحملت قوافل الهند الى سمرقند التوابل وكل طريف ولطيف من نسيجها ، وصدرت الصين اليها الحرير والخزف والمسك والعقيق والحجارة الكريمة .

(١) يذكر بابر فى وصفه لسمرقند بسيرته أن هذه الآية هى « واذا يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل » (المترجم) .

كذلك كان يرد إليها ، من القسم الشمالى من دولة تيمور المترامية الأطراف ، مقادير كبيرة من الفراء الثمين عبر الصحراء . ومنتجات المناطق المختلفة هذه جميعا كانت تعاد تعبئتها فى أسواق سمرقند ، فلا تصدر من جديد الى أهم مدن آسيا فحسب بل والى أوروبا نفسها سالكة طريقين مختلفين :

فمنفذ التجارة الأول الكبير كان بطريق خوارزم واستراباد ثم نشنى نوفجورود وموسكو حتى تصل الى أيدي تجار الاتحاد التجارى لمدن ألمانيا الهانزية .

أما المنفذ الثانى فكان بطريق قزوين وتبريز وطرابزون حيث كان يتلقفها تجار البندقية وجنوة ويزا وينقلونها الى أوروبا . وكانت المواصلات داخل كل البلاد الخاضعة لتيمور حرة مفتوحة على التمام حتى أوقات الحروب والفتن . وطالما أشاد السفراء بذلك اذ سافروا فى كل المنطقة الواقعة بين طرابزون وسمرقند وعبر أجزاء من مناطق العدو ومعهم الكثير من المتاع تحمله البغال فى أمان تام ، فلم تصادفهم فى طريقهم مضايقات بالكاد . وكانت رحلتهم هذه عقب معركة أنقرة فى الوقت الذى بلغت فيه الفوضى غايتها بآسيا الغربية .

وسنعالج فى الفصل التالى بتفصيل أوسع مدى النهضة الفكرية التى شهدتها آسيا الوسطى بظهور تيمور . ذلك أن ثمار هذه النهضة انما ترتبط فى الواقع بتاريخ أبناء تيمور وأحفاده ، أى بأسرة التيموريين الحاكمة جميعا .

والى تيمور نفسه يرد الفضل فى اشاعة الاهتمام الجدى بالحركة العقلية والعلمية بالبلاد حتى بلغ بذلك العنصر التركى درجة من العزة لم يعرفها من قبل . والواقع أن تاريخ الترك فى آسيا الوسطى انما يبدأ بتيمور . ذلك أن أمراء خوارزم والسلاجقة ، برغم أنهم أصلا من الترك ، الا أنهم كانوا يميلون كل الميل الى الثقافة الايرانية وثقافة العالم الاسلامى العربى ، فلم يهتموا الا قليلا بنشر النفوذ التركى والأفكار

التركية ، على غرار ما يفعله الآن آل قاجار الترك الذين يحكمون في فارس (١) .

هذا ويمثل تيمور بشخصه انتصار الترك على النظم المغولية الصينية . وقد كان على الدوام يتوق ليثبت — عن حق — سيادة العنصر التركي . وبرغم ما كان يزدحم به بلاط من العلماء والفنانين من غير الترك ، فإن اللغة التركية كانت اللسان الرسمي الوحيد السائد ، كما كانت الأبجدية الأويغورية هي التي يكتب بها برغم كراهية المسلمين المتعصبين لها بوصفها من بقايا المسيحية والبوذية والوثنية .

كان تيمور يكتب في أسلوب تركي رصين فصيح على ما يشاهد في «توزوكاته» التي غالباً ما أشرنا إليها فيما سبق . وهو لم يكن كلفاً باستخدام العبارات الفخمة أو الاغراق في التشبيهات التي كان يولع بها كبار الأدباء والكتاب الرسميون في عصره . وهذا الذي كان نصف آسيا يرتعد منه فرقا كان يبدأ كتاباته السياسية بهذه العبارة « من تنكرى قولى تيمور » (١) أى « يقول عبد الله تيمور أن .. » فما أعظم التباين بينه وبين خانات بخارى المتأخرين وأمرائها المفلسين الذين كانت ألقابهم تبلغ عند كتابتها ياردة في الطول .

برغم الحروب المستمرة التي خاضها ذلك الفاتح الكبير ، وبرغم المتاعب المتلاحقة التي تعرض لها ، شهدت بلاده قبيل نهاية حكمه نهضة عقلية لا تنكر في ميدانى الدين والعلم . فالتاريخ يخبرنا عن علوى من أسرة زين العابدين هو الصوفى السيد على الهمدانى الذى ذرع العالم

(١) أى وقت تأليف هذا الكتاب (المترجم) .

(٢) أحب أن اصحح هنا خطأ وقعت فيه بحثى : Uigurische Sprachmonumente p. 17 حين نسبت الى الأمير تيمور الكتابة الأويغورية عند شواطئ الدنيبر والتي يرجع تاريخها الى عام ١٣٠٧/٨٠٠ ، وهي الآن في حوزة المكتبة الامبراطورية بمدينة فينا ، فصاحبها فى الحقيقة هو تيمور تغلق من بيت جوجى لا تيمورلنك ، وقد كانت الأيغورية هي لسان القبيلة الذهبية الرسمي كذلك .

المتحضر أكثر من ثلاث مرات كان يعظ الناس فيها ويهديهم . وقد مات هذا العالم بختلان على ضفاف جيحون عام ١٣٨٤/٧٨٦ ، وترك مؤلفات عديدة في مواضيع اخلاقية وصوفية . وثمة صوفي آخر كبير هو خواجه بهاء الدين مؤسس الطريقة النقشبندية . وقد عاش في عهد تيمور ومات عام ١٣٨٨/٨٩١ وهو يعد الى اليوم أعظم أولياء بخارى حتى يقال ان من يحج ثلاث مرات الى ضريحه ، وهو يقع على مبعدة ميل من المدينة ، فكأنه قد حج مرة واحدة الى البيت الحرام . وجدير بالذكر ، من بين الكتاب المشتغلين بالعلوم الدنيوية ، الشاعر لطف الله النيشابورى . وكان شاعر الأمير ميرانشاه ومادحه الخاص . ولم يكن هذا الشاعر ليحسد على منصبه عند هذا الأمير الذى اشتهر بخلاعه وادمانه على الشراب . وقد احتال على كل حال فى عرض بعض من بدائع شعره على هذا الأمير التافه الذى كان عليه أن ينشد القريض فى مدحه . وكان هذا الشاعر موضع تقدير بالغ من تيمور . ومات عام ١٣٨٤/٧٨٦ . كذلك نذكر الشيخ كمال الدين الخجندى ، ولم تكن قصائده تفل فى روعتها عن غزليات سميها ومعاصره كمال الدين الأصفهاني . وحين استولى تختمش على بلد هذا الشاعر أرغمه على الهجرة الى عاصمته على القولجا (١) ، ولكنه ما لبث أن لبي دعوة السلطان حسين اليلخاني له بعد ذلك بأربع سنوات وسار الى تبريز . وقد بنى له هذا السلطان هناك خاتناه جميلة تكريما له ، ومات بها عام ١٣٨٠/٨٩٣ . وقضى كذلك بسمرقند بعد عام من ذلك التاريخ العلامة التفتازانى . وقد ولد هذا العالم بالعراق عام ٧٢٢ هـ ، ونشر شرحا على الريحاني وهو فى السادسة عشرة من عمره . وعاش هذا العالم فى توفيق ، بهراة وجام وسرخس وسمرقند وغجديوان وتركستان وخوارزم . وكان نابغة فى علم الأصول والفقه والنحو والتفسير على السواء . ويقال

(١) يقول فى بيت له (نقلا عن تاريخ سيد راقم ص ٩٢ :

اكر سراى دلبران سراى بيار باده كى فارغ شوم زهر دوسراى .
 اى لو كانت سرايا قصرا للجمال ، فهات الشراب حتى أهجر الدارين
 الدنيا والآخرة من أجلك (وكانت سراى هى عاصمة تختمش (المترجم) ،
 ومن اراد تفصيلا عن ذلك الشاعر فليُنظر
 Geschichte Persischer
 Redekuenste p. 255

آن مؤلفاته وأبحاثه التي كتبها تزيد في عددها على سنى عمره بكثير .
 كذلك كان الشاعر أحمد الكرمانى مؤلف « تيمورنامه » ، وهى سيرة
 تيمور نظما ، يعيش عند الفاتح الكبير ولا كلفة بينهما حتى كان يسمح
 له بأن يسخر منه على وجه كان يستحق عليه اليوم الموت .. عند أكثر
 أمراء آسيا أنصاف المتحضرين (١) . كذلك كان تيمور يشمل بعطف ورعايته
 عددا ملحوظا من العلماء والشعراء من غير الترك . بل ان كل الذين حملهم
 بالكثير نظير هجرتهم هذه التي أجبروا عليها قسرا . فالعلماء من أمثال
 معه من مختلف البلاد الآسيوية الى بلاد ما وراء النهر كانوا يعوضون
 الجزرى ، صاحب أعظم قاموس عربى ، صارت لهم مناصب مرموقة فى
 البلاط . أما العلماء المعلمون الذين قدموا من نيسابور ومرو وخوارزم
 وبغداد فقد بذلت لهم وظائف مجزية فى مدارس بخارى وسمرقند وكش .
 تزيد على مناصبهم التي تركوها .

ويتميز عهد تيمور الزاهر على الخصوص باقامة المدارس الكثيرة
 واجراء الأرزاق عليها . ولا تزال بقايا هذه المدارس تثير دهشة زوار
 بخارى اليوم . ولقد جعل تيمور من نفسه مثالا يحتذى من بعده فى
 ذلك ، وأخذ فى الغالب فريق من أبناء أسرته ومن الوزراء والنبل
 يتنافسون فيما بينهم فى بناء المدارس والمساجد ودور الشفاء واجراء
 الأرزاق عليها ، حتى لا نجد مناصبا من أن نسلك النهضة الفكرية فى آسيا
 الوسطى ، بطريق غير مباشر على الأقل ، ضمن الخدمات التي أداها
 تيمور لبلاده .

(١) كان تيمور ذات يوم فى الحمام ومعه الكرمانى وبعض أصحاب
 المجون ، وتطرق الحديث فيما بينهم الى قيم الرجال . هنالك سأل تيمور
 الشاعر عما عساه يدفعه حقا اذ عرض (أى تيمور) للبيع . فأجاب الكرمانى
 بأنه لا يشتريه بأكثر مما يعادل أربعين مليما ، وحين احتج تيمور عليه فى
 ذلك بأن هذا المبلغ هو ثمن لافتة البيع وحدها ، أجابه الكرمانى بأن هذا هو
 ما يقصده تماما ذلك أنه هو نفسه لا يساوى شيئا .

الفصل الثاني عشر التيموريون

٨٠٧ (١٤٠٥) - ٩٠٦ (١٥٠٠)

لم يكتب من التوفيق لخلفاء تيمور في مجال الفتوح ما كتب لأبناء سلفه المغولي . فقد أقام چنكيز أسس دولة جبارة كفل من بعده أبناء له وأحفاد بسواعدهم القوية استكمال عظمتها وتوسيع رقعتها . في حين قام تيمور بنفسه ببناء دولة وصل بقوتها ومداهها الى الذروة ، ليجيء أبناءؤه من بعده ، فاذا هم بدلا من أن يزدادوا في قوتها كانوا أول من يزلزل بنائها بما وقع بينهم من شحناء وحروب أهلية عنيفة أدت الى تفسخها (١) .

ولقد لبث الجنكيزيون يحتفظون بسلطانهم في آسيا الغربية قرنين من الزمان ، في حين لم يستطع خلفاء تيمور أن يحتفظوا الا بصعوبة قرنا واحدا بما ورثوه من أرضين برغم أن كان منهم رجال على كفاية ملحوظة كان لهم من نبيل الصفات والقدرات في ادارة دفة الحكم ما يستحق أن تذكره الأجيال من بعدهم لهم بكل تقدير وإعجاب .

لم يكد تيمور يوسد الثرى في سمرقند وتنتهى مراسم الغزاء حتى انطلق ورثته يتحاربون في سبيل التاج (٢) وكان أولاده جميعا قد ماتوا في

(١) شرح هذه الظروف العلامة م . بيلان ، فتراه في مؤلفه عن مير على شيرنواي (M. Belin. Notice Bibliographique et litteraire sur mir Ali Chir- Navâii) (ص ٢٩) الى التيموريين بقوله : « ما يثير العجب هو أن هؤلاء الأمراء لم يقبل عليهم الميل الى الآداب ، وانما كانوا يستجيبون لنوع من الفلسفة الدينية ، وكان تأثيرها عليهم يتلاءم مع ما كانوا عليه من خشونة وجفوة في الطبع » .

(٢) بنى تيمور بثمانى زوجات ولكنه لم يرزق الا بأربعة من الأبناء هم : غياث الدين جهانكير ومعز الدين عمر شيخ وميرانشاه وشاهرخ .

حياته باستثناء شاهرخ ميرزا النبيل الذى كان يقوم على حكومة خراسان ٢ .

وعلى هذا فقد اختار تيمور حفيده خلفا له اذ كان يثق أعظم الثقة فى قدراته ، وكان هذا الحفيد هو پير محمد سيد الهند وكابل . وكان قد قضى شبابه فى خوض غمار الحروب العنيفة ، ولكنه انصرف فى كهولته الى المنع والملاذ تاركا أمر حكومته الى وزيره القوى الغادر پير على تاز .

ولو كان هذا الأمير قد أوتى من العزيمة ما يجعله يفيق الى نفسه فيستبدل الكأس بالسيف وينطلق من فوره الى جيحون لأمكنه بقليل من الجهد أن يستولى على التاج وسط الفوضى والاضطراب اللذين كانا يسودان البلاط اذ ذاك (١) .

وتتج عن تقاعسه هذا أن سبقه الى ذلك السلطان خليل ميرزا ، وهذا السلطان الجديد هو ابن ميرانشاه ، وكان اذ ذاك شابا فى الحادية والعشرين من عمره حين استطاع بمعونة نفر قليل من القادة أصحاب النفوذ أن يرقى عرش جده (٢) .

فلقد أسرع من مقامه فى طشقند الى سمرقند حيث تمكن هناك ، بمدد من الكنوز التى كانت مكدسة بها ، من أن يشتري ذمم رجال الدولة الذين كانوا يعملون على تنفيذ وصية تيمور بتنصيب پير محمد رئيسا للدولة . وكان أنصار پير محمد عديدين وأصحاب نفوذ حتى حق لخليل ميرزا أن يهنئ نفسه حين أتيح له أن يقلب خططهم رأسا على عقب ويثبت سلطانه على الأراضى الواقعة فيما وراء جيحون . على أنه برغم

(١) اختلفت آراء القواد فى مجلسهم اختلافا كبيرا ، فمنهم من اشار بتكتم خبر وفاة السلطان ومواصلة مطاردة المغول والصينيين بعد أن شاع الرعب فيهم ، ومنهم من نصح بالارتداد فورا . وقد أخذ المجلس فى النهاية بهذا الراى الأخير .

(٢) لم يستجب لهذا التبديل فى وصية تيمور الا قلة ضئيلة من الجيش ، وكان على رأس المعارضين ميرزا سلطان حسين أحد احفاد تيمور والقائد برونديق ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يعضوا قدما لوقف تقدم خليل اذ اختلفوا على الطريق الذى يسلكونه لذلك ، وحين انتهوا آخر الأمر الى راى حاسم كانت الفرصة قد ضاعت من أيديهم .

فوزه هذا فقد كان بوداعته وتعلقه بالخيال والأوهام أقرب الى الشاعر منه الى الحاكم .

ولقد أفلح في كسب الكثيرين الى صفه بإسرافه البالغ وبذله الكثير لهم مما تركه جده من كنوز طائلة ، كما بلغ في الوقت نفسه الى تنفير الكثيرين منه حين عمد الى ابعاد كثير من أتباع جده القدامى عن البلاط ، فخلق لنفسه بصنيعة هذا ، بعد وقت قصير ، عددا كبيرا من الأعداء الألداء . ويقال كذلك انه مما صد الناس كثيرا عنه ما كان من كلفه الشديد بجارية سابقة لحاجي سيف الدين تدعى شاد ملك (بهجة الملك) وقد بنى بها عقب ارتقائه العرش ، وكان تيمور قد حاول في حياته أن يضع حدا لغرام حفيده الخاطيء هذا فقرر أن يتخلص من هذه الجارية بقتلها ، ولكنها أفلتت من يده ، ليكتب لها من بعد ذلك أن ترقى العرش وتدفع زوجها الى سلوك بغيض دفع أخلص خلصائه الى أن يخرج عليه ويحاربه (١) .

وكان الأميران خداداد وشيخ نور الدين أول من ثارا عليه فاستوليا على امارة تركستان وجزء من فرغانة . وسرعان ما أعلنت بعض قبائل البدو في الصحراء استقلالها بدورها كذلك . ولو لم يعمد بير محمد ، في سبيل توكيد حقه في العرش ، الى الزحف على جيحون في جيش كبير حتى هدد مركز خليل تهديدا جديا ، لبقى السلطان الجديد على موقفه السلبي منهمكا في سمرقند بنظم الغزل في محبوبته .

وعمد القسم الأول من الجيش الذي سيره خليل لصد الغزاة الى خيانة الهدف الذي خرج له في ندالة ، حتى اضطر السلطان الى محاربة قواته نفسها . وكان يقود هؤلاء العصاة ميرزا سلطان حسين ابن أخي خليل . وكان يرمى من وراء عصيانه هذا الى أن يقيم له دولة مستقلة على ضفاف جيحون .

(١) كانت هذه السيدة ابان حياة تيمور في مقام متواضع جدا بالنسبة لغيرها في الحريم . وقد لقيت اذ ذاك كثيرا من المهانات التي ثارت لها في قسوة بالغة بعد أن صار لها شأن فأساءت اساءة بالغة الى أكثر من واحد من الأمراء الكبار وكبار رجال الدولة .

وكان من حسن طالع خليل أن وقف على خطط هذا الخارج عليه
فزحف اليه وهزمه في موقعة جكدليك بمنطقة كش .

وانتهت المفاوضات بين مدعيي العرش هذين الى الفشل ، لتشتعل
من بعد ذلك نيران الحرب الأهلية بالبلاد كلها . فما أن عبر پير محمد
جيحون حتى هاجمته قوات خصمه عند نصف فهزمته وأرغسته على
الارتداد بعد أن ترك من ورائه كل متاعه وما كان يحويه معسكره .
وعاود هذا الأمير الكرة من جديد فباء بالفشل . ذلك أن ما كان قد
انصرف اليه من ادمان الشراب والافراط في الملاذ لم يبق له أى قدر مما
عرف عنه من النشاط الجهم حتى انتهى به الحال الى أن قتله غدرا وزيره
پير على تاز (١) في خيسته (٢) بالقرب من شيورغان عام ٨٠٩هـ (١٤٠٦م).

وكان هذا الوزير مجرد تابع بسيط بلغ به سيده الى أعلى المراتب .
ولئن كان خليل قد غدا بذلك في مأمن بالنسبة لحدوده الجنوبية ، الا أن
الحال في الشمال كان لا يزال على خطورته ، ذلك أن الأميرين الثائرين
خداداد وشيخ نور الدين كانا قد وسعا من دائرة نشاطهما وانضم اليهما
كذلك جملة من الأمراء حتى نهضا في قوة كبيرة للزحف على سمرقند .

هنالك سير خليل جيشا للقاء هؤلاء الثائرين نصب عليه أرغون شاه
والله داد . غير أن هذين القائدين كانا ، مع الأسف ، على اتفاق مع
العدو في السر . حتى اذا ما خرج هذا الأمير التيمورى الشجاع ، سيىء
الحظ ، مع نفر من خالصائه ليلحق بذلك الجيش ، كان هذان القائدان
أول من خاناه ، فاذا بقوة صغيرة من جند خداداد تفاجئه في خرائب

(١) في النسخة المطبوعة على الحجر من روضة الصفا ذكر اسمه
مير على بار ، وكذلك في تاريخ سيد راقم وتاريخ مقيم خانى ، ومع هذا
فلا اشك في أن الصحيح هو ما ورد بمخطوط مطلع السعدين القديم
الجميل .

(٢) ارتكب هذا الوزير الخائن فعلته هذه وفي خاطره أن يجعل من
نفسه أميرا على بلاد الأفغان وشمال الهند . ولكنه اضطر الى الهرب على
اثر ثورة الأمراء الكبار عليه ، ففر الى هراة حيث أمر شاهرخ بقتله ، وضم
املاك ابن أخيه اليه .

قلعة شيراز فتأسره وتحمله الى خصمه السابق . هنالك أرغم خليل على التنازل عن العرش ، وقد عوضه عنه خادمه السابق الثائر بحكومة كاشغر . ولم يجزع خليل في الواقع لما نزل به الا قليلا ، اذ كان منصرفا بكليته الى التفكير في حبيته شاد ملك بسبب انفصاله الاضطرابي هذا عنها ، وقد عبر عن لوعته هذه في أشعاره الحزينة . وسقطت في الوقت نفسه بأيدي الثائر الظافر سسوقند بكل كنوزها . وفيها عمد الى ائزال صنوف الزراية والسخرية بالأميرة شاد ملك علنا ، وعرضها لأبشع الاهانات (١) . على أنه لم ينعم بشار نجاحه هذه طويلا . ذلك أن شاهرخ ميرزا ، أكبر الأمراء التيموريين الذين كانوا على قيد الحياة ، لم يستطع أن يبقى طويلا في موقفه السلبي متفرجا بازاء مجريات الحوادث ببلاد ما وراء النهر . وكان هذا الأمير أكفاً بنى جلده وأقدرهم ، وكان بلاطه صورة صادقة لما بلغته الثقافة في عصره . وكان يرى في أجواء الحضارة والمدنية الرفيعة بخراسان ما هو جدير بأن يشغله عما كان يسود أقاليم جيحون من مشاكل . ولئن لم يعر الحوادث التي جرت هناك عقب وفاة أبيه أول الأمر قدرا يذكر من الالتفات ، الا أنه حين رأى أن مصالح أسرته قد باتت مهددة ، لم يستطع تجنب الحرب أكثر من ذلك ، وقد كان لها جد كارها .

وحين بلغه ما نزل بابن أخيه من المحن انطلق لوقته يطارد خداداد (٢) وأدى بهذا الأخير قلة استعداده للمقاومة الى أن تصنع الاستسلام

(١) يذكر مير خوند ان شاهرخ هو الذي فعل ذلك بهذه الأميرة بعد استيلائه على سمرقند ، على أن الرواية الأخرى هي اقرب للاحتمال عندي ، وهي التي نقلها مالكولم في كتابه عن تاريخ فارس . فقد كان شاهرخ نفسه كلفا بزوجه جوهر شاد . وعلى ضوء ما يروى عنه حتى اليوم ، يبدو أنه من الصعب أن نتصور انه يتجه الى الحاق الأذى بشعور ابن أخيه العاشق .

(٢) كان خداداد ينسب نفسه الى الجفتائيين . وبرغم الشك في صحة ذلك فمن المؤكد أنه كان يتزعم جماعة الجته الذين أخضعهم تيمور . وكان يسير تحت لوائه كل المغول والقالموق عند الشمال الشرقي من بلاد ما وراء النهر .

لخصه أول الأمر ، على أن حيلته لم تنطل على شاهرخ ، فتقدم الى سمرقند حيث استقبله أهلها استقبالا حافلا ، في حين ارتد خداداد عجلا الى طشقند ، وقد انطلق ينشد العون عند الأمير المغولي محمد خان . ولكن هذا الأمير كان يتردد في معاداة شاهرخ القوى ، فبدلا من أن يمد يد العون الى الثائر الطريد ، أمر أخاه شمع جهان بالقبض عليه ، ثم قتله من بعد ذلك وبعث برأسه الى شاهرخ ميرزا رمزا للصدقة المغولية .

وحين استقر الأمر لشاهرخ ببلاد ما وراء النهر ، حدا ما ، تذكر ابن أخيه الأمير البائس خليل ، وكان قد نقله أخ لخداداد الى حصن في جبال آلتاو عقب مقتل ذلك الثائر ، فسير شاهرخ من فوره قائده شاهملك للاستيلاء على ذلك الحصن . والظاهر أن خليلا كان يخاف عمه ومخلصه أكثر مما يخاف ذلك الثائر الذي أسره ، فلم ير أن يسير الى شاهرخ الا في حرس قوى ، وقد أجيب الى ما طلب .

وسار خليل على ما أراد حتى بلغ شاطيء جيحون الأيسر حيث استقبله عمه في مضاربه استقبالا حارا وغمره بعطفه حتى رد عليه حبيته شاد ملك . ولم يسمح له شاهرخ بارتقاء العرش من جديد ، ولكنه جعله نائبا له على العراق على سبيل التعويض . وقد وافاه أجله وهو في الطريق عام ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م .

وتقول الرواية ان شاد ملك (بهجة الملك) التي وصفت لأكثر من سبب ، بأنها كانت نقمة على حكمه ، ماتت كمدا عند سماعها بوفاة زوجها (١) .

واضطر شاهرخ في السنة التالية أن يعبر جيحون من جديد شاهرا أسلحته ، ذلك أن أمراء بلاد ما وراء النهر كان قد شجعهم قصور خليل من قبل فرأوا في تغيير حكومة بلادهم سببا للجنوح الى العصيان ، وتزعم هذه الحركة الأمير شيخ نور الدين ، وفي خاطره أن يأخذ العرش

(١) يقال ان هذه السيدة لم تطق الحياة بعد وفاة زوجها المخلص فانفذت خنجرا الى قلبها . وقد دفنت الى جانبه في قبر واحد .

لنفسه ، فبدأ بالعدوان . ولكن القائد شاهملك دحره حتى اضطر الى الارتداد الى طشقند تاركا من ورائه أنصاره ليدفعوا وحدهم ثمن ما قدمت يداه .

هكذا غدا شاهرخ وكل أملاك أبيه في حوزته (فيما عدا سوريا والعراق العربى) ، فعهد بحكومة بلاد ما وراء النهر الى ابنه الأكبر ألغ بيك . ولم يبرهن هذا الأمير على أنه جدير ببنوته لشاهرخ فحسب ، بل فاق كذلك أباه في حبه للعلوم والفنون جميعا . وهو الوحيد بين الأمراء التيموريين الذى ظل اسمه لقرون عديدة يذكر مقرونا بالاجلال بين المسيحيين فى الغرب .

فألغ بيك أو (فلنسمه باسمه الأصلى) محمد تورغاي ، كان فى الخامسة عشرة من عمره عند وفاة جده ، وفى العشرين فقط حين عهد اليه بهذه المهمة الشاقة فى الاضطلاع بحكومة ما وراء النهر . ومع هذا فقد كان حكمه الطويل هو عهد التيموريين الذهبى فى الأقاليم الواقعة فيما وراء جيحون ، وساد السلام فى عهده توران فى الغالب لما كان لأبيه من المهابة .

وبرغم عدوان المغول المتكرر عند الشمال الشرقى ، حتى اضطر ألغ بيك فى احدى المرات الى أن يسير بقواته حتى آق سو ، فاتنا لا نجد هذا الأمير يقوم ابان حكمه بغزو جدى الا مرة واحدة فى الشمال ، ذلك الغزو الذى انتهى الى نهاية سيئة وجلب معه على بلاد ما وراء النهر مزيدا من الشقاء .

كان تيمور قد عهد بخانية القبچاق الى قوورجك . وكان لهذا الأمير ولد يدعى براق أوغلان أخرجه أعداؤه من بلاده .. فالتجأ عام ٨٢٨ هـ / ١٤٢٤ م الى تركستان ونزل بالقرب من سغناق . وسرعان ما ادعى هذا الأمير بحقه فى الاستيلاء على هذا الحصن . هنالك رد قائد المكان على ذلك بأن بعث الى ألغ بك يشكو له مر الشكوى مما يقوم به جند القبچاق ، أو الأوزبك (كما يسميهم عبد الرازق صاحب مطلع

السعدين) ، من أعمال النهب ، حتى رأى ألغ بك أن يتولى هذا الأمر بنفسه . ولما كان أبوه لا يثق كل الثقة في قدراته الحرية ، فقد بعث اليه بابنه الثانى جوكى ومعه بعض القوات ليعاونه فى مهمته هذه . ولم يترث ألغ بك حتى يلحق به أخوه فسارع الى مهاجمة خصمه .

وأفلح براق بفرسانه ، وكانوا ممتازين على قلة عددهم ، فى أن ينزل بخصمه هزيمة حاسمة ، حتى اذا ما وصل جوكى الى هنالك وجد أن الأمر قد خرج من يده ، وبهذا استطاعت جموع القبجاق المنتصرة أن تسير فى غاراتها حتى ما وراء خجند دون أن يعوقها عائق .

وقضى الشاب ألغ بك بعد هذا الحادث الطارىء بضع سنين فى سلام ووئام دعى فيها مجتمع العلماء ، ذلك المجتمع الذى كان يناسبه ، وزين حاضرتة بالمنشآت التى لا تزال آثارها قائمة حتى اليوم تنبئ عما كان لمنشئها من ذوق رفيع وما بذله فيها من بذخ بالغ . ويصف بابر فى سيرته سمرقند فى ذلك الوقت وصفا يوثق به الى درجة كبيرة . ومما يذكره من منشآت ألغ بك بها :

- ١ - خانقاه ، قيل ان قبتهما كانت أعظم قبة من نوعها فى عصره .
- ٢ - مدرسة كان بها حمام مزين بالفسيفساء فى أبدع صورة ، وهذه المدرسة أنشئت عام ٨٢٨هـ (١٤٢٤م) .

وكان الأمير قد أوقف عليها أوقافا جلية . وقد صارت الى خرائب فى القرنين الماضيين ، واتخذ اليوم الناعق مكان الطلبة المجدين بها ، وصار منذ ذلك الوقت هو القاطن الوحيد بهذا البناء الذى كان يشمخ فى الماضى (١) .

- ٣ - المسجد المقطع ، وسمى بذلك اذ كانت جدراناه وسقفه تزينها جميعا النقوش والزخارف من الخشب المقطع .

(١) مدرسته هذه ونظيرتها الأخرى ببخارى كان قد كتب على بابها « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » (تاريخ الحضارة الإسلامية ترجمة حمزة طاهر ص ١٠٨ ، ١٠٩) .
الترجم

٤ - قصر چهل ستون وبه صفوف من الأساطين الفخمة ، منها ما هو مستقيم الجوانب ومنها ما هو ملفوف ، وتقوم على جوانبه أبراج أربعة .

٥ - قاعة العرش (قورونوش خانه) (١) وجميعها من المرمر . وكانت المصطبة التي يقوم عليها العرش كتلة واحدة ضخمة من الحجر طولها خمس عشرة ياردة وعرضها ثمان وارتفاعها ياردة واحدة . وقد أصابها صدع أثناء نقلها (٢) . والبستان الملحق بهذا البناء فيه قاعة التصاوير (چین خانه) وكانت جدرانها مغطاة بتصاوير من الجص صنعها نقاشون من الصين استقدموا من هناك لهذا الغرض .

٦ - المرصد المشهور الذي بديء في إقامته عام ٨٣٢ هـ على جانب تل كوهك بايعاز ومساعدة العلامة ابن قاضي الروم غياث الدين جمشيد معين الدين القاشاني واليهودي صلاح الدين . وكان هذان العالمان قد قدما من قاشان بدعوة من الأمير ، فوصلهما بالعطاء الكثير ، وقد استغرق إقامة هذا البناء زمنا طويلا . وعلى حد قول الشاعر فان جميع هؤلاء الرجال « رأوا نجم حياتهم يأفل في الوقت المحدد » فلم تطل الحياة بأحد منهم حتى يشهد تمام بنائه .

واضطلع باتمام البناء العلامة على قوشجى . ووضعت جداول الزيج المشهورة والتي تنسب الى ألغ بك (وتعرف كذلك بالزيج الكركانى) عام ٨٤١ هـ (١٤٣٧ م) .

وحين تبين لألغ بك من بعد ذلك أن جداوله لا تتفق مع أرصاده في سمرقند نهض بنفسه بتصحيحها بمساعدة جملة من العلماء ، فحقق

(١) هذه الكلمة معناها أصلا فى التركية ، الدار التى يجتمع فيها الناس ، أى دار الندوة أو قاعة الاجتماع .

(٢) لا يبدو أن هذا هو نفس كوكش (الحجر الأزرق) الذى شاهده فى سمرقند ووضعه فى كتاب رحلتي (ص ٢٠٦) ، وكان بهذا الحجر الذى رأيته شق كذلك . ولكن هناك فرقا كبيرا بين أبعاد هذا الحجر والأبعاد التى ذكرها بابر فلا تشير بذلك الى الشيء نفسه .

بذلك علم التتار كل النتائج السابقة التى وصل اليها علماء اليونان (١) .
ويتحدث عبد الرازق ، صاحب كتاب « مطلع السعدين » الذى
أشرنا اليه من قبل ، بحماس بالغ عن الآلات المختلفة التى شاهدها هناك ،
وكان منها ما هو خاص بمسح الأرض وتعيين الارتفاعات وتحديد خطوط
الطول والعرض . بل انه لا يجد من الألفاظ ما يسعفه ليعبر بها عن
دهشته حين اطلع على الكرات السماوية وعليها النجوم والكواكب فى
مسالكها باحكام تام ، والخرائط التى تبين صورة كل اقليم فى دقة تامة
وعليها التلال والصحراوات والبحار . وكان الناس يرون فى هذا المرصد
بحق أنه احدى المعجزات ، حتى قدمت من هراة الى سمرقند لمشاهدته
والدة السلطان السيدة الوقور جوهر شاد (جوهرة السرور) عام ٨٢٣هـ
(١٤٢٠م) .

ولم تكن فروع المعرفة الأخرى بأقل حظا من رعاية ألغ بك .
فبلاطه كان ملتقى الشعراء والعلماء من كافة أركان الدنيا (٢) . وكان
يتنافس وأبوه فى اغراء أصحاب الفنون والعلماء ليقصدا اليهما . ولم

(١) تنقسم جداول ألغ بك الى اقسام اربعة ، وتتناول :

- ١ (مختلف العصور والمناطق .
- ب (المواقيت .
- ج (مسالك النجوم .
- د (مواقع الأجرام الثابتة .

وقد عرف العالم الغربى هذه الجداول أول ما عرف بواسطة استاذ
عالم من أكسفورد هو جون جريفز John Greaves وهو رياضى ممتاز
ومستشرق ، وذلك عام ١٦٤٢ - ٤٨ . وترجم هذه الجداول الدكتور
توماس هايد Thomas Hyde ونشرها مع ترجمة حياة ألغ بك عام ١٦٦٥
بعنوان Tabulae longae lat. stellarum fixarum ex observatione Ulug
Beighi Tamerlanii magni nepotis.

وطبع هذا الكتاب مرة ثانية مع تصويبات قام بها شارب
عام ١٧٦٧ ونقله بعد ذلك الى الفرنسية سديو M. Sédillot انظر
Markhsm,a Indian Survey p. 235.

(٢) فضلا عن شاعره الخاص خواجه عصمت بخارى كان هناك
من الشعراء خيالى وبرندق ورستم خوريانى وطاهر ابيوردى وكان لكل
واحد منهم مكانته المرموقة ببلاط ألغ بك .

تلق الفنون الجميلة من عناية الأمراء منذ عهد السامانيين ما لقيته عند
ألغ بك .

ومن أسف أن الأيام الرخية امتدت ما بقى شاهرخ على قيد الحياة،
فلم يكد ينقضى أجله عام ٨٥٠ هـ (١٤٤٨م) حتى تعكر هذا الصفاء غير
العادي الذى ظل يسود آسيا الوسطى وقتا طويلا ، وأخذت سماؤها
الصفية تتلبد بالسحاب الثقيل ، وطفقت ثمار السلام الطيبة تتعرض للتلف
بسبب قيام الحروب الأهلية . ذلك أن ألغ بك كان يرى فى نفسه وريث
الدولة كلها ، بوصفه أكبر أبناء شاهرخ . فما ان سمع بموت أبيه حتى
خرج من فوره الى خراسان ، وفيما كان فى طريقه وافته الأخبار بأن
علاء الدين ابن أخيه بايسنقر ميرزا قد سبقه فدخل هراة وأوقع ابنه
عبد اللطيف فى أسره . وخاف ذلك الأب الشفوق على ابنه فصالح علاء
الدولة على أن يطلق سراح عبد اللطيف ويعيد كل الأموال التى استولى
عليها ويفك اسار الرجال الذين أمسك بهم . ونفذ علاء الدولة أول هذه
الشروط دون باقيها ، اذ كان قد قتل عددا كبيرا من الجند الذين وقعوا فى
أسره ، كما رفض كذلك أن يرد شيئا من الأموال التى استحوذ عليها .

هنالك لم ير ألغ بك بدا من الحرب ، وكان كلا الطرفين قد اعتزما
على أن يسيرا بها الى غايتها . وكان علاء الدولة ، وقد استولى على أكبر
الأموال التى كدسها شاهرخ فى مدى خمسين عاما ، على استعداد
لبذلها كلها فى هذا النزاع ، فضلا عما كان قد جهز به جنده من السلاح
الكثير .

وحاول ألغ بك من جديد أن ينهى الأمر صلحا مع خصمه ولكنه
لم يوفق . والتحم الخصمان آخر الأمر عند ترناب على مسيرة أربعة
فراسخ من هراة فى معركة انتصر فيها ألغ بك نصرا حاسما ، وفقد عدوه
تاجه وجيشه معا واضطر الى الهرب الى مشهد . وسار ألغ بك ، من بعد
ذلك ، فى اثره يطارده حتى خراسان الغربية ، وأخذ يخضع فى طريقه
المدن ، الواحدة بعد الأخرى ، وذلك بمساعدة أخيه أبى القاسم بابر
ميرزا .

ولكن حدث أثناء غيابه أن هرب لسوء الحظ التركمانى يار على بك أحد زعماء قبيلة قره قيونلو (الخروف الاسود) من محبسه الذى كان قد زجه فيه ألغ بك ، ثم جدد نزاع أسرته القديم مع التيموريين فسقط على مدينة هراة و انتهبها وحطم كثيرا من منشآتها الجميلة ومن الآثار الفنية الكثيرة التى كان شاهرخ قد زينها بها .

وتعرضت سمرقند بدورها فى الوقت نفسه لمحنة مشابهة ، حين انطلقت فرقة من مغامرى فرسان الأوزبك حتى بلغت أبواب المدينة وصب أفرادها جام غضبهم على ضواحيها فى وحشية زائدة .

ويقول عبد الرازق : « ان صور الفسيفساء الجميلة التى كانت قد جلبت خصيصا من الصين قد حطمتها هؤلاء الأوزبك بهراواتهم ، وكانت تزين جدران بهو الصور (چين خانه) ، كما نزلت زخارف الذهب . وهكذا حطمت تحطيمًا تامًا فى مدى ساعات قليلة الاشغال الفنية التى استغرق انجازها سنوات بأكملها » .

ولكن كانت هذه المصائب قد هزت مشاعر ألغ بك الفنية هذا عنيًا دون مرأى ، فقد كان هناك كذلك نكد آخر أشد وقعًا مدخرًا له .

ذلك أن ابنه المحبوب ، وهو الذى سلك طريق الفتح أول ما سلك من أجله ، قد قابل حبه له بأشد ضروب العقوق . فلقد حارب عبد اللطيف فى معركة ترتاب بشجاعة فائقة ، ولكن الغضب ما غدا أن غلب عليه حين رأى أباه يشيد بجهود أخيه عبد العزيز من دونه . وزاد فى سورة غضبه أن اختص ألغ بك نفسه بكل ما وجده من متاع فى قلعة اختيار الدين ، وكان عبد اللطيف يرى نفسه أحق بها . وما ان استطاع بعد لآلئ أن يحمل أباه على أن يعهد اليه بحكومة بلخ حتى رفع راية العصيان هناك من فوره وعبر جيحون على رأس جيش كبير . وأرغم الأب المنكود الحظ على أن يشتبك مع ابنه فى هذه الحرب الشاذة فهزم فى أول واقعة .

وظل ألغ بك من بعد ذلك يضرب فى الأرض على غير هدى حتى ارتد آخر الأمر الى شاهرخية (بناكت) . وهناك وقع فى الأسر مع ابنه

الأصغر عبد العزيز . وبلغ من قسوة عبد اللطيف ، ذلك الابن الثائر
الفظ ، أن أمر بأبيه فقتل بيد عبد فارسي يدعى عباس .

هكذا انتهت في عام ٨٥٣ (١٤٤٩) حياة ألغ بك الذي يعد من بين
أعظم الأمراء الشرقيين المستبشرين . وقد حكم نائباً لوالده مدة ثمانية
وثلاثين عاماً . واستقل بحكم بلاد ما وراء النهر وتوابعها في الشمال
والجنوب لمدة عامين وثمانية أشهر .

ولم يتح لعبد اللطيف قاتل أبيه أن يجنى ما كان يتوقعه من ثمار
جريسته هذه ، فقد استولى على السلطان في سمرقند أبو سعيد أحد
أحفاد ميرانشاه . وكان أبو سعيد هذا قد لجأ الى بلاط ألغ بك فرحب
به وزوجه بابنته . ولم يمنعه حسن وفادة ألغ بك له من أن يثور عليه
في الوقت الذي كان قد خرج فيه لحرب ابنه العاصي . ولم يستطع
عبد العزيز نائب ألغ بك الذي كان قد تركه على سمرقند ، أن يصمد
أمام أبي سعيد وقواته المتفوقة ، وبهذا سقطت المدينة في يده .

وتنج عن ذلك أن وجد عبد اللطيف نفسه ، بعد انتصاره المشين
على أبيه ، مضطراً الى أن يواصل الكفاح ضد خصمه القدير هذا .
وحالف الحظ قاتل أبيه بعض الوقت اذ هزم أبو سعيد ووقع في الأسر ،
ولكنه استطاع من بعد ذلك أن يفر الى بخارى .

على أن عبد اللطيف لم يطل حكمه من بعد ذلك الا شهوراً ستة ،
اذ قتله عام ٨٥٤ (١٤٥٠) بابر حسين أحد أتباع ألغ بك السابقين ، وكان
قد أقسم أن ينتقم لمقتل سيده ، ثم فصل رأسه عن جسده وعلقها بأعلى
رواق المدرسة الفخمة التي أقامها ألغ بك . وشاع في الناس على اثر ذلك
مطلع قصيدة معناه « ان قاتل أبيه لا يليق بالملك » (١) .

(١) أخطأ المؤلف في فهم هذا البيت وهو « بدرکش بادشاهی رانشاید
* وكرشاید بجزشش ماه نباید » . أي أن قاتل أبيه لا يليق بالملك ، وإذا
حكم فلستة أشهر فقط وهي مدة حكم عبد اللطيف - حبيب السير رابع
ص ٤٣

وكان الأهليون يرون أن المتاعب التي نزلت ببلاد ما وراء النهر إنما كانت قصاص العلى القدير من ذلك الحاكم جزاء ما ارتكبه من جرم جسيم . وخلفه على العرش عبد الله ميرزا أحد أحفاد شاهرخ ، وكان قد لقى بدوره كل ترحيب عند ألغ بك وبنى بابنة أخرى من بناته . هنالك تقدم أبو سعيد لينازع الأمير الجديد ، ولكنه هزم مرة أخرى وارتد الى سيحون حيث لحق من بعد ذلك بالأمير أبى الخير الأوزبكى . وأمدّه أبو الخير بقوة كبيرة من الجند هاجم بها عبد الله وانتزع منه فى معركة واحدة تاجه وحياته بعد أن حكم اثنى عشر شهرا . وبهذا تم لأبى سعيد قبيل آخر عام ٨٥٥ (١٤٥٢) الاستيلاء على سمرقند قصبة الدولة التيمورية .

على أن هذا النصر كلفه غالبا ، ذلك أن الأوزبك ، أبناء الصحراء الخشنين هؤلاء ، انطلقوا عند ذلك يعملون السلب والنهب بكل البلدان على نطاق واسع . وبرغم ما أتمخسوا به من الأسلاب فإن أبا سعيد لم يتمكن من أن يحملهم على الرجوع الى مواطنهم بالصحراء الا بعد أن عمد معهم الى الحيلة تارة والى القوة تارة أخرى (١) .

ويعد أبو سعيد هذا أعظم خلفاء تيمور جميعا طموحا . ويؤثر عنه أنه كان كلفا بترديد مقالة جده العظيم بأن العالم جد صغير حتى لا يتسع لفاتحين فى آن واحد . وعلى هذا المبدأ وجد أن بلاد التورانيين أضيق من أن تتسع لأطماعه ، فاتجه لذلك بنشاطه الحربى نحو خراسان وايران أكثر مما اتجه الى بلاد ما وراء النهر . واذ كان أعضاء الأسرة التيمورية منقسمين على أنفسهم ، وقد تملكت حمى الفتوح من كل واحد

(١) كان أبو سعيد قد ظهر بمفرده عند احد ابواب مدينة سمرقند المحاصرة وكشف عن شخصيته وطلب السماح له بالدخول . وحين تكشف للأوزبك أنه قد تركهم فى السرركبهم سوء الظن ، فخاف فريق منهم أن يهاجم أبو سعيد مؤخرتهم فانصرفوا لوقتهم ، فى حين طرد من بقى منهم بالقوة . ولم يكن صنيع أبى سعيد هذا ليتفق يقينا مع ما كان يجب عليه من العرفان بالجميل نحوهم . ولعل هذا كان هو السبب الأول فى تقاعس أبى الخير عن انجاد التيموريين من بعد ذلك .

منهم في نفس الوقت ، فقد كان يستحيل على أبي سعيد ازاء ذلك أن يأمل في اقامة دولة له الا أن تتم له الغلبة أولا على جملة من الخصوم الأقوياء .

وأول حرب اشتبك فيها جاءت بسبب استيلائه على سمرقند وكانت مع أبي القاسم بابر ميرزا (١) . فقد توغل هذا الأمير في خراسان عقب موت شاهرخ مباشرة ، يسانده ألغ بك ، كما استولى على حكومة هراة عقب مقتل الأمير التركمانى يار على . ويقال ان عهده هناك كان عهد رخاء وسلام حتى ليليدو أن كان حقا جد راغب في النهوض بخراسان بعد ما نزل بها من مصائب . وكان يرى ، بحق ، في أبي سعيد عدوا خطيرا ، ولكنه ما غدا أن عقد الصلح معه بعد أن ضرب الحصار حول سمرقند أربعين يوما دون طائل .

ولم يعان أبو سعيد مشقة كبيرة مع أحمد ومحمد جوكى ولدى عبد اللطيف حين حاولا استرجاع عرش أبيهما ونازعا دعواه في الحكم ، فأوقع بهما الهزيمة عند بلخ عام ١٤٥٥/٨٥٩ . وفي هذه الحرب قتل أحمد ، أما أخوه محمد فقد فر هاربا فارتد الى ما وراء سيحون حيث راح ينشد عون الأوزبكي أبي الخير كما فعل أبو سعيد من قبل أيام ضنكه . وقد كانت سهوب بلاد ما وراء النهر الشمالية منذ زمن متناه في القدم موردا للجيوش ، وبرغم ما تظاهر به أبو الخير نحو جوكى من فتور ، اما حرصا على صداقة أبي سعيد وقد كان له ظهيرا فيما سبق أو لسبب آخر ، فانه على أية حال لم يعدم وسيلة لمساعدة ابن عبد اللطيف هذا . فقد دعا اليه بورغه سلطان وكان من أبطال الصحراء (ويذكر لنا أبو الغازي عنه أن صدره لم يكن يحوى ضلوعا وانما كانت عظامه صفحة واحدة) وقال له :

« ليس هناك من بين أفراد أسرتي من يعندلك في الاضطلاع بالأمر الذى ندبتك له . وأنت فوق ذلك يا بورغه بمنزلة ابنى ، فادع قومك

(١) كان ميرزا أبو القاسم بابر (ولا يجوز الخلط بينه وبين مؤسس الدولة المغولية في الهند) من أحفاد شاهرخ بطريق ابنه بايسنقر ميرزا .

وامض بهم ومن سوف أمدمكم به من رجالى فكن بهم جميعا ظهيرا لهذا
التيمورى فى متاعه . »

وقبل بورغه أن يضطلع بهذه المهمة ، فسار الى طشقند حيث انضم
اليه أشياى الأوزبك القدامى والجفتائيون الساخطون ، فاستولى على
شاهرخيه (١) ثم عبر سيحون واتخذ طريقا قدما الى سمرقند . هنالك
التقى به الأمير مزيد حاكم سمرقند واشتبك معه فى القتال . وكان يقود
الجناح الأيسر لجيش جوكى القائد بيشكند أوغلان قائد قوات أبى
الخير المساعدة ، فى حين كان فى الجناح الأيسر بورغه ومعه الجفتائيون .
وخسر السمرقنديون المعركة فارتدوا الى حصونهم عجلين . وتم لجوكى
من بعد ذلك الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر كلها بالتدريج .

وبلغت أخبار هذه الحوادث أبا سعيد ، وكان بدوره مشتبكا فى
حرب دامية بخراسان مع ميرزا حسين ييقرا ، وكان خصما جديرا به على
كل حال ، فاستعد من فوره لعبور جيحون . وكان بورغه وجوكى قد
نزلا فى الوقت نفسه بقواتهما على شواطىء ذلك النهر وأخذا يدرسان
مواقع الدفاع عنده . وكان بورغه يرى الدفاع عن جيحون اعتمادا على
شجاعة الأوزبك ، فى حين كان يفضل جوكى أن يرتكز فى دفاعه على
سيحون لعدم ثقته فى الجفتائيين . وكان هذا الأمير فى الواقع أبعد
نظرا فى هذه المسألة من ابن الصحراء هذا ، وقد جاءت الحوادث فيما
بعد مؤيدة له .

ذلك أن أبا سعيد لم يكد يبلغ بلاد ما وراء النهر حتى أخذ
الجفتائيون ينطلقون جماعات الى ناحية العدو حتى اضطر جوكى ، ومعه
حفنة ممن بقى معه ، الى أن يلقوا بأنفسهم فى حصن شاهرخيه ويمتنعوا
فيه ، فى حين شق بورغه طريقه الى الصحراء وقد أخذ يعمل السلب
والنهب فى كل ما صادف فى طريقه .

(١) أطلق اسم شاهرخيه على مدينة بناكت بعد أن جددت على اثر
تخريب المغول لها . وقد أطلق عليها هذا الاسم تكريما لشاهرخ ميرزا .

وربض أبو سعيد أربعة أشهر عند حصن شاهرخيه ، وكاد يتم له الاستيلاء عليه لولا أن خرج ميرزا حسين بيقرا غازيا من جديد ، فاضطر الى أن يهادن صاحب الحصن . وانطلق من بعد ذلك الى جرجان فهزم خصمه ثم عاد عام ٨٦٧ (١٤٦٢) الى شاهرخيه من جديد ففقد عشره أشهر أخرى عند أسوارها ، حتى رأى جوكى آخر الأمر أن آماله كلها قد ضاعت فأخذ يفاوض خصمه .

ودنا من الحصن خواجه عبيد الله يحمل راية الهدنة من قبل السلطان أبى سعيد ، وكان عبيد الله هذا شيخا تقيا موضع ثقة وتقدير من الجانبين . هنالك أبدى جوكى للشيخ رغبته فى التسليم اذا ما أقسم هو له على القرآن بضمان خروجه دون أن يتعرض له أحد بالسوء . ولم يأبه أبو سعيد على كل حال كثيرا بقسم رسوله ، فلم يكذب يدخل شاهرخيه حتى أسر جوكى وجبسه فى قلعة اختيار الدين حيث مات بعد ذلك بقليل .

وما ان تخلص أبو سعيد من خصمه القوى هذا حتى أقام ابنه السلطان أحمد نائبا له على سمرقند ثم رجع الى خراسان ليثبت سلطانه هناك ويمد فتوحاته الى أقصى العراقين العجمى والعربى . ووجد أبو سعيد نفسه بعد أن طرد ميرزا حسين بيقرا ، وقد أصبح السيد المطلق ، لا فى بلاد ما وراء النهر وفرغانه (التى حكمها فيما بعد ابنه عمر شيخ ميرزا) فحسب ، بل وكذلك فى خراسان وبلاد الأفغان وسيستان وكرمان وفارس ، ولما تقف أطماعه بعد عند حد . فقد أخذ يتطلع بأنظاره الى سهول أذربيجان الخصبة ، وهى التى ظهر بها على الخصوص بطل جديد فيما بعد هو حسن بك زعيم أسرة آق قيونلو (الخروف الأبيض) التركمانية .

فقد حدث عام ٨٧٠ (١٤٦٥) أن قدم الى بلاط مرو حسن على أمير أسرة قره قيونلو (الخروف الأسود) يطلب العون ازاء أعداء أبيه . وكانت خراسان تنعم اذ ذاك بسلام ، كانت فى أشد الحاجة اليه . وكان أبو سعيد قد شغل خمسة أشهر بالاحتفالات بختان أصغر أبناءه، فأقيمت

بهذه المناسبة حلقات من ألعاب الفروسية والمباريات والولائم والموسيقى والرقص والزينات . وكان هذا الأمير التركمانى قد قتل أبوه شاه جهان وهو يحارب حسن بك أو أوزون حسن كما يتردد ذكره . ولم يكن أبو سعيد بحاجة الى من يحرضه كثيرا فى مثل هذه الفرص ليقدم على الحرب . فاتجه عام ٨٧٢ (١٤٦٧) فى جيش كبير من مرو قاصدا أذربيجان رأسا . هنالك بعث أوزون حسن برسله الى أبى سعيد لعرض الصلح عليه اذ كان منشغلا اذ ذاك بالحرب فى جهات متعددة (١) . ولكن أبا سعيد أغراه ما أحرزه من الانتصارات فى الماضى فرفض ما عرضه عليه خصمه .

وحين رأى أوزون حسن أن لا مناص من الحرب دافع عن نفسه فى حمية زائدة واستماتة جعلت أبا سعيد يندم على ما كان من اندفاعه فى هذا الأمر . فقد تعرضت قواته طوال سيره الى كراباج لهجمات متكررة قوية من العدو قضت على أغلبها ، حتى هوجم أبو سعيد نفسه آخر الأمر ووقع فى الأسر ثم قتل (٢) .

تلك كانت نهاية آخر أمير تيمورى كبير حكم ثمانية عشر عاما ، استطاع فيها أن يوحد تحت تاجه جميع شعوب آسيا الوسطى ، على اختلافهم ، من جبال تيان شان الى بغداد ومن سهوب القرغيز حتى نهر

(١) كان اذ ذاك مضطرا لقتال غديك (يرسمها هامر خطا كدوك) أحمد باشا . وكان السلطان محمد الثانى قد سيره فى جيش كبير الى الاناضول ، وكان فاتح القسطنطينية يحقد على أوزون حسن ترحيبه ياسحاق بك أحد اعداء العثمانيين .

(٢) كان أبو سعيد ميرزا عندما استولى على هراة لأول مرة قد امر بقتل الأميرة جوهر شاد زوج شاهرخ ميرزا . وعلى هذا فقد سلم أوزون حسن أسيره الى يادكر ميرزا ابن هذه السيدة فقتله اخذا بالثار ، وذلك على رواية مؤرخ ميرزا حسين بيقرا . ويذكر كونتريني Contarini سفير البندقية لدى بلاط أوزون حسن أنه رأى فى احدى غرف القصر بأصفهان نقشا يمثل أبا سعيد (وهو يدعو بوزخ) وقد جىء به مقيدا بالجبال الى أوغزلو محمد بن أوزون حسن ، كما رأى فى غرفة أخرى نقشا يمثل مقتل هذا الأمير التيمورى القوى .

السند والخليج الفارسي . وكانت صفاته الحرية وقدراته العامة كفيلا بأن يبلغ شأوا أبعد من ذلك لو أن الظروف كانت قد واثته .

ومن نافلة القول أن أحمد ميرزا ابنه وخليفته لم يتمكن بطبيعة الحال من أن يحتفظ لنفسه من أملاك أبيه إلا بحكومة بلاد ما وراء النهر . ففي الغرب كانت أسرة الصفويين الناهضة تضع أسس عظمتها المقبلة على حساب التيموريين ، وفي الجنوب كان ميرزا حسين بيگرا يجلس قويا على عرش هراة ويعمل على بعث أمجاد خراسان القديمة لآخر مرة . وقد بسط هذا الأمير سلطانه قرابة ربع قرن على ايران الشمالية وبلاد الأفغان وسيستان .

وفي أقصى الشرق كان عمر شيخ ميرزا قد أعلن استقلاله ، في حين نبذ يونس خان السلطان علنا في المناطق الشمالية لسيحون . وكان يونس هذا جنكيزيا من فرع جغتاي في الغالب . وكانت قوات من المغول تشد من أزره ، ولم يكن السلطان أحمد ليستطيع أن يفعل شيئا يذكر في مثل هذه الظروف المحيطة به ، إذ كان لين العريكة ، رقيق الحاشية ، خلوا من الكفاية والمقدرة ، وان لم يخل من الشجاعة الشخصية حتى أطلق المغول عليه لقب «ألاجه» أي الجزار (١) . فقد كان من أثر تربيته على الخرافات أن نشأ غير ميال الى الاقدام وركوب المخاطر . فقد نشئ على تمسك بالشكليات حتى بلغ من مظاهر توقيره لشيخه خواجه عبد الله أن كان يجلس في حضرته على ركبته خافض الرأس . والتزم هذا الوضع ذات مرة وهو يعاني ألما شديدا في ركبته بسبب قطعة عظم حادة تصادف وجودها حيث جلس . وكان يحرص كذلك كل الحرص على تأدية انفروض في أوقاتها فلم يفته ذلك أبدا حتى حين يكون نشوان .

(١) خلط المؤلف في ذلك بين السلطان أحمد ميرزا بن أبي سعيد وبين السلطان أحمد خان المغولي بن يونس خان ، وهو الذي يشتهر بهذا اللقب لكثرة من قتل من أعدائه في السنين الأولى من حكمه (تاريخ رشیدی لميرزا حيدر دوغلات - الترجمة الانجليزية لديسون روس - لندن ١٨٩٨ ص ١٢١)

وأنا لنجده برغم تمسكه بمظاهر الورع هذه كان يمضى عشرين أو ثلاثين يوما ومجالس الشراب والسمر متصلة (١) . وقد يملكنا العجب من بعد ذلك كله حين نراه يضطلع بهام كثيرة وسعتها همته . فقد حارب يونس خان وفتح من جديد طشقند وسيرام وولاية تركستان كلها ، كما حاول كذلك رد أخيه عمر شيخ الى طاعته . وتحارب هذان الأخوان أكثر من مرة حتى توسط بينهما الصوفي المشهور خواجه أحرار فعادت المياه بينهما الى مجاريها من جديد . ونعمت بلاد ما وراء النهر عموما في عهد السلطان أحمد هذا بسلام طويل الأمد حدا ما .

ولم يعدم النشاط العقلي المزدهر ، الذى كان يروج ببلاط ميرزا حسين بيقرا ، أن يجد طريقه الى شواطئ زرفشان كذلك ، وان أخذ هناك شكلا مغايرا بعض الشيء . وقلد عليه القوم هناك ، فى ميل ظاهر ، السلطان أحمد فى اقامته الدور والمساجد والقصور والمدارس والحمامات العامة .

ونذكر من بين المنشآت الأخرى ، التى أقيمت فى ذلك الوقت ، القصر الصيفى لمحمد ترخان بسمرقند ، وهو الذى أعجب بابر به اعجابا شديدا ، اذ كان يقوم على مجموعة من المدرجات ويطل على مراعى غنية رائعة .

ولم تتعرض حكومة السلطان حسين القوية ، فى الواقع ، لمناعب ذات بال بخراسان ابان ذلك العهد . ونعم سكان بلاد ما وراء النهر عموما فى حكم أحمد بفترة من الهدوء والرخاء لم يدركوا قدرها تمام الادراك

(١) يحرم محمد (صلعم) الخمر حتى يستطيع المؤمن أن يؤدى الصلاة فى أوقاتها . نهذا يتصور المسلمون أنهم لا يخرجون عما سنه لهم الرسول بخصوص الشراب طالما كان الواحد منهم على ادراك تام وهو يؤدى الصلاة (المؤلف) . بنى المؤلف كلامه هذا على فهم خاطئ لمعنى الآية الكريمة « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » ولم يلتفت الى الآية الأخرى التى تقول « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » (المترجم) .

الا حين مات ذلك الأمير الطيب ، متوسط المواهب ، عام ٨٩٠ / ١٤٩٣ (١) في العام السابع والعشرين من حكمه .

وأمسك بأعنة الحكم من بعده أخوه السلطان محمود . وكان هذا الأمير قد تعرض لكثير من غير الزمان بعد وفاة أبيه حتى وجد آخر الأمر منزلا رجا في بلاط السلطان أحمد فعاش عنده بضع سنين على أتم ما يكون من المودة معه . حتى غادر سمرقند ذات يوم بدعوى الخروج للصيد فعبّر جيحون واستولى على بدخشان . ومن هذا المكان قدم بعد موت أخيه الى سمرقند فرقى عرشها . وكان أول ما فعله بعد ذلك أن قبض على أبناء أخيه الراحل الأربعة في قصر كوك سراي وقتلهم جميعا . وأدى صنيعه الوحشي هذا الى كراهية الناس جميعا له . وزاد من مقتهم له ما عمد اليه رجاله من الظلم والاستبداد . وسرعان ما ركبت حركة التجارة وكل أنواع النشاط في سمرقند بسبب ذلك ، ولم يعد يجسر أغلب أبناء الطبقات العليا حتى على الظهور في شوارع المدينة ، وهم الذين اعتادوا زمنا طويلا العيش في سلام مقيم وهدوء . ولم يكن محمود خلوا من التعليم ، وكان ينظم شعرا رديئا ، ولكنه انصرف بكليته الى التقتيل وأهمل أداء الفروض ، واستخف بأمر دينه حتى عامل بامتهان العالم الموقر خواجه عبيد الله (أحرار) .

ولم يدم حكمه طويلا على كل حال اذ مات بعد توليته ستة أشهر ، ويحتمل أن يكون قد مات غيلة . وقد أخفى وزيره القوي صاحب السطوة خسرو شاه خبر موته على كل حال لعدة أيام حتى تتاح له الفرصة لذلك للاستيلاء على ما بييت المال من الأموال . وحين شاع في الناس خبر موت السلطان قاموا بثورة اضطرم معها خسرو الى الفرار بصعوبة بالغة .

(١) يذكر سيد راقم عام ٨٩٦ ، اعتمادا على تواريخ شعرية عديدة كتبت عند وفاة السلطان أحمد . ويبدو لي مع ذلك أن التاريخ الذي ذكره بنبر (في سيرته) هو الصحيح اذ كان هو نفسه معاصرا لهذا السلطان .

اتتهى الأمر بالتيموريين فى بلاد ما وراء النهر الى أن بلغ الشقاق والفوضى بينهم درجة لا يرجى معها اصلاح أحوالهم ، حتى لم يعد يصعب على المرء أن يتنبأ بأن انهيار سلطانهم التام قد بات أمرا مقضيا . فقد طفق ثلاثة من أبناء السلطان محمود الخمسة ، هم مسعود وبايسنقر وسلطان على ، يتحاربون فى سبيل العرش . أما أولهم فقد انضم الى خسرو شاه ، وزير أبيه القوى (١) ، فاستولى على حصار وقندز وبدخشان على الجانب الأذننى لجيخون . وكادت الظروف تواتيه فعلا لارتقاء العرش لولا ما كان من معاداة السلطان حسين بيقرا له ، اذ انقلب عليه وعلى حليفه ، لا يدفعه الى ذلك كلفه بالفتح بقدر حرصه على تأمين حدوده الشمالية . وأدى انصراف مسعود الى مدافعة خصمه هذا الى أن ضاعت منه بطبيعة الحال كل فرصة له فى ارتقاء العرش .

ودعا فريق من أصحاب النفوذ ، حينئذ ، بايسنقر ميرزا فأجلسوه على عرش سمرقند واحتفوا به على الرسم المعتاد . وكان هذا الأمير يلى حكومة بخارى فى حياة أبيه . وكان حين ولى العرش شابا فى الثامنة عشرة من عمره ذا ملامح تركمانية ظاهرة . وبرغم حيويته الفذة وجهوده (٢) فقد وجد نفسه آخر الأمر ولا قبل له بكبح جماح أمرائه فى تمردهم عليه أو الحد من نفوذ رجال الدين البالغ . فقد ودت كل فرقة أن تتخذ منه أداة لتحقيق أغراضها الخاصة ، حتى صار الحال الى أن يرم به كل فريق فتضافروا آخر الأمر على خلعه عن العرش . هنالك ادعى

(١) كان خسرو شاه تركيا من قبيلة القيقاق ، قضى شبابه فى خدمة الترخانيين ، واجتنباه من بعد ذلك السلطان محمود حتى صار عنده أمرا على فرقة من الجند تبلغ الخمسة الآلاف أو الستة الآلاف ، وأقطعه هذا السلطان كذلك اقليم بدخشان ، وكان يمتد من جيخون حتى الهندكوش . وحين مات سيده استقل بما بأيديه من أرضين ، وكان له جيش قوامه عشرون ألف رجل . وغلبت عليه أطماعه وغروره فانقلب على ولدى ولى نعمته فسملى أحدهما وقتل الآخر (بابر نامة - النص الأصيل ص ٢٦) « المترجم » .

(٢) كان قد نظم بعض الشعر الجيد ، ولكنه لم يجمع فى أى سفر على كل حال . ويقول بابر أنه كان ممتازا كذلك فى فن الخط والنقش .

هؤلاء الثائرون أنه حين ولى شئون حكومة حصار كان يبدو سمحا رقيق العواطف على خلاف ما يديه لهم من فتور اليوم ، حتى أثار بذلك نفوسهم عليه . وما لبثوا أن دعوا اليهم أخاه الأصغر سلطانعلى ، فتقدم من قارشى الى سمرقند ، فاحتفوا به فى قصر باغ نو الصيفى . وكان بايسنقر قد حجب عن الناس أشبه بسعتقل فى القصر نفسه . وشددت الحراسة على الأميرين فى القصر ، حتى تذرع بايسنقر ذات مساء بالنزول الى الايوان الأسفل ، وتمكن من الهرب بطريق احدى القنوات ، ثم نفذ الى الريف حيث لجأ الى دار خوجكه خواجه وكان صاحب مكانة مرموقة .

وحين ذاع خبر فرار بايسنقر فى الناس احتشدوا أمام دار هذا السيد دون أن يجرؤ أحد منهم على اقتحام أبوابها .

وانتهى الحال بأن قدم جمع من أصدقاء السلطان وعلى رأسهم خواجه أبو المكارم وأعادوه الى العرش ، ثم التفتوا من بعد ذلك الى الخارجين عليه فقضوا عليهم جميعا دون شفقة أو رحمة . أما سلطانعلى وظهيره الأكبر درويش محمد ترخان فقد قبض عليهما وسيقا الى بايسنقر ميرزا بعد أن فشل فى محاولتهما الهرب ، فأمر بالأول لتسمل عيناه ، وبالثانى ليعدم . ونفذ الحكم فى الثائر ترخاف على الفور ، ومزق اربا وهو يتشبث فى استماتة بأعمدة الرواق مناضلا من أجل حياته . وأشفق القدر بسلطانعلى اذ ترفق به قصدا الموكل بكحله (١) (وهو الاصطلاح الفنى الذى كان يطلقه الشرقيون على عملية السسل أو اجتثاث العيون) فحفظ عليه نعمة البصر . وكان بايسنقر نفسه هو الوحيد الذى عفى عليه هذا الأمر وأخفى عنه ، وقد وقر فى نفسه أنه بذلك قد غدا آمنا بعد أن تم له الخلاص من كل أعدائه فى نفس اللحظة التى كان فيها سلطانعلى قد انطلق هاربا الى بخارى حيث أخذ يعد العدة لشن هجوم شديد على أخيه . وحين بعث بايسنقر بالجند فى أثره لم يقدروا عليه

(١) ويعرف فى الفارسية باسم « ميل كشیدن » وميل هى بمعنى النار وتكحل به عين المحكوم مرود ، يكون ذو نصل من المعدن يحمى فى يدين العيون بالكحل . عليه ، والنوع العادى منه يستخدم فى تلدين

لعزوته بها . حتى اذا ما تعارب الخصمان من بعد ذلك أصيب بايسنقر بضربة قاضية اضطرت على أثرها الى الارتداد سريعا الى داخل أسوار سمرقند ، ليجد نفسه على اثر هذه الكارثة وقد أحيط به من جهات ثلاث . فقد كان سلطانعلى يكر عليه من ناحية الغرب ومسعود ميرزا يزحف نحوه من ناحية الجنوب ، في حين كان بابر ميرزا ، ابن شيخ عمر ميرزا التركي ، في ناحية الشرق عنه أندجان ، أو خوقند (كما تدعى اليوم) ، وكان قد قدم يطالب بحقه في عرش جده برغم حداثة سنة . ويعد بابر ميرزا هذا ، بحق ، من بين أعظم الأمراء في العالم الشرقى أو العالم الغربى على السواء . وقد وصف أئمة المستشرقين في العصر الحديث سيرته (١) بأنها « مذكرات قيصر الشرق » . وسرعان ما أدرك بابر ببصيرته النفاذة أن صرح سلطان التيموريين ببلاد ما وراء النهر قد أخذ يتفتت ، فتقدم يبذل غاية جهده وكله أمل في تفادى وقوع هذه الكارثة . على أن جهوده كلها في ذلك صادفها الفشل كما سنرى فيما بعد .

هكذا غدت سمرقند في مستهل عام ١٩٠٣ (١٤٩٦) والأخطار تهددها من جهات ثلاث دفعة واحدة .

على أن الحظ حالف بايسنقر ميرزا اذ حل الشتاء وكانت قسوته في ذلك العام على غير المعتاد . واتفق بابر وسلطانعلى على أن يقتسما

(١) وهي الموسومة ببايرنامه ، وقد كتبها بالجفتائية بنفسه وضمنها سيرته وسيرة آبائه وأجداده ومعاصريه ، ووصف فيها مفامراته التي انتهت بتأسيسه الدولة المغولية في الهند ، تلك المغامرات التي أدت به الى ألا يصوم شهر رمضان عامين متتاليين ببلد واحد مدة ثلاثين عاما . وهو بعد يصف كل بلد دخله ، يصف طبيعته ومناخه وما به من صنوف الزرع وما ظهر فيه من العلماء وما له من ماض قديم وما به من مختلف الآثار . وهو يتحدث في ذلك كله حديث صاحب ثقافة واسعة ممتازة ، فضلا عما التزمه من الصراحة التامة فيما أورد من سير وأخبار ، حتى لتعد سيرته هذه ، بحق ، صورة حية كاملة للنفس الانسانية بما فيها من خير وشر .

(المترجم)

بلاد ما وراء النهر فيما بينهما ، ولكنهما اضطرا بدورهما الى تأجيل نشاطهما الحربى بسبب قسوة البرد كذلك . وحذا حذوهما مسعود فى الانسحاب ، وكان قد اشتد به الشوق الى زوجته التى كان قد بنى بها حديثا ، وكانت ابنة الشيخ عبد الله برلاسى ، وكان قد عزم على أن يقضى معها شهر العسل دون أن يشغله أى مطمع . على أن الأخطار التى كانت تحيط ببايسنقر ميرزا لم تكن قد انجابت عنه الى غير رجعة وانما تأجلت الى حين فحسب . فلم تكد الثلوج تذوب حتى أقبل الحليفان ، بابر وسلطانعلى ، من الشرق فضربا الحصار على سمرقند لأشهر سبعة .

هنالك تلفت بايسنقر ذات اليمين وذات الشمال ينشد العون ، فلم يجد من يستجيب له الا الأوزبك الذين كانوا ينزلون عند حوض سيحون الأدنى ، وكانوا على الدوام جد مستعدين للاقدام على أى عمل يتيح لهم فرص السلب والنهب . وتقدم هؤلاء حتى مشارف سمرقند ، حتى اذا ما استبان لهم أنهم لا قبل لهم بالمغامرة فى حرب جيوش بابر وسلطانعلى المؤتلفة ارتدوا على أعقابهم من جديد . وحين وجد بايسنقر أنه لم يعد له طاقة بالمزيد من المقاومة غادر العاصمة سرا عام ٩٠٣ (١٤٩٧) فغبر جيحون عند ترمذ حيث لاذ بأخيه مسعود ميرزا . ولم يكن بايسنقر قد بلغ الثانية والعشرين من عمره حين فقد عرشه بعد سلسلة طويلة من المغامرات والمعارك الشديدة ، حتى لئرى عدوه بابر ميرزا يصفه بأنه كان رجلا كامل الرجولة ، فلم يأخذ عليه الا مأخذا واحدا هو ميله سرا الى مذهب الشيعة ، وان قيل عنه انه رجع فيما بعد الى مذهب الحق ، وقد مات هاذ الأمير عام ١٤٩٩/٩٠٥ (١) .

وتقاسم الحليفان بلاد ما وراء النهر بعد هرب بايسنقر ميرزا ، فصارت بخارى ومنطقة ميانكل الى سلطانعلى ، فى حين اختص بابر

(١) بايسنقر ميرزا هو ثانى أبناء السلطان محمود ، وقد ولد عام ٨٨٢ (١٤٧٧) . ويصفه بابر بأنه كان ذا عينين واسعتين أسمر اللون ، وعلى هذا فقد كانت ملامحه تركمانية خالصة .

نفسه بمدينة سمرقند والقسم الشرقى من الاقليم . على أن أحدا منها لم يستطع أن يحتفظ بما بيده من أرضين طويلا . فقد اضطر سلطانعلى الى أن يفر من وجه حليفه القوى ، فلاذ بالسلطان حسين فى هراة . فى حين تكشف لباىر بدوره بعد قليل استحالة حصوله على مؤن لجنده فى الأراضى البلقع الخراب حول سمرقند ، فضلا عن تضرعات أمه الملحة اليه بالعودة الى دياره ، فنبذ آخر الأمر كل محاولاته وآب الى موطنه (١) .

وغنى عن البيان أن أحدا من هذين الأميرين لم يكن له فى هذه المناطق الا السلطان الاسمى . فالقوة الفعلية كانت فى بخارى بأيدي عبد العلى ترخان ، وفى سمرقند بأيدي خواجه أبى المكارم .

وكان هدف بابىر الأكبر ، كما يصرح هو بنفسه ، هو أن يحول دون سقوط عرش سمرقند بأيد دخيلة بعد أن لبث مائة وأربعين عاما فى حوزة التيموريين .

على أن نجم بيت التيموريين كان فى طريقه الى الأفول ، فلم يستطع الشاب بابىر ميرزا أن يوقف انهيار هذه الأسرة فى أى مكان ، وفى بلاد ما وراء النهر على الخصوص . وما لبث شيبانى محمد خان — وهو چنكيزى من بيت جوجى ، أخذ نجمه يعلو على حساب الحروب الأهلية المدمرة التى قامت بين التيموريين — أن تم له هذه المرة ، بفضل رجاله الأوزبك الشجعان ، الاستيلاء على المراكز الرئيسية فى الاقليم وجلس على عرش سمرقند ، وبهذا قضى قضاء مبرما على حكم التيموريين .

سنذكر تفصيلا فى الفصل التالى الأحداث التى وقعت نتيجة لتغير الأسرة الحاكمة . على أننا قبل أن نشرع فى ذلك لابد لنا من أن نلقى

(١) كان الحنان المتبادل بين بابىر وأمّه مما لا يدركه الخيال . وكانت هذه السيدة على ذكاء مفرط والمأم تام بكافة الأحوال فى الإمارة . وادى بها حبها لابنها الى أن تعارض طموحه الخطر . وما دعاها أصلا الى الإلحاح عليه بالعودة هو بداية انتشار الثورة سرا بأنديجان ، تلك الثورة التى كلفت هذا المفامر التيمورى عرشه فى الواقع .

بعض الضوء على الحركة الفكرية التي درجت مدارج الرقى والتقدم في النصف الشرقي من العالم الاسلامي بفعل أبناء الفاتح الأعرج الذي خرج من « المدينة الخضراء » حتى ذكر التيموريون بالثناء الذي يستحقونه في تاريخ آسيا . وكانت أهداف الثقافة في البلاد الواقعة فيما وراء جيحون تختلف حدا ما عن ذلك النشاط العلمي الذي كان يروج ببلاط شاهرخ ميرزا أو السلطان حسين ميرزا يبقرا في هراة . ففي هذه المدينة كان الشعر والتاريخ والطب والفقه وغير ذلك من الدراسات الدينية ، يقوم جنبا الى جنب مع علوم الدين ، في حين نجد البلاد الواقعة فيما وراء جيحون كان يروج فيها الأوهام الدينية وجدل المتكلمين والتصوف حتى لتطفى على غيرها من العلوم في الدرس ، اللهم الا فترة قصيرة في عهدي ألغ بك وأبى سعيد .

ومن الصعب أن نحدد على وجه دقيق مدى النشاط الأدبي في أي اقليم من هذه الأقاليم ، ولئن كانت ثمة عناصر إيرانية هي أول من نهض بهذا الأمر بلا شبهة فقد اضطلع به من بعدهم علماء من الترك الچغتائيين وأمراء من التتار ، فلم تقتصر جهودهم على تشجيع الكتاب ورجال الفنون ورعايتهم فحسب ، بل كان منهم كذلك من شارك هؤلاء البحث لا يضيره في ذلك أن يكون دونهم في الثقافة منزلة . ولقد خلف لنا على شيرنوائى في كتابه « مجالس النفائس » (١) ثبنا بأسماء الأمراء التيموريين من المشتغلين بالآداب ، فكان منهم شاهرخ ميرزا ينظم الشعر بالفارسية والتركية على السواء ، وقد حفظ لنا من شعره حتى اليوم تلك الرباعية التي يقول فيها :

« ان الشجاع ليتقد حماسا في الحرب وتشتد حميته ، وهو حين يصاب بالجراح يتخذ من معرفة فرسه سنادا له ، أما الجبان الذي يدعى الرجولة ثم يظهر الخضوع والخنوع من بعد ذلك استجلابا للرحمة من عدوه ، فانه سوف يموت ميتة الكلاب » .

(١) ما نقلناه هنا عن هذا الكتاب مأخوذ من الفصله التي سبق أن نشرها M.Bélin (بيلان) في مؤلفه سالف الذكر ص ٦٥ - ٨٢ .

وكان له كذلك محاولات في نظم الغزل ، ولا يزال غزله في زوجه
جوهر شاد يروج حتى اليوم في الأغاني الشعبية عند أهل هراة .

وكان السلطان اسكندر شيرازى ، ابن عمر شيخ ، و خليل ميرزا
يقرضان بدورهما الشعر بالتركية والفارسية على السواء . وقد ترك
خليل مجموعة من النظم التركى أشاد بها الشاعر المشهور خواجه عصمت
البخارى . ولقد أشرنا من قبل الى ما كان عليه ألغ بك من المهارة في علم
الفلك والرياضيات . وفضلا عن المامه بهذه العلوم الدقيقة فقد نهض
كذلك بالآداب والنقش والموسيقى ، ولا أدل على ما كان يستمتع به من
ذاكرة قوية من أنه كان يحفظ سبع سور مختلفة من القرآن الكريم عن
ظهر قلب .

وكان بايسنقر ميرزا بن شاهرخ ميرزا ، الذى مات في حياة أبيه (١) ،
يجمع من حوله على الدوام النقاشين والموسيقين والخطاطين . وترك
ابنه بابر ميرزا جملة خواطر شعرية تركية كذلك ، وقد مات ذلك الأمير
في سن مبكرة بادمانه الشراب (٢) .

كذلك ترك سيدى أحمد ميرزا بن ميرانشاه مجموعة من المؤلفات
(ديوان ومثنوى) بعنوان « لطافت نامه » (كتاب اللطف أو الجمال) .
ويكمل هذا الثبت بذكر بابر ميرزا (٣) مؤسس الدولة المغولية في الهند ،

(١) توفى في ٦ من جادى الأولى عام ٨٣٦ (١٤٣٢) وذلك وفق التاريخ
الذى اكتشفه م.ن. خانيكوف M. M. Chamikoff على شاهد قبر في
المصلى بهراة .

(٢) أصيب أول الأمر مرض خطير تهدد حياته بسبب اسرافه في
الشراب ، فأقام حينذاك بمشهد لمدة قصيرة ، وقد ركبته الندم والخزى
حتى كان يمضى أيامه كلها في مسجد الامام الرضا . على أن حنينه الى
الشراب كان أقوى من عزيمته ، فعاد سيرته الاولى ، ومات عام ٨٦١
(١٤٥٨) .

(٣) واسمه بالكامل ظهير الدين محمد بابر ، أما سابقه فهو ابو القاسم
بابر (الترجم) .

وهو الذى تظهره سيرته التى أشرنا إليها من قبل ، شاعرا وسياسيا وفيلسوفاً فذا ممتازا من فلاسفة العصر الوسيط (١) .

حين نأخذ فى اعتبارنا هذه الحقائق كلها وندخل فى حسابنا ذلك المثل الشرقى « الناس على دين ملوكهم » قد لا نعجب بذلك حين نرى عصر التيموريين يتميز بظهور حضارة فيه لم تعرف لها الشعوب الإسلامية نظيرا فى وقت من الأوقات ، فيما عدا الفترة التى ازدهرت فيها الحضارة عند الأمويين فى إسبانيا بعض الوقت ، أو فى العصر العباسى الأول بالعراق . ولئن كانت ثقافة التيموريين هى أساسا نتيجة للنهضة العقلية التى شهدتها إيران تحت حكم المغول المتأخرين ، إلا أن العلوم والفنون لم تشهد أبدا من الازدهار فى بلاط مراغة أو تبريز أو سلطانية ما شهدته — على تنوع — فى هراة وسمرقند .

ونكتفى بأن نذكر من بين شعراء ذلك العهد :

مولانا عبد الرحمن جامى ، ويعرف بحبيب الله ، وكان مبرزا فى النظم والنثر كما كان كذلك يمتاز فى علوم كثيرة ، كعلوم الفقه والتفسير والأخلاق والفلسفة والنحو ، امتيازه فى الشعر .

ثم سهيلي أو شيخم سهيلي ، صاحب الترجمة الممتازة لقصص كليلة ودمنة الهندية ، وقد عاش أولا فى بلاط أبى سعيد وقضى من بعد ذلك عشرين عاما ببلاط ميرزا حسين بيقر .

ثم قاسم الأنور ، ويعرف أيضا باسم معين الدين على ، وكان أعظم شاعر صوفى فى عصره . وعاش أول الأمر فى بلاط شاه رخ ، حتى إذا ما طرد منه قصد الى سمرقند حيث مات بها عام ٨٣٧ (١٤٣٧) .

(١) لا يوجد فى كل كتب الأدب التركية أو الفارسية على السواء كتاب مثل بابرنامه يحوى مثل هذه الأخبار الغزيرة فضلا عن أسلوبه البسيط

ثم خواجه عبد الله هاتفي ، وهو من شعراء المثنوى كذلك ، وقد
نظم سيرة تيمور « تيمورنامه » شعرا .

ثم خواجه عصمت البخاري ، وكان الشاعر الخاص لكل من
السلطانين خليل وألغ بك . وعلى يديه تعلم ألغ بك صناعة الشعر ، ومات
عام ٨٤٥ (١٤٤١) .

ثم مولانا حسين كبرى ، حفيد العلامة المشهور نجم الدين كبرى
(من تلاميذ العلامة أبي الوفا الخوارزمي) الذي قتله المغول في أوركنج ،
واشتهر كشاعر صوفي ، وقد كتب شرحا على مثنوى جلال الدين
الرومي . هذا كما كتب خواجه عبد الله مرواريد ، متخلصا باسم بياني ،
ديوانا أو مجموعة من الأناشيد والغزليات بعنوان « مؤنس الأحباب »
وهي على هيئة رسائل .

أما ملابنائي ، ابن أحد رجال المعمار في هراة ، فقد عاش محوطا
بالرعاية ببلاد ميرزا حسين في مسقط رأسه حتى دب النزاع بينه وبين
مير علي شير قذهب حينذاك إلى بلاد ما وراء النهر حيث اجتبه السلطان
محمود وصار من بعد ذلك الشاعر الخاص لشيواني محمد خان ، ومات
عام ٩٣٣ (١٥١٦) .

ثم محمد صالح صاحب منظومة « شيواني نامه » ، وله إلى جانب
ذلك غزليات رقيقة ، كما نظم مثنوى نهج فيه نهج « ليلي والمجنون » ،
ولا يرى بابر لمؤلفاته هذه أية قيمة ، ولعله قال بذلك لأن محمد صالح
كان من المقربين عند شيواني . وقد عاش هذا الشاعر في بلاد ذلك
الأمير الأوزبكي .

كذلك حلّ بابر على هلالى ومثنوى الشعبي « شاء ودرويش »
(أي الملك والشحات) لبذاءة ألفاظه . وكان الشاعر يستمتع بذاكرة قوية
حتى كان يحفظ عشرين ألف بيت من الشعر أو ثلاثين ألفا عن ظهر قلب .
وأخيرا ، وليس آخرا ، يجب أن نذكر مير علي شير الذي يشتهر
كشاعر وقائد كما يشتهر كذلك بوصفه كاتبا مكثرا ذا خيال . وبرغم

انه لا يعد مؤسس الأدب التركي الشرقى ، كما يشاع عنه عموماً (١) ، الا انه جدير ، بحق ، بتلك الشهرة (٢) التى صادفها فى حياته وبعد مماته على السواء . ولم تكن له هذه الشهرة بسبب تأليفه التركية فحسب ، بل كذلك لغيرته فى الدفاع عن القومية التركية بازاء تحامل علماء ايران وسخريتهم منها . وبرغم مضى أربعة قرون ونصف القرن على وفاته ، لا تزال تجد مؤلفاته بين مقتنيات أعيان الأوزبك ، وان كان فهمهم لها ضئيلاً فى الغالب .

وكانت دراسة اللغة والتفسير والتصوف شائعة عموماً بين جملة من الدارسين النابهين الذين كانوا ينتسبون الى هذا أو ذاك من « نجوم العلم الكبار » وكانوا جميعاً مبرزين فى الخطابة والكتابة على السواء . وفضلاً عن الحقيقة الثابتة وهى أن كل من كان يشتغل بالأدب كان يشارك الى جانب ذلك فى دراسة فرع آخر من فروع العلم حتى برز كثير منهم فى صناعة الشعر وفى العلوم العربية والدينية معا ، فيمكننا أن نذكر من بين الذين تميزوا فى العلوم المتخصصة المختلفة مولانا حسامى الخيوى المولد ، وكان من تلاميذ العلامة خواجه أحرار فى قراقرول ومن لازموه طويلاً ، ثم خواجه عبيد الله وكان من حوارى بهاء الدين النقشبندى ومن دعاة تعاليمه الشيطيين ، وكان متصوفاً وعالمًا ذائع

(١) مر الأدب التركى فى ادوار كثيرة منذ ان ظهر الترك ، ولكنه ظل على الدوام صورة صادقة لأحوالهم الاجتماعية والسياسية والدينية . ويبدو وفق ما ورد بأقدم المصادر التى بين ايدينا أنه اخذ فى الازدهار ابتداء من القرن التاسع الميلادى . وتاريخ كتاب « قوداتقوبيليق » يرجع الى عام ٤٦٣ (١٠٧٠) وقد نشرت أقسام منه عام ١٨٧١) ورغم أن مؤلفه يقول انه أول كتاب كتب بالتركية ، الا أن لغته يظهر فيها علامات مميزة تدل على رقى الأسلوب الأدبى وعلى وجود نشاط أدبى سابق بالتالى .

(٢) كان رأى السائد هو أن العنصر الايرانى بين السكان أرقى عقلياً بكثير من العنصر التركى . ولقد أخذ مير على شير على عاتقه أن يقيم الدليل ، على هدى الانتاج الأدبى لبنى جلدته ، على أن الترك يمكنهم بدورهم أن يفخروا بكتابتهم الأكفاء . وحين بدا له أنه لن يمكنه أن يرقى بهم الى أن يكونوا على قدم المساواة مع الأدباء الفرس الذين كان نشاطهم يتلألأ اذ ذاك ، انتقل بنزاهة من ميدان الأدب الى حومة الأخلاق ، فأخذ يشيد فى صور متعددة زاهية بشجاعة الترك وأمانتهم واخلاصهم . وهذه المناظرة اللطيفة تجدها فى كتابه « محاكمة اللفتين » .

الصيت حتى تخاصم علماء عصره من أجله . هذا كما كان شديد التسكع بمبدأ النبي الأكرم « الفقر فخرى » ، فعاش بظاهر قراقول يفلح الحقول بيديه ، وتوفي عام ٨٩٥ (١٤٨٩) بقرية كساكيران . ولا يزال كتابه « تحفة الأحرار » يقرأ على نطاق واسع ، وهو فى الأخلاق والدين ، كما يقصد الزوار ضريحه بسمرقند فى جموع غفيرة قادمين من أماكن بعيدة . ومنهم كذلك مولانا فصيح الدين الذى عاش ببلاد حسين بيقر ، وكان صاحب حظوة عند ميرعلى شير ، ولا تزال شروحه على أهم كتب المذاهب فى عصره تدرس بكليات آسيا الوسطى ، وتوفي عام ٩١٩ (١٥١٣) .

أما مثلاً عبد الله جعفر فلا يقلل من قيمة شروحه عدم ذيوها ، وهو من تلاميذ جامى ، ومن الفقهاء كذلك ، ومات عام ٩١٦ .

وثمة فقهاء ثلاثة آخرون مشهورون هم مولانا معين الفرائى الذى يشتهر بكتابته لسيرة النبي وأركان الاسلام ، ومولانا كمال الدين حسين الذى يشتهر بتأليفه العديدة فى تفسير القرآن ودراساته الفذة فى الأخلاق ، ومولانا محمد قاضى الذى يشتهر بكتابته « سلسلة العارفين » أما أبعد المؤرخين صيتاً فكان شرف الدين لكتابته لسيرة تيمور ثم عبد الرزاق الذى يشتهر بتاريخه الفياض للتيموريين فى أسلوب بليغ وحول هذا العصر ألف كذلك كتاب « دابستان » (١) (مدرسة المذاهب)

(١) يقصد كتاب « دابستان المذاهب » لمحمد محسن فاني ، وهو يتحدث عن :

- ١ - الزردشتية .
- ٢ - عقائد الهنود .
- ٣ - عقيدة القراتبتيان .
- ٤ - عقائد اليهود .
- ٥ - عقائد النصارى .
- ٦ - حقيقة المحمدين وأهل الاسلام .
- ٧ - عقيدة الصادقية .
- ٨ - عقيدة الواحدية .
- ٩ - عقيدة الروشنية .
- ١٠ - عقائد الالهية .
- ١١ - عقائد الحكماء .
- ١٢ - عقائد الصوفية .

(طبعة بمباى ١٢٩٢ - ١٨٧٥) . الخشاب

الذى يتناول بالدراسة اثنتى عشرة عقيدة مختلفة من عقائد الشرق .
ويصف المستشرق سير جونز W. Jones هذا الكتاب بأنه من أهم وأغزر
الكتب الشرقية . ولم تهمل كذلك دراسة الرياضيات والحساب وعلم
تقويم البلدان (١) . على أن هناك كثيرا من الكتب التى قام بتأليفها علماء
أفذاذ قد ضاعت تماما أو لعلها فى الغالب لم تصل الى أيدينا .

ولا تتعرض هنا لتفاصيل الأبحاث الأدبية والتاريخية . وحسبنا
فى ذلك أن نستعرض ثبت أسماء النحويين والفقهاء ، منبهين الى أن كثيرا
من النحو ووجوه الاعراب التى يدرسها شباب المسلمين فى كل الأقاليم
حتى اليوم انما ترجع الى ذلك العهد ، وأن كثيرا من الرسوم والآراء
المذهبية الخاصة بأواسط آسيا انما ترد الى ما كتبه علماء هاتيك
الأيام .

وما نجده عند المسلمين فى آسيا أو فى غيرها من الأماكن من الميل
الى الثقافة والحضارة الرفيعة بل وبالاختصار كل الصفات التى لم يعد
يعرف منها اليوم الا اسمها ، هذه جميعا هى من آثار فترة الازدهار التى
شهدها بلاط هراة وبلاط سمرقند .

ومن أهم الفنون التى كان لها حظ كبير من العناية على الدوام فن
الخط وفن النقش . ومن كان يشتغل بفن الخط سلطان على (الذى
عهد اليه على شير بنسخ كتبه) ، ومن كان يشتغل بفن النقش بهزاد
وشاه مظفر .

وكان التيموريون ، مع غيرتهم الشديدة وتسكهم بمذهب أهل
السنة ، يزينون كتبهم على الدوام بالتصاوير الملونة ، ومنشآتهم

(١) على راس هذه المؤلفات الجغرافية رسالة لجامى على هيئة
أسئلة والجواب عليها عن الهند ، وكتاب واصف « بلاد چين » وهو وصف
للصين نقلا فى الغالب عن تقارير البعثة التى كان شاهرخ قد أوفدها الى
بكين .

بالسيفساء ، فلا يتمثل فيها الأرابسك (١) ونقوش الجباد فحسب ، بل وتزدان كذلك بصور الأمراء والأبطال ، وبصور الأولياء في بعض الأحيان . وقد شيد كثير من المنشآت المعمارية الجميلة في عهد شاهرخ وألغ بك وأبى وميرزا حسين . ويقال انه في تلك المهود قام المعماريان الاستاذ محمد سبز والاستاذ قوام الدين بتنفيذ بضعة آلاف من الأشغال العمومية . ويروى المؤرخ سام ميرزا أن مير على شير أقام بخراسان وحدها ما لا يقل عن ثلاثمائة وسبعين مسجدا ومدرسة وخانقاها ودارا للشفاء وقاعات للقراءة وجسورا . وهل كان ينتظر من مثل هؤلاء الملوك الكبار في مثل هذا العصر غير ذلك الذى اضطلعوا به .

ولقد قضت الحروب المتواصلة في البلاد الواقعة فيما وراء جيحون حتى على خرائب هذه الآثار في الغالب ، ومع ذلك فقد بقى حول هراة أكثر من أثر يدل على الحضارة المزدهرة التى كانت تقوم هناك . ولم يترك ذوق التيموريين الرفيع طابعهم في مدينة هراة ، بالمصلى وبخواجه عبد الله الأنصازى فحسب ، بل وعلى طول شواطئ مرغاب حيث تتوج صخورا ناتئة عديدة هناك خرائب الدور الصيفية التى كانت قائمة هناك . وهذه الخرائب انما تقوم شاهدا ملموسا على مدى ما كان يستخدم القوم من الفنون الجميلة والشعر مزينين بها الأجواء التى يقضون فيها حياتهم اليومية .

وبرغم وجود العدد الوفير من العلماء الموقرين والفقهاء والشيوخ فقد كان من رسم البلاط في هراة وسمرقند اقامة الحفلات ومجالس الشراب التى كانت تعقد في الغالب لعدة أيام ، وكان الغناء والموسيقى من لوازم تلك الندوات على الدوام ، وكان الموسيقيون والمطربون بذلك موضع التكريم . وعلى ما يروى بابر فقد كان أشهر هؤلاء خواجه عبد الله مرواريد (وقد سبقت الإشارة اليه) ، وقل محمد عودى وشيخ نايبى ثم حسين عودى الذى كان يجيد العزف على العود والناى والقانون

(١) على ما رواه بابر أن ابا سعيد قد امر بتزيين قصر بابر ميرزا بالتصاوير ونقش صور المعارك الحربية على جدرانه .

ويذكر كذلك غيره من المطربين مثل مير شادي و غلام ومير عزو (١) .
والواقفون على أحوال آسيا الإسلامية اليوم قد تصدهم الحقيقة
بأن بلاط التيموريين كان يفخر كذلك بما لديه من الراقصين ، بل لقد
كان هناك على ما يرويه بابر ، سيد (من نسل الرسول) يدعى بدر
كان من أشهر البارزين في فن الرقص حتى ابتكر هو نفسه عدة رقصات .
وان الرعب ليملك اليوم كل مسلم حين يتصور أن سيدا بعمامته

(١) يذكر بابر في سيرته « بابرنامه » التي نشرتها بالجفتائية السيدة
١. بيفريديج (ورقة ١٧٧ ب - ١٨٢ ب) :

« ان عصر السلطان حسين ميرزا كان ازهى عصور الحضارة ، فقد
اجتمع فيه بخراسان هراة على الخصوص الصنوة من اهل الفضل ممن
كان غرضهم الاسمى أن يصلوا بالفنون التي وقفوا حياتهم على الاشتغال
بها ، الى أعلى درجات الكمال .

وكان من هؤلاء الاعلام مولانا عبد الرحمن جامى الذى لم يكن له في
عصره ضريب سواء في العلوم الظاهرة أو الباطنة ، واما شعره فهو معلوم
مشهور ، ثم شيخ الاسلام سيف الدين أحمد من احفاد مولانا سعيد
الدين التفتازانى الذين لبثت مشيخة الاسلام فيهم اجيالا متعاقبة . ولم
يمنعه مذهبه الشافعى من مصادقة اصحاب المذاهب الأخرى ، ثم مولانا
الشيخ حسين وكان فذا في علوم الحكمة والعلوم العقلية وعلم الكلام ،
فضلا عن قدرته في الاستنباط والشرح ، ولم يكن السلطان سعيد ميرزا
يبرم أمرا دون رايه ، ثم مير مرتاض وكان ضليعا في الحكيميات والمنقولات ،
وقد سمي « مرتاض » لكثرة صيامه ، ثم ملا مسعود شيروانى وعبد
الفورلار ، وكانا من مريدى جامى ، ثم المحدث مير جلال الدين ، ولم يكن
له في علم الحديث نظير بخراسان ، ثم القاضي اختيار وقد كتب رسالة
جيدة في الفقه » .

« وكان غير جامى من الشعراء ، ببلاط السلطان حسين ، شيخم
سهيلي وحسين على طفيلي جلاير ، ثم آصافى ، وكان أبوه وزيرا فتخلص
على هذا بآصافى (يقال ان وزير النبى سليمان كان يدعى آصاف : المترجم)
ثم بنائى الهروى ، وله ديوان ومثنويات ، وقد أدت سخريته بالناس
في أشعاره الى اخراجه من هراة ، وكان من اكبر المعجبين بعلى شيرونائى ،
ثم سيفى بخارى ، وقد نظم ديوانا لنفع التحار ، وله مثنويات كذلك ، ثم
عبد الله مثنوى كوى ابن أخت جامى وقد نظم « هفت منظر » و تيمورنامه »
و « ليلي ومجنون » ، ثم مير حسين معمارى صاحب الألفاز والأحاجى
الشعرية ، ثم يوسف بديعى وهو صاحب غزليات ، ثم محمد صالح وله
شعر جيد في التركية ، ثم حسين كامى ، ثم هلالى الذى كان يحفظ أربعة
آلاف بيت من الشعر عن ظهر قلب » (المترجم) .

الضخمة الوقورة يتكرر رقصات توقيعية أو يشارك في احدى الرقصات الشعبية التى لا تزال تروج حتى اليوم في ايران باسم هراتى (١).

حقا ان الزمن لكفيل بتبديل كل شىء . فهاهى ذى آسيا الوسطى ينتهى أمرها بعد سقوط التيسوريين الى الانهيار من ذروة الحضارة والحماس الصادق لكل ما هو مذهب جميل الى حياة الهجبية والجهل ، فلم تنهض منها أبدا حتى الآن ، وأخذت أهميتها السياسية تتلاشى سريعا بالتالى تبعا لانهيار حضارتها ، وانقضى دور أمراء بخارى على مسرح التاريخ ، وهم الذين حكموا قرونا طويلة فى أجمل بقاع آسيا الاسلامية ، وتقلصت بذلك تلك الدولة المزدهرة التى كانت تقوم فى السابق ببلاد ما وراء النهر فصارت خانية بخارى البائسة .

= « وكان بللاط يقرأ كذلك طائفة من الخطاطين ، على ان السلطان على شهيد كان يبزمهم جميعا . اما النقاشون فقد كان بهزاد أرفعهم قدرا ، وكان يتقن رسم الوجوه الملتحية ، ثم شاه مظفر وكان يتقن ابراز الملامح »
« اما الموسيقيون فلم يكن منهم من يجيد العزف مثل خواجه عبد الله مروانى ، ومنهم كذلك محمد عودى وشيخى نايب وشاه قلى عجكى ثم حسين عودى الذى كان يؤدى لحنا بأكمله على وتر واحد . أما ميرغزو فقد كان ملحننا ممتازا لا عازفا ، ومثله بنائى . وكان البهلون محمد بو سعيد فردا فى فنه نبغ فى مختلف ألعاب القوى وكان موضع اعجاب الجميع ودهشتهم » .

(١) شاهدت بنفسى الرقص المعروف باسم هراتى بشيراز عام ١٨٦٢ وفىه يعتلى الراقص مقعدا ويساير الموسيقى بعض الوقت وهو ملفف فى ملاءة بيضاء ، ويتمايل فى ستره هذا تمايلات رشيقة أكثر منها فنية ، ثم يكشف عن نفسه بالتدرج . وهناك رقصات أخرى تعرف باسم خراسانى وترجع الى ذلك العهد ، وهى تشبه ضربا من الرقص الموسيقى يؤدى فيها الراقصون حركات مضحكة تحكى المغازلة فى صورة ليس فيها الكثير من الجمال والفن .

الفصل الثالث عشر الأوزبك وشيباني خان

٩٠٦ (١٥٠٠) - ٩١٦ (١٥١٠)

من ألطف ما يتميز به الترك أنهم جروا دوما على تسجيل ذكرى أولئك الأمراء الذين أكسبهم ازدهار عهودهم ، أو ما كانوا يبدلون من جهود لخير شعوبهم ، حقا شرعيا يقوم على عرفان أعقابهم لهم من بعدهم بذلك فيتخذون من أسمائهم كنى لهم ، ويشيدون بالواحد منهم ، ويرفعون من قدره حتى ليعد وكأنه مؤسس جنس ، ويبنون في تحديد تام مدى الدور الذى لعبه في بعث بلاده من جهة وعلى مسرح التاريخ من جهة أخرى .

وعلى هذا رأينا الترك ينفذون أولا الى آسيا الغربية كطلائع للدولة السلجوقية الجبارة ثم يقيمون هناك على بقايا الدولة البيزنطية دولة جديدة لا تزال تعرف حتى اليوم باسم الدولة العثمانية نسبة الى زعيمهم عثمان .

وعلى هذا أيضا نجد قبائل الترك المغول التى تسكن المناطق (١).

(١) لكيلا يتعرض هنا اصطلاح « الترك المغول » لاي تأويل يجب ان أبين هنا انى أنظر الى الأوزبك بوصفهم خليطا من الترك والمغول فهم ليسوا من أصل تركى خالص . ومثل هذا الامتزاج لا نظنه بعيدا عن الاحتمال عند الترك والمغول الذين دخلوا فى الاسلام اذ انه قائم فى الواقع . وأحسن دليل عليه نجدة فى ثبت اسماء الاثنتين والثلاثين قبيلة أوزبكية . واغلب هذه الأسماء هى بلا شبهة مغولية فى أصلها وتطابق تمام المطابقة كثيرا من الأسماء التى لا تزال تشيع بين البدو فى صحراء جوبى . مثال ذلك ختاي مونج : ختات (فى ابدال الجيم بالتاء انظر - Uigurische Spra-) hmonumente p. 23 بالصينية نو كس مونج ، نو كوسون ، الصوف (ولا تجد حرف التون ينطق بالتفخيم فى التركية فى الغالب) تاس مونج : تاس ، وهو نوع من النسور الرمادية . دورمن منج : دورين = أربعة ، ميتن . مونج ، ميته = الجبن والخور وهلم جرا .

الشرقية لبلاد القبيلة الزرقاء ، وهو الاقليم الواقع بين الفولجا وبحر آرال ، تنتسب (١) تشريفا لها الى أوزبك تاسع الحكام من بيت جوجى فتشتهر سياسيا باسم قبيلة الأوزبك (٢) ويقول أبو الغازى فى تاريخه عن التار (٣) ان أوزبك خان كان يكافىء كل شخص ويكرمه وفق ما يستأهله . كما دعا الناس الى الاسلام فدخل بجهوده كثيرون فى ملة المسلمين ، وعلى هذا انتسب قوم جوجى الى أوزبك ، ذلك الاسم الذى سوف يخلد الى يوم الدين .

ولقد حمل أوزبك قومه على الدخول فى الاسلام ، وكان الى جانب ذلك ، كما يلاحظ هامر بحق (٤) ، ثالث حكام عظام أربعة ازدان بهم عرش القبجاق ، ومع هذا فلا يندو أن الأوزبك ، لا فى عهده ولا فى عهد خلفائه المباشرين ، كان لهم دور ملحوظ كأمة ، وان كان ذكرهم يرد بين الحين والحين فى تاريخ التيموريين . كما أشار اليهم كذلك عرضا الرحالة العربى ابن بطوطة .

(١) يجعل مؤرخو آسيا الوسطى الشرقيون موطن الأوزبك القديم هو بطاح القبجاق الفامضة المعالم ، ويعنون بذلك مرتفعات توران التى تمتد ستمائة فرسخ طولا وثلثمائة عرضا من بحر الخزر صوب الشرق . وهذا الادعاء خاطيء على كل حال ، ذلك أن الأوزبك برغم أنهم كانوا يرعون قطعانهم الى الجنوب من خوارزم الا أنهم لم ينفذوا من ناحية الشمال الشرقى الى أبعد من المجرى الأدنى لسيحون حتى سقوط التيموريين . فموطنهم الأصلى كان فى الغالب عند شواطىء نهري أورال وامبا ، وبعبارة أخرى ذلك الاقليم الذى يعرف اليوم بأرض القبيلة الصغيرة » .

(٢) تعنى كلمة اوزبك سيد نفسه ، والمستقل . وما يشير السجبان هذه الكلمة نفسها كانت شائعة بين المجريين بوصفها من القاب الشرف ، وهى ترى فى الوثائق التى يرجع تاريخها الى عام ١١٥٠ م . وقد سخر الشيخ المشهور خداداد المتوفى عام ٩٣٩ (١٥٩٢) من تلميذه عارف صوفى حين رآه ينتحب على اثر اول انتصار لبابر على شيبانى خان وقال له بالتركية « سيكون لك سيدك » Alias : Ozbeg.

(٣) ابو الغازى ، شجر تركى (نسب الترك) .

(٤) History of the Golden Horde p. 281 والثلاثة الآخرون هم :

باتو وبرك وتختمش .

ويمضى على ذلك قرن ونصف قرن انفرط من بعده عقد قبيلة
القبجاق الى أربع فرق ، وكانت هذه القبيلة يوما ما على قوة ، وحين أخذ
ايفان سيليفتش (Ivan Wassiliewitsch) محرر روسيا من التتار ، يهدد
سلطان أحفاد جوجى عند المجرى الأعلى للقولجا ، نجد اسم أبى الخير ،
أمير الأوزبك ، من بين مجموعة أسماء الزعماء والأمراء التابعين الذين
نبذوا طاعة الحاكم فى سراى وأخذوا يبارسون سلطانهم كخانات
مستقلين . واستطاع أبو الخير بخيامه وجموعه ، أن يرتد فى مشقة تلقاء
تلك العاصفة التى كانت تتجمع فى شمال بلاد النصارى ضد قوة
المسلمين ، فنزل فى مناطق السهوب الشرقية . وذاع صيته فى تلك الجهات
حتى استجده به من الأمراء التيموريين أبو سعيد ومحمد جوكى وحسين
ييقرا ، والتمسوا حمايته ، على ما أشرنا إليه فى فصل سابق ، وذلك إبان
حكم كيچيك (١) محمد آخر أمراء القبيلة الزرقاء ، وهو الذى انهار
بسقوطه عرش جوجى فى القبجاق .

ولقد ظل الأوزبك فى منازلهم بعيدين عن مؤثرات الحضارة
الاسلامية التى كانت قائمة غربى سراى وجنوبى بلاد ما وراء النهر ،
متسكين ، على طبيعة البرابرة العتاة ، بعادات التورانيين القديمة لفترة
أطول مما تمسك بها اخوانهم الذين كان قد استقر بهم المقام فى منازل
الحضر وتأثروا بمؤثرات الحضارة التيمورية .

واعتنق هؤلاء الأوزبك دين النبی العربى اعتناقا اسما ، فبقيت
رسومهم وعاداتهم ، مثلهم ، مزيجا عجيبا من رسوم الترك والمغول . وفى
حين كان الترك عند جيحون وسيحون يقبلون بالتدريج على لغة ايران
وآدابها وحضارتها عامة ، كان هؤلاء لا يزالون يرفلون فى جلود الماعز
والخيل ، حتى كان المظهر الملحوظ الوحيد للحياة الدينية عندهم هو

(١) يخطئ هامر حين يرسم هذا الاسم بالامالة نحو الضم ، وينسى
أنه بهذا يكون معناه فى التركية الشرقية الجرو . وعلى هذا فالصحيح
أن يكتب بدونها . ويفقر مثل هذا الخطأ أن معرفتنا اذذاك بالتركية
الشرقية كانت ضئيلة جدا .

تسجيدهم ، الى حد ما ، لوليهم القومى الزاهد خواجه أحمد اليسوى (١)
الذى كانوا ينسبون اليه كثيرا من الخوارق . وما لبثوا من بعد ذلك أن
أخذوا ينزلون منازل الحضر بالتدريج ويستقرون بها ، وينفضون عنهم
بالتالى عادات البرابرة شيئا فشيئا .

ولقد كان اسم الجغتائيين يطلق فيما سلف من الأيام على الترك
المستقرين الذين كان لهم من الحضارة نصيب ، فى حين كان لفظ
الأوزبك (٢) اذ ذاك مدلولاً على البرابرة الذين يقطنون منطقة السهوب
الشمالية الغربية ، حتى تبدل الحال اليوم فأصبح للفظ الأوزبك المدلول
الذى كان للفظ جغتائى من قبل ، وبات الترك البرابرة غير المتحضرين
يعرفون باسم القرغيز أو القازاق (ومعناها الرحل البرابرة) .

والغالب أن أبا الخير كان على معرفة تامة بالعصر الذى ألفت به
الأقذار فيه . فلم يفكر فى الخروج الى الفتوح بسبب الظروف التى
كانت تسود آسيا الوسطى اذ ذاك ، وانما اكتفى بأن يمضى قدما فى
تلبية دعوة خلفاء تيمور حين كانوا يستجدون به ابان الحروب الأهلية
العنيفة التى كانت تجرى بينهم ، فناصر منهم أبا سعيد كما ناصر منوچهر
ميرزا والسلطان حسين بيقر ، وكان الأوزبك يؤوبون كل مرة بعد هذه
المعارك مثقلين بالأسلاب على الدوام ، بتلك الغنائم التى أضفت على
حكم أبى الخير الذى استمر أربعين عاما شهرة لم تتح لغيره من أمراء
الصحراء . وهناك مثل تركمانى يقول « من اليسير أن تثير رمال
الصحراء بأنفاسك ، وأيسر من ذلك أن ينهار مستقبل الانسان » .

(١) لا يزال خواجه أحمد اليسوى هو الولى الأثير عند البدو فى
سهوب آسيا الوسطى ، ويقدس الأوزبك والقرغيز شعره الدينى ومواعظه
كما يقصدون القرآن ، وقد أوردت أمثلة منه فى كتابى : الدراسات
الجغتائية .

(٢) ويؤيد ذلك ما يقوله مؤلف شيبانى نامه ، ما ترجمته :
ان الجغتائيين سوف لا يدعوننى أوزبكيا وهم لن يتأثروا بالافكار
التافهة . ولم يلبث هذا الاسم الذى كان علامة على التحقير ان صار على
مدى الزمن من ألقاب التشريف ، ذلك ان الترك اصحاب المدنية من سكان
الحضر ، يعرفون اليوم به (الأوزبك) .

وتتج عن ازدياد قوة أبى الخير وذيوع صيته أن عاداه كثيرون .
فانتلف عليه الأمراء المستقلون فى مناطق السهوب المجاورة بل لقد
انقلب عليه أقرب أقربائه وفيهم بورغه سلطان ، الذى سبقت الإشارة
إليه ، وذلك على مقتضى المثل التترى الذى يقول « حين يهاجم العدو
مضارب أيبك فانضم إليه وشاركه السلب والنهب » (١) .

ولم يلبث أبو الخير أن سقط فى حومة الوغى وتشتت أسرته
الكثيرة العدد فى كل صوب وحذب بالصحراء . وخلفه من بين أبنائه
الأحد عشر (٢) الذين تركهم من بعده خامسهم ، وكان يدعى شيخ حيدر
سلطان ، ولكنه كان محدود النفوذ ، إذ كانت عيون الأوزبك قد اتجهت
فعلا إلى حفيد لأبى الخير هو الأمير محمد شيبانى الذى يشتهر أيضا
باسم شاه بخت (أى ملك الحظ) ، وعقدوا آمالهم عليه . ومع حداثة
سنه فقد دلت فعالة فى الواقع على أن ثقتهم به لم تكن فى غير موضعها (٣)
وكان شيبانى (وهو الاسم الذى سوف نطلقه عليه مستقبلا على الدوام)
قد فقد وهو بعد حدث (٤) أباه بودان سلطان (زهرة الملوك) وأمه
قوزى بيكيم (أى الشاه) فعهد به وبأخيه إلى قراجة بك ، أحد أتباع

(١) ورد هذا المثل عند أبى الفازى ص ١٠٦ ، وقليل من اللغات هى
التي تحوى يقينا نظير هذا المثل الذى يحض على القتل والسلب .

(٢) وهم بذاق سلطان وخواجه محمد سلطان وأحمد سلطان ومحمود
سلطان وسيونج خواجه سلطان (وأمه إحدى بنات الغ بك) وآق برق
سلطان وسعيد بابا سلطان ، وأبناء الأميرين الأولين هم الذين كان لهم دور
فى تاريخ آسيا الوسطى ، وعلى هذا فقد ضبظت أنسابهم . أما أبناء أبى
الخير الآخرون فلا نعرف عن ذريتهم شيئا .

(٣) يذكره المؤرخون الفرس أحيانا باسم شاهي بيك ، وقد حرف
هذا الاسم عند Deguigness إلى شايك . وقد أخطأ المؤرخون الإيرانيون
كذلك فى تحديد تاريخ مولده ، فيذكره صاحب روضة الصفا عام ٩٠٥ هـ
وهو تاريخ ارتقائه العرش كما سنرى فيما بعد ، والصحيح أنه ولد عام
٨٥٥ .

(٤) قبل أن يستولى شيبانى مباشرة على سمرقند عام ٩٠٦ هـ كان
قد أفضى إلى صديقه الشاعر محمد صالح أن أباه قد مات قبل ذلك الوقت
بأربعين سنة وبهذا تكون وفاته عام ٨٧٦ (١٤٧١) ، فإذا كان شيبانى قد
ولد عام ٨٥٥ فإنه بذلك كان عند وفاة أبيه فى الحادية والعشرين من عمره
(٥) وهى ليست نورى بيكيم كما ورد فى الطبعة الحجرية لروضة
الصفا .

جده المخلصين ، فتفانى في تعهد الأميرين اليتيمين ، وحين مات شيخ حيدر اضطر قراجه ، بسبب عداء أسرة أبى الخير له ، أن ينزح الى حوض سيحون الأدنى ومعه الأميران اللذان وكل أمرهما اليه ، وكاذا اذ ذاك قد شبا عن الطوق . هنالك أفلح شيبانى فى أن يجمع حوله شتات الأولوس (أولوس = مجموعة الخيام) من أتباع أبيه وينطلق من بعد ذلك يعمل فى هدوء على استرداد ما كان لبيته من هبة بالثار له وغسل ما لحق به من مهانة بالدم . وكان أول هدف له فى ذلك هو تأديب بورغه سلطان لخياته المشينة لأبى الخير . وكان بورغه هذا قد أقام مضاربه بظاهر غابة عند الحوض الأعلى لذلك النهر . واذا لم يكن لشيبانى قبل بخصمه هذا فقد اصطنع مداراته فى انتظار فرصة سرعان ما واته .

ففى ليلة من ليالى الشتاء الثلجى الطويلة التى يغشى فيها الظلام الدامس والزمهرير الرهيب مناطق السهوب حيث الحياة فيها على الدوام كتيبة موحشة ، انقض شيبانى خان على منازل خصمه فى حفنة من أتباعه وقتل عديدا من رجاله . وهلك بورغه نفسه فى القتال من بعد ذلك برغم ما أبداه أحد رجاله من شهامة واخلاص نادرين حين حاول أن يفتديه بنفسه (١) .

وسرعان ما رأى البطل الشاب نفسه ، بعد نجاحه فى مغامرته هذه ، وقد أصبح على رأس قوة من فرق الأوزبك يحسب حسابها ، وغدا يشعر أن فى مقدوره بذلك أن يخوض غمار معارك أقوى وأشد ، واته فرصتها

(١) انطلق القوم عند بزوغ النهار يبحثون عن بورغه فى كل مكان ، وكان المعروف انه قد اصيب ، واكتشف بعض رجال شيبانى آثار دماء على الجليد ، فمالوا يتتبعونها حتى دخلوا الغابة فوجدوا فيها جنديا طريقا مشخنا بجراحه . وحين سألوه عن اسمه اخبرهم بأنه هو بورغه سلطان ، حتى اذا ما جىء به الى شيبانى عرف فيه من فوره منكابى خادم بورغه . وحين سألوه عما حدا به الى أن ينتحل شخصية سيده ، اجاب هذا التابع الوفى قائلا « انى يا سيدى قد نشئت مع بورغه وطعمت معه الخبز والملح ، وحين رايت حياته تتعرض للخطر عزمت على ان افتديه بنفسى ، فتلقيت بصدري السهم الذى هو قاتله ، وكانت هذه هى أمنيتى ، ولك ان تفعل بى الآن ما تشاء » . وقد ادى بشيبانى كرمه لتقاء ذلك الى ان وصل ذلك التابع الوفى واطلق سراحه ، اما بورغه فقد عثر عليه من بعد ذلك على كل حال وقتل .

في التو ، وذلك حين اضطر الى الاشتباك في الحرب مع التيموريين ببلاد ما وراء النهر . فقد كان عرش سمرقند يشغله اذ ذاك السلطان أحمد بن أبي سعيد ، وكانت مناطق حدود هذه الدولة الشمالية يقوم عليها مزيد ترخان أحد أبناء كوجلوك خان ، وكان شيباني قد عرض نفسه أول الأمر على مزيد هذا والتحق بخدمته فعلا بعض الوقت . على أن مزيدا ما لبث أن عرف خيانة قاداته من الأوزبك اياه فعمل على التخلص منهم جميعا على أية صورة ، فبعث بهم لذلك الى عبد العلى ترخان أمير بخارى القوى . وكان هذا الأمير ينافس سلطانه بسعة بلاطه وما هو عليه من الأبهة والوجاهة . وتلقى أمير بخارى هؤلاء المحاربين الشبان بالترحاب ، وأفاد منهم في صد غزوات المغول عند حدوده الشمالية الغربية . وוכל كذلك بحفيدي أبي الخير حرب الأمراء الثائرين في ولايات تركستان الشمالية . وفي تلك المناطق شعر هؤلاء الأوزبك أنهم ينزلون في بلاد غير غريبة عليهم . وأدى بهم شعورهم بالاطمئنان هذا وادراكهم بازدياد قوتهم ، في الغالب ، الى أن يعلنوا عدم رضاهم عما كان يدفع لهم عادة نظير ما كانوا يضطلمون به من مهام . واتمى الحال ، لاسترضائهم ، الى أن أقطعوا مدن أترار وسبران وسغناق ، فكانت هذه المدن نواة الدولة المترامية الأطراف التي صارت لشيباني فيما بعد ، وما غدا أن انضم الى شيباني ، في السر ، جموع من الأشياع والبدو الأفاقين .

وأطمعه ازدياد قوته في العدول عن ولائه للتيموريين الذين كانوا في طريقهم الى الاضمحلال ، وسرعان ما نشب الخصام بينه وبينهم ، حتى تم له ، قبل وفاة السلطان أحمد ، الاستقلال بمناطق سيحون ، وأرغم مزيد ترخان نائب السلطان هناك على الائتلاف معه . وهكذا انقلب شيباني من مجرد أجير كان يعمل في خدمة هؤلاء الأمراء الى أخطر خصوم بيت تيمور .

وكان مالزعماء البدو الفتيان هؤلاء من سجايا المحاربين الجسورين ما يكفي في حد ذاته للدخول في منازعات ومخاصمات لا حد لها ،

وناهيك بحالة الفوضى والاضطرابات التي كان يعيش فيها أمراء بلاد ما وراء النهر ، حتى شجعت هذه شيباني محمد خان في الوقت نفسه على أن يقدم على الغزو في نطاق واسع ، وهو الذي بدأ حياته مجرد مغامر لا خطر منه ، واتجه هذا الأمير بأول عملياته الكبرى صوب سمرقند وذلك في عام ٩٠٥ (١٤٩٩) .

يخبرنا كاتب « شيباني نامه » أن السلطان محمود أخا شيباني غزا ذلك الاقليم على ما كانت عليه حدوده أيام بايسنقرا ميرزا ، واستمر في توغله به حتى بلغ ديزك (١) فصد هناك .

ولئن كان شيباني قد توجه باللوم الى أخيه حين عاد الى مقره اذ كان قد أخفى عنه هذا الأمر قبل أن يخرج اليه ، الا أن رأيه استقر على أن ينتقم لهزيمة أخيه على أية حال . فعبر سيحون ومعه أحلاف من الجثة يلبغون ألفا من الرجال . وسرعان ما تبين له تفشي الخيانة بين هؤلاء الجات حتى اضطر أن يعود عجلا من حيث أتى . هنالك عزم هذه المرة على أن يغزو الاقليم ، على نصيحة شيخه (٢) « من أطرافه القاصية لا من وسطه » ولذلك بعث الى جميع شيوخ الترك في تلك

(١) هي جيزك الحالية .

(٢) كان لشيباني خان بدوره شيخ يستشير في كل اموره ويعمل بنصيحته دون تردد ، على ما كان عليه محاربو الترك في تلك الايام . وكان هذا يدعى الشيخ منظور . وحدث حين كان شيباني ملتحقا بخدمة عبد العلى ، ونفسه تغلى بأطماعه ، أن ضاق ذرعا بحاله فصرخ قائلا « كيف يكون لعبد العلى الملك وهو من اصل وضع (وكان اغلب اتباع السلطان أحمد في الواقع حكاما اذ ذاك) وأبقى أنا مجرد تابع وأنا ابن الأمراء » وبلغ الشيخ منظور هذا الحديث ، وزاره شيباني في اليوم الثاني حتى اذا ما مد السماط وفرغ القوم من تناول الطعام ثم رفع السماط ، التفت الشيخ الى الأمير الأوزبكي وقال له « أرايت كيف رفع الخدم السماط فأمسكوا بأطرافه لا بوسطه ، فكذلك تؤخذ البلاد ، لا بالاستيلاء على حاضرتها وانما بتأمين حدودها » ويقول سيد راقم (وهو الذي نقلنا عنه هذه الحكاية) أن شيباني ذهب في ذلك الوقت الى خيوه فاستمد هناك نجدات من المنفيين وبدأ فتوحه في عزم وجد .

النواحي ينهبهم الى أن الظروف مواتية للقيام بشل هذا الغزو ويدعوهم الى المشاركة في القضاء على حكم التيموريين . وبرغم أن سلطان التيموريين كان قد أخذ التفسخ والانهار يدبان في كيانه في الواقع الا أن كثيرا من الترك بسمرقند بقوا على ولائهم لهم على أية حال ، حتى رأى شيباني أنه لن يستطيع أن يحقق أغراضه هناك من غير أن يكسب هؤلاء أولا لصفه ، فلم يغامر بالزحف الى سمرقند في جيش كامل العدد الا بعد أن تم له استمالة فريق من زعماء هؤلاء الترك وهم كوجوم سلطان وسيونج خواجه سلطان (١) وحمزة سلطان ومهدى سلطان .

وكان سلطان على يحكم اذ ذاك في سمرقند في الظاهر منذ أن ارتد يابر الى اندجان ، ذلك أن السلطة الفعلية كانت في الواقع بيد القاضي خواجه أبي المكارى (٢) الذي أشرنا اليه من قبل . ويخبرنا صاحب « شيباني نامه » أن أسلاف هذا الشيخ ظلوا يتوارثون منصب مشيخة الاسلام بسمرقند لاربعمائة عام . وقد برهن هذا الشيخ على أية حال على عدم جدارته بالاضطلاع بالحكم هو وأميره الذي لم يكن له من السلطة الا اسمها . ولم يكن كذلك كفؤا ليواجه الخطر الذي أخذ يتهدد البلاد على أيدي هذا العدو الوافد .

فلم يكن عجبا والحالة هذه أن يتيسر لشيباني دخول المدينة من باب جهارراه ، بعد أن حاصرها عشرة أيام ورد حماتها حين برزوا اليه من باب شيخ زاده ، ثم اندفع من بعد ذلك ، دون ما مقاومة ، الى قصر باغ نو (٣) الصيفى وهاجم آخر الأمر حامية المدينة نفسها . وقد بدأ

(١) كان هؤلاء من أعمامه ، ومن هنا يظهر أن رجال بيت ابي الخير لم يؤيدوا شيباني في أهدافه بالاجماع .

(٢) أبو المكارم كنيته ، أما اسم هذا الفقيه الطموح فهو خواجه يحيى .

(٣) يظهر من ذلك أن باغ نو والقصور الصيفية الأخرى كانت تقع بمساحاتها الكبيرة داخل مدينة سمرقند . وعلى هذا فان الفراغ بين أسوار البلد والحصن (وكان يضم القلعة) لا بد أنه كان أكبر مما نستطيع أن نمثله على ضوء الأحوال الحاضرة .

هذا الصدام عند الظهر ، واشترك شيباني بنفسه في هذا القتال المرير الذى غلب عليه التهور والاقدام حتى استمرت المقتلة طول الليل . وفى صبيحة اليوم التالى انتشر الخبر أن باقى ترخان ، أحد أبناء عبد العلى ترخان الذى كان شيباني قد بدأ حياته فى خدمته ، قد خرج من بخارى لنجدة السمرقنديين ، وانه قد أقام مضاربه بظاهر حصن دبوسى .

هنالك رأى الأوزبك أن لا مناص لهم من أن يجلوا عما غنموه من مواضع ، فأعملوا النهب فى المدينة وانطلقوا من بعد ذلك مسرعين الى بخارى . ولم تكن لهذه المدينة وقد خلت من كل قوة مدافعة الا أن تستسلم للغزاة . وفيها أقام شيباني ديوان حربه وأسكن أمه وأسرته قصرها ثم عاود من بعد ذلك سيره الى قراقول . وكان سكانها قد غدروا بحاميته فقتلوه جميعا ، مما حدا بالأوزبك أن يعودوا الى الاستيلاء عليها من جديد ، فلم يقدموا على حصار سمرقند الا بعد أن أنزلوا بقراقول ضربات شديدة على مقتضى رسم التتار فى الحرب .

وقاومت العاصمة الحصينة الحصار ثمانية أشهر ، وكان بوسعها أن تصد الأوزبك عنها مدة أطول من ذلك لولا نزول المجاعة بها وما كان من وقوع الشقاق بين خواجه أبى المكارم الطموش والأمير سلطانعلى وشيوع أمره بين الملأ . وحين وقف شيباني على ذلك كله كتب الى الأمير الضعيف يخبره بأنه ولا بد قد ضاق بوصاية السيد ، وينصحه أن يقر بالولاء لبيت أبى الخير ، الصاعد بنعمة الله ، وبهذا يؤمن مستقبله بتحالف ودى . وتقدم شيباني من بعد ذلك الى أم السلطان يطلب يدها اظهارا لمودته وتأكيذا لصداقته فقبلت ذلك منه (١) .

وجرى ذلك كله فى سرية تامة ، حتى دخل شيباني ، يوم الجمعة صحوا ، المدينة المحاصرة من أحد جوانبها ، فى هدوء ، فى الوقت الذى

(١) ورد فى شيباني نامه (لمحمد صالح) ان ام سلطانعلى هى التى بدأت بالاتصال بشيباني فبعثت اليه تقترح قرانها به ، وهى رواية تبدو بعيدة عن الحقيقة (المؤلف) .
ويؤيد بابر هذه الرواية فى سيرته وكانت هذه السيدة ارملة عمه السلطان أحمد (بابرنامه ١٧٩) (المترجم) .

كان فيه أبو المكارم يؤدي الصلاة في أحد مساجدها بالجانب الآخر ولا علم له بما كان يجري فيها .

وقد وقع هذا في مستهل عام ٩٠٦ (١٥٠٠) . وأذهل المدينة هول المفاجأة فاستسلمت الى مصيرها في هدوء .

وقد احتفل القوم بزواج شيباني من زهرة بيكيم ، أرملة السلطان أحمد ، وإن كان بابر يذكر أن هذه السيدة كان يعاملها بعلمها الجديد وكأنها مجرد خادمة بسيطة .. ومات سلطانعلى بعد ذلك بقليل (١) وكان موته غيلة على ما يظهر .

كان من شدة وطأة أبناء السهوب البرابرة الجشعين هؤلاء على سمرقند وما يحيط بها من أرضين أن خرج الأهلون هناك يلتمسون نجدة تخلصهم من هذا البطش الشديد ، واستغاثوا آخر الأمر ببابر ميرزا الشجاع الكريم فدعوه الى القدوم اليهم ليحرر موطن أسلافه من الاستبعاد (٢) .

ولقد ذكرنا من قبل كيف كان حب بابر لأسرته ومصالحتها يملأ شغاف قلبه ، وكان هذا الأمير حينذاك يتجول عند حوض زرفشان الأعلى في نفر قليل من أتباعه وفيهم خواجه أبو المكارم . حتى اذا ما أهل هؤلاء الخوقنديون على سمرقند يلفهم ظلام ليلة من ليالى خريف عام ٩٠٦ (١٥٠٠) تلقاهم الأهلون فرحين .

(١) يذكر بابر في سيرته ان سلطانعلى قتل في حين يذكر صاحب (شيباني نامه) أنه غرق في حادث حين كان يركب عند شواطئ نهر زرفشان .

(٢) يبدو البرهان الاكيد على ما كان بين مختلف أمراء بيت تيمور من العداء في عدم الاكتراث الذي أبداه السلطان حسين بيقرا بازاء مجريات الحوادث ببلاد ما وراء النهر ، وكان اذذاك في أوج حكمه . وما من شك في أن خروج ابنه بديع الزمان عليه من ناحية وسلوك خسرو شاه الوقح نحوه عند «حصار» من ناحية أخرى قد منعاه من أن يقوم بأى عمل في صالح سمرقند ، ولو أن هؤلاء التيموريين كانوا قد ائتمنوا فيما بينهم بدلا من أن يتحاربوا لاستحال بلا مراء على شيباني خان أن يحقق أى هدف من أهدافه على الإطلاق .

وما لبث شياني خان أن فقد المدينة بنفس الطريقة التي استولى بها عليها . فقد كان أكثر جنده من الأوزبك يرابطون اذ ذلك في سهل كان كل في وضع يستحيل معه الاضطلاع بالدفاع عن المدينة ، ففاجأهم العدو في مكانهم هذا فقتل منهم أربعائة . وحين تبين له عند الصباح أن موقفه قد بات ميئوسا منه ، لم ير بدا بذلك من الارتداد الى بخارى مع من بقى معه من رجاله بأسرع وقت .

ولئن كانت سمرقند قد أصبحت في حوزة بابر الا أنه لم يستطع الاحتفاظ بها الا الى الربيع التالي ، أى الى أن عاد الزعيم الأوزبكي الجسور يرى في نفسه من القوة ما يكفى لأن يغامر بالهجوم على تلك المدينة مرة أخرى . وبدأت المعركة بين الطرفين بسباغات متبادلة أظهر فيها الجميع من خوارق الشجاعة والاقدام ما بلغ الأوج ، في وقعة سرپول العظيمة عند شواطئ زرفشان بين بخارى وسمرقند . وفيها كسر بابر كسرة شنيعة ، برغم ما أظهره من ضروب البطولة والجرأة ، حتى استطاع آخر الأمر أن يلوذ في مشقة بحصن سمرقند . ويعزو بابر سبب هزيمته الى انصراف أحلافه من المغول الى السلب والنهب (١) ويظهر أن هذا وحده لم يكن مرد الأمر كله . فان ما أبداه مؤسس الدولة المغولية ورجاله من الشجاعة وحضور البديهة في ذلك اليوم المشهود هو بلا مرأ جدير بكل ثناء ، غير أن محاربى بلاد ما وراء النهر وأندجان ، وهم الذين درجوا على الحياة الرخيصة واعتادوا عليها ، قد وجدوا أنفسهم آخر الأمر ، برغم عددهم الذى بلغ أربعين ألفا ، ولا قبل لهم بالصمود في وجه اندفاع الأوزبك الوحشى في القتال وخشوتهم الزائدة . ونزل ببابر في هذه الواقعة خسائر شديدة ، وركبته الطيرة برغم ما كان عليه من ثقافة عالية ، فقد سقط في ذلك اليوم ثلاثة من قواده يدعى كل واحد

(١) يحمل بابر فى سيرته على المغول فى كل مناسبة تبدو له ، وكان يفتخر على الدوام بأجداده من الترك مع أن أخواله كانوا من المغول الجنكيزيين .

منهم ابراهيم (١) فرأى فى ذلك فألا سيئا . وجهد بابر بما عرفه عنه من همة فائقة ليستأنف القتال عند سمرقند ، ولكن سرعان ما أدرك الحقيقة المؤلمة ، وهى ضياع كل أمل له فى تثبيت حق أسرته ببلاد ما وراء النهر . واستغل شيبانى ما أحرزه من نصر فانطلق يطارد عدوه الهارب حتى حصره فى سمرقند . ودام حصار المدينة أشهرا أربعة كانت أسوأ فترة عانتها حاضرة تيمور فى تاريخها . فبينما كان محاصروها ينعمون بشار الريف الخصب من حول المدينة ، بلغ الحال بالجفتائين المحصورين فى المدينة الى أن طعموا لحوم الخيل والحمير — وهى مما تعافه نفوس المسلمين — بل لقد طعموا كذلك لحاء الشجر وأعطوا له لخيولهم بدل العلف . وساد المدينة الاضطراب والفوضى حتى وجد بابر نفسه أشبه بمعزول فى حصونه المهجورة . هنالك اتخذ سبيله هربا فى الليل ، فنفذ من بوابة شيخزاده ونجا بحياته بعد مخاطرات أسرت فيها أخته الكبرى خاززاده بيكيم . وقد بنى بها شيبانى من بعد ذلك (٢) .

هكذا سقطت سمرقند وسقطت معها دولة التيموريين . وانقض الأوزبك على المدينة ينتهبونها وقد تملك منهم شهوة الانتقام . على أن سكانها جميعا كانوا قد غادروها فزعين ، بحق ، اذ كانوا يعلمون مبلغ حق ذلك الغازى عليهم . وكان من بين الفارين من زعمائها الخواجه

(١) « كان ذلك فى ليلة ضريبة النجم بمنطقة الصفد الكبير التى تحتلها الروافد والقنوات ، وعند بزوغ النهار اكتشفت أنى قد تركت رفاقى من ورائى . وتراخت أربطة سرجى فتحول عن مكانه فاذا بى أسقط على أم راسى . وبرغم أنى استطعت أن أمتطى حصانى من جديد الا أنى لم أفق من أثر هذه الصدمة وأعود الى نفسى الا فى الليل . ولقد تمثلت لى الحياة فى خاطرى مع ما مر بى من الأحداث وكأنها حلم . ونزلت وسط النهار عند ايلانوتى ، فذبحنا حصانا ، وأرحنا دوابنا . ولم يتيسر لنا قبل أن نبلغ ديزك أن نجدد قوانا بتناول اللحم السمين والخبز الجيد ونستمع بطيب البطيخ وحلاوة العنب » . هذا هو ما ورد فى يوميات بابر بسيرته من أخبار فراره هذا ، النسخة الأصلية ص ١١٧ .

(٢) سير الشاه اسماعيل الصفوى هذه السيدة معززة مكربة الى أخيها ، وكان قد وجدها بمعسكر شيبابى خان بعد أن هزمه وقتله (تاريخ رشيدى ص ٢٣٩) .

(المترجم)

يحيى عدو شيباني اللدود . وعمد هذا الرجل الوديع الى التكر فأزال
لحيته . ويعد هذا الصنيع جرماً عظيماً في نظر المسلم . وبرغم ذلك فقد
انكشف أمره وقبض عليه . وحين سأله شيباني عن سبب اقدامه على
ارتكاب هذه الفعل المشينة أجابه بانثاد بيت من الشعر الفارسي يقول
« ان من يحاول أن يطفى نور الله بفيه فسوف لا يحرق الا ذقنه » (١) .
على أن شيباني « نور الله » لم يتأثر بذلك المديح الذي صدر عن ذهن
متوقد ، فقضت يد الجلال بضربة واحدة على طسوح الخواجه يحيى .

وعامل الفاتح كل أتباع الدولة المضحلة بمنتهى العنف دون
استثناء . وأدى صنيعه هذا الى اشاعة الذعر في الناس مما فت في عضد
كل مقاومة قامت في وجهه . وتم له من بعد ذلك اخضاع أخيه كذلك
وكان قد ركن الى الثورة عند اراتيه ، فتوطد بذلك مركزه حتى بدا من
اليسير له أن يخرج في فتح جديد عبر جيحون مع جيشه الصغير الى حدما .
ولم يكن حزم هذا الفاتح الأوزبكي وفطنته دون شجاعته وشدة جلده .
فلم يكد يستولى على سرقند حتى أسال لعابه خصب أراضي خراسان ،
وكانت هذه البلاد اذ ذاك في حوزة ميرزا حسين بيقر القوي العظيم .
وكان شيباني خان يدرك تمام الادراك مدى ما عليه هذا العدو من قوة
وما له من موارد كثيرة ، فلم يقدم على مهاجمته رأساً ، وانما انطلق
يفزو نواحي من تلك البلاد كان يعرف ضعف نفوذ ميرزا حسين بها .
وكانت بلخ احدى هذه الجهات ، حيث نشر الأمير بديع الزمان راية
العصيان ، ثم بلاد خسروشاه (٢) وزير السلطان أحمد السابق الذي كان
قد تم له الاستيلاء على حصار وختلان وقندز وبدخشان بعد أن تخلص
من سيده السابق غدرا ، وكان شيباني يرى أن لا مندوحة من قتاله .
وكان على الفاتح الأوزبكي قبل أن يقبل على هذه الخطوة أن يؤمن

(١) هذا البيت هو :

جراغي را كايزد بر فروزد

هر انكس تف كند ريشش بسوزد

(٢) انظر هامش ص ٢٨٢ في الفصل السابق

مؤخرته وذلك باخضاع خانيكه سلطان وألاجه سلطان أقرباء بابر من ناحية أمه (١) . وكان فى مقدورهما أن يحشدا قوة يحسب حسابها من المغول والقلموق عند الشاطيء الأيمن لسيحون عند شاهرخيه وطشقند . وكان هذان الخانان قد أدت بهما كراهيتهما للأوزبك من جهة ، ورغبتها فى الانتقام لما لحق بآبن أختهما المنكود الحظ من هزائم من جهة أخرى ، الى أن أخذتا يتصديان للأوزبك ما وسعهم ذلك . وكانت أول حرب وقعت لهما معهم قبل سقوط سمرقند بعام . ففى منتصف شتاء كان الزمهير فيه على غير المعتاد من قسوته زحف شيبانى خان صوب الشمال وجنده متدثر بالفراء ، وعلى مقدمته أخوه السلطان محمود وتيمور سلطان ، ومعهم ستة آلاف من خير شجعان الأوزبك . على أن قسوة الشتاء أرغستهم على العودة من حيث أتوا ، أو لعل المغول الأشداء كانوا قد منعوهم بدورهم من الحصول على أى كسب من المكاسب .

وهذأت برودة جو السهوب الثلجى من حاس شيبانى للحرب فعاد الى سمرقند . وسار المغول فى أثر عدوهم حتى أراطيته . وبرغم استرداد الأوزبك لهذا المكان وعقدهم الصلح مع خانيكه فى الربيع التالى فان السلام لم يدم بينهما طويلا . ذلك أن شيبانى لم يكد يدخل أراضى خسرو شاه حتى بدأه المغول بالعدوان ، فسقطوا هذه المرة على تنبل سلطان نائبه فى خوقند بدلا من مهاجمة حدود بلاده نفسها .

كانت ثورة تنبل على بابر من قبل ، من أسباب اندحار هذا الأمير التيمورى وانتصار الأوزبك فى يسر بالتالى . وكان صنيع تنبل هذا من الأسباب التى جعلت شيبانى يسط له حمايته . وفيما عدا ذلك فلم يكن هناك من الأسباب ما يدعو هذا الأمير الأوزبكي المغامر لأن يعدل عن الماضى فى فتوحاته ويستدير بقواته كلها فيتجه الى حرب أعدائه داخل توران . ولم يكن خانيكه فى طموحه وشجاعته دون شيبانى نفسه .

(١) هما خالابابر ، السلطان احمد خان والسلطان محمود خان ولدا يونس خان

وكان جل اعتماده على المغول والقلموق النازلين بين سيحون وصحراء جوبى . ولم يكن الأمر يستدعى أكثر من قيام التفاهم بين هؤلاء التيموريين فى خراسان فيتسنى لهم بذلك القضاء بضربة واحدة على كل خطط الأوزبك المستقبلية قضاء تاما .

ولم يكن هذا الأمر ليغيب على فطنة شييانى ، فزحف عام ٩١١ (١٥٠٥) بجيشه كله الى شاهرخيه ف ضرب الحصار عليها ثم استأنف سيره مصعدا فى سيحون حتى بلغ أخشى ، وكان الجيش المغولى يقف على أهبة القتال على مسيرة خمسة أميال منها .

ويرسم لنا صاحب « شييانى نامه » صورة طريفة فريدة فى بابها لما كان عليه الجيشان من اعداد وتكوين . ولا يقل عن ذلك فى الأهمية وصفه لتلك المعركة التى كانت من أعظم المعارك التى وقعت بين الترك والمغول ، وقد استمرت يومين كاملين وانتهت فى صالح الأوزبك . وفيها وقع كذلك خانيكه وأخوه فى الأسر . وحين أتوا بهما الى شييانى أيقنا أنه سوف يسوقهما الى حتفهما . على أن هذا الغازى فاجأهما بغير ما كان يتوقعان عنده ، فقد اصطنع غاية الشهامة وأخذ يخفف ، بتلطفه ، من وقع هذه المحنة عليهما ، وأقسم لهما بأغلظ الأيمان أنه لن يتعرض أحد حتى لشعر رأسيهما بالسوء (١) ، ولم يطلب اليهما الا أن يسلما اليه حصن شاهرخيه وكان فى يدي أم الأميرين المغوليين .

وتأثرت هذه الأميرة الأم بما كان من كرم شييانى خان مع ولديها فرضيت بمطالبه وعقدت الصلح معه ، ليصبح شييانى من بعد ذلك ولا

(١) فعل شييانى ذلك اذ كان لهما اياذ سابقة عليه فى تقوية سلطانه . اما السلطان أحمد خان فقد وافاه اجله وهو فى طريقه الى بلاده ، وكان يعتقد فى مرضه أن شييانى قد احتال على دس السم له فى طعامه ، اما السلطان محمود خان فقد بقى خمس سنوات فى مغولستان حتى زين له بعض رجاله الزحف الى قرغانه ، وحين بلغ شييانى ذلك سير اليه جنده فقتلوه وخمسة من اولاده (تاريخ رشيدى ص ١١٦ - ١٢٠ ، ١٦٠ - ١٦٧) .

شيء يعوقه عن الاتجاه بقواته الى عدوه عند الضفة اليسرى لجيخون ،
بعد أن أمنت مؤخرته .

وكانت الأحوال فى تلك الأصقاع قد طرأ عليها بدورها تغير
ملحوظ . فقد دب النزاع بين خسرو شاه ، صاحب حصار وقندز
وختلان وبدخشان ، والأمراء الآخرين من أتباع السلطان حسين بيقر ،
وكان هؤلاء بدورهم يتوقون الى الاستقلال بما بأيديهم من أرضين .
على أن هؤلاء جميعا حين تبدى لهم ما يتهددون من خطر مشترك سارعوا
الى الائتلاف جميعا بازاء شيبانى ، واستعدوا بما فى وسعهم للوقوف فى
وجهه ، وإن لم يغنهم ذلك كله شيئا .

ذلك أن الأمير الأوزبكي كان قد شرع ، بعد ما نال من الفتوح ،
يعد العدة لحرب خسرو شاه . وترامت اليه الأخبار بعصيان تنبل ، وهو
الذى كان قد خاض بسببه غمار حرب ضروس ، فاضطر الى أن يخوض
معه معركة جديدة عند حدود دولته الشمالية الشرقية ، دفع فيها تنبل
واخوته السبعة حياتهم ثمنا لتكرهم لولى نعمتهم .

وارتد شيبانى من بعد ذلك عجلا عبر جيخون فأدى مجرد ظهوره
هناك الى انقراط عقد جيوش أعدائه الحلفاء عند ختلان ، وفى هذه
الواقعة كان بابر أكثر الجميع تشبثا بمراكزه .

فى ذلك الوقت استولى السلطان محمود أخو شيبانى على قندز ،
وفيهما نزل به الداء ووافته منيته .

وبدأت من بعد ذلك حرب الأوزبك مع چين صوفى أمير خوارزم ،
وكان من أعظم حلفاء السلطان حسين ميرزا . وفيها قاد شيبانى مقدمة
جيوشه بنفسه ، وسار فى أثره الأمير عبيد الله ولما يمض أسبوعان على
قرانه وترك زوجته الشابة من ورائه ملبيا نداء الحرب . وبدأ الزحف
كالعادة والشتاء والجليد على أشده ، فتيسر بذلك للجند عبور جيخون
عند النقطة التى تناسبهم . وكان على الأوزبك عندئذ أن يواجهوا
التركمان ، غالبية جند چين صوفى ، وكان هؤلاء لهم خير أنداد ، حتى
امتنع على العدو حصن خوارزم أكبر الحصون ، وكانت تقع فيما بين
خيوه الحالية وهزاراسب ، وطال حصارها على غير المعتاد . هنالك بدا

للأوزبك أنه لا مناص من القضاء التام على خسرو شاه حتى يقضى بذلك على كل أمل لچين صوفى فى تلقى العون من هذه الناحية . وما غدا قواد شياننى أن أطبقوا من كل جانب على خسرو شاه ، وهو صاحب النفوذ المطلق فى حوض جيحون الأعلى ، حتى سقط فى أسرهم وهو يرتد ، فسيق الى القتل وسبعماية (١) من أخلص أتباعه ، وقطع رأسه وبعث بها الى چين صوفى . وخربت من بعد ذلك حصون أمير خوارزم ونزلت المجاعة بجنده ، ولكن ذلك كله لم يززع من ثباته فى شىء ، ففطق ، شجاعا ، يقاوم هجمات الأوزبك طوال شهور ستة ، ازدادوا من بعد ذلك ثلاثة ، استولى من بعدها العدو على قلعة الحصن عنوة ، وقد لقي هذا الأمير الموت فوق خرائب حصونه بسهام رجاله أنفسهم . هكذا لم تمض أعوام خمسة على سقوط سمرقند حتى وجد شياننى نفسه ، نتيجة لفوزه الأخير هذا ، وقد بات يملك كل توران واندجان فى الشرق ، ثم شاهرخيه وطشقند فى الشمال ، ومنطقة حصار الجبلية وبلخ وبدخشان فى الجنوب ، وها هى ذى خوارزم فى الغرب قد وقعت أخيرا بيده ، وخضعت هذه البلاد كلها لسيفه المظفر ، وبهذا وجد الأوزبك أنفسهم تفرقها كنوز بلاد ما وراء النهر ومباهجها ، وهم الذين كانوا قد قدموا فى جلود الماشية للاستيلاء على سمرقند . وطبقت شهرة حفيد أبى الخير بدوره الخافقين .

بهذا كله غدا شياننى يرى نفسه ، لأول مرة ، كفؤا لنزال السلطان الشيخ حسين ميرزا ، وأن الأوان قد آن لخوض غمار حرب تحسم ما بين بيت تيمور والأوزبك . ولا حاجة بنا الى القول بأن كلا الفريقين أقبل على المعركة وهو فى أتم عدة واستعداد .

وكان ذبوع أخبار انتصارات شياننى قد جذب اليه كل محاربى أقاليم جيحون وسيحون فانضموا الى صفوفه ، وسانده كذلك أصحاب

(١) يروى مير خوند ان خسرو وقع حيا بأيدى شياننى ، فأمر به نربطه أولا الى ذيل اتان انطلق به فى طرق قندز ، ثم قتل من بعد ذلك . ويقول ميرخوند عن خسرو شاه أنه كان حازما عادلا كحاكم ، تقيا كمسلم ، قاسيا ناكرا للجميل كإنسان .

النفوذ هناك من رجال الدين وشدوا من أزره . وكان الأهليون من
الاييرانيين في تلك البلاد قد كفوا أيديهم منذ زمن طويل عن التدخل في
شئون أقاليم جيحون . أما مختلف القبائل التركية النازلة هناك فقد
ظاهرت في حماس بالغ تيمور الجديد هذا الذي سوف يقودهم الى النهب
والى أسلاب جديدة يستحذون عليها ، فأقبلوا لذلك ينضوون تحت
لوائه أفواجا . وأدرك السلطان حسين ميرزا مدى هذا الخطر الداهم
الذي يتهدده ، فدعا أبناءه وأقرباءه الآخرين ليساندوه بقواتهم ويسيروا
معه لدفع جيش الأوزبك الغزاة ، وجلب كذلك امدادات كبيرة من بلاد
الأفغان وسيستان وخراسان وفارس وجرجان ، وتجمعت هذه كلها شمال
هراة . على أن هذا الجند على كثرته كان ينقصه أهم باعث على النصر
وهو قيام التآلف بين مختلف وحداته .

وفينا كان التيموريون في شغل بما بينهم من خلافات لا طائل من
ورائها ، كان شيباني يتقدم بجنده حتى عبر جيحون عند كركي عام ٩١١
(١٥٠٥) ومن ثم أنزل بمقدمة جيش عدوه هزيمة حاسمة قرب ميمنة .
وكان من حسن حظ السلطان حسين ميرزا نفسه أن مات وهو في طريقه
الى الهرب . وكان فراره من الميدان ايذانا بالقضاء على أسرته . وكان
موته بمثابة ضربة لأبنائه الستة أو السبعة ، اذ فقدوا بموته آخر أمير
تيمورى صاحب حزم ونفوذ ، وضاع معه تبعا لذلك آخر أمل لهم في
الخلاص . وعقد خلفه بديع الزمان ميرزا مجلس الأسرة على اثر ذلك ،
وشارك في هذا المجلس بابر ميرزا أمير كابل اذ ذاك ومعه وزيره
جهانكير . على أن هذه الوحدة المصطنعة التي تمثلت في مجلس الأسرة
لم يكن من ورائها جدوى أو نفع .

ذلك أن شيباني كان قد تقدم حتى بلغ الشاطيء الأيمن لنهر
مرغاب ، وأدت به ثقته التامة في انتصاره الكامل الى أن بادر بارسال
رسول الى هراة يدعو بديع الزمان الى الاستسلام مذكرا اياه في الوقت
نفسه بما كان يظهره السلطان الشيخ حسين ميرزا على الدوام من توقير
لجده أبى الخير .

ورد التيمورى المتكبر الرسول ردا غير كريم ، ليتقدم عند ذلك الجيش الأوزبكى من مرو ويلتحم بالجيش التيمورى فى سهل مرو چاق (١) . وقام التنافس بين الأوزبك على أشده للالتحاق بصفوف المقدمة وكان من بين صفوف المبارزين هؤلاء أسماء لامعة مثل تيمور سلطان وعبد الله خان ومحمود سلطان وغيرهم من أقرباء شيبانى ، فى حين لم يكن هناك من جند التيموريين من ظهرت شجاعته فى هذه الحرب الا القائد الشيخ ذو النون الذى أقدم على مهاجمة العدو وان غلب على أمره من فوره وقتل . وكان فى هذا الحادث وحده الكفاية لاشاعة الذعر بين صفوف التيموريين ، فانفلت عبد الله ميرزا هاربا ونزل عند قبق فى مشهد ، فى حين فر عبد الباقي والأمير برندق الى سبزاور ، وذهب بديع الزمان نفسه الى هراة مع مظفر حسين كركان ، ولكنهما لم يمكثا هناك الا لساعات معدودة اذ سار الأوزبك فى أثرهما ، حتى اضطر خليفة السلطان القوى حسين ميرزا هذا الى أن يترك أسرته ومتاعه من ورائه ويضرب فى الأرض على غير هدى (٢) .

وفتحت هراة أبوابها للعدو فدخلها شيبانى فى الحادى عشر من المحرم عام ٩١٣ (٢٤ مايو ١٥٠٧) . ورفق الأمير الأوزبكى بالمدينة أكثر مما رفق بها كل من سبقه من غزاتها ، فاكتفى بأن فرض عليها مائة ألف تنغه (٣) ، وحفظ قصبة العلم والفن المشهورة هذه من أن تتعرض.

(١) يعرف هذا الموضع اليوم باسم مرجاه ، ويقع على المجرى الأدنى لمرغاب ، وهو اليوم منازل قبائل ساريك وسالور التركمان . وكان هذا الموضع وبنجه يتبعان هراة قبل ذلك بسنوات قليلة ، وكان يسكنهما بدو جمشيدى ، وقد روى لى هؤلاء ابان اقامتى بينهم قصصا عجيبة عن خرائب كثيرة لا تزال تقوم هناك .

(٢) يذكر مالكولم فى كتابه عن تاريخ فارس ص ٤٩٠ ان بديع الزمان لجأ الى الشاه اسماعيل الصفوى فولاه تبريز ، حتى وقعت هذه المدينة فى يد السلطان سليم العثمانى فسير اميرها التيمورى الى الاستانة .
(المترجم)

(٣) لا تزال هذه العملة تستخدم حتى الآن ببلاد الأفغان ، والتنفه تساوى ثلاثة قروش مصرية تقريبا .

(المترجم)

لنهب الأوزبك . ونزل شيباني بظاهر المدينة فأتوا اليه بأسرة خصمه الشريد . وبرغم تقدم هذا الأمير الأوزبكي في السن ، اذ كان اذ ذاك يبلغ الثامنة والخمسين من عمره ، فقد هام بحب عروس مظفر حسين ميرزا فصسم على زواجه منها ، ولم يلق بالا الا ما أكدوه له من بناء الأمير التيمورى بها وأنها صارت زوجته الشرعية بالفعل .

كذلك جلبوا اليه كل متاع تلك الأسرة وفيه مقادير طائلة من سبائك الذهب والفضة واليواقيت والحجارة الكريمة واللآلىء والماس . وأحيطت أسرة بديع الزمان بكل ضروب التوقير والاحترام . ولم يلبث الأهليون الذين كانوا قد لجأوا الى الاختفاء فى شعاب تلال بادغيس الصخرية خوف الأوزبك (١) أن أخذوا يعودون الى المدينة بالتدريج ويمارسون حياتهم العادية بها .

لقد استولى شيباني على عرش سمرقند فى وقعة سريول من قبل ، وها هى ذى خراسان كلها قد دخلت فى حوزته باتتصاره فى معركة مرو چاق . وقد عمد الأمراء التيموريون القلائل الذين كتبت لهم النجاة من المذبحة العظمى الى لم شمل قواتهم فى محاولة يائسة أخيرة ، لكن جهودهم باءت بالفشل .

ذلك أن الأوزبك اكتسحوا خراسان الغربية كلها فى سرعة خاطفة ، على ما كان يفعل المغول القدماء ، وأخذت حصونها تنهال على أيديهم الواحد بعد الآخر . وحين سمع الأمير أبو المحسن ميرزا بكارثة مرو جاق جمع قوات كبيرة من جند العراق عند مشهد ، لكن الأوزبك ، وعلى رأسهم محمد تيمور سلطان ، وعبيد الله خان (والأول من أبناء شيباني والثانى من أبناء أخيه) ما لبثوا أن انقضوا على الجيش التيمورى عند

(١) ظهر الأوزبك بظاهر مدينة هراة ، كما يروى مؤرخو الفرس ، فسلخوا سلوك بنى جلدتهم من المغول الى حد ما ، فساموا الأهلىن العزل المساكين صنوف العذاب ، حتى يحملوهم بذلك على أن يخرجوا اليهم ما عساهم يكونوا قد خباؤه من المتاع ، وسيروا فى ركابهم من الأسرى منهم على قدر طاقتهم .

موضع جام ، وقادته لا يزالون يغطون في نومهم بعد أن قضوا ليلتهم في لهو وعبث . وفي هذه الواقعة قتل عبد المحسن ميرزا وأتباعه المقربون في حين لاذ جيشه كله بالفرار في هرج ومرج . ولم يكن ما أصابه الأوزبك من التوفيق في سبزاور عند حدود خراسان الغربية بأقل مما ظفروا به من قبل . وكان الأمير ابن حسين ميرزا قائد موقع قابن السابق قد ارتد الى هذا الموضع مع بقايا الجيش التيمورى .

واستطاع هذا الأمير أن ينجو بنفسه بعد سقوط هذه البلدة ، في حين سقط في القتال الأميران الآخران عبد الباقي وبروندق . وهكذا سقط اثنا عشر أميراً من بيت تيمور بسيف شيبانى ولما يقنع . وأسرع شيبانى بعد استيلائه على هراة فعبّر جيحون تاركا أبناءه في خراسان ، فاستقبلته بخارى بحفاوة بالغة ، فلم يطل مكثه بها حتى واصل من بعد ذلك سيره الى مناطق سيحون الشمالية ليؤدب المغولى محمد خان بن يونس خان اذ كان قد خرج عليه فى غيابه (١) .

وما ان أقر الأمور هناك حتى عاد الى خراسان ليستكمل فتوحاته هناك . ولم تلبث امارة جرجان أن سقطت بدورها كذلك فى يده عام ٩١٤ (١٥٠٨) . وبهذا يكون قد ضم تحت تاجه كل الأراضى التى كانت فى حوزة خليفة تيمور على وجه التقريب . وقد عهد بها الى أبرز قواده مكافأة لهم على ما بذلوه من جهود ، فكانت حكومة هراة من نصيب جان وفا بك ، ومرو من نصيب قبوز نايمان ، وبلخ من نصيب خوارزم سلطان شاه ، وحصار وما حولها من نصيب مهدى سلطان وحمره سلطان ، وقندز من نصيب أحمد سلطان ، وطشقند من نصيب سيونجى

(١) محمود خان هو ابن يونس بك نفسه الذى كان قد ثار فى وجه التيموريين ببلاد ما وراء النهر أيام السلطان احمد . وقد انتهز فرصة غياب شيبانى فتقدم واولاده الخمسة الى اندجان من ناحية والى سمرقند من ناحية أخرى وهدفه من ذلك الاستيلاء على حكومة بلاد ما وراء النهر كلها . وكان ينزل فى قوة كبيرة عند خجند على ذلك الجانب من سيحون حين التقى به شيبانى ، ووقعت بينهما حرب ضروس هناك هلك اثنائها أبناء محمود خان الخمسة وأكثر جنده غرقا فى النهر ، وكان ذلك عام ٩١٤ (١٥٠٨) (تاريخ سيد راقم ص ١١٨) .

خواجه خان ، وأخشى من نصيب جاني بك ، وأندجان من نصيب محمود شاه ، وخوارزم من نصيب قوشچی كيك ، وتركستان من نصيب كجكونجی خان . وكان من قبل قد نصب أخاه السلطان محمود نائباً له على بخارى وقراقول . وحين توفي هذا الأمير عهد شيباني بها مع سمرقند ، درة الدولة ، وكش ومنطقة ميرجانكل الى ابنه الأكبر ووريثه محمد تيمور سلطان .

احتفظ حفيد أبى الخير لنفسه بمنصب قائد الجيش الأعلى مقلداً في ذلك جنكيز وتيمور . ولقد تمكن بقوة السلاح من أن يرفع نفسه من مجرد جواب في الصحراء الى حاكم تخضع له أقاليم عديدة . وبقوة السلاح أيضاً أمل أن يمضى في طريق الفتح قدماً . ومن يدرى قلعله كان يتاح له أن يعيد سيرة تيمور من جديد لو لم يظهر له منافس آخر لم يكن دونه طموحاً أو شجاعة ومضاء عزم ، وقد عقد النية على أن يمد حدود دولته صوب المشرق كما مدها ناحية المغرب .

كان هذا هو الشاه اسماعيل من بيت الشيخ صفى (١) بأردبيل . وقد عاش هذا الشيخ عيشة صلاح وزهد حتى عده الترك في ايران من بين أوليائهم . ولا يزال ضريحه يعد من بين مزارات الفرس حتى يومنا هذا . ونم يكن اسماعيل يعدو الرابعة عشرة من عمره حين سار على رأس أتباعه فأوقع الهزيمة بأعدائه . وقد استطاع بحميته الدينية أن يحيل بساط الدرويش الذي كانت تملكه أسرته الى عرش ايران كلها الفخم .

واسماعيل هذا في أصله تركى (ولم يكن هؤلاء الذين ينسبون صفى الى الامام السابع بقصد اضافة القداسة عليه الا مجرد مDAHين) وكانت قبائل الأتراك السبع التى تعيش الى الغرب من بحر قزوين

(١) يخطئ مالكولم حين يعتبر لفظ صفى مرادفاً للفظ صوفى . والطريقة التى كان يرأسها الشيخ صفى كانت تختلف في مذاهبها وأهدافها تمام الاختلاف عن الصوفية وأسسها . هذا والعثمانيون وحدهم الذين ينطقون الصاد في هذه الكلمة بالفتح « صفوى » في حين ينطقها الفرس بالامالة نحو الكسرة على الدوام .

تتفانى في محبته والولاء له (١) . وقد انتهت به حروبه المظفرة الى أن استحوذ على أغلب ايران والعراق . وكان من بين أعظم مفاخره ما أبداه من تعصب لمذهب الشيعة الذي كان عليه قومه وما قام به من تعضيد لفرقة رابع الخلفاء الراشدين ، على وأولاده ، وذلك بوصفهم أصحاب الرأي الغالب في بلاده ، وهم الذين ظلوا يتعرضون للاضطهاد عدة قرون . والتشيع قديم قدم الاسلام نفسه ، وقد كان له من الأتباع بايران على الدوام أكثر مما له بالبلاد الاسلامية الأخرى .

ويختلط ما يعتل في نفوس أصحاب هذا المذهب من مرارة وسخط متأصل فيها بحق القومية الايرانية على الفاتح العربي المستبد وهي التي تعرضت على يديه للمهانة والزرارية . ولئن كنا نجد هنا وهناك فئة قليلة من الشيعة فيما وراء الفرات وعبر جيحون — ترى مثالها عند بايسنقر ميرزا أو في ثورة شريك بن الشيخ المهدي ابان الحكم العربي في بخارى — فان فارس الأصلية كانت هي على الدوام المكان الذي يتعرض للاضطهاد المسلمين ، أى أهل السلف ، واتهاماتهم ، وذلك بسبب تشبثها بهذا المذهب واصرارها عليه .

وكان أعداء هذا المذهب يقنعون بحاربته بأسلحة الجدل والتحقير ما بقى أصحابه على استخفاء ، حتى اذا ما شعر الصفويون بمبادئهم على بنودهم وتحذوا بها علنا الأمراء السنيين وتهدوهم ، برز لهم عندئذ هؤلاء ، ليتخذ عند ذلك كل فريق منهم من هذه الخلافات المذهبية ذريعة قوية لتحقيق أهدافه السياسية .

ففى غرب آسيا أذكى التعصب للشيعة من نيران الحقد والبغضاء في الحرب التي قامت بين أوزون حسن وفاتح القسطنطينية ، وكانت ضيحة ترك ايران أثناء القتال هي « يا على » .

(١) هذه القبائل التركية ، أو بعبارة أدق التي تتكلم التركية ، والتي تقطن فيما وراء القوقاز عند الشاطئ الجنوبي لبحر الخزر وإلى الغرب من خراسان ، والتي لا تزال تشاهد في أجزاء منها الى اليوم ، كانت قد هاجرت من أواسط آسيا أول أمرها مع السلاجقة . وهذه القبائل هي : أوستاجلو ، شاملو ، نكالوا ، بهارلو ، ذو القدر ، قاجار ، افشار .

أما في الشرق فقد استطال اشتعال النار اللهم الا في المناطق التي راجت فيها الحياة العقلية والجدل . ونرى من صورها المعاصرة ما كان يجرى ببلاد السلطان حسين يقرأ اذذاك حيث كان الكتاب الفرس السنيون في هراة وبلاد ما وراء النهر يجهدون لاثبات أن الثقافة والعلم في ايران لم تكن كلها من آثار الشيعة ، حتى جاءت أيام أوزون حسن من بعد ذلك ، وكان على مودة مع التيموريين على ما هو معروف ، فأخذت هذه المسألة تشغل أذهان الرجال في آسيا الوسطى وفي بخارى على الخصوص وتقلق بالهم ، حتى ليقال ان أبا سعيد انما مات شهيدا في سبيل نصره السنة .

وأدى تزايد أنصار الشيعة بايران الى ازدياد كراهية أهل آسيا الوسطى لهم وحقدهم على هؤلاء الخارجين ، حتى رأينا فلاسفة هراة ومعهم علماء بخارى وسمرقند ، قبل وفاة السلطان حسين ميرزا ، يصمون الشيعة بخروجهم على أركان الاسلام ويبيحون بيعهم بيع الرقيق (١) ويعلنون أن الاصحار اليهم من المكاره (٢) .

كان هذا هو موقف كل فرقة من أختها حين ظهر شيباني محمد خان عند حدود ايران يريد أن يتابع فتوحه بعد ما أصاب من الانتصارات في خراسان ، وبأن له أن لا مناص من حرب الشاه اسماعيل . ويقول الترك في بعض أمثالهم « ان من يمسك بالسيف في يده لا حاجة له بأن يتنحل الأعذار لما يفعل » .

(١) وفق قاعدة « كل مسلم حر » لا يجوز شرعا ان يباع المسلم في اسواق الرقيق بآسيا الوسطى الا أن يفتى الشيوخ بخروجه على الاسلام . ويقال ان اول من أفتى بذلك في ذاك الوقت هو الملا شمس الدين الهراتى الفقيه المشهور ، وكان لفتواه هذه خطورتها مستقبلا بالنسبة لايران .

(٢) المكروه هو ما بين الحلال والحرام . والاسلام في حد ذاته لا يحرم الزواج بغير المسلمات حتى رأينا سلاطين تركيا يبنون بأميرات من اليونان والصرى . على ان الأمر كان يختلف في بلاد العالم الاسلامى الشرقية ، اذ كان الشيوخ اكثر تزمنا من أقرانهم في بلاد العالم الاسلامى الغربية ، فكانوا يرون ذلك أمرا مكروها .

ولم يكن شيباني الا ليعمل بهذا المثل ، ولكنه أمل أن يثير أكبر قدر من حمية الناس فنأدى فيهم بالجهاد . وعلى هذا فقد أقام من نفسه واعظا للبطل الصفوى فكتب اليه عام ٩١٤ (١٥٠٨) يقول :

« يا سلطان ايران ، علمت بتأييدك لمذهب الشيعة المقيت وانسياقك وراء عواطف هوجاء وآراء هى من رجس الشيطان ، فتبصر فى عاقبة عملك وتبرأ من هذه الفئة الباغية وارجع الى اجماع أهل السنة ، والا فكن على يقين بأن نار الفتنة التى أوقدتها لابد وأن تكتوى بها . وانى لأبصرك مرة أخرى بأنك تسير فى طريق الضلال ، فارجع عن ذلك الى طريق الايمان القويم ، والا سقطت الى الأبد فى أيدي الشيطان . فأن أبيت أن تستمع الى قولى فاعلم أنى قادم الى ايران بجند لا حصر له فاستولى على قلعة أصفهان ، مهما كلفنى ذلك فى القتال ، وأهدمها كلها عن آخرها . أجل ان عقابى هو العقاب الأليم ، وسوف لا ينسى أهل ايران هوله الى يوم الدين » (١) .

ويبدو أن الشاه اسماعيل قد أهمل الرد عليه فرأى شيباني فى ذلك دليلا على ضعف صاحب فارس فاشتد اصراره وعزمه على توسيع حدود دولته ، وكانت اذ ذاك قد ترامت أطرافها .

وحدث أن توغلت جموع من الأوزبك عند الجنوب من خراسان حتى تجاوزت قندهار فأعملت فيها السلب والنهب ، كما سارت جموع أخرى منهم كذلك الى كرمان ، ليفقد عند ذلك رسول من قبل الشاه اسماعيل ويحذر الفاتح الأوزبكى من مغبة استمرار جنده فى بغيمهم هذا . هنالك جدد شيباني تهديده وبعث الى الصفوى بكشكول ، وهو جفنة الشحاذ (٢) وعكاز السائل ، ومعها رسالة فحواها الآتى :

(١) تاريخ سيد راقم ص ١١٠ .

(٢) الكشكول هو نصف محارة ثمرة جوز الهند، وفيها يجمع الشحاذ الصدقات . أما العكاز فيتوكأ عليه فى سيره ، وهذه جميعا هى عهده الدرويش .

« خذ هذه الهدية فهي تذكرك بما كانت عليه أسرته ، أما أنا فقد ورثت السيف والملك من جدى جنكيز ذائع الصيت ، فان لم تقنع بعمكاز الشحاذ فعليك اثم ما تفعل » (١) .

ويقول خواندمير ان الشاه اسماعيل رد عليه فقال :

« نعم أنا لا أنكر أنى درويش وسأحج الى مقام الامام الرضا بمشهد ، وليكن لقاءنا على هذا هناك » .

وكان اسماعيل على استعداد لخوض غمار الحرب على كل حال .

أما شياني فقد عوقه عن الزحف جنوبا ما كان من ثورة سكان فيروزكوه (٢) عليه ، وكانت منازلهم تقع منيعة بأعلى الجبال الصخرية فذهبت جهود شياني في اخضاعهم أدراج الرياح . وجاءت ثورتهم هذه في الوقت الذى بلغ فيه الأمير الأوزبكي تقدم الشاه اسماعيل بالفعل الى مشهد في جيش عظيم ، وزاد من هلع شياني وقلقه ورود الأنباء من بلاد ما وراء النهر في الوقت نفسه بمباغثة بيونز حسن لابنه محمد تيمور عند سيحون ، وهو في طريقه لتأديب القرغيز وهزيمته له هزيمة منكرة .

هكذا صارت الحاجة ماسة الى ذراع شياني القوية وعينه الفاحصة في جهات ثلاث ، فضلا عن أن قواته نفسها كان قد حل بها النصب وأوهنها السير الطويل . وفيما كان هذا الأمير الأوزبكي يقلب الأمور

(١) كان شياني قد حمل رسل اسماعيل رسالة رسالة الى اميرهم به فيها بأنه لم يرث الملك عن أبيه . ورد عليه الشاه الصفوى قائلا « اذا كان الملك لا ينتقل الا بالوراثة فكيف صار اذن من البيشداديين الى الكيانين ، وكيف صار كذلك الى جنكيز ، بل وكيف صار اليك أنت » (تاريخ فرشته لمحمد قاسم هندوشاه لکنو ص ٢٠٠ اول (المترجم)

(٢) هذه القبيلة الايرانية في فيروزكوه قد ورد ذكرها في كتابي
Sketches of Central Asia P 327
اصرار بعاداتهم القديمة كقطاع للطريق .

في مرو على مختلف وجوها ، أيادار بعبور جيحون أم ينتظر العدو عند حدود الصحراء ، اذا بعدوه يطرد حاميات الأوزبك من دامغان وسبزاور ونيسابور ويبلغ « مشهد » في زحفه القوي ثم يتجاوزها في طريقه اليه وجيشه يتهدده .

ولم يكن شيباني ليستطيع في ظروفه هذه أن يحصل على امدادات ، فاستقر رأيه لذلك على أن يمتنع وراء الأسوار في مرو ما استطاع الى ذلك سبيلا على أمل أن ترد اليه بعض النجدات . على أن الشاه اسماعيل لم ير الى التريث سبيلا ، اذ كان يرى أنه حين يتمهل طلبا للمزيد من الجند بدوره انما يسكن المحصورين بذلك من كسب الوقت . فعمد من فوره الى الحيلة ، فبعث الى شيباني برسالة قال له فيها :

« لقد وعدتني ، من قبل ، أن تزورني في آذربيجان فلم تحافظ على وعدك أبدا ، وهأنذا قد جئت أزورك في خراسان ، فاذا بك لاتتلفظ باستقبالي وتقفل أبوابك في وجه ضيفك ، ولما كنت على ما يظهر تؤثر أن تبقى في الخفاء ، وقد جد من الحوادث ما يستدعي عودتي بدوري الى ايران وآذربيجان ، لذلك فقد عزمت على أن أرفع مضاربى وأغادر المكان تاركا أمر لقائنا رهنا بالظروف » .

ولم يلبث أن صدر الأمر بالرحيل وشرع القوم فيه . ولم يكد جيش الفرس الأقوياء يسير في طريقه حتى برزت فرق الأوزبك الضئيلة منهوكة القوى ، يقودها شيباني فانقضت على مؤخرة العدو وأخذت تطارده عبر مرغاب ، لتدرك آخر الأمر ، بعد فوات الأوان ، أنها قد وقعت في الشرك ، وذلك حين رأوا الجسر ينهار في اثرهم بعد عبورهم له ، وقد أحاط بهم في الوقت نفسه سبعة عشر ألفا من جند الفرس من كل جانب على مقربة من محمود آباد . هنالك وقعت مذبحة بشعة دافع فيها الأوزبك عن أنفسهم بشجاعة منقطعة النظير شهد لهم بها أعداؤهم . واستطاع شيباني ، بعد أن سقط أكثر من نصف رجاله ، أن يقتحم حشود الفرس في قليل من أتباعه فلاذ بمزرعة مهجورة ، وقد أمل أن يستمر في ادارة دفة المقاومة وهو في مأمن من وراء الأسوار . على أنه-

سرعان ما أحيط به وقتل هو وجميع رجاله . وقد اكتشف جثمانه فيما بعد ، بين أكדاس الجثث التي كانت قد دفنت تحت الأتقاض ، وكان مشخنا بالجراح .

كان شيباني في الحادية والستين من عمره حين مات ميتة الأبطال هذه (١) ، وقد أمر الشاه اسماعيل فركبت جمجمة عدوه على الذهب ليأخذ منها كأسا يتعاطى الشراب فيه . وفي رواية أخرى أنه بعث بها الى السلطان بايزيد في القسطنطينية ، وكان على صلات سياسية بحاكم بلاد ماوراء النهر (٢) . كما قطعت يده اليمنى وبعث بها الى أقا قاسم أمير مازندران ، وكان من أشد أنصار الأوزبك ، ومعها رسالة ساخرة فحواها كالآتي :

« لقد طالما أعلنت عن تعلقك بشيباني ، واذا كان لم يتح له أن يأتي إليك فلتلقى به في حياته ، فان الشاه اسماعيل يبعث اليك بيد ظهيرك حتى تحقق أمنيته بالتشبه به » .

وقد حكى هذه القصة مؤرخو الفرس . وعلى الرواية السائدة في آسيا الوسطى ، فان بقايا شيباني قد دفنت في نفس السنة التي مات فيها ، أي عام ٩١٩ (١٥١٠) ، بالمدرسة الفخمة التي كان قد أقامها بسمرقند ، ولا يزال قبره يعظمه الجميع حتى اليوم كشهد .

(١) وفق تاريخ منظوم ورد في تاريخ سيد راقم يكون قد مات شهيدا يوم جمعة ، ولكن ليس بين أيدينا ما يحدد تاريخ اليوم أو الشهر الذي مات فيه .

(٢) يقول هامر في الجزء الثاني والثلاثين من كتابه عن تاريخ الدولة العثمانية ، أن العلاقات الدبلوماسية كانت قد قامت أول الأمر بين الباب العالي وبلاد ما وراء النهر وأخر حكم السلطان سليمان القانوني . وهذا خطأ واضح ، ذلك أنه لو لم يكن شيباني خان على صلات بايزيد سلطان القسطنطينية لما بعث الشاه اسماعيل بجمجمة خصمه اليه ، وكان هدف صاحب فارس من ذلك أن يثير الأسى في نفس زعيم السنينين بآسيا الغربية . ويذكر كل من هامر ، في مقاله المشار اليه ، وسنكوفسكي في كتابه Senkowsky : Table généalogique تواريخ خاطئة ومضطربة ، وقد لا نعجب من ذلك حين ندخل في حسابنا أن ما وصلت اليه أيديهم لم يكن الا مجرد مصادر تاريخية ناقصة مقلوطة .

ولا مرأ في أن شياني خان يعد من بين عظماء الرجال . وحياته
المجبية جديرة كل الجدارة بالدراسة الدقيقة ، اذ كانت بمثابة نقطة
التحول التي انتهت عندها دولة بلاد ما وراء النهر ، التي اشتهرت في
التاريخ ، الى خانية بخارى التي لم يكن لها من الأهمية السياسية قدر
مذكور .

وعلى هدى الحوادث التي أثبتناها لتونا نستخلص منها ثلاثة أمور
لها اعتبارها . ففي المكان الأول نجد أن شياني كان آخر فاتحي الدنيا
الذين خرجوا ، ومعهم قوات من سكان السهوب البرابرة بآسيا الوسطى ،
فأقاموا دولة امتدت الى ما وراء جيحون بمسافات بعيدة ، فلم يصادف
أى محارب أتى من بعده ما صادفه هو من التوفيق بالغاً ما بلغ هذا
المحارب من الكفاية والطموح ، فضلا عن أن استقرار الأمور بإيران من
بعد ذلك كان بمثابة سد منيع وقف في وجه بخارى وسمرقند أن تمد
نفوذها نحو الغرب .

والأمر الثاني أن أدوار السلالات البشرية وهجراتها في آسيا
الوسطى قد ختمت به ، اذ كان الأوزبك هم آخر قبيلة انحدرت من
مرتفعات توران الوعرة صوب الجنوب الغربى .

والثالث أن سقوط التيموريين وانهايار دولتهم التام قد قضى قضاء
تاماً على آخر رابطة كانت ، على وهنها ، تربط المسلمين فيما وراء جيحون
وسيحون باخوانهم في غرب آسيا .

وكان مما ساعد على قيام هذه الثغرة وعجل بها شدة تعصب
الصفويين لمذهبهم بطبيعة الحال ، فكان صنيعهم هذا بمثابة اسفين أقيم
في قلب الاسلام .

وختم هذا الدور من أدوار الزعامة الدينية والاجتماعية في هذه
البلاد حين نزل شياني مع بدوه من السهوب الشمالية الى الوديان
الزراعية . وما غدت بلاد النهر من بعد ذلك أن كمل عزلها عزلاً تاماً .
وعاد نهر جيحون بالتدريج مرة أخرى هو الحد الفاصل بين البيئة
الایرانية والبيئة التورانية كما كان في القديم .

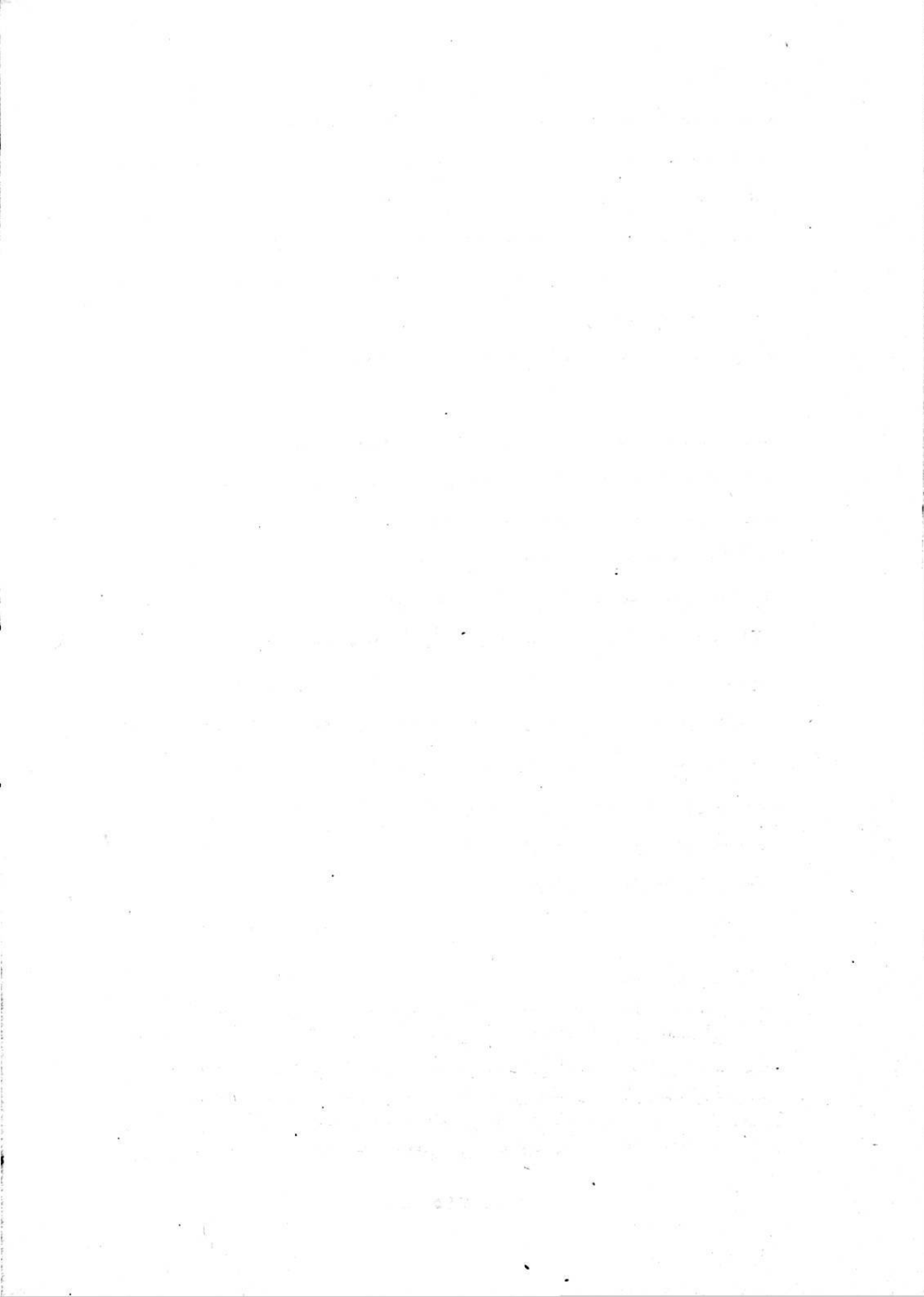
ولم يكن شيباني بشخصه على وجه اليقين ، هو ذلك البربري الجلف كما يصفه أعداؤه من الايرانيين ، فقد كان يكن من الاحترام البالغ لشيخ عصره ما هو أشبه بخضوع الطفل لمؤدبه . وكان بدوره يقرض الشعر ، كما كان يصطحب معه في كل حروبه دواما مكتبة صغيرة . وعلى نهج ما كان يفعله تيمور حين كان يعقد ندوات فقهية للدرس تضم فلاسفة دمشق وحلب ، فكذلك كان الفاتح الأوزبكي بدوره يتدارس تفسير القرآن مع القاضى اختيار ومحمد يوسف أكبر المفسرين في هراة . ويسخر بابر من شيباني فيقول انه كان يقرض شعرا سقيما تافها ويقرؤه على الناس .

ومهما يكن فان في فعلته هذه ما يدل على أن رجل السيف هذا كان يتابع أعوان الثقافة في عصره حتى اشتغل بالكتابة وبز في ذلك أغلب أنداده . وبرغم سخريه عدوه اللاذعة منه ، فان نظمه يدل على قريحة شعرية ملحوظة (١) ، وعلى الملم واسع بالتركية والفارسية والعربية كذلك . ولقد ضم الى بلاطه كثيرين من العلماء الذين ثزلت بهم الفاقة والعوز بعد موت السلطان حسين ميرزا وأجرى عليهم رزقا حسنا ، كما أقام المساجد والمدارس ببخارى وسمرقند وطشقند .

وكان يصحب معه على الدوام ، حتى في حروبه ، مختلف العلماء ، وكان لهم عليه أبلغ نفوذ (٢) . وبرغم أن الأوزبك كان اسمهم منذ أول ظهورهم على مسرح التاريخ مرادفا للبربرية والوحشية ، ولا يزال حتى اليوم عند الايرانيين كذلك ، الا أن هذا التعريف لا ينطبق على شيباني بشخصه بحال ما ، اذ كان على ثقافة عالية ومدنية لا تقل عما كان عليه أكثر أمراء بيت تيمور .

(١) يعرض علينا مؤلف شيباني نامة بعضا من اشعار شيباني تعد من ناحية لغتها وفكرتها من بين أحسن انتاج الادب التركى الشرقى .

(٢) حين تقدم مولانا بنائى ، شاعر شيباني الخاص ، الى فلاسفة هراة يدعوهم لتسليم مدينتهم ، تقدم هؤلاء الى مضارب الأوزبك ليتفاوضوا في الصلح ، وكان لمكانتهم وحدها الفضل في اقتناع ذلك الفاتح بالاكثفاء يفرض المال عليهم ، وقد اتفق معهم على مقداره .



الفصل الرابع عشر الشيانيون

٩١٦ (١٥١٠) - ١٠٠٦ (١٥٩٧)

حين بلغت أنباء كارثة مرو بلاد ما وراء النهر لم يكن أمام أمراء بيت شياني الا أن يبادروا بأسرع ما يمكن الى عقد الصلح مع الشاه اسماعيل ، وكانت عساكره المظفرة تزحف الى جيحون ، اذ كانوا يوقنون باستحالة الاضطلاع بتدبير الدفاع لوقفه من جهة ، ويعرفون مدى ما يتهددهم على أيدي التيموريين الذين كانوا قد سلبوهم أملاكهم من جهة أخرى . وفي هذا الصلح كان على الأوزبك أن يتنازلوا عن الضفة اليسرى من النهر ، وفيه تم الاتفاق كذلك على أن يصبح جيحون من جديد ، فاصلا بين ايران وتوران ، كما كان عليه الحال في الزمن الغابر . ومع ذلك فان هذا الصلح لم يدم الا لأجل قصير جدا . ذلك أن بابر ميرزا برغم وجود منطقة كابل اللطيفة في حوزته ، كان ما يزال ، بوازع من شعوره الوطني الفياض ، يحن الى وطنه القديم على ضفاف جيحون وسيحون . فلم يكد يعرف بنهاية خصمه السابق حتى سارع بالائتلاف مع الشاه اسماعيل ، ليتلقى منه عند ذلك امدادات استعان بها في محاولة تحقيق أمله باسترداد عرش أجداده .

وعبر بابر جيحون عام ٩١٧ (١٥١١) في جيش مكون من الفرس واللاجئين من أواسط آسيا ومن البدخشانين والأفغان ، فاستولى بعد مقاومة شديدة على سمرقند (١) . ولم يكن ما أصابه من نجاح ، غير

(١) مما يؤسف له أن تفصيل محاولة بابر استرداد سمرقند هو من بين ما ضاع من سيرته . هذا ويوميته في سيرته تجرى وفق السنين . وما بين أيدينا ينقص الفترة ما بين عام ٩١٤ (١٥٠٨) حتى عام ٩٢٥ (١٥١٩) ، فلم يكن أمامنا بذلك الا أن نطلب هذا التفصيل في مصادر أخرى دونها .

متوقع ، ليرجع في الغالب الى جرأته وبسالته بقدر ما يرجع الى ما كان من وقوع الشقاق بين أفراد بيت شيباني أنفسهم . فقد بادر فريق من الأوزبك عند وفاة شيباني بمبايعة محمد تيمور سلطان ابن ذلك الفاتح ، في حين ذهب فريق آخر ، يمثل الغالبية ، فنادى بتنصيب كچكونجى (١) سلطان بن أبى الخير وذلك على مقتضى الرسم القديم الذى ينص على اختيار أكبر الأمراء سنا . ولم يرق محمد تيمور عرش أبيه على كل حال الا لأيام قليلة (٢) ، اذ فاجأه موت مدبر فى الغالب . فالتفت القادة عند ذلك حول الشيخ الأشيب كچكونجى عند حوض سيحون الأدنى لينظروا فيما عليهم أن يتخذوه من خطوات من بعد ذلك .

ولئن كان هذا الأمير قد انتخب بالفعل خليفة لشيباني باجماع الآراء ، الا أن تقدم سنه منعه من المشاركة الفعلية فى الحروب ، فندب لذلك أميراً آخر من أسرته نائباً له فى قيادة الجيش ، كان دون مؤسس هذه الأسرة فى الكفاية الحربية والطموح والشجاعة جميعاً . هذا الأمير هو عبيد الله خان ، ابن محمود سلطان (٣) ، فاتح خراسان الغربية ، وكان قد تمرس بالقتال من قبل حين شارك عمه حروبه ، فضلاً عن أنه كان أقدر أمراء الأوزبك اذ ذاك بلا شبهة . وكان على هذا الأمير أن يواصل الاضطلاع بما كان يضطلع به شيباني من مهام مع ما صار اليه حال الأوزبك ، اذ كان التآلف والاتحاد بينهم قد انقضت عراه .

وخرج هذا الأمير فى خمسة آلاف من الفرسان ، مشيعاً بدعوات الرجل الصالح الشيخ أحمد ، فعبر بهم سيحون وسلك الطريق انصحراوى الذى يقع على الضفة اليسرى للنهر فغزا القسم الشمالى من خانية بخارى ، وبابر اذ ذاك فى غفلة تامة لا يدرى عن تحركات عدوه شيئاً . وأقام الأوزبك عند ذلك مضاربهم على شواطئ بحيرة ملك (١) هذا اللفظ البدوى او الجوال ، ويشق منه فى الغالب كلمة

كجوم .
(٢) كان لشيباني ابنان آخران هما خرم سلطان وسيونج محمد سلطان ، ولا نعرف سبباً لاهمال شأنهما فى وراثة العرش .
(٣) محمود سلطان هو أصغر اخوة شيباني ، وقد مات عقب سقوط قندز على ما ذكرنا من قبل .

بمنطقة خير آباد (١) في حين بلغت مراكزهم الأمامية الى ما وراء بخارى .
ويقال ان عبيد الله لم يلبث أن سحب جند المقدمة هذا حتى يركز قواته
في مكان واحد ، وذلك حين سمع بزحف بابر اليه في جيش قوامه
سبعون ألف جندي . وحمل البخاريون صنيع عبيد الله هذا على انه
يرتد فانطلقوا يزفون الخبر الى بابر الذي بادر بالزحف عند ذاك بدورده
الى عدوه طلبا لقتاله على ضفاف البحيرة .

هنالك استجاب له عبيد الله ، فبرز من بين قواته الأمير سراج الدين
وأوروس ميرزا وبصحبة كل واحد منهما ألف من الجند فهاجما قلب
جيش بابر . وما لبث أن سار في أثرهم بقية جند الأوزبك ، وهم الذين
عرفوا بضراوتهم وجسارتهم في القتال . وكادت المقدمة القليلة هذه أن
يحاط بها لولا أن شاع الاضطراب والفوضى فجأة في جيش بابر وعمه
الفرع ، حتى انتهى الحال بالجند الى أن انطلقوا يلتمسون طريق الفرار
جملة . ويقال ان بابر نفسه قد استمات في القتال معرضا نفسه لأشد
الخطر ، فلم يعمد الى التراجع الا حين أخذت بنود عبيد الله تطله
بالفعل (٢) .

ويبدو أن بابر قد أدرك حينذاك أنه قد أطلق آخر سهم في جعبته
للدفاع عن عرش أبيه . ذلك أنه حين آب من حومة الوغى الى سمرقند
لم يمكث بها الا ريثما تم له اعداد متاعه وجمع شتات أسرته وأتباعه ،
فسار بهم جميعا الى حصن حصار .

وقد دام حكمه بسمرقند ستة أشهر لم يتح له من بعدها أبدا
مشاهدة موطن أجداده المحبوب .

(١) تقع خير آباد على مسافة قصيرة عند الشمال من بخارى .
ولم أشاهد بحيرة ملك بنفسى في أسفارى ببخارى ولكنى عبرت جزءا من
صحراء ملك (انظر كتاب رحلتى ص ١٩٨) .

(٢) استقيت كل ما ذكرته هنا من سيد راقم ، ويبدو أن هذه
الاعداد مبالغ فيها على كل حال بالقياس الى صغر قوة الأوزبك التي خاطر
بها عبيد الله لمهاجمة هذا الجيش .

ودخل عبيد الله المدينة دون مقاومة عام ٩١٨ (١٥١٢) فأجلس عه كجكونجي على عرشها ، واحتفظ لنفسه بحكومة بخارى ليستكمل استعداداته الحربية بها . ذلك أن هزيمته لبابر لم تكن تعنى بعد توليد مركز الأوزبك ، فقد كان أقوى أعدائهم ما يزال يقف على قدم الاستعداد ، على الشاطئ الآخر لجيخون ، يراقب بعين الحذر كل حركة أو سكة يأتى بها خلفاء شيباني .

ولم يكد الشاه اسماعيل يبلغه خبر هزيمة بابر حتى أخذ يعد العدة لحماية خراسان من أن تتعرض من جديد لغزو الأوزبك ، فبعث من فوره الى نجم ثانى (١) حاكم تلك الولاية يطلب اليه أن يبادر بانجاد بابر بكل ما فى طاقته ، وأن يسير الى بلاد ما وراء النهر بلا تأخير . هنالك لحق هذا الجيش الفارسى ببابر عند ترمذ وانضم اليه ، فهاجمت هذه الجيوش المتحدة قارشى واستولت عليها .

وأدى بنجم ثانى تعصبه الشديد لمذهب الشيعة الى أن قتل كل حامية المكان وسكانه وفيهم الشاعر المشهور مثلاً بنائى . وأثار هذا التصرف ثائرة بابر (٢) الشهم السح حتى آثر أن يضجى بفكرة استرداد بلاد ما وراء النهر ، فقطع علاقته بفارس وترك القائد الفارسى المشهور يتخذ طريقه الى بخارى منفردا ، ليلاقى عند ذلك جزاء ما اقترفت يدها عن كتب (٣) . فقد تركه الأوزبك يتوغل حتى قلب هذه البلاد دون مقاومة ، فطفق يستولى على الحصون الواحد بعد الآخر ، حتى اذا ما بلغ

(١) اسمه الاصلى ميريار محمد .

(٢) برغم أن قائد قارشى كان من أبناء عمومة عبيد الله الا أن ذلك لم يمنع بابر ، وهو السمع ، من أن يثور لمشهد القسوة التى عامل بها الفرس قريب الد أعدائه .

(٣) مع تمجيد المؤرخين الفرس الشاه اسماعيل الصفوى فانهم يأخذون عليه ما سلكه من العنف لحمل الناس قسرا على التشيع (تاريخ عمومى ايران لعباس اقبال ، طهران ص ٢٥٨) ، هذا ويذكر صاحب مآثر الأمراء أن بعض قواد الفرس أنفسهم كانوا يحقدون على نجم ثانى فكان ذلك من اسباب هزيمته .

غجديوان كان جنوده قد بلغ بهم التعب والمسغبة درجة أمكن معها لحفنة من فرسان العدو أن تنزل هزيمة قاصمة بوزير سلطان فارس المتكبر هذا في معركة سقط فيها هو نفسه مع أكبر قواده .

ويصف المؤرخ الفارسي ما كان عليه هذا الرجل من الثراء والبذخ حتى كان ينحر في مطبخه كل يوم مائة رأس من الغنم ومعها عدد لا يحصى من الدجاج والبط والأوز ، فضلا عن أربعين رطلا من القرفة والزعفران وصنوف التوابل الأخرى . كما كانت صحافه كلها من الذهب أو من الخرف الصيني النادر .

هكذا انتصر الأوزبك على الفرس انتصارا ميينا ، وجاءت هذه المعركة التي كان يرمى الشاه اسماعيل بها الى حماية خراسان بعكس ما كان يرجوه منها . فقد عبر عبيد الله من بعد ذلك جيحون عند جهارجوى ، مع عمه العظيم جاني بك ، أحد أبناء خواجه سلطان (١) عام ٩١٩ (١٥١٣) وانضم اليه عند مرغاب تيمور سلطان ، قادما من سمرقند بطريق كركى ، فتقدموا جميعا لمهاجمة مشهد ، كما انطلقت في الوقت نفسه كتائب من الأوزبك عبر ترمد فتوغلوا في البلاد حتى بلخ ، وهم ينشرون الخراب والدمار حيث ساروا ، فلم يبق الا أشهر قلائل على نصر غجديوان الذي قادهم فيه عبيد الله حتى كان الأوزبك قد استحوذوا ثانية على كل الأقاليم التي كان شيباني قد كسبها لهم أصلا بسيفه .

كان على الشاه اسماعيل ، بعد أن رأى كل انتصاراته السابقة قد تبددت فجأة كهشيم تذروه الرياح ، أن يتجه بجيوشه الى خراسان ، برغم خوفه من أن يغير السلطان سليم عليه ، وكانت همة اسماعيل متجهة الى الاهتمام بأراضيه الغربية التي كان يقلقه أمرها . ولم يعبد الأوزبك الى الارتداد عبر جيحون حين علموا بسقدم الشاه اليهم بطبيعة الحال ،

(١) كان لخواجه سلطان ، ثاني أبناء أبى الخير ، ولدان هما جاني بك وبوبالى سلطان ، ولم يرق العرش أحد من أبناء بوبالى ، وانما كان آخر حكام الشيبانيين ببلاد ما وراء النهر من أصلاب جاني بك .

غير أن المناوشات الخفيفة التي وقعت في الصحراء بين الفريقين والتي كانت في الغالب على هيئة غارات ، أكثر منها معارك مرسومة منظمة ، كانت تقترب باطراد من حدود ايران ، هذه كانت في حد ذاتها نازلة طاحنة جرت البؤس الكثير على مناطق ايران المنكودة في ناحية الشمال الشرقي . وبرغم قلة ما بين أيدينا مما يصح أن نستند اليه في مبدأ قيام العلاقات بين الأوزبك والعثمانيين اذ ذاك فالثابت المعروف أن التفاهم ازداد بينهما فعلا في تلك الآونة بلا مرأ ، اذ نرى حكام القسطنطينية يسارعون عند ذاك بنشر بنودهم في وجه قوة الصفويين الصاعدة . فلم يكد هؤلاء يسحبون قواتهم التي كانوا قد أعدوها لحماية مشارف ايران الشمالية الشرقية حتى اندفع الأوزبك فعبروا مياه جيحون الصفراء ودخلوا خراسان ، التي لحقت بهم فيها الكارثة من قبل ، لنجد عبيد الله عند ذلك يغزو ايران بمفرده ست مرات لم ينتج عنها الا اشاعة الدمار والخراب في أرض جارته المنكودة .

وتاريخ هذه الغزوات محزن يبعث على الملل ، ومع هذا فلا حيلة لنا الا أن نستعرضه . أما أول هذه الغزوات فقد صدت لوقتها كما ذكرنا سلفا ، وأما ثانيتهما فقد وقعت في فرصة أكثر مواتاة للأوزبك ، اذ كان الشاه اسماعيل قد هزم وأصابه الضعف والخذلان في معركة چالدران .

ويصف المؤرخون الفرس هذه الغزوة الثانية بأنها كانت على نطاق واسع . فقد أذن لعبيد الله عمه بأن يعبر جيحون في ثلاثين ألفا من الأوزبك ، ومع هذا فلم يحرز من النجاح ما يتلاءم مع عظم استعداداته هذا ، اذ اضطر الى الارتداد بعد أن ضرب الحصار حول هراة لعشرة أيام دون نتيجة . ذلك أن ضراوة الأوزبك لم تجددهم فتिला تلقاء همة سام ميرزا ودرمش ميرزا ، قائد خراسان ، وقوة عزيمتهما ، فقتلوا بصب جام غضبهم على المحاصيل الزراعية فدمروها عن آخرها .

ووقعت ثالث غزوة بعد موت الشاه اسماعيل وذلك عام ٩٣١ (١٥٢٤) . فقد نفذ المحارب الشيباني الجسور من جهارجوى وانقض على مرو ، في حين زحف أبو سعيد بن كجكونجى بطريق كركى وظهر

عند هراة . ولم يصب هذا الأمير الا قدرا قليلا من النجاح ، في حين لم يكتف عبيد الله بالاستيلاء على مرو ومشهد فحسب ، بل امتدت غاراته الى استراباد فاستولى عليها وعهد بحكومتها الى ابنه عبد العزيز .

على أن هذا الأمير لم يستطع أن يرسخ أقدامه هناك على أية حال ، فلم يكد عبيد الله يصل الى دامغان حتى كان الشاه طهماسب ، ابن اسماعيل وخليفته ، قد قدم لانتقاذ تلك الولاية المهددة وطرد الأوزبك عنها الى بلادهم . فقد أخطأ سكان بلاد ما وراء النهر في حسابهم حين ظنوا أن موت الشاه اسماعيل وما تبع ذلك من شيوع الاضطرابات الداخلية بایران انما يتيح لهم الفرصة لتحقيق أهدافهم .

ولئن كان طهماسب قد اعتلى العرش وهو بعد يافع ، الا أنه ما لبث أن عقد النية على وضع حد لغزوات الأوزبك . وحين عرف عبيد الله بذلك انطلق يحذر قومه ويبالغ في وصف عظم القوات التي عزم سلطان فارس الشاب على أن يعبر بها جيحون .

ولئن لم يقم الدليل على اتجاه طهماسب هذه الوجهة ، الا أن ذلك لم يمنع كجكونجى من أن يستبد به القلق حتى استعد للقاء عدوه . وعلى هذا قام عبيد الله بغزو خراسان للمرة الرابعة عام ٩٣٥ هـ (١٥٢٨) فى حشد جمعه من بين مختلف القبائل والبطون التي كانت تسكن مرتفعات توران ، كما انضم اليه كل أمراء الأوزبك الكبار ، ومن بينهم براق سلطان ، قادما من طشقند ، وكجكونجى وابنه أبو سعيد من سمرقند وحمره سلطان من حصار وكستن قره سلطان من بلخ .

ويقول المؤرخون الفرس ، وهم الذين جبلوا على المبالغة ، انه لم يسبق لمثل هذا الحشد الهائل من التتار (١) أن عبر جيحون دفعة واحدة كما فعل هؤلاء . ولكنهم يغفلون فلا يضيفون الى ذلك أن قصف المدافع

(١) بقدرهم روضة الصفا ، وهو مرجع فارسى ، بمائتى ألف ، ولا يترك بلدا معروفا أو شعبا الا ويقول بمشاركة رجاله فى هذه الحملة .

وصوت طلقات الأسلحة النارية لم يسبق له أن سمع بهذه المناطق كذلك أبدا .

وجلب طهماسب معه ستة آلاف بندقية ، فكان على رماة السهام المشهورين القادمين من توران أن يواجهوا لأول مرة اختراع الغرب العلمى الذى كانت تنهار أمامه مجرد القوة الجسدية الخالصة (١) . ولا جدال فى أن هذين الجيشين كانا ندين عظيمين لبعضهما حين التقيا . وزاد من حدة القتال فى هذه الواقعة أن بدأ الالتحام الفعلى فبدا بينهما بين جام وزور آباد (٢) ، فى التاسع من المحرم ، ليلة ذكرى مأساة مقتل الحسين عند كربلاء وهى التى يحتفل بها الشيعة كل عام فى حزن بالغ (٣) . وأخذت أسراب السهام تتلأأ فى ضوء أشعة الشمس الأولى ، أول انتشارها ، والرماة يطلقونها . وهى صورة تعيد الى الخيال منظر الصراع فى القديم بين أفراسياب ورستم . وكاد الأوزبك وسط سحب الغبار الكثيف أن يحيطوا بطهماسب أول الأمر حتى بدأ أمله فى النصر يتضاءل ، ليعمد الجيش الفارسى عند ذاك ، على نهج خطط العثمانيين ، الى الاحتماء وراء العجلات الحربية ، وقد جعل رماة من حلة البنادق فى الجبهة .

(١) لم يستخدم الفرس الأسلحة الحديثة من بندق ومدافع الا بعد أن عرفوا قيمتها وتأثيرها البالغ فى حروبهم مع العثمانيين . وعن طريق الفرس عرفت جيوش بلاد ما وراء النهر وما وراءها استخدام هذه الأسلحة .
(المترجم)

(٢) وهو اليوم السهل الكبير الذى يكون الحد الفاصل بين أفغانستان وإيران ، وبين هراة وخراسان تبعا لذلك . وجام هو أول موضع فارسى يبلغه المسافر حين يقدم من هراة ، وهو اليوم قرية حقيرة يعيش سكانها فى رعب قاتل خوف التركمان . وعلى ما رواه بابر فى سيرته بالهند فإن هذه الواقعة لم تكن بين جام وزور آباد وإنما كانت بين جام وخرکرد . ويقدر بابر جيش الأوزبك بثلاثمائة ألف ، فى حين يقدر جيش الفرس بأربعين أو خمسين ألفا ، وكان من التركمان على حد قوله .

(٣) تعد هذه الليلة عند الشيعة أقدس ليالى السنة كلها ، وهم يصومون يومها ويبالفون فى تعذيب أنفسهم فيها ليهيئوا بذلك أذهانهم للتأمل فى يوم الحزن الأكبر التالى وهو يوم عاشوراء .

وبرغم ذلك فان الأوزبك كروا من جديد على جناحى عدوهم حتى
أفلحوا فى اختراق خطوطه ، ولكن قوة الفرس الرئيسية تمكنت آخر
الأمر من أن تصدهم وتسقط من بعد ذلك على مؤخرتهم وتشتت شملهم
وفى هذه الواقعة سقط خمسون ألفا من الأوزبك وعشرون ألفا من
الايرائيين على ما يقال (١) ، ولما ينتقم القوم بعد لدم شيانى على ما كانوا
يتقدرون .

وفى ما كان طهماسب عام ٩٣٨ (١٥٣١) منهمكا فى القتال مع السلطان
سليمان ناحية الغرب ، أقدم عبيد الله على غزو ايران للمرة الخامسة فى
جيش من جند مختلط . فسار بنفسه الى هراة ، فى حين زحف ابنه
عبد العزيز الى مشهد ، وتقدم الى استراباد قيش أوغلان الذى طارت
بذكر شجاعته الركبان ، وسار الى سبزاور خان كلدى باتر . وظلت
خراسان وسيستان وجزء من ايران مسرحا لعبتهم يعملون فيها جميعا
السلب والنهب طوال عام ونصف العام . حتى اذا ما عقد الصلح بين
سلطان فارس والعثمانيين وات بذلك طهماسب الفرصة ليلتفت من جديد
الى اقليم خراسان المغتصب . وهناك سارع الأوزبك ، كمادتهم ، بالجلء
عنه محملين بالرقيق والأسلاب من كل نوع .

وارتقى عبيد الله عرش بلاد ما وراء النهر بعد ذلك عام ٩٤٠
(١٥٣٣) ذلك أن الشيخ المعمر كچكونجى كان قد وافاه أجله عام ٩٣٧
(١٥٣٠) بعد حياة طويلة قضى أكثرها فى حلقات الزهاد وال دراويش .
وخلفه ابنه أبو سعيد خان من بعده فداهم الموت بدوره بعد سنوات
ثلاث قضاهما على العرش . ويشك كثيرا فى أنه قتل سرا بتدبير من
عبيد الله .

(١) يروى بابر فى سيرته أنه قيل أن تسعة من سلاطين الأوزبك وفيهم
كچكونجى نفسه وابنه أبو سعيد وعبيد خان سقطوا بأيدي الفرس فلم
يبق منهم على قيد الحياة الا أبو سعيد . وهى رواية غير صحيحة ، ذلك
أننا سوف نرى خلال هذا الفصل أن هؤلاء الثلاثة قد ارتقوا جميعا عرش
بلاد ما وراء النهر لعدة سنوات على التعاقب ، وأن أكبرهم وهو
كچكونجى لم يمض الا بعد مضى عامين على هذه الكارثة .

وما ان رقى عبيد الله هذا العرش حتى طفق يعاود تحرشه بجاره فى هجمات متلاحقة على ما كان يفعل من قبل . فشرع عام ٩٤٢ هـ (١٩٣٥ م) عام ٩٤٦ (١٥٣٩) وهو فى السادسة والخمسين من عمره فى العام السادس فى غزوته السابعة لخراسان ، وفيها تذكر المصادر الوطنية أنه قد تمكن على كل حال من انتزاع حصن هراة من سام ميرزا وان لم يستطع الاحتفاظ به أبدا (١) .

كانت هذه آخر غزواته لخراسان ، فقد خرج فى محاولة فاشلة لاعادة خوارزم الى حظيرة بخارى من جديد ، ثم وافاه أجله من بعد ذلك من حكمه ، ودفن فى ضريح بمدرسته التى أنشأها .

تقاسم بلاد ما وراء النهر من بعد ذلك أبناء كچكونجى وشياني ، وان انتهى الأمر بعد وفاة عبيد الله الى اشاعة الفوضى بين الأوزبك على كل حال ، فقد قام أشياع الأسرة السابقة باجلاس عبد الله بن كچكونجى على العرش ، حتى اذا ما وافاه أجله بعد ذلك بشهور ستة اختاروا مكانه أخاه عبد اللطيف (٢) ، فى حين ذهب الفريق الآخر ، وكان أمنع جانبا ، الى المناداة بعبد العزيز بن عبد الله سلطانا عليهم وذلك عام ٩٤٨ (١٥٤١) ولا نعلم ان كان العداء قد نشب بين هذين الحاكمين أم أنهما اقتسما الحكومة فعلا فيما بينهما فى سلام .

والحقيقة الوحيدة التى نستطيع أن نستخلصها من الأخبار الشحيحة المضطربة عن هذه الفترة هى أن عبد العزيز قد بقى على العرش حتى عام ٩٥٨ (١٥٥١) ، وانه استمر على علاقاته السلمية مع فارس ،

(١) يؤكد صاحب روضة الصفا عكس الرواية فيقول ان الأوزبك تراجعوا بازاء المقاومة العنيفة التى أيدها سام ميرزا .

(٢) يخلط دوجوينى بين عبد الله هذا وعبد الله الأخير ، الأكبر ، وذلك فى كتابه عن تاريخ الهياطلة والترك

1) Deguignes: History of the Huns and the Turks, vol 111 p. 472

كما يجعل عبد المنعم يلى العرش مباشرة ، عقب عبد الله الأول ، وبذلك يفغل نصف قرن بأكمله فى تاريخ بخارى .

اللهم الا مرة واحدة غزا فيها بلخ ، فكان في ذلك على تمام النقيض من
أبيه في خلاله .

كان عبد العزيز يظهر الشيوخ في دعوتهم الى احياء السنة ويهتم
بذلك اهتماما كبيرا حتى أنفق أموالا كثيرة في تعمير المساجد والخوانق
وغيرها من دور العبادة أكثر مما أنفق في تعمير المنشآت الأخرى .

ولئن كانت البلاد قد أفادت من صنيعه هذا أعظم فائدة ، وهي
التي أنهكتها الحروب المتصلة من قبل ، الا أن اهماله لشئون الدفاع عن
الدولة قد أدى الى ازدياد تعرض المناطق الشمالية من بلاده لغارات البدو
الرحل أكثر من ذي قبل . وعلى أثر موته ندب محمد يار سلطان (١) ابن
محمد سيونج خان خلفا له ، وكان يقيم اذ ذاك بطشقند ، ولكن الموت
داهمه بدوره وهو في طريقه الى بخارى ، وقيل انه قتل بسمرقند عام
٩٦١ (١٥٥٣) في رواية أخرى . ورقى العرش من بعده برهان خان ،
أحد أحفاد عبيد الله ، برغم معارضة الكثيرين في ذلك ، وكان خليعا
ماجنا حتى كان يغلب عليه الخمار أياما بأكملها ، وسرعان ما نتج عن ذلك
أن عم السخط عليه والكراهية له .

وفي وسط هذه الفوضى التي سادت نتيجة استهتار هذا الأمير ،
برز فجأة من سهوب وسط آسيا الشمالية الشرقية براق خان (٢) ، أحد
أبناء محمود خان الذى دحره شيبانى من قبل ، فاجتاح ، بجنوده الغلاظ
من المرتزقة ، أعظم مناطق بلاد ما وراء النهر عمرانا حتى عم الخراب
الشامل كل المنطقة الواقعة بين أترار وبخارى و انتهت بأكملها . وكان ما
حل بالأهلين من ضروب البؤس والشقاء تبعا لذلك مما يجعل عن الوصف
لما كان عليه هذا الطاغية من قسوة وضراوة .

(١) تذكره رواية أخرى باسم محمد رحيم ، وهو قول غير صحيح ،
ذلك أن محمد رحيم ، وهو ابن عبد الله خان ووالد برهان خان كان قد مات
قبل ذلك .

(٢) اسمه الاصلى نوروز أحمد .

وفي هذا الوقت الذي ساد فيه الرعب والفزع البلاد ظهر على مسرح الحوادث لأول مرة عبد الله خان ، ابن اسكندر خان (١) وحفيد أبى الخير ، وهو من سوف نراه يستحق بجدارة أن يوصف بأنه أعظم الشيبانيين . وقد ولد هذا الأمير عام ٩٤٠ (١٥٣٣) . ولم يشتهر أحد من أجداده لأبيه بالذكاء ، وكان جده الأعلى يعرف باسم تينت (الأوزة) أما جده المباشر جاني بك (٢) فكان أبله ، ولم يكن عند أبيه بدوره شيء من بوارق الذكاء ، فكل ما نعرفه عنه انه كان يواظب على أداء الصلوات الخمس في مواعيدها (٣) وانه كان يجيد الصيد بالبزاة .

ومع ما كان عليه آباؤه هؤلاء ، يقال ان الشيخ الوقور خواجه كاشاني كان قد تنبأ له وهو بعد طفل بمستقبل عظيم ، وذلك حين قدمه اليه أبوه اسكندر خان ليباركه ، وأعلن في سرور أن هذا الطفل قد ولد في برج السعد وأنه سيكون يوما ما عاهلا عظيما ، وأردف هذا الشيخ الورع قوله بأن خلع منطقته ، وكانت من صوف الجبل ، فلفها حول الطفل زيادة في تحصينه بالبركات . وزاد الشيخ على ذلك بأن تنبأ له بحوادث بعينها سوف تصادفه في حياته المستقبلية . وعلى هذا فقد عهد بتأديبه الى خير المرين في وقته ، وكانوا كثيرين في عهد عبيد الله كما ينوه بذلك المؤرخ سيد راقم .

(١) كان لأبيه جاني بك اثنا عشر ولدا هم دوست محمد سلطان وكشتن قرا سلطان ، الذي حكم طويلا ببلخ ، ثم باينده محمد سلطان سلطان واسكندر خان واسفندريار سلطان وسليمان سلطان وپير محمد سلطان وشاه محمد سلطان وبار محمد سلان وجان محمد سلطان ونور محمد سلطان .

(٢) يحكى أبو الفازى ان هذا الأمير كان يسمح لزوجاته ، قبل ان يضعن حملهن ، بصب الدهن (لعله حجر الشب) على النار فيعرف توا من خلال اللهب نوع المولود . وهذه الخرافة لا تزال تروج حتى اليوم بأسيا الوسطى ، ونظير ذلك ما يمارسه الفتيات الأوريات اذ يصببن الشمع او الرصاص المذاب ليلة العام الجديد ليرين فى صورته التى يصير عليها ان كن سيتزوجن فى العام التالى او لا .

(٣) كان كذلك يصلى النوافل بانتظام .

انبرى عبد الله وهو فى الثانية والعشرين من عمره يدافع عن حقوق أسرته فى عزم أكيد ، فتقدم مع حفنة من رجاله ليقف فى وجه براق خان وما كان يرتكبه من فظائع ، وكان هذا قد استولى على بخارى لتوه . واضطر عبد الله أول الأمر الى الارتداد الى حصن تاراب الصغير ، قرب بخارى ، وهو موطن صانع الغرايل الذى ادعى النبوة أيام الجغتائين . وتلقاه الأهليون أول الأمر بفتور ، حتى اذا ما عنفهم على تقاعسهم ووعدهم بمزيد من الامتيازات حين يكتب له التوفيق ، انضم الى صفوفه منهم ثلاثمائة محارب . وفيما كان يعد العدة للحرب وافته الأخبار ب وفاة براق وذلك عام ٩٦٣ (١٥٥٥) هنالك أسرع الى بخارى من فوره فاستولى عليها وعلى ما يجاورها من أرضين ، فاذا هو من بعد ذلك يرى نفسه وقد أصبح فجأة فى حال يسح له بهاجمة برهان خان ، وقد هزمه بالفعل ثم قتله (١) . واذا تم له بذلك طرد الغزاة من بلاده استطاع أن يقيم من جديد سلطان الشيبانيين ثابتا قويا ببلاد ما وراء النهر .

وعلى نهج شيبانى وعبيد الله من قبل حين كانا يعهدان بتقعد الحكم الى من كانوا يندبونهم من الأمراء برغم أنهما كانا أصحاب السلطة الشرعية ، وذلك ليضيا متفرقين الى حروبها ، فقد أجلس عبد الله بدوره أباه اسكندر على عرش سمرقند وأقام نفسه على رأس الجيش الذى اعتزم أن يعيد به دولة شيبانى الى ما كانت عليه رقعتها فى السابق . وأمضى عبد الله أغلب حياته فى سبيل تحقيق هذا الأمر فصادفه فى فتوحه من التوفيق أكثر مما صادف كل من سبقه ، كما جهد بدوره كذلك فى انعاش بلاد سيحون من جديد والنهوض بها ، حتى استحق بجداره ، كما سوف نرى ، أن يلقب بلقب « ولى النعم » .

وامتدت حدود خانية بخارى فى عهد عبد الله هذا حتى تجاوزت المناطق المسكونة فى تركستان شمالا . ولم يتعرض السلام للخطر بهذه النواحي ، بعد وفاة براق خان ، فى الغالب الا حين قدم بابر خان ،

(١) قتله غيلة من يدعى ميرزكى قوشجى .

ابن براق سالف الذكر ، عام ٩٧٥ (١٥٦٧) يغزو بلاد ما وراء النهر من جديد . وبلغ هذا الأمير سمرقند فقبض على خسرو سلطان أميرها وسار به مع جمع من أعيان المدينة واستولى على متاعهم كله . واذ كان عبد الله ذياك الوقت مع جيشه في خراسان فلم يكن أمامه بذلك الا أن يتميز غيظا ويتحمل هذا العمل في صمت بعض الوقت ، ليتسكن من بعد ذلك بيضع سنين من أن يطرد بابر خان هذا من بلاده عام ٩٨٣ (١٥٧٧) ويرغمه على الارتداد عبرسيحون وقد شاعت الفوضى في جيشه . وتهادن الطرفان ولكن الهدنة لم تطل بينهما ، اذ قدم بابر بعد ذلك بسنوات يغزو البلاد من جديد ، واضطر عبد الله الى أن يشتبك معه في الحرب تبعا لذلك . ووقعت المعركة الحاسمة بين الطرفين عند آق قوتل (التل الأبيض) ، وفيها هزم بابر خان هزيمة تامة وانطلق عبد الله في اثره يطارده في منطقة السهوب حتى ألغ طاع (الجبل الكبير) ، فأقام عنده نقشا تذكاريًا في مواجهة النقش الذي أقامه تيمور هناك من قبل تذكارا لاتتصاره على تختمش . وعلى هذا النصب سجل عبد الله انتصاراته المختلفة على نهج ما كان يفعله الفاتح التتري الكبير .

وبهذا لم تخضع فرغانه كلها في الشرق للشيبانيين فحسب بل وخضعت لهم كذلك كاشغر وختن . أما الجنوب فقد تعرض لهجمات متوالية من أسرة بابر (١) ، من ناحية ، ومن الصفويين من ناحية أخرى ، وكان كل فريق يطمع في الاستيلاء على بلخ .

(١) كان بابر خان بن براق خان هو آخر أمير في أسرة مغولية مافتيء رؤساؤها ابتداء من أيام قايدو ، اى منذ عام ٦٦٥ (١٢٦٦) حتى عام ٩٨٦ (١٥٧٨) ينتهزون كل فرصة تسنح لهم ، حين تضطرب الامور ببلاد ما وراء النهر ، فينفذون الى هناك بدعوى الدفاع عن حقوق فرع بعينه من اسرتهم بخاصة ، بازاء الحكام من بيت الجغتائيين ، وعن حقوق الجنكيزيين جميعا بعامة . وضعفت قوتهم وقتا ما بسبب حروب تيمور من الجته . على أن ساعدهم ما غدا ان اشتد من بعد ذلك أيام خلفائه وكسبوا الى صفهم في ذلك القلموق والقرغيز . وعظم شأنهم عند طشقند أيام أبى سعيد حتى تزوج ابنه عمر شيخ ميرزا من ابنة زعيمهم يونس بك فولدت له بابر الشهير (يقصد المؤلف ظهير الدين محمد بابر الذى أقام الدولة المغولية بالهند عام ٩٣٢ هـ ، وهو غير بابر خان بن بروق خان =

ومع هذا كله فقد بلغ الأوزبك من القوة اذذاك ما لم يبلغوه حتى في عهد الشيبانيين الأول ، وامتنعت حصون بلخ على أعدائهم ، كما استطاعوا أن يلحقوا كذلك طخارستان وبدخشان ببلاد ما وراء النهر ، فعادت بذلك مياه مرغاب الخضراء المتألثة حدودا لتوران من جديد . كذلك كتب لعبد الله النصر مرة أخرى في الغرب برغم تحالف الإيرانيين والخورازميين عليه ، فسقط على استرباد واستولى عليها كما اضطر أمير جيلان ، وكان حليفا لمراد الثالث ، أن يلجأ الى القسطنطينية . وبهذا بلغت حدود دولة الشيبانيين في هذا الاتجاه ما لم تبلغه من قبل . وكانت حروب عبد الله أول الأمر مجرد غارات ، أى « عِلْمَانَات » كما يسميها التركمان ، ذلك أن طهماسب كان قد تعجل الصلح مع السلطان سليمان عام ٩٦٩ (١٥٦١) بسبب فرقه الشديد من الأوزبك ، حتى يفرغ بذلك الى حماية حدود ولاياته الشرقية منهم ، دون أن يذهب معهم الى أبعد من ذلك . وما غدت ايران بعامة وخراسان بخاصة أن سادتهما القوضى بعد موت طهماسب الى أبعد حد وذلك بسبب سوء حكومة أبنائه ، فأخذ جند الأوزبك يتدفقون على المناطق الشمالية منها من جديد ، حتى لم يستطع محمد ميرزا نفسه (ابن طهماسب) عام ٩٧٤ (١٥٦٦) أن يفلت الا بمشقة من الوقوع بأيدي جموعهم التي كانت تعيث في الأرض فسادا ، وكان هذا الأمير اذ ذاك في طريقه الى هراة ومعه خمسة عشر ألفا من الجند ، فلاذ بهم بحصن تربت حيدرى بعد عناء شديد ، ولم ينج كذلك من الأسر هناك الا بعد صراع عنيف .

ونشبت الحروب العنيفة بايران بسبب تنافس الأمراء الإيرانيين على العرش فمهد قيامها الطريق لأطماع عبد الله ، واتهز الأوزبك فرصة اشتغال الشاه عباس المعروف بالأكبر بصراعه مع غريمه خدا بنده ،

= المترجم) . وحين اضطربت الأحوال في عهد الشيبانيين ، استولى هؤلاء على خوقند ، واضطر شيباني على ما ذكرنا من قبل الى حرب محمود خان ابن يونس خان ، وبعد أن هزمه حاول ابنه براق ومن بعده حفيده بابر خان بن براق أن يستعيدوا لأسرتهم عبثا مجدها الضائع .

فاستولوا على حصن هراة بعد أن ضربوا الحصار عليه شهورا تسعة ، وقتلوا في هذه الحرب على قلى خان شاملو نائب الشاه بخراسان وكثيرا من الأمراء الآخرين ، وسيق عدد من الأهلين أسارى الى بخارى ، كما تعرض القسم الشمالى الشرقى من ولاية خراسان الى أشد ضروب الدمار والخراب كذلك .

وفى هذه المناسبة نهض القائمون على ضريح الامام الرضا (١) ، — وكانوا يتولون فى الوقت نفسه ادارة جبوس كثيرة لهذا المقام العلوى من حقول وبساتين وكروم وغير ذلك — فكتبوا الى عبد الله يسألونه كيف تسمح له مشاعره الدينية أن يدمر ممتلكات الامام فيقضى بذلك على موارد يعيش من فيضها آلاف كثيرة من الحجاج الأتقياء وفيهم كثير من أهل السنة .

هنالك انبرى للرد عليهم من كان بمعسكر عبد الله من شيوخ أهل السنة ، فحملوا بعامة على الشيعة حملة شعواء طويلة واحتجوا فى ذلك بأن أصحاب هذا المذهب هم على مقتضى أحكام السنة أشد كفرا من المشركين الذين أمر الله بقتلهم والقضاء عليهم :

« فاذا كان فرضا على كل مسلم أن يقاتل المشركين ، فأولى به أن يحاسب الذين حادوا عن طريق الحق . وهم — أى الشيعة — برغم

(١) يعد مقام الامام الرضا أغنى المزارات جبوسا فى فارس ، ولم تكن أوقافه تضم أسواقا بأكملها وشوارع فى مدينة مشهد التجارية المشهورة فحسب ، بل كان له كذلك بظاهر المدينة وبأجزاء أخرى من خراسان كثير من الحقول والبساتين ومنازل المسافرين . ومن دخلها كان ينفق على مطبخ « مولانا » فيصيب كل قاصد اليه وجبات من الارز واللحم والخبز أيا ما ثلاثة بالمجان . وأهل البلاد يذكرون الامام باسم « مولانا » وكأنه لا يزال على قيد الحياة ، ويتبع ضريحه كذلك حمام بالمجان ومصنع للصابون ومئات من المقاصير وغير ذلك مما ينتفع به الحجاج اليه وللأثرياء وحدهم أن يدفعوا نذورهم بضريحه مختارين . والامام يقوم بضيافة الفقراء على نفقته لهذا يعرف باسم « سلطان الغرباء » .

صلتهم بذلك الولي الذي ترقد عظامه بين ظهرانيهم ، قد سقطوا في حماة الضلال المبين » .

أما بشأن ما وجه الى الأوزبك من اللوم على تخريب حقول الامام الرضا وبساتينه ، فقد ردوا عليه بأنهم يعلمون حق العلم أن هذه الحبوس موقوفة على نواحي البر عند مقام الامام ، على أن أساس المسألة هو من يكون له حق الافادة من هذه الحبوس ، أولئك الذين يجاهدون في سبيل الله ونصرة الحق وقد تجردوا من حب الدنيا ، أم أولئك الذين أجرموا في حق الله وتناولوا بالسب واللعن أعظم حماة الدين (١) .

وكان شيوخ الشيعة بدورهم على استعداد للرد على هذا القول بطبيعة الحال فاقترحوا في لباقة عقد ندوة عامة نصفها من أولئك والنصف الآخر من هؤلاء ، لينظروا فيما اذا كان الشيعة يعدون حقا من الخارجين على الدين لمجرد اعلانهم ان الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول مغتصبون ، ولأنهم يؤكدون حقوق على في الخلافة . وكان هؤلاء يحتجون كذلك بأنهم اذا كانوا يعدون بمذهبهم من الخارجين فكيف رضى الامام الرضا بالنزول عندهم ولم يتجه الى بلاد ما وراء النهر ، الى غير ذلك من الحجج التي كانوا يقولون بها .

ولم ينته هذا الجدل الى نتيجة معينة على أية حال . ولم يتح لهذه الندوة من شيوخ الشيعة والسنة أن تجتمع الا بعد ذلك بمائة وخمسين عاما حين عقدت بمدينة بغداد بأمر نادر شاه (٢) . وفيما كان هذان الفريقان يتباريان بالأقلام لحسم الخلاف في مسألة الشيعة التي عجز

(١) يشير الى الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول : أبو بكر وعمر وعثمان وهم الذين يعدهم الشيعة مفتسين لحق على في الخلافة .

(٢) يرى الفرس المحدثون أن نادر كان سنيا في قرارة نفسه . وقد بلغ من بعد نظره أن أدرك مدى الخطر الذي يتهدد الاسلام من هذا التشيع فأراد أن يضع حدا لهذه القضية ، فدعا الى انعقاد ندوة ببغداد ، وإن لم ينته الحال الى نتيجة ، وذلك بسبب ما كان يكنه كل فريق للآخر من كراهية وعداء شديدين .

السيف لقرون طويلة فى القضاء عليها ، زحف الشاه عباس الشاب بجيشه من قزوین فى حين ارتد عبد الله الى بخارى بطريق مرو .

وقد قصد عباس بصنيعه هذا ، كما يلاحظ مالکولم بحق فى كتابه « تاريخ فارس » ، الى تدعيم نفوذه أصلا ، ولم يكن من أهدافه طرد الأوزبك أو غزو بلادهم . ذلك أنه لم يمكث بمشهد الا فترة قصيرة أسرع من بعدها الى جورجيا حيث كان العثمانيون قد أخذوا يتهددونه بالعدوان حتى أنزلوا به الهزيمة بالفعل . وعلى ما كان يجرى عليه الحال فى الغالب فيما سبق ، فان انتصار العثمانيين فى الغرب سرعان ما تردد صداه فى الشرق ، فلم يكد عبد الله تبليغه هذه الأخبار حتى شرع فى محاولة ثانية لفتح مشهد ، وقد سير على مقدمة جيشه ابنه عبد المنعم خان نائبه على بلخ .

وكان عبد المنعم هذا محاربا غنيا قاسيا شديد الطموح ، وقد أسرع فى زحفه ومعه عمه دين محمد فى قوة كبيرة انضم اليها قتل بابا كوكلتاشى تابع عبد الله المخلص وحاكم هراة . ووقع أول هجوم لهم على نيسابور ، وفيه سقط فى الأسر نفر من الأوزبك كانوا قد خرجوا فى مهمة استطلاعية . وحين أطلق سراحهم من بعد ذلك أوضحوا لقائدهم الشاب أن نيسابور هى فى الواقع جزء من جبهة مشهد وأن استسلام هذه المدينة يؤدى حتما الى سقوط المكان الأول .

هنالك اتجه عبد المنعم بكل همته الى مشهد فلم ييخل بأى جهد أو تضحية فى سبيل إخضاعها .

وبذل قائد حصن مشهد أمت خان استاجلو كل ما فى وسعه ليصد هجوم العدو عليه ، لولا ما كان من شيوع الذعر فى المدينة ، اذ كان قد لجأ اليها كثيرون من سكان الريف على قلة ما كان بها من المؤن ، فجاءت المجاعة بذلك فى صالح الأوزبك ، واستسلمت مدينة الشيعة المقدسة هذه لهم فى أول هجوم وقع عليها وسقطت بأيديهم كل أموالها وآثارها وأسواقها الغنية .

وحين دخل جند عبد المنعم المدينة وجدوا أهلها رجالا ونساء ومعهم العدد الكبير من الشيوخ والعلماء ، وقد تكدسوا جميعا فى الساحة الخارجية لمقام الامام الرضا ، وقد أملوا أن تعصمهم حرمة المكان من كل خطر قد يتعرضون له . لكن الأوزبك ما غدوا ، وهم فى نشوة النصر ، أن اندفعوا يعملون التدمير والتقتيل فى كل ما يصادفهم فى طريقهم ، فلم ينج من سيوفهم حتى أحفاد الامام الرضا نفسه ، وكانوا قد لجأوا الى ضريح جدهم ، فقتلوه دون أن تأخذهم بهم أدنى شفقة أو رحمة .

ويقال ان عبد المنعم نفسه كان بدار على شيرنوائى يطل منها اذ ذاك على رجاله وهم يعملون سيوفهم فى الأطفال والشيوخ وعامة الناس والعلماء دون تمييز ، فلم يحرك من مشاعره صيحات ألوف الضحايا ولا منظرهم وهم يعانون سكرات الموت ، ولم تجر الدماء فى الطرق العامة فحسب ، بل تلطخ بها كذلك أقدس مكان فى المسجد والضريح نفسه . وما نزل بمقام العلوى من الخراب حين استبيحت المدينة كلها كان أشد مما نزل بأغلب أحيائها الأخرى .

وسقط بأيدي الغزاة كل ما كان بهذا المقام من هدايا الحجاج الأتقياء التى ظلت تتكدس هناك مدى قرون ثلاثة . ومن بينها ثريات ضخمة من الذهب والفضة ومجموعات من الدروع والمعادن الثمينة تزينها الى درجة فائقة الأحجار الكريمة النادرة والأزرار والجمانات وغير ذلك من الجواهر . وأثنى من هذا كله المكتبة الفخمة وما كانت تحويه من نسخ للقرآن الكريم ممتازة وأمشاق الخطوط وهدايا السلاطين السابقين . وقد نزل الدمار بهذا كله ففضى عليه قضاء تاما . ولم ينج حتى الأموات من نقمة الغزاة السنين ، فنش قبر طهماسب ، وكان مثواه

(١) على القارىء ان يرجع الى كتابى « رحلات ومغامرات فى فارس

«Wanderings and adventures in Persia, Pesth 1867 p. 142

ففيه وصف قريب لما كان هناك من نفائس مجموعة. هذا وتعد مدينة قم دون مشهد بكثير فى أهميتها ، ويجب الا ننسى أن « تيمور » كان قد عنى عناية كبيرة بتعمير مقام الامام الرضا وافاضة الأبهة والفخامة عليه .

الى جوار مقام الرضا ، وذر في الريح ما بقى من أشلائه مصحوبا
باللعنات .

وأراد عبد المنعم أن يكسب ود عدو سنى آخر من أعداء الصفويين
حين ينهى اليه بفعلته هذه ، فبعث بحاجبه محمد قلى الى مراد الثالث
بالقسطنطينية يحصل اليه رسالة منه وصف له فيها انتصاراته بخراسان
بأبلغ عبارة ، وبين له فيها كذلك ما فعل بأشلاء طهماسب ، ثم سأله من
بعد ذلك العون اذ ينتوى الخروج وشيكا الى العراق ليقضى القضاء
المبرم على أصحاب مذهب الشيعة أهل الشرك .

ولم يكتب النجاح لهذه الخطة لسببين :

الأول : ان العثمانيين لم يتغافلوا عن شد أزر أحلافهم في المذهب
بالشرق القصى فحسب ، بل ذهبوا في الواقع الى النقيض من ذلك
كذلك ، فوعدوا الفرس ببذل العون لهم حين باتوا يرون في انتصارات
عبد الله هذه ما قد يتعارض ومصلحتهم .

أما الأمر الثانى ، فهو أن الشاه عباس كان قد أقعده المرض وقت
أن استباح الأوزبك «مشهدا» ، حتى اذا أبل من مرضه أخذ يبذل غاية جهده
لتوفير وسائل الدفاع عن بلاده . وكان عبد الله على كل حال قد تم له
النصر وصار فى حوزته جزء كبير من خراسان يضم هراة ومشهد
وسرخس ومرو وخواف وجام وفوشنك والغور ، وقد احتفظ بهذا كله
فى الغالب حتى آخر حياته .

بلغ عبد الله ذروة مجده بفتح خراسان . وبرغم نشاطه الحربى الطويل
واتصاراته المتصلة ببلاد ماوراء النهر ، فمن الملاحظ على وجه اليقين أنه
ظل لا يستقل بحكومة بلاده حتى ذياك الوقت . ولقد ذكرنا من قبل أنه بعد
مغامراته الأولى ألقى بمقاليد الحكم الى أيه اسكندر خان ولكنه لم ينعم
بذلك طويلا على ما يظهر . ذلك أنه برغم امتداد الأجل به حتى عام ٩٩١
(١٥٨٣) فان التاريخ يذكر لنا جملة من الحكام الآخرين غير الذين
جلسوا على عرش سمرقند فأجريت الخطبة والسكة باسمهم مما يقوم دليلا

على استقلالهم بالحكم . وكان من بين هؤلاء خسرو سلطان الذي هزمه
 بابر خان حين قدم من طشتند فغزا بلاد ما وراء النهر عام ٩٧٥ (١٥٦٧)
 وأوقعه في أسره ثم قتله . وخلف خسروا هذا السلطان سعيدا أحد أبناء أبي
 سعيد وحفيد كچكونجى ، وقد حكم خمس سنوات عنى فيها برعاية
 العلوم ، وبذل كثيرا من الجهود فى تجميل سمرقند ، ومات عام ٩٨٠
 (١٥٧٢) فخلفه أخوه جوانمرد على بهادر . وفى عهده بدأ عبد الله خان
 يتدخل فى شئون سمرقند الداخلية لأول مرة ، وذلك بسبب الحوادث
 التالية :

كان لجوانمرد ولدان هما أبو الخير سلطان ومظفر سلطان ، وكان
 يتحاربان على الدوام . وحدث أن دعا أبو الخير الى بلاده بابر خان ليعاونه
 فى حربه مع أخيه ، وكان هذا الأخ على مودة مع عبد الله ، وبرغم هذا
 فقد نزلت به الهزيمة . هنالك سارع جوانمرد والد هذين الابنين المدللين
 الى مناصرة ولده المهزوم ، ليرى عبد الله عند ذلك أنه لاسبيل له للقضاء
 على هذه الفتنة الا بالتخلص من الأب الشيخ وولديه معا . فأمر جوانمرد
 وابنه مظفر ثم قتلها بسمرقند . ولقى أبو الخير المصير نفسه بعد ذلك
 بقليل .

وحين تم لعبد الله القضاء على الحكومة الثنائية ببلاد ما وراء النهر
 بايعة قومه عام ٩٨٦ (١٥٧٨) ببخارى سلطانا مستقلا على توران كلها (١)
 ..ولا نفهم كيف لم يقبل هو على هذه الخطوة من قبل ، فقد كتب له
 النصر فى شمال بلاد ما وراء النهر وفى شرقها وغربها ، وصارت له السيادة
 التامة على كل خراسان وطبرستان تقريبا . فلم يكن ليعسر عليه يقينا
 . والحالة هذه أن يستحوذ على اقليم سمرقند الصغير المزعول قبل ذلك
 بزمان طويل . ولم يمنعه عن ذلك ضعف فيه بطبيعة الحال ، وانما كان
 تغاضيه عن ذلك رعاية منه لأقربائه الأقربين فضلا عن مقته للمنازعات

(١) بهذا لم يعد له الا خصم واحد هو عبد السلطان بن عبد اللطيف،
 وكان قد جهر بالعصيان فى اقليم زمين . وقد هزمه عبد الله فى معركة
 مكشوفة حتى ارتد الى تلال حصار ، ولكنه سار فى أثره حتى وقع أخوه
 الأمر بيده فقتله عام ٩٨٨ (١٥٨٠) .

العائلية ، حتى سلك معهم سبيل المودة مع ماجبل عليه من القسوة والعنف ، وقد سلك المسلك نفسه مع أخيه پير محمد ، وكان قد خلف كيستن قرا سلطان بن جاني بيك على حكومة بلخ ، وظل يحكم مستقلا هناك حتى مات عام ٩٧٤ (١٥٦٦) . ولم يكن عبد الله خان ليعارض في الاعتراف بدين محمد خان ابن أخيه پير محمد خلفا لأبيه لولا ما كان من اصرار ابنه عبد المنعم على أن تكون له كل الأقاليم الواقعة على ذلك الشاطئ من جيحون ، وقد لاحظنا من قبل ماكان عليه هذا الأمير من ميل الى القسوة والوحشية . ولم يكن دين محمد ليرضى بهذا الأمر فعارضه ، حتى اذا ما تقلد عبد المنعم حكومته الجديدة ألقى القبض عليه وعلى كبار رجال دولته وأمر بقتلهم جميعا مما أثار عليه سخط أبيه .

وكان صنيع عبد المنعم هذا بمثابة نقطة سوداء في تاريخ هذا الشيباني المجيد ، فلقد كلف عبد الله بحب ابنه هذا حتى ذهب في سبيل ارضائه لأطماعه التي لا حد لها بأن جعله يتخذ لنفسه لقب الخان ، بوصفه وريثا للعرش ، وكان هذا اللقب لا يحمله عموما الا الحكام الترك أنفسهم (١) فكان الأب يلقب بلقب ألتغ خان (أى الخان الكبير) والابن بلقب كچوك خان (أى الخان الصغير) . ولم يقنع عبد المنعم بهذا كله فانطلق بعصباته من الفرسان الشرسين يجتاحون التلال والوديان شمالا وجنوبا وغربا ، ينهبون ويسلبون . ووافق انغماس عبد المنعم في هذه المعارك المستمرة سياسة أبيه عبد الله في خراسان فلم يمنعه لذلك عنها ، فضلا عما كان يرتاح اليه عبد الله حين كان يستمع الى القوم وهم يشيدون بذكر بطولة ابنه وشجاعته .

وسرعان ما غر عبد المنعم انتصاراته هذه فبدأ ينازع أباه سلطانه ، فلم يمض وقت طويل حتى انطلق يعاديه في العلن . وكان أول أسباب هذا النزاع مطالبة عبد المنعم بتوحيد كل مناطق جيحون الدنيا الشيبانية تحت سلطانه ، حتى رغب في سبيل تحقيق غرضه هذا الى اخراج قل بابا

(١) النص هنا على « حكام الترك » ذلك أن هذا اللقب يحمله الأمراء بفارس أيضا ، وهو في تركيا وقف على السلطان .

كوكلتاش من هراة ، وكان هذا الشيخ تابعا وفيما لعبد الله وزميلا قديما له عليه أياذ كثيرة . ورفض الأب بطبيعة الحال أن يصفى لمطلب ابنه هذا ، حتى اذا ما تم لعبد المنعم هزيمة الأمير الخوارزمي نور محمد (١) وصار له من بعد ذلك عشرون ألفا من الفرسان يأترون بأمره ، شرع يهاجم بهم قل بابا كوكلتاش ، فأمر عبد الله عامله هذا على هراة بألا يتردد في مقاومة هذا الأمير النائر وحربه وكأنه عدو غريب عنه . كان في هذا الأمر الكفاية ليشير ثائرة الابن العنيد فيجهر بالخروج على أبيه . وفيما كان عبد الله يروح عن نفسه بممارسة الصيد أقبل عليه شاه محمد أحد الأعيان ممن كانوا في حاشية عبد المنعم فأفضى اليه بأن سيده يتقدم في فريق من جنده ، والعدوان في نيته . هنالك سارع عبد الله بالعودة الى بخارى ، وقد غلب عليه السخط والخوف . والغالب أن عبد المنعم قد ندم بعد ذلك على فعلته هذه فرجع الى بلخ . ولم تلبث المصادمات الحربية أن وقعت بين الفريقين فيما بعد على أية حال . ولم يقف الحال بهذا الشيباني القوى عند حد تنكر ابنه له فحسب ، وهو ما كان يحز في نفسه حزا شديدا ، بل انه أصيب كذلك بخيبة أمل جديدة حين تكشف له أن حروبه الطويلة المضنية التي كان قد خاضها عند الشمال من دولته لم يستطع أن يبلغ بها الى ما يريد . فقد جاءت الأنباء أولا باندهار واحد من خيرة قواده اندحارا تاما على يد احدى قبائل القالموق ، وأن الفرس ، أعداءه القدماء ، وهم الذين طالما أوقع بهم الهزيمة ، قد انطلقوا كذلك يقضون بدورهم على الثمار التي جناها من وراء حروبه الطويلة عند الغرب من دولته .

هذا وقد تحدثنا من قبل عن قيام التحالف بين أمراء خوارزم وسلطين ايران . وكان هذا التحالف نتيجة طبيعية لسياسة العداء التي كان ينتهجها الشيبانيون تلقاء خوارزم . فبرغم أن الطبقة الحاكمة كانت في كلا البلدين من الأوزبك ، فان هذا الاقليم الصغير الذي يقع عند

(١) ولد نور محمد أمير خوارزم لامة من اماء ابو سلطان ، وكان قد استرد مرو بوصفها من أملاك أبيه . وقد تحالف مع الشاه عباس بعد موت عبيد الله خوف الأوزبك . وبرغم ذلك فقد هزمه عبد المنعم حتى لجأ عند الشاه عباس . ودب الخلاف من بعد ذلك بينه وبين الشاه عباس فقبض عليه حيث مات في حصن اصطخر .

حوض جيحون الأدنى قد عانى كثيرا على أيدي بخارى وهى أوسع منه رقعة وأعظم وأقوى . وكان خانات البيت الشيبانى يتطلعون على الدوام الى ضم هذه الامارة الى ملكهم عنوة ، فكانوا ينتهزون كل فرصة تواتيهم فيسقطون على مدن هزاراسب وخيوك (خيوة الحالية) وكت ووزير وأورغنخ ويحتلونها . وقد بقى نفوذهم هناك قائما مابقيت قواتهم بها بطبيعة الحال .

وحين اضطر عبد الله الأمير الحاكم هناك (هاجم خان) الى أن يلوذ بالشاه عباس وذلك بسبب ماكان يرتكبه من ضروب القسوة والانتقام التى لم يسمع بها من قبل ، جاء ذلك ايذانا بزوال سلطان بخارى على خوارزم . ذلك أن الشاه عباس وجد بين الرعايا التركمان فى خوارزم أعوانا جديرين بالوقوف فى وجه أوزبك بلاد ماوراء النهر ، فاستطاع بعونهم ، حتى قبل موت عبد الله ، وذلك عام ١٠٠٤ (١٥٩٥) ، لا أن يسترد : مشهد ومرو وهراة القوية فحسب ، بل ويستولى كذلك على أغلب بلاد ما وراء النهر على وجه التقريب . وأدى انهيار آمال عبد الله مع عقوق ابنه له الى أن استولى اليأس الشديد عليه ، فوافته منيته ببخارى بعد مرض قصير فى الثانى من رجب عام ١٠٠٦ (فبراير ١٥٠٧) ، وهو فى الثامنة والستين من عمره ، بعد أن حكم أكثر من أربعين عاما ببلاد ما وراء النهر كان فى أولها نائبا للسلطان ثم سلطانا ، وقد ترك من ورائه حسن الذكر حتى لايزال اسمه يتردد على لسان كل بخارى الى اليوم .

وكما يعترف الفرس المحدثون بفضل الشاه عباس الأكبر فى اقامته منازل التجار الجميلة والجسور وصهاريج الماء وشقه الطرق عبر الصحور وغير ذلك من المنافع العامة ، التى عمرها لهم أسلافهم ، ماضل منها قائما حتى اليوم أو ما امتدت اليه يد الخراب ، فكذلك يرى البخاريون اليوم فى كل أثر من آثار القرون الماضية دليلا ينطق بما كان عليه عبد الله خان من جود وسخاء . وتقول الرواية ان معمار عبد الله خان سئل ذات يوم عن عدد المنشآت التى قام على تنفيذها لسيده ، فأجاب بأنها كانت فى مجموعها ألف منشأة ومنشأة من المساجد والمدارس والخالآت

(كروان سرايات) والحمامات ودور الشفاء والجسور وصهاريج الماء . وقد تم ذلك كله ولما يكن حكمه قد انتصف بعد . وما يثير الإعجاب في الواقع أن نرى عبد الله مع حروبه المتصلة لا يهتم بشئون حكومته الداخلية . ومهما يكن من أمر الثناء المبالغ فيه الذى يضيفه عليه سكان بخارى وسمرقند ، فالثابت المحقق أن التجارة والزراعة والعلم قد وجدت هذه جميعها فيه راعيا قويا مستتيरा ، فلم يدانه أى شيىائى آخر من قبل فيما كان يبذله من جهود قوية لنشر الثقافة بين بنى قومه والعمل على رفاهيتهم وما تزال مدارسه التى أوقف عليها الجبوس الكثيرة تزخر بالطلاب ، وما تزال الرياض التى تعرف باسم (جهارباغ) ، وهى التى أنشأها فى بخارى وسمرقند وكرمينه ومشهد (١) ، أحب الأماكن الى الناس يأوون إليها من حر الصيف ويتفياون ظلالتها . وأجمل جزء باق من سوق بخارى هو الذى بناه عام ٩٩٠ (١٥٨٢) . كما يعد الجسر الجميل ذو الأبراج الأربعة على زرفشان عند كرمينه هو المعبر الوحيد بين الشاطئين فى الغالب . وذلك أن الجسور الأخرى التى كان قد أقامها على هذا النهر تهدمت جميعا اما بفعل فاعل واما بطول الزمن . وقد أمر هذا الأمير كذلك باقامة معالم من الحجارة على طول الطرق ببلاد ما وراء النهر ، ونظم سبل المواصلات بين مختلف أجزاء بلاده ببريد حسن ، وأشاع الطمأنينة فى حياة الأهلىين وفى حركة التجارة بدرجة لم تعرف قط من قبل (٢) . ولاعجب اذن أن شاعت شهرته وذاعت حتى وفد اليه السفراء من الصين (٣) محملين بالهدايا الثمينة يلقون اليه بالمودة ، وبعث اليه السلطان مراد الثالث يعرض

(١) الظاهر أن الأوزبك كانوا يشعرون باستقرار الأمر لهم فى مشهد ، فشرع عبد الله يقيم بها بعض الحداثق العامة التى فرغ من انشائها عام ١٠٠٤ (١٥٩٠) ، كما شيد بها كذلك خانا (كروان سراى) لا يزال يعرف بها حتى اليوم باسم « خان الأوزبك » .

(٢) كان أشد ما نزل ببلاد ما وراء النهر فى عهد عبد الله خان هو ذلك الوباء الذى حل بها عام ٩٩٩ (١٥٩٠) فتفشى بين الناس أول الأمر ثم تعداهم الى الحيوانات المستأنسة فأهلك الكثير منها .

(٣) يذكر تاريخ مقيم خانى ، الذى نقلنا عنه ذلك ، أمير المنفوت وهو خطأ فى الهجاء فى الغالب ، والصحيح هو التانفوت ، وهو اللفظ الذى كان يطلقه اذ ذاك سكان أواسط آسيا على الصين والتبت .

التحالف معه ، كما أوفد اليه كذلك خان القرم وفودا خاصة لتنهته بما حصل عليه من انتصارات ، حتى ليصح أن يقال عن عهده انه كان يحق آخر مظهر من مظاهر المجد الذي كان يحيط بعرش بلاد ما وراء النهر من حين الى آخر .

وعلى ما علمناه من صفات عبد المنعم نستطيع أن ندرك مبلغ سرور هذا الولد العاق عند استيلائه على عرش أبيه بعد موته ، وضروب الفعال التي افتتح بها حكمه . فلقد بدأ أولا بصب جام نغمته على الرجل الوقور قل بابا كوكلتاش أحد أتباع أسرته المخلصين ، وكان الناس يوقرونه لما كان يتحلى به من الفضائل الكثيرة ، فأسره بهرة وسيره على الأقدام في ركابه مثقلا بالسلاسل والأغلال . ودخل عبد المنعم بخارى وأسيره معه فأسرع الناس يرحبون بمقدمه ، فرقا منه دون أدنى اعتبار آخر في الغالب . وما أن استولى على كل أموال أبيه في هذه المدينة وفي سمرقند حتى انطلق ومعه جلاده يزور بنفسه كل الأماكن التي كان يضطلع بالحكم فيها عمال أبيه القدماء ، فيكافئهم على اخلاصهم في أعمالهم بالموت . فعل ذلك في اراتيه وفي خجند وطشقند . وفي هذه المدينة الأخيرة أمر بقتل كوكلتاش مع أقربائه الأقربين ثم سار من بعد ذلك الى أندجان وأخشي ليلقى القبض على ابن عمه أوزبك خان (١) وكان قد تولى حكومة هذه المنطقة . وعمد هذا الأمير الى المقاومة ، ولكن الأجل ما لبث أن وافاه بعد أيام قليلة من ضرب الحصار عليه . وبهذا حقق عبد المنعم هدفه ففعل راجعا من حيث أتى . وحين سار في مذابحه هذه دون تحفظ شاع الخبر بين الناس بأنه لن يهدأ له بال حتى يقضى على كل أتباع أبيه الأوفياء وأصدقائه . هنالك نظر هؤلاء في ذلك الخطر الذي يهددهم فأجمعوا أمرهم عند ذلك على أن يدفعوه عنهم تخلصا من ذلك السفاح المستبد . وتزعّم هذه المؤامرة جندي قديم من أصل قزاقى يدعى عبد الوصى بيك فاقترح قتل عبد المنعم وخاطب قومه في حزم وقال لهم : « لا جدوى من الكلام دون العمل » . وطفق هذا الزعيم يختبر من بعد ذلك مدى ما عليه

(١) هذا الأمير هو ابن أخى عبد الله خان .

أصحابه من شجاعة بأن أخذ يتحسس بيده قلب كل واحد منهم فى اجتماع سرى ، ثم أجريت القرعة بينهم لاختيار من يعهد اليه بهذه المهمة .

ووقع هذا القتل فى شهر يوليو ، وفيه كان عبد المنعم لايسافر الا ليلا اتقاء الحر . فكس له المتآمرون فى الظلام ، فى ممر يقع بين اراتيه وزمين على طريق عودته من سمرقند . وترك المتآمرون قسما كبيرا من الجيش يعبر هذا الممر ، حتى اذا بلغ الخان ، ومعه حملة المشاعل ، أضيق موضع فيه ، وكان لايتسع بالكاد لمرور فارسين معا ، انهالت عليه السهام فسقط على الأرض بلا حراك . هنالك برز من اختاره المتآمرون من بينهم فقطع رأسه وقتل مرافقه الذى كان يسير فى اثره .

حدث هذا كله فى سرعة خاطفة ، فلم يكتشف القوم الحادث الا عند الفجر ، حين أقبل بعض من كان قد ضل الطريق من جند المؤخرة فوطئوا جثث القتلى ، فلفت نظرهم تلك الجثة المقطوعة الرأس وعرفوا فيها أميرهم من ثيابه .

هكذا انتهت تلك الأشهر الستة التى حكم فيها عبد المنعم خان (١) ، ذلك الحاكم الذى عرف ، مع قدرته ، بالقسوة والصلابة والميل الى ارتكاب المظالم . وبه ختم حكم الشيبانيين الذين ظلوا على عرش بلاد ما وراء النهر مائة عام كاملة . ذلك أن هذا الأمير كان آخر الأحياء من أبناء عبد الله . ولا يستعصى على الأذهان تمثل مدى الفوضى التى عمت البلاد من بعده . ذلك أن أرملة عبد الله أتت بولد آخر له كانت لاتظهره من قبل الا فى ملابس الفتيات وأرادت أن تجلسه على العرش . وكان هناك بالفعل من لايعارض فى ذلك لولا أن شاع الانقسام بالبلاد الى

(١) كان لعبد المنعم خان بعض الفضل اذ استمر فى تعمير بلخ . والظاهر أن كيستن قرا سلطان الذى كان يحكم هناك من قبله كان قد اكتفى بتجديد القلعة التى بنيت أصلا زمن أبى سعيد ، وتعرضت من بعد ذلك اثنتا عشرة مرة للدمار حتى جدها هو آخر الأمر . واهتم عبد المنعم كذلك اهتماما كبيرا بهذه المدينة وكان الخراب يشمل نصفها حين استولى عليها ، فلم يمض من ذلك ستة أشهر حتى كان أغلبها قد تجدد ، فالقباب الجميلة التى يكسوها القيشانى ومدخل القصر الدقيق وسوق بابا جانباز وضريح على ، هذه جميعا هى من آثاره (تاريخ مقيم خانى) .

درجة استحالة معها تحقيق هذا الأمر . فقد ذهب فريق ثان ينادى بتنصيب طفل لعبد المنعم في الثانية من عمره ، في حين رغب فريق ثالث في المناداة بالشيخ بيير محمد خان وكان آخر من بقى على قيد الحياة من اخوة عبد الله ، وكان ادمانه على تعاظم الأفيون قد حط من قواه العقلية ، كما ناصر فريق رابع صهرا لعبد الله . وكان كل فريق من هؤلاء يكن أشد العداء لأخيه .

وفىما كانت هذه الأحزاب في صراعها يحاول كل واحد منهم أن يقضي على من عداه ، كان الأعداء عند الحدود يترقبون الفرصة المواتية لاسترداد ما كان عبد الله قد سلبه منهم من أراض .

كان الشاه عباس أول من شرع في ذلك بتشجيع من منجمه الذي تنبأ له بنبوءة مواتية ، فزحف في أربعين ألفا من الشيعة المتعطشين للدماء استولى بهم في أول هجمة له على سبزاور ومشهد ثم على هراة بعد أن أنزل بحشود الأوزبك بها هزيمة حاسمة في معركة دامية . هذا في حين تمكن أمير القزاق (١) تيكل خان في الشمال من دخول إقليم طشقند ثم تقدم من بعد ذلك ومعه جموع من القالموق والقرغيز والمغول حتى بلغ سمرقند . واستطاع ايشيم بي قائد سمرقند أن يصد الغزاة عن موقعه آخر الأمر ، ولكن بعد أن سقط أربعة من الأمراء الشيبانيين (٢) وكثير من

(١) القزاق (وهم الذين ندعوهم خطأ بالقرغيز) ظهوروا أول ما ظهوروا ببلاد ما وراء النهر كقبيلة مستقلة ، وكان عليهم تيكل سلطان ، ويذكره لوشين باسم توكل سلطان وذلك في كتابه Lewchine, Description des Hordes et des Steppes Kirghiz-Kazaksp141 (جموع قرغيز - قزاق السهوب) والظاهر أن القزاق كانوا مصدر تهديد في السهوب عند الشمال من سيحون من قبل ، فقد تلقى ايفان العظيم عام ٩٤١ (١٥٣٤) من مبعوثه دانيلاجويين تقرير يقول فيه : « والزاق ياسيدي ٩٤١ (١٥٣٤) من مبعوثه دانيلاجويين تقرير يقول فيه : « والقزاق ياسيدي على ملابس شديد ، وقد حاربوا طشقند وهزموا أميرها (Lewchine p 140) وقد بعث تيكل برسلى عديدين الى القيصر فيدور في موسكو ، والغالب انه كان أقوى سلاطين القزاق » .

(٢) هذان هما هزار سلطان وبيير محمد سلطان ولدا أوزبك خان ، ثم محمد قلى سلطان بن سليمان سلطان وحفيد جاني بك ، وأخيرا ابن لبائنده محمد سلطان .

اتباعهم . وهكذا بنات هذه البلاد أبعد من أن تعرف طريقها الى السلام
الذى تزغزت أسسه بانقراض أسرة شييانى .

قبل أن أتناول تاريخ الأسرة التى جاءت من بعد ذلك ، وهى تاسع
الأسر التى حكمت بلاد ماوراء النهر ، أحب أن أعطى القارىء فكرة عن
الحضارة فى عهد الشيبانيين الملىء بالأحداث ، وهى فترة تم فيها فصل
العالم الاسلامى الشرقى عن العالم الاسلامى الغربى ، وصار للإسلام
طابعه الخاص الذى لانزال نراه حتى اليوم فيما بين حدود ايران الشرقية
والصين . ولم تبلغ الثقافة عند الشيبانيين مابلغته عند التيموريين ، فهؤلاء
المحاربون الأجلاف ، الذين كانوا يعتقدون بأن فى الحجر السحرى
(يادا طاشى) (١) قوى كامنة تسيطر على العناصر وتشفى الأمراض
وتضمن النصر فى الحرب ، كانوا على استمسك شديد بدينهم وطاعة عمياء
لمشايعهم . وفى عهد الاحتلال المغولى صارت السلطة الفعلية بالبلاد الى
أيدي فئة قليلة من مشاهير الشيوخ كان لهم سلطان روحى كبير حتى
استطاعوا أن يقفوا فى وجه أكثر الحكام استبدادا . ومارسوا ذلك مرة
أخرى عند الشيبانيين فلم يتهافت الأهلون وحدهم على استجلاب رضا
رسل الحكمة الآلهية هؤلاء فحسب ، بل لقد تنافس كذلك الأمراء فى ذلك
بدورهم فيما بينهم . وسواء أكان مرد ذلك الى الوهم أم خوف الرأى
العام ، فمن الواضح الجلى أن أقوى أمراء هذه الأسرة ، لم يكونوا
يظهرون احترامهم لهؤلاء الشيوخ فحسب ، بل كانوا كذلك يبدون لهم

(١) كان هذا هو الاعتقاد الذى ساد فى واقعة جام بخاصة . ويذكر
بابر فى سيرته ص ٥٠ كيف نهض السحرة الى تسخير هذا الحجر عند
شروق الشمس لاشاعة الفوضى فى صفوف الفرس . وبرغم مرور ثلاثة
قرون على اسلام هؤلاء القوم (الصحيح ، أكثر من خمسة قرون : المترجم)
فلا يزال لبدو آسيا الوسطى اعتقاد كبير فى هذا الحجر ، حتى ليحمله بعض
قواد القرغيز والتركمان معهم فى حرص ، ويرون أنه أنجع علاج للسع
الزنبور أو العقرب . وتجد تفصيلا أوسع عن هذا الحجر فى كتاب كاترمير

عن تاريخ المغول : Quatremère : History of the Mongolians

أعمق آيات الخضوع والتبجيل . وكان من بين هؤلاء شيخان لهما مكانة خاصة حتى كانا موضع التقديس في زمنهما .

هذان هما مخدوم أعظم وقاسم شيخ عزيزان . أما مخدوم أعظم ، وهو الذى كان يعرف عادة باسم مولانا حقى الكاشانى ، فقد تتلمذ فى عهد التيسوريين على الصوفى المشهور خواجه أحرار . ويقال انه كان يعيش عيشة زهد تام حتى أتى بالكرامات . وكان يبذل له كل أمراء هصره الاحترام خوف غضبه . وقد مات بسمرقند فى الحادى والعشرين من المحرم عام ٩٤٩ (١٥٤٢) ، وقبره على مسيرة ثلاثة أميال من دهيد (١) . أما قاسم شيخ عزيزان فكان من تلاميذ خداداد ، وقد اشتهر كسابقه بهذه أكثر مما اشتهر بعلمه . وبظهورنا على ماكان يتمتع به من التوقير ، فى أجلى صورته ، ما يحكى عنه بأنه كان يعيش فى كرمينه فى الوقت الذى كان فيه عبد الله خان يحارب جوانمرد أمير سمرقند ، وحدث أن خرج للقاء عبد الله ، وكان على مودة معه ، فما ان ابتعد عن المدينة قليلا حتى شاهد ركبا طويلا وعلى رأسه رجل يسير عارى الرأس وحول رقبتة حبل مقوده بيد فارس ، ولدهشته تبين فى هذا المخلوق ، الذى يمشى ذليلا ، الأمير القوى عبد الله . وحين سأله عما دعاه الى سلوك هذا المسلك أجابه بأنه انما أراد بذلك أن يكفر عن ذنوبه فيسير من خان رباط الى رباط الشيخ على هذه الصورة . هنالك اشتد تأثر الشيخ بذلك فأركب الأمير على فرسه بنفسه وألسه قباه وعادا معا الى كرمينه .

ولقد رام عبد الله من وراء ذلك أن ينال مساعدة الشيخ فى حملته على سمرقند ، وقد تم له بالفعل ما أراد واستولى على هذه المدينة . ومات الشيخ عزيزان بعد هذا الحادث بثلاث سنوات تقريبا فى عام ٩٨٩ (١٥٨١) .

كانت دراسة علوم الدين هى الدراسة الوحيدة الرائجة فى ذلك الوقت . وكان من بين مشاهير العلماء فى ذلك مولانا عصام الدين بن

(١) تجد تفصيلا عن هذا الموضوع فى كتابى « رحلات فى آسيا الوسطى » ص ٢١٤ Travels in Central Asia

عريشاه الذى عاش أول أمره ببلاط حسين ميرزا فى هراة ثم رحل من بعد ذلك الى بخارى ، وكان عبد الله يخصه بعطف شديد . وكان هذا الأمير مع كلفه بالحروب يميل كذلك الى الاشتغال بالشعر وقرضه . ويقال انه اختلط عليه ذات يوم فهم قصيدة من الشعر العربى فسأل فى ذلك عصام الدين ، فتلقى منه بعد ذلك بساعات قليلة ستة وخسين وستمئة تفسير لكل بيت منها . وقد روى هذه القصة المؤرخ المبالغ سيد راقم . ومات هذا العالم عام ٩٤٣ (١٥٣٦) بسمرقند . وأشهر كتبه حواش كتبها على تفسير القاضى وعلى أشعار جامى الصوفية .

ومنهم كذلك مولانا صادق أحد علماء التفسير فى سمرقند ، وقد حج الى البيت الحرام مرتين وكتب شروحا قيمة على كتب الفقه ، كما تناول بالشرح كذلك قصائد صعبة ، وقضى آخر سنوات عمره فى كابل ببلاط حكيم شاه (١) حتى وافاه أجله عام ١٠٠٧ (١٥٩٧) .

ومن بين الشيوخ المشهورين نذكر كذلك ملا ضياء الدين ، وهو فقيه توفى عام ٩٧٣ (١٥٦٥) ، وخواجه جلال جويرى ، وهو من تلاميذ مخدوم أعظم ، وكان له مقام كبير اذ كان من المتصوفة ومن رجال الفقه والتفسير .

وكانت التركية هى اللسان الغالب حتى لنرى الشعراء ابتداء من ذلك العهد ومابعده كلهم من الترك . وأظهرهم جميعا كان الأميرالأوزبكي محمد صالح ، وكان أبوه أميرا على خوارزم الى أن انتزعها التيموريون منه . وقد دخل وهو يافع فى خدمة شيبانى . وهو صاحب «شيبانى نامه» (شيبان ياد) وهو شعر حماسى ممتاز حتى ليرفعه البعض به فوق مرتبة نوائى (٢) . وفيما عدا ذلك كان أكثر شعراء هذا العصر مجرد ناظمين ، وكانوا ممن يؤرخون شعرا .. وقد حفظ التاريخ لنا من بينهم اسمى أمير

(١) وهو من أمراء الدولة المغولية الهندية (المترجم)

(٢) آمل أن أتمكن من نشر هذا الشعر الجميل قريبا مع ترجمة له . وقد ذكر فليجل هذا الكتاب فى فهرس المخطوطات بدار الكتب الامبراطورية بمدينة فينا دون ان ينتبه الى اسم مؤلفه .

على كاتب وملا ميرك وكانا شاعرين خاصين للشيبانيين الأول ، ثم ملا مشفقى الذى كتب على منشآت عبد الله المختلفة تاريخا لها ، كما نظم كذلك جملة من الغزليات والقصائد والنكات ، وتوفى عام ٩٩٤ (١٥٨٥) . أما قاضى باينده ، وهو من زمين ، ومن أئمة اللغة ، فقد ألف ما يلفت النظر، اذ نظم قصيدة من ثمانية عشر بيتا فى مدح الوزير قل بابا كوكلتاش التزم فيها الحروف غير المنقوطة (١) . وآخر من نذكرهم من هؤلاء شيرين خوجه وكان شاعرا فى زمن عبيد الله ، ثم خير حافظ وكان مطربا وعازفا بيلاط عبد الله ، وتوفى عام ٩٨١ (١٥٧٣) .

وآثار العصر الشيبانى فى المعمار تدين بوجودها ، بالاضافة الى ميل عبد الله اليها ، الى الروح الدينية والميل الى التصوف ، وكانت هذه تسود ذلك العهد كله . فأقيم بذلك كثير من المساجد والخانقاهات والمدارس والأروقة وأضرحة الأولياء . ونذكر من بين هذه المنشآت مسجد بناه فى سمرقند الوزير كوكلتاش عام ٩٣٤ (١٥٢٧) أضاف اليه كچكونجى خان منبرين من الرخام الأبيض .

أما مدرسة عبد الله ، التى لاتزال قائمة حتى اليوم ، فلها مدخل كبير تعلوه آى من الذكر الحكيم كتبت بالميناء ويزيد ارتفاعها على القدمين حتى لتقرأ بوضوح من مسافة بعيدة . كما جدد عبد العزيز خان مسجد المغان ، وكان فى أصله بيتا من بيوت النار ، وبنى رباطا عند مشوى خواجه بهاء الدين على مسيرة ميل ونصف الميل من بخارى . ونذكر أخيرا المدرسة التى بناها أبو سعيد بسمرقند والأخرى التى أقامها الثرى ميرعرب ببخارى ، وهى التى تعد أفخم مدرسة بآسيا الوسطى كلها .

وهذه الصورة التى رسمناها فيما سبق لا تعد شيئا مذكورا بالقياس الى مظاهر البذخ والثراء ومظاهر الحضارة التى كان عليها الصفويون بايران ، أو بالنسبة الى الأهداف السامية التى كان يذكيها فى الهند أمير

(١) يعرف هذا الشعر باسم « بى نقط » ومن عجب ان نرى الشرقيين ولديهم من طول الاناة والوقت ما يمكنهم من كتابة كتاب بأكمله على هذا النحو .

من أصل توراني هو أكبر شاه التيمورى ، الذى أقام له دولة كبيرة على
السند والكنج ، وظل يحكم هناك ، تحولته العظمة والمجد ، مدى
خمسین عاما ، درس فيها المسيحية ومذاهب براهما دراسة باحث ونذر
نفسه للعمل لصالح شعبه (١) .

(١) هو أكبر شاه حفيد بابر ، وكان قد رقى العرش عام ١٥٥٦ وهو
فى الرابعة عشرة من عمره ، وأظهر فى شبابه رغبة فى الاطلاع على المسيحية
(وقطع بذلك الكولونيل بول فى كتابه H. Yule, Cathay and the Way
وقد استقبل عام ١٥٧٨ المبعوث البرتغالى كابرال (Thither vol II. p. 531)
من جوا (كانت مستعمرة للبرتغال بساحل الهند الغربى)

وحين سمع عن قس مجتهد يعيش فى البنغال أرسل اليه لينظر
المسلمين فى حفل عام . ومما يذكره الجزويت من أنه أصدر أمره عام ١٥٩٠
بهدم المساجد والمآذن ، هو هراء على ما يظهر . والفالب الذى لا شك
فيه أنه قد قدمت الى بلاده بعثة من المبشرين المسيحيين بناء على دعوة
ملحة منه (المؤلف)

أصل المسألة أن السلطان أكبر كان كلنا بالمعرفة منذ نشأته ، وأدى
به حرصه على تأليف مختلف شعوب الهند من حوله الى دراسة عقائدهم
الكثيرة . وكان بلاطف رجال الأديان الأخرى من بوذية وزرادشتية وچينية
ومسيحية وغيرها حين كانوا يفدون اليه ، حتى مارس بعض طقوس
الزرادشتيين معهم حين ادعوا له بأن من يمارسها تصير الشمس وفق
هواه ، وأظهر التبجيل للإنجيل حين عرضه المسيحيون عليه ، وأمر بترجمته
الى الفارسية . وكان من أثر ذلك أن أخذ كل فريق منهم يدعيه لنفسه .
وعن له من بعد ذلك ، وقد بان له أن هذه العقائد جميعا فيها الكثير من
نواحي الخير المشترك بينها ، أن يعقد مؤتمرا للأديان عله يصل بذلك الى
علة الفروق بينها ، ولكن رجال الأديان بدلا من أن يدلى كل واحد منهم
بحججه ويطلع أقرانه على فضائل معتقده أخذوا يتبادلون معا أفطع الشتائم
وأشد اللكمات . ولئن لم يسفر هذا المؤتمر عن تحقيق ما كان يرجوه أكبر
منه ، فقد أدرك هذا السلطان قبل الفلاسفة المحدثين بزمان طويل - على
حد قول الفيلسوف الفرنسى جوستاف لوبون فى كتابه « اختلال التوازن
العالمى » - أن أمور العقائد لا تخضع للعقل الصراف ، والثابت المعروف على
كل حال أن أكبر مات على اسلام صحيح . وتفصيل ذلك تجده فى كتابى
« تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية » ج ٢ ص ١٢٨ - ١٤٣ (المترجم)

الفصل الخامس عشر الاشترخانيون الأول

١٠٠٦ (١٥٩٧) — ١٠٩٩ (١٦٨٠)

لابد لنا من أن نستقريء أخبار أكثر من ثلاثة قرون خلت لنبلغ بذلك الى بعض مايفيد عن أصل أسرة الأشرخانين التى خلفت الشيبانيين ببلاد ما وراء النهر فظلت تحكم هناك قرابة قرنين من الزمان .

لم يكد الأمير تيمور يطرد أعقاب چغتاي عن عرش سمرقند ويقضى على الاحتلال المغولى لهذه البلاد حتى استنجد به أمير من بيت جوجى ، ليقوم عند شواطئ الفولجا عندئذ بعمل شبيه بما قام به فى بلاده . ولم يكن تختمش ، وهو فى فورة خصومته مع أعدائه أوروس خان وأبنائه ، ليقدر على وجه اليقين ، مدى ماسوف يتعرض له من أخطار بسبب استنجاهه هذا بأمير سمرقند .

فقد انتصر تيمور لهذا الأمير أول الأمر ثم لم يلبث أن انقلب عليه من بعد ذلك وحاربه . وقد انتهت حياة تختمش بمقتله (١) بعد اقبال وادبار ، وتجرد خلفاء أوروس من كل سلطان ، وتشتت شمل الأمراء من بيت جوجى جميعا بتدخل تيمور فيما بينهم وانقرط عقدهم ، وقد كانوا من قبل عصبة متماسكة ، على ضعفهم . وكان من بين هؤلاء الأمراء الذين اضطلعوا مع جموعهم بدور هام فى التاريخ ، نتيجة لهذه.

(١) تقول المصادر الروسية ان تختمش قتل غير بعيد من سومن بسيبيريا ، وذلك بأمر شادى بك خليفة قتلج تيمور
Hammer, Geschichte der Goldenen Horde p 366

الثورات ، أمير يدعى قتلغ تيمور (١) كان من أحلاف سلطان سمرقند . وقد طار صيته على أثر انتصاره عند خيوه عام ٨٠٢ (١٣٩٩) على تختمش والجيش البولندي ، وكان من أحلافه . ومع هذا فقد اضطر خلفاء قتلغ تيمور من بعد ذلك الى الانسحاب الى خانية استراخان أو استراخان (٢) التي تقع في حوض الفولجا الأدنى . وهذا الفرع من خلفاء چنكيز الذين عرفوا بالاشترخانيين ، نسبة الى قصبة حكومتهم ، عاشوا في الواقع مدة قرنين من الزمان في ظلام حتى انفرط عقدهم ، أو حتى اضطرتهم في الغالب قوة دوق روسيا الأكبر الصاعدة الى أن يرحلوا عن ديارهم . فهاجر يار محمد (٣) ومعه ابنه جاني خان الى بلاد ما وراء النهر حيث رحب بهم الشيباني سكندر خان وكان يحكم اذ ذاك في سمرقند . وقد كان الشيبانيون يفتخرون دائما بنسبهم الى چنكيز . وأراد سكندر خان أن يعبر لأقاربه الغرباء هؤلاء عن مبلغ خفاوته بهم فزف الى جاني خان زهره هانم إحدى اخوات عبد الله خان المشهور .

(١) تختلف المصادر التي استطعت الرجوع اليها في أصله ، ففي تاريخ مقيم خاني نجد أن أباه هو بغا سلطان بن أوروس بن جوجي بن چنكيز . في حين يذكر أبو الفازي ، ص ١٠٠ ، نسبة كالآتي : قتلغ تيمور ابن تمغان بن أبای بن أوزتيمور بن تغاي تيمور بن جوجي بن چنكيز ، ويختلف هامر بدوره عن سابقيه وذلك في كتابه « أنساب ذرية أبناء أولوس جوجي الأربعة عشر » :

((Genealogy of the Descendants of the fourteen Sons of Ulus Djudji

حتى لا يمكن ان نسلم بما ادعاه من نسب قتلغ تيمور . (٢) قد نرد هذه الكلمة برسمها الحاضر الى « ازدرخان » فتكون على هذا فارسية الأصل . والأرجح أن نسبتها القديمة الى حاجي ترخان هو الأصح . . ذلك أننا نلاحظ في مخطوطات آسيا الوسطى أن هذه الكلمة تكتب دائما بشين وتاء أي شترخان .

(٣) نجد كذلك في نسب يار محمد خان اختلافا بين ما ذكره مؤلف تاريخ مقيم خان وما ذكره أبو الفازي . فيذكر الأول أن نسبه هو على الوجه الآتي :

قتلغ تيمور ثم بهادر خان ثم محمد خان ثم هواك ثم نفشلاق (بدلا من منفشلاق) ثم يار محمد ، في حين يذكر الثاني ، وهو الأصح احتمالا ، قتلغ تيمور فعلى تيمور فتيمور قتلغ فتيمور سلطان فمحمد خان فجوراق فمنجشلاق فمحمد سلطان فجان أو جاني سلطان بالأصح . وكان الواجب أن يأتي يار محمد خان بين الاسمين الأخيرين .

وكان يار محمد يشتهر بين الناس بالأشيب لتقدمه في السن وقد وافقه
منيته عقب استقراره ببلاد ما وراء النهر بقليل . أما جاني خان فقد شارك
عبد الله في حروبه زمنا طويلا فكافأه على ذلك بدوره بأن عهد بحكومة
نیشابور الى أكبر أبناء أخيه وكان ممن برزوا في حرب عبد المنعم مع
الفرس . وكان أولاد جاني خان هم : دين محمد وولى محمد وباقي
محمد .

وحين قتل عبد المنعم في زمين وصارت بلاده من بعده نهبا للفوضى
تقدم بعض أصحاب النفوذ في البلاد فعرضوا التاج على جاني خان الشيخ
ولكنه اعتذر عن قبول هذا التشريف وقال للقوم « برغم أنى من نسل
چنكيز الا أن ملك بلاد ما وراء النهر يجب ، على ما يبدو لى ، أن يعهد به
الى من يكون في الوقت نفسه من الشيبانيين » . ولما كان يشير بعبارته
هذه الى أبنائه ، فقد نودى بابنه الأكبر دين محمد خانا ، وأخذ الناس
يتربصون فرصة قدومه اليهم من خراسان بفارغ الصبر . وقد بينا في
الفصل السابق أن ماكان يجري من حوادث بتلك الولاية قد منع دين
محمد من مبارحة ميدان نشاطه برغم أنه هو نفسه كان جد راغب في ذلك .
ذلك أن الشاه عباس حين رأى نفسه وقد خلص من أشد أعدائه بموت
عبد الله وعبد المنعم ، انطلق يطارد الأوزبك حتى أخرجهم من أقوى
مواضعهم بخراسان وأزل بهم هزيمة حاسمة . ويقال ان دين محمد سقط
في هذا القتال ، كما تقول رواية أخرى بأنه قتل وهو بسبيل الفرار (١) وقد
غنم المنتصر معسكره ومتاعه كله . وبلغ من شيوع الاضطراب في صفوف
الأوزبك عندئذ أن لم تتمكن زوج محمد خان نفسها من الهرب لولا
شجاعة خادم مخلص يدعى حتى ياسول جازف بحياته في سبيل خلاصها .
فقد حمل هذه السيدة على فرسه عجلا وقد أخفى ابنها ، الأميرين امام

(١) يفصل كتاب « روضة الصفا » واقعة قتله في هذه المعركة التي
وقعت عند هراة بما يكاد يبعد الشك عن روايته ، في حين يذكر تاريخ مقيم
خانى ان دين محمد بعد أن نزلت به الهزيمة راح يضرب في الأرض بمنازل
بدو قرأى على مقربة من أندخوى فعرفه القوم بشيابه الملكية وقتلوه .
والظاهر أن الوقوف على حقيقة هذه المسألة هو في الواقع من الصعوبة
بمكان ، ذلك أن رواية مقتله بأيدي بدو قرأى يرجع سببها الى الحملة
الانتقامية التي كان قد شنّها عليهم باقى محمد خان .

خلى ونظر محمد قلى ، فى غرارتين على جانبى السرج ، ثم أطلق العنان
لفرسه فى سرعة مذهلة . وأصاب رصاصة من رصاص العدو احدى
الغرارتين ، حيث كان نظر محمد ، ونفذت منها الى قدمه فتخلف عنها
عرج لازمه طوال حياته .

هكذا فقدت بخارى أميرها الذى كانت قد اختارته عليها لتوها .
على أن أخويه كانا قد استطاعا أن يشقا طريقهما هربا عبر جيحون ، فولى
أكبرهما ، وهو باقى محمد خان ، عرش بلاد ما وراء النهر عام ١٠٠٧
(١٥٩٨) فى حين أقطع الأصغر ، وهو ولى محمد خان ، ولاية بلخ مع
الاقليم الذى يقع على ذلك الجانب من جيحون . ولم ينته تأزر هذين
الأخوين فى الحكم الى ما كان يرجى منه فى اقرار الأمور فى البلاد اقرارا
حاسما سريعا ، واتقاء خطر التفسخ ، الذى لم يكن يتهددهم على أيدي
الشاه عباس وحده بل وبسبب خروج بعض أمرائهم عليهم كذلك . ولئن
كان السلام سرعان ما عاد يرفرف على بلاد ما وراء النهر من جديد بعد
ابعاد خطر الأمير القزاقى تىكل خان عنها ، فان مؤسسى هذه الأسرة
الحاكمة الجديدة كان عليهما أن يواجهها عند هذا الشاطئ من جيحون
عدوا أشد خطرا يتمثل فى ذلك الشاه الصفوى الكبير .

كانت بلخ قد صار لها أهمية عظمى عند الأوزبك هى وطخارستان
وبدخشان التى تتصل بها ، وكانت هذه جميعا تعد منذ أيام السامانيين
جزءا مكملا لبخارى . ففى المحل الأول كانت قبائلهم قد استقرت على
هذا الجانب من النهر ، أى عند قندز وآقجه وشبورغان واندخود (١) ،
وفى المحل الثانى فقد كان عليهم أن لا يغفلوا عن حماية مقام على المزعوم (٢)

(١) وهى اندخوى الحالية ، وبالقياس الى القواعد الصوتية فى اللفه
التركية فغالبا ما تنطق الياء تاء حين ترد آخر الكلمة . ولفظ أندخو هو
مفولى ومعناه « السعادة الشاملة » .

(٢) يرد فى تاريخ سيد راقم القصة التالية عن قبر على المزعوم هذا :
فى زمن السلطان حسين بيقرأ ذهب احد علماء التاريخ الى ان قبر على بن
ابى طالب قد عثر عليه فى قرية خواجه خيران غير بعيد من بلخ وذلك فى
عهد سنجر السلجوقى . وحين اخذوا ينظفون ما حوله ظهرت لهم لوحة
مستديرة عليها هذه الكتابة « هذا قبر أسد الله أخى النبى حبيب الله =

سيد فرسان الاسلام ، من أن يقع بأيدي الشيعة . ولم ينصرف الشاه عباس الى اقرار الأمور داخل بلاده دون الاهتمام بحدوده الشمالية الغربية ، حتى استولى على هراة . ولم يؤد سقوط هذه المدينة بأيدي الفرس الى اثاره مخاوف بلخ اذ ذاك في كثير . ذلك أن محمد ابراهيم ، أمير هذه المدينة ، وكان من الشيبانيين ، انما كان قد بلغ الى حكم مدينته بعون من الفرس أنفسهم . على أن حياة المجون التي كان يحيها هذا الأمير أثارت سكان بلخ عليه فانطلقوا يرحبون بولي محمد حين أقبل عليهم ، فظاهروه في الاستيلاء على « أم المدائن » ، وهو اللقب الذي كانت تشتهر به بلخ اذ ذاك ، برغم ما كانوا عليه من ميل الى الفرس وكرهية للأوزبك .

وبعد أن تم لولي محمد الاستيلاء على القلعة سيق ولى الفرس المنبوذ الى الموت في حين تسكن كبار قواده من الفرار الى أصفهان وقد حملوا معهم تلك الجواهر التي كان عبد المنعم قد انتزعها من مقام الامام الرضا من قبل ، فقدموها الى شاه فارس جلبا لرضائه . وأعيدت هذه الحجارة الكريمة الى مكانها السابق بضريح ولى خراسان في احتفال مهيب . ولبث الأوزبك في أماكنهم عند حدود قزوین وبلخ يجتنبون كل اشتباك مع خصومهم ، حتى التقوا بهم آخر الأمر عام ١٠١١ (١٦٠٢) في حرب عنيفة ، وذلك حين برز باقى محمد خان ليثار لمقتل أخيه ، وكانت قبيلة قرای التي تنزل عند قندز هي التي قتلته على ما يقال . ولا تزال قبيلة قرای أوقراترکمان (١) هذه تسكن في الوقت الحاضر هذا الموضع بآسيا الوسطى . والملاحظ كذلك أنها لا تزال على عداء مقيم مع جيرانها

= على » . وحين بلغ ذلك الخبر السلطان بيقرأ ذهب عام ٨٨٥ (١٤٨٠) في جمع كبير الى ذلك القبر المكتشف ، فكان أول من حج اليه ، وبمضى الزمن عمر ذلك المكان بالمنشآت الفخمة ، وان لم يبق منها اليوم الا آثار قليلة في « مزار شريف » ، ولا يشك سكان آسيا الوسطى أدنى شك في نسبة هذا القبر لصاحبه .

(١) يشبه قرا - ترکمان هؤلاء قبائل يوموت شبا قويا في بنيانهم وملامحهم ، وتجد الحديث عنهم في كتابي

Travels in Central Asia pp 237, 304

من الأوزبك والتركمان حتى اليوم . وبرغم أن مقتل دين محمد كان بعوزه الدليل القاطع في ذلك ، فإن ما كان يقوم بين تلك القبيلة والفرس الشيعة من علائق المودة المؤكدة كان سبباً كافياً ، بالإضافة الى صلتهم بمقتل هذا الأمير ، لأن ينطلق باقى محمد خان الى قتالهم ويقتل كل من تصل اليه يده منهم دون شفقة أو رحمة . وسارع فريق من محاربي تلك القبيلة الى الامتناع في حصن قندز واستماتوا في الدفاع عنه ، على أن عدوهم مالبت أن استولى عليه عنوة ونسف أغلب جدرانها فقتل مئات من حماه تحت الأتقاض ، وسبق الى الموت كل من قد بقى منهم على قيد الحياة . وبهذه الواقعة قضى على قوة قبيلة قرا التركمانية فلم تستطع من بعد ذلك أن تعود الى سيرتها الأولى أبداً .

تأثر الشاه عباس أشد التأثر لدى سماعه بتلك النكبة التي أنزلها حاكم بخارى بأعدائه ، على ما كان ينتظر منه ، فخرج من مرو بجيشه فاتجه الى آقچه لنجدة حلفائه ، وفي خطته أن يؤدب الاشرخانين في بلخ أولاً ، ثم يعبر جيحون من بعد ذلك ويزحف الى بخارى . غير أن نزوع الأوزبك بطيعتهم الى القتال مالبت أن دفعهم بدورهم الى لقاء أعدائهم . ولم يكد الفرس يتقدمون كذلك حتى ضريح بابو عبد الله جوار بلخ حتى تفشى الوباء فيهم فأقعد أكثر من نصف قواتهم . وفيما هم على هذا الحال تعرضوا لهجوم خصومهم من كلا الجانبين فنزلت بهم هزيمة شديدة لم يستطع الشاه عباس نفسه أن ينجو منها الا بمشقة هو وألوف قليلة من أتباعه صحبته في فراره (١) .

وكانت هذه الواقعة أهم حرب خاضها باقى محمد في حكمه . وقد تعرض هذا الأمير لخروج ابن أخيه ، بديع الزمان ، عليه عام ١٠١١ (١٦٠٢) حيث اعتصم بمنطقة قراتكين الجبلية ، ولكن ثورته قضى عليها بسقوط

(١) لا تحاول المصادر الفارسية أن تخفى الكارثة التي انتهت اليها هذه الواقعة . وتقول روضة الصفا أن شدة الحر والظمأ قد أزهقا جند فارس الى درجة شديدة فضلا عن انه كان من الصعب دفع البدو الذين انقضوا على الفرس من كل نواحي الصحراء على حين غرة .

« مسجّه » معتقله القوى . كما قضى كذلك على ثورة محمد زمان حاكم بدخشان فى مهدها ، وكان أبوه قد قتله الشائر بديع الزمان من قبل . وبصرف النظر عن هذه الحوادث فإن عهد باقى محمد خان يعد عموما عهد سلام ووثام . وقد حل به المرض عام ١٠١٤ هـ بعد أن جلس على العرش سبع سنوات ، وما أن شاع هذا الأمر حتى قدم القزاق فبدأوا يغيرون على سواد البلاد وينتهبونه . وكان القوم ، والقلق مستحوذ عليهم بسبب مرض أميرهم ، تتعلق أنظارهم بوليهم ذائع الصيت الشيخ علم عزيزان ينتظرون منه أن يرد على الأمير صحته بما عرف عنه من قوة خارقة . وكان للبخاريين ، ولا يزالون حتى اليوم ، اعتقاد بالغ فى الغيبات . وأشار الشيخ على مريضه بأن يفيد من هواء جيحون ، فحمل على هودج وضع على سفينة ظلت تجوب النهر به لعدة أيام . ولم ينفعه ما أشار به الشيخ عليه من علاج فوافاه أجله بعد ذلك بقليل آخر رجب من عام ١٠١٤ (١٦٠٥) .

وخلف ولى محمد خان أخاه وكان قد قدم اليه من بلخ ليعوده . وتم له هذا الأمر بعد أن هزم ابنى الأمير الراحل عند ترمذ وكانا قد ثارا فى وجهه .

وكان ولى خان محمد هذا على خلق يليق بأمر لولا ماكان من ادمانه على الشراب وما جنح اليه رجاله من الاستبداد الشديد حتى أخذت القلوب تنفر منه منذ بداية حكمه . فمما يروى فى ذلك أن وزيره شاه بك كوكلتاش ، وكان قد خلفه على حكومة بلخ ، كان يعمد الى نزع رءوس المجرمين من أكتافهم يربطهم الى الثيران ، ثم اطلاقها بهم ، أو كان يلقي بهم أحياء فى الزيت وهو يفور ، أو يأمر فتها جلودهم بمحركات من الصوف . وقد أدى اشاعة هذه القسوة والمظالم ، مع مقتل ثلاثة من وزراء (١) العاهل السابق دون وجه حق ، الى نهوض حزب معارض قوى

(١) كان هؤلاء هم دوستم أرغون وشاه كيجيك وحاجى نيمان ، وكانت لهم مكانة مرموقة زمن عبد الله . وقد رفع باقى محمد خان كل واحد منهم الى مرتبة أمير الأمراء فى عهده . انظر تاريخ سيد راقم .

نزعته الأميران ولدا باقى خان سالفا الذكر . هنالك اختار القوم امام قلى خان أميراً عليهم ثم أعلنوا ولى محمد خان بانتزاع العرش منه ، وكان اذ ذلك يتسلى بالصيد جوار قارشى . ولم يكن هذا الأمير ليأمل فى العودة الى بخارى وقد صار بلا جند وبلا موارد ، وهاهو ذا خصه قد جلس على العرش . وكان وزيره قد انصرف بدورته عنه وهو الذى طالما تقنن فى صب جام غضبه عليه ، فلم يكن أمامه الا أن يفر الى بلاد فارس ويلوذ بالشاه عباس عدو أسرته القديم ، وليس من الصعب أن ندرك أن الشاه الصفوى قد عمل على أن يفيد من هذا الخلاف الذى قام بين أبناء العشيرة الواحدة ، فرحب بهذا اللاجئ الاشرخانى أبلغ ترحيب . وقد خرج الشاه عباس من أصفهان فصار ثلاث ساعات الى دولت آباد ليستقبل ضيفه ، فحياه وعانقه فى مودة أبوية ، كما اصطف عشرون ألفاً من الفرسان لتحيته حتى دخل المدينة ، وتزينت الدور والحوائيت والأسواق جميعاً احتفاءً بقدومه ، وأنشد الشعراء القصائد مرحبين به .

ولا تعجب بعد هذا الاستقبال الفخم حين نرى هذا الأمير الأوزبكى من بعد ذلك تراوده الآمال فى استرداد ملكه من جديد . ولا يمكننا ، مع ذلك ، أن نجزم بأن الشاه عباس كان يفكر تفكيراً جدياً فى فتح بلاد ماوراء النهر وضمتها الى ملكه ، اذ كان يقدر أن تأمين حدوده الشمالية التى تتعرض للأخطار على الدوام انما يتم باقامة علاقات مودة وصداقة مع أمير بخارى . ومهما يكن فانه مالبث بعد ذلك بقليل أن سير مع ولى محمد ثمانين ألفاً من الجند الفرس اتجه بهم الى جيحون .

وهنا نعود مرة أخرى الى الحديث عن نفوذ الشيوخ ببخارى ، ذلك النفوذ الذى لم يكن أبداً يعرف حدوداً . وعلى ما ذكرنا من قبل فقد كانوا هم موئل الناس حين تشتد بهم العلل وملاذهم الذى يسألونه النصيحة حين يقبل عليهم العدو . وهذا هو امام قلى ، وقد ركه الرعب حين علم بكثافة جند عدوه ، يلوذ بحفيد من أحفاد مخدوم أعظم ، يدعى خوجه محمد أمين ، يسأله المشورة فى ذلك . ولم يكن الشيخ الورع أقل ذعراً من أميره ، برغم أن امام قلى ذكر له عدد المحاربين دون حقيقته بكثير .

وأخذت الشيخ حميته الدينية فشارك في القتال بنفسه ، وتناول قوسه
وشمر عن ساعديه وأطلق أول سهم ، ثم أردف صنيعه هذا بأن قذف خفنة
من التراب في وجه العدو وهو يدعو الله أن تمنى أبصارهم بذلك .
وكانت فعلته هذه ايذاً ببدء الهجوم . واحتدم القتال بين الفريقين ، وهنا
تقول مصادرى ، والعجب يأخذ منها مأخذ ، أن الظلمة ما لبثت عند ذلك
أن لفت الأوزبك حتى حجبته عن أعدائهم ، وكأنها سور يحجبهم ، في
حين انكشف معسكر العدو أمامهم ولا شيء يحجبه ، وكان هذا المعسكر
قد أقيم على شاطئ بحيرة ماجان (١) . ويقول التاريخ ان امام قلى كان
قد غادر عاصسته أول الأمر خوف عدوه ، ولكن الموقعة التي جرت على
ضفاف هذه البحيرة في مستهل رجب من عام ١٠٢٠ (١٦١١) انتهت في
صالحه حتى سقط ولي محمد في يده ، فقتل بأمر ذلك الشيخ الورع بعد
أن حكم ست سنوات .

وتأتى بعد هذه الحوادث فترة طويلة ساد فيها السلام والوثام بين
فارس وبلاد ما وراء النهر . وقد أدت بالشاه عباس انتصاراته بدوره على
الباب العالي الى أن هابه جيرانه بما فيهم الأوزبك ، فتوقفت غارات
النهائين التي كانت تتعرض لها ايران عادة بين الحين والحين . بل ان
التركماني الذين كانوا يربطون على طول شمال ايران من الاقليم
الصحراوي حول أندخود حتى شواطئ قزوین ، كان منهم من أعلن
خضوعه للشاه عباس ومنهم من تحالف معه ، ولم يخرج امام قلى بدوره
الى الحرب الا في واقعة واحدة حارب فيها المغيرين من القزاق والقلموق،
عند شمال تركستان ، فنصل أمرها لصورة من الحيلة والمداينة عرضت
فيها . فقد زحف جموع من هؤلاء البدو ينهبون كل ما يصادفهم في طريقهم
ويشعلون النار فيه حتى بلغوا سمرقند ، فخرج اليهم عندئذ امام قلى
فشنت شملهم وعهد الى ابنه اسكندر بحكومة بلد الحدود طشقند ، وقد

(١) يتحدث صاحب روضة الصفا عن شاطئ نهر (رود) كان يربط
عنده الجيش الفارسي ، ولا يشير الى وقوع موقعة حاسمة كبيرة هناك .
هذا كما نجد كذلك تفاوتاً زمنياً كبيراً في ذلك ، اذ يقرر المؤرخون الفرس
ان القتال بدأ في الحادي عشر من المحرم .

كان لها مشاركة في حملة النهب هذه على ما يبدو ، حتى يضمن بذلك منع تكرار مثل هذا الحادث .

ولم يطل الحال بالأمير اسكندر حتى ثار عليه الأهليون وقتلوه .
وحين بلغ امام قلى هذا الخبر خرج من فوره الى طشقند وقد ملكه الحنق والسخط حتى أقسم بأنه لن يرجع عنهم حتى يبلغ دم العصاة المسفوك ركابه . ولم تسقط طشقند ، لمنعتها الا بعد حصار طويل ، فما ان استسلم حصنها حتى أنزل امام قلى بالأهلين مذبحة بشعة لم يبق الغزاة فيها الا على الشيوخ والأطفال .
وحين رأى امام قلى أن الدماء لاتصل بعد الى رسغ فرسه عزم على ذبح الشيوخ والأطفال . هنالك تصدى العلماء لهذا الأمر فعمدوا الى حيلة تبقى على حياة من بقى من الأهلين وتحقق للأمير ما أقسم على فعله ، فحفروا حفرة جمعوا فيها دماء القتلى ، حتى اذا نزل فيها الأمير بفرسه فوجد الدماء تصل الى ركابه هداً باله وأمر بايقاف المذبحة .

على أن امام قلى ، برغم تصرفه المشين هذا الذى يتنافى مع الخلق والدين والانسانية ، يعد فى الوقت نفسه العاهل الوحيد ببلاد ما وراء النهر الذى استطاع أن يوفر لبلاده الثراء والرفاهية والسعادة بغير حروب يخوض غمارها أو فتوح يمضى فيها ، فضلاً عن أنه كان قدوة يحتذى بها بين الأمراء المسلمين فى تمسكه بقواعد الشرع . هذا كما أمنت الطرق والمسالك أمنا تاما مدة حكمه الطويل الذى امتد ثمانية وثلاثين عاما .

ويؤثر عنه أنه كان يمضى أغلب وقته فى مجالس الصلاح وحلقات الشعراء ، وغالبا ما كان يستبدل ثوب الأمير بخرقه الدرويش لينطلق عند ذلك ، وهو فى استخفائه هذا ، مع وزيره نظر ديوانبغى وعبد الوصى أقرب أخصائه اليه ، فيجوس خلال المدينة ويقف على أحوال أهلها وما كان يجرى فيها . وكان من بين من قربهم اليه من علماء عصره على الخصوص الملايوسف قراباغى ، ومن الشعراء الملا ترابى والملا نخلى . ويقال انه كافأ الملا نخلى ذات مرة على قصيدة نظمها بوزنها من الذهب . وقد ترك لنا هذا الأمير نفسه شعرا جيدا كثيرا من نظمه . ومما يروى عن مغامراته فى الليل وهو فى تنكره هذه القصة التالية : — كان أحد الملات الصغار فى احدى

المدارس قد كلف بحب فتاة جميلة ، وكان لابد أن يبرهن لها على حبه بأن يهدى إليها ثوبا جديدا حين أقبل أحد الأعياد ، ولكنه كان على فقر شديد وفيما هو يفكر في تدبير هذا الأمر ، وقد ركبه الحزن والهجم ، تذكر أن « مال المشركين غنيمة للمسلمين » (١) . فاستقر رأيه حينئذ على أن يسقط على حانوت لجواهرى هندی ليلا فيحصل بذلك على المال الذي هو في أشد الحاجات اليه . وقرن الملا القول بالعمل ، فسار الى السوق يصحبه اثنان من ثقات خدمه واقتحم باب الحانوت وهو مضطرب اذ كان يعلم مدى تأمين الأمير للناس على أملاكهم . وقفل الملا راجعا يحمل في يده سلة مليئة بالجواهر . وكان الهندي قد استيقظ على صوت اقتحام حانوته فانطلق في اثر اللصوص مستغيثا حتى أمسك بخناق الملا . وأقبل الشرطى بدوره كذلك ويده مشعل . هنالك وثب الملا على الشرطى فأسقط الشعلة من يده ، واختفى في الظلام وهو يصيح «تباك ياظر ديوانيكى ، وتبا لما دبرت من مزاح ثقيل » ، فاذا بصوت آخر يجيبه قائلا « لم أكن أنا الذى فعلت ذلك يا مولاي وانما هو عبد الوصى كرجى » . ولما كان من المعروف أن امام قلى جرى على أن يتعسس مستخفيا مع صاحبه هذين الاسمين ، فقد ظن الشرطى أنه بقدمه قد أفسد على الأمير مزاحه ، فانطلق هاربا ليلوى على شيء . ويسهل تصور ما حدث من بعد ذلك . فقد تقدم الهندي الى الأمير يشكو من تراخى الشرطى فى أداء واجبه . وحين استدعى هذا وقر فى نفسه بدوره أن الأمير لابد معاقبه لفرط اندفاعه بالأمس . واتضحت المسألة كلها آخر الأمر حين طلب الأمير الى الملا أن يعيد المال المسروق الى صاحبه . ولم يكتف الأمير بالعفو عن السارق بل وصله كذلك بجائزة .

تخلف عن مؤرخى الاشرخانين فى عهد امام قلى كثير من الأفاضل والحكايات حين أعوزتهم الوقائع السياسية . ونعرض على القارىء قدرا من هذه الحكايات اذ تعطينا صورة واضحة عن العقلية التى كانت تسود آسيا الوسطى فى ذلك الوقت . ومن ذلك ما روى من المفارقات اللطيفة (١) ينص الشرع على أن تصان أموال غير المسلمين الذين يدفعون الجزية والخراج .

منصور ، وكان قد أوفده أمير بخارى ليحسم الأمر سلسا ، بأنه لم يدر بخلده أبدا أن يقدم على الحرب ، وكل ما فى الأمر أنه خرج للصيد على نطاق واسع .

هكذا أمكن لامام قلى أن يشيع السلام فى البلاد ، وكان جد حريص عليه . كما استطاع أن يحتفظ بعلاقات طيبة مع فارس — وأن غشيها الاضطراب فترة قصيرة عقب موت الشاه عباس الأكبر — وذلك بجهود أخيه نظر محمد خان حاكم بلخ . ذلك أن هذا الأمير ، فضلا عما كان يربطه بولى خراسان من صلة القربى ، كان قد خطب ود ايران والشاه عباس وتبادل معه بعوث الصداقة ، كما سير اليه عام ١٠٣١ (١٦٢١) رسوله باينده ميرزا ومعه خمسون فرسا من خيل التركمان ضمن الهدايا الأخرى التى بعث بها اليه (١) .

أما قصة قرابة هذا الأمير للامام الرضا فهى أنه حين استولى عبد المنعم على مدينة مشهد وأمر بذبح جميع سكانها تقدم اليه أبو طالب كبير أحفاد الامام الرضا فأمسك بلجام فرس دين محمد وهو يتجول فى المدينة وسأله أن يبقى على أسرته وينزل فى ضيافته . وقبل الأمير أن ينزل بدار الشيخ وفيها بنى بابته زهرة بانويكيم (٢) ، ومنها ولد نظر

(١) حدث هذا فى عهد الشاه صفى ، اذ ادى تغاليه فى القتل الى ان عم الاضطراب مرو ، وكان نفوذ الفرس قد ضعف بدوره هناك . ويقال ان امام قلى كان قد بعث بخمسة عشر ألفا من جنده من بخارى كما سير نظر محمد عشرين ألفا من بلخ فقصدت هذه الجيوش جميعا مرو يقودها ابنه عبد العزيز . وحاصرت هذه القوات المدينة مدة طويلة حتى اذا ما اقبل عليها جيش للفرس كبير ، ارتد الأوزبك عنها .

(٢) هذه السيدة ، التى رويانا من قبل خبر نجاتها وابنيها من تلك الواقعة المشؤمة ، يبدو انها غادرت بخارى الى فارس عقب وفاة زوجها . ونعلم من بعد ذلك أنها تزوجت بأمر الشاه عباس من الزعيم القاجارى مهرباب خان فولدت له مرتضى قلى خان حاكم مشهد . وحاول مرتضى هذا أن ينقذ مشهد ابان حصار الأوزبك لها ولكنه سقط فى أيديهم فسير الى بخارى حيث استقبله امام قلى استقبالا أخويا ورد عليه حريته . ولا تزال الاسرة الحاكمة ببخارى ترعى حتى اليوم صلة القربى التى تربطهم بال قاجار ، وان كانت من ناحية البطون فحسب .

محمد فكان بذلك سيّدا وعلويا في الوقت نفسه . ومع ما لمراقبة النسب هذه من أثر غير قليل في نفوس سكان آسيا المتسكين بديتهم ، فإنه لم تكن سببا في تعكير الصفاء والالفة بين الأخوين ، تلك الالفة التي تبدت في أحسن صورها في استقبال نظر محمد لأخيه امام قلى حين قدم اليه في بلخ على رأس جيشه ليدفع خطر غزو شاهجهان لبلاده ، اذ خرج نظر محمد للقاء أخيه فانتظره على مسيرة ميلين من المدينة وصحبه مع أبنائه الاثنى عشر سيرا على الأقدام حتى دخلها .

وبرغم الحاح أخيه عليه واحتجاجه بأنه لا يليق به كسيد ينجله الناس أن يمضى هكذا على قدميه فإن نظر محمد أصر على موقفه اذ كان يريد بذلك أن يظهر ولاءه لأخيه بكافة الطرق .

وحين بلغ الركب بلخ حيث كان أعيان بلاد ما وراء النهر قد اكتمل عقدهم في انتظارهم ، تقدم نظر محمد الى أخيه بالهدايا « التسع » على الرسم المعتاد ، وكانوا ثمانية من الرقيق أعلن لأخيه أنه هو نفسه تاسعهم (١) .

وقضى امام قلى سبع سنين ببخارى ، بعد رجوعه اليها ، في سلام ووثام مقيم لم يعرف له أهل آسيا الوسطى له نظيرا الا أيام السلطان حسين ميرزا بيقرأ بهراة .

ونزل به المرض عام ١٠٥٠ (١٦٤٠) فأعلن بشعور المسلم الورع أنه انما ينبغي أن يقضى ساعاته الأخيرة بجوار النبي (٢) صلى الله عليه وسلم . هنالك دعا اليه أخاه من بلخ وناولوه الصولجان واستبدل به عصا يتوكأ عليها وهو في طريقه الى الحج . حتى اذا ما حل يوم الجمعة وهو

(١) هذا الأسلوب في التأدب يروج بين التورانيين منذ زمن موغل في القدم ، فلم يكن بدعا في ذلك أن نرى أبراهيم سلطان الكرج ينتهج نفس المنهج مع تيمور على ما رواه شرف الدين في سيرة الأعرج فاتح العالم .

(٢) لا يزال سكان آسيا الوسطى يرون أن من يموت مجاورا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - يرضى الله عنه ، وأن السعيد من يفوز بذلك .

بيخارى قرئت الخطبة بالمسجد الجامع في حضرته باسم نظر محمد خان لأول مرة ، فما ان سمعها المصلون حتى ضجوا بالبكاء والعيول . وغادر امام قلى على اثر ذلك حضرته وبلاده وشعبه الذى أحبه وعمل دواما على اسعاده ، فاتخذ طريقه الى مكة بطريق ايران .

وقد استقبله شاه فارس بحفاوة بالغة حين مر ببلاده ، ومات بالمدينة المنورة وهو في الثانية والستين من عمره . وكان من بين ما صنع من وجوه البر هناك تعميره لمنتزه عام وحمام لا يزالان يقومان هناك حتى اليوم .

كان هذا الأمير الجليل لا يزال على قيد الحياة مشغلا بالقيادة حين تهاوى بناء السلام الذى صرف مدة حكمه في تقوية دعائمه في بلاده ، وحلت محله الثورات والحروب ونشوب القتن بين الاخوة . فقد رقى نظر خان العرش عام ١٠٥٢ (١٦٤٢) ، ولكن سرعان ما استبان له أن قد خلف أخاه على بلاده دون أن يصيب من الاحترام القدر الذى كان له . كما لم يفلح في كسب ود رجاله برغم بذله الشديد لهم ، وقد كان على ثراء بالغ حتى عد أغنى أمير في بيتى الشيبانيين والاشترخانيين على السواء .

وتقول الرواية ان كنوزه كانت تحتاج في حملها الى ستمائة قطار (١) من الابل . وكان في اصطبلاته ثمانية آلاف من رؤوس الخيل فضلا عن الأفراس الولودة الأصيلة العديدة . كما كان عنده ثمانية آلاف من النعاج تلد له خرافا ممتازة ، وأربعمائة صندوق مليئة بالأطلس الفاخر بلون البرتقال . ومع هذا كله لم يفده ثراؤه في تدعيم ملكه الا قليلا .

ولقد بدأ هو نفسه في تعزيز صفو السلام الذى كان يخيم على البلاد منذ زمن طويل بأن سير جيشا لغزو خوارزم بعد موت أميرها اسفنديارخان . وركن الى الثورة في الوقت نفسه بالقسم الشمالى من

(١) بى قطار كلمة تركية يستخدمها الفرس كذلك للدلالة على قطار من دواب الحمل ، ويكون بآسيا الوسطى من ستة الى عشرة جمال تسير اثر بعضها .

البلاد من يدعى باقى يوز ، حتى اذا ما سير نظر خان اليه ابنه عبد العزيز لم يكتف هذا الابن بانضمامه الى الثوار فحسب ، بل ورضى كذلك بأن ينادوا به مكان أبيه .

وبلغت هذه الأخبار نظر خان وهو فى قارشى ، كما علم بزحف ابنه الى بخارى . وأدى بنظر خان ما صار عليه خصمه الشاذ هذا من القوة الى أن ركز كل جهوده فى الاحتفاظ بأراضيه التى تقع عند ذلك الشاطئ القريب لجيحون بكافة السبل . على انه ما لبث أن اضطر الى أن يفر الى بلخ بعد أن حكم خمس سنوات بالكاد . وفيها استقبله أهلها بالترحاب .

هنالك قسم ملكه على أولاده ، ممن بقوا على اخلاصهم له منهم ، فأعطى الغور الى خسرو سلطان ، وخص ابنه قاسم سلطان بميمنة وأندخوى ، وأقام بهرام سلطان فى كلاب ، وسبحانقلى فى جهار جوى ، وهى مخاضة تعرف اليوم باسم خوجه سالو ، وجعل قتلغ سلطان على قندز .

وكان عبد العزيز قد جلس فى ذلك الوقت على عرش بخارى ، فلم يكتف بما ارتكبه فى حق أبيه حتى عمل على أن يشرك أقدر اخوته معه فى عقوبه هذا ، اذ كتب الى أبيه يعلن اليه توبته وندمه على ما بدر منه ويسأله أن يصفح عنه (١) ويلتس منه فى الوقت نفسه أن يسير اليه ببخارى أخاه قتلغ سلطان ليوقفه على حقيقة المسألة .

واستجاب نظر محمد لرجاء ابنه ، فلم يكذب قتلغ يستقر به المقام فى بخارى حتى أخذ عبد العزيز يحرضه على الخروج على أبيه بدوره . هنالك سير اليه نظر خان ابنه الآخر سبجانقلى على أن يصير له لقب قلعة خانى (أى قائد الحصن) ان هو نجح فى أن يعيد قتلغ الى طاعته .

وامتنع قتلغ فى حصن قندز اذ لم يكن عنده من الجند ما يستطيع أن يخوض به غمار الحرب ، ولكن سبجانقلى ما زال يشدد الحصار عليه

(١) يحاول صاحب تاريخ مقيم خانى ان يحمل القراء على الاعتقاد بأن عبد العزيز انما استدرج الى بخارى وأرغم على اعلان خروجه على أبيه حتى هدد بالقتل ان هو رفض ذلك .

حتى استسلم له وأمر بقتله ، اذ رأى فى ذلك أفضل طريقة لردده الى صوابه . وحز هذا التصرف فى نفس أبيه بطبيعة الحال ، ولام ابنه على فعلته هذه اذ كان قد بعث به لينصح أخاه لا ليقتله . وحين توانى نظر خان فى منح ابنه سبحانه قلى اللقب الذى وعده به خرج هذا عليه بدوره . وضاق هذا الأمير التعس آخر الأمر بخروج أبنائه عليه وصراعه معهم مع قلة ثقته برجاله من الأوزبك فاستنجد فى ذلك بشاهجهان سلطان الهند ، ونسى أن ابن جهانكير الطموح هذا كان يرنو بأطماعه الى بلخ نفسها ، وانه بذلك سوف يقضى عليه بدلا من أن يأخذ بيده .

هذا هو الذى وقع بالفعل . فقد ظهر بالمليدان أورنكزيب ومراد بخشى ولدا شاهجهان ومعهما جيش قوى فهزما خسرو سلطان ، وكان قد تصدى لهما ، وبعثا به أسيرا الى الهند . ولم تتكشف لنظر خان نوايا حلفائه حتى بلغوا مشارف بلخ ، فأفلت بمشقة من بين أيدي رجاله أنفسهم من الأوزبك متخذين طريق شيورغان ومرو الى ايران ، وفى خاطره أن ملكها عباس الثانى ، أحد أحفاد عباس الأكبر ، لابد وأن يكرم وفادته .

ولم تخب ظنون نظر محمد خان ، فما ان علم الشاه عباس الثانى بأمره حتى بعث يدعو الى حضرته أصفهان ، وقد طوى دعوته هذه له على ألف من الدوقيات الذهبية ليستعين بها فى رحلته ، كما أصدر أوامره كذلك بأن يستقبل استقبالا ملكيا حيث ينزل أو يمر ، وبعث بحرس الشرف فاستقبله على مسيرة اثني عشر ميلا من أصفهان . وخرج الشاه نفسه مصحوبا بكبار رجال دولته فانتظر ضيفه على مسيرة ساعتين من قصبة ملكه .

وعانقه عباس الثانى حين التقى به عناق الابن لأبيه (١) ، وأمر فاستبدلت دابته المنهكة بقرس أصيل ، واحتفلت المدينة باستقباله احتفالا

(١) يروى مؤرخو آسيا الوسطى أن الشاه عباس الثانى كان قد تنكر فى ثياب جندي عادى وسار على قدميه مسافة طويلة ملازما لركاب نظر خان تكريما لضيفه ، ولم يتعرف عليه نظر خان الا حين لفت البعض نظره اليه ، فنزل اليه من فوره وعانقه .

بالغا وسطعت فيها الأنوار . واستضافه شاه فارس عامين ونصف العام
ثم سيره من بعد ذلك الى وطنه ومعه جيش استطاع به أن يستر بلخ .
على أن ما كان قد أنزله جيش الهند من الخراب بهذه المدينة وما جرى
بأرضها من الحروب بين عبد العزيز وهؤلاء الغاصبين ، كان قد قضى
على كل معالم العمران في هذه الأرض حتى صار نظر محمد خان لا يمشى
هناك في الواقع الا على قتاد . وحلت المجاعة بدورها ببلخ حتى كان
حمل الحمار من القسح يباع بألف روية . وزاد من سوء الحال أن دهم
المدينة عام ١٠٦٠ (١٦٥٠) شتاء بالغ القسوة لم تشهد له نظير من قبل .
وقد عانى جيش الهند بدوره من هذا الزمهرير والأوزبك يطاردونه في
انسحابه حتى تجمدت أطراف ألوف من رجاله أثناء مسيرهم في ممرات
الجبال .

ويروى صاحب تاريخ مقيم خاني أنه حين قصد الهند في العام
التالي لذلك في بعثة (١) كان يشاهد أكداسا من العظام الآدمية على
طول طريقه بالجبال .

لم يمنع هذا البلاء المتنوع الذي نزل بالبلاد من استئناف الحروب بين
نظر خان وأولاده . ووقف أهل بلخ في صف أميرهم بضع سنين ، حتى
إذا أنهكهم هذا العراك المتصل اتصلوا بعبد العزيز أمير بخارى ، فسير
بدوره أخاه سبحاتقلي مع فرقة كبيرة من الجند لحرب أبيه .
هنالك استقر قراز نظر خان على أن ينسحب من الميدان ويسير
الى المدينة المنورة فيقضى بها بقية عمره في سلام . وأراد أن يصلح مابينه
وبين أولاده قبل رحيله ، ولكن سبحاتقلي أنكر عليه هذه المشاعر
الأبوية .

وهكذا خرج نظر خان كسير الفؤاد فسار في طريقه الى الأراضي
المقدسة حاجا . على أن الحظ لم يحالفه كما حالف أخاه من قبل ، فمات
وهو في طريقه الى سمنان ولم يسكن بلاد العرب الا جثمانا هامدا .

(١) كان يعرف مثل هذا السفير باسم « وقايغ نكر » أى الذى يرى
ما يقع امامه من الوقائع ، بخلاف « وقايغ نوبس » وهو الذى كان يقوم
بتحرير الوقائع .

حين بلغ خبر موت نظر خان بلاد ما وراء النهر أعلن أولاده الحداد عليه ، ووزعوا الصدقات ، وأخذ المقرئون يرتلون القرآن ليل نهار لطلب الثواب والمغفرة له ، وكأن هذا الذى قضى كان فى الواقع أبا يعتزون به بالفعل وليس هو ذلك الخصم الذى ظلوا يناصرونه العداء أمدًا طويلا .

ولم يختلف النزاع من أسرة نظر خان بسوته ، فلم يكد زمن الحداد ينتهى على الرسم المهود حتى خاف عبد العزيز أن ينتزع أخوه سبحاتقلى اقليم بلخ منه ، فسير اليه أخاه قاسم محمد سلطان على رأس جيش عبر به جيحون . على أن سبحاتقلى لم يكن ممن يتخلص منهم فى سر وسهولة، كما لم يكن ذلك الأمير الشاعر قاسم محمد بدوره بالند الكفاء الذى يستطيع أن يضطلع بهذه المهمة التى عهد اليه بها ، فاضطر بعد صراع طويل لم يغنه شيئا الى أن يردد الى حصار ، ليعقد الصلح من بعد ذلك مع سبحاتقلى ، وفيه اعترف له بحقه فى الوراثة . وجرت رسائل المودة ترى من بعد ذلك بين الأخوين ، حتى قدم ذات يوم فريق كبير من شيعة سبحاتقلى الى قاسم محمد فانفرد أفراد به فى احدى الغرف بدعوى عرض رسالة سرية من أخيه عليه وقتلوه .

ويقول مؤرخو الاشترخانيين انه بموت قاسم محمد فقد هذا البيت المالك أكمل أمرائه قبل الأوان . وقد خلف هذا الأمير ديوانا يحوى أكثر من ألف بيت من الشعر بالفارسية والتركية ، كما كان مبرزا فى النثر كذلك .

وما ان تخلص سبحاتقلى من هذا الخصم الخطير حتى أنشأ مع أخيه عبد العزيز علاقات مودة بلغت الى أن عاونه فى حربه مع خوارزم . وكانت الأجزاء القريبة من بخارى قد تعرضت إبان تلك الفترة لخطر شديد على أيدي الأوزبك الذين كانوا ينزلون على طول مجرى جيحون الأدنى .

فى ذلك الوقت كان يحكم خوارزم أبو الغازى بهادر خان ، وهو الذى يذكرنا ، بمغامراته المتنوعة ، بما كان من أمر بابر . وله تدين خيوه باستقلالها عن بخارى ، كما تدين له الدنيا بمؤلفه « أنساب الأمراء » .

فلقد دفعته كراهيته البالغة لحكام بلاد ما وراء النهر ، ولعبد الله خان على الخصوص ، وهو الذى اشتط فى اضطهاد أجداده ، الى أن وضع نصب عينيه منذ شبابه القضاء على كل الحكام الأجانب فى بلاده . واليه وحده يرجع الفضل فى اجلاء البخاريين عن حوض جيحون الأدنى . ويقال ان أمره أول ما ظهر كان فى عام ١٠٥٤ (١٦٤٦) حين نصب نفسه أميراً على خيوه وذلك على اثر استدعاء قاسم محمد سلطان من هناك .

وأول حرب خاض غمارها كانت مع التركمان بداخل خوارزم أو مع جموع العيارين من القلموق . ولم يفكر فى الهجوم على بخارى حتى سأل سبجانقلى أن يعاونه فى حربه مع أخيه عبد العزيز خان .

ولئن كان الصلح سرعان ما تم فى الواقع بين الأخوين الا أن أبا الغازى ، وكان ينزل اذ ذاك عند كوكير تليك (١) من أعمال بخارى ، لم ير عند ذلك أن يعدل عن تنفيذ خطته للانتقام الذى ظلّ يعتمد على نفسه طويلاً ، فانطلق ينتهب كافة الأراضى حتى قراقول ، فلم يجل عنها الا بعد أن دمرتها النيران . هنالك هاجمه عبد العزيز فى جيش قوامه ستون ألفاً من الجند استطاع به أن يفصله عن قواته ويحيط به هو نفسه فى عدد كبير من جنده حتى كاد يقضى عليه لولا ما أبداه ابن له ، يدعى أنوشه خان وكان فى الرابعة عشرة من عمره ، من شجاعة خارقة ضمنت له النجاة .

وانتهت هذه الحرب بهزيمة البخاريين هزيمة شديدة ، وجرح فيها عبد العزيز ، ولم تكتب له النجاة الا حين ألقى بنفسه فى النهر فغبره سباحة ، فى حين عاد أبو الغازى الى خيوه محملاً بالأسرى والغنائم ولما يشف غليله بعد .

وتكررت غزواته من بعد ذلك حتى بلغ فى احداها وردانزى ، وكان يخرب فى كل مرة كل ما كان يصادفه فى طريقه ، كما بلغ فى غيرها

(١) وهو موضع على شاطئ جيحون الايمن ، وبعد حدا بين بخارى وخيوه .

أبواب بخارى . وظلت الدماء تراق بين هذين العاهلين فى حروب متصلة، وهما من أبناء دين واحد وجنس واحد ، فلم تعرف الرحمة أو الملاينة طريقها الى قلب أبى الغازى حتى بلغ الستين من عمره فصالح عبد العزيز ، وقد وافاه أجله على اثر ذلك عام ١٠٧٤ (١٦٦٣) .

ولطالما أتاحت الفرصة لقرائنا فلاحظوا فيما سبق أن صوت الانسانية لم يكن ليجد له سبيعا عند محاربى التتار الا أن يتقدم العمر بالواحد منهم .

وكذلك كان الحال فى هذه القضية التى بين أيدينا . فلم يلق أنوشه خان الجسور (١) ابن أبى الغازى وخليفته ، بالا فى كثير الى ما كان بين أبيه وعبد العزيز من صلح قائم ، وزحف الى بخارى عام ١٠٧٦ (١٦٦٥) فبلغ مقام خوجه جويبار وأباح هذا المكان المقدس لجنده . وحدث أن كان عبد العزيز اذ ذاك فى كرمينه فنهض من فوره فبلغ بوابة المدينة منتصف الليل وكانت بأيدي الخوارزميين . وتسكن ، فى أربعين من خلصائه ، من أن يزيح الحرس عن طريقه ويشق طريقه عنوة الى القلعة ، ومنها أصدر نداءه يحرض فيه الأهلىين على قتل جُند خيوه فى الليلة نفسها .

هنالك انبرى كل قادر على حمل السلاح ، سواء من الأوزبك أو التاجيك أو الرايا (Rayas) أو حتى من التجار الغرباء ، فسقطوا جميعا على العدو وباغتوه وهو مستلق بالليل ، وحلت به مذبحة بشعة لم ينج منها الا قسم صغير من جيش أنوشه استطاع الفرار الى خيوه . وقد منعت هذه الكارثة الخوارزميين أمدا طويلا من أن يتعرضوا لبخارى بالسوء .

كان عبد العزيز بدوره قد أنهكته حروبه المتواصلة مع أعدائه وضاق كذلك ذرعا بشئون دولته ، لما كان من أمر خصوماته مع اخوته، فعزم على أن ينهج نهج سلفيه ، فقر قراره على أن ينزل عن العرش

(١) ينسب صاحب تاريخ مقيم خانى هذه الواقعة الى أبى الغازى ، وهو خطأ ظاهر اذ كان أبو الغازى قد قضى قبل ذلك التاريخ .

لسبحانقلی ويخرج هو حاجا الى مكة . وحين دعى سبحانقلی للقدوم الى بخارى وتقلد الملك بعث بالأتالك امام قلی والپراونجی (١) تنكرييردى ليعلنا له ان أميرهما لا يقبل ما يعرض عليه حتى يغادر عبد العزيز نفسه العاصمة .

وتألم عبد العزيز من سلوك أخيه ، ويتنهم البخاريون هذه الفرصة ويلحون على أميرهم فى العدول عن رأيه . وحين رأى تنكرييردى مصالح أميره تتعرض للخطر ذهب الى عبد العزيز خان وقال له :

« فليأذن لى مولاي أن أقص عليه قصة حضرتنى الآن ، ومفادها أن السلطان ابراهيم صاحب بلخ حين مر بنيسابور ، وهو فى طريقه الى مكة ، قام بزيارة فريد الدين العطار (٢) ، أحكم أهل زمانه ، وبقي عنده حتى حان وقت العشاء . ولما كان هذا الشيخ الوقور فقيرا ، على ما هو معروف عنه ، فقد أخذ يدعو الله حين أقبل المساء فاذا بطبق واحد ملئ بأطياب الطعام يهبط عليهما ، والناس فى عجب ، فأكل منه وضيئه حتى شبع . ودعا السلطان الرجل الصالح بدوره اليه فى الليلة التالية ، وسأل الله بدوره فهبط عليهما عدة أطباق مليئة باللحم الشهى . وحرار العطار فى ادراك سر هذه التفرقة فى العطاء ، فسأل ربه كيف يصير له طبق واحد ويصير للسلطان أطباق . هنالك أجيب بأنكما أتما الاثنان من عبادى ، وهذا ابراهيم قد ضحى بالتاج والعرش فى سبيلى فى حين لم تضح أنت الا بحانوتك ، فجاء العطاء بذلك على قدر البذل » .

وانتهى تنكرييردى من رواية قصته هذه ليقول للأمير عند ذلك :

« وهكذا حالك يا مولاي ، وان الحج ليهون كل شئ فى سبيل أدائه ، وثوابه يعدل ثواب غيره ألف مرة » .

(١) أى الحاجب (المترجم)

(٢) ولد فريد الدين العطار عام ٦١٣ (١٢١٦) ، وكتبه رائجة فى الشرق الاسلامى ، وهى : منطق الطير ويندنامه ، أى كتاب النصائح ، وجواهر نامه ، أى كتاب الجواهر . ويقال انه عمر أكثر من مائة وأربعة عشر عاما ، وأنه كان قد هجر مهنة العطاراة ليتفرغ للعبادة .

وما ان أتم الرسول حديثه هذا حتى انهالت دموع عبد العزيز من
مآقيه وبات أشد تصميما على ما اعترزم عليه من ذى قبل . وذهب يستعد
لرحلته التى خرج فيها عام ١٠٩١ (١٦٨٠) ، وقد انضم الى ركه فيها
ثلاثة آلاف من القاصدين لبيت الله الحرام . ولقى بايران نفس الحفاوة
التى لقيها سلفاه من قبل حين مرا بها ، واحتفى به الشاه سليمان بن
الشاه عباس الثانى احتفاء يليق بالأمرء ، وأنزله فى أصفهان بقصر چهل
ستون الفخم . ووقع النوروز ابان وجوده بايران، وكان الناس يحتفلون
به احتفالا عظيما .

هكذا أتيح للامير الأوزبكي أن يودع مباهج الدنيا ومفاتها بين
حدائق أصفهان البهيجة ، والربيع يكسوها بحلله ، وفخامة البلاط
الفارسى وعظمته . واتخذ من بعد ذلك طريق همدان وبغداد ، حتى اذا
سار فى الصحراء صادفته المتاعب ، اذ هاجمته عصابة كبيرة من قطاع
الطرق من البدو . وطلب هؤلاء منه فدية مقدارها أربعة آلاف من
الدوقيات ، وهددوه فى ذلك بابادة الركب كله . وآثر عبد العزيز أن
يحقق الدماء وهو فى رحلته المقدسة هذه فعرض عليهم نصف ما طلبوه
منه . وحين أصروا على ما فرضوه عليه ، ثارت ثائرتة عند ذلك وصاح
فيهم قائلا : « لقد حكمت أربعين عاما فهل لى اليوم أن يملى على
الصوص ارادتهم ، فالى القتال يا قوم فان مت ففى سبيل الله » .

وحالف التوفيق الأمير الحاج فانتصر على تلك العصابة وبلغ هدفه
فى سلام حيث وافاه أجله بعد قليل وهو فى الرابعة والسبعين من عمره ،
ودفن بالمدينة المنورة الى جوار أبيه وعمه .

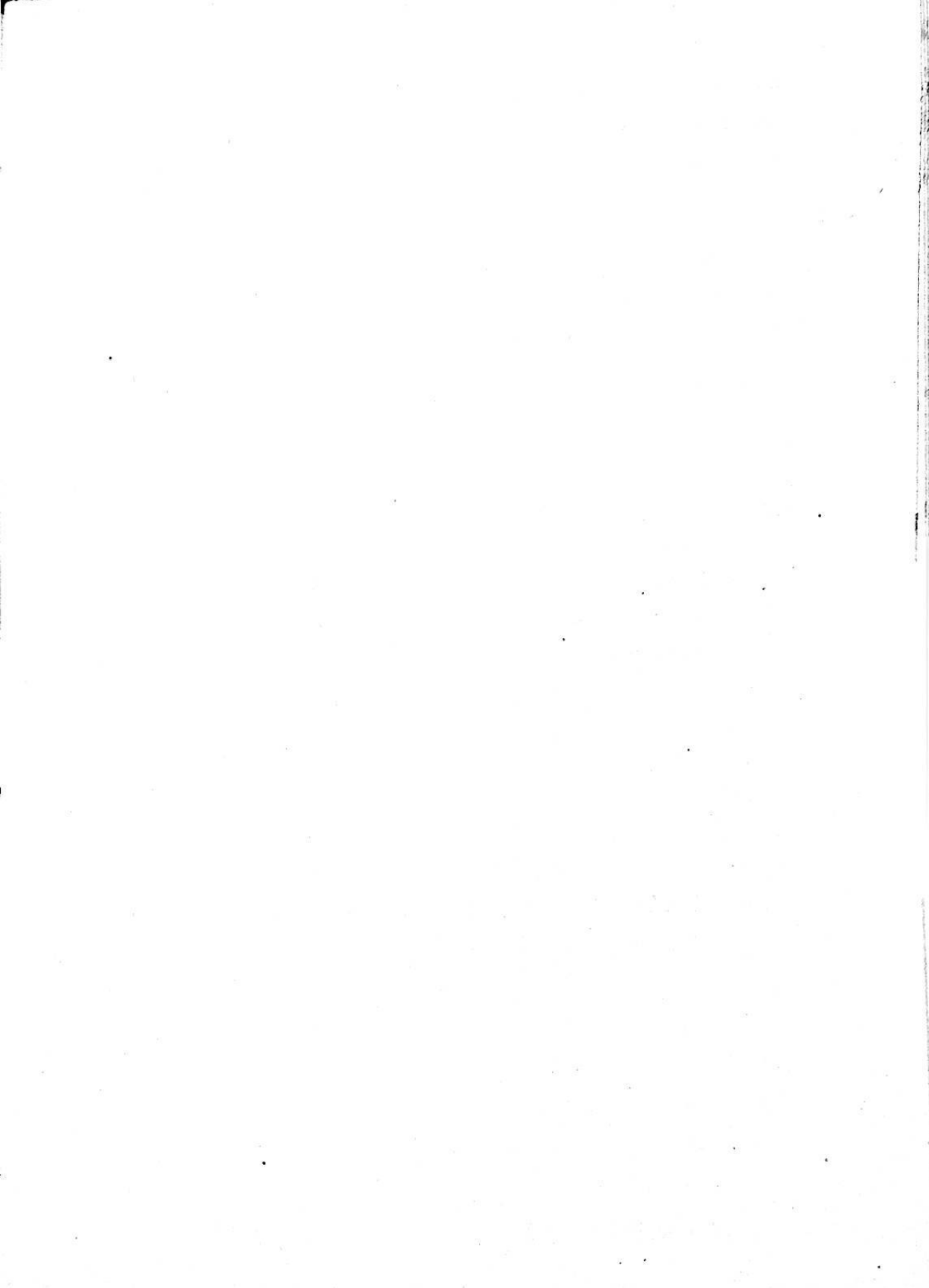
كان عبد العزيز ضخم الجثة الى درجة غير عادية ، حتى ليقال انه
كان أضخم رجل فى زمنه . ويصرح أحد مؤرخيه فى ذلك بأن حذاءه كان
يتسع لطفل فى الرابعة من عمره يجلس فيه . وقد حدث ذات مرة أن تجرأ
أحد الشعراء فاتخذ من بدائه مادة يتندر بها ، وحين سمع عبد العزيز
بذلك بعث فى طلب هذا المستهزئ ، فأدخل عليه وهو يرتعد خوفا على
حياته ، ليخاطبه الأمير عند ذلك بقوله « أيها المثلا ، بلغنى أنك نظمت

شعرا تسخر فيه منى ، فلا تفعل ذلك بغيرى والا فستندم على ذلك أشد الندم » . ثم وهبه عشرة آلاف دينار وخلع عليه ، ليحييه الشاعر عند ذلك قائلاً : « كم كنت أود يا مولاي لو مزقتنى عشرة آلاف قطعة بدلا من أن تخجلنى برحابة صدرك وكرمك » .

ولم يطق الشاعر بعد ذلك أن يعيش ببخارى وغادرها بالفعل الى الهند . ومع ما كان عليه عبد العزيز من العنف والقسوة تلقاء أبيه ، فلطالما تجلت رحابة صدره وكرمه فى مناسبات عديدة .

ولم يكن بدوره خلوا من الثقافة ، وقد نظم شعرا جيدا ، كما يقال عنه كذلك أنه نظم أثناء اقامته بالحجاز جملة من المدائح اللطيفة ، وكان على دراية تامة بمسند البخارى المشهور ، وكان العلماء يدخلون عليه دون استئذان ، كما كان الخطاطون يحضون عنده برعاية فائقة حتى أجرى المعاش على الخطاط المشهور مثلا حاجى لسبع سنين ، وكان قد عهد اليه بنسخ ديوان حافظ ، وكان هذا الفنان يكتب البيت الواحد فى يوم بأكمله . وحين أهدى عبد العزيز هذه النسخة الى الشاه عباس وهو فى رحلته ، سر بها العاهل الفارسى أكثر مما سر بكل الهدايا السنية والجواهر التى أهداها اليه أمير بلاد ما وراء النهر السابق .

وهذا الأمير الذى عرف بجسارته فى الحرب وبرباطة جأشه حين كان يواجه الأخطار ، كان يمضى أياما برمتها يتفرغ فيها الى العبادة بعيدا عن الدنيا ومشاغلا . ويرد الكثيرون ذلك الى مداومته التأمل والتفكر . فأمرء بخارى الذين كانوا يشاركون فى الممارك الدموية ويخاصمون آباءهم واخوتهم فى سبيل أغراض الدنيا وأطماعها ، كانوا يضطرون ، فى سبيل كسب رضى الناس ، الى الجلوس فى حلقات الزهاد يتفكرون معهم فى عظمة الله ويرون أن الحياة الدنيا ان هى الا لغو وعبث .



الفصل السادس عشر سبحاقل خان ونهاية الاشرخانين

١٠٩٩ (١٦٨٠) - ١١٥٠ (١٧٣٧)

بهذه الفترة التي نبدأ الحديث عنها يكون قد مضى ما يقرب من قرنين على سقوط التيموريين وبداية انهيار بلاد ما وراء النهر . فلا عجب اذن أن تبدو الصورة التي تنعكس عليها مجريات الحوادث السياسية في الامارات الصغيرة الواقعة على ضفاف جيحون ، ومعالمها يلفها الغموض والوهن شيئا فشيئا ، وأن يحتل مكان الحوادث المهمة في تاريخها ما كان يجرى من فتن داخلية وخصومات بين الاخوة ومنازعات تافهة . فقد كان على سبحاقل ، بعد أن استولى على مقاليد الى الأراضى المقدسة ، أن يواجه نفس المصاعب التي سببها هو نفسه لأخيه الحكم ببخارى ، أوائل المحرم من عام ١٠٩١ / ١٦٨٠ ، على اثر رحيل أخيه من قبل .

فكان عليه أن يخرج الى جيرانه المشاغبين فى الغرب ، ويسير الى الخارجين عليه من رجال دولته بل ويحارب كذلك أبناءه أنفسهم . وكانت بلخ ، موضع تنازع الاشرخانين ، هى مصدر المتاعب كالعادة .

ذلك أن سبحاقل كان قد نصب ابنه اسكندر خان حاكما على ذلك المكان ، فلم يكد ينصرم عامان حتى احتال أخوه ، أبو المنصور ، على دس السم له وجلس مكانه ، وكانت له شيعة قوية . ورفض سبحاقل أن يقر ابنه الثائر هذا فى ذلك المنصب ، وعهد ببلخ الى ابن أصغر له يدعى عبد الله ، ولم يكن ذلك ليتم بطبيعة الحال الا بقوة السلاح .

وتمكن أبو المنصور من أن يحتفظ لنفسه بحكومة بلخ لأربعة أشهر ، حتى إذا ما عبد الى قتل أخيه عبد الله خوف منافسته له أخذ أشياء ينصرفون عنه بفعلته هذه . وما لبثوا أن تأمروا عليه فسقطوا عليه وهو في زيارة لخالته وقتلوه .

وخلفه ابن ثالث لسبحانقلی يدعى صديق محمد خان وكان فاجرا كأخيه المقتول . وبلغ من انتقامه من قتلة أخيه أن أمر بسلخهم أحياء ثم أخذ ينزع أطرافهم طرفا طرفا . وما لبث بدوره أن خرج على طاعة أبيه فلم يسارع الى نجده حين خرج أنوشه خان من خيوه وانطلق يخرب بلاد ما وراء النهر بالنار والحديد .

وبعد أن نجح سبحانقلی في وقف غارات عدوه مال الى أن يصفح عن ابنه لولا ما عليه ، لأسفه ، من أنه لم يتقاعس عن نجده الا لما كان يبيته من الخروج عليه . وحين عبر سبحانقلی جيحون ودعا ابنه للقاءه ، جهر هذا بالعصيان وامتنع في بلخ . ومع هذا فإن قلب الأب لم يطاوعه على الجنوح الى العنف ، فبعث أول الأمر الى ابنه برسالة عاتبه فيها على عقوقه له ووعدته بالعفو عنه ان هو عاد الى طاعته .

وأثرت هذه الخطة حتى قدم صديق محمد الى أبيه مستغفرا . وسرعان ما وافى هذا الأمير أجله من بعد ذلك عام ١٠٩٦ (١٦٨٤) .

واقنع سبحانقلی في ذلك الوقت بخطر تقليد أبنائه المناصب المهمة في الدولة ، فعهد بحكومة بلخ الى أمير مخلص من أتباعه يدعى خادم بي أتاليك (١) . وخلفه عليها عند موته عام ١٩٠٩ (١٦٨٧) محمود بي أتاليك ، من قبيلة قنغرات ، وكان كفؤا قديرا . وبرهن هذا الحاكم على

(١) كلمة أتاليك هي بمعناها الحر في من يقوم مقام الأب . وكانت علما على النبلاء الذين كانوا يعملون كمستشارين للامراء عند التتار المغول في الأزمان الخالية . ومن معانيها كذلك : الحارس ، الربى ، المؤدب . وهي في الوقت الحاضر بمعنى الوزير . وكان عند الشيبانيين والاشترخانين عديد من الأتالكة ، وهم حاشية الأمير . وعند خان خيوه الحالى عديد معين منهم . وبعد حكام بخارى وخوقند هذا اللقب من ألقاب التشريف .

حسن اختياره لهذا المنصب حين أحكم من قبضته على الأوزبك والتركماني الذين كانوا ينزلون بتلك النواحي . وعم الرخاء ببلخ في عهده حتى كان حمل الحمار من الغلال (قنطاران ونصف القنطار) يباع بأربعين تنغة ، أى بجنيه واحد (١) . أما الفواكه والمؤن الأخرى فكانت فى متناول الأيدي بلا ثمن يدفع فيها .

ولا يقاس الولاة المخلصون من أمثال محمود بى فى عددهم بالزعماء الثائرين من قبائل الأوزبك العديدة ، أولئك الذين حين لم يجدوا أمامهم عدوا خارجيا يحاربونه دفعهم شغفهم بالصراع والقتال الى أن يتحاربوا معا داخل البلاد أو يشوروا على أميرهم . وأظهر هؤلاء كان ييات قره زعيم قبيلة بيات الأوزبكية . وكان قد تحصن فى اقليم حصار الجبل واستمر على عصيانه سبع سنين متصلة . وخرج اليه محمود بى مرات عديدة ، وحين استعصى عليه ملجؤه فى حصن نايمان القوى رأى من الأصوب أن يفاوضه . حتى اذا ما اشتدت الضائقة بيات قره وعد خصمه بأن يخرج اليه ملتحفا بكفنه ، والقوس والسيوف يتدليان حول عنقه ، دليلا على توبته وندمه . على أنه لم يلبث أن أخلف ما عاهد عليه ، اذ انتهز فرصة المهلة التى منحها محمود بى له فجمع فيها قوات جديدة عاود بها الحرب ، ونزلت الهزيمة بهذا الثائر ثمانى مرات ، حتى وقع قتيلا آخر الأمر فبعثت رأسه الى بخارى .

ولم تكن الحرب التى وقعت بين قبائل المنك والقبجاق الأوزبكية دون سابقتها بما أثارته من المتاعب . وكانت منك تنزل عند ميسنة وأندخوى ، فى حين كان القبجاق ينزلون الى جوار بلخ . وكان من أثر هذه الحروب الداخلية أن انتهزت خيوه ، جارة بخارى الغربية ، هذه الفرصة فانطلقت تغير على البلاد .

وكانت غارات أنوشه خان الجصور ، ابن أبى الغازى ، قد بلغت بخارى نفسها فى عهد عبد العزيز ، على ما رأينا فى الفصل السابق ،

(٢) على سعر القطع الحالى يستبدل الجنيه الاسترلى بأربع وعشرين تنغا فى بخارى وبأربعين فى خيوه (فى سنة ١٨٧٣) .

وأدى به تهوره هذا الى أن نزلت به هزيمة شديدة . وعاد هذا الأمير الى حملاته التخريبية من جديد بعد أن رقى سبجانقلى العرش ، حتى ليتبين انه سقط على سرقند عام ١٠٩٥ (١٦٨٣) .

ولم يلق أحد من أمراء سبجانقلى بالا الى سيدهم وهو فى هذه الملحنة الشديدة التى كانت تمسك بخناقها ، وأعرضوا جميعا عن معاونته فى دفع خطر الاورغنجيون (الذين كانوا ينشرون الدمار فى البلاد كلها الا محمود بى الذى بقى على ولائه الممهود فيه له ، فوقف الى جانبه فى حربه مع أنوشه خان وخاض معه معركة غجديوان ، ثم انطلق بعدها فى اثر العدو يطارده حتى خوارزم . ولم تسع هذه الهزيمة أنوشه المغامر من أن يقدم فى العام التالى على غزو بخارى ، وذلك حين كان سبجانقلى يبلخ ، وان باء بالفشل ، وسقط عليه قومه وهو فى طريقه عائدا الى بلاده فقتلوه .

ورفع الأورغنجيون مكانه ابنه ايرناق (٢) وأجلسوه على اللباد الأبيض . والغالب انه كسب أول الأمر محبة سبجانقلى وتأييده كذلك ، ولكن هذا لم يمنعه من أن يسير على نهج أبيه ، فغزا بخارى عدة مرات بلغ فى احداها — عام ١٠٩٨ (١٦٨٨) — أبواب هذه المدينة حتى لم يعد هناك مجال للسكوت عنه .

فجمع محمود بى جيشا قويا هاجم به خوارزم نفسها وقضى به على جيش خصمه . وما غدا أن قدم الى معسكر القائد المنتصر نفر من أعيان خوارزم فانضموا اليه . واتهى أمر ايرناق من بعد ذلك اذ قضى بالسهم ، وعادت خيوه من جديد الى حظيرة بخارى وان لم تستمر هذه الحال أكثر من عامين .

ظلت بخارى مناط احترام وتقدير حكام المسلمين من السنيين حتى وهى تعيش وسط هذه المحن السياسية التى كانت تعاني منها .

(١) اى الخيويون .

(٢) بالكسر أو بالامالة فى اوله ، وهو اسم تورانى قديم ، وكان على مبلغ علمنا يدعى به أحد أبناء أتيل .

وبرغم مظاهر التفكك والانحيار التي كانت تبدو عليها واضحة جلية فقد غشى أبصار هؤلاء الأمراء ما كان لها من ماضٍ مجيد فلم يلتفتوا الى تفككها الذي صارت اليه في الحاضر ، حتى رأينا السفراء يفدون الى بلاط سبحاتلى من ختن البعيدة ومن كاشغر وبلاد القرم ، بل ومن الهند نفسها كذلك .

فمن الهند بعث سلطانها الجليل أورنكزيب عام ١٠٩٦ (١٦٨٤) بأحد أمرائه ، ويدعى زبردست خان ، ومعه الفيلة وغيرها من الهدايا الى بخارى ليكسب بذلك حاكم بلاد ما وراء النهر الى صفه في حربه مع الفرس الشيعة . ذلك أن سلطان الهند الطموح كان يرى أن جنوح القبائل الأفغانية عند جبال سليمان الى الخروج عليه انما كان بتحريض الفرس . ولما كان لا يريد الاشتباك مباشرة في حرب مع الشاه سليمان ابن عباس الثاني شاه فارس اذ ذاك ، فقد ظن أنه يستطيع أن يحد من نشاطه حين يدفع الأوزبك الى غزو خراسان ، تلك الولاية التي كان الفرس يحرسون على تأمينها كل الحرص (١) .

كذلك بعث السلطان أحمد الثاني (٢) العثماني بدوره بسفرائه من القسطنطينية الى بخارى ردا على احدى السفارات التي كانت قد قدمت اليه في احدى المناسبات . وكانت هذه قد أوفدها سبحاتلى ، لا محمد بهادر كما يذكر المؤرخون العثمانيون ، وكان على رأسها من يدعى مصطفى جاويش . وقد عاد هذا السفير الى بلاد ما وراء النهر عام ١١٠٢ (١٦٩٠) ومعه وثيقة سياسية تعد مثالا صادقا لما كان يستخدمه رجال الباب العالي اذ ذاك في كتاباتهم من أساليب النفاق والبهتان يخدعون بها أنفسهم . فمع ما هو معروف من توالى الهزائم على السلطان أحمد

(١) لم تقع هذه الحرب لتوسط الأميرة جهان آرا (زينة الدنيا) ، وكانت على قدر وافر من الذكاء والدهاء حتى استطاعت أن تعيد الصفاء بين الأميرين .

(٢) رقى أحمد الثاني العرش في ١٤ يولييه عام ١٦٩١ وتوفي في ٦ فبراير سنة ١٦٩٥ .

الثانى فى كل مكان ، بالمجر وبولندا وسوريا وعند شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، فان ذلك لم يمنعه من أن يكتب الى أخيه الأمير الذى يحكم عند جيحون عن الانتصارات الباهرة التى أحرزها على الكفار وأن يستحثه على المشاركة فى ذلك ، حتى ليغلب على الظن أن كتاب الباب العالى لم يكلفوا أنفسهم الا مشقة ثقل بعض أخبار انتصارات محمد الفاتح أو سليم الثانى من كتاب « منشآت سلاطين » (١) لفريدون بك ، ثم بعثوا بها من بعد ذلك الى سبحانقلى بعد أن نسبوها الى سلطانهم . وهذه الرسالة التى ترد فى كتاب « تاريخ مقيم خانى » فحواها نقلا عن الأصل العثمانى هو كالآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم

الى من ورث عرش السلطنة مع الطالع السعيد ، ونشر بساط الأمن والطمأنينة ، ومن خصه الله بعنائه منذ عهد أسلافه ، فخر الدولة سبحانقلى ، نبعث اليه بمزيد لا حد له من التحيات والمجبة الدائمة ، وبفيض من تمنياتنا الطيبة وحبنا الخالص الأبدى . وما تحمله اليكم رسالتنا ، المفعمة بالمودة والمجبة ، هو أن كتابكم الشريف العطر ورسالتكم التى لاحتها الصداقة ، وهى التى بعثتم بها إلينا حديثا ، قد جاءت فى أنسب الأوقات وأسعد اللحظات . وحين تليت على سمعنا الشريف ، وتكشف لنا أسرار مكنوناتنا ، أظهر لنا بلاغتها على ما يطمئنا على سلامة شخصكم الموصوف بالاخلاص وعظيم الصفات ، وجلت لادراكنا العظيم مجريات الأحوال . ولا يخفى على عظيم ادراككم وثاقب عقلكم أننا منذ زمن أسلافنا ، طيب الله ثراهم ، ووقت آيينا ، ساكن الجنان ، حتى هذه الساعة ، قد اخترنا طريق الجهاد وطلبنا مشوبة الله بالعمل على

(١) أى رسائل السلاطين ، وهو كتاب ثمين جمع فيه فريدون بك حاجب مراد الثالث ثمانية عشر الف وثيقة وجدها فى محفوظات السلطنة العثمانية ، وقد طبع حديثا فى القسطنطينية بعد أن أضيف اليه وثائق جديدة .

اجتثاث شأفة الكفار من الفرنجة ، وأهل البدع المرتدين من
القرلباش (١) من وجه الأرض •

ولما كان لكل شيء أوانه ، على ما يجرى به المثل ، فقد رأينا
أن تفرغ أولا من أمر الفرنجة الكفار فيستريح بالناس منهم ، لتلتفت
من بعد ذلك الى القزلباش المناكيد . أما هؤلاء الكفار المناكيد
فبرغم أن اباداة جموعهم البغيضة اباداة تامة هو ضرب من المحال ،
فقد دخلنا معهم مع ذلك في معارك طاحنة خرجنا منها بحمد الله
منتصرين مظفرين ، وسقط منهم في الأسر كثير من أمرائهم
ورؤسائهم وتشتت شمل من بقى منهم من بعد ذلك . على أن
الشیطان سرعان ما وسوس الى أمراء الفرنجة من جديد فجمعوا
جندا كثيفا خرجوا به من امارة أورخان «؟» فهاجموا به دولتنا
المحمية وسطوا على متاع المسلمين . وحين اشتد بغيهم خرجنا
اليهم بدورنا وسقطنا عليهم . حتى اذا ما وجدوا أنهم لا طاقة لهم
بحربنا بادروا بالعودة الى بلادهم والهلح يركبهم ، وبعثوا الينا
بأشرافهم يعلنون توبتهم وخضوعهم ، وحلق العبودية في آذانهم ،
فتقدموا على صراط الطاعة يكررون اعلان اخلاصهم وخضوعهم .
وما لبثت عصبة أخرى من زعماء الفرنجة الأشداء أن ظهرت من
بعد ذلك فشقت طريقها الى بلادنا معتمدة على جموعها الغفيرة .
وأسرع اليهم عند ذلك فريق من جندنا ، فما ان بلغ هؤلاء الأعداء
الحدود حتى سقطوا عليهم فأسروا في هجمة واحدة عديدا من
أعيانهم واستولوا على راياتهم وطبولهم العسكرية وأسلحتهم .
ولم ينج من جموعهم هذه الا عدد قليل آب الى بلاده . هنالك
انضم الجند الذى بعثنا به فى هذه المهمة الى الفرق التى كانت
ترابط عند الحدود وانطلقوا جميعا يطاردون الفرنجة فى بلادهم ،
فساقوهم الى القتل ونهبوا متاعهم ، فلم يفلت من أيديهم الا عدد

(١) وهم الفرس (المترجم)

قليل . وغنمنا بعون الله عددا من الحصون التى طارت شهرتها
فى الخافقين فضلا عن أكداس المتاع والأموال .

واذ استراح بالناس من ناحية المشركين فى هذه الجهات ، وبات
طالعنا السعيد يعلو نجمه كل يوم ، ونحن على حمد الله وشكره ،
فستتقرب الى الله بأن نجعل هدفنا وغايتنا هو ابادة المشركين من
القرلباش ، لا يشغلنا عن ذلك أى شغل أو يعوقنا دونه أى معوق .
وعلى هذا فسنبسّر جنودنا المظفر لقتالهم من فوره ، فقتلهم حصون
هؤلاء القوم بعون الله وبركة الرسول .

وسنكتب اليكم فى ذلك فور تخطينا الحدود . وأنتم
بوصفكم سلطان بلاد ما وراء النهر ، وحاضرتكم هى مثابة العلماء
والأعلام ، على ما هو معروف من قديم الزمان ، فالأموال ، كما
هو الحال ، أن تجردوا بدوركم سيفكم لاقامة حدود الشرع
وحماية الاسلام . فعليكم أن تجهزوا جيشا من الأوزبك فى بلادكم
فيشارك مع جندي المظفر فى القضاء على هؤلاء الذين اعتدوا على
حرمة الدين ، ويقتلع الأشواك والقتاد من وديان العراق العامرة .
ولا نريد بذلك أن نشق عليك بحال من الأحوال ، وانما قصدنا
بكتابتنا هذا اليك أن نتهم هذه الفرصة فتشارك فى هذا الواجب
الدينى المقدس » .

وحين تلقى سباحتلى هذه الرسالة الطنانة المليئة بالمبالغة من سلطان
الروم — وهو اللقب الذى كان يشتهر به السلاطين فى أقصى المشرق —
لم يجب عليها بتسيير الجموع الحاشدة من الأوزبك عبر جيحون ، وهو
المسلم الغيور الذى كان يكن عميق الاحترام لأمر المؤمنين خليفة
الرسول ، وذلك لما كانت عليه بلاده من التفكك بطبيعة الحال ، فضلا
عن عدم ميله بطبيعته الى خوض غمار الحرب . وهو حين تعرض للنزاع
مع الثائرين عليه من أمرائه ، ذلك النزاع الذى استطاع أن يحد منه بعض
الشيء حين عهد بأمره الى محمود وفوضه فى ذلك تفويضا تاما ، فكان

جديرا بما وضعه فيه من ثقة ، فانه لم يقدم على مواجهة هذه الخطوب
بشخصه الا حين كان يضطر الى ذلك اضطرارا .

ولقد نصحه النصحاء أن يقضى على الحرب الأهلية في بلخ بتنصيب
ابنه مقيم خان حاكما عليها ، فلم يقبل العمل بهذه النصيحة الا بالكاد ،
اذ كان يحتج بأن ابنه لا يصلح لهذا المنصب ، ويرى انه ينقصه العلم
والنضج . وكان سبحانه يبدؤ به كلفا بدراسة العلوم ، ولم يكن يألف
حتى حين تقدمت به السن من الجلوس الى كبار العلماء وتلقى العلم
عنهم . وقد نظم ، بتخلص نشاني ، أشعارا لها أكثر من قيمتها كشعر
سياسي عادي . وكان على تفوق في الطب بخاصة بين العلوم الدنيوية .
وبين أيدينا دليل بين على ذلك في كتاب ألفه في هذا العلم ، وكان من
حسن حظي أن حصلت في هراة على نسخة جميلة الخط منه .

ويقول هذا الأمير النبيل في مقدمة هذا الكتاب القصيرة « اعلم
أن حكماء الأطباء الذين مضوا قد خلفوا من ورائهم أسفارا قيمة بالعربية
والفارسية . ولم يصل الى يدي كتاب بالتركية في هذا العلم . وعلى هذا
قمت أنا الفقير اليه تعالى سيد محمد سبحانه على خان بن سيد نظر خان
روح الله روحه بتصنيف هذا الكتاب ، وبينت فيه دواء كل داء لينتفع
به الناس » (١) .

ولا نجد كذلك لهذا الأمير نظيرا في حرصه على العناية بصحة
شعبه . وقد تقدمت سبحانه على السن حتى بلغ الثمانين . وحين شعر بدنو
أجله ، بعد مرض قصير ، جمع خاصته من حوله وأوصاهم بأن يرضخوا
لمشيئة الله دون شكوى أو تذمر ، وأبدى أسفه اذ لم يتح له وداع ابنه
العزيز مقيم خان ، وكان قد بايعه منذ زمن طويل وليا لعهد . وبعد أن
أوصى بأقامة أخيه الأكبر عبيد الله وصيا على العرش حتى يرشد مقيم
خان فارق الدنيا أوائل ربيع الآخر عام ١١١٤ (١٧٠٢) بعد أن حكم واحدا

(١) نقلت جزءا من هذا الكتاب في كتابي :

Tschagataische Sprachstudien :

ويعتمد فيه مؤلفه على الترجمة العربية لجالينوس وإبقراط ومؤلفات
أبي علي بن سينا ، وأغرب ما فيه هو ما وصفه من العلاج بالدعوات والتعاويد

وثلاثين عاما في بلخ وأربعة وعشرين عاما في بخارى ، فجملة ذلك كله خمسة وثلاثون عاما ، كان في بعضها خصما ثائرا قويا وفي البعض الآخر أميرا مستقلا .

كان اعتمادى على ما ورد عند صاحب « تاريخ مقيم خانى » ، وذلك في ايراد وصية سبغانقلى بشأن ولاية العهد التى ذكرتها فيما سبق . ولا نستطيع أن نجزم بأن هذا هو الصحيح ، أو أن ذلك الكاتب انما أورد هذه القصة على هذه الصورة لصالح سيده . على أن الأمر الوحيد الثابت هو أن النزاع على العرش قد شب بين الأخوين وذلك على اثر موت أبيهما ، واستمر لبضع سنين .

ذلك أن مقيم خان حين بلغه وهو ببلخ خبر وفاة أبيه أرسل الى أخيه أول الأمر برسالة عزاء ثم بعث اليه رسولا من بعد ذلك يهنئه بارتقائه العرش .

واذ كان عبيد الله يدرك تمام الادراك مدى مشاعر أخيه العدائية نحوه فقد عمد الى استقبال رسوله اليه ببرود ظاهر . وما غدت الحرب أن نشبت من بعد ذلك بين قسمى المملكة ، ما وراء النهر وما قبل النهر . وظاهر محمود بن الأمير مقيم فى حين ظاهر عبيد الله رحيم بنى الأتاليك زعيم قبيلة المنغيتيين وكان القتال بين الفريقين فى الواقع صراعا بين القبيلتين الأوزبكيتين أكثر منه نزاعا بين مطالبين بالعرش . ذلك أن احترام الأسرة المالكة كان قد نزل الى الحضيض ، وصار الأمراء بعد موت سبغانقلى مجرد دمي لا حول لهم ولا قوة بأيدي النبلاء من ذوى الأطماع . وتم لعبيد الله النصر آخر الأمر بعد صراع دام ما يقرب من خمس سنوات . وظل على العرش طالما وافق ذلك أغراض رحيم بنى الأتاليك القوى . حتى اذا ما حاول عبيد الله أن يتخلص من شدة وطأة ظهيره هذا عليه عام ١١٣٠ (١٧١٧) (١) كشف أمره فقتل وأجلس مكانه أخوه أبو الفيض خان . وكان هذا الأمير على درجة شديدة من الخضوع والاستكانة ، وهى

(١) اعتمدت فى ذلك على الرواية بالمشافهة التى سمعتها فى بخارى إذ لم تصل يدى الى مصادر تاريخية فى ذلك أستطيع ان أعتمد عليها . ومما يلفت النظر انه ليس بين أيدينا مراجع وثيقة عن تاريخ بخارى الحديث .

صفات يعتذر عنها سكان آسيا الوسطى رياء بأنها ليست الا « وداعة
التقى وصفة الدرويش » .

وبفضل هذه الصفات طالت مدة حكم هذا الأمير الاسمى بلا نزاع ،
فظل يحمل التاج على مفرقة أربعين عاما كانت السلطة الفعلية فيها بأيدي
رحيم بى ورجال قبيلته .

وكان الجانب الأدنى من جيحون ، ونعنى به بدخشان وبلخ ، يحكمه
فرع آخر من هذه الأسرة المالكة يتمثل فى شخص حفيد لاحدى بنات
نظر محمد خان . وكان صالح خوجه رأس تلك الأسرة قد انغمس فى
حرب دامية أيام سبجناقلى مع مقيم خان ومحمود بى بسبب ولاية بلخ ،
فلم يتم له توطيد أقدامه فى بلاده الا بعد أن انسحب محمود بى من
الميدان . وكان هذا الأمير قد احتال فى نزاعه هذا باتتحال بعض صفات
دينية معينة ادعاها لنفسه استطاع بها أن يكسب أهل بلخ لصفه أمدا
طويلا . ولم يبق على بعض الولاء لبخارى فى هذا الجانب من جيحون
الا أندخوى وميمنه مع تركمان لباب (١) أو ارساى تركمان . ولم يجد
ولاؤهم هذا الا قليلا فى تأجيل تحلل هذه البلاد أو خرابها . ولم يكن
الأمر ليجتاح الا لهبوب بعض الريح فتنهار بذلك رقعة بيت الأشرخانين ،
فما بالك بتلك الريح العاصف التى هبت عليهم من ناحية ايران ممثلة فى
شخص نادر شاه (٢) .

(١) تركمان لباب أو تركمان الشاطيء يعرفون بهذا الاسم منذ أن
استقروا بهذه النواحي ، اذ كانوا قد نزلوا عند الشاطيء الأيسر لجيحون
من خوجه صالح حتى چهارجوى ، ويؤكد هؤلاء التركمان أنهم كانوا قد
قدموا من منفشلاق .

(٢) على ما يرويه ميرزا مهدي مؤرخ نادر الذى يعرف أيضا باسم
نادر قلى ، فان هذا الشاه الفارسى ينحدر من قراقلى احدى بطون قبيلة
افشار ، أو أوشار على الأصح ، واللفظ الأخير هو على ما ينطق به
التركمان ، ومعناه : المؤلف . وكان الأوشار قد نزحوا من تركستان الى
ايران ابان الاحتلال المغولى وسكنوا آذربيجان ، ثم هاجروا أيام الشاه
اسماعيل الصفوى الى خراسان فنزلوا فى ياب كوبكن من أعمال أبيورد ،
وتقع على مسيرة عشرين فرسخا الى الشمال الغربى من مشهد . وعند
حافة السهوب هناك ولد نادر شاه يوم السبت السادس من المحرم عام
١١١٠ (١٦٩٨) .

لئن كان آخر غزاة العالم الآسيويين هذا لم يزحف بجيوشه المظفرة نحو الشرق الا بعد أن جلس بالفعل على العرش ، فما ذلك الا لما كانت عليه الأقاليم الواقعة الى الشرق من ايران من الضعف اذ ذاك حتى لم يكن خطرها عنده في المقام الأول . ولم يكن هذا الوصف يشمل بلاد ما وراء النهر فحسب ، بل ويصدق على الهند أيضا . ولقد حاز نادر انتصاراته الأولى ، التي أذاعت من شهرته ، في حروبه مع خصمه القوى في الغرب ، فلم يبدأ في توسيع رقعة بلاده في ناحية الشرق الا بعد أن تم له هزيمة العثمانيين في جورجيا والعراق العربي . وفيما كان يحاصر قندهار بعث بابنه رضا قلى مع فرقة قوية من الجند فسلك طريق بادغيس ومرجه - مروجان السابقة - ليعاقب على مردان أمير أندخوى على ماصدر منه من نزق وتهور . وقد وقع هذا كله عام ١١٤٩ (١٧٣٦) . والغالب أن بدو الترك عند أندخوى هم وقبائل قره وجلالير سارعوا بالانضمام الى الفرس الذين أغروهم على ذلك بالمال الكثير . ولم يكن الدفاع عن هذا المكان ليتم أبدا دون معونة هؤلاء البدو . وسرعان ماتمت هزيمة على مردان وسبق هو نفسه أسيرا الى نادر شاه . ولقيت أقبه وشپورغان نفس المصير الذى لقيته أندخوى من قبل ، فلم يقدم على الوقوف الجدى في وجه هذا الغدو القوى الا بلخ حيث كان يحكم سيد أبو الحسن بن صالح خوجه سالف الذكر . وعمد المدافعون هناك الى حفر كثير من الخنادق العميقة فى الطريق المؤدى الى « أم البلاد » (١) القديمة فلم يعوق ذلك رضا قلى فى زحفه فى شىء . وسرعان ما أرغمت مدفعيته القوية حصن المدينة على الاستسلام ، ولم يكن يحميه الا سور من الطين . واغتبط نادر شاه أشد الاغتباط حين سمع بسقوط بلخ ، وكافأ ابنه على ذلك بأن منحه اثنى عشر ألف دوقية من الذهب ، وخلع عليه ثلاثمائة من الخلع الثمينة مع خيول مطهمة سروجها ولجمها مرصعة بالذهب والحجارة الكريمة .

(١) ان فى اطلاق العرب هذا الاسم على بلخ ما يدل على معرفتهم بماضيها المجيد .

شعر رضا قلى من بعد ذلك بأن عليه أن يحقق أهدافا جديدة . فسا
أن انطلق بعض جنده يغيرون على الشاطيء الآخر ليجحون طلبا للنهب
والسلب حتى عبر النهر بجيشه كله فهاجم أبا الفيض . على أن ابن نادر
شاه الطموح هذا كان قد أخطأ في حسابه هذه المرة . ذلك أن أبا الفيض ،
ذلك الصوفى الراهن ، كان قد استتجد بيولبرس (الأسد) خان أميرخيوة
القوى الجصور فسار اليه بجيش من الأوزبك الأشداء قطع بهم الطريق
على الفرس عند قارشى . ولئن كان الغزاة قد نجحوا في الواقع في
الاستيلاء على قلعة چلدوق القريبة ، الا أن جيوش التتار المؤتلفة قد
استطاعت أن تنزل بهم ضربة شديدة على كل حال . هنالك رأى نادر شاه
أن يتفادى تعرض جنده لكارثة ، فاستدعى ابنه اليه فجأة ، وبعث في
الوقت نفسه الى أمراء آسيا الوسطى والى زعماء الأوزبك ينهى اليهم
أن هذه الحرب انما كان ابنه قد أقدم عليها دون علمه ، وأنه انما يرغب
أن يعيش معهم في مودة وسلام ، فلم يجر في خاطره أبدا أن يتعرض
لأملاكهم التى ورثوها عن چنكيز خان وبيوت التركمان العظيمة .

وعلى ما يلاحظه مالكولم بحق ، في كتابه عن تاريخ الفرس ، أن الجلى
أن سلوك نادر هذا كان من وحى فطنته التى حببت اليه أن يعمل على
تحقيق أطماعه في اعتدال ، فلا يحمل ذلك بحال ما على محمل غيرته مما
وصل اليه ابنه من أمجاد . وبرغم ما كان عليه حاكم بخارى من الضعف ،
فان الأوزبك كانوا كفيلين بتعويق عمليات نادر الحربية في الجنوب لو
أنهم كانوا قد قاموا جميعا مؤتلفين بعمل مشترك ، وهو ما كان الشاه
الفارسى يحرص بدوره كل الحرص على عدم وقوعه . وقد نجح بهذا
الطريق الودى الذى ادعاه في فض التحالف بين بخارى وخيوة . وحين
تقدم يولبرس ، في غياب نادر شاه ، فأغار على خراسان وسبب لأميرها
رضا قلى بذلك كثيرا من المتاعب ، وقف الأوزبك في بخارى ، وعلى
رأسهم رحيم بى أناليك ، الى صف الفرس بما بذله نادر شاه اليهم من
الأموال والوعود الفارسية . ويسر من انضمام هؤلاء الى جانب الفرس
ما استبان لهم من أن قيام التفاهم بينهم وبين خيوة لا يؤدي الى تقوية
الاشترخانيين بقدر ماسوف يؤدي الى احباط أطماع قبيلة المنغيتيين على

وجه اليقين . ولا ندرى شيئا من تفصيل أمر الشقاق بين هاتين الخائيتين . ومبلغ علمنا هو أن نادر شاه حين آب من حربته المظفرة بالهند وجد أن رحيم بي قد مهد له الطريق ، فلم يعبر جيحون دون أن يطلق قذيفة واحدة فحسب ، بل لقد وجد القوم كذلك يستقبلونه بمراسم الاحترام والاحلال . فقدم اليه حكام حصار وقارشي عند كرخي فأعربوا عن ولائهم له . وأعد له قارب ، قام مهرة العسال البخاريين على نقشه بالميناء خصيصا ، فعبر به ذلك النهر الذي كان يفصل في القديم بين توران وايران .

واذ كنا لانعرف من تفصيل حروب العاهل الساساني فيروز فيما وراء جيحون الا مما يليقه علينا القصص الشعري من بعض الأضواء ، فعلى هذا يمكننا أن نعد « نادر » أول ملك فارسي يلبس تاج الكيانيين ويحكم كملك شاطئي ذلك النهر الغربي الحريريين (١) ، على حد قول الرودكي . وأقام نادر مضاربه على مسيرة أربعة أميال من بخاري ، وجلس في سرادقه الفخم في انتظار أبي الفيض ليقدم اليه ويعلن خضوعا له . وكان رحيم بي أتاليك قد بعث به الى بخاري ليحمل أميرها آخر الأشرخانين ، على القدوم الى شاه فارس . ولم يصادف رحيم بي مشقة فيما ندب له ، فقد وجد الجنكيزي ، ذا الدم النقي ، كما كان يحلو للأشرخانين أن يقولوا عن أنفسهم ، وهو يجلس وسط خلصائه وقد استغرقوا جميعا في التأمل في أحوال الدنيا الفانية . وهكذا قدم أبو الفيض في فرقة من الشيوخ الى المعسكر الفارسي في التاسع عشر من جمادى الآخرة عام ١١٥٣ (سبتمبر سنة ١٧٤٠) ونزل في السرادق الذي كان قد أعد له ولحرسه . وتقدم بولائه في اليوم التالي الى نادر شاه ، فأهداه الشاه الفارسي بهذه المناسبة منطقة مرصعة بالحجارة الكريمة وفرسا عربية سرجها مذهب وعدة هدايا أخرى . وعامل نادر شاه أبا الفيض

(١) يشير الرودكي الى ذلك في شعره حيث يقول :
ريك دريا آمو ودرشتيهای او زير پايم برنيان آيدهمي
اي ان رمال شاطيء جيحون وحصاه تحت قدمي وكأنها الحرير .
والرودكي هو أول شاعر في الفارسية الاسلامية يتفنى بمدح بخاري .
(چهار مقاله الترجمة العربية لغزام والخشاب)

كملك أخ ، ولكنه طلب اليه في الوقت نفسه أن يتنازل له عن كل مناطق شاطيء جيحون القريب وأن يمدّه بفرق من الأوزبك والتركان . ووثق الطرفان ما بينهما من تحالف بربط بيت الأفشار من عرق الچنكيزيين العريق برباط المصاهرة .

وبعد أن بنى أحد أبناء اخوة نادر بابتة الأمير الورع انطلق شاه فارس فزحف الى خوارزم ليصنّف حسابّه مع يولبرس ، وهو الذي بات في الميدان وحيدا . ونجح نادر في حملته هذه ليلتقى به من بعد ذلك أمير بخارى عند جهارجوى ، وهو في طريق عودته ، فيؤكد له من جديد ولاءه له وخضوعه . ودخل نادر مدينة مشهد دخول الظافر فأهدى الى مقام الامام على الرضا ، ولى ايران ، قفلا من الذهب المحلى بالجواهر كان قد غنمه من التورانيين . وهذه الهدية هي أثمن حلية تزين السور الفضى المقام حول ضريح حفيد على العظيم (١) . وحين انضم هؤلاء التورانيون الى الجيش الفارسي صارت فرقهم المخوفة ، ومعها الأفغان ، مصدر رعب مقيم للفرس الشيعة .

ان ما حققه نادر شاه من مكاسب بحملته عبر جيحون ، سرعان ما ضاع عقب موت هذا الفاتح البطل وذلك بمجرد أن هدا الغبار الذي أثاره وقع حوافر خيول فرسانه . على أن كسره لشوكة الاشرخانين قد عاد على هذه الأسرة بعواقب وخيمة . فقد هان شأن أبى الفيض خان حتى صار مجرد آلة بأيدي وزيره الطمّوح ، فخلعه آخر الأمر وقتله عام ١١٥٠ (١٧٣٧) . ولاقى ابنه من بعده نفس مصيره ، وكان قد تزوج ابنة لرحيم بى . ومع ما يقال من أن ثمة أميرا ثالثا من الاشرخانين قد رفع سوريا على العرش ، فان أبا الفيض ، أصغر أبناء سباحتلى ، هو الذى يعد في

(١) فقد قسم كبير من هذه الجواهر الثمينة فى حرب أحمد شاه الأفغانى . وبرغم أن « مشهد » تركت لشاهرخ ميرزا بن نادر فان الأفغان قاموا بتخريبها تخريبا شديدا . هذا كما استعان الثائر سالار بقسم آخر من كنوز الامام الرضا ، وذلك فى حربه مع شاه فارس الحالى . وقع مثل ذلك بكثير من أضرحة الأولياء . وهكذا تزدان قبور الأولياء بكل ماهو ثمين لينتزعها من بعد ذلك رجال من ذوى الطمّوح يستعينون بها فى القتل والحرب .

الحقيقة آخر حكام هذه الأسرة . ذلك أنه إبان حكمه ، الذى طال ما يقرب من خمسين عاما ، أخذت تخبو آخر ومضات العظمة السياسية والأهمية الاجتماعية ، التى كان يتفوق بها هذا الاقليم الصغير ، الواقع على جيحون ، على كثير من شعوب آسيا الاسلامية فيما مضى .

ولا نجد ما نتحدث به عن الحضارة فى تلك الفترة بعد ذلك الذى ذكرناه عنها فيما سبق . ففى هذه الحقبة كانت الدولة العثمانية وفارس والهند تزدهر فيها جميعا حضارة اسلامية قوية ممتازة . وكانت القصور السلطانية فى القسطنطينية وأصفهان ولاهور قد غدت تتصل بالغرب بواسطة من كان يقصدها من الأوربيين فى ثياب السفراء أو التجار أو المبشرين . فى حين بقيت بلاد ما وراء النهر فى عزلة عن العالم ، يبدوها الأجلاف الذين تولوا الأمر فيها ، وبسهولها المقفرة ، متمسكة تمسكا شديدا بعقلية القرون الماضية ، حريصة على ذلك كل الحرص ، حتى جهدت فى أن تبز السلف الصالح فيما كانوا عليه من الاستمسك بقواعد الشرع . وعلى ما لاحظنا من قبل ، فقد كان العلم ، كما يفهمه الناس على شواطئ زرفشان ، هو تفسير القرآن والفقه فحسب . ومثال الكمال عندهم كان فى حياة الصوفى التى يقضيها يسخر من تكالب الناس على الحياة ، وهو يرى أن الدنيا وما فيها لا تساوى شيئا . ولو أن رجلا فى بخارى كانوا قد عرفوا كيف يربطون بين نوازع المعرفة والعلم النبيلة وبين الاستمسك المكين بسنن الاسلام ، على ما كان عليه الحال فى الماضى بقرطبة ودمشق وبغداد ، فلربما كان قد أمكن لهم بذلك أن يحتفظوا ببعض آثار الثقافة الاسلامية القديمة حتى فى أسوأ أوقات الانحلال والضعف . وكان ما منعهم عن تحقيق ذلك هو كلفهم بالحروب مع غلظة الترك من جهة ، وموقع بلاد جيحون المنعزل من جهة أخرى . وعلى هذا فلم يكن للأمرء على ضفاف زرفشان من مظاهر النشاط ومن الأمجاد التى كانت تسود بلاط أمراء المسلمين ، من أمثال هارون الرشيد وعبد الرحمن الثانى ، الا حرصهم على المظاهر الدينية . ولقد وهم أمراء بخارى أنهم انما يضطلعون بواجباتهم على الوجه الأكمل حين لا يتقاعس المؤمنون عن أداء

الفروض ، ويسيرون فى كل فعالهم على ما كان يجرى عليه الحال (وقت
سعادت) ، أى فى عصر الاسلام الذهبى الأول .

ولم يظهر عند الاشترخانيين الأول من الشعراء والكتاب الا قليل ،
وكان هؤلاء ممن يشتغلون بالتأريخ بحروف الجمل من بقايا شعراء
الشيانيين . وكان من بين الاشترخانيين أنفسهم من أظهر كفاية مشهودة
فى الحكم وكلفا حقا بالثقافة . ومن هؤلاء امام قلى والأمير قاسم محمد
سلطان ، ثم النبيل سبهاقلى بخاصة . وما أبداه أولهم من اهتمام
بالغ بالزراعة لاتزال آثاره تلمس حتى اليوم فى قنوات الرى المهمة التى
تحمل اسمه . كما ترك قاسم محمد بدوره ديوانا مشهورا يشهد بما كان
له من ملكات شعرية . ولا أدل على شغف سبهاقلى بالعلم من كتابه فى
الطب الذى أشرنا اليه من قبل . ولم تكن جهود هؤلاء بطبيعة الحال لتغير
الا قليلا من عقلية الناس الهمجية وضيق أفقهم . وما فعله هؤلاء الأمراء
الثلاثة ، الواحد بعد الآخر ، حين استبدل كل واحد منهم الصولجان
بعصاة الحاج ومجر عرشه المتلألئ ليقضى بقية حياته فى المدينة الى جوار
قبر الرسول ، لا نجد له شبيها فى التاريخ الاسلامى . وهو فى حد ذاته
دليل كاف على أن الزهد والمبالغة فى الورع والتقوى كانا الظاهرة السائدة
هناك فى ذلك الوقت .

على أن العناية بدراسة علوم الدين كانت ضئيلة بالقياس الى ذلك
كله ، فلم تنشأ الا بضع مدارس ومساجد بنيت أيام الاشترخانيين وكانت
دون ما أقامه من سبقوهم ، وذلك بسبب الاضطراب الاقتصادى الشديد
الذى كان يسود البلاد . وعلى ما رواه سيد راقم كانت بخارى وسمرقند
عام ١٠٣٠ (١٦٢١) تزخر بالمنشآت الفخمة التى كانت قد أقيمت فى
قرن سابق لذلك الوقت ، وكانت يد الخراب قد بدأت تمتد اليها لاهمال
شأنها . أما منشآت الاشترخانيين أنفسهم فكانت مدرسة يلنكتوش التى
بنيت عام ١٠٢٠ (١٦١١) فى مواجهة خرائب مدرسة ألغ بك ، ومسجدا
ومدرسة ببخارى أقامهما الثرى نظر ديوانيكى عام ١٠٢٩ (١٦٢٠) ثم

ايوانين (كورونوش خانه) كان قد أقامهما باقى محمد خان فى بخارى
وفى سمرقند عام ١٠١٤ (١٦٠٥) .

وأما فى خارج بلاد ما وراء النهر فقد كانت بلخ هى المدينة التى
كثيرا ما تردد ذكرها بسبب الاصلاحات اليسيرة التى قام بها حكامها فى
مقام على المزعوم ، وكان مؤرخو ذلك العهد يهللون لها على الدوام .
وكانت الآداب قد وصلت بدورها فى هذه الفترة الى درجة بالغة من
الانحطاط . ومع ماكانت عليه دراسة التصوف وعلم الكلام من الرواج
فاننا لانجد من بين دارسيها من برز فى علمه ، فلا يسلك بين مشاهير
الرجال منهم الا قلة من المشتغلين بالتصوف ومؤرخى الجُمُل تجاوزا .

الفصل السابع عشر

بيت المنغيتيين والامير معصوم

١١٩٩ - ١٧٨٤ (١٧٨٤) - ١٢٤٢ (١٨٢٦)

في الوقت الذي أخذت فيه معلوماتنا عن أحوال الأقاليم الآسيوية ابان القرن الماضي تزداد وتكمل ، لبثت بلاد ما وراء النهر والحال فيها على النقيض من ذلك . فكلما كان يقترب تاريخها من عصرنا الحالي ، كلما كانت تزداد كثافة الغموض التي تلف الأحوال السيئة التي كانت تمر بها تلك البلاد . واذا كان تاريخ مايجاورها من دول لايدلنا على شيء يوثق به عنها ، واذا كان الرحالة الأوربيون (١) لم يجرؤوا على النفاذ الى هذا البلد الذي كان ينحدر الى هوة المهجية ، فلا حيلة لنا لتقاء ذلك كله الا أن نقنع (٢) في ذلك باللمحات الخافتة التي تصل الينا عن طريق تلك الومضات القليلة التي تنير لنا الطريق هنا وهناك . وقد زادت كثافة هذه الظلمة التي تلف ذلك المكان في تلك الفترة التي قضى فيها على أسرة

(١) زار الرحالة الأوربيون في العصر الحديث بخارى فقط وذلك اوائل هذا القرن . وقد اقام الاخوة بولو ثلاث سنوات هناك من قبل في عهد براق خان ١٢٦٤ - ١٢٧٤ . هذا كما زار بخارى عام ١٥٥٨ - ٥٩ جنكينسون الذي ساح بآسيا الوسطى مع الاخوة جونسون ، كداعية لنسيج المصانع الروسية .

(٢) علمت عن طريق صلتى بسير هنرى راولنسون أن بمكتبة حكومة شرق الهند والمتحف البريطاني عدة مخطوطات تتناول تاريخ بخارى المتأخر ، وهى لسوء الحظ لا تعار خارج تلك الدور . ولما كانت ظروفى الحالية لا تسمح لى بالرجيل الى هناك ، فانى آمل أن أفيد منها مستقبلا اذا ما كان فيها هو حقيقة جديد غير معروف .

الأشترخانيين وأمسكت أسرة المنغيتيين (١) من بعدهم بزمام الأمور .
ولئن كان هذا الحادث مما يسهل تعليله الا أن الغموض ما يزال نكتنف
تفصيله .

ولئن كان هؤلاء المنغيتيون ، وهم الذين اختاروا بلاد ما وراء النهر
مقاما لهم من بين أسر الأوزبك العديدة ، هم الذين قضوا على بيت
الأشترخانيين المتداعى ، فلم يكن صنيعهم هذا بمحض الصدفة بقدر
ما كان نتيجة للمكاسب التي حصلوا عليها منذ أول ظهورهم بآسيا
الوسطى .

وكانت قوتهم قد أخذت تتزايد منذ أن أخرجهم چنكيز خان من
موطنهم الأول بالغابات عند منغوليا الشمالية الشرقية وأسكنهم شواطئ
جيجون . وكانت منازلهم الجديدة هذه باقليم الغابات على الشاطئ
الأسير لجيجون حيث يقطن الآن قرقلباق خيوه . وفي ذلك المكان أسدوا
خدمات طيبة لأمرأى خانية خيوه . وكانوا يشتهرون بشجاعتهم ونبل
محتدم بين قبائل الترك بعد القنقرات . وعلى هذا فقد استخدم شيانئ
فريقا منهم . وكانوا هم أولئك الذين استقروا من بعد ذلك بخانية بخارى
فى منطقة السهوب جوار قارشى .

وكان لهؤلاء على الدوام نفوذ ملحوظ ببلاد بخارى ، لا لما كانوا
عليه من جسارة وتهور فى الحرب فحسب ، بل ولاخلاصهم للأسرة المالكة
كذلك . وكان بائى قبيلة المنغيت (الزعيم الأشيب) من أخلص أتباع
الأمير الحاكم ، مابقى الأمراء الأشترخانيون على قوة يمارسون سلطانهم
الحقيقى . حتى رأينا رحيم بى أيام أبى الفيض يعدل عن ذلك ويتوسل
بمنصب الوزارة الذى تقلده الى اغتصاب سلطة الأمير نفسه ، فلا يقضى

(١) يؤكد أبو الغازى فى كتابه عن أنساب الترك (ص ٢٧ طبعة قازان)
أن المنغيتيين عرفوا بهذا الاسم اذ كانوا يعيشون فى غابة كثيفة أيام كانوا
تحت سلطان چنكيز خان . ولا يستطيع أن أفهم كيف يحمل كلمة منغيت على
معنى الغابة الكثيفة . وكان الكتاب الجفتائيون القدماء يسمونها
« منغيت » . والمنغيت الحاليون ينقسمون الى فريقين ، أحدهما يعيش
فى منطقة خيوه ، التى تحمل اسمهم ، على الشاطئ الأسير لجيجون ، والآخر
ينزل حول قارشى .

على أبى الفيض فحسب بل ويقتل ابنه كذلك ، وكان قد زوجه من ابنته من قبل . وخلف رحيم بى فى منصب الوزارة وفى زعامة المنغيتيين دانييل باى وكان على قرابة بالأشترخانين من ناحية أمه .

ولعل قرابته هذه هى التى مكنته من أن يستبد بالأمير أبى الغازى ، أحد أحفاد أبى الفيض ، فيجعل منه مجرد عاهل بالاسم ، ويُنزل ، باسمه ، أشد أنواع المظالم بالناس وينهب أموالهم . ويقال ان أبا الغازى ، آخر أمراء بلاد ما وراء النهر ممن كانت تجرى فى عروقهم دماء جنكيز ، كان يعيش فى رعب مقيم خوف وزيره ، حتى كان لايجرؤ على مغادرة داره دون إذن منه .

ولم يكن يظهر دانيال باى هذا قادة الجند فحسب ، بل وطبقة رجال الدين أصحاب الأطماع كذلك . وكان من أيسر الأشياء لديه أن ينادى بنفسه أميرا على البلاد ، ولكنه آثر أن يترك هذا الأمر لابنه معصوم الذى أفلح ، بالحيلة والرياء ، فى أن يحمل أهل بخارى على المنادة به أميرا عليهم ، وكانوا قد ضاقوا ذرعا بالفوضى الضاربة بين ظهرائهم .

كان الأمير معصوم يدعو أبوه فى صغره بلقب بك خان (١) (حبيب القلب) . وحين شب على ما كان يرجوه أبوه منه صار يدعو شاهمراد (أمل الأمير) . وفى هذا الأمير كان يتمثل على خير وجه موجة الصوفية التى عاش فيها ، وبه بلغت ذروتها . بل لقد نهض فى شبابه بجماعة المتصوفة نهضة ملحوظة حتى استعاض بخرقه الدرويش عن ثوبه الرسمى . وفيما كان اخوته وأقاربه يقضون حياتهم فى خصومات عنيفة كان هو يقضى أيامه فى الخوانق والمساجد مستغرقا فى التأملات الدينية لا يسمح لأحد أن يقتحم عليه خلوته هذه . بل لقد ذهب به الحال الى أن رفض أن

(١) من العادات التركية القديمة التى لا تزال قائمة بآسيا الوسطى حتى اليوم أن يطلق الأب على ابنه البكر من أسماء التذليل مثل : بابا جان (الولد العزيز) ، أو خان جان (الأمير العزيز) ، أو بك جان (الزعيم العزيز) وليس الحال كذلك مع البنات . وكان مولدهم لا يحفل به الوالد الأسوى أبدا .

يتسلم ميراثه عن أبيه وأمر به أن يفرق صدقات في الناس ، وأن يرد الى أولئك الذى اغتصب منهم ما أمكن ذلك ، فلم يقبل أن يندس يده ، على حد قوله ، بالمال الذى جلب اليه بطريق القهر والعنف . وذهب في سبيل اظهار حزنه وأسفه على ماكان يرتكبه أبوه من المظالم الى أن كان يلبس ثياب الندم ويلقى السيف في رقبته ثم يسقى على هذه الهيئة ييكى وينوح في الطرقات ويسأل الأهلين الصفح عما وقع عليهم من الجور في حكومة أبيه . ولنا أن تتصور مبلغ ماكان يثيره سلوكه هذا بين الناس من شعور الاجلال والاحترام نحوه ولا سيما بين رجال الدين منهم ^١ ، ولو كان مير معصوم قد رغب في أن يستغل هذا الوضع من فوره ، لكان قد استطاع عقب وفاة أبيه ، أن يحرز في التو نصرا مبينا على اخوته وعلى العصاة من النبلاء في بلاده ، ولكنه آثر أن يترث بعض الوقت حتى يستند في عملياته المقبلة على أسس أكثر رسوخا .

وقضى هذا الأمير عاما آخر في الخلوة بالمقصورة الأمامية بالمسجد الجامع كتب فيها أحسن مؤلفاته وهو كتاب « عين الحكمة » ^٢ ، وكان يكفيه ورود الجموع الحاشدة من المعجبين الذين كانوا يتجمعون عند داره أو يسيرون بين يديه في الطرقات فيدعو لهم بقراءة الفاتحة أو بأنفاسه الطاهرة المستجابة .

على أن الاضطرابات كانت قد توالى وتفاقم أمرها حتى شملت البلاد كلها ، وامتد الصراع بين هذه الأحزاب المتطاحنة الى العاصمة نفسها ، حتى سقط في احدى هذه المصادمات قرابة ألف من أهل هذه المدينة كان من بينهم بعض اخوة للأمير . وحين وجد الأمير الضعيف أبو الغازي أن لا قبل له بتهدئة هذه القتن ذهب في نفر من الأعيان الى المسجد الذى يعيش فيه مير معصوم فتوسل اليه أن يقبل منصب الوزارة

(١) صار الرسم منذ ذلك الوقت ان يمضى كبار رجال الدولة بقية أيامهم ، حين ينسحبون من الحياة العامة ، لا في أملاكهم وانما في خانقاه أو مدرسة .

(٢) مبلغ علمى أن مير معصوم كان يكتب فقط بالفارسية ، فكان بذلك أول أمير ببخارى يهمل لسانه الأصلى ورعا . ذلك أن أسلافه برغم أجادتهم الفارسية كانوا يفضلون الكتابة بالتركية .

الذى تقلده من قبل مير دانيال عدة سنوات بنجاح ، وأن يشيع من بركاته على العرش الذى خبا ضياؤه ويعيد السلام الى البلاد . ولكن ذلك الورع الذى قتل بأمره فيما بعد ألوف عديدة من الناس وخربت أحياء بأكملها على يديه ، اعتذر عن قبول هذا المنصب اذ ذاك متظاهرا بزهده فى أمور الدنيا ، ووعد القوم فقط بأن يبدى لهم المشورة والنصح . ولم يفعل ذلك حتى ذلك الذى وعدهم به الا بعد أن أخذ نياز على بك أمير شهرسبز الشائر يهدد بخارى بتخريبها تخريبا تاما .

وحين تبدى لمير معصوم مدى الخطر الذى قد ينجم عن تردده ، بادر من فوره فخرج على رأس جيش لم يتأت له به أن يطرد هذا الشائر الى ما وراء حدود الخانية فحسب ، بل واسترد كذلك منه حصار وقارشى ، وكان قد استولى عليهما بالقوة من قبل . وبهذا استطاع أن يرد الأمور الى نصابها بالتدريج .

وكان من الطبيعى أن يؤدى ازدياد نفوذ الأمير معصوم السياسى الى أن يجرى العمل بكل جهاز فى حكومته وفق قواعد الشرع وسنته القديمة التى كانت بخارى تلتزمها على الدوام ، فلم يتراخ العمل به الا فى عهد الحكومات الضعيفة أيام الأمراء المتأخرين . وحرص هذا الزاهد الداهية أول الأمر على أن يستعيد لحكام المسلمين سابق هيبتهم واحترام الناس لهم . وترك أبا الغازى بذلك يمارس بعض مظاهر الامارة ، حتى اذا ما تم له اقرار الأمور على هواه ، تارة بطريق المظهر الصوفى الذى كان يظهر به ، وتارة أخرى بسبيل العنف البالغ الذى كان يعمد اليه ، ما لبث أن انقلب على أميره نفسه . فقد اتخذ من الحياة التى كان يحيها أبو الغازى ذريعة ، أيده الناس فيها ، لابعاده عن الحياة الرسمية مع ربط معاش له ، ثم رقى هو نفسه عرش بلاد ما وراء النهر من بعد ذلك فى شعبان من عام ١٦٩٩ (يونيه ١٧٨٤) وبدأ حياة كانت فى الواقع أبعد من أن تتواءم مع ثوب الدرويش المرقع الذى ظل يرتديه (١) .

(١) يقول مالكولم فى كتابه عن تاريخ فارس أن أبا الغازى كان حاكما بالاسم ، وأن أسرته كانت تعيش من دخل التاج . ولا أوافق على ذلك ، اذ أن ميرزا صادق المنشئ (كاتب البلاط) يذكر صراحة تاريخ ارتقاء الأمير معصوم العرش .

كان مسرح نشاط هذا الأمير ، خارج حدود بلاد ما وراء النهر ، في فارس أول الأمر ، وبعبارة أدق في ولايات فارس الشمالية الشرقية . وفي هذه الجهات جرت عادة عصابات من أصحاب الحمية الدينية على الاغارة على بلاد الروافض .

وبما كان يضطلع به الأمير معصوم من الغارات هناك لقب بالغازي (١) . وطريق الغارات التورانية هذا الذي يشتهر منذ آلاف السنين لم يكن على كل حال خلوا من التحصين في ذاك الوقت كما عليه الحال الآن . فقد كان به بعض مراكز قوية مثل مرو وسرخس بأيدي الشيعة الأقوياء الذين طالما أقضوا مضاجع المعتصمين الأوزبك ابان احتلالهم لهذه البلاد ، وعوقوهم تعويقا جديا في الاضطلاع بواجبهم ، كسنيين ، في تخريب خراسان وفي أسر جموع السكان من أهلها وبيعهم بسوق الرقيق ببخارى . فلاعجب اذن حين نرى الأمير معصوم ، أو بكخان كما يسميه المؤرخون الفرس ، يهدف أساسا الى القضاء على هذه الجيوب ، وفتح الطريق الى هذه البلاد بعبارة أوضح . ولم يكن جيشه ، برغم أن قوامه كان بضعة آلاف من الفرسان ، الا عصابة تركمانية كبيرة في الواقع . وعلى هذا فقد سير أول عام من حكمه حملة الى مرو ، وكانت هذه المدينة منذ عهد الصفويين قد صار حكمها الى قبيلة القاجار ، وكان يتولى شئونها أمراء من بطن عز الدين لو . وقد أشرنا من قبل الى ارتباط هذه الأسرة برباط المصاهرة (٢) مع الاشرخانيين . على أن هذه المصاهرة

(١) الأصل في هذا اللقب ان يطلق على من يجاهد الكفار ، أي النصراني واليهود وعبداء الأوثان . وقد ذكرنا من قبل أن السنيين بأسيا الوسطى كانوا يعدون الشيعة من الكفار . ولم يأخذ العثمانيون بهذا الرأي أبدا فكانوا يعدون الفرس مجرد روافض .

(٢) والحقيقة أن الكافر في الاسلام هو من ليس من أهل الكتاب ، أي من ليس نصرانيا أو يهوديا ، أما المسلمون فيختلفون الى فرق وكلهم مسلمون (الخشاب

(٢) أود ان اكرر هنا أن كلتا الأسرتين كانت تعرف هذه القصة معرفة تامة ، وحين اضطر شاهرخ ميرزا ابن عم شاه فارس الحالي من بعد ذلك الى الفرار من بلاده بسبب التآمر أو الخيانة لجأ الى بلاط بخارى .

لم تمنع من اشتداد العداء المرير بين الأسترتين بسبب اختلاف المذهب .
وقد استماتت حامية مرو فى الدفاع عن بلدها حتى ارتد الأوزبك
والتركمان عنها خائبين فى حملتهم هذه التى كانوا يهدفون من ورائها الى
أكثر من السلب والنهب . حتى قدم الأمير معصوم بنفسه فلم يستطع بيرم
على خان قائد ذلك الحصن أن يصمد أمام جموع العدو ، وهو الذى ظل
سنين طويلة يدفع جموع العصابات عن بلاده وما حولها .

وفىما كان بيرم خان يدافع عن مرو كان هناك زعيم آخر من قبيلته ،
هو آقا محمد خان الطموح المقدام ، مشتبكا بالجنوب فى حرب مع الزعيم
القوى لطف على خان دفاعا عن تاج الكيانين . وكانت خراسان إذ ذاك
يتقاسمها عدة أمراء يهدف كل واحد منهم الى الاستقلال بما بيده من
أرضين ويتحاربون معا فى سبيل ذلك باستمرار . وكانت هراة أمتنع حصن
يقف فى وجه الغزو التوراني ، بيد شاهرخ ميرزا حفيد نادر شاه . وكان
هذا الأمير قد بقى وفيا لتحالف جده السابق مع أبى الفيش ، وسره أن
يرى الخراب يحيق بذلك القاجارى وكان من ألد أعداء أسرته . وتخلى
الحظ عن بيرم خان آخر الأمر فغلب على أمره ، برغم ما أظهره من بطولة
وما كان عليه محاربوه من شجاعة لايزال القوم حتى اليوم يترنمون بها فى
أناشيدهم ، اذ كان فى صفوفه نساء وفتيات حملوا السلاح وشاركوهم
فى هجومهم اليأس على محاصريهم . وسقط بيرم خان آخر الأمر تحت
أسوار مرو (١) ، وما ان انتهى الأوزبك من نهب ريف المدينة كلها حتى
ساقوا السكان جميعا أسارى معهم ، كما عمدوا الى كسر سد مرو (٢) ،
القديم (بند مرو) حتى لا يستطيع الأهلون أن يزرعوا أراضيهم مستقبلا ،
ثم قفلوا من بعد ذلك راجعين الى بخارى مع زعيمهم الورع الذى يخاف

(١) يروى ميرزا صادق أن الأمير معصوم أمر بفصل رأس بيرم عن
جسده وتعليقها ببخارى .

(٢) هذا السد ، وبعبارة أدق الخزان ، الذى دافع القوم عنه ، كان
يقع فى الشمال الشرقى من مرو ، يستمد ماءه من مرغاب ، وقد نتج عن
تدميره وشح الماء نتيجة لذلك أن انكمشت رقعة الزراعة بمرو فصارت
قاصرة على بعض حقول للقاوون والخضر فقط .

الله . ولم تكن هذه الغزوة الأولى الا بداية سلسلة من الغارات التى قام بها الأمير معصوم ، الواحدة بعد الأخرى ، خلال سنين عديدة من حكمه (١) .

اتتهى الحال بسرو الى أن نزل بها الخراب الشامل آخر الأمر (٢) . وكان الأمير الشجاع محمد حسين بن بيرم خان قد استطاع بعد موت أبيه أن يسيطر عليها بعض الوقت ببعض العون من أفغان تيمور شاه . وأرغم أهلها من الترك على الهجرة الى بخارى حيث لا يزالون يعرفون هناك بالمروين حتى اليوم (٣) . ولم يبق منذ ذلك الوقت من آثار مرو (مرغيانا) المدينة الفخمة القديمة ما يدل على عظمتها الغابرة الا بضعة متاريس من الطين تقوم وسط سهوبها الموحشة (٤) . وفى عام ١٢٠٥ (١٧٩٠) استولى على هذه الخرائب تركمان الساريك ، ومن بعدهم تركمان التكه الذين كانوا ينزلون من قبل فى أخال . وفى هذا المكان ، الذى ازدهرت فيه الثقافة الفارسية والفن الفارسى يوما ما ، صار لا يسمع الا تأوهات أسارى الفرس مختلطة بصريز قيودهم التى كانوا يرسفون فيها ، وهم أولئك الذين وقعوا بأيدى التركمان فحشروهم مكبلين بالأغلال فى خيامهم ، وأبصارهم شاخصة الى بلادهم الضائعة غير بعيد عنهم . وجاء دور مشهد فى العام التالى . وحين امتنعت هذه المدينة بحصونها على العدو على غير ما كان ينتظر منها ، انبرى ذلك الزاهد ، الذى كان يقود (١) يذكر ميرزا صادق أربع غزوات أخرى خرج فيها الأمير معصوم بنفسه .

(٢) جاء فى روضة الصفا ان حاكم بخارى كان قد خلف ابنه نصر الدين فى قلعة مرو مع حامية .
(٣) ذكرت فى كتاب رحلتى بآسيا الوسطى ص ٣٧٠ بناء على معلومات غير وثيقة ان الأمير سعيد هو الذى أرغم سكان مرو على الهجرة الى بخارى .

(٤) زار خرائب مرو كل من بيرنز Burnes وولف Wolf وريتشموند شكسبير Richmond Shakespear وابوت J, Abbot وتومسون Thomson وكان الأخيران قد أوفدا فى سفارة الى خان خيوه ، كما ذهب كذلك الى بخارى مفامر نابلى يدعى فلورس ناسللى Flores Naselli برغم نصيح الناس له بالعدول عن ذلك ، وقد قتل هناك ، وأخيرا بلوسكفيل Blosqueville وقد قضى عاما بأكمله سجيناً عند التركمان .

الجيش الغازي ، يعلن أن ولي الله الامام الرضا قد ظهر له في الرؤيا وطلب اليه أن يترك « مشهد » - مكان استشهاده - وشأنها هي وكل ما يجاورها من أرضين ، ثم قال للناس من بعد ذلك « انى أعلم أن الامام حى وأنه لن يغفر لى اذ أزعجه فى مقامه » . وما غدا أن قفل راجعا من بعد ذلك ولكن بعد أن أنزل الخراب بما حول هذا المكان من القرى .

ولم يعان شمال ايران من جموع التورانين ، منذ غارات شيباني وعبد المنعم خان ، مثل ماغاناه فى عهد هذا الأمير الدرويش . وعلى مايرويه ميرزا صادق فان عدد الأوزبك والتركمان لم يكن يقل فى كل غارة عن العشرين ألفا ، وأن أهل بخارى كانوا يروون أن سوق الرقيق كان يزدحم بالأسرى حتى كان الشيعى القادر لم يكن يجد من يشتريه لقاء بضع تغات هي دون الفرنك فى قيمتها (١) . فكم من أسرة أخذت تدب حظها بالدمع الغزير على ما انتهى اليه مصيرها من الخراب بأيدي ذلك الرجل الذى كان يركب دابة هزيلة ويرتدى ثوبا من الخرق البالية ، ليظهر الناس بذلك على زهده فى الدنيا وزخرفها ، ويقيم فى خيمة بالية يقبع فيها على بساط من نسيج الجبال فيقضى ساعات بأكملها مستغرقا فى العبادة والتأمل . وظل أمير بخارى المتعصب هذا يسلك سبيل العنف على هذه الوتيرة مع ايران ما يقرب من اثني عشر عاما . حتى اذا ما تم لآقا محمد خان ، مؤسس الأسرة الحاكمة الحالية فى فارس (٢) ، اقرار الأمور فى فارس وأذربيجان ، سار آخر الأمر عام ١٢١٢ (١٧٩٧) الى خراسان وقد عقد العزم على وضع حد لهذه المحنة المخيفة . هنالك بدا له أنه ليس من الحكمة أو حسن التدبير أن يخوض غمار حرب فيما وراء جيحون ومركزه فى داخل بلاده نفسها لما يطمئن اليه بعد . فعول على أن يلحق

(١) تكرر وقوع ذلك فى الزمن الحديث وذلك حين سير ناصر الدين جيشا قوامه عشرون ألف رجل لحرب التركمان فأصيب بهزيمة ساحقة جوار مرو على أيدي ثلاثة آلاف من التركمان فقط ، ولم ينج منه الا بضع مئات ، فحين وقع الباقون فى الأسر بيعوا بأبخس الأثمان فى أسواق الرقيق ببخارى وخيوه .

(٢) أى عند تأليف هذا الكتاب فى النصف الثانى من القرن الماضى وهم آل قاجار (المترجم) .

الأوزبك بطريق السياسة شيئا أفضل ، فبعث اليهم على يد محمد حسين عز الدينلو الرسالة الآتية بعد . وما يلفت النظر فيها أننا نجد بها اشارة ضمنية تشير لأول مرة الى وحدة الترك القومية (١) ، وها هو ذا نصها على ما ورد منها بروضة الصفا :

« لاحاجة بنا الى أن نجمل تاريخ الصفويين ومن عاصروا محمد شيباني خان حتى زمان نادر شاه الأفشاري . واني لأعلم جيدا ، كما تعلمون ذلك بدوركم تمام العلم ، أن بلخ ومرو وزمينداور وسيستان ، وقندهار وكابل كانت كلها منذ قديم الزمان تتبع دولة ايران . فكيف صار لك على هذا أن تفتح بلخ ومرو وتذبح في هذا البلد الأخير يرم على خان زعيم أسرته العظيم . أفهل ترمى من وراء ذلك الى تجديد الحروب بين ايران وتوران وهو مالا تقدر عليه أبدا (٢) . وليس من الحكمة على كل حال أن تعث بذيل الأسد أو تعرك أذن النمر . واعلم أن الناس كلهم لآدم وحواء ، فان افتخرت بقرابتك لأمرء توران فاعلم أنني بدوري من نسلهم . وليس منبت قاجار نويان (٣) وأصله بأنبل وأعرق من نسب أسرة منغيت وقنقرات فحسب ، بل انه كذلك ليفوق بأمجاده بيتي سولدوز وجلالير المشهورين (٤) . ومهما يكن من شيء فان علينا جميعا أن نتوجه الى الله التقدير بالشكر والحمد أن جعل ممالك توران وايران والروم والروس والصين والهند بأيدي أسرة الترك الفخيمة ، وليقنع كل

(١) ان كلمة « المؤمنون اخوة » قد حالت بين القوميات على الدوام ، ولم تكن تنتظر على كل حال من ذلك القاجاري أو من كاتبه أن يدرك رابطة الجنس التي تقوم بين الأسر الحاكمة في الصين والهند وبدد الروم .
(٢) من التندر البارع أن جعلوا من الأمير الزاهد معصوم ، افراسياب

ثان .

(٣) كان لقب نويان من ألقاب كبار القادة عند المغول ، ولا نعرف اذا كان هذا اللقب لأسلاف القاجاريين حقيقة ، وقد سمعت بايران كثيرا من الترك بدلون على عراقة نسبهم بهذا اللقب ، ويفتخر القشقاى ، بخاصة في شيراز به .

(٤) لا أدري سبب اصفاء الشهرة على سولدوز وجلالير ، فهاتان القبيلتان كانتا تنزلان دائما على الشاطيء البعيد لجيخون ، وكانتا قد قدمتا الى هناك مع چنكيز من الشرق كأغلب الترك .

واحد منا بسا قسم الله له من أرضين فلا يمد يده الى ما وراء حدود دولته.
وانى بدورى سألزم فى سلام حدود ايران القديمة فلا يقدم أحدنا على
تخطى جيحون » .

ويقول مؤرخ فارسى آخر ان هذه الوثيقة قد كتبت فى صيغة
تختلف عن تلك التى أوردناها ، فكانت تحمل التهديد الى الأمير معصوم
فيما لو أحجم عن إعادة الأسرى الفرس فى الحال . وكان رد الأمير معصوم
عليها من جنسها . بل لقد ذهب بكخان فى رده يتلاعب باسم أعظم
القاجاريين ، فبدلاً من أن يرسمه « آقاخان » حرقه الى « أختا خان » أى
الطواشى ، كما لم يفك اسار الثمانية الآلاف أسير فارسى الذين كانوا عنده
على رواية صاحب « ناسخ التواريخ » . وكانت كاترين قيصرية روسيا
قد أقدمت فى ذاك الوقت على مهاجمة آقا محمد خان لتنتقم منه على
عصفه الشديد بأهل جورجيا ممن كانوا يتبعونها . ولولا أن اضطر شاه
فارس تلقاء ذلك الى أن يركز جهوده وقواته عند شاطيء نهر أراكس ،
لشهدت الدنيا أعجب مشهد لصراع مرير فى سبيل السيادة يقع بين زعيمى
العالم الاسلامى بداخل آسيا اذ ذاك . وكان كلاهما على شذوذ ، فأحدهما
طواشى والآخر درويش مسن . وقد تدخلت بينهما قوة ثالثة أتيح لها فيما
بعد أن تنزل الهزيمة بكليهما على السواء ، وان هيات لوقتها الفرصة
للأوزبكي المتعصب ليعاود غاراته التخريبية على فارس .

على أن الشيعة (الروافض) لم يكونوا هم وحدهم الذين اندفع
الأمير معصوم بتعصبه يحاربهم ، فقد اشتبك كذلك فى الحرب مع سنين
محافظين لا وجه لظهوره فى حربه لهم بمظهر الغازى بطبيعة الحال ،
فكشف بذلك عن سيف الفتح الذى كان يخفيه تحت ثوب الدرويش .

وتفصيل ذلك أن الأفغان ، وهم قوم من سلالة آرية كانوا أيام
محمود الغزنوى مجرد قبيلة صغيرة لا خطر لها تقطن سلسلة جبال
سليمان ، كانوا قد استطاعوا من بعد ذلك أن يسيطروا نفوذهم حتى
صارت لهم أغلب المنطقة الواقعة بين جيحون والسند ، ليبدأوا من بعد
ذلك دورهم المهم فى سياسة آسيا الوسطى . ولبت هؤلاء حتى بداية

القرن الثامن عشر الميلادي يؤدون الجزية الى سلاطين الهند أو الى شاهات فارس ليدرءوا بذلك عنهم خطر الأوزبك الذين كانوا يفوقونهم فى قوتهم ، حتى اذا ما هان شأن الصفويين بفارس استولى الأفغان بزعامه محمود الغزنائى على عرش أصفهان الى أن طردهم نادر شاه من بعد ذلك من ايران .

وبعد أن قضى آخر الغزاة الآسيويين الكبار هذا ، وانهارت دولة المغول فى الهند من ناحية ، وضعف شأن حكومة الأوزبك على جيحون من ناحية أخرى ، أتاحت بذلك كله الفرصة للأفغان ليظهروا على مسرح التاريخ فيرثوا من أراضى نادر شاه ذلك الجزء الذى يقع بين جيحون والسند ، حتى تم لأحمد شاه الدراني عام ١١٦٦ (١٧٥٢) تنصيب نفسه أميرا على الأراضى التى كانت تتبع خانية بخارى عند الشاطىء الأدنى نجيحون وذلك بعد أن تحالف مع شاهرخ ميرزا حفيد تيمور . وما لبثت ميمنة وأندخوى وأقچه وشبورغان وسربول وخولم وبدخشان وباميان أن استسلمت لبك خان (١) القائد الذى سيره هذا الأمير الأفغانى إليها ، وقد كافأه على ذلك بأن أنعم عليه بلقب الصدارة العظمى . ولم يحرك ساكنا اذ ذاك عاهل بخارى الكسول ، أو وزيره القوى دانيال بى ، بعبارة أدق ، تلقاء تلك الولايات التى انتزعت منه ، اذ كان أغلبها فى الواقع بأيدي الأمراء الخارجين على سلطانه . وجاء من بعد ذلك الأمير معصوم فرأى فى ازدياد سلطان الأفغان شوكة فى جنبه طال عليها الامد . حتى اذا ما شغل تيمور شاه خليفة أحمد شاه بمعركة بهالبور (بالهند) عام ١٢٠٣ (١٧٨٨) بادر الأمير الأوزبكى بعبور جيحون عند كيليف ، واسترد أغلب البلاد التى كان الأفغان قد استولوا عليها من قبل . وحين آب تيمور الى بلاده فعلم بذلك ، بعث الى خصمه برسالة عرض فيها بعبارة واضحة صريحة بما يخفيه الأمير معصوم من أطماع (٢) تحت رداء

(١) انظر فى ذلك

History of the Afghans by J.P. Ferrier London 1858 P. 18

An account of the kingdom of Coubul by montstuart انظر

Elphinstone . London 1842 .vol. 11 P 315

غيرته الدينية الكاذبة وثفاقه . وذكره فيها كذلك بما كان يقوم من علاقات المودة بين بيت الدراني وسلاطين الأوزبك على الدوام . وأن الأمير معصوم حين كانت تظهر له نذر الحرب في الجو ، كان يركن على الدوام الى مدهانة خصمه بمعسول القول مع ما كان يضره من السوء للدرانيين . وبرغم أن اعتداء دولة على أخرى بسبب مذاهبها الدينية هو أمر غير مشروع ، فإن الأمير معصوم أقدم مع ذلك على غزو مرو وساق سكانها من الشيعة معه في أسره بدعوى أنه سيقوم بردهم الى العقيدة الحققة ، وهو بصنيعه هذا قد أبان عن التناقض في سلوكه بما لا يحتاج الى برهان . فلو أنه كان حريصا حقا على هداية المشركين لما أقام العراقيين في سبيل الأفغان الذين بلغوا بغزواتهم الهندية الى دخول عدد لا يحصى من الهنادكة واليهود والنصارى في الاسلام . وبعد هذا كله فما معنى حربه لسكان شهرسبز وخجند والتركمان وجميعهم من أهل السنة الحققة . ومضى تيمور شاه من بعد ذلك في خطابه ليقول له ان أهل هذه البلاد جميعا قد استجدوا به وأنه ملب دعوتهم وسائر من فوره لمهاجمة تركستان .

وفي ربيع عام ١٢٠٤ (١٧٨٩) زحف تيمور شاه الى شواطئ جيحون على رأس جيش وفيه العدد كامل العدة (١) . حتى اذا ما طفق يهاجم آقجه رأى القائد الأوزبكي رحمت بي أن لا قبل له بقوات العدو الكبيرة ففر الى معسكر أميره عند كيليف .

وكان الأمير معصوم يتأهب اذذاك للزحف على خراسان في جيش كبير ليعوض ما لحقه في العام السابق من فشل هناك .

وبوغت الأمير معصوم بهجوم الأفغان هذا حتى ود أن يحسم معهم الأمر صلحا . وحرص أول الأمر ألا يكشف عن رغبته هذه ، فسير لذلك رحمت بي ومعه سلطان مراد بي في قوة صغيرة قصدت آقجه ، فاشتبكت مع العدو في مناوشات بسيطة ، حتى اذا ما استيقن من أن تيمور شاه انما خرج في حملته هذه طلبا للقتال ، سعى في الصلح من

(١) يذكر المصدر السابق م ٣ ص ٣٠٥ أن هذا الجيش كان يضم مائة ألف مقاتل ، في حين يقدره ميرزا صادق بضعف هذا العدد .

فوره فأوفد لذلك وفدا من أكبر علماء بخارى ، وتظاهر بسنتهى الذلة والخضوع ، على عادته حين ترغبه الحادثات ، حتى انطلت حيلته على الزعيم الأفغانى ، وهو الذى كان قد عنفه من قبل ، على مثل هذا النفاق فى رسالته اليه التى سبق ذكرها ، فلم يعقد الصلح معه فحسب ، بل وسمح له كذلك بأن يحتفظ لنفسه بكافة المواضع التى كان قد استولى عليها .

وظل الأمير معصوم يحترم شروط هذه المعاهدة متمسكا بأهداب السلم ما بقى تيمور شاه على قيد الحياة . فما أن قضى هذا الأمير الدرانى عام ١٢٠٨ (١٧٩٣) وخلفه ابنه شاهزمان حتى سقط الأمير معصوم على منطقة بلخ فأوقع حاكمها مع أربعة آلاف من خيرة جنده فى كمين وأسرهم جميعا ، ثم هاجم مدينة بلخ نفسها من فوره وقد أمل أن يستسلم له ما بقى بها من الجند بعد ما رأوا ما صار اليه حال قائدهم .

على انه أخطأ فى حسابه هذا على كل حال . فقد تهدد حماة المدينة بقتل أميرهم الأسير أمام أعينهم ان هم أصروا على المقاومة ، ونفذ تهديده الوحشى بالفعل تبعا لذلك ، ومع هذا فقد بقى القوم على مقاومتهم له حتى عاد شاهزمان الى كابل بعد حربه الموفقة فى خراسان ، وقد كانوا يأملون أن يوافيهم بالخلاص سريعا من بعد ذلك ، وهو أمر كان يتوقعه معصوم بدوره .

وحين علم أمير بخارى بتأجيل الزحف الأفغانى انتهز هذه الفرصة ليتقى بها ما بلغ به مركزه من حرج وخطورة ، فبعث برسله الى كابل يتعهد لأميرها بتنازله عن دعواه فى بلخ وما يجاورها مع محافظته مستقبلا على شروط المعاهدة التى كان قد عقدها مع تيمور شاه من قبل . ولما كان شاهزمان اذذاك منصرفا بكل تفكيره وجهوده الى الاهتمام بخطته فى غزو الهند فقد قبل ما عرضه سفراء عدوه عليه .

وهكذا استطاع الأمير معصوم مرة أخرى أن يؤمن مركزه بدعائه ، وان لم يعدل عن نواياه العدائية نحو جيرانه الأفغان . وحين اضطر شاه محمود ، أخو شاهزمان ومنافسه ، أن يخرج من بلاده عام ١٢١٤

(١٧٩٩) بعد فشل محاولاته العديدة في الاستيلاء على العرش ، رجب به مير معصوم في بخارى . ولئن لم يستطع شاهزمان أن يعترض علنا على هذه الاستضافة (١) ، إلا أن ذلك لم يمنعه من بذل المال الكثير سرا لتسليم هذا الأمير الفار .

ولو لم يتحالف العاهل الأفغانى اذ ذاك سرا مع آقا محمد خان القاجارى ، لما تردد درويش بخارى العجوز ، دون وازع من الضمير ، فى خرق هذه الرسوم التى يقدها الآسيويون أعظم تقديس بخصوص حماية الضيف فلم يتح لنفسه أن يثيرها الاغراء . وحين سأله رسول شاهزمان أن يحرص بأى ثمن على مراقبة الأمير اللاجىء أجاب بأن أشار برأسه بما يفيد بأن محمودا لن يغادر بخارى . والواقع أن هذا الأمير لم يكن ليتيسر له مغادرة بخارى أبدا ورأسه على كفيه لولا أن تصدى له أمير أوزبكى من أصحاب النفوذ فأعانه على الهرب الى خيوه حيث استقبله أميرها محمد رحيم خان بالترحاب .

ومات الأمير معصوم عام ١٢١٧ (١٨٠٢) بعد أن حكم ثمانية عشر عاما يعدها البخاريون أعظم فترة فى تاريخهم الحديث . والجيل الحالى من التاجيك والأوزبك ، وهو الذى ما تزال تلك الفترة ماثلة فى أذهانه ، تراه لا يمل من ترداد الشاء على ذلك الأمير المسلم الفرد العادل التقى وحكومته السنية .

وأساس هذا الشاء ما كان عليه هذا الأمير وحكومته من استمساك تام بالشرع . فهو الذى أحيا منصب رئيس الشريعة فى وقت كان قد أهمل فيها أمره فى العالم الاسلامى كله (٢) . وكان على هذا الرئيس أن

(١) اضطر شاهزمان من بعد ذلك أن يلجأ بدوره الى بخارى (المؤلف) وذلك حين دخل البريطانيون كابل بعد احتلالهم للهند ، وأرغموا ببسالة الأفغان وضراوتهم على الخروج منها بعد قليل (المترجم) .
(٢) اخبرت حين كنت بالقسطنطينية أن هذه الحكومة الشرعية لم يعرف لها نظير أبدا سواء فى تركيا أو فى إيران وشمال الهند ، وإنما قامت عرضا فى الأزمنة الحديثة بمكة والمدينة وبعض المواضع فى شرق افريقية . (المؤلف) يقصد بذلك حكومات الوهابيين والسنوسيين (المترجم) .

يجوب الأسواق كل يوم مع شرطته وبأيديهم سياط شرعية لها أربع شعب ، فيختبر الناس في أمور دينهم ، فمن لم يكن منهم يحفظ فرض العين مع بعض سور القرآن ، أو تخلو عمامته في طياتها من كرات الطين (١) ، كان يجلد على الفور أو يلقي به في السجن . أما من كان يتكاسل في الذهاب الى المسجد أو يهمل تأدية الصلوات في أوقاتها ، فكان يحكم عليه أول الأمر ببعض العقوبات الدينية ، حتى اذا ما عاد الى ذلك قتل . كذلك كان يعاقب على هذا الوجه أولئك الذين يشربون الخمر أو يدخنون (٢) .

أما اللصوص وقطاع الطرق والفجار فكانوا يسلمون الى الجلاذ بلا رحمة . وكان هذا التشدد في تطبيق تعاليم الشرع يسود كذلك فروع الحكومة كلها .

وكان على المسلم أن يدفع خراج أرضه وماشيته مع الزكاة وقدرها اثنان ونصف بالمائة ، وهي حق الفقير من دخل المقتدر ، كما يدفع الرسوم المقررة على البضائع المستوردة .

أما الذميون ، وهم الهنادكة واليهود والنصارى ، فكان عليهم أن يدفعوا الجزية .

وكان الأمير معصوم يحرض كل الحرص في دار الامارة على أن ينهج نهج الخلفاء الأول فيما كانوا عليه من الاستسكان بأهداب الدين . وما ضربوه من الأمثال في الزهد والقناعة لمن جاءوا من بعدهم من « أمراء المؤمنين » .

وعلى ما عرف به عمر (ثاني الخلفاء الراشدين) من حرصه الشديد على أموال بيت المال حتى كان يكتفى بأبسط الطعام ويقنع

(١) (كسك) انظر توضيح ذلك الامر ومعناه في كتابي
Sketches of Central Asia. London 1868 P. 181

وهي من دلائل الزهد والتصوف (المترجم) .
(٢) كان التدخين يعد في ذلك الوقت في فارس وفي تركيا من المحرمات ، اذ أفتى أئمة الشرع هناك بأنه يدخل في باب المسكرات .

بشوب واحد كل عام ، فكذاك كان أمير بخارى ، المتعصب لدينه ، يربط تنفا واحدا لنفسه كل يوم لنفقتة . وجعل هذا القدر أيضا لطباخه وخادمه ولكل فقير من نزلاء المدارس الذين بلغ عددهم في عهده ثلاثين ألفا من المتعطشين الى طلب العلوم الدينية . على أن صنعه هذا لم يحل بين رجال دولته وحياة البذخ والاسراف التى كانوا يحيونها ، فبينما كان هذا الأمير يعيش فى سرادق قديم بال ويمشى فى قميص من وبر الجمل ويأكل فى صفحة بالية ، كان قاداته يخطرون فى الحرير وسلاحهم مرصع بالحجارة الكريمة ، والطعام يقدم اليهم ، حتى فى مضاربهم وقت الحرب ، فى صحاف من الذهب والفضة المرصعة بالحجارة الكريمة .

والظاهر أنه كان يشعر براحة نفسية حين كان يرى الفارق بين حياة البذخ التى كان يحيها رجاله وبين حياة التقشف التى كان عليها . وبفضل مظهر الدرويش الفقير الذى كان يحرص عليه صار له عند القوم توقير واجلال بالغ ممكنه من أن يطوع قبائل الأوزبك ، المتمردة بطبعها ، لتحقيق أهدافه خلال ثمانية عشر عاما .

ولم يكن يمضى عليه عام فى الغالب دون أن يخرج فى غزوة . ذلك أنه فضلا عن وقائمه التى تحدثنا عنها ، كان يشتبك كذلك فى بعض المعارك مع أمراء البلاد المجاورين له فى خيوه وخوقند (١) . وبرغم هذا كله فإن خانية بخارى كانت تتمتع فى عهده بدرجة عظيمة من الرخاء ، فلم يزل الناس من بعده يذكرون ما كانت عليه حكومته من التمسك التام بأصول الشرع بل وكذلك ما كانت تحرص عليه من اجراء العدل والرفق بالرعية . وما يعيننا من عهد الأمير معصوم أن ختم به النضال القديم بين ايران وتوران ، اذ كان هذا الأمير هو آخر من غزا ايران .

وخلفه من بعده ابنه سعيد حيدر توره عام ١٢١٨ (١٨٠٣) فجلس على عرش بلاد ما وراء النهر باسم الأمير سعيد . ولم يكن فى تصوفه

(١) فى هذا الوقت ، أى فى عام ١٢٠٢ هـ مات علم خان أمير خوقند المشهور الذى استطاع أن يكبح جماح البخاريين لثلاثين عاما على ما أخبرني بذلك الخوقنديون ، وبموته بدأ أمراء بخارى يغيرون على جيرانهم فى الشرق حتى اقترت روسيا السلام بين هؤلاء المتحاربين .

وتعصبه لدينه مثل أبيه فحسب بل وحاول أن ييزه ، وإن لم يكن له من مهارته فى الحكم وشغفه بالحرب الا القليل ، فقضى حياته كلها على خير ما يقضيها الملا ، بأدق معانى هذه الكلمة ، ويمدهم الأوزبك أنصاف رجال (١) .

على أن ذلك لم يمنعه من أن يخضب بالدماء عرشه المبارك أول حكمه . وأول ضحاياه فى ذلك أخوه ناصر الدين توره ، وكان يتولى حكومة مرو فى حياة أبيه الأمير معصوم . فقد خاف الأمير سعيد منافسة أخيه هذا له فعزم على التخلص منه فى هدوء ، فطلب منه أن يشخص إليه بنفسه ليعلم ولاءه له . ولما كان ناصر الدين يقدر بدوره مدى الخطر الذى ينتظره عند أخيه ، فقد فر الى الحدود الفارسية بدلا من أن يتجه الى بخارى ، وهناك ناشد فتح على شاه أن يجيره بعون من عنده . ولو كان للقاجاريين شئ من القوة الحقيقية بدلا من مظاهر السلطان الكاذبة التى كانوا يتظاهرون بها لأفادوا من هذه الفرصة المواتية التى سنحت لهم فلقنوا جيرانهم النهايين الذين أنزلوا الخراب بخراسان درسا قاسيا . ولم يلق الأمير اللاجئ بفارس الا الوعود الفارغة ، حتى بات الأمير سعيد ، وهو أضعف أمراء بيت المنغيتيين ، لا يستشعر أدنى خوف من ناحية فتح على شاه الذى كان دائم الفخار والزهو بأنه صاحب أطول لحية فى الدولة ، وأن منطقته تزدان بأئمن الماس .

قضى الأمير سعيد ثلاثة وعشرين عاما والسلام مخيم على بلاده ، وكان يمضى الساعات العديدة فى كل يوم وهو يتعبد فى خلوته أو يجلس فيها الى كبار الشيوخ يستمع الى دروسهم فى التفسير . وحين خرج محمد رحيم خان ، أمير خيوه وجار بخارى فى الغرب ، ينتقم لمقتل أبيه ايلتازار خان ، فأخذ ينتهب ويحرق كل ما يصادفه فى طريقه ، وتقدم بطريق جهارجوى وقراقول حتى بلغ أبواب بخارى ، ظل الأمير سعيد

(١) يقول مثل اوزبكي « ان الاثنين من الملات (الشيوخ) هما بمقام رجل واحد ، والواحد منهم يساوى امرأة » انظر
Tschagataische Sprachstudien P. 57

أمان در) . وكانت بخارى تزهو بما كان عليه أميرها من تقوى ، مع ما كان
برغم ذلك كله متشبهاً بعزلته الصوفية ، ورد على القوم بأن ريغستان ،
وهى المحلة التى كان بها قصره ، لا تزال فى مأمن (آخر ريغستان
من تعطله من كل فعال المجد والعظمة ، حتى ليقال ان جمهور العامة
المصانعين من أهل بخارى كانوا سيكون من فرط الفرح حين كانوا يرون
أميرهم يمشى فى الطرقات منكس الرأس يستند على عصاه ، لا لضعف
فى قواه وإنما اقتداءً برجال الدين وتشبهاً بهم حين كانوا يسرحون . بل
لقد نسبوا اليه كذلك من خوارق الكرامات برغم ما عرف عن هذا الولي
الحى من خرقه لأقدس الرسوم الآسيوية على أشنع وجه ، ومنها عادات
الضيافة ، اذ حمل معه قسراً ابنة جميلة لشاهزمان المكفوف حين كان لاجئاً
عنده ، وحين احتج هذا الأمير الأفغانى على هذه الفعلة أمر به بقتل .
وأنه لما يؤسف له أن يتصرف الأمير سعيد على هذا الوجه وهو الذى
كان يتظاهر فى حكمه بحرصه الشديد على التمسك بالدين والآداب . وإذا
كانت آداب السلوك قد هان أمرها فى تلك البلاد من قديم فقد ازداد
هوانها وانحطاطها على أيدي هؤلاء الحكام الأوزبك الجهلاء من بيت
المنغيتيين . ولم يكن عهد الشيبانيين والاشترخانيين يخلو من مظاهر
الاستتارة والتعليم التى كانت تظهر عندهم من حين لآخر ، أما هؤلاء
المنغيتيون ، أتباع الشيوخ أصحاب الحرص والطمع ، فإنهم لم يحرصوا
أبداً الا على أن يذكوا فى نفوس الأهليين روح التعصب والحماس الدينى .

الفصل الثامن عشر الأمير نصر الله

١٢٤٢ (١٨٢٦) - ١٢٧٧ (١٨٦٠)

لا يصدق المثل القائل بأن « الأمراء هم مرآة عصورهم »^١ عند شعب من الشعوب الإسلامية أو في بلد من بلادهم كما يصدق على عهد نصر الله بهادر خان ، ابن الأمير سعيد وخلفه ، الذي رقى العرش بعد وفاة أبيه عام ١٢٤٢ (١٨٢٦) .

ولا يسهل على المرء أن يدرك مدى ما كان عليه هذا الأمير من صفات المكر المخلوط بالغباء ، والكبرياء والغرور والتعصب الأعشى مع الانغماس في الرذائل الدنيئة ، إلا أن يتأمل قبلا حال مجتمع بخارى في ذلك الوقت وما كان يسوده من النفاق والجهل المطبق ، وما كان يشيع فيه من الظلم المشين حتى انحدر إلى حمأة الرذيلة .

ولقد رقى هذا الأمير العرش بعد أن دبر قتل أخيه دون أدنى وازع من ضمير . واذ كان ، بوصفه الأخ الأصغر ، لا حق له في اعتلاء العرش ، فقد شرع في حياة أبيه يهيم بالفعل لهذا الأمر ، فأخذ حين كان يتولى حكومة قارشى ، يعمل على كسب أصحاب النفوذ القوى من رجال الدولة إلى صفه ، وكان أخطر هؤلاء جميعا قوشبغى حاكم باى (١) ومؤمن باى وإلى حصار .

(١) وهو مثل أويغورى تجده في مخطوط قوتدقوبيليق (وهو أقدم كتاب تركى بالحروف العربية : المترجم) ولا يزال يروج بين الأويغور مع تحوير بسيط .

(٢) باى تقابل اللقب العثمانى « بك » ويرسمه التاجيك والأوزبك « بى » .

ومع انها كانا من رجال حاشية الأمير حسين ، الوريث الشرعى والحاكم من بعد ذلك ، فقد كانا المدبرين لأمر سقوطه وقتله . وما يقال من أنه قضى بعد أن حكم ما لا يزيد على ثلاثة أشهر اذ دس السم له بتحريض من نصر الله هو قول لا يقوم على غير أساس .

وأدى موت هذا الأمير الى ظهور منافس ثالث فى الميدان هو عمر خان أحد اخوة حسين . هنالك اضطر نصر الله الى مجاربتة ، فخرج اليه وفى يده فتوى قاضى قضاة قارشى . وانقض فى حفنة صغيرة من رجاله على سمرقند ففتحت له أبوابها دون أدنى مقاومة ، حتى اذا ما تمت مبايعة القوم له وهو متربع فوق الكوكطاش (١) ، أسرع بعد ذلك بالمسير الى بخارى . وسقطت فى يده كته كورغان وكرمينية وغيرهما من المواضع الحصينة التى تقع بين العاصمتين ، ولكن بخارى نفسها استتبست فى مقاومتها له لأربعين يوما ، فلم تستسلم الا بعد أن تفشت المجاعة فيها وانجس الماء عنها ، وكان نصر الله قد استطاع أن يتحكم فى قنواتها الكبرى ، فضلا عن خيانة حكيم بى وتآمره معه بخاصة .

ودخل نصر الله قصر ريغستان فى ٢٢ مارس عام ١٨٢٦ ، وكان الأمير عمر قد تمكن من الهرب ومات على اثر ذلك بالهَيْضَة فى خوقند ، وكان خانها قد رحب به فيها .

وصار لنصر الله السلطان المطلق بعد أن قتل ثلاثة من اخوته الصغار وعددا كبيرا من أتباع غرمائه السابقين ، ليظهر العالم من بعد ذلك ، خلال مدة حكمه التى بلغت أربعة وثلاثين عاما ، على مدى ما يمكن أن يرتكبه أمير فى آسيا الاسلامية من الفظائع الكثيرة ، ومدى ما يستكين له

(١) وهو الحجر الأزرق بسمرقند الذى تحدثنا عنه من قبل . وقد عاد الاشرخانويون الى استخدامه فى مراسيم البيعة من جديد . وكان الشيبانيون قد اتخذوا من بخارى قسبة لهم حتى يتخلصوا بذلك من كل رسوم التيموريين . وفى عهدهم عدلوا عن الرسم التيمورى المعروف فى رفع العرش فوق الحجر الأزرق .

الأهلون من مظالم وهم يستعبدون بدعوى الحرص على الدين والتعصب له .

ففى السنوات الأولى من حكم هذا الأمير ، وكان لا يزال يخضع لنفوذ حاكم باى القوى ، تظاهر — على نهج أبيه — (١) بأن أعظم أهدافه وغاياته العمل على اعلاء كلمة الشرع علوا كبيرا والتفانى فى اسعاد شعبه . وهذه هى الفترة التى زار فيها الكسندر بيرنز بخارى على وجه التقريب ، وقد استطاع أن يقول ان نصر الله قد كفر عن الفطائع التى ارتكبها فى سبيل استيلائه على العرش بأن طفق يحكم شعبه فى عدل واستقامة .

وحين شعر نصر الله بأن مخاوفه من غرمائه لم يعد لها محل واستيقن من بعد ذلك أن الأمور قد غدت مستقرة بين يديه ، تكشف قناع الحمل الوديع عن نمر مفترس ، فأنشب مخالفه فى قوشيجى حاكم باى نفسه وهو الذى كان يدين له خاصة بما بلغه من سلطان . وكان قوشيجى هذا قد استغل ما شمله به سيده أول الأمر من رعاية فلم يعمل على زيادة مظاهر سلطانه ونفوذه فحسب ، بل جمع كذلك له ثروة طائلة ، حتى كان يقوم على خدمته أكثر من ألف غلام . ولقد سمعت قصصا لا يصدقها العقل عما كان عنده من الابل والخيول والماشية الكثيرة ، بل يقال انه كان يسيّر قوافل التجارة بين بلاده وروسيا لحسابه . وحين رفع نصر الله يده ليهوى على تلك البعوضة التى سمح لها أن تسمن على دمائه (على حد نص تعبير البخاريين) كان قد بلغ به الغضب أقصى مداه (٢) . ولم تطل محاكمة قوشيجى ، ذلك أنه ليس أيسر على كل مستبد

(١) وذلك برغم أن أهل بخارى كانوا يتهمون نصر الله بقتل أبيه ، وهو أمر لا يستبعد من نصر الله بعد ما رأينا من خلقه .
(٢) انظر

Alexander Burnes, Travels into Bokhara, London 1834.

ويلاحظ المؤلف نفسه بحق فى كتاب آخر ظهر له بعد ذلك
بسبع سنوات بعنوان : Cabool, a narrative of a journey to and residence in that city, p. 250.

أن مظالم (نصر الله) كانت بالغة الجراة كثيرة العدد فكنت أهنى
نفسى بخروجه من بلاده سالما .

من أن يقيم الدليل على جرم تابعه . وعلى هذا فقد اتهم قوشيجى بتبديد أموال بيت المال وعزل من منصبه . ونفى أول الأمر الى قارشى ، ثم سير من بعد ذلك الى نوراته .

وحرص نصر الله أول الأمر على أن يتقى عداوة شيعة قوشيجى القوية فغمر الزعيم أياز باى (١) حسو قوشيجى الشيخ بألقاب الشريف والتكريم . حتى اذا ما عفى النسيان حدا ما على ما لحق بقوشيجى من المهانة والاذلال ، عمد نصر الله الى اللقاء أياز باى نفسه فى السجن ، ثم قتله وختنه من بعد ذلك فى ربيع عام ١٨٤٠ . ولم يكتف نصر الله بمصادرة أموال وزيره فحسب ، بل ود كذلك لو تمكن ، فى غفلة من حارسه الذى كان يثقته ، من أن يطلق العنان معه لشهواته المقيتة المتعددة .

وما غدا أن ظهر من بعد ذلك لسكان بخارى على صورته الحقيقية التى بعثت الرعب فى قلوبهم ، فقد عهد بنصب الشرطة الى قاطع الطريق السفاح معصوم بيردى ، وكان من مرتزقة التركمان فلم يتخذ منه ناصحاً له ومعيناً وانما سخره ليجبى الأموال له . كما عهد الى نفر من السوق بنصب الوزارة، وان لم ينعم الواحد منهم بها الا لعدة ساعات على الأكثر فحسب . وما غدا معصوم بيردى بدوره أن دفع عام ١٨٣٩ ، تحت فأس الجلاد ، ثم عطف سيده الطويل عليه ، ومن ثم صار نصر الله سيد البلاد الأوحده ، ومن بيده حياة أهلها ومصائرهم على السواء . ومالطخ به هذا الطاغية عهده من المظالم وجرائم القتل لا يدخل تحت حصر أو يحصيها عد . لقد تعرضت كل طبقات الرعية لجشعه الذى لا حد له فى طلب المال ، وعلى رأسهم التجار الأجانب بخاصة . بل ان البخاريين ،

(١) كان أياز باى يشغل منصب طوبجى باشى (قائد المدفعية) وكان على ثراء كبير . واحتال نصر الله لكى يستولى على ثروته فدعاه للانضمام الى حاشيته واهداه فرسا تركمانيا وعليها سرج فاخر ، وكان يصحبه عند خروجه من عنده حتى باب قصره ويساعده على امتطاء دابته . وادرك هذا القائد الشيخ آخر الأمر ببصيرته ما يضره له سيده من الحقد تحت ستار هذا المعطف الكاذب ، فانكفاً على قدمى نصر الله يسأله ان يخلصه وينزل به عقابه فى الحال . هنالك أنهضه نصر الله وعانقه فهذا بخداعه هذا من مخاوف ذلك الرجل المنكود وكانت فى محلها .

وهم الذين يشتهرون برباطة جأشهم في المللات ، قد دفعهم الخوف الى أن يشتروا وده بسختلف الهدايا . وبث كذلك عددا لا حصر له من انعيون بين الناس ليخبروه عن كل صغيرة وكبيرة تجرى فيما بينهم ، سواء منها ما يقع في السوق أو في المدرسة أو في المسجد أو المتنزعات العامة والحمامات (١) ، وقد ينبشون كذلك بين الأسر بدعوى مراقبة استسكاع أعضائها التويم بتعاليم الشرع ، لينبشوا في الواقع سيدهم بما يشفى غليله ويشبع نهمه في جمع المال . وحرص هذا الأمير في حياته الفاجرة هذه التي كان يحياها على أن يوفر للمنافقين من رجال الدين من أصحاب النفوذ مطالبهم ، فكانوا نظير ذلك لا يعارضونه فيما يرتكبه من أعمال العنف والاستبداد .

والمعروف أن رجال الدين كانوا على الدوام يحدون بمعارضتهم من الجور والظلم ، فكان عدولهم عن ذلك هو بمثابة تعضيد الظالم فيما يرتكبه من الآثم .

وكانت دعوى الدين تتخذ في ذلك العهد وسيلة على الدوام الى غاية . فمن كان يحاول أن يحمي متاعه وغلمايه وأطفاله ، من ذوى الحسن من الجنسين ، من أن تمتد اليهم يد المستبد النجسة ، كان يتهم من فوره بخروجه على طاعة أمير المؤمنين وظل الله على أرضه ، فلا يكفر عن صنيعة الجسور هذا الا بانزال أبشع العقوبات به . وكانوا يتفننون في تعذيب أمثال هؤلاء الجناة ، في رأيهم ، حتى الموت ، فمنهم من كان يلقي به أيا ما بأكملها في غور ملء بروت البهائم (٢) حتى يقضى ، ومنهم من كانوا يقذفون به من أعلى الأسوار أو الأبراج ، ومنهم من كانوا

(١) كان هؤلاء العيون ، على ما قيل لى ، يعقدون اذرعهم على صدورهم ، فيفيدون بذلك من سعة أكمام البخاريين القضاة في تدوين كل ما كانوا يسمعون من الاحاديث حرفا حرفا دون أن ينتبه لهم أحد في ذلك .

(٢) يعرف هذا السجن المخيف باسم « البئر الأسود » أو « دار القراد » وكانت هذه الحشرات التي تعيش على دماء ضحاياها من الأحياء تتغذى كذلك بدماء الحيوانات المذبوحة ، وكان المذنب حين يلقي به في هذا القدر يقيد أولا حتى لا يتمكن من أن يدفع عنه لدغ هذه الحشرات .

يسلخون أحياء ، ومنهم من كان يتعرض على المواعد . وهكذا كان هذا التعس ، الذى يصدر هذه العقوبات دون أية محاكمة ، ينعفس فى حمأة الرذيلة لا يخشى الله ولا يخاف من البشر أحدا .

كان هذا هو حال الأمير الجالس على عرش بلاد ماوراء النهر فى الوقت الذى كانت فيه الأفكار الأوربية والمراكز الأمامية للدول الاوربية الكبرى قد تم لها بالفعل النفاذ الى كثير من مناطق آسيا وبدأت تطرق أبواب ذلك الاقليم الذى ذاع صيته فى القديم وعفا عليه الغموض والنسيان فى الوقت الحاضر . فقد انطلقت روسيا تتقدم من الشمال قرنا بعد قرن فى طريق طويل كان عليها أن تواجه فيه جموع المحاربين من الأجلاف خلال الصحراوات حتى وصلت آخر الأمر الى شواطئ سيحون كما زحف البريطانيون من الجنوب حتى بلغوا فى غزوهم جبال سليمان ولم يعد يفصلهم عن شواطئ جيحون الا مسيرة أيام قليلة (١) . وكان هؤلاء قد استطاعوا فى أقل من مائة عام أن يتوسلوا بانشاء بعض مصانع لهم الى اقامة امبراطورية هندية جبارة .

ولا مرأ فى أن اتصال أية ولاية آسيوية بالغرب لأول مرة هو أمر بالغ الأهمية . وقد يشر ذلك بالخير لها مستقبلا أو يجلب المتاعب عليها . فالبلاد ، التى يحول التعصب والغرور بينها وبين تطورها ، لابد أن ينتهى بها الحال الى التحلل العنيف والخراب التام ، فى حين ترى الأقطار الأخرى يؤدى بها ما تبديه من الاستجابة ، قدرا ما ، والتسليم عن طيب خاطر بضرورة تطوير حياتها السياسية والاجتماعية على وجه أحسن ، انى أن ينظر اليها نظرة عادلة بل والى العطف عليها كذلك .

ويصدق هذا المثال الثانى على تركيا وفارس ومصر بل وعلى شمال افريقية كله ، فى حين ينطوى تحت المثال الأول الامبراطورية المغولية بالهند وبلاد ما وراء النهر .

ففى بخارى نجد أن التعنت الشديد فى تطبيق كل جريئة من

(١) كان الأفغان ، اصحاب قلعة الاسلام فى آسيا ، هم الذين وقفوا سدا منيعا فى وجه الاستعمارين الروسى والبريطانى على السواء وردوهم عن بلادهم فى عزم وقوة (المترجم) .

جزينات الشرع مع ضيق أفق الأهلين وهم فى عزلتهم هذه فى السهوب ، فضلا عن غرور المجد الزائل الذى كان يغلب عليهم . هذه كلها قد صدتهم ، وهم الذين شبوا على هذه المبادئ بعينها ، عن كل أنواع الاتجار مع الغرب المسيحى . ولم يكن على كل حال لينظر بغير هذه النظرة ، فى عهد حاكم مثل نصر الله ، الى محاولة بعث حياة جديدة أو المشاركة فى الحركة الجديدة التى تجتاح الدنيا . وسرى وشيكا ماذا كان من موقف نصر الله تلقاء أول اتصال بالغرب المسيحى ومدى علمه عن قوة الدول الأوربية ونفوذها .

وهناك سىرى القارىء أن بلاد ما وراء النهر ، دون الأقطار الإسلامية الأخرى ، كانت منذ البداية تنفر من الإصلاح ، وأن سقوطها كدولة لم يكن بسبب فتح الروس الحديث لسمرقند ، وانما كان هذا الانهيار قد تقرر لثلاثين عاما مضت بسبب سلوك نصر الله . وقبل أن نمضى فى الحديث ، نجد أنه من الضرورى أن نتحدث أولا فى شىء من التفصيل عن علاقات هذا الأمير السياسية بما كان يجاوره من أقطار .

ذكرنا من قبل كيف طمح هذا الابن الطاغية للأمير سعيد المتعصب الى أن يضطلع بدور الفاتح الكبير . وكانت شهرسبز وما يجاورها هى التى هأت له ، فى المحل الأول ، الفرصة لاشباع أطماعه . ذلك أن سكان هذا الجزء من الخانية من الأوزبك ، وهم من قبائل منغ واجمايلى وقنغرات ، غالبا ما عمدوا الى العصيان أيام الأشرخانين الأول وخلعوا طاعة بخارى ، حتى عانى منهم هؤلاء الأمراء معاناة شديدة ، اذ كانوا يعتمدون فى عصيانهم هذا على أربعة حصون قوية ببلادهم اتخذوها لعملياتهم الحربية ، كما كانت أراضيهم بدورها يعوق انتشار المستنقعات بها سير الغزاة فيها . ومبدأ اثارة حقد هذه القبائل وسخطها يرجع تاريخه الى القرن الماضى ، أى زمن الحرب التى وقعت بين الأخوين مقيم خان وعبيد الله خان ، وبعبارة أدق ، نتيجة المنافسة الشديدة التى قامت بين قبائل المنغيت والقنغرات .

وزاد من هذا الحقد جلوس المنغيتين على عرش البلاد بعد أن كانوا

أصحاب السلطان فحسب ، وعلى هذا رأينا أوزبك شهر سبز يفتقون على الدوام فى وجه أمراء بيت المنغيتيين . وجرب الأمير معصوم القوة معهم . وعاشوا سنين طويلة فى استقلال تام ابان حكم الأمير سعيد . حتى جاء الأمير نصر الله فخرج فى أول حملاته لحربهم ، وخاض هذا الطاغية غمار حروب طويلة معهم ، تكرر فيها سقوط مدينتهم عدة مرات بعد حصار شهور عديدة فى كل مرة . وكان يتم له فى كل مرة ارغام الأهلين على الاستسلام له ، فلا يكاد ينسحب وجنده حتى يعودوا الى سيرتهم الأولى من نبد طاعته .

وحاول نصر الله أن يحسم هذا الأمر فتوسل بنفوذ رجال الدين مرة وبالرشوة والقتل أخرى ، وتعدى ذلك الى أن بنى بأخت زعيم القوم ، ولى النعم ، ولكن جهوده هذه كلها ذهبت أدراج الرياح وبقيت شهرسبز على عصيانها حتى وفاته .

واتسمت حروب نصر الله مع خوقند بالعنف بدورها وان لم تتميز بنجاح يذكر . وخوقند هو الاسم الذى صارت فرغانة تعرف به منذ أن ولى الأشرخانيون الحكم . وعلى ما رأينا فى مجرى التاريخ كان استقلال هذه الامارة الشرقية قد ضاع بعد آخر هزيمة نزلت ببابر . واذا صح ما علمته فانها استطاعت أن تسترد كيائها كدولة ، الى حد ما ، بعد سقوط الشيبانيين . وحين كان هؤلاء الشيبانيون فى أوجههم ظهر فى القسم الشرقى من خوقند الحالية ، فيما بين أوشى وما يجاور خجند ، أسرة أخذت تنافس الشيبانيين هناك .

وكانت هذه الأسرة من أصل مغولى ، ومؤسسها هو يونس خان جد بابر لأمه . وقد أدت قوة الشيبانيين الأول الى أن لزم خصومهم هؤلاء الاقليم الجبلى فى شمال خوقند ، فلم يخرجوا منه الا فى محاولات قليلة نادرة ليؤكدوا بذلك حقهم فى العرش . ولئن كان أبناء يونس خان قد استطاعوا حقا أن يطردوا تنبل (١) من أندجان بعد أن اغتصبها ، كما

(١) كان تنبل قد ثار على بابر ، حين توجه هذا الأمير التيمورى الى سمرقند لحرب شيبانى ، واستولى على أندجان ولكن اقارب بابر لأمه سرعان ما هزموه من بعد ذلك .

قاوموا نفوذ الأوزبك مقاومة شديدة بمساعدة القرد قرغير والتبجاق ، إلا أن خلفاءهم لم يتسكنوا من الاستحواذ على خوقند بالفعل حتى زمن سبجانقلى خان (١) .

ومن الثابت كذلك من ناحية أخرى أن السكة والخطبة ظلتا هناك باسم ذلك الحاكم الذى يقيم على ضفاف زرفشان .

وحين ضعف سلطان أمراء بخارى ونفوذهم أخذ خانات خوقند يوسعون من رقعة أراضيهم ، بل إن هؤلاء بوصفهم أحفاد بيت قايدو ، بسطوا نفوذهم كذلك على كل الأراضى الواقعة على شواطئ سيحون ، أى على إقليم تركستان بالتحديد ، وأخضعوا خوقند لسلطانهم ابتداء من القرن الحالى ، ومدوا نفوذهم الى ما وراء طشقند .

ولقد مضى أكثر من خمسة قرون منذ أن تحارب قايدو ، حفيد أوكتاي ، مع خلفاء جغتاي فى سبيل الاستيلاء على تركستان . وبرغم أن أمراء المغول من هذا البيت لم يكن بأيديهم من الوثائق المكتوبة ما يثبت حقهم الورائى فى ذلك ، فقد ظلوا على الدوام يتشبثون بدعواهم هذه ويحرصون عليها ولا يفتأون يحاربون فى سبيلها . وظل حكام خوقند لا يتعرض لهم الاشرخانيون المتأخرون فى الغالب ، حتى اذا ما جاء المنفيون تغير وجه المسألة . فقد خاض الأمير معصوم غمار حرب دامية فى سبيل خجندة (٢) ، كما سقط حفيده نصر الله بدوره على خوقند بسبب غيرته من أميرها محمد على خان ، وكان قد ذاع صيته فى العالم الاسلامى كله اثر انتصاراته على الصينيين فى تركستان الشرقية فى الوقت الذى كان الناس فيه يقيمون نصر الله أمير بخارى الطاغية ويخشونه ، هذا فضلا عن أن محمد على خان كان يشتهر كذلك بحكومته العادلة وحرصه على رفاهية شعبه .

(١) هذا على ما رواه لى رفاقى فى الرحلة من أهل خوقند ، ذلك انه ليس لهذه الامارة تاريخ مكتوب فى العصر الحديث .

(٢) تعرف الامارة باسم خوقند (وهى فرغانة) وخجندة اول مدنها من الغرب .

وزاد من شهوة نصر الله للغزو زيادة كبيرة أن ظهر عنده آفاق فارسي وضع يدعى عبد الصمد . وهذا الرجل ، أو الوحش المجرم ، الذي دمغوه في فارس بالتشرد - وهى تعنى الكثير عند الفرس المحدثين - كان قد ظل يجوب الهند وبلاد الأفغان زمنا طويلا ، وكان يتكسب فيها من وراء بعض معلومات في الفنون العسكرية الأوربية كان قد التقطها في شبابه ، حتى قدم بخارى ليحرب حظه فيها عام ١٨٣٥ ، وكان حاكم بى صاحب الأمر فيها اذ ذاك .

وأراد قوشيجى أن يعهد اليه بأمر تدريب الجند ، لكن نصر الله أكثر أن يختصه بنفسه ، فجاء ذلك وفق القاعدة التى تقول « ان الطيور على أشكالها تقع » ، فخلع عليه لقب « نائب » وعهد اليه بقيادة جيش بخارى . وكان هذا الفارسى يحسن فنون المدفعية ويفوق في ذلك الأوزبك على وجه التحقيق ، وكان يحفظ كذلك نداءين أو ثلاثة من النداءات العسكرية الفرنسية ، حتى وقر في ذهن سيده بذلك أنه قد تحقق له به كفاية عسكرية فذة سرعان ما يستطيع بها أن يحرز اللقب الذى تتوق اليه نفسه وهو لقب « فاتح العالم » .

وعلى هذا بدأ بتسيير حملة لحرب محمد على خان عام ١٨٣٩ ، ليظهر بذلك لأخيه أمير خوقند مدى قدرته الحربية . وكان الخوقنديون يستخدمون حصن پيشه كير بمثابة خط الدفاع الأول لهم ، وكانوا قد بنوه عام ١٨١٩ . وحين طلب اليهم نصر الله أن يزيلوه فرفضوا زحف اليهم بجيشه . هنالك سنحت الفرصة لعبد الصمد ليظهر من كفايته ، اذ انهارت أسوار الحصن ، وكانت من الطين ، بفعل قذائف مدفعية ، ليعود من بعد ذلك بالجيش فخورا بما حازه من نصر .

وعلى ما يرويه البخاريون فان محمد على ، وكان يعلم تمام العلم ميل جاره الغربى الى الاعتداء ، لم ير أن ينتظر حتى يباغته هو ، فخرج اليه بنفسه عام ١٨٤١ ، فطرد الحامية البخارية من أراتيه ، وكانت تتبع خوقند في الواقع ، وسيطر على هذا المكان وما حوله من السواد . هنالك خرج نصر الله للقتال مرة ثانية بقوة كبيرة من فرسان الأوزبك وخمسمائة من الميليشيا (سرباز) فاسترد أراتيه بعد حصار دام ثلاثة

اشهر . وفيها أقام ، على عادته ، حماما من الدم ، على سبيل الانتقام ،
انقلب الأهليون من بعده يضررون له أشد العدا . فلم يكد يبلغ سمرقند
حتى قاموا فائقوا مع الخوقنديين وسقطوا على الحامية البخارية
وذبحوا أفرادها جميعا قادة وجندا .

ولنا أن تتصور مدى اضطراب نصر الله حين بلغه ذلك فقد ارتد
عجلا الى أرائيه . ومنع خان خوقند من أن يخاطر بمحاربة عدوه اضطرابه
الى حشد قوة كبيرة من جنده عند حوض سيحون الأدنى لتراقب
تحركات الروس هناك ، فاضطر بذلك الى أن يرتد في الطريق المؤدى الى
قصته .

على أن نصر الله لم يتركه وشأنه ، فسار في اثره وأرغمه على القتال
قرب خجندة . وحين نزلت الهزيمة بمحمد على وبان له تعرض عاصمته
للخطر ، بادر بطلب الهدنة ، ثم عقد الصلح مع عدوه عند كهنة بادام ،
وفيه اعترف بسلطان أمير بخارى عليه وسلم اليه مدينة خجندة وعدة
مواضع أخرى . وأدى بأمر بخارى حقه على عدوه المقهور الى أن
أقام على تلك النواحي المفتوحة أخا لغريمه هذا كان قد لجأ الى بخارى
من قبل . وقد ارتكب نصر الله بفعلته هذه خطأ كبيرا دون أن يدري ..
ذلك أن أم الأميرين ، وكانت على قيد الحياة ، ما لبثت أن أصلحت ما
بين الأخوين ، وبهذا عادت خجندة الى حوزة خوقند ، وصار لنصر الله
عدوان بدلا من عدو واحد . على أن حنق أمير بخارى المستبد لم يكن
يعرف حدودا ، فقد دفع به ظمؤه للانتقام الى أن يخرج في أكثر من
الغارات المعتادة . ففضلا عن جيشه العادي ، وكان قوامه ثلاثين ألفا
من الفرسان وألفا من الميليشيا ، استخدم عشرة آلاف أخرى من التركمان
من قبائل تكة وسالور ، وأسرع بهم جميعا الى خوقند فباغت محمد
على حتى اضطره الى الفرار من حضرته ، ليسقط من بعد ذلك بأيدي
عدوه قرب مرغلان ويعدم (١) بعاصمته نفسها هو وأخوه وولده ، بعد
عشرة أيام من وقوعه في الأسر .

(١) ذهب نصر الله يبرر فعلته البشعة هذه ، فنشر على الملأ أن محمد
على كان على علاقة آثمة بأمه فهو بهذا يستحق الموت بنص الشرع .

ولم ينج من الموت حتى زوج هذا الأمير التعس وطفلها الذى لم يكن قد رأى النور بعد .

ولم يعد نصر الله الى بخارى الا بعد أن أسلم أغلب أتباع محمد على الى الجلاذ وصادر أموالهم جميعا . وعهد بأمر المدينة المفتوحة الى ابراهيم بى من مواليد مرو وترك معه ألفين من الجند .

وبرغم أن ما حازه البخاريون من الانتصارات كان مرده الى حد كبير لتفوقهم فى العدد ، الا أن ما سعى اليه نصر الله من بذور بذور الشقاق بين رجال قبيلة القبجاق (١) الأقوياء من أصحاب النفوذ حتى شاعت الفرقة بينهم ، كان له بدوره أثره البارز فى احراز هذا النصر . ولقد أفلح ، بعض الوقت ، فى حمل هؤلاء على الابتعاد عن المشاركة فى أى نشاط سياسى ، ثم دفع بهم سلوك البخاريين اللفظ آخر الأمر الى خروجهم عن حيادهم ، فتغلبوا على حامية خجندة وسيطروا على المدينة ثم أجلسوا على العرش شير على خان ، أحد أبناء محمد على (٢) ، وكان قد لجأ عندهم ، لينطلقوا من بعد ذلك يبدلون هتهم فى تحصين المدينة ، اذ كانوا يوقنون بأن نصر الله لا بد وأن يعود للانتقام من فوره . وأحيطت خجندة لأول مرة فى تاريخها بسور قوى من الطين . ولم يكد القوم يفرغون من بنائه حتى وصل الى ظاهر المدينة جيش بخارى قوامه خمسة عشر ألفا من الجند يقودهم أمير ممن يطالبون بحقهم فى عرش خوقند وكان يعيش فى رحاب نصر الله منذ زمن طويل . والظاهر أن هذا الأمير ، ويدعى مسلمانقلى ، كان قد استطاع أن يتصل بمواطنيه وهو فى طريقه اليهم ففتحت له أبواب المدينة ، ليعلن عند ذلك من فوره خلعه لطاعة نصر الله برغم وعده له بأن ينادى به خانا على خوقند اذا هو ما بقى

(١) أن القبجاق الذين لا تزال قلة منهم تقيم عند الشمال الشرقى من خانية خوقند ، هم أشجع القبائل التركية وأشدهم تمرسا بالقتال . ويعدون من اصلااب المغول الذين يعرفون باسم مغول الجته ، وهم الذين خاضوا غمار حرب شعواء ضد تيمور ، واستطاعوا من بعد ذلك بزعمة أبناء يونس خان أن يسودوا القسم الشرقى من تركستان .

(٢) عن شجرة نسب محمد على انظر كتابى

على طاعته له . كما أرغم ، بمعونة مواطنيه ، البخاريين الذين كانوا قد جاءوا معه على الفرار . ونزل بنصر الله الداء من فرط غيظه وكمده ، فبعث وهو على فراش المرض بحملة الى خوقند يقودها شاهرخ ميرزا ، فلم تبلغ أراتيه حتى كان أمير بخارى المستبد قد وافاه أجله كما سنرى فى التو ، فوضع موته بذلك حدا لهذه الحرب . وتنج عن التأمر المستمر على خوقند نتائج سيئة أحاقت بها ، فلم تستطع أن تقف فى وجه الروس طويلا وهم يتقدمون على طول مجرى سيحون الأدنى . أما فى داخل خوقند نفسها فقد بقى كل شىء على حاله .

ولم يكن نصر الله بدوره على علاقات طيبة مع خان خيويه جاره الغربى . وبهذا أضيف منذ قيام بيت المنغيتيين حلقة جديدة الى العداء القديم الذى كان يقوم بين خيويه وبخارى . وفيما كان جيش الفتح الروسى يضى فى عملياته الحربية ، دون تظاهر أو توقف عارض ، وتقترب طلائعه بالتدريج من الشاطئ الأيمن لسيحون وشواطئ بحر آرال ، ركن عشائر القزاق من رجال « القبيلة الصغيرة » و « القبيلة المتوسطة » ممن قد ضاقوا ذرعا بالحكم الروسى ، الى النزوح الى الجزء المسكون من واحات تركستان ليعيشوا هناك مطمئين — على زعمهم — فى ظل الحكومات الاسلامية المستقلة ، ولكنهم ، كما سوف نلاحظ ، وجدوا هناك خلاف ما كانوا يأملون تماما ، كما صار قدومهم هذا بدوره مصدر متاعب حلت بتلك الولايات .

فقد ادعت كل من خيويه وبخارى تبعيةهما لها ، فلم يثقل كاهل هؤلاء القزاق بما كان عليهم أن يدفعوه لعاهلين معا من الخراج المفروض عليهم فحسب ، بل صاروا هم أنفسهم كذلك سببا لنزاع بين هذين البلدين أدى الى قيام الحرب بينهما مرة كل عشر سنوات . واتصلت الأعمال العدوانية بين هذين الاقليمين طوال عهد نصر الله . بل انه حين أفلحت الحملة الروسية بقيادة الجنرال بيروفسكى فى تهديد مركز الله قلى خان أمير خيويه لم يتردد أمير « بخارى المقدسة » من أن يوسع نطاق غاراته حتى هزاسب ، فأعان بصنيعه هذا العدو المشترك فى ناحية

الغرب وناحية الشمال الشرقي . واستمر عدوان البخاريين طوال حكم رحيم قلى خان الذى حكم بخيوه منذ عام ١٨٤١ حتى عام ١٨٤٣ .

وجاء محمد أمين خان (١٨٤٣ - ١٨٥٥) فاستطاع بقوة ساعده أن يوقف هذا المجنون الذى كان يحكم على ضفاف زرفشان عند حده . ومع هذا فقد ظل نصر الله يكن دفين الحقد ومقيت الكراهية لبنى جلدته وملته الذين كانوا يقيمون عند حوض جيحون الأدنى (١) .

لم تكن بخارى فى أى عهد من العهود على علاقات طيبة مع فارس ولا سيما أثناء حكم نصر الله . ففى عهده كان أكثر من عشرين ألفا من الفرس يرسفون فى غل الأسر ببخارى ، وأغلب هؤلاء كانوا من أبناء ولايات فارس الشمالية الشرقية . وبرغم ما بلغه كثير منهم من عليا المناصب فى الدولة ، فإن صورة ما نزل من الشقاء بمدن وقرى بأكملها حين قضى على كل سكانها لم تكن لتجعل عباس ميرزا يقف من هذه المأساة المروعة موقف المتفرج الذى لا يعنيه من الأمر شيئا . وكان هذا الأمير ، وهو أقدر أبناء فتح على شاه وأنشطهم ، يعيش اذ ذاك بخراسان . وكان قد تم له طرد التركمان من سرخس ومرو . وأثار مخاوف أمير بخارى ، بحق مقام هذا الأمير فى مرو ومعه جيش قوى . ولولا أن هذا الأمير الطموح لم يكن قد قصد من وراء اقامته هناك الى دفع خطر التركمان الذين كان يحركهم الله قلى خان خيوه ، لكان ، وهو الكلف بالمجد ، قد سير ، أغلب الظن ، فرقة من جيشه ، ان لم تكن لتهاجم بخارى العاصمة نفسها فلا أقل من أن تغزو احدى بلدان خانية بخارى الغريبة .

وحين منع عدوان خيوه والتركمان هذا الأمير الفارسى من أن يفعل شيئا مع نصر الله أكثر من تهديده له ، ظن أمير بخارى فى نفسه

(١) برغم أن كليهما من الأوزبك وأنهما ينتميان الى قبيلة واحدة ، فإن سكان خيوه وبخارى من الترك قد عاشوا فى عداء متصل لعدة اجيال، ويعد الأوزبكى فى بخارى ابن جلدته فى خيوه جلفا غير متمدين ، فى حين يرى الخيوى أن البخارى مخادع منافق ، حتى تتمثل فيه رذائل التاجيك جملة .

أن الفرس لا يجروون على مهاجمته خوفا منه ، وعلى هذا فقد عاد يتناول على فارس أكثر من ذى قبل . وكانت الأحوال ببلاد الأفغان بدورها مواتية ليشبع هذا المستبد المتعشش للدماء شهواته فى السلب والنهب والسيطرة .

فقد كانت الدولة الأفغانية التى أقامها أول أمير من بيت الدرانين قد مزقتها فتن الوراثة التى كانت تقوم باستمرار بين الاخوة ، وكان رنجيت سنغ (أسد البنجاب) قد استطاع أن يمد حدوده حتى بشاور بعد أن هزم الأفغان فى موقعه نوچرواف هزيمة شديدة . وتمكنت فارس بدورها من استرداد جزء من خراسان ، وحاولت فوق هذا أن تعوض من خسائرها السابقة بالاستيلاء على بعض مناطق الأفغان ، فهاجمت هراة . وكان الخيويون قد استطاعوا فى عهد رحيم قلى أن يكسروا شوكة الجمشيديين ، وهم بدو من أصل إيرانى كانوا يعيشون فى حوض نهر مرغاب الأعلى . فلا عجب إذن أن نرى نصر الله بدوره يفيد من هذه الفرص المواتية له فيسيطر سلطانه ونفوذه على الشاطىء الأيسر لجيخون ويسترد بذلك لبخارى تلك المنطقة التى كانت تدعى ملكيتها . ولئن لم ينجح فى الواقع فى ضم بلخ وخنك وأندخوى وميمنه الى ملكه ، وهو ما لم يكن يحرص عليه فى الغالب بسبب الخراب والدمار الشامل الذى كان يسود تلك المناطق ، فقد ظل على كل حال صاحب النفوذ المطلق فى تلك الخانيات الصغيرة حتى حرب يار محمد التى غيرت من مجريات الأحوال هناك . وظلت هذه تدفع له جزية صغيرة مفروضة عن طيب خاطر لتكون بذلك فى كنف أمير بخارى فيدفع عنها غارات الفرس والأفغان .

وهكذا نرى نصر الله والأحداث تشجعه على أن يطلق العنان لأحلامه الباطلة بالعظمة . وبرغم مما لحق به من الهوان فى بعض المناسبات ، فقد ظل يرى نفسه تحيط به عظمة الشاهنشاه (ملك الملوك) وكان هذا بلا شك غباء منه وأمرأ يثير السخرية ووهما باطلا . على أن هذا كله كان فيه الكفاية ليحمل ذلك الطاغية على أن يتصرف فى الوقت

نفسه مع الدول الأوروبية بنفس الفطرة والجسارة التي كان يمارسها مع
خيومه وخوقند ، وفي وهبه أنه يعيش في مأمن وراء صحراواته الرملية
وهو لا يدري عن العالم الخارجى شيئا .

ولقد ذهب يمارس مغامراته الجريئة ، دون وازع ، مع وجود
روسيا وبريطانيا اللتين وصلتا بشركتهما السياسية الى مشارف بلاد ما
وراء النهر . ولم يكن أغلب الظن ، ليجتاح الى أعمال الفكر في كثير
ليقع نفسه بأن ظل الدولة الكبرى الذي يقترب من توران في ناحية
الشمال ، سوف تمتد رقعته مع الزمن حتى يدخل في دائرته أقرب خلفائه
من بعده .

أما ما كان من أمر روسيا خاصة ، فان هذه الدولة كان لها اتصالات
سياسية مع بخارى في قرون ماضية . ذلك أن طريق التجارة القديم
الذي كان يقوم كذلك في القرون الوسطى ، وهو الذي كان يخرج من
قلب آسيا فيسير بحذاء مجرى الفولجا حتى يبلغ موسكو ونوفجراد ،
قد حتم سير التجار فيه قيام الاتصالات ، من وقت لآخر ، بين دوقات
روسيا الكبار وخانات بخارى . ولم يكن الرسل الذين يروحون ويحيئون
بين هؤلاء الحكام يتصدون لغير المسائل التجارية .

وأول سفارة سياسية ، بالمعنى المفهوم ، سارت من روسيا الى
بخارى ، هي التي كان على رأسها م. نجرى M. Negri عام ١٨٢٠ م ..
وكان البارون ج. فون مايندورف G. von Meyendorff عضو هذه البعثة
أول من أمدنا بتقرير وثيق عن بخارى . وبدأت من بعد ذلك الطواوير
الروسية زحفها عند مشارف السهوب الجنوبية ، وكأن الرمال قد انشقت
عنها . وما لبثت أن اشتبكت في منازعات مع خانيته خوقند وخيومه
بسبب الحدود .

أما بخارى فقد كان الأمر معها على النقيض ، اذ أنشأ الروس معها
علاقات ودية ، أرادوا بها أن يتجنبوا أى اشتباك مع أكبر الخانيات
وأعظمها حتى يفرغوا من أمر ما هو أصغر منها وأضعف شأنًا .

وهذه السياسة كان يكتب لها النجاح التام لو أن بريطانيا لم تنظر
الى أهمية بخارى من زاوية أخرى متعارضة ، فلم تبغ فتحها ، وانما

عملت على حماية هؤلاء الذين يهددهم الغزو ، وبأن ميلها الى اقامة علاقات مع تلك الدولة التى تقوم على ضفاف زرفشان . وأدى هذا التنافس بين الدولتين الأوربيتين المسيحتين الى ازدياد غرور نصر الله ووهمه فى قوته وأهميته ، كما سئى ، حتى بلغ به الحق درجة كبيرة . وبدأ التنافس من الجانب البريطانى عام ١٨٣٢ برحلة الكسندر بيرنز شبه الرسمية ، تلك الرحلة التى أعطتها روسيا من الاهتمام أكثر مما تستحق فى الواقع . وفى عام ١٨٣٤ غادر المبعوث ديميزون Demaison مدينة بطرسبرج ومن بعده فيتكوفيتس Vitkovitch عام ١٨٣٥ فقصدا بخارى وظاهر غرضهما السعى لاطلاق سراح الأسرى الروس هناك . أما ما كنا يهدفان اليه فى الواقع فهو أن يؤكد الامير ، بالأسلوب الذى يشيع فى بلاده ، صداقة القيصر الروسى نيقولا المتكبر الخالصة ويعرضا عليه مساعداته الممتازة .

ولقد جاء تأكيد صداقة القيصر هذا فى وقت مناسب ، ففما كان نصر الله المتعطر يستمع الى تلاوة الوثائق الدبلوماسية الروسية وهى تتلى عليه بما تحويه من ألقاب التفضيم له (١) ، كانت الجيوش الروسية تقترب بالتدريج من المناطق المنزرعة بالسهوب دون أن يلقى سكان بخارى يبالا الى أصوات المدافع الروسية عند سيحون . وقد أظهر المبعوثون

(١) كانت روسيا تضع نصب عينها المبدأ القائل « حين تكون فى روما فافعل ما يفعله الرومان » وعلى هذا فقد راعت بدقة التقاليد الشرقية فى اتصالاتها بالحكام الشرقيين . وفى مذكرات زاليسوف Zalesoff التى تتناول العلاقات الدبلوماسية بين روسيا وبخارى فى الفترة ما بين عامى ١٨٣٦ و ١٨٤٣ ، يرد مثال لما كانت عليه المراسلات الرسمية بهذا الشأن فى خطاب للجنرال بيروفسكى Perowsky حاكم أورنبرج العسكرى اذ ذاك ، وفيه يخاطب الأمير بهذه العبارات : « الى مرجع الحكمة والشرع المبجل الكامل الأمير العظيم الخطير (يقصد نصر الله) ابن الخاقان الكريم مصدر العرفان والمجد والنظام ، مشيع السعادة ، تقدم أخلص احترامنا واجلالنا ، ثبتك الله على عرش المملكة والعز ، وحفظك من كل سوء وشر ، ومدة فى عمرك » . انظر فى ذلك

The Russian in Central Asia, translated from Russian by John and Robert Mitcheil, London, 1865, p. 409.

الروس كثيرا من ضبط النفس وطول الاناة ازاء طريقة الأمير في رده عليهم .

وكان نصر الله حين يريد أن يخلع على أحد حجابه أو كبار أمراء بيته منصبا مريحا ، يبعث به ممثلا له في بطرسبرج حيث يجمع مزيدا من الهدايا الثمينة يشاركه سيده فيها . وبعث نصر الله في إحدى المناسبات بدبلوماسي جاهل ليسأل الحكومة الروسية أن تبعث له بمدرسين عسكريين وعمال مناجم مهرة أو غيرهم من الصنائع القادرين ، مع استعداد الأمير لأن يدفع لهم أجورا مجزية .

ومن البديهي أن مثل هذا الطلب لم يكن في الواقع الا مجرد نزوة خيال عابرة ، ذلك أن هذا الأمير المرتاب لم يكن يسمح أبدا لضباط من الأجانب (١) أن يسيحوا في بلاده فيقفوا بذلك على أحوالها . ونفذ آخر الأمر صبر الروس إذ كانت الهزيمة قد لحقت بالحزب الذي كان يقف في وجه البريطانيين ببلاد الأفغان ، واضطر دوست محمد خان زعيم هذه الجبهة الى أن يفر الى بخارى . وحين جاءت الأخبار بوصول طلائع البريطانيين الى شاطيء جيحون الأيسر ، شرعت روسيا تحاول أن تصل الى اتفاق ثابت مع بخارى فأوفدت اليها لهذا الغرض عام ١٨٤٠ الماجور بوتنيف Butenieff على رأس بعثة سياسية علمية . وكانت التعليمات التي زود بها هذا السفير هي أن يبذل غاية جهده في اقناع الأمير بما يحمله بلاط بطرسبرج من المحبة والعطف الخالص نحو البلاد الاسلامية ، فمن ذلك ما فعله قيصر الروس مع السلطان محمود الثاني في محتته مع محمد علي والى مصر ، وما كان من موقفه كذلك مع محمد شاه سلطان فارس ، وهو لا يتردد في أن يكون لنصر الله بدوره نصيب منه كذلك ، على أن يتعهد له نظير ذلك بأمور معينة هي :

أولا : ألا يقوم بأعمال عداوية ضد روسيا لا في السر ولا في العلن .

(١) حدث ابان سفارة بوتنيف ، أن قامت بعثة علمية ، حقيقة ، برحلة في الاقليم الجبلى بالقرب من سمرقند ، الا ان الأهلين كانوا يترصدون خطاهم وكانهم جواسيس ، حتى لنعجب حقا كيف استطاع ليمان وجاكوفليف Lehmann and Jakovleff أن يتما ما قاما به .

ثانيا : ألا يحتفظ عنده بأسرى من الروس وأن يضمن سلامة
الرعايا الروس وممتلكاتهم في بلاده .

ثالثا : ألا يصادر متاع الروس الذين توافيهم المينة ببلاده ، بل
يبيع به الى روسيا .

رابعا : أن يمنع البخاريين من السطو على الرعايا الروس أو ارتكاب
أعمال العنف معهم ، وأن يعاقب في الحال كل من يرتكب منهم شيئا من
ذلك .

خامسا : أن يوحد الرسم المفروض على البضائع الروسية بحيث لا
يزيد على خمسة بالمائة من قيمة كل سلعة .

سادسا : ألا يتعرض التجار الروس للمضايقات أو الأذى ببلاده ،
وأن يوفر لهم بيخارى من الحماية ما يوفره الروس للتجار البخاريين في
بلادهم .

وتقدمت روسيا بدورها الى الأمير بكثير من الامتيازات والمنافع
نظير ذلك . وحين تقدر قيمة هذه السفارة ومبلغ ما كان عليه أعضاؤها
من الكفاية لا نعجب عند ذلك لما كان يقدرونه لها في بطرسبرج من النجاح
المنتظر في مهمتها .

ان روسيا نفسها ، وهى دولة آسيوية ، قد خاتمتها خبرتها فخذت
الى حد ما في تقديرها لنصر الله . فكيف يكون لهذا الأخرق أن يدرك
الفرق بين بعثة تضم مجرد ممثل عادى وبعثة أخرى فيها سفير فوق
العادة . وهل كان ينتظر من ذلك التابع السابق والوزير الحالى عبد
الخالق ، وهو شاب فى التاسعة عشرة من عمره ، أن يبلغ الى أن يوقف
أميره على ما كان يحويه الخط الامبراطورى وما تشير اليه أوراق سفارة
الكونت نسلرود Nesselrode . ولئن كان هذا السفير قد لبقى من حسن
الوفادة وكرم الضيافة ما لا يدع زيادة لمستزيد ، الا أنه لم يبلغ فى مهمته
الى شيء . فقد تلقى نصر الله هدايا أخيه الامبراطور الذى يقيم على
شاطئ نيفا ورسائله بعطف زائد ، كما أفاد من علم التعدين الذى كان

بعض أعضاء البعثة على دراية به ، ومع ذلك فإن أعضاء البعثة لم يستطيعوا أن يحصلوه على الدخول معهم فى مفاوضات بشأن المعاهدة التى كانت روسيا تنشدها ، فكان يتعلل حيناً بضرورة خروجه من فورهِ لقيادة جيشه المظفر فى خوقند ، ويعتذر حيناً آخر باشتغاله بهذا الأمر المهم أو ذاك من أمور الدولة ، حتى انقضى بذلك على الوفد الروسى بخارى ثمانية أشهر ، كان الملاجور بوتنيف يلح فيها عبثاً فى طلب مقابلة الأمير ، حتى دعى آخر الأمر ليستمع الى « النطق السامى » منه .

هنالك ظهر نصر الله فى البلاط وهو يهيم بامتطاء جواده ليخرج الى حرب خوقند ، فقال فى عجلة زائدة للسفير فوق العادة والمندوب المفوض للقيصر نقولاً بأنه قد عهد الى الموكل بالمائدة (دستور خوانجى) (١) بقضاء المهمة التى جاء من أجلها ثم ودعه ونفذ بفرسه من بوابة القصر .

وهكذا كانت هذه هى أول مرة يدرك فيها السفير الروسى ، أو يدرك سيده الامبراطور بعبارة أدق ، مدى المهانة التى لحقت به على أيدي هذا الجلف . وسخط الروس من هذه المعاملة أشد السخط ، ولكن نصر الله لم يكثرث أدنى الاكتراث لمخالفته هذه للعرف الدولى . فقد زادت انتصاراته بخوقند من غروره عن ذى قبل حتى بات يحلم بالاضطلاع بدور نظير دور جنكيز أو تيمور . وزالت مخاوفه من أى غزو بريطانى حين علم بخبر الكارثة التى حلت بالبريطانيين فى كابل ، اذ نزلت بهم مذبحه وطردهوا من المدينة . وحين رأى الأفغان — وهو الذى يرى فى نفسه الاسكندر المقدونى بالقياس اليهم — قد غلبوا جيشه نظامياً لدولة أوربية عظمى ، حسب أنه لا بأس عليه من سخط عدوه الشمالى الذى كانت قيادته على تلك المسافة البعيدة من حدود بخارى . لا يعجب أحد من بعد ذلك حين يرى بريطانيا، وهى التى تستمسك

(١) دستور خوان معناها الحرفى فطاء المائدة الذى يوضع عليه الطعام فى وسط آسيا ، ومن معانيها العامة تقديم مائدة للضيف فيلتزم بتناول شيء مما عليها . ويعرف من يقوم بالخدمة عليه باسم دستور خوانجى أى الموكل بالمائدة .

كل الاستسناك بسبب ادى الأخلاق الأوربية حتى حين تتعامل مع المكابرين المنعشين من الآسيويين ، تجنى فوائد لا تذكر من وراء صفقاتها مع بخارى ، بل وتنزل بها كذلك من المهانات أكثر مما نزل بروسيا . وما دعا بريطانيا الى الاتصال بتلك العاسمة التى تقوم على ضفاف زرفشان هى أمور حديثة معروفة تمام المعرفة ، شائع أمرها ، فلا تدعو ضرورة لتفصيل أمرها فى هذا المكان . فمنذ اللحظة التى عبرت فيها القوات الهندية البريطانية نهر السند بدا أنه لا بد من الاتصال بآسيا الوسطى واقامة العلاقات مع بخارى مركز السياسة والدين فيها . وبنى هذا الاتصال فى الواقع على سببين : ففى المقام الأول أن بخارى برغم ما وصلت اليه من الضعف والانحلال ، الا أنها ظلت تتزعم غيرها من امارات آسيا الوسطى ، وذلك بفضل أمجاد حكام بلاد ما وراء النهر السابقين التى ظل خلفائهم يعيشون على صيتها . فما كانت بخارى تستحسنه كان الآخرون يسلمون به ويقلدونها فيه ، وما كانت بخارى تجتنيه كانوا هم بدورهم يقبلون عليه كذلك . وعلى هذا فقد كان على بريطانيا أن تشد ود بخارى حتى تعزز من مراكزها فيما وراء جبال سليمان ، تلك المراكز التى سعت للحصول عليها ، لسوء الحظ ، فى عجلة قبل الأوان (١) ، وتجن عن ذلك أن اضطرت الى اخلائها فى خسارة .

وفى المقام الثانى ، أن الحقيقة الكامة فى أن دولة أوربية أخرى قد منيت بالفشل فى بخارى كما منيت به روسيا من قبل ، قد جعلت من هذه المدينة مسرحا للصراع فى التسابق ، ذلك الصراع الذى أثار كثيرا من الجزع فى بريطانيا ، اذ لم يدر بخلد القوم هناك أن الموقف فى بلاد الأفغان هو وسير الأمور فى الامبراطورية الهندية سيبلغان مابلغاه ذا ذاك من الحرج الشديد . ومن العسير أن نحكم بأن هذه الظنون كانت تقوم فى الواقع على أساس ، أو أن القوم قد بالغوا فيها كثيرا ، فذلك ماسوف

(١) بل اقول « ارتجالا » ذلك أن البريطانيين لو أنهم كانوا قد عبروا ستلج أولا وثبتوا اقدامهم فى البنجاب ، ثم أخذوا من بعد ذلك يدرسوا أحوال بلاد الأفغان لبضع سنين باتصالهم المباشر بهم ، لما انتهت حملاتهم الى هذه الكاثبة . بل ولعلمهم كانوا لا يقدمون عليها أبدا .

تجليه لنا الأيام مستقبلا . ولما كان من منهجى فى هذا الكتاب أن أكتفى
بتسجيل قيام مثل هذه الظنون والآراء فحسب ، بصرف النظر عن وجهة
نظرى التى أبديتها فى بعض المواضع (١) ، فانى أحسب أن هذه الظنون
كانت سببا ثانيا أدى بالبريطانيين الى ايفاد بعثة الى بخارى . ولم تكن
لأسفار الكسندر بيرنز أية صفة رسمية ، ويمكن حسابها فى الواقع
مجرد جس نبض سياسى فى السر . وبهذا تعد بعثة الكولونيل ستودارت
الى بخارى عام ١٨٣٨ م أول بعثة تقيم العلاقات بين الحكومة Stoddart
البريطانية وحكومة بخارى . وقد تلقى ستودارت التعليمات من السفير
البريطانى بطهران بأن يؤكد لأمير بخارى أنه ليس هناك ما يثير مخاوفه من
جاء النفوذ البريطانى فى بلاد الأفغان ، وأن بريطانيا جد تواقه لاقامة
علاقات ودية مع بخارى ، وأنها بذلك على استعداد لمساعدة أميرها اذا
ما تعرضت بلاده لخطر أى غزو خارجى .

ومع أنه كان لا جدوى على الاطلاق فى أن تتقدم أى دولة أوربية
تعرض مودتها على أمير متعصب مثل نصر الله الذى كان يمقت المسيحيين
كل المقت (٢) ، فقد كان اختيار رئيس هذه البعثة بالذات ، وهو الذى كان
عليه أن يضطلع بهذه المفاوضات ، أبعد مايكون عن التوفيق بدوره . فمما
لا نزاع فيه أن الكولونيل ستودارت كان ضابطا ممتازا يتحلى بكل

(١) اعلنت آرائى فى هذا الموضوع بالمصادر الآتية :

١ - الفصل الأخير من كتابى Sketches From central Asia, 1897.

٢ - أعداد نوفمبر وديسمبر ١٨٦٨ ويوليه ١٨٦٩ ومايو ونوفمبر
١٨٧٠ من المجلة الألمانية Unsere Zeit

٣ - وكذلك فى

Globus, eine durch Dr. André derigierte geographische

Zeitschrift vol. XX, pp. 81, 105 c 122.

(٢) لا جدال أن الأمير نصر الله كان بعيد النظر وعلى حق فى موافقه
الواعية هذه ، فعن طريق مثل هذه البعث بلغ المستعمرون البريطانيون
الى الاستيلاء على الهند ، والروس الى التوغل فى آسيا الوسطى ولولا أن
وقف الأفغان ليوثا ضواري فى وجه البريطانيين لضاعت بلادهم بدورها .
وكل ما يؤخذ على نصر الله أنه لو كان قد عدل عن حربه ضد جيرانه
فائلقوا جميعا فى وجه المستعمرين بدلا من تحاربهم فيما بينهم لامتنت
بلادهم على كل دخيل (المترجم)

للفضائل التي تليق بمنصبه ، ولكن حدة مزاجه وطباعه العسكرية الخشنة وبعده عن المرونة السياسية ، هذه كلها كانت تفيد في قيادته لفرقة أكثر مما تفيد في بعثة دبلوماسية . فمن كانت له هذه الصفات لم يكن يستطيع بطبيعة الحال أن يصل الى شيء مع رجل صلب عنيد كنصر الله . فقد أثار منذ أول الأمر سخط الأمير وغضبه باصراره في حق على رفض اتباع التقاليد التي تجرى ببخارى عند مقابلة الأمير . فذلك الكافر الذي اجترأ على الركوب في خيلاء ببخارى « الشريفة » وفي ريغستان بالذات حيث ينزل كل انسان في حرمة عن دابته ، والذي رفض أن يؤدي لأمر المؤمنين ما يجب نحوه من آيات الاحترام ، وظهر عند عتبات العرش ويده خالية من الهدايا ، كانت فعالة هذه أكثر مما يحتملها الأمير الحائق . فما غدا بعد مضى يومين على مقابلته له أن أمر بالقبض عليه بطريقة مهينة وألقى به في محبس مخيف . وهناك أخذ الأمير يلهو بهذا الضابط المنكود الحظ كما يلهو النمر بفريسته . فكان وقتا ما يأمر بتعذيبه في سجنه ليطلق سراحه من بعد ذلك وقتا آخر ويغمره بتكريمه له . وكان أساس معاملته يختلف من وقت الى آخر تبعا لما كان يرد من الأخبار بين الفينة والفينة عن وضع البريطانيين في بلاد الأفغان . ولم تفلح وساطات السلطان (العثماني) أو شريف مكة أو شاه فارس أو أمراء الامارات المجاورة لبخارى ، في انقاذ هذا الأسير التعس ، ولا حتى وساطة روسيا التي بذلت كثيرا من الجهود عبثا ، بواسطة الماجور بوتنيف ، لتتخذ ممثل الدولة ، التي تنافسها ، من الدمار المحقق . وقد أرغم ستودارت على اعتناق الاسلام ، وان رفض أن يجهر بذلك ، وقضى هناك أربع سنوات نزل به فيها كل صنوف التعذيب والمهانة ، حتى وجد في أحد مواطنيه رفيقا له في محنته وسلك معه آخر المطاف الطريق الى الموت .

كان الكاتبن آرثر كونوللى Arthur Conolly ، وهو الذي رافق ستودارت في سجنه ، قد خرج من كابل في الثالث من سبتمبر عام ١٨٤٠ في بعثة دبلوماسية الى آسيا الوسطى . فقد أخذ الساسة البريطانيون يدركون شيئا فشيئا أن المراسلات الدبلوماسية بين لندن وبطرسبرج لن يكون من ورائها جدوى ، وأن روسيا سوف تواصل سياستها العدوانية

بازاء الخانيات الثلاث ، فلم يبق بذلك لهم من سبيل الا أن يتجهوا الى
أمراء هذه الخانيات ويحاولوا أن يفتحوا عيونهم على هذا الخطر الداهم
الذى يهددهم ويحملوهم بذلك على الدخول فى تحالف دفاعى هجومى
معه . . وكان انشاء تحالف بين تلك الأقاليم ، التى عاشت قرونا متعادية
أشد العداء ، فكرة غير عملية ضئيلة الحظ من النجاح الى أبعد حد .
وكذلك كان الحال فى اختيار الشخص الذى وكل اليه هذا الأمر . . فقد
كان كونوللى رقيق المشاعر نبيل الخلق ، وكانت نفسه متشعبة بأرفع
الأفكار المسيحية ، حتى كان يرنو بعين بصيرته لا الى تحرير رقيق آسيا
فحسب بل والى تحرير رقيق العالم كله . وهكذا كان على حسامة السلام
العالمى هذا أن يدخل فى مفاوضات مع هذه النور السوداء التى كانت
تجلس على عروش آسيا . وكان قد سبقه الى خيوه من قبل الضابطان
البريطانيان آبوت وشكسبير فى بعثة انسانية لمحاولة اطلاق سراح الرقيق
الروسى . وقد استقبل الله قلى خان الضابط كونوللى بترحاب ، ولكن
بجوده فى ميدان السياسة لم تصادف قدرا يذكر من التوفيق هى ومسايعه
لاطلاق سراح الأسرى . ذلك أن الأوزبك المحاربين يرون فى قنوات الرى
والعييد أدوات لا بد منها لتأمين عيشهم اليومى .

وأجاب الخان على موضوع التحالف مع بخارى وخوقند بأنه لا حاجة
به الى نصيحة الأجانب فى هذا الشأن ، وطلب أن تمدد بريطانيا بالأسلحة
والمال اذا كانت تريد حقا أن تقيم الدليل على صداقتها له . وعلى هذا فقد
غادر كونوللى خيوه الى خوقند يجر أذيال الخيبة . واضطر لكى يتجنب
المرور بأراضى بخارى الى أن يخوض السهوب الشمالية ، فى طريق
بيدا ، على ما أعلم ، من جيزك ، لم يطرقة أوربى من قبل . ولم يكن ما
استقبل به من الحفاوة فى ذلك القسم الشرقى من تركستان دون ما لقيه فى
خيوه . وكان محمد على أمير خوقند اذ ذاك مشتبكا فى الحرب مع
نصر الله ، فكان وصول ضابط له دراية باستخدام الأسلحة الأوربية
وخطط الحرب اذ ذاك مما يرحب به الأمير كل ترحيب ، فاستقبله استقبالا
حافلا وهو يأمل أن يفيد من وجوده بعض الفوائد الحربية . ولا نعرف
مدى ما بلغه كونوللى من نجاح فى مفاوضاته مع محمد على ، ذلك أن كل

مذكراته التي كان قد كتبها في خوقند قد ضاعت . والغالب أنه لم يصل معه الى ما يستحق الذكر .

ذلك أن ما وصل اليه مركز أمير خوقند من حرج بسبب الحرب قد حال بينه وبين التفكير في رسم خطط مستقبلية . وحين رأى كونوللى فشل خطته في خوقند اندفع بلا تبصر يلبي دعوة الغادر نصر الله فزاره في معسكره بمحرم غير بعيد من خوقند . ذلك أن نصر الله كان قد ارتاب في أن كونوللى هو الذى دفع بجاره الشرقى الى حرب بخارى ، فاحتال على أن يوقعه في شباكه واستخدم في ذلك موطنه ستودارت ليحملة على القدوم اليه . ولم يستمع كونوللى الى تحذير الخوقنديين له من غدر ذلك الأمير فعقد العزم على السير الى معسكره ، فما ان بلغه حتى ألقى القبض عليه في التو ، وجرد من كل ما كان معه ، ثم سير الى بخارى من بعد ذلك ليشارك ستودارت أسره المخيف . وقد نشر الكاتب الانجليزى الهندى ج. و. كاي J.W. Kaye ، وهو عالم كبير وكاتب مجيد ، في كتابه : « صور من حياة الضباط الهنود : "Lives of Indian Officers" (١) بعض فقرات من مذكرات كونوللى التي كان كتبها في سجنه . وهى وان كانت مجرد خطوط اجمالية للصورة الحزينة ، الا أنها مع ذلك تعبر عنها تعبيراً عميقاً ، وتكفى لتعطى القارئ فكرة عن مدى ما تعرض له هذان الأوربيان التعسان من العذاب والعناء مدة ستة أشهر بالتقريب قضياها في حجر مظلم رطب وييل . وكان عليهما في أثناء ذلك لا أن يتحملا البرد والرطوبة فحسب ، وهما في خرق من الثياب قليلة مهلهلة ، والهوام والحشرات تشاركهما سجنهما ، بل ويقبعان في انتظار الموت الأكيد كذلك . وظل شعاع من الأمل يراودهما في سجنهما هذا ما بقيت سفارة بوتنيف تقيم في بخارى ، تلك البعثة التي بذلت من الجهود الانسانية لتحرير هذين السجينين أكثر مما عرف عنها وذاع أمرها . حتى اذا مارحلت عن بخارى خبا برحيلها آخر بصيص من ذلك الأمل وانطفأ .

(١) ويقع في مجلدين ، وقد نشره Strahan & Co. London, 1867.

وتلقى نصر الله فى ذلك الوقت أخبارا يوثق بها عن الكارثة التى حلت
بالبريطانيين فى كابل ، فرأى معها أنه لم يعد هناك ما يخيفه من احتمال
زحف البريطانيين عليه ، للانتقام منه ، من أية ناحية ، ليأمر عند ذلك فى
١٧ يونيه ١٨٤٢ (١) بإعدام الأسيرين علنا فى حضور جمع من
الفضوليين . ولا بد أنهما رحبا بالموت اذ رأيا فيه الخلاص مما كانا فيه .
وأطاح الجلاد أولا برأس ستودارت ، ثم تلت ذلك فترة قيل انه عرض
فيها على كونوللى أن يعتنق الاسلام فينجو بذلك من الموت ، لكن ذلك
الرجل الشهم رد عليهم فى استئزاز بأن ستودارت كان قد أسلم بدوره
فلم يعفه ذلك من القتل ، فهو على ذلك يؤثر الموت . وبهذا أسلم رأسه
للجلاد فأطاح بها فى ضربة واحدة . وقد ضم هذين الشهيدين قبر واحد
كان قد حفر أمام أعينهما .

وهكذا لقي حثتهما أول سفيرين مسيحيين دخلا بلاد ما وراء النهر
منذ زمن كلافيجو . ولنا أن نسميها أول رسل عالم جديد . ومهما يكن
من أمر الدوافع التى دعت ببريطانيا الى التدخل فى شئون هذه الولايات
التى تقع فيما وراء جيحون ، فلا مرأى فى أن سياستها هذه لم تكن من
وحى شهوة الفتح والغزو وانما كانت باملاء دافع انساني حرصا على
حضارة آسيا الوسطى التى كانت ترى فيها حصنا حصينا يقف فى وجه
هجمات العدو الشمالى (٢) .

وما جرؤ عليه نصر الله من الحاق المهانة البالغة بدولة أوربية كبيرة
تشتهر بأنها لا تتردد فى بذل أعظم التضحيات دفاعا عن رعاياها ، انما

(١) ذكر هذا التاريخ كاي فى المصدر السابق ، فى حين يذكر فرير
Ferrier فى كتابه عن تاريخ الافغان ص ٤٦ أن ذلك وقع فى ٢٤ من يونيه
وذلك بتقرير اخوندزاده الذى حدد يوم التنفيذ ، معتمدا على ذاكرته ،
فقال انه وقع فى اليوم الثانى من جمادى الاولى او الثانية . وهو خطأ ،
ذلك أن بداية هذين الشهرين فى عام ١٢٥٨ هـ توافق ١٢ مايو و ١٠ يونيو
على التوالي .

(٢) لو كان هذا صحيحا لما اصمت بريطانيا آذانها عن استنجاد
الوطنيين من اهل هذه البلاد بها اثناء الحرب العالمية الاولى وما بعدها ابان
قيام الثورة الروسية ، فرفضت أن تمدهم بالسلاح بل وذهبت كذلك تعين
أعداءهم عليهم . ولا يغيب عن بالنا كذلك ما حاوله البريطانيون من تزييف
تاريخ المسلمين المجيد بالهند (المترجم) .

ساعد عليه فى المحل الأول الحوادث السيئة التى وقعت بوادى الهندكوش .
نلى أن نصر الله لم يجسر على أن يرتكب مع بقايا البريطانيين فى كابل
ما يعد وفقا للشرائع الاسلامية خرقا معييا للقانون الدولى . ولو كان قد
فعل ذلك لكانت القوات البريطانية قد زحفت اليه بطريق بلخ وقارشى
فاقتصت على وجه اليقين منه .

وفى المحل الثانى فان هذا المستبد يدين بنجاته من العقاب الى
التنافس والتسابق اللذين كانا يقومان بين الدولتين الأوربيتين . وعلى
هذا فلم يكن هناك من دولة يمكن أن يكون استخدامها لتأديب هذا
الأمير مناسبا سوى فارس ، وهى التى قد استرق مئات الألوف من
رعايها ببلاد ما وراء النهر . على أن هذه الدولة كانت على الدوام فى
حاجة ملحة الى المال ، كما أن ميلها الى الائتلاف مع روسيا لم يكن سرا
من الأسرار ، ولم تكن بريطانيا على ذلك لتمد إليها يد المساعدة فتقوى
بصنيعها ذلك من أداة غريمتها .

وفى ظل هذه الظروف المواتية مضى نصر الله ، بعد كل هذه الحوادث
المخزية ليدنس عرشه من جديد بدنىء الفعل . فالى جانب هذين
البريطانيين (١) سقط كذلك فريسة لقسوته القتالة الايطاليان جيوفانى
أورلاندو Giovanni Orlando وفلورس ناسيللى Flores Naselli
واليونانى يوسف Joseph . وكان أورلاندو ، أولهم ، قد دفعه شغفه
بالترحال الى أن تعرف فى القسطنطينية بأحد رسل خجدة ، فصحبه فى
سفره الى تلك المدينة النائبة ، وبهذا سقط فى أيدي نصر الله . واستخدم

(١) كان المبشر الدكتور يوسف وولف Joseph Wolf رجلا غرب
الاطوار ولكنه شجاع ، وهو يقول فى كتاب بعثته الى بخارى Mission to Bokhara
أن الملازم وبورت Wyburt كان قد قبض عليه وهو فى
طريقه الى خيوة فجلبه التركمان الى بخارى حيث القى به عدة سنوات
فى السجن ثم قتل قبل وصول ستودارت بقليل ، وما تزويه المصادر
الآخرى عن مصيره يختلف عما ذكره وولف . وكان هذا الضابط قد اندفع
الى سهوب التركستان وليس له أدنى معرفة بلغات أهل آسيا الوسطى
أو رسومهم . وعبثا حذروه فى طهران من الموت المحقق الذى ينتظره ،
ولكنه مع ذلك ركب رأسه حتى لقي حتفه فى الصحراء .

بعض الوقت لاصلاح الساعات بالبلاط ، حتى اذا تعطلت ساعة الأمير
الظالم عن العمل ذات يوم دعى الى القصر فعوقب على ذلك بتعطيل آلة
حياته على يد الجلاد .

أما الايطالى الثانى فلورس ناسيللى فقد كان جنديا محترفا ، ولعل
ما شوقه الى الشرق هو ما كان قد سعه عن المجد الذى بلغ اليه موطنه
الجنرال افيتابيل Avitabile . وكان ملتحقا بخدمة رنجيت سنغ (فى
البنجاب) . وقدم فلورس هذا الى بخارى بعد مقتل البريطانيين ، ببعض
الوقت ، وود أن يضع خبرته العسكرية فى خدمة الأمير . غير أن عدم
معرفته بلسان البلاد مع دسائس عبد الصمد ، عدو الأوربيين الكبير ،
وكان يخاف أن ينافسه ، أدى الى أن قبض عليه بتهمة التجسس بعد
وصوله بأسابيع قليلة وأعدم .

أما الثالث ، وهو اليونانى يوسف ، فقد كان تابعا لكونوللى ، وبرغم
تقديسه ما ثبت بأنه من رعايا السلطان ، فان ذلك لم يفده شيئا ولحق
بسيده . ولم يكن نصر الله فى الواقع يكثر بالسلطان (العثمانى) . ولئن
كان يقر له بالسيادة بدافع من الضرورة الدينية ، الا أنه كان يرى نفسه
فى الواقع أعظم منه مجدا وسلطانا ، بل لقد سقط أحد رعايا الباب
العالم المسلمين بدوره فريسة لهذا المتعطش للدماء . فهذا هو مصطفى
شاويش الذى كان قد بعث به رشيد باشا الى بخارى بناء على طلب الأمير
ليقوم بتدريب الجند ، لم يرض شهر على وصوله حتى اتهم بتهاوله فى
التزام قواعد الشرع فى سلوكه وألقى به فى السجن . حتى اذا ما تظلم
من ذلك سيق الى الموت . وحين فر دوست محمد خان (أمير كابل) من
أمام البريطانيين ولجأ مع أسرته الى بلاط نصر الله ، أثار ما كان عليه
سلطان جان ، أصغر أبناء الأمير اللاجئ من جمال ، وكان فى الرابعة
عشرة من عمره ، غرائز أمير بخارى الدنسة . وبرغم قدسية قوانين الضيافة
التي كان يحرص على احترامها حتى أكثر سكان آسيا همجية ، فان ذلك
الأمير تجاسر على طلب الابن من أبيه . وحاول دوست محمد أن ينقذ ابنه
بطريق الهرب ولكنه لم يفلح فى ذلك ، فقد حوصر سلطان خان وأخوه

الأكبر أكبر خان وأعيدا الى بخارى برغم استتاتها فى المقاومة. ولم يتمكن دوست محمد نفسه من الافلات من برائن هذا الوحش الا بمشقة . ولعل منهل الاسلام (١) الصافى فى بخارى لم يبد فى عينى دوست محمد رائقا حين أتيح له فيما بعد أن يقارن بين ما لقيه بالمعتقل اللائق الذى أنزله فيه البريطانيون ، وما لقيه فى ضيافة جاره وأخيه فى الدين .

وكما سنرى فى المقال التالى فان دوست محمد عقد النية وهو فى سنه المتقدمة على الانتقام لهذا السلوك المشين .

ولم يصل الانتقام الحق الى نصر الله فى وقته على كل حال . ذلك أن أعداءه لم تتح لهم الفرصة لمحاسبه عما كان يرتكبه من الآثام ، فدفع خلفه ثمن ذلك كله . ففى عهد هذا الأمير كان كل شخص فى داخل البلاد ، أى فى بخارى ، يعيش فى خوف مقيم . وكان الآباء يرون أبناءهم وبناتهم يحملون بالقوة الى قصر الأمير فلا يجروون على النطق بكلمة احتجاج واحدة . ذلك أنه كان للأمير ، وفق تعاليم الشيوخ ، أن يفعل برعيته كما يفعل الراعى بأغنامه . حتى نهض حزب كبير من الساخطين على ذلك الوضع ، حوالى عام ١٨٤٠ - ولا يمكننى أن أذكر التاريخ على وجه التحقيق -- والمظنون أن الأمير مظفر الدين ، أكبر أولاد نصر الله وخليفته المنتظر ، كان على رأس هؤلاء . وكانت أقل ريبة أو اشتباه ، يحوم حول أى شخص ، كقيل بأن يودى به الى حتفه .

وعلى هذا فقد سيق الى الموت أكثر من أربعين شخصا من المتآمرين . أما الأمير مظفر الدين فقد نقل من حكومة قارشى الى حكومة كرمينية ، فلم يتحدد بهذا الاجراء نشاطه فحسب ، بل وصار كذلك أقرب الى رقابة أبيه عليه . وكان نصر الله قد تقدمت به السن كلما ازدادت نوبات هياجه وحنقه واشتدت ، حتى وافاه أجله عام ١٨٦٠ بعد أن حكم أربعة وثلاثين عاما . وقد عكر عليه صفو سنى حياته الأخيرة ما كان من

(١) ما دخل الاسلام فى هذا ؟ هذه زلة من المؤرخ ما كان له أن يتورط فيها .

أمر الثورات المتكررة التي كانت تنشب في خوقند فضلا عن صراعه المرير مع صهره ولى النعم في شهر سبز . وجاءته الأخبار بسقوط ذلك الحصن في يد قواته وهو يعاني سكرات الموت ، فأصدر أمره ، وهو لا يكاد يعبر عن ذلك الا بشقة ، بأن يساق الى الموت صهره وجميع أولاده . ولم يكفه ذلك حتى أمر باحضار زوجه نفسها ، أخت ولى النعم ، الى جانب فراشه ، وهرعت اليه هذه السيدة ، وهى أم لطفلين ، ترتجف فرقا ، فلم يرق لها قلب ذلك الطاغية حتى وهو فى النزاع ، وأمر بقتلها أمام عينيهِ ، فزفر آخر أنفاسه الكريهة وهو يتطلع الى دماء أخت أخطر أعدائه .

الفصل التاسع عشر

الأمير مظفر الدين وبيت رومانوف

١٢٧٧ (١٨٦٠) - ١٢٨٧ (١٨٧٠)

ان المثل القديم الذى يقول « ان الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون » نادرا ما نرى له حالة ينطبق عليها تمام الانطباق أو يتحقق فيها سريعا كتلك التى كان عليها مظفر الدين خان ، ابن نصر الله وخلفه .

كان الروس قد تقدموا اذ ذاك بالفعل ، على أجنحة ريح الشمال ، نحو شواطئ جيحون فى حياة نصر الله نفسه ، وسبقهم الموت اليه قبل أن يسقط هو نفسه فى أيديهم ، ليدفع ابنه من بعد ذلك ثمن أخطائه ، بضياح تاجه ، وبلاده بضياح استقلالها . وكان مظفر الدين قد قضى شبابه المبكر فى قارشى ، مقام ولى العهد وقصة المنغيتيين ، ليتعلم فن الحكم بين قبيلته نفسها على ما فعل أبوه من قبل . وقد عرف منذ وقت مبكر بانكبابه على الدرس وبمقدرته الفائقة وكفايته . ويمكن لكاتب هذه السطور أن يشهد ، بناء على ما وقف عليه بنفسه ، بأنه كان مسلما واسع الثقافة بالمعنى الذى تدل عليه العبارة بتركستان بطبيعة الحال . ومع هذا فقد كان مظفر الدين شوكة فى جنب أبيه منذ أول الأمر على كل حال . ذلك أن نصر الله كان يخشى أن ينهض ابنه منافسا خطيرا له ، قياسا على ما كان من سلوكه المشين هو نفسه بازاء أبيه الأمير سعيد من قبل . وأدت به أوهامه هذه الى أن صار يتمثل له على الدوام أشباح مؤامرة تحاك له فى قارشى حتى استولى عليه القلق الشديد . هنالك عزم على أن يتخلص من هذا الكابوس المقيم فندب ابنه لحكومة كرمينية حتى يكون بذلك الى جواره وحتى يستطيع أن يراقب بنفسه حركاته وسكناته عن كثب .

وبقى مظفر بمقامه الجديد هذا فى شبه عزلة مهيبى الجناح وذلك ابتداء من عام ١٨٤٢ حتى وفاة أبيه ، ليرتقى عند ذلك عرش بلاد ما وراء النهر ويعرف فى التاريخ كآخر عاهل فى سلسلة الحكام المستقلين الطويلة من مختلف الأسر الحاكمة التى حكمت على ضفاف زرفشان لمدة ألف عام ابتداء من السامانيين .

ويمكننا أن نؤكد مخلصين أن مظفر الدين كان شخصيا بريئا من كل لوم تلقاء النكبة التى نزلت بأسرته . هذا وما نلاحظه غالبا هو اختلاف سلوك كل وريث للعرش ، وهو أمير ، اختلافا كبيرا فى العادة عن سلوكه حين ينتقل اليه الحكم بالفعل ، وهو أمر شائع فى كل الأقطار . وكان هذا هو الحال مع مظفر الدين ، فقد تخلى هذا الأمير بالكلية عن خلال رجال الدين الوديمة التى كان عليها وهو ولى عهد (كته - توره) (١) ، فجدد تو ارتقائه العرش الصراع مع شهرسبز الثائرة حيث كان أهلها قد عادوا الى رفع راية العصيان من جديد عقب موت أبيه . وكانت هذه أول حروبه ، ولكن جهوده فيها لم تنته الى شىء ، نظير جهود أبيه هناك من قبل .

فبينما كان منهمكا فى حصار چراكچى ، أحد حصون شهر سبز ، وجد نفسه ينساق الى حرب جديدة أخرى بسبب الأحداث التى قامت فى خوقند ، فاضطر أن يسلك هناك نفس السياسة التى جلبت الكوارث على أبيه من قبل وعلى كل آسيا الوسطى من بعد ذلك . فقد دبر البخاريون مقتل مسلمان خان ليتخلصوا منه ، وكان قد استولى على مقاليد الحكم فى خوقند على ما ذكرنا من قبل ، ثم وضعوا التاج على مفرق حفيد ثالث لمحمد على هو خدايار خان .

وكان هذا الأمير الضعيف الجبان قد نشأ تحت بصر نصر الله نفسه وسط كل الرذائل التى كانت تسود بلاط بخارى . وعلى هذا فقد كان

(١) هذا الاصطلاح الذى لم يعرفه العالم الغربى الا فى وقت متأخر معناه الأمير الكبير أو العظيم ، وهو وريث العرش على الرسم المعروف .

يتعلق ببخارى تعلقا شديدا حتى ود لو بادل عرش خوقند ، تلك الامارة التى بقيت على الفطرة ولم يتطرق اليها الدنس بعد ، برذائل عاصمة النفاق البراقة التى تقوم على ضفاف زرفشان . واذا كان يشعر بمضض فى ارتداء فراء فرغانة القديم الأبيض عنوان الامارة ، فان الاضطلاع بالتزامات منصبه الملكى الذى اضطره الى أن يقود الجيوش بنفسه لصد تقدم الروس عند حوض سيحون الأدنى ، كان أبعث لمقته ، ولا سيما بعد أن نزل به أكثر من ضربة على أيدي هؤلاء الشماليين وأخذ يفقد حصونه الواحد بعد الآخر . وكان عليه كذلك أن يحاول استرداد حصن آق مسجد بعد أن بات العلم الروسى ، القراقوشى (النسر) ، يرفرف عليه ، وصار يعرف عندهم باسم حصن بيروفسكى .

على أن خديار لم يكذب يعود فى إحدى المرات من غزواته ، دون أن يحقق أى هدف كعاداته ، حتى وجد عاصمته وقد أوصدت أبوابها فى وجهه ، اذ كان أخوه الأكبر ملاخان قد استولى على العرش فى غيابه ، ومن ثم اضطر الى الهرب الى بخارى . ولو كان مظفر الدين قد تذكر المثل العربى الذى يقول ان « العدل سيد الأحكام » ، ولم يتنكر لما كان ينادى به من قبل من المبادئ السلمية ، وعمل ، تبعا لذلك ، على القضاء على الخلافات بين أفراد أسرة محمد على مكتفيا باكرام وفادة ربيب بيته هذا ، لكان قد تمكن بذلك من أن يكفى نفسه كثيرا من المتاعب التى تعرض لها .

ولكنه ، ككل حكام آسيا ، كان يطمح أن يطلق عليه ذات يوم لقب « فاتح العالم » ، فتذرع لذلك باستنجاد خديار به وأسرع من شهر سبز على رأس جيش كبير عزم به على فتح خوقند . وفى هذه المعركة الأولى ، عهد الى خنجر الغدر من جديد بتحقيق أهداف هذه الحرب ، فانقض نفر من شيعة بخارى ذات ليلة على ملا خان وقتلوه مع فريق من خدمه . وسعى بعض أنصار ملا خان من القبجاق فى اجلاس مرشحهم شاه مراد على العرش من بعد ذلك ، وكان هؤلاء هم أصحاب السلطان فى سمرقند ، ولكن مظفر الدين سبقهم الى ذلك ورد خديار الى عرشه ثم آب الى بخارى .

على أن صنيعة بخارى هذا لم يستطع أن يحتفظ بعرشه لأكثر من أربعة أشهر . ولما رأى مظفر الدين أن ربيبه هذا يزدرية قومه ويستخفون به لم يجد بدا من أن يخرج الى خوقند فى قوة أكبر مما خرج فيها من قبل ليوجه الأمور هناك على الخطة التى رسمها بأى ثمن . وسير لذلك أولا قائده شاهرخ خان فى أربعة آلاف من الجند وبصحبه محمد حسن بك ومعه ثلاثون مدفعا ، ثم أسرع هو نفسه من بعد ذلك نحو الشرق ومعه بضع مئات من تركمان التكه وقد عقد العزم على ألا يرجع حتى يخضع له كل ما بين بلاده وحدود الصين .

كانت خوقند بدورها قد تزودت بالسلاح من رأسها حتى أخصص قدميها ، وهب القبجاق بدورهم ، وهم أخطر العناصر الحربية فى تلك الخانية ، للدفاع عن حق الأمير المطالب بالعرش وكان قد استتجد بهم . ورتب هؤلاء المدافعون أمرهم على أن يتجنبوا الاشتباك مع قوات العدو الرئيسية ، ولا سيما مدفعية أمير بخارى التى كان لها صيت ذائع فى آسيا الوسطى .

وعلى هذا فقد تقدم أمير بخارى حتى بلغ أوش دون أن يلقى أدنى مقاومة . على أن النصر الذى حصل عليه مظفر الدين ، والذى راح يزهو بإذاعة أخباره ، لم يكن الا صورة كاذبة للواقع . ذلك أن الخسائر فى الرجال من الجانبين بلغت الذروة فى تلك الحرب الضروس التى وقعت بينهما .

وبرغم أن حاكم بخارى كان يظن فى نفسه أنه تيمور الثانى ، فإن جنده لم يكونوا يغادرون أى موضع حتى كان القبجاق يعودون الى احتلاله والقضاء على كل سلطان للبخاريين فيه ، لينتهى الحال آخر الأمر الى تقسيم خوقند الى قسمين . فصار القسم الشرقى من الخانية ، من أوش الى محرم ، من نصيب بريب القبجاق ، فى حين خضع القسم الشمالى من أراتبه الى ما وراء طشقند ، لخدايار الذى اتخذ من سمرقند مقاما له حتى يجاور بذلك حامييه عن قرب .

قد تكون مهاجمة مظفر الدين لما يجاوره من امارات أمرا مقبولا بعض الشيء لو أنه كان يرمى ، من وراء هذا الفتح أو الحماية ، الى

توحيد قوات هذه البلاد المفتوحة مع قواته للوقوف في وجه الغازي
الأجنبي عند حوض سيحون الأدنى .

ولكن هذا الأمير كان خلوا من مثل بعد النظر السياسي هذا ، إذ
كان هدفه من عملياته هذه ، التي أملت عليها طمأعته الخرقاء وجشعه ،
أبعد ما يكون عن العمل على تأمين مستقبله ، فلم يجلب سلوكه هذا
عليه الا الخراب . ذلك أن حمايته لخديار خان لم تؤد الا الى دفعه
للصدام مع خصم لا يستطيع لا هو ولا آسيا الوسطى أن يقفا في وجهه ،
ولا حتى كذلك بلاد الاسلام كلها !

وكانت روسيا بعد فشل حملة بيروفسكى عام ١٨٣٩ م هي وجميع
بعثاتها الدبلوماسية ، قد عدلت أساس عملياتها الحربية ، فنقلت
قاعدتها من عند الجنوب الشرقى لبحر آرال الى شواطئ سيحون ،
وتقدمت قواتها من بعد ذلك حتى بلغت الأماكن المأهولة في اماره
خوقند . وشيد الروس حصن أورنبرج على نهر توركاى عام ١٨٤٧ ،
وحصن قراپوتاق على نهر قراپوت فى السنة التالية (١) .

ولما كان الروس لم يتثبتوا بعد ذلك من امكان استخدام جيحون
كقناة مهمة للملاحة وكأحسن طريق مائى يصل الى داخل تركستان (٢) ،
فقد ظلوا على ذلك يستخدمون سيحون بدلا منه .

(١) انظر فى ذلك John and Robert Mitchel. The Russians
in Central Asia London 1865, p. 30.

(٢) كان سير الكسندر بيرنز رجلا قديرا ، وان زينت عليه بعض
المعلومات الخاطئة ، فهو أول من أذاع فى أوربا ان الروس يمكنهم ان
يستخدموا جيحون كطريق مائى رئيسى فى مواصلاتهم مع تركستان ، حتى
قام الأميرال بوتاكوف Butakoff بأبحاثه عند مجارى جيحون الدنيا
ومصابه بين عامى ١٨٤٨ و ١٨٥٩ فقال بعكس ما قال به بيرنز . ومن
الواضح بعد الاختبار ان فروع هذا النهر الأربعة التى يتفرع اليها لاتصلح
للملاحة ، فحوضه هو فى المحل الأول ضحل فضلا عن ان تجمع الرمال فيه
يؤدى الى تغيير اتجاه التيار فيه كل يوم فى الغالب حين يكون الماء
منخفضا . وقد تمكن الملاحة فيه حتى قبحاق حين تمتلىء بعض القنوات
التي تمد بالماء السهل الواقع فيما وراء قنقرات وجرتانقل ، وهذه القنوات
منها ما هو طبيعى ومنها ما هو صناعى . وقد فصل الأميرال بوتاكوف
نفسه هذه المسألة فى مقال له بمجلة الجمعية الجغرافية بلندن

Journal of the Geographical Society, London 1867.

وكان الجنرال بيروفسكى الحاكم العام لأورنبرج قد عهد عام ١٨٤٧ الى الكابتن شولتز Schultz ببناء حصن أزالسك عند مصاب سيحون ، فجاء ذلك بالطبيعة شوكة في جنب أوزبك خيوه لم يستطيعوا التخلص منه برغم احتجاجاتهم العديدة ، وظلوا يتطلعون اليه ، على الرغم منهم ، وظل النسر الروسى الذى يرفرف عليه يتهدد مستقبلهم بالويل والثبور ، وقد أخذ ييسط جناحيه بالتدريج فوق الشاطئ الأيسر لسيحون .

وحين أثبت حصن أزالسك ، الذى عرف فيما بعد باسم الحصن رقم ١ ، أنه نقطة صالحة للانطلاق ، لم يكن من العسير من بعد ذلك أن يتوقع المرء انشاء الحصنين رقم ٢ ورقم ٣ وشيكا ، وأن الطواير الروسية سوف تشتبك عن قريب مع خوقند بوصفها الدولة التى تسيطر على هذه المناطق ولو اسما .

وأخذت حامية حصن آق مسجد الخوقندى أول الأمر على عاتقها تلك المهمة الكريهة فى تعويق العمالقة الشماليين ، وانطلقت تهاجم الروس أنفسهم تارة ، والقرغيز الذين يمشون فى كنف هؤلاء الأعداء تارة أخرى ، لترتد فى كل مرة بخسائر ثقيلة كالعادة .

واستمرت مناوشاتهم هذه عامين ، وكان الخوقنديون لا يلتقون فى الغالب الا بفصائل صغيرة من الجيش الروسى ، فلم يقفوا بذلك على حقيقة تفوق عدوهم البالغ عليهم .

وكان الروس بدورهم ، بعد أن تدربوا على استراتيجية الحرب وطبيعتها فى هذه المناطق واعتادوا عليها ، قد أصبحوا على أتم درجة من الكفاية والاستعداد لفتح تركستان .

وكانت السفن المعدة للملاحة فى النهر ترسو فى الوقت نفسه فى مياه بحيرة خوارزم العتيقة شديدة الخضرة ، وكانت قد نقلت برا من السويد الى أراى . ونظرا لعدم توفر الفحم هناك فقد استخدم للوقود ضرب من أخشاب الشجيرات يعرف باسم « سكساوول » .

وبرغم هذه الصعوبات التى واجهتها تلك البواخر التى ظهرت لأول مرة على صفحة هذه المياه القديمة التاريخية ، فانها قد حققت الغرض منها على أتم وجه .

وفى عام ١٨٥٢ خرج الكولونيل بلارمبيرج Blaramberg مع فرقة من الجند فى رحلة استطلاعية نحو حصن آق مسجد ، ودنا من أسواره فى حفنة من رجاله . ولئن لم يبلغ الى نتيجة مباشرة فى مخاطرته هذه التى ابتعد فيها مائتين وخمسين فرسخا عن الجبهة الروسية ، فان الهجوم العام الذى وقع على هذا الحصن فى العام التالى قد تكلل بالنجاح التام ، وكانت هذه الحملة قد أعدت على نطاق واسع (١) . فقد اندفع الروس فى ربيع دافئ ، على غير المعتاد ، فعبروا أجذب المناطق فى سهوب أورنبيرج حتى بلغوا الحصن رقم ١ ، وفى نيتهم من بعد ذلك أن يصلوا الى آق مسجد على الشاطئ الأيمن لسيحون . وصعدت الباخرة بيروفسكى بدورها فى النهر . ولم تنل الحرارة الشديدة ، ولا أسراب الجراد والجنادب أو لظى رمال الصحراء ، من عزيمة هؤلاء الشماليين الأشداء شيئا ، فاكنتفوا آق مسجد ، وبدأ بذلك الصراع للاستيلاء على أول حصن فى أرض تركستانية .

ولقد دعى الجنرال بيروفسكى الخوقنديين أول الأمر للتسليم دون حرب (٢) ، ليجبيوه عند ذلك بأنهم لن يستسلموا له ما بقيت عندهم ذرة

(١) كانت هذه الحملة تضم ٢١٦٨ رجلا بما فيهم الضباط و ٢٤٤٢ فرسا و ٢٠٣٨ جملا و ٢٢٨٠ ثورا للنقل The Russian in Central Asia P. 339
(٢) يبدو من هذه الوثيقة التى تضمنت هذا الطلب أن الروس كانوا فى مراسلاتهم مع سكان أواسط آسيا يكتبون اليهم فى لغة أوزبكية سليمة الأسلوب . وكان نص الرسالة كالاتى :

« من الحاكم العام لأورنبيرج الى قائد حصن آق مسجد » .
« بأمر مولاي امبراطور روسيا كلها قد جئت الى هنا لاستولى على حصن آق مسجد الذى اقامه الخوقنديون على الاراضى الروسية بفرض الاعتداء على القرغيز رعايا جلالته .

« ان حصن آق مسجد هو فى حكم المستولى عليه برغم انكم الآن بداخله ، ولا يعسر عليكم أن تدركوا انى مستطيع أن اقضى على كل واحد منكم دون أن أفقد فى ذلك رجلا واحدا من رجالى .

من البارود فى جربهم أو حصاة فى طرقهم ، وحتى تشلم سيوفهم
ورماحهم .

واستعر القتال بين الفريقين حتى تمكنت المدفعية الروسية من أن
تهدم أسوار الحصن ، وكانت من الطين ، فى عدة مواضع ، وتنزل
بقنابلها خسائر شديدة بالمدافعين ، ليندفع من بعد ذلك أول طابور من
طواير الهجوم يقوده الملازم المجرى أرديلى (١) Erdelyi ويندفع الى
داخل الحصن فى الثامن من أغسطس عام ١٨٥٢ .

على أن الخوقنديين لبثوا يدافعون عن أرضهم شبرا شبرا فى
شجاعة خارقة برغم سقوط قائدهم محمد ولى فى أول القتال ومقتل أكثر
قوادهم الكبار . ولم يعمد الى الفرار منهم الا نفر قليل .

وكان هذا الحصن أول موضع له قدر من الأهمية الاستراتيجية أو
السياسية استولى عليه الروس عند مشارف السهوب الشمالية . وكان
كذلك أول وآخر مكان باع عنده سكان آسيا الوسطى أنفسهم بيع
السماح فى بطولة نادرة واستماتوا ضد الغازى الدخيل .

وظل الخوقنديون يبذلون فى كل عام محاولات جدية فى الغالب

« ولم يأت الروس الى هنا ليقضوا يوما او عاما وانما ليقيموا الى الأبد
فلن ينسحبوا من هنا .

« فاذا اردتم الحياة فاسألوا الرحمة ، واذا اردتم ان تهلكوا فى آق
مسجد ، فسيكون لكم ما سألتم ، فلست فى عجلة وليس للزمن عندى
حساب . وهنا أكرر لكم انى لم آت طلبا لنزالكم وانما لأضربكم حتى
تفتحوا أبوابكم .

« ولقد وددت ان أقول لكم ذلك كله أول يوم وصولى حين دنوت من
أسوار حصنكم ، دون ان أحمل سلاحا ، لولا انكم عمدتم الى الغدر ففتحتم
نيرانكم على ، وهو تصرف ليس من شيم الجنود الشرفاء فى شيء »

The Russian in Central Asia, p. 339.

(١) كان هذا الضابط مواطنا لى كما يدل عليه اسمه .

لاسترداد هذا الحصن (١) ولكن بلا جدوى ، برغم أن الفرصة بدت مواتية لهم فيما بين عامى ١٨٥٣ و ١٨٥٦ بصفة خاصة حين كان الروس قد وحدوا كل جهودهم وركزوا كل قواتهم فى حرب القرم .

ولم تكن روسيا وهى فى هذا المأزق الحرج اذ ذاك لتستطيع أن توجه التفاتها الأول الى أملاكها فى آسيا الجنوبية . وكان أمراء آسيا الوسطى بدورهم لا يدرون شيئا عن ذلك العراك الذى كان يقوم أمام سياستپرل .

ولو انهم التفثوا الى ذلك الخطر الذى يتهدهم وتنبهوا له بالائتلاف معا اذ ذاك ، لاستطاعوا بلا كبير عناء أن يستردوا ما ضاع منهم من حصون ، بل وأن يطردوا الروس كذلك الى مشارف السهوب الشمالية ، وقد كان الزعيم القرغيزى عزت كوتير^٢ قد نجح بدوره اذ ذاك فى القضاء على نفوذ الروس فى القبيلتين « الصغيرة والمتوسطة » . ولا أدل على عدم صلاحية هؤلاء الأمراء للحكم وعدم أهلية سكان آسيا الوسطى للاستقلال ، من أنهم وقفوا من هذه المسألة كلها موقفا سلبيا . حتى وجدت روسيا وهى فى أشد أوقات محتتها أن سياستها بولايات جيحون أقل تعرضا للخطر منها فى أى جهة أخرى .

ولقد حاول الباب العالى عبثا أن يحمل مبعوثين لخيوه وبخارى ، كانوا يقيمون عنده من سنوات ويتكلفون نفقات طائلة ، على أن يبادروا

(١) من اعظم هجمات الخوقنديين تلك التى شنوها فى الفترة ما بين ١٤ و ١٧ ديسمبر سنة ١٨٥٣ ، وكانت قواتهم تبلغ اثنى عشر الفا من الجند ، وقد تمكن ستمائة من الروس فقط ان ينزلوا بهم الهزيمة ويرغموهم على الفرار .

(٢) كوتير (أى السعيد) كان مثالا لفرسان قرغيز السهوب الأبطال . وقد اشتهر منذ عام ١٨٢٢ بشجاعته الفائقة ومغامراته فى قطع الطرق ، وكان يفيد فى الزمن السابق من حماية روسيا له حين كان ينطلق لقطع الطريق على القوافل الغنية القادمة من بخارى و خوقند . وقد تلقى نوطا ذهبيا (وليس نوط الفنون والعلوم قطعا) من بطرسبرج تقديرا لخدماته ، وما لبث بعد ذلك ان انقلب على ساداته ، فلم يرغم على الخضوع ويقضى على خطره الا بعد صراع طويل عنيف .

بالعودة الى بلادهم في الحال وييصروا سادتهم الأجلاء بهذه الفرصة الذهبية المواتية التي أتاحت لهم لتأمين سلامة بلادهم واستقلال ديار الاسلام .

أما خيوه فبدلا من أن تشرع في مهاجمة عدوها بعثت برسلها الى آق مسجد ليعلنوا لأصحابه عن صداقتها لهم . وأما بخارى فقد كان الطاغية نصر الله لا يزال يجلس على عرشها ، وقد استغل ما صارت اليه خوقند ، جارتة الشرقية ، من ضعف فغزاها ، وظن نفسه بذلك سعيدا اذ تمكن من أن يضم الى أراضيه الموضع بعد الآخر .

وكان من الطبيعي في مثل هذه الظروف والأحوال ، أن تعتمد روسيا من فورها ، عقب ابرامها لمعاهدة باريس ، الى استئناف تنفيذ خططها في الفتح بعزم أشد ونجاح أكبر فسقط حصن چولك الصغير عام ١٨٥٩ ، واستسلم من بعده بعامين حصن ينكى كورغان على شاطئ سيحون ، لتأخذ من بعد ذلك طلائع الروس ، على شاطئ النهر الأيسر ، في تقدمها حتى تبلغ الأجزاء المأهولة بالسكان في شمال خوقند ثم تستولي في شهر يونية من عام ١٨٦٤ على مدينة تركستان ، أو حضرة تركستان ، مقر الصوفي المشهور أحمد اليسوى .

وأشاعت هذه الأخبار موجة من الهلع بين سكان آسيا الوسطى ، وألهبت حماسهم الدينى . وفي تركستان يعد خواجه أحمد ثانى الأولياء بعد بهاء الدين ، وله في خوقند خاصة توقير ملحوظ . وكان من المنتظر ، والحالة هذه ، أن يأتلف القبجاق مع خدايار خان فيخرجوا جميعا لقتال انكفار . ولكن ما بينهما من الحقد والكراهية لعبا دورهما على ما كانا يلعبانه على الدوام في توران من قبل . وعلى هذا فقد وقف القبجاق ، وهم أشد مراسا في الحرب من الخوقنديين ، ينظرون في سرور بالغ الى الروس وهم يتقدمون بطريق سيرام الى طشقند ، بعد نصر جمكنت (١) ، ويستولون على ذلك المكان الذى يعد من الناحيتين التجارية والسياسية على السواء مفتاح آسيا الوسطى أو على الأقل باب الجانب الشمالى منها .

(١) انظر هامش ٢ ص ٣٨ من هذا الكتاب .

في ذلك الوقت فقط أدرك مظفر الدين أنه قد آن الأوان لكي يعبد النظر في مشاكل ربيبه خديار خان ويحاول ، ولو بطريقة غير مباشرة على الأقل ، أن يقيم بعض العراقيين في طريق جيش الاحتلال الروسي . فخرج أولا الى خوقند في مايو ١٨٦٥ لتأديب القبجاق ، وذلك على اثر شائعة كاذبة انتشرت في بخارى مفادها أن هؤلاء ، بموقفهم السلبي ، قد عاونوا الروس على تنفيذ خططهم .

وكان هذا القول محض اختلاق في الواقع ، ذلك أن القبجاق كانوا هم أنفسهم الذين قاوموا الروس ببسالة حتى سقط زعيمهم الشجاع عالم قل امام طشقند .

وبموت هذا الخصم العنيد لم يجد مظفر الدين أية مشقة في فتح خوقند الشرقية . وهناك حمل الضعيف مير سعيد أحد أبناء سراماسكس أسيرا الى بخارى ونصب خديار أميرا على خوقند ، وكان قد فقد أكثر أملاكه بسبب استيلاء الأعداء من الكفار عليها .

بعث مظفر في الوقت نفسه برسالة مليئة بالغطرسة الى الجنرال تشرنايف ، وهو الذي خلف الجنرال بيروفسكى في قيادة الجيش الروسى ، يدعو فيه الى اخلاء كافة الأراضى التى يحتلها الروس ويهدده ، فى حالة الرفض ، بأن يجند كل المؤمنين فى توران (١) لحرب روسيا .

وذهب الأمير فى سبيل تأكيد دعواه هذه ، الى مصادرة أملاك التجار الروس الذين اتفق وجودهم ببخارى اذ ذاك .

ولم يكن رد الروس عليه دونه فى العنف ، ولكن حدث حين شرع الروس يهاجمون البخاريين عند اورنبرج ، على سبيل الانتقام غير آبهين

(١) يتضح من هذا ان الامير كان لا يزال يثق فى تفوق جيشه ويعتقد فى زعامته الروحية على كل مسلمى تركستان . على ان القوم فى بخارى لم يدركوا ابدا ان الروس كانوا قد هزموا جيوش الخوقنديين عند سيحون ، وكانت تفوق فى قوتها جيوشهم عشر مرات ، ان لم يكن عشرين مرة ، ولم يكن احد يجرو على رواية اخبار هذه الكارثة ، ولم يكن القوم يعتقدون فى صحة ذلك حتى ولو سمعوا به .

بتهديد هذا الأمير ، أن بادر بدوره ، ولم تكن المراسلات بين الطرفين قد انتهت بعد الى اعلان الحرب بينهما ، فأوفد خوجه نجم الدين في بعثة صداقة الى بطرسبرج ليشكو الى القيصر اعتداءات قائده .

وكان الأمير يرمى من وراء ذلك الى كسب وقت يستطيع فيه أن يقضى على الثوار في شهر سبز . على أن الروس كانوا أشد دهاء منه ، فقد قبضوا على نجم الدين واعتقلوه في حصن قزالي .

ولما كان أمير بخارى لا يزال يحتفظ اذ ذاك في مجبسه برعايا من الروس ، وان كان قد أطلق سراح التجار منهم ، فان الجنرال تشرنايف بعث الكولونيل شتروفه الى بخارى وبصحبه عديد من الضباط ليحاول أن يفض الخلاف مع مظفر الدين (١) .

والغالب أن القائد الروسى لم يكن مفوضا بالحرب أو لم يكن في مركز يسمح له بذلك . وكان من الطبيعى ألا يلقى الكولونيل شتروفه من الأمير معاملة أحسن من تلك التى لقيها نجم الدين من الروس (٢) . هنالك أحس تشرنايف بأنه قد أهين اهانة بالغة ، فعبّر لذلك سيحون عام ١٨٦٦ وتجنب المرور بخجندة ، فنفذ في الصحراء الى جيزك أول موضع يتصل بأراضى بخارى نفسها .

(١) كانت هذه البعثة تتكون من الفلكى شتروفه عضو مجلس الشورى (وعلى رواية أخرى ، الكولونيل شتروفه وهو غير هذا العالم الذى يحمل الاسم نفسه) والمهندس تاتارينوف وضابطين آخرين هما الكابتن جلوشوفسكى وحامل العلم كولسينكوف
(Die Russen in Centralsien, Eine geographisch — historische Studien von Friedrich von Helwald, Vienna 1869 p. 65.)

(٢) ظلت هذه البعثة الروسية منذ وصولها حتى أول فبراير ١٨٦٦ حبيسة الدار التى نزلت فيها ، ثم دعتهم السلطات من بعد ذلك الى تسليم أسلحتهم ، ولكنهم رفضوا ذلك فى اصرار ، مما ادى الى وقوع «مناوشة» أصيب فيها آقسكال وخمسة من البخاريين بجراح شديدة ، وقد استسلم الروس آخر الأمر بعدما أظهروا فى هذا الظرف شجاعة وجراة غلبتا على رويتهم Edinburgh Rev. Jan -1867 P. 40 وهذا المقال عن «السياسة الخارجية لسير جون لورنس» ، بقلم الكاتب القدير مستر ويلي الذى يعد موته المبكر خسارة كبيرة . ويعد من احسن ما نشرته المطابع الانجليزية فى هذا الموضوع .

على أن الروس كانوا هذه المرة قد بنوا تقديرهم على أساس غاطىء . ذلك أنهم بلغوا الحدود بعد سير شاق فى صحراء جدداء لا ماء فيها على الاطلاق ، ليجدوا أنفسهم من بعد ذلك تواجههم قوة لا تقرب من عشرة أضعافهم كالعادة فحسب ، بل وتصل هذه المرة الى عشرين ضعفا على الأقل ، وقد أدركوا عند ذلك ، ولكن بعد فوات الأوان ، أن لا مناص لهم من الانسحاب .

وعلى هذا فقد نظموا صفوفهم على أن يقوموا بانسحاب سريع ، وقد استطاعوا أثناءه أن يؤمنوا أنفسهم من خطر الجموع التى لا حصر لها ممن كانوا يحومون من حولهم على طول الطريق . ومهما يكن فإن المحدثين من أحفاد التوارنيين المحاربين ، الذين كانوا يوما مصدر رعب ، هم اليوم جنباء فى الواقع .

ونال تشرنايف ما يستحق من توبيخ على تصرفه هذا ، وحل مكانه الجنرال ديمترى ايلتش رومانوفسكى Dimitri Ilyitch Romanoffsky وشجع فشل الروس فى خططهم الأوزبك على مهاجمتهم حتى استطاعوا فى ٥ أبريل من العام نفسه أن يستولوا بعد هجوم قوى على جيناز وهو حصن صغير على الشاطئ الأيسر لسيجون .

هنالك جرى فى وهم مظفر الدين أن فى استطاعته أن يهزم الروس بنفس السهولة التى كان يهزم بها الخوقنديين ، فخرج على رأس جيش قوامه خمسة آلاف من الجند النظامى وثلاثون ألفا من القرغيز وعشرة آلاف من التركمان ومعه عشرون مدفعا ليسترد القسم الشمالى من طشقند من أيدي الكفار . ولم يكن القائد الروسى ليقف بازاء ذلك مكتوف الأيدي .

(١) علمت بأمر هذه الفصلة عن طريق فقرات نشرت منها بجريدة التيمس Times ١٦ و ٢٦ مارس ١٨٦٩ ، وذلك فى رسائل مراسلها ببرلين . وتعد أخبار هذا المراسل عن أحوال آسيا الوسطى السياسية عظيمة القيمة . ويبدو من هذه الفقرات أن الجنرال رومانوفسكى كان على دراية تامة بأحوال آسيا وأنه هو نفسه كان عميق الإدراك لها بدرجة لا نظير لها .

ويروى لنا رمانوفسكى فى الفصلة التى نشرها عن هذه الواقعة (١) أنه كان معه فى الحملة التى حارب بها الجنوب أربعة آلاف رجل ، من بين خمسة عشر ألف جندى كانوا هم كل قوام القوات المحاربة الروسية فى تركستان ، اضطر بهم الى قبول تحدى خصه له .

وقد وقعت الموقعة الحاسمة فى عشرين مايو من عام ١٨٦٦ عند برجار على الشاطئ الأيسر لسيحون على مسيرة أميال قليلة الى الشمال الغربى من خجندة . واستطاعت المدفعية الروسية أن تفتح ثغرات فى صفوف فرسان الأوزبك المتراسة ، حتى اذا ما انطلق الروس فى عددهم القليل ، يحملون من بعد ذلك على أعدائهم ، أشاع مجرد ظهورهم الاضطراب فى صفوف العدو ، وانهى أمرهم من بعد ذلك الى الفرار فى تراحم صوب الجنوب (١) . وترك الأمير من ورائه مضاربه بما فيها سرادقه الفخم وطاقم مدفعيته كله ، ولم يتيسر له هو نفسه الهرب الى جيزك الا بمشقة .

وبلغت خسائر البخاريين فى هذا القتال قرابة ألف رجل ، وكان المنغيتيون ، صفوة الجيش ، هم أعظم الجميع فى خسائرهم ، فى حين لم تزد خسائر الروس على خمسين بين قتيل وجريح .

وكانت معركة برجار هذه بمثابة الضربة القاضية لتركستان ، اذ ضاع بسببها استقلالها ، وهى التى ظلت خلال ألف عام ولها صيتها ونفوذها البالغ بين سكان آسيا الوسطى ، بل يمكن أن يقال كذلك ان العالم الاسلامى بداخل آسيا قد نزل به بهذه الهزيمة ضربة مميتة .

وكان بوسع القائد الروسى أن يتابع فى الحال سيره الى سمرقند مستغلا فى ذلك الذعر الذى أشاعه بين الناس خبر هذه الكارثة العظيمة

(١) تجد احسن تفصيل ظهر حتى الآن عن موقعة برجار الحاسمة فى كتاب هلوالد سالف الذكر ص ٦٨ . ففضلا عن المام صاحبه بالموضوع الماما تاما فان كتابه يمتاز كذلك بأسلوبه الرصين . وما يؤخذ عليه فقط هو ان ميله الى الروس قد دفعه الى الخروج عن جادة الانصاف فى حكمه على بعض تصرفات البريطانيين .

ولكنه لم يفعل ذلك واكتفى بجلب بعض الامدادات القليلة من حصن كروجى ، حتى تم له فى ٢٨ مايو الاستيلاء على حصن ناو .

ولما كان هذا الموضع الذى يقع الى الجنوب من خجندة ، تلتقى عنده الطرق الشرقية والطرق الشمالية ، فقد أدى احتلال الروس له الى قطع كل اتصال لمدينة خجندة وحصونها مع بخارى ، وبذلك صار مصيرها محتوما . ويحسى خجندة من الجانبين نهر سيحون . ففى جنوبها الشرقى يجرى النهر الرئيسى ، وعند جنوبها الغربى يجرى أحد روافده . وعلى هذا فقد كانت هذه المدينة فى نظر الآسيويين منيعة على الدوام . ومع انها حاضرة اقليم خوقند فقد كانت تقيم بها حامية بخارية وهى التى اضطلعت بالمقاومة فيها . ذلك أن السكان المدنيين ، لا سيما التجار منهم ، كانوا يميلون الى الاستسلام ايمانا منهم بتفوق الروس عليهم . وقد اندفع رجال الحامية بتحريض من رجال الدين المتحمسين يدافعون عن المدينة فى اسبماتة لأيام سبعة استطاع الروس فى آخرها أن يقتحموا القلعة عليهم فى هجوم كانت خسائرهم فيه أكثر منها فى تلك الموقعة الفاصلة السابقة ، فى حين خسر الأوزبك من رجالهم ألفين وخمسمائة قتيل .

هكذا ، كما يقول السيد فون هلوالد بحق (١) ، سقط بأيدي الروس كل الأماكن المهمة فى خوقند ، وانتقل الأمير الألعبوبة خدايارخان ، رغم أنفه من كف حاميه أمير بخارى ليعيش تحت جناح النسر الروسى . وكان الزمان كفيلا بأن يجعله فيما بعد يلائم بين نفسه وبين موقعه الجديد فى سر . وغنى عن البيان أن الجند المسكوفى لم يكن ليحصل على هذا الانتصار بسهولة لو أن خوقند كان يجلس على عرشها أمير قادر ، أو أن العناصر المحاربة فيها ، وهم الذين يشتهرون بشدة مراسهم ، لم يسارعوا اذ ذاك الى الانضواء تحت لواء يعقوب قوشيجى فى تركستان الشرقية . ولقد بوغت الروس بهذا النصر الذى لم يكونوا هم أنفسهم يتوقعون الحصول عليه بهذه السرعة . وأظهر خدايار

(١) انظر كتابه سالف الذكر ص ٧٠

حبوره حين سمح له باسترداد قصبة بابر القديمة هذه في ظل « القيصر الأبيض » وحمايته . وكان عليه أن يسلم كل وديان سيحون للروس ، ابتداء من محرم بطول مجرى النهر كله ، وأن يفتح أبواب مدنه لرعاياهم ويطمئنهم على أملاكهم ، وأن يدفع بعد هذا كله للخزانة الروسية غرامة حربية باهظة سوف تثقل كاهله لسنين طويلة مقبلة بلاشك . وخفضت قواته بدورها حتى صارت مجرد قوة رمزية . ومن البديهي أن كل هذا القسم الشرقي من الخانية سيؤول من بعد موت هذا الأمير الى الامبراطورية الروسية .

وماذا يستطيع مظفر الدين نفسه أن يفعله لانقاذ هذا الأمير وقد بات هو نفسه وحيدا والنواب تثقل كاهله . ولقد انطلق ينشد العون في كل ناحية دون جدوى ، فلم يكن هناك من يغامر بالانضمام اليه في قتال مع عدوه هذا الفاتح القوى بعد أن أصابته الهزائم . ومنعه كبرياؤه ، أكثر مما منعه عداؤه الطويل المقيم ، من أن يستنجد بأقرب جيرانه اليه في خيوه . وكان هذا الاقليم الصغير يتفشى فيه الانقسام فلم يكن بذلك له من القدرات ما يمكنه من أن يمد يده لمساعدة غيره . وكانت بلاد الأفغان في الجنوب عندها بدورها ما يشغلها ، اذ كانت الحروب الأهلية تسودها . وكان من الممكن أن يلبي أمراؤها ، خلفاء دوست محمد ، دعوة مظفر الدين عن طيب خاطر لولا أنهم لم ينسوا أبدا ما لحق بأبيهم من مهانة في الماضي ، حتى سرهم أن يروا اذلال ذلك الأمير الأوزبكي المتغطرس على أيدي الكفار . هذا فضلا عن أن أمراء آسيا لم يكونوا يعترفون أبدا بقيام تحالف سياسى جدى فيما بينهم ، اذ كان كل همهم يتجه عادة الى الفتوحات الشخصية . وعلى هذا فقد سر الأفغان أن يروا بخارى وقد حاق بها الضعف مما قد ييسر لهم أن ينتزعوا منها الخانيات الصغيرة التى تقع على شاطئ جيحون الأيسر ، وبهذا لا تستطيع روسيا أن تطالب بها مستقبلا بوصفها أجزاء من توابع خانية بخارى .

كان الوحيد الذى رجب بالتحالف مع بخارى هو يعقوب قوشيجى أمير تركستان الشرقية ، وذلك بدافع من مصلحته الشخصية . وكان أشد ما يخشاه الأمير التركستانى هو خطر القوات الروسية التى كانت ترابط عند نارين على مسيرة أيام قليلة من قصبته ، وكان كذلك قد عرف فى تجارب شبابه التى مر بها مدى ما عليه أسلحة الروس من تفوق (١) . وعلى هذا فقد احتاط أشد الاحتياط فى الإفصاح عن ميوله نحو أمير بخارى .

هذا كما كان يستحيل فى الواقع قيامه معه بعمل مشترك وذلك بسبب الاسفين الذى أقامه الروس بينه وبين ذلك الأمير الذى يقيم على ضفاف زرفشان باحتلالهم لخوقند . وكان مظفر الدين بدوره قد انهارت آماله كلها بالنسبة للمستقبل . ومن المحقق كذلك أن بريطانيا لم تفكر أبدا فى أن تمد يد المساعدة الى هذا البلد ، وهو فى آخر مراحل صراعه ، وهو الذى أنزل بها أبلغ المهاتات الدبلوماسية حيث مات اثنان من سفرائها ميتة الشهداء ، وذلك برغم الشائعات (٢) التى كان يطلقها الروس فى هذا الصدد .

(١) استخدم يعقوب قوشيجى ، أمير تركستان الشرقية الحالى ، ما تعلمه فى فن الحرب ، فى الوقائع التى خاضها مع روسيا عند حوض سيحون الأدنى ، وذاعت شهرته ، التى اعترف الروس له بها ، بسبب ما أظهره من بطولة وجراة فى قيادته لحصن آق مسجد . وإذا كان لنا أن نصدق ما يشنع به على تركستان ، فانه قد فتر فى الدفاع عن خوقند بفعل أموال الروس التى بذلوها له ، كما يتهم كذلك بأنه قد سلم للعدو موضعا أو موضعين غدرا .

(٢) أتيح للصحافة الروسية فرصة نشر تقارير تقول بقدوم بعض الدبلوماسيين البريطانيين (١) الى بخارى أثناء الحرب البخارية الروسية ، وأنهم كانوا يشجعون الأمير على العدوان حتى أمدوا الأوزبك ببنادق لى انفيلد ، وغير ذلك . وقد ذهب مراسل لصحيفة *Invalide Russe* (نشرت الترجمة الانجليزية لهذا المقال بجريدة التيمس بتاريخ ١٩ أكتوبر ١٨٦٩) فى تركستان الى حد أن نسب الى الأمير اعلانه بأن بريطانيا هى التى أشعلت نيران الحرب بينه وبين روسيا . وكل من يعرف ما عليه الانجليز من برود يدرك أن ذلك كله محض اختلاق سخيف .

ولم تكن تركيا بدورها تعتمد الى اصطناع الدسائس فى أقصى الشرق فتثير بذلك ثائرة الزوابع التى ينذر أفقها السياسى بهبوبها عليها على الدوام .

والواقع أن رجال الباب العالى لم يكونوا يدرون من أمرالأوزبك أو التاجيك ومن اليهم أو عن أمر خيوه وبخارى وخوقند وسيحون وجيحون أكثر مما يعرفون عن جزيرة هايتى . ولا تجد عند الجيل الجديد من العثمانيين حتى مجرد فكرة عن صلات الصداقة الدبلوماسية التى كانت تقوم فى الزمن السالف بين بلادهم وبين الشيبانيين والاشترخانيين . ومع هذا فأنى يكون للعثمانيين أن يمدوا يد العون الى بنى جلدتهم واخوانهم فى الدين بالشرق القصى وهم أنفسهم يحاربون من أجل حياتهم .

ولم يكن ينتظر من الفرس الشيعة بدورهم أن يتحالفوا مع مظفر الدين ، وهامم الألوف من مواطنيهم لا يزالون يرسفون فى ذل الرق عند الأوزبك . فضلا عن أن مجرد ذكر اسم التركمان كان مما تشمئز له نفوسهم منذ زمن متناه فى القدم .

ولئن كان القاجاريون تربطهم بأمراء بخارى بعض وشائج القربى من بعيد ، الا أنهم كانوا يكون لهم أشد الكراهية وأعنفها . وكانوا محقين فى ذلك . وعلى هذا فقد فرحوا أشد الفرح لاتصار الروس عند سيحون وجيحون وكان آخر ما يفكرون فيه أن يعترضوا سبيل من أسدى جميل اليهم .

ولم يحز فى نفس مظفر الدين أن صار فى عزلة تامة وحيدا مهجورا بقدر ما آلمه ما كان من سلوك رعاياه نحوه هم وقواد جيشه وأكثر ذوى قرباه . فقبل ذياك الوقت بيضع سنوات ، وذلك عندما كنت ببخارى لم يكن الناس يهابونه فحسب ، بل كانوا كذلك يجلوونه ويحبونه . وهاهو اليوم ، سواء فى الأسواق أو فى ريغستان ، يسمع الناس يسبونه فى العلن ويصمونه بالجبن أمام العدو ، وأن هربه من ميدان القتال عند يرجار هو الذى عجل بوقوع الكارثة التى حلت بهم . كما اتهموه بتبديد

أموال الدولة ، وكان بدافع الحاجة الملحة قد اضطر الى تخفيض قيمة العملة ، ثم مد يده من بعد ذلك الى الأوقاف فاستولى عليها . وكان أخطر التهم التى وجهت اليه أنه ، وهو « أمير المؤمنين » فى السابق ، قد اتصل سرا بالكفار وباع لهم « بخارى الشريفة » على ثمن معلوم . وصار على هذا لا يجسر على الخروج الا ليلا أو مستخفيا اتقاء ما كان يوجهه العامة اليه من الشتائم وما كان يصبه النساء فوق رأسه من اللعنات بتحريض من رجال الدين .

ومن العسير على من لا يعرف بخارى حق العلم ، وما عليه أهلها من الفرور والجهل والتعصب ، أن يدرك مدى الذهول والغضب الذى استولى على سكان تلك المدينة بسبب الضربة التى نزلت بهم على أيدي الروس ، وهم الذين يعتزون بأنفسهم أشد الاعتزاز . فلقد تكشف لهم أن أميرهم ليس هو بتيصور الثانى (١) ولا حتى بشييه له ، وأن جندهم النظامى ومحاربيهم المشهورين من أهل قارشى لم يكونوا كرستم وأضرابه ، وأن تشفعهم بالأولياء الذين تحيط بهم أضرحتهم لم يغنهم شيئا فى لقاء الكفار .

وكانت هذه التجارب المخيفة التى مروا بها أكثر من أن تحتملها أنفسهم حتى كادت أن تذهب بلب الأمة كلها .

هنالك برز البكوات والشيوخ والصوفية والدرائش والتجار والعمال والشحاذون فحملوا السلاح جميعا ، وقد أجمعوا على هدف واحد هو الاصرار على الالتحام مع روسيا من جديد ، فلا يرجعون عن حربها حتى النصر أو الموت . ونودى فى الناس بالجهاد على صورة لم يعرفها من قبل أى قطر من الأقطار ، ولا شهدها الاسلام فى أى ظرف من الظروف ،

(١) هناك مثال صغير اذكره بدل على هذا الفرور المفرط ، فقد سألنى الأمير نفسه ذات مرة عما اذا كان جيش سلطان القسطنطينية يبلغ حقيقة فى استعداداته وعظمته وشجاعة رجاله درجة ذلك الجيش الذى رأيته عند عودتى من خوقند الى سمرقند . ولا ادري ما يكون جواب أبطال بلاكوفيا على ذلك .

فلبى النداء الكبار والصغار ورجال الدين والجند على السواء مما زاد فى القوضى بطبيعة الحال ، ولم يكن للأمير بداهة الا أن ينزل على رأى القوم . وبذلك تجددت الحرب مع روسيا . ولا حاجة بنا الى القول بأن سلوك البخاريين الجنونى هذا وخرق أميرهم ، كان أمنية روسيا بعينها لتضى فى تحقيق أهدافها .

ركن الروس الى التوقف فى زحفهم بعد سقوط خجندة حتى تصل اليهم الامدادات والمؤن اللازمة . وفى أثناء ذلك تغيرت قيادتهم فجاء من بعد رومانوفسكى الكونت داشكوف Dashkoff فواصل الانتصارات التى كان سلفه قد بدأها صوب الجنوب ، واستولى على حصن أراتيه الهام أوائل اكتوبر عام ١٨٦٦ ، وما غدا أن وقعت بأيدي الروس مباشرة جيزك ، حصن الحدود بين بخارى وخوقند . وفى هذين الحصنين وجد الفاتح مخازن كبيرة للسلاح والذخيرة .

وكان المأمول أن تخمد نار الحروب وشيكا فى وديان آق طاو بعد ما لحق الأمير من خسائر جسيمة وضاق الخناق عليه ، ولكن حال دون ذلك ما كان عليه وضع كل فريق على حدة .

فمظفر الدين ، على ما رأينا ، كان مضطرا الى تجديد القتال بضغط رعاياه عليه ، وكان جوراباى أمير شهر سبز قد وعده بالمساعدة فى هذه الحرب المقدسة على أن يعترف له باستقلاله ، وما غدا كذلك أن قدمت جموع كبيرة من التركمان والأفغان فانطوت تحت لواء بخارى .

ومع هذا كله فلا نعجب حين نرى مظفر الدين ، فى مقامه خلف أسوار الحصن ، يرقب الخطر الوافد اليه من الشمال وثقته فى نفسه هى دون ما كان عليه أمير خوارزم منذ زمان مضى وهو يترقب الغزو المغولى .

وتقدم الروس بدورهم من مركزهم فى جيزك . وما من شك فى أنه برغم ما كان يلقاه القادة الروس المتحمسون من المضايقات الرسمية وغيرها من الاعتراضات ، فان سياسة بلاط بطرسبرج كانت ترمى ، فى

المحل الأول ، الى ألا يقعد الروس عن الحرب أبدا حتى تستسلم لهم
الخانيات الثلاث التى تكون الحدود الطبيعية لجيكون . وفى المحل
الثانى فان البخاريين بغاراتهم على تلك الأراضى التى احتلتها روسيا
حديثا ، وبما كانوا يقومون به من أعمال الاستفزاز انما يتعجلون اتمام
الأمر الأول .

ولم يقع خلال عام ١٨٦٧ الا بعض مناوشات قليلة استطاع الروس
بقيادة الضابط الكفاء القدير الجنرال كاوفمان Kauffmann أن يستولوا
فيها على حصن ينكى كورجان الصغير ، وأن يدفعوا مراكزهم الأمامية
من بعد ذلك حتى طاش كوبريك ، وهو جسر حجري يقع فى منتصف
المسافة بين ذلك الحصن وسمرقند .

وفى ١٣ مايو (١) من العام التالى صدرت الأوامر الصريحة بالزحف
الى سمرقند . وشرع الجيش فى التحرك بالفعل . وفيما كان الكولونيل
بتروشفسكى Petruschewsky يقود المقدمة على الشاطئ الأيمن لرافد
زرفشان التقى فى طريقه بنجم الدين المبعوث البخارى الذى أشرنا اليه من
قبل ، وكان هذا يحمل معه اقتراحات للأمير لعقد الصلح مع طلب ايقاف
الزحف أثناء المفاوضات .

ولقد يتهم القائد العام الروسى بأنه رفض اقرارا الأمور سلما وآثر
استخدام القوة برغم أن البخاريين كانوا قد سحبوا جيشهم المؤلف من
أربعين ألف جندى الى منحدرات الشاطئ المقابل . والواقع أن الروس
كانوا قد اكتشفوا من فورهم أن المسألة كلها لم تجر على هذا الوجه الا
لمجرد التعمية . وعلى هذا فقد كان الجنرال كاوفمان على حق حين أجاب
على عروض الأمير بطلقات المدافع بدلا من تفثات القلم .

وكانت قوات الروس تتكون من احدى وعشرين فصيلة من المشاة
وستة عشر مدفعا مع سرية من المهندسين واربعمائة وخمسين جنديا من

(١) يذكر الكابتن ف. ترنش فى كتابه عن المسألة الروسية الهندية :

F. Trench. The Russo - Indian Question. London 1869, p 81.

ان هذا الزحف وقع فى ٣٠ ابريل ، ولعل هذا التاريخ هو بحساب التقويم
الروسى ، وفيما عدا ذلك فهو يختلف عما ورد بالمصادر الاخرى بما لا
سبيل الى تعليقه .

القوزاق ، فكانوا في مجبوعهم ثمانية آلاف رجل استعدوا لخوض غمار الحرب ، وقد بدأوا بعبور زرفشان تحت سجع العدو وبصره . وقضى رجال الجناح الأيسر ، يقودهم الماجور جولوفاتشف ، ربع الساعة يخوضون في الماء الى صدورهم ، غير مكترئين بنيران مدفعية العدو ، حتى استطاعوا آخر الأمر أن يبلغوا موضعا صالحا في الأراضي التي تكتنفها المستنقعات فصعدوا عنده الى الشاطئ المقابل .

وحاول الجيش الأوزبكي ، وكان يتفوق عليهم في العدد بخسة أضعاف أو ستة ، أن يعوق عبورهم النهر في مواضع متعددة ، ولكن جهوده كلها باءت بالفشل .

وما ان تم عبور الروس حتى تخلى الأوزبك عن مواقعهم الممتازة بالمرتفعات وولوا هارين تاركين من ورائهم كل مدافعهم .

وقد وقع هذا كله غير بعيد من سمرقند . وخاف أهل المدينة مغبة القوضى التي قد تحل ببلدهم على أيدي مواطنيهم أكثر مما خافوا من الاحتلال النصراني ، وعلى هذا فقد أغلقوا أبواب مدينتهم في وجه اللاجئين من جيشهم ، وبعثوا بوفد من كبار الشيوخ والأعيان يدعو العدو الى دخول المدينة . وسار في اليوم التالي قسم من الجيش الروسي الى سمرقند ، ودخلها الجنرال كاوفمان على رأس حاشية كبيرة كان فيها الأمير الأفغاني سكندر خان ابن صاحب هراة . ويقال ان هذا الأمير كان قد قدم أولا لشد أزر « بخارى الشريفة » في دفاعها عن الاسلام ، حتى اذا لم يتمكن القوم من أن يدفعوا له ما اتفقوا عليه من المال نظير خدماته مضى الى خدمة الصليب المزدوج بعد أن قرأ الفاتحة على روحه .

وعلى هذه الصورة استولى الروس النصراني في ١٤ من مايو عام ١٨٦٨ على سمرقند التي كانت يوما حاضرة تيمور الفخمة والتي ولد فيها وثوى كثير من مشاهير الرجال الذين جرى ذكرهم في التاريخ الاسلامي ، والتي كانت تعد مركزا ممتازا من مراكز الثقافة الاسلامية القديمة . وبسقوطها انتقل احسن أجزاء بلاد ما وراء النهر من أيدي أسرة المنغيتيين الأوزبكية الى بيت رومانوف .

وأول من فتح هذا الاقليم ، على ما نعلم ، هو الاسكندر « المقدوني » وآخرهم هو الاسكندر « الثاني الروسى » .
 فقبل ألفى عام كانت سمرقند تدفع الجزية لدولة صغيرة فى جنوب أوروبا ، وها هى اليوم تحكم من عاصمة شمالية فى القارة نفسها (١) .
 وحين نستعرض ما شهدته سمرقند ابان صراع الأسر المختلفة التى حكمتها ، من يونان وعرب وترك ومغول وأوزبك ، فاننا لا نجد بالكاد أرضا أخرى فى آسيا عرفت تاريخا فيه الأيام السعيدة وفيه الأوقات العاصفة كذلك الذى عرفته هذه البلاد . ولقد صار كثير من بلاد الشرق البعيدة معروفا لنا خلال اقرن الماضى ، حتى لم تعد أقصى أركان ختاي ، بلاد خطا ، وزيانغو يخفى أمرها على الباحثين والمستكشفين الغربيين . ومع هذا كله فقد بقيت سمرقند بلاد الأقاليم حتى يومنا هذا فى الغالب .

وعلى هذا فقد كان سقوطها موضع الدهشة والعجب فى أوروبا . وقد قضى فتح هذا الاقليم على كل مسارح الخيال التى كان الناس يحلقون فيها حين كانوا يفكرون فى تقاليد آسيا فى العصور الوسطى .
 وعلى اثر سقوط سمرقند انطلق الأمير هاربا الى كرمينية لا يلوى على شيء . أما ابنه وولى عهده ، عبد الملك ميرزا ، وكان شابا فى التاسعة عشرة من عمره ، فكان قد فر أثناء المعركة الى بخارى .
 وبلغ الذعر بالناس الى درجة أن هجرت جموع بأكملها من السكان المسلمين دورها وموطنها فى ميان كل وهربت بطريق قارشى فعبرت جيحون الى ميسنة وأندخوى . أما الروس فكان أول ما شرعوا فيه هناك هو تأمين مراكزهم . فعمدوا الى تحصين الربوة الصغيرة التى تقوم القلعة عليها ، وواصلوا فى الوقت نفسه زحفهم فى طريق بخارى ليطاردوا الأمير من جهة وليؤمنوا المواضع التى تحيط بهم من جهة أخرى .

(١) طالما اتبح لبعض حكام بلاد ما وراء النهر وامراء القبيلة الذهبية التوغل فى روسيا بدورهم حتى دخلوا موسكو نفسها مرات متكررة ، على ما يشير اليه مؤلف هذا الكتاب نفسه . والثابت كذلك أن دوق موسكو ظل سنين طويلة لا يعين الا على مشيئتهم على جزية سنوية يدفعها لها (المترجم) .

وزحف الماجور جنرال جولوتشيف أولا الى حصن كته كورجان ،
على زرفشان ومعه أربع عشرة فصيلة من المشاة وثمانية مدافع وثلاث
سرايا من القوزاق .

وكنت قد مررت بهذا الحصن من قبل ، فقبل لى اذ ذاك انه
يستعصى على أى فاتح . والواقع أن استحكاماته الخارجية كانت على
شئ من القوة ، ومع هذا فان حاميته برغم كثرة عددها ما لبثت أن
فتحت أبوابه مستسلمة دون ابداء أدنى مقاومة .

والغالب أن الأمير كان قد مضى بجهد يجمع شتات ما بقى عنده من
القوات ، واتخذ لذلك من مير (١) مقرا لقيادته ، ومنها أخذ يبعث ببعض
قواته من الخيالة الخفيفة لمناوشة الروس عند كته كورجان ، حتى ضاق
الجنرال كاوفمان آخر الأمر ذرعا بهذه المضايقات المستمرة وان لم تكن
ذات بال ، فعزم على المضى الى بخارى والقضاء على بقايا الجيش الأوزبكي
هناك . وكان البخاريون لا يزالون على غرورهم حتى استعد الأمير
للمقاومة من جديد . ولا ندرى أفعل ذلك من تلقاء نفسه أم بتحريض
جموع المتحمسين ، ثم خرج من بعد ذلك لحرب الروس .

وعند سرپول وقعت الموقعة الحاسمة بين أسرة المنغيتيين وبيت
رومانوف على تاج بلاد ما وراء النهر ، فى نفس المكان ونفس الفصل
من السنة ، بل ولعله كذلك فى نفس اليوم من الاسبوع ، الذى تحارب
فيه شيبانى خان وبار فى الموقعة الحاسمة من أجل أسرتهما ، وكان ذلك
لثلاثمائة وتسعة وسبعين عاما خلت .

وجاءت النتيجة فى غير صالح الأوزبك الى أبعد حد ، فقد انطلق
الروس بشجاعتهم المعروفة يقتحمون من كل جانب مرتفعات الطريق
الذى كان يحتله الأوزبك ، حتى بلغ الاضطراب والفوضى بالعدو الى
حد أن صار الطريق حتى كرمينية تغطيه الأسلحة التى كان الفارون يلقون
بها وهم يولون الأدبار . وفى هذه الكارثة الشاملة انتهى مظفر الدين الى
أقصى مصير .

(١) هى قرية صغيرة فى الطريق من بخارى الى سمرقند وتوسط
ما بين كرمينية وكته كورجان ، انظر كتابى Travels in Central Asia p. 200

ذلك انه لم يجرؤ على العودة الى بخارى ، اذ كان ابنه ، وكان على الدوام ثائرا عنيدا ، قد تزعم المتحسين الناقمين وعمل على أن يسلب آباء بقايا عرشه المنكود . ولكنه لم يجسر بدوره على التقدم بقواته . ذلك أن الروس كانوا ، على ما يبدو ، قد حزموا أمرهم هذه المرة على أن يبضوا قدما براية النسر الأسود حتى يبلغوا « بخارى الشريفة » . وبذلك محاولات غادرة لمهاجمة سمرقند في غياب الجنرال كاوفمان ولكنها باءت بالفشل بفضل شجاعة الروس (١) .

وبهذا لم يكن للامير بد من عقد الصلح مع عدوه المنتصر، فيحتفظ بذلك بظل الملك ما بقي له من سنين ، على أن يدفع غرامة حربية قدرها مائة وخمسة وعشرون ألف تيل (نصف المليون تالر) ، ولم ينص الروس صراحة على أنها جزية محافظة منهم على شعوره .

وفي معاهدة الصلح هذه تعهد الأمير بما يأتي :

أولا : أن يسمح للرعايا الروس بممارسة التجارة في حرية تامة بكل أجزاء الخانية بصرف النظر عن عقائدهم ، وأن يؤمنهم على ممتلكاتهم وحياتهم .

(١) حين ترك الجنرال كاوفمان وقوة جيشه الرئيسية سمرقند من ورائهم ، هاجم خمسة وعشرون الفا من الاوزبك والسمرقنديين قلعة المدينة غدرا قادمين من شهر سبز حتى دق مركزها . وكانت الحامية فيها يقودها الماجور البارون فون شتمبل V. Stempel ، وكان قوامها ٦٨٥ رجلا بما فيهم المرضى وغير المحاربين . وقد أبدى هؤلاء من البطولة ما يستحق كل ثناء وتقدير ، وكان فيهم من نهض من فراشه وشارك في الدفاع . وقد استمرت هذه المعركة ستة أيام كاملة من ١٢ يونية الى ١٨ منه ، وكلفت الروس ٤٩ قتيلًا و ١٤٢ جريحا . وركز العدو نيرانه على أحد الأبواب وافلح في احداث ثغرة فيه ولكن ذلك لم يفده شيئا . وظلت طواوير المهاجمين تتدفق على الأسوار وهم يصيحون كصياح الجن . وظل الروس يطيطون من موضع الى آخر وهم يردون عنهم ، في ثبات ، ذلك العدو المتعطش للدماء وينزلون به الخسائر حتى بلغ الخبر آخر الأمر الجنرال كاوفمان بعد مضي وقت طويل ، فأسرع بالعودة في زحف شاق وخلص بذلك رجاله من موقفهم المهلك . وهذه الفترة من الحرب الروسية البخارية فيها أوضح مثال على وهن شعوب آسيا الوسطى مع ما هم عليه من مكر .

ثانيا : أن يسمح للتجار الروس بأن يقيسوا وكلاء تجارين لهم في حرية تامة بكل أجزاء الخانية .

ثالثا : أن يحدد الضريبة على الواردات الروسية باثنين ونصف بالمائة من قيمتها الاسية .

رابعا : أن يسمح للتجار الروس بحرية المرور في أراضي الخانية حين يقصدون الى ما يجاورها من البلاد .

عقد مظفر الدين هذا الصلح مع روسيا ليجد أنه انما قد جلب بذلك على نفسه عداوة شعبه وكرهيته المريعة له . ذلك أن كل ما نزل بهم من الهزائم وما حاق بهم من الكوارث وما ضاع منهم من الحصون وما هلك منهم من الأنفس ، هذه كلها لم يكن لها أدنى أثر في أن تجعل شيوخ بخارى المتعصين ، الذين طار لبهم شعاعا لذلك ، بدركون واقع الأشياء ادراكا صحيحا . فأولئك الذين كانوا لسنين قليلة خلت يعتقدون اعتقادا جازما بأن بخارى ، بقوة جيشها وصحة اسلامها الأكيد ، هي ند لسلطان القسطنطينية نفسه ، وناهيك بالنصارى ، عليهم أن يدركوا الآن أن حفنة من كفار النصارى قد غلبوا جيشا للمسلمين يفوقهم في عدده بعشرة أمثال أو خمسة عشر مثلا ، وأن مخترعات أوربا الشيطانية ، في فن الحرب ، كانت أشد فعالية من دعوات الصالحين وأنفاسهم المباركة . ولم يكن أحد من هؤلاء المسلمين المتحمسين يدرك هذه الحقيقة .

وكان من سوء الطالع أن اتهموا زعيمهم بالخيانة . ولم تجرؤ جموع الثائرين هؤلاء على مهاجمة الروس فسقطت على أميرها وألبت الجماهير عليه وسعت لاجلاس ولي العهد على العرش .

وفضلا عما كان لولى العهد هذا من حزب قوى في بخارى فقد كان يؤيده كذلك جورى باى وبابر باى في شهر سبز ، وتميل الى صفه المناطق الشمالية في غجديوان ونوداته وخطارجه .

وهو حين انفصل عن أبيه وارتد الى قارشى نادى بنفسه سلطانا

من فوره ، وعلى هذا دخل في تحالف مع خان خيوه . وازداد تأييد الناس له حتى وجد نفسه بعد وقت قصير جدا على رأس جيش قوامه ما يقرب من عشرة آلاف رجل . ولم يكن مظفر الدين ليقف موقف المتفرج ازاء ذلك . فجمع بدورده ما تبقى له من قوات ضئيلة وزحف بها الى قارشى ليكبح جراح ابنه . حتى اذا ما بلغ منتصف طريقه الى هناك علم كذلك بقيام الثورة عليه في القسم الشمالى من الخانية ، وذلك بتدبير في السر من ولى العهد ، على ما يحتمل ، وأن صادق باى زعيم الثوار في تلك النواحي يزحف في طريقه الى كرمينيه .

وأدى ظهور ذلك العدو فجأة في الشمال ، مع ما لاح من ازدياد الخطر في تلك النواحي ، الى أن أصدر الأمير أوامره بالرجوع وجد في السير الى عاصمته . وتشجع ولى العهد بارتداد أبيه هذا فعزم على مطاردته . وكان من الممكن أن ينجح في خطته هذه لو لم يتدخل الروس بطلب من الأمير .

ولم تكن هذه الاضطرابات لترضيهم ، في الغالب ، والأحوال لم تستقر بعد في الولاية التي دانت لهم حديثا . فرصدوا لذلك قوة صغيرة (١) بقيادة الكولونيل ابراموف Abramoff استطاعت أن توقف تقدم ولى العهد عند جام .

هذا كما تسكن مظفر الدين في الوقت نفسه من أن يتخلص من صادق باى في النواحي الشمالية الشرقية اذ أنزل به هزيمة تامة ، ثم ذهب من بعد ذلك ينشد تعاون الروس معه حتى يستطيع بذلك أن يقر الأمور في الجنوب حيث شهر سيز التي ثارت في وجهه ، وابنه الذي خرج عليه .

وأجابه هؤلاء الى ما طلب ، فسار الكولونيل أبراموف من جام مع فرقة استطلاعية لهذا الغرض . وسبق هذا القائد الأمير في زحفه

(١) كانت هذه القوة تتكون من سبع فصائل من المشاة وسريتين من القوزاق وستة مدافع خفيفة ومثلها ثقيلة .

بأميال قليلة ، فالتقى بقوات ولى العهد فى أكتوبر (وفى نوفمبر فى رواية أخرى) فهزمها وشتت شملها . واستولى الروس على قارشى ، ثانى مدن الخانية ، ثم أدخلوها من بعد ذلك بيومين وسلموها الى الأمير هى وقلعتها وكل ما كان بسخازنها من أسلحة ، والدهشة تعقد لسان أهلها من هذا الصنيع . وارتأى مظفر الدين أن يفيد كذلك من الروس فى حرب مع شهر سبز . وكان يرمى من وراء ذلك الى القضاء على جورا باى دون ابنه الذى كان يعده مجرد مخلب قط لخصمه هذا .

على أن الجنرال كاوفمان لم يكن يفكر على كل حال بأن عليه أن يصنع للأمير أكثر مما صنع ليدل بذلك على صداقته لحليفه الجديد هذا . فما أن أدخل قارشى حتى بعث بجنده الى معسكرهم الشتوى فى جام .

ولم يكن ولى العهد ليهدأ له بال وهو يطمع فى العرش ، حتى أقلقت مغامراته مضاجع أبيه كما أقلقت الروس والبريطانيين كذلك . فكننت تراه مع عصابته من تركمان الأرسارى أو التكه ، وكانوا يناصرونه جميعا ، يقدم فجأة من السهوب فيظهر من جديد بهذا الجزء أو ذاك من الخانية ، أو يتحالف مع خيوه ، لتأتى الأخبار بعد ذلك بوجوده فى كابل يحاول عبثا أن يحمل أميرها شيرعلى خان على محاربة الأمير .

وقد لقي ولى العهد كل الترحيب والعطف فى كابل ، حتى زوجه شير على خان من ابنته ، ومع هذا فإن أحدا لم يجرؤ على شد أزره أو مساندته فى تحقيق أغراضه ، حتى لقي حتفه ، غيلة فى الغالب ، وهو فى تجواله بخيوه (١) .

وبتخلص الأمير من هذا الكابوس المخيف عاد السلام يخيم على ربوع ذلك القسم من بخارى الذى سمح له الروس بأن يدعيه لنفسه كرما منهم ، وقد تعلم ، بدافع الضرورة ، كيف يلائم بين نفسه وبين ما

(١) لا يزال هذا الأمير ، على ما سمعت حديثا ، على قيد الحياة فى ضيافة يعقوب قوشيجى فى كاشغر .

صار اليه من مصير شاق . وصارت أقساط الغرامة الحرية تؤدي الى سرقة في مواظبة نسبية ، وان كان كاهل القوم قد أثقل بها .

وانتظمت الصلة بين حصن بخارى وقلعة مدينة تيمور ، وما غدا الأمير ، انهارا لولائه ، أن أوفد الى بطرسبرج وفدا من قبله وعليه عبد الفتاح ميرزا أصغر أبنائه وأحبهم الى نفسه ، وكان اذ ذاك فتى في الثانية عشرة من عمره . وكان مظفر الدين قد نادى بابنه الرابع هذا خلفا له وسعى جهده في أن ينال في ذلك التأييد على ضفاف نيفا .

وكان هذا بالطبع أمرا مشكوكا فيه . فلئن كان القيصر يقولون قد أفصح في السابق لشاه ايران افصاحا عمليا عن حب روسيا لبلاده حين دله في طفولته وأجلسه على ركبته في تفليس ، فان الاسكندر الثاني لم يكن يريد أن يتعرض لمثل ما لقيه سلفه من المتاعب في هذا الصدد ، كما لم يكن بطبيعته مستعدا لأن يقوم بالوصاية على عبد الفتاح هذا . وقوبلت البعثة القادمة من شواطئ زرفشان البعيدة بكل حفاوة واحترام بالبلاط الروسى ، في ٣ نوفمبر من عام ١٨٦٩ . ولم يأل القيصر جهدا في الاعراب عما يمكنه من الصداقة « لأخيه الطيب » بتركستان ، وكان الأجدر به بحق أن يقول عنه انه تابعه . وتلقى بصحبة الامبراطورة هدايا الأمير وبيانها كالاتى :

- ١ - خاتم له حجر ضخمة من الماس .
- ٢ - عمامة للسيدات مرصعة بالحجارة الكريمة .
- ٣ - مجموعة من أطقم الخيل من الفضة المرصعة بالياقوت ، وهي خاصة بالخيول الكريمة الأربعة التى بعث بها من تركستان .
- ٤ - أربعة معاطف من جلود الخيل سوداء ومخططة بالكشمير .
- ٥ - ثلاثة معاطف من صوف الأغنام رمادية اللون ومخططة بالنسيج البخارى الذى يعرف باسم « شالى » .
- ٦ - كسوتان من الكشمير .
- ٧ - قطعة من الكشمير النادر الجميل .
- ٨ - ثمانى عشرة قطعة من الحرير المنسوج هناك .

٩ - ثمانى عشرة قطعة من النسيج المعروف باسم « اترس » ، وهو مزيج من الحرير والصوف (١) .

وكانت هذه الهدايا تسعة فى عددها على رسم الأمم التركية التتارية . وقد رد القيصر على هذه الهدايا بهدايا أخرى مناسبة . وأدى تبادل الهدايا هذا الى قيام قدر من التفاهم الطيب بين الطرفين بطبيعة الحال ، ان لم يكن قد قام دليلا على حسن نواياهم .

والواقع أن مظفر الدين كان قد كف عن اظهار العداء لروسيا منذ أن استولى الجنرال كاوفمان على سمرقند . على أنه ليس من المستبعد أبدا أن يكون هذا الأمير قد حاول سرا التحالف مع أمير تركستان الشرقية القوى ، وأن ثمة جهودا أخرى كان يبذلها من وقت لآخر للغرض نفسه فى القسطنطينية وكلكتا . ذلك أن أمير بخارى لم يكن ، على قدر ما نعلم ، قد يأس بعد من امكان استرداده لملكه السابق . ولكن محاولاته كلها لم تشر شيئا . ولم يبد من روسيا بدورها كذلك ما يفصح عن نيتها فى الجلاء عن أى جزء من آسيا . وعلى هذا فقد شاء القدر أن يكون مظفر الدين هو آخر بنى جلدته وآخر أولئك الأمراء الذين حكموا كأمرأ مستقلين ببلاد ما وراء النهر منذ أيام السامانيين حتى وقتنا هذا .

عند هذا الحد ينتهى تاريخى لبخارى ، وقد أخذ هذا القطر الآسيوى القديم القصى يمضى فى طريق العالم الحديث ويأخذ بالأفكار الحديثة منذ اللحظة التى أخذ العلم الروسى فيها يرفرف فوق قلعة سمرقند . فالمدن والأقاليم التى كان سكان أوربا لا يعرفون عنها شيئا قد فتحت أبوابها ، والأماكن التى كان الرحالة الأوربيون لا يستطيعون أن يلجوها ، الا مغامرين بحياتهم متعرضين للهلاك ، لم تصبح اليوم حرة آمنة فحسب ، بل ويقوم على شئون حكومتها مسيحيون كذلك ،

(١) هذا البيان نقلا عن مقال لهلوالد فى مجلة "Ausland" الألمانية بتاريخ ١١ مارس ١٨٧٢ ، وعنوانه «اكتشافات جديدة فى آسيا الوسطى»

فتفتحت الكنائس والنوادي في طشقند وخجند وسمرقند ، بل وظهر كذلك في طشقند صحيفة هي Turestanskia Wjedomosti أى أخبار تركستان ، وصارت أجراس الكنائس اليونانية تختلط أجراسها بأذان المؤمنين . وكانت هذه الدقات أشد وقعا في آذان المسلمين من طلقات المدافع .

وصار القساوسة والجند والتجار يمشون بخطى الفاتحين مزهوين في طرق بخارى حيث لم يجرؤ مؤلف هذا الكتاب لسنين خلت هناك الا على انشاد الترانيم الاسلامية . وأقيم دار للشفاء ومخزن في قصر تيمور الذى كان يوما ما مضرب المثل فى الفخامة ، حيث كانت تقدم وفود آسيا ليفصحوا عن ولائهم لصاحبه ويقدموا له هداياهم ، وحيث بعث ملك قشتالة المتكبر نفسه برسله ليسعوا فى خضوع الى كسب ود تيمور ، وحيث كان يقدم أحفاد التورانين فيلمسون بجباههم فى خضوع « الحجر الأزرق » قاعدة عرش تيمور .

أما مدى ما سوف يسهم به هذا الانقلاب فى فلاح سكان آسيا الوسطى فهو موضوع أبعد ما يكون فى صلته بأهداف هذا الكتاب ، فأحيل القارئ ، فى ذلك ، على آرائى التى أبديتها فى هذا الشأن بمنشورات أخرى (١) .

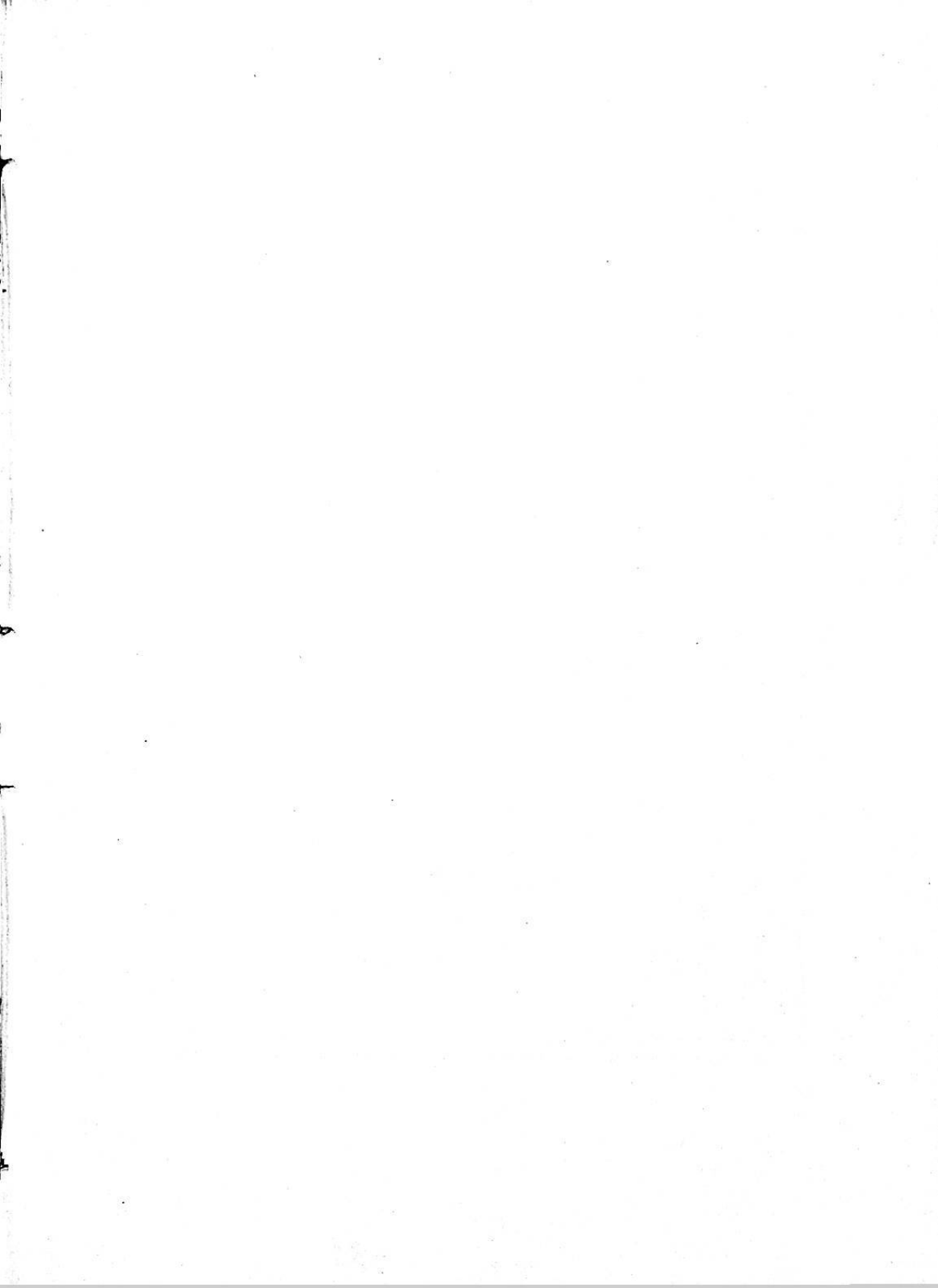
على انه لا بد لى من أن أشير هنا الى حادث بالغ الأهمية ، وهو أن ما أحرزته روسيا من النجاح فى آسيا الوسطى قد أنزل بالاسلام أشد ضربة تعرض لها على أيدي المسيحية خلال الألف عام التى كان يقوم فيها الصراع بينهما (٢) .

(١) انظر هامش رقم ١ ص ٤٣٦ من هذا الكتاب .
(٢) مارس الروس من بعد ذلك حرب إبادة سقط فيها ألوف عديدة من سكان هذه البلاد الذين انطلقوا يقاومونهم بدورهم فى ثورات مسلحة متلاحقة أشهرها ثورة الشيخ شامل فى القرن الماضى ثم ثورة « البصمجي » فى أواخر الربع الاول من القرن الحالى . هذا عدا ألوف كثيرة منهم هاجروا بدينهم الى مختلف الأقطار الاسلامية . وتجد تفصيلات كثيرة فى ذلك فى كتاب Baymirza Hayit, Turkestan im X X Jahrhundert, Darmstadt 1956 (المترجم) .

وفى أيامنا هذه تغلغل نفوذ أوروبا المسيحية القوي فى كل أجزاء آسيا الاسلامية الغربية وسادها ، ولم تقف مكة والمدينة نفسها بنجوة من التأثير بالتيارات الحديثة السائدة فى هذا العصر .

على أن الاسلام فى تلك الأجزاء النائية من آسيا الوسطى قد ظل يزدهر لا يعوقه فى ذلك شئ ، ما حرص أصحابه على المحافظة على أصوله الأولى سليمة نقية . وعلى هذا فقد صارت بخارى فى الواقع — لا مكة — هى مركز الاسلام الروحى ، واليهما قدم الزهاد والأتقياء ورجال الدين المخلصون من كل حذب وصبوب . وما من شك فى أن المسلمين الغيورين فى كل أجزاء الدولة العثمانية ، فى مصر وفارس ومراكش ، كانوا يتلقون عن تلك البلاد ما يذكى فيهم الحمية الدينية وان لم تدع تلك الحقيقة فى الناس (١) . وما من شك كذلك فى أن صيرورة تلك البلاد الى أيدي الكفار ، أشد من أن يحتمله المؤمنون فى العالم الاسلامى . وسيظل التراب الذى أثاره سقوط أعظم أساطين الاسلام ، على ما كانت تعرف به بخارى ، يغمى كسحابة سوداء معتمة فى آفاق آمال الاسلام المستقبلية لزمن طويل ان لم يكن الى الأبد .

(١) أذكر فى ذلك الخانقاهات البخارية ، وكان ينزل فيها فى الواقع الدراويش والحجاج من أهل آسيا اواسطى بالقسطنطينية ، وينفق عليها اتقياء آيا صوفيا . وبمناسبة ذكر الصلات الروحية مع مسلمى الغرب ، فقد لاحظت أن هناك عددا ملحوظا من الترك كانوا من بين مريدى شيوخ بخارى . وقد زودنى شخصا ترك من القسطنطينية وانقره وارضروم برسائل توصية الى هؤلاء الشيوخ .



فهرس أبجدی عام

۱

۲۲۹	أحمد جلاير	۱۷۷	آبسكون
۴۱۶	أحمد الدراني	۱۳۴	آذربيجان
۱۱۹	أحمد السعيد سليمان	۴۶۴ ، ۴۶۱ ، ۴۶۰	آق مسجد
۱۱۲	أحمد بن اسماعيل الساماني	۳۶۴	آقجه
۲۶۱	أحمد الكرمانی	۱۳۹	آقسنقر
۴۶۴ ، ۲۹۸ ، ۲۵۰	أحمد اليسوي	۲۸ ، ۲۶ ، ۲۳	آمل
۴۴	أخسيكت	۲۰۱ ، ۱۹۹ ، ۱۹۷	آباقا
۳۰۸	أراتيه	۲۸	أبرزی
۳۹۷	أرسای ترکمان	۸۰	أبو جعفر الروانقي
۲۶	أرسلان خان	۱۲۲	أبو الحارث منصور
۱۵۱	أرسلان كشا	۲۹۸ ، ۲۹۷	أبو الخير
۲۶۲	أرغون شاه	۳۱۲ ، ۳۰۱ ، ۲۹۹	أبو سعيد ميرزا
۲۲۹ ، ۲۲۶	أرمينية	۲۸۲ ، ۲۷۲	أبو سعيد ميرزا
۱۳۳	أريق بغا	۲۹۷ ، ۲۷۶ ، ۲۷۵	أبو سكون
۲۵۴ ، ۱۷۷	استراياد	۱۸۹ ، ۱۸۸	أبو العازي بهادرخان
۱۱۳	اسحاق الساماني	۳۸۱ ، ۲۹۶	أبو الفايض خان
۹۳	اسمد بن عبد الله	۹ ، ۸ ، ۴۰۷ ، ۳۸۲	أبو الفايض خان
۷۵	اسرش بن عبد الله	۴۰۰ ، ۳۹۶	أبو الفايض خان
۳۸۸ ، ۳۷۰ ، ۳۷۹	اسكندر قلي	۱۱ ، ۷ ، ۶ ، ۴۰۱	أبو القاسم بابر ميرزا
۱۳۵	اسكندر المقدوني	۲۷۳	أبو القاسم الساماني
۴۰ ، ۲۷	اسماعيل الساماني	۱۲۲ ، ۱۲۱	أبو المحسن ميرزا
۱۱۰ - ۹۳	اسماعيل الصفوي	۳۰۵	أبو مسلم الخراساني
۳۲۳ - ۳۱۷	اسماعيل الصفوي	۷۷ ، ۴۰	أبو مسلم الخراساني
۳۳۰ ، ۳۲۹ ، ۳۲۸	اسن بغا	۸۱ ، ۷۹ ، ۷۸	أبيشكا
۲۹۶	أسوانه	۱۹۰	أبيورد
۳۷	اسيكول	۱۳۱	أترار
۱۹۸	الاشترخانيون	۱۶۸ ، ۱۵۸ ، ۱۵۶ ، ۲۴	أترار
۳۶۱ ، ۳۵ ، ۲۷	الاصطخري	۳۰۱ ، ۲۳۶ ، ۲۲۲	أترار
۴۱۰ ، ۴۰۶ ، ۴۰۴	أصفهان	۱۴۹ ، ۱۴۸	أترار
۲۷ ، ۲۱	الأطروش	۱۴۴	أترار
۳۷۸	أفراسياب	۷۰	أترار
۱۱۳	أفراسياب	۴۳۷	أترار
۴۲ ، ۳۹	أفراسياب	۳۹۲	أترار

۱۴۹ ایل ارسلان	۳۵۹ اکبر شاه
۱۶۷ ایلرکو	۳۰۹ الآجه سلطان
۲۳ ، ۲۲ ، ۱۲۰ ایلکیخان	۱۶۷ آلانکو
۱۳۰ ، ۲۹ ، ۲۸ ، ۲۵	۱۶۷ ، ۱۳۶ ، ۱۳۵ آلب ارسلان
ب	۱۴۱ ، ۱۴۱ ، ۱۳۸
۸۱ الباب	۱۳۰ الب قرا
۲۵۳ ، ۲۸ (ظهیرالدین محمد)	۱۱۷ البتکین
۳۰۵ ، ۲۸۴ ، ۲۸۵ ، ۲۸۲	۱۹۹ ، ۱۹۸ الجایتو خدا بنده
۳۱۳ ، ۳۰۹ ، ۳۰۷ ، ۳۰۶	۲۷۲ - ۲۶۵ الخ بیک
۳۴۷ ، ۴۰ ، ۲۹ ، ۲۸	۱۹۱ ، ۱۹۸ الکو
۱۴ ، ۱۰ بابر نامه	۲۶۲ الله داد
۲۹۳ ، ۲۸۲ ، ۲۸	۴۳۷ الله قلی
۳ باتو	۲۱۰ ایلیاس خواجه
۲۱۹ ، ۵۴ بارتولد	۳۶۳ ، ۳۵ امام قلی
۴۸۵ بایمر حیاة	۳۷۰ ، ۳۶۹ ، ۳۶۸
۲۸ بارمش	۳۷۵ ، ۳۷۲ ، ۳۷۱
۲۵۲ باغ جناران	۳۴۴ امت خان استاجلو
۲۵۲ باغ شمال	۳۹۷ ، ۴۶ اندخوی
۲۵۲ باغ نو	۲۳۴ انقرة
۲۵۲ باغ بهشت	۳۸۵ ، ۳۷۳ انوشه خان
۳۶۶ باقی محمد خان	۱۶ اوتاگر فون شلتا
۳۷۷ باقی یوز	۲۲ اوجان
۸۸ بانوکه	۱۹۰ اورغنده
۲۳۵ ، ۲۳۴ بایزید الثاني	۲۲۳ اوردوس
۲۸۱ ، ۲۸۰ بایسنقر میرزا	۳۵۸ اورلاندو جیوفانی
۲۸۵ ، ۲۸۳ ، ۲۸۲	۴۶۱ ، ۴۵۹ اورنبرج
۱۷۹ بتروشفسکی	۳۹۱ ، ۳۷۸ اورنکزیب
۶ بتی دولا کروا	۱۴۹ ، ۱۴۲ ، ۳۰ ، ۲۵ ، ۸ الاوزیک
۲۴ ، ۲۳ ، ۸ بخاری	۲۹۵ ، ۱۷۹ ، ۱۶۳ ، ۱۵۴
۲۳ ، ۳۱ ، ۲۶ ، ۲۵	۴۳۳ ، ۴۱۳ ، ۴۱۰ ، ۳۲۶ -
۹۶ ، ۷۳ ، ۳۷ ، ۳۵	۲۹۶ اوزبک خان
۱۱۰ - ۱۰۵ ، ۱۰۴ ، ۹۷	۱۷۷ اوغرتشالی
۱۷۲ ، ۱۷۱ ، ۱۷۰ ، ۱۴۹	۱۷۹ ، ۱۶۵ ، ۱۶۴ اوکتای
۲۸۳ ، ۲۰۴ ، ۱۸۳ ، ۱۸۰	۱۹۵ ، ۱۹۴ ، ۱۹۱
۴۳۷ ، ۴۲۷ ، ۴۰۹ ، ۳۳۹	۲۰۹ ، ۲۰۸ اولجای ترکان خاتون
۱۰۶ البخاری	۱۶۲ اونغ خان
۲۱۷ ، ۱۶۴ ، ۲۲ بدخشان	۱۲۷ ، ۶۷ ، ۲۴ الاویغور
۳۰۸ بدیع الزمان بیقرا	۱۶۴ ، ۱۶۳ ایدی قوت
۳۱۴ ، ۳۱۳	۴۸۱ ایراموف
۲۶۸ ، ۲۶۵ براق اوغلان	۳۹۰ ایرناق

٥٤	بهرام الخامس	٤٦	برسبوليس
٢٧٧	بهرام سلطان	١٤١	بركيا روق
٢٩٤	بهزاد	٣١٦ ، ٣١٤	برندق
١٨٩	بيدو	٣٧	بروانة
٢٦٢	بیر علی تاز	٢٢٨	بروجرد
٢٦١ ، ٢٦٠ ، ٢٢٦	بیر محمد	٢٤٦ ، ٢٤٧	بروصه
١٦	بیرک	٣٣٩	برهان خان
٤٥٩ ، ٤٤١ ، ١٣	بیرنز ، الکسندر	١٨٨	بسنگا
٤٥٩ ، ٤٣٧	بیروفسکی	١٨٥	بغابوشا
٤٦٢ ، ٤٦١ ، ٤٦٠		١٢٠	بغراخان
٤٢	البیرونی	١٢٨	بغو (بوغو)
١٩٩ ، ١٨٩	بیسو	٨٣	بغی (قائدالمقنع)
١٥٥	بیشبالق	٤٧٤ ، ٤٤٢	بطرسبرج
٤٤ ، ٢٨ ، ٢٦	یکند	٢٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٨	ابن بطوطة
٦١ ، ٥٥ ، ٤٩		٤٨ ، ٤٢ ، ٤١	بکتريا
٥	البیهقی	١٣٢	بکتغدی
		١٢٣	بکتوزن
		٦٤ ، ٢٩	بکر بن وائل
		٤٦١	بلارمبرج
		١٣٤ ، ٤٨ ، ١٧ ، ١٥	بلخ
		٣٤١ ، ٢١٣ ، ١٧٦	
		٤٠٤ ، ٣٦٤ ، ٣٤٨	
		٢٣ ، ٢١	البلخی
		٣٤ ، ٣٣	
		٤٤ ، ٢٤	بناکت
		١٦٧ ، ١٥٥	
		٣٤	بنجشنبه
		٣٩	بندون
		٤٤٧ ، ٤٤٢	بوتنیف
		٤٥٠ ، ٤٤٩	
		٣٤	بودان سلطان
		٦٧	بوذا
		١٩٣ ، ١٩٢	بوراق
		١٩٥ ، ١٩٤	
		٢٧٤ ، ٢٧٣	بورغه سلطان
		٣٠١ ، ٢٩٩	
		١٨٨	بوری
		٢٣	بومخت
		٢٨٩	بهاء الدین النقشبندی
		٤١٦	بهاپور

ت

٤٦٦	تاتارینوف	٤٦١	تاتارینوف
٢٠٦	تاج الدین العالم	١٣٤ ، ٤٨ ، ١٧ ، ١٥	بلخ
٣٢٩ ، ١٨٥	تاراب	٣٤١ ، ٢١٣ ، ١٧٦	
١٢٠ ، ١١٩	تاش	٤٠٤ ، ٣٦٤ ، ٣٤٨	
١٥٣	تاینکو	٢٣ ، ٢١	البلخی
٢١٨	تیاجی	٣٤ ، ٣٣	
٢٢٣ ، ٢٢٢	تختمش	٤٤ ، ٢٤	بناکت
٢٥٦ ، ٢٢٩ ، ٢٢٤		١٦٧ ، ١٥٥	
٣٧٤	ترابی	٣٤	بنجشنبه
٢٤	تراز	٣٩	بندون
١٥٣	ترخان خاتون	٤٤٧ ، ٤٤٢	بوتنیف
٧٤ ، ٣٧	ترکستان	٤٥٠ ، ٤٤٩	
٢٠٢ ، ١٩٢ ، ١٧٩ ، ١٥٤		٣٤	بودان سلطان
٤٦٠ ، ٤٥٩ ، ٤٣٢ ، ٣٠١		٦٧	بوذا
٣٧	ترکمرود	١٩٣ ، ١٩٢	بوراق
١٩٩ ، ١٧٥	ترمذ	١٩٥ ، ١٩٤	
٢٧٧	ترنش ، ف	٢٧٤ ، ٢٧٣	بورغه سلطان
٦	ترنکایزن	٣٠١ ، ٢٩٩	
٤٦٧ ، ٤٦٦	تشرنایف	١٨٨	بوری
٢١١ ، ٢٠٩	تقلق تیمور	٢٣	بومخت
١٢٧	تقماق	٢٨٩	بهاء الدین النقشبندی
١٥١ ، ١٥٠ ، ١٤٩	تکش	٤١٦	بهاپور

٤٧٧	جنو تشيف	٦٥	تميم
١٦٥	حنتمور	٣٠٩	تنبل
٤٣٩	اجمسيديون	٣٨٣	تنكر يردى
٥١ ، ٢٧	جمكت (جمولنت)	٢٦	توائس
٤٦٤		١٣٩	توتوش
١٥٠	جند	٢٠٧	تورغاي
٧٦	جندب	٢٠٧	توزوكات تيمور
١٨٥	جنگ سان نايغو	٢٣٠	توكل خانيم
١٨٥ ، ١٥٥	جنديز خان	٢٢٦	تهيرس
١٨٣ - ١٦٢ ، ١٥٩		١٦٤ ، ٥٠ ، ٢٣	تيان شان
٤٠٦ ، ٢٥٩ ، ٢٤١		١٦٢	تيمورجى
٤٣٩	جوانمرد على بهادر	١٨٤ ، ٢٤ ، ١٠	تيمور لنگ
٦٤ ، ٦٣ ، ١٦٢	جوبى	٢٥٨ ، ٢٥٧ - ٢٠٥ ، ٢٠٢	
١٦٧ ، ١٦٦ ، ١٦٤	جوجى	٤١٦ ، ٤١٢	تيمور شاه الدراني
١٥٤ ، ١٠	الجوينى (عطا ملك)	٤١٩ ، ٤١٧	
١٩٦ ، ١٨٥ ، ١٥٦		٢٢٣ ، ١٦٨ ، ١٦٧	تيمور ملك
٣١ ، ٢٣ ، ٢٢	جهارجوى	٣٣٥	تيكل خان
١٠	جهانكشا		
٣٧٢	جهانكير		
٣١٢ ، ٣١٩	جين صوفى		

ث

٦ ثيفينوت

ح

١٠٧	حاشد الصوفى
١٨٦	حبش عميد
٦٣ ، ٦٢	الحجاج
٧١	حسن بن اياس
١٦٦	حسن حاجى
٢٧٥	حسن على قره قيونلو
٢٧٨ ، ٢٧٥	حسين بيقرى
٢٩٧ ، ٢٩٤ ، ٢٩٣	
٣١٣ ، ٣١١ ، ٣٠٨	
٩٤	حسين بن طاهر
٢١٨	حسين صوفى
٢٨٨	حسين كبرى
٢١٠ ، ٢٠٩ ، ٢٠١	حسين كرت
٢٢٠ ، ٢١٣ ، ٢١٢ ، ٢١١	
٨٣	حسين بن معاذ
٢٢٧	الحشاشون
٨٣	حشرى (قائد المقتنع)
٣١	حصار

ج

٦٤ ، ٤٥ ، ٢٣	جاج (حج)
٣٣٢	جالدران
٣١٦	جان وفا بك
٣٣١ ، ٣١٧	جاني بك
٨٥ ، ٨٤	جبرائيل بن يحيى
٢١١ ، ٢١٠	الجتة
٢٢٠ ، ٢١٧	
٤٥٦	جراكجى
٣١٦	جرجان
٥٠	جستنيان
١٧٩ ، ١٦٥ ، ١٦٤	جفتاي
٢٠٥ ، ١٩٥ ، ١٨٨ ، ١٨٣	
١٣٣ ، ١٣٢ ، ١٢٩	جغر
١٤١ ، ١٣٥ ، ١٣٤	
٢١١	جكجك
١٧٨ ، ١٧٧	جلال الدين خورازمشاه
٤٠٥ ، ٢١٢ ، ٢٠٥	جلاير
٤٦٦	جلوشوفسكى

حمزة الاصفهانى ... ٤٢
حمزة سلطان ... ٣٢٦ ، ٣٠٣
حمزة طاهر ... ٩٣
حمويه ... ١١٤ ، ١١٣
ابن حوفل ... ٢١
حيدر سلطان ... ٣٠٠ ، ٢٩٩

خ

خاتون ... ٥٨ ، ٥٧
خادم بى اتاليك ... ٣٨٨
خالد بن عبد الله ... ٧٥
خانيكه سلطان ... ٣٠٩
خانيكوف ... ٤٤ ، ١٣
خاوندشاه ... ٢٠٣
ختلان ... ٢٢
خجنده ... ٢٥ ، ٢٤
١٨٠ ، ١٦٨ ، ٤٤
خدات ... ٦٧ ، ٣٨
خداداد ... ٢٦٤ ، ٢٦١
خدایار ... ٤٥٧ ، ٤٥٦
خراسان ... ١٣ ، ٨
٧٣ ، ٧٦ ، ٨٨
١٣٢ ، ١٣١ ، ١٣٠
٣٤٧ ، ٣٢٨ ، ١٤٤
خسرو سلطان ... ٣٧٥ ، ٣٤٧
خسرو شاه ... ٣١٧ ، ٢٨٣
الخشاب (يحيى) ... ١٠٧ ، ٩
١١٦ ، ٢٠٠ ، ٢٩٠ ، ٤١٠
خليل ميرزا ... ٢٦١ ، ٢٦٠
٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٨٦
خمارتکين ... ١٣٩
خواجه احرار ... ٢٩٠
خوارزم ... ٤٣ ، ٤٢ ، ٢٣
١٤٧ ، ١٢٩ ، ١٣٥
٢١٨ ، ٣١١ ، ٤٧٤

خير آباد ... ٣٢٩
حيوه ... ١٣١ ، ١٤٧ ، ٣٦٣
٤٠٦ ، ٤٢٢ ، ٤٣٧
٤٣٨ ، ٤٤٦ ، ٤٤١
د
داشکوف ... ٤٧٢
دامغان ... ١٣٣
دانشمنجه اوغلان ... ٢٠٢
دانيال بى ... ٤٠٩ ، ٤٠٧
دبوسى ... ٢٨
دخمه شاهان ... ١٥
درويش محمد ترخان ... ٢٨١
الدقيقى ... ٤٢
دکش ... ٢٨
دلشاد آغا ... ٢١٧
دوست محمد خان ... ٤٥٢ ، ٤٤٢
٤٧٠
دلکشا ... ٢٥١ ، ٢٣١
دندانقان ... ١٣٤
دوا بن بورق ... ١٩٧ ، ١٩٦
ديزابول (دزفول) ... ٢٢٨ ، ٤٩
دى جويه ... ٣١٣
ديزق ... ٤٧٤ ، ٢٤

و

رادلوف ... ٢٣
رافع بن الليث ... ٩٠ ، ٧٣
٩١ ، ٩٣
رافع بن هرثمة ... ١٠٠
رامتن ... ٥٥ ، ٣٨
راولنسون ، هنرى ... ٤٠٥
ربود ... ٢٩
ربيع بن الحارث ... ١٧٢ ، ٥٧
زعيم بى اتاليك ... ٤٠٠ ، ٣٩٦
٤٠١ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧
رحيم بى اونجى ... ٣٧٣
رحيم قلى ... ٤٣٩
رضا قلى خان ... ٣٩٩ ، ٣٩٨
رنجيت سنغ ... ٣٣٩
روما ... ١٣٦ ، ١٣٤
رومانوس ديوجينيس ... ١٣٦
رومانوف ... ٤٧٨ ، ٤٦٠ ، ٤٤٤ ، ٤٤٨ ، ٤٦٩

سلجوق ... ۱۲۷ ، ۱۲۸ ، ۱۲۹	رومانوفسکی ... ۴۶۷ ، ۴۷۴
۱۵۱ ، ۱۴۵	ریغستان ... ۴۳
سلطان نعلی ... ۳۰۳	ز
سلیم الأول ... ۳۳۲	زرادشت ... ۴۲ ، ۵۰ ، ۶۷
سلیمان شاه ... ۱۳۹	زردکرد ... ۵۴
سلیمان الصفوی ... ۳۸۴ ، ۳۹۱	زرفشان ... ۲۴ ، ۲۵ ، ۴۴
سلیمان بن عبد الملك ... ۶۹	زرنوف ... ۱۶۸
۷۴ ، ۷۰	زم ... ۲۳
سمرقند ... ۱۳ ، ۸	زندانی (زندین) ... ۲۶
۳۲ ، ۲۷ ، ۲۶	زنده هشتم ... ۲۱۴
۷۵ ، ۵۹ ، ۳۷	زیاد بن ابی سفیان ... ۵۷
۱۷۴ ، ۱۷۳ ، ۱۴۹	زیاد بن صالح ... ۸۰
۱۸۰ ، ۱۷۹ ، ۱۷۵	س
۲۳۲ ، ۲۳۰ ، ۱۸۳	سامان ... ۹۳
۲۸۲ ، ۲۵۷ ، ۲۵۱	السامانیون ... ۲۱ ، ۷۲ ، ۹۴
۳۰۶ ، ۳۰۵ ، ۳۰۳	۱۵۱ ، ۱۱۰
۳۲۹ ، ۳۱۵ ، ۳۰۷	ساوه ... ۲۳۴
۴۷۶ ، ۴۲۶	سبحانقلی خان ... ۱۴
۳۷۵	۳۸۰ ، ۳۷۸ ، ۳۷۷
سنتوبغا ... ۳۷۵	۳۹۸ - ۳۸۷ ، ۳۸۳
سنجر ... ۴۶ ، ۱۳۹ ، ۱۴۰	سبکتکین ... ۱۲۴ ، ۱۲۱
۱۴۸ ، ۱۴۴ ، ۱۴۲	ستودارت ... ۴۴۶ ، ۴۴۷
سموباش ... ۱۲۷	۴۵۱ ، ۴۴۹
سوبوتای ... ۱۶۴	سجیناکتین ... ۱۶۳
سودای ... ۱۶۴	سربان ... ۲۴
سوریا ... ۴۰۸	سربدار ... ۲۲۵
سوس ... ۴۶	سرتاق ... ۱۶۸
مولدز ... ۲۰۶ ، ۲۱۴ ، ۴۱۶	سریول ... ۳۱۵ ، ۴۷۸
سونتای ... ۱۶۴	سعید حیدر توره ... ۴۲۲
السیث ... ۴۷	سعید الخرشى ... ۸۸
السید برکه ... ۲۱۴ ، ۲۳۶	سفناق ... ۲۴ ، ۱۶۶
سیدراقم ... ۲۱۴ ، ۲۳۶	۳۰۱ ، ۲۶۵
سیرام ... ۲۴ ، ۲۶۴	سعید بن عثمان ... ۵۸ ، ۵۹
سیف الدین برلاس ... ۲۰۲	السکا ... ۴۷
۲۱۹ ، ۲۰۸	سکجلت ... ۳۸
سیمجور ... ۱۱۸	السلجقة ... ۲۴ ، ۲۹ ، ۱۴۵
سیونج خواجه سلطان ... ۳۰۳ ، ۳۱۶	۱۵۱
ش	
شاد ملك ... ۲۶۱ ، ۲۶۲ ، ۲۶۳	
الشاش ، أنظر : جاج	

طغرل ... ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٣
 ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٤٢
 طغشاد ... ٤٠
 طهماسب ... ٣٣٣ ، ٣٣٤
 ٣٤٥ ، ٣٣٥

ظ

ظفرنامه ... ١٠

ع

عامر بن عمران ... ٨٣
 عباس الأكبر ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦
 ٣٦٣ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨

عباس میرزا بن فتح علی

خان ... ٤٣٨
 عباس الثاني الصفوی ... ٣٧٨
 عبد الرحمن جامی ... ٢٨٧
 عبد الصمد ... ٤٣٤ ، ٤٥٢
 عبد العزيز خان ... ٣٣٦
 ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨١
 ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤

عبد الفتاح میرزا ... ٤٨٣
 عبد الله بن جودان ... ٦١
 عبد الله خان ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠
 ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧
 ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٨
 ٣٦٣ ، ٣٩٦ ، ٤٣١

عبد الملك السامانی ... ١١٦ ، ١١٧
 عبد المنعم خان ... ٣٤٨ ، ٣٤٥
 ٣٥٢ ، ٣٧٤

عبد الوصي بيك ... ٣٥٢
 عبید الله خان ... ٣١٥ ، ٣٢٨
 ٣٣٠ ، ٣٣٩ ، ٣٣٣
 ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٥٨

عبيد الله بن زياد ... ٥٧ ، ٥٨
 العراق ... ٨
 عربستان ... ١٤٠
 ابن عربشاه ٢١٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤١
 عز الدين لو ... ٤١٠
 عزت کوتيبر ... ٤٦٣
 عصام الدين بن عربشاه ... ٣٥٦
 عقبة بن مسلم ... ٨٤

شاه بك كوكلتاش ... ٣٦٧
 شاهجهان ... ٣٧٨
 شاهرخ میرزا (التيموری) ٢٦٠
 ٢٦٤

شاهرخ بن نادر شاه ... ٤٥٧
 شاهزمان ... ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٣
 شاهمراد ... ٤٥٧

شاه منصور المظفری ... ٢٢٨
 شبورغان ... ٢٦٢
 شتروفي ... ٤٦٦

شجر ترکی ... ١٣
 شردان ... ٦

شرف الدين (يزدي) ٢٠٧ ، ٢٢٢

شريك بن شيخ المهدي ... ٧٩

شمس الملك ... ١٣٧ ، ١٤٠

شيباني محمد خان ... ١٤ ، ١٥

٢٩٥ - ٣٢٥

شيباني نامه ١١ ، ١٣ ، ٢٨٨

٣٠٢ ، ٣١٠ ، ٣٥٧

شير كشور ... ٣٨

شهاب الدين الغوري ... ١٠٢

شهر سبز ... ٣٩ ، ٣١

٢٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤٥٦

ص

صديق محمد خان ... ٣٨٨

الصفد ... ٢٨ ، ٤٢

٥٩ ، ٦٠ ، ٦٤

الصين ... ١٧٩ ، ١٨٤

ط

طاش كوبريك ... ٤٧٥

طبا ... ١٣٧

طبرستان ... ١١٤ ، ٣٤٧

الطبری ... ٩ ، ٥٥ ، ٧٤

٧٦ ، ٨٧ ، ٩١

طخارستان ... ٢٢٦

طشقند ... ٢٥ ، ٩٤

٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢٦٠

٣٤٧ ، ٣٧٠ ، ٤٣٩

قارشى ... ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١	علاء الدين ترماشيرين ... ٢٠٠
٣٧٨ ، ٢١١ ، ١٧٥	علاء الملك الترمذى ... ١٥٧
قازان ... ٢٠١ ، ٢٠٢	على بن أبى طالب ... ٧٨ ، ١٣٥
قاسم سلطان ... ٣٢٧	٣٦٤
قاسم شيخ عزيزان ... ٣٥٦	على البرضا ... ٣٤٢ ، ٣٤٣
قايدو ... ١٩٢ ، ١٩٥ ، ١٩٧	٣٤٦ ، ٣٧٤ ، ٤١٣
القائم بأمر الله ... ١٣٥	على شيرنوائى ... ٢٥٩ ، ٢٨٥
القبىجاق ... ٢٢٣ ، ٣٤٧ ، ٤٦٤	٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٤٥
قتلى اينانج ... ١٥١	على بن عيسى ... ٩١
قتلى تيمور ... ٣٦٢	على قلى شاملو ... ٣٤٢
قتلى سلطان ... ٣٨٠	على قوشيجى ... ٢٦٧
قتيبة بن مسلم ٤٠ ، ٥٥ ، ٦١	على الهمدانى ... ٢٥٥
-٦٧ ، ٦٣ ، ٦٢	عمر خان ... ٤٢٦
٧٤ ، ٧١	عمر شيخ ميرزا ... ٢٧٧ ، ٢٨٧
قدر خان ... ٢٤ ، ١٢٩	عمر بن عبد العزيز ... ٧٤
قراجه ... ١٦٤ ، ٢٩٩	عمرو بن الليث ... ٩٩ ، ١٠٠
قراقول ... ٣١ ، ٤٤	١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣
٢٨٩ ، ١٥٠	عويس جلاير ... ٢٢٦
قراقورم ... ١٦٣ ، ١٩٠	غ
قراقيونلو ... ٢٣٤	غجديوان ... ٣٣١
القرغيز ... ٢٤	غسان بن عياد ... ٩٣
الفراق ... ٣٦٩	ف
قرعان ... ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧	فاهيان ... ٥٢
القسطنطينية ... ١٣٧	فائق ... ١٢٠ ، ١٢٣
قشتاله ... ٢٤٢	فتح على شاه ... ٤٣٨
قصابان ... ٢٩	فرجاس ... ٢٨ ، ٢٩
قطب الدين محمد	فرخشه ... ٢٦ ، ٣٨
خوارزمشاه ... ١٥٢	فرغانه ... ٢٣ ، ٢٥
١٥٥ ، ١٥٤	٧٧ ، ١٤٩ ، ٣٤١
قل بابا كوكلتاش ... ٣٤٩	فريد الدين العطار ... ٣٨٣
القلموق ... ٢٤ ، ٣٢٩ ، ٣٨١	فريدون بك ... ٣٩٢
قندز ... ٢٣	الفضل بن سهل ... ٩٣
قندهار ... ٣٩٨	فلورس ناسيللى ... ٤٥١ ، ٤٥٢
قنغرات ... ١٦٣ ، ١٧٥	القولجا ... ٥٢
٤٣١ ، ٢١٨	فيجنكو ... ٣٢ ، ٣٣
قوبيلاي ... ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢	فيروز ... ٥٥
قوداتقوبليق ... ١٤٥ ، ٢٨٩	فبتكوفتش ... ٤٤١
قورجوك ... ٢٦٥	ق
قوزى بيكيم ... ٢٩٩	قاجار ... ٤١٠ ، ٤١٤ ، ٤٧٢

لطف الله النيشابوری ... ۲۵۶	قوشیغی حاکم بای ... ۴۲۵
لیلی بن النعمان ... ۱۱۴	۴۲۷ ، ۴۳۴
	قونجوق ... ۱۹۷

م

مازندران ... ۲۲۷
المالقی ... ۱۸۴ ، ۲۰۲ ، ۲۱۰
مالکولم ... ۶ ، ۴۰۹
مامای ... ۲۲۳
المأمون العباسی ... ۹۳
مأمون بن محمد ... ۱۲۲
ماناب ... ۵۰
مانیاک ... ۴۹ ، ۵۰
مایندورف ، فون ... ۴۴۰
مبارک بن هولاکو ... ۱۹۱
مجد الدین البغدادی ... ۱۵۶
مجد الدین الطیب ... ۱۸۸
محمد امین خان ... ۴۳۸
محمد تیمور سلطان ... ۳۱۴
۳۲۷ ، ۳۱۶
محمد جوکی ... ۲۷۳ ، ۲۷۴ ، ۲۹۷
محمد حسن بك ... ۴۵۸
محمد حسین بن بیرم خان ... ۴۱۲
محمد حسین عز الدین لو ... ۴۲
محمد صادق میرزا ... ۱۵
محمد صالح ... ۲۸۸ ، ۳۵۷
محمد علی خان ... ۴۳۵ ، ۴۴۸
محمد قطب الدین ... ۱۹۱ ، ۱۴۸
محمد مقیم خانی ... ۱۴ ، ۱۵
۳۹۵ ، ۳۹۶ ، ۴۳۱
محمد یوسف منشی ... ۱۴
محمد یار سلطان ... ۳۳۷
محمود بی آتالیک ... ۳۸۸
۳۸۹ ، ۳۹۰
محمود الثانی ... ۴۴۲
محمود صانع الغرابیل ... ۱۸۵
۱۸۸
محمود الغزنوی ... ۹ ، ۲۲
۱۲۳ ، ۱۲۹ ، ۱۳۱
محمود یلواج ... ۱۸۴
مخدوم أعظم ... ۳۵۶
مراد بخش ... ۳۷۸

ک

کابل ... ۲۳۱ ، ۴۴۴
۴۴۷ ، ۴۵۰
کاشغر ... ۷۷ ، ۱۲۳
۱۲۵ ، ۱۵۵
کاوفمان ... ۴۷۵ ، ۴۷۶
۴۷۹ ، ۴۸۲
کای (ج و) ... ۴۴۹ ، ۴۵۰
کته کورغان ... ۳۱ ، ۴۷۷
کجکونجی خان ... ۳۲۸
۳۳۲ ، ۳۵۸
کرا باج ... ۲۷۶
کرخان ... ۱۴۳
۱۴۷ ، ۱۵۲ ، ۱۵۳
۱۵۴ ، ۱۵۵ ، ۱۶۴
کرکی ... ۲۳
کرمان ... ۱۳۷
کرمینیه ... ۲۶ ، ۴۵۵ ، ۴۷۸
کرایت ... ۱۶۲
کش ... ۲۳ ، ۲۷
۲۹ ، ۲۰۶ ، ۲۵۰
الکشکوشان ... ۵۲ ، ۵۳
کلافیجو ... ۲۴۸ ، ۲۵۳ ، ۴۵۰
کمال الدین الخجندی ... ۲۵۶
کمال الدین عبد الرازق ... ۱۰
کنغ أوغلان ... ۲۱۸
کوجلوک خان ... ۱۵۵ ، ۱۶۴
کوجوم سلطان ... ۳۰۸
کوروجوک ... ۲۲۹
کوسماس ... ۵۲
کولسینکوف ... ۴۶۶
کوهک ... ۴۴
کینک ... ۱۹۸
کیخسرو ... ۵۱
کیدک ... ۸۳
کیستن قراسلطان ... ۳۴۸

ميرخوند ... ١٥٧ ، ١٦٩ ، ٣٠١	١٩٨
ميمنة ... ٣٠ ، ٣٩٦ ، ٤١٦	١٣١ ، ٧٣ ، ٢٦
ن	٢٧٥ ، ١٨٠ ، ١٣٣
نادر شاه ... ٣٩٦ ، ٣٩٧	٤١١ ، ٤١٠ ، ٣٣٣
٤٠٠ ، ٣٩٩	٩٣
ناسخ التواريخ ... ١١	١٨٥ ، ١٨٤
النايمان ... ١٦٣	١٩٤ ، ١٩٣ ، ١٨٩
نجرى (م) ... ٤٤٠	٢٢ ، ٩
نجم ثاني ... ٣٣٠	١٣٣ ، ١٣٢
نجم الدين كبرى ... ٢٨٨	٦٠
نخشب : أنظر قارشي	٤٥٧ ، ٤٣٦
نخلى ... ٣٧٤	٧٥
الترشخي ... ٥٢ ، ٢٦ ، ١١	٧٥ مسور بن أبي بكر الدرامي
١٤٠ ، ٥٩ ، ٥٥ ، ٥٣	٧٦
نسا ... ١٣١	٤١٦ ، ٣٥٤
نسلرود ... ٤٤٣	٣٩١
نشأت (صادق) ... ٩٠	١٠
نصر بن أحمد الساماني ٩٤ ، ٩٥	٣١٤
٩٨	٨٨ ، ٨٧ ، ٨٦
نصر الثاني الساماني	٤٠٥ ، ١٥
(السعيد) ... ١١٣ ، ١١٥	٤٢١
نصر بن سيار ... ٧٦ ، ٨٨	٤٢٨
٩٤ ، ٩٠	١٣٨
الامير نصر الله ... ٤٢٦	المقنع الخراساني ... ١٣ ، ٤٠
٤٥٥ ، ٤٥٤	٩٠ - ٨٠
نظام الملك ... ١٤	٢٣١
نظر محمد قلى ٣٦٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧	١٣٥
٣٨٠ ، ٣٧٩ ، ٣٧٨	١٤٢ - ١٣٧
نوح بن نصر ... ١١٥	منصور الساماني ... ١١٧ ، ١١٨
نور ... ٢٦ ، ٣٨	المنغيتيون ... ٢٢ ، ٢٧ ، ٤٠٥
١٧٠ ، ١٦٩	٤٧٨ ، ٤٣٧ ، ٤٢٣
نوشتكين غرجه ... ١٤٧ ، ١٣٩	منككو
نويان ... ١٦٥	منك كول
نياز على بك ... ٤٠٩	مورتمان
نيبور ... ٦	موسكو
نیشابور ... ٢٨ ، ١٣٢	٢٢٩ ، ٢٢٣
١٨٠ ، ١٣٧	٣١٦
و	٦٠
وخش ... ٢٢ ، ٣٠	ميان كل
وردانزي ... ٥٥ ، ٦٤ ، ٣٨١	٢٢٥ ، ٢٢٣
ورقة بن نصر ... ٦٢	٢٦٠ ، ٢٥٦ ، ٢٤٧

وكيع بن الأسود ... ٦٥ ، ٧١
 ولي محمد خان ... ٣٦٧
 ولي النعم ... ٤٣٢
 الوليد بن عبد الملك ... ٦٩
 ونديداد ... ٤١
 ووسين ... ١٦
 وولف يوسف ... ٤٥١
 وييبورت ... ٤٥٢

ي

يار محمد ... ٣٦٣ ، ٣٢٩
 ياساول ... ١٩٨ ، ٣٦٣
 الياسا ... ١٨١ ، ٢١٥
 يرجار ... ٤٦٨ ، ٤٧٢
 يزيد بن عبد الملك ... ٧٥ ، ٧٧
 يزيد بن المهلب ... ٧٤
 يعقوب بن الليث ... ٩٤
 يعقوب قوشيجي ... ٤٧١ ، ٤٨٢
 اليعن ... ١٣٨
 ينكي كورغان ... ٤٥٤ ، ٤٧٥
 يوجين ... ١٩٥
 يول ... ١٦ ، ٥٢
 يولبرس ... ٤٠٠
 يونس خان ... ٢٧٨

ه

هارون الرشيد ... ٩٠ ، ٩١
 هاشم بن حكيم (أنظر المقنع)
 هامر ... ٦
 هانزاده ... ٢٤٨
 هجير ... ١٩
 هراة ... ٢٢٦ ، ٢٨٧
 ٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٣١٣
 ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٤٤
 هرثمة ... ٩١
 هزاراسب ... ٣١١ ، ٤٣٧